

فَقِيهًا

الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ

و

فَقِيهًا

النُّصْحَ وَالْإِرْشَادَ

وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ

دراسة استنباطية تشتمل على :

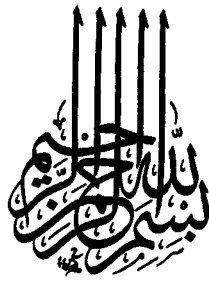
بيان وجوبها ، وأُسرها ، ومنافعها ، وسبلها ، ووسائلها
وأدائها ، ونماذج من تطبيقاتها .

الجزء الأول

عبد الرحمن بن حنكة الميراني

دار الفقه

دمشق



فِقْهِي

الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ

و

فِقْهِي

النُّصْحُ وَالْإِشْرَادُ

وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ

الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

تطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق: ص ٤٥٢٣ - ت: ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت: ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص ١١٣ / ٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عمه طريقه

دار البشير - جدة: ٢١٤٦١ - ص ٢٨٩٥

ت: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بَيْنَ يَدَيْ الْكِتَابِ

الحمد لله رب العالمين الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليُظهِرَهُ
على الدين كله، وأنزل عليه قوله في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠
نزول):

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۚ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ
وَسِرَاجًا مُنِيرًا ۝ ﴾ .

والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على خاتم أنبيائه ورُسُلِهِ مُحَمَّد بن
عبد الله، الذي بلغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حقَّ
جهاده، لتبليغ رسالة ربه، وقام بكلِّ وظائف رسالته على أحسن وجهٍ وأكملِهِ
يُمْكِن أن يقوم به إنسانٌ في حدود طاقاته البشرية، فدعا إلى الله، وإلى صراطه
المستقيم، وعلم الناس ما أنزل إليهم، واتخذ كلَّ وسيلةٍ أُتِيحت له لتزكية من
آمن به واتَّبَعَهُ، واستجاب لما يحييه حياةً سعيدةً طيبةً .

فَتَحَقَّقَتْ مِنْهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ على المؤمنين، برسوله الرؤوف الرحيم، ذي
الخلق العظيم، مُحَمَّد ﷺ، إذ بذل غايةَ جهده واجتهاده لتزكيتهم وتعليمهم
الكتاب والحكمة، كما قال الله تعالى في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩
نزول):

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ،

وَيُرَكِّبُهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٦﴾ .

والسلام على سائر الأنبياء والمرسلين وآلِ كُلِّ وَصْحِبِ كُلِّ أَجْمَعِينَ،
وبعد:

فهذا كتاب استَجَبْتُ في كتابته لطلبِ عدد من أهل العِلْمِ والفضل
والغيرة على قضايا الأمة الإسلامية، إذ رغبوا إليَّ بِالْحَاحِ فِي أَنْ أَكْتُبَ كِتَاباً
جامعاً لِأَسُسِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَالنَّصْحِ وَالْإِرْشَادِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ
الْمُنْكَرِ، وَجَامِعاً لِأَصُولِهَا وَمَنَاهِجِهَا وَوَسَائِلِهَا وَأَدَابِهَا، اسْتِنْبَاطاً مِنْ مَصَادِرِ
الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، فَاجْتَهَدْتُ بِمَعُونَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَفَتْحِهِ وَمَدَدِهِ أَنْ أُشْرِحَ فِيهِ
فِقْهَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَصِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ، وَفِقْهَ التَّضَمُّحِ وَالْإِرْشَادِ وَالْأَمْرِ
بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، بِالتَّأَمُّلِ الْمُبَاشِرِ، فِي دَلَالَاتِ النُّصُوصِ
الْقُرْآنِيَّةِ، وَالْأَحَادِيثِ وَالسِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَتَارِيخِ دُعَاةِ الْمُسْلِمِينَ وَأَعْلَامِ أُمَّتِهِمْ،
مَعَ مِلَاحَظَةِ مَوَازِينِ الْحِكْمَةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالتَّجْرِبِيَّةِ، وَالْقَوَاعِدِ وَالْأَصُولِ الصَّحِيحَةِ
الَّتِي تَوَصَّلَتْ إِلَيْهَا التَّجْرِبَاتُ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَسَأَلْتُ اللَّهَ، وَبَرَّئْتُ إِلَيْهِ مِنْ حَوْلِي
وَقَوْلِي، وَشَرَعْتُ مُتَوَكِّلاً عَلَيْهِ .

وقد عَمَدْتُ إِلَى اسْتِخْرَاجِ الْأَصُولِ الْعَامَةِ، وَالْقَوَاعِدِ وَالْوَصَايَا
وَالْمَنَاهِجِ وَالسُّبُلِ وَالْوَسَائِلِ وَالْأَدَابِ الَّتِي تُسَاعِدُ حَامِلَ الرِّسَالَةِ مِنْ أَتْبَاعِ
مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى أَنْ يَتَعَرَّفَ عَلَى مَا يَنْبَغِي لَهُ اتِّخَاذُهُ فِي آدَاءِ رِسَالَتِهِ، حَتَّى يُؤَدِّيَ
وِظَائِفَهَا آدَاءً رَشِيداً مُفِيداً، مُهْتَدِياً فِيهِ بِهَدْيِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ الْقَوْلِيَّةِ
وَالْعَمَلِيَّةِ، وَمُتَأَسِّياً فِيهِ بِالرَّاشِدِينَ مِنْ دُعَاةِ الْمُسْلِمِينَ فِي التَّارِيخِ، النَّاصِحِينَ
الْمُرْشِدِينَ الْأَمْرِينَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ .

وقد تَبَعْتُ النُّصُوصَ الْقُرْآنِيَّةَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِمَوْضُوعِ هَذَا الْكِتَابِ،
فَجَمَعْتُهَا، وَاسْتَشْهَدْتُ بِهَا فِي مَوَاضِعِهَا، مَعَ نَظَرَاتٍ تَدْرِيبِيَّةٍ مَفْصَلَةً إِلَيْهَا،

أخذت حجماً كبيراً من صفحات الكتاب .

واجتهدتُ أن أكون مستقصياً كلَّ النُّصوص التي وجدتها ذات دلالاتٍ نافعاتٍ في موضوع هذا البحث الواسع، ومُتَّصلاتٍ به، ليكون الاستخراج والاستنباطُ أصحَّ وأشملَ وأكثرَ تكاملاً .

وقد اشتمل هذا الكتاب على خمسة أبواب :

● أما الباب الأول : فقد اشتمل على مقدماتٍ عاماتٍ مُقسَّمتٍ إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : تناول بيان وظيفة الأمة الإسلاميّة في حملها رسالة الرسول محمد ﷺ، في الدعوة إلى الله، وإلى سبيله، وفي التُّصحُّح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

الفصل الثاني : تناول بيان أثر النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في الإصلاح، وحماية المجتمع الإسلاميّ وصيانتَه .

الفصل الثالث : تناول بيان أصناف النَّاس الذين تُوجَّه لهم وظائف الرسالة .

● وأما الباب الثاني : فقد اشتمل على بيان الصفات التي يجب أن يتحلَّى بها حَمَلَةُ الرسالة، وفيه ستة فصول :

الفصل الأول : يتناول بيان وجوب تحلِّي حامل الرسالة بصفة الصَّبْرِ .

الفصل الثاني : يتناول بيان وجوب تجرّد حامل الرسالة عن المصالح الشخصية لدى من يُوجَّه لهم رسالته .

الفصل الثالث : يتناول بيان وجوب تحلِّي حامل الرسالة بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وبتطبيقه لما يدعو إليه من فضائل .

الفصل الرابع: يتناول بيان وجوب تحلّي حامل الرسالة بصفات عباد الرحمن، الذين هم أئمة المتقين.

الفصل الخامس: يتناول بيان الأهلية البيانية لحامل الرسالة.

الفصل السادس: يتناول بيان الأهلية العلمية لحامل الرسالة.

● وأما الباب الثالث: فقد اشتمل على بيان قواعد ووصايا كلية عامة لحملة الرسالة، وبيان طائفة من آفات حملة الرسالة، وفيه فصلان:

الفصل الأول: يتناول بيان القواعد والوصايا الكلية العامة.

الفصل الثاني: يتناول بيان الآفات.

● وأما الباب الرابع: فقد اشتمل على بيان مناهج ومسالك ووسائل الهداية والإصلاح والحماية بالقول والعمل، وفيه سبعة فصول:

الفصل الأول: يتناول بيان التوجيه المباشر والتوجيه غير المباشر.

الفصل الثاني: يتناول بيان العقبات الصادّات للتوجيه، وأساليب معالجتها.

الفصل الثالث: يتناول بيان المنهاج البياني ومسالكه: (الحكمة - والموعظة الحسنة - والجدال بالتي هي أحسن).

الفصل الرابع: يتناول بيان وسائل الأداء البياني.

الفصل الخامس: يتناول بيان أدوات التوصيل الإعلامي، ومسؤولية حملة الرسالة بالنسبة إليها.

الفصل السادس: يتناول بيان المنهج الرباني للسياسة الحكيمة الموجهة للرسول ﷺ ولحملة رسالته من أمته.

الفصل السابع: يتناول بيان المجتمع الإسلامي والمنكرات حمايةً وتغييراً.

● وأما الباب الخامس: فقد اشتمل على استعراض نماذج تطبيقية من هَدْيِ الرُّسُلِ عليهم السلام، ثم من سار على هديهم، وفيه أربعة فصول:
الفصل الأول: صور من سياسة الرُّسُلِ في أدائهم رسالات ربهم.
الفصل الثاني: نماذج دُعَاةٍ من غير الرُّسُلِ عرض القرآن الكريم دعوتهم ونصرتهم لدينه.

الفصل الثالث: نماذج من وصايا الآباء للأبناء.

الفصل الرابع: صورٌ ونماذجٌ عامة.

ومع اهتمامي بالاستخراج والاستنباط المباشرين من نُصُوصِ القرآن والسُنَّةِ القولية والعملية، فَإِنِّي قَدْ نَظَرْتُ فِي كُلِّ مَا وَقَعَ تَحْتَ يَدَيَّ مِنْ كُتُبٍ قَدِيمَةٍ وَحَدِيثَةٍ، أَلَفْتُ فِي مَوْضُوعَاتِ هَذَا الْكِتَابِ، وَأَفَدْتُ مِمَّا وَجَدْتُ فِيهَا مِنْ مُفِيدٍ دَاخِلٍ فِي الشَّجَرَةِ الْفِكْرِيَّةِ الْكَلِمَةِ لِمَوْضُوعَاتِ الْعِلْمِ الَّذِي تُعَالِجُ بَيَانَ عَنَاصِرِهِ وَتَسْرُحُهَا بَحُوثُ هَذَا الْكِتَابِ.

غير أن الخطة العامة الشاملة، التي قصدت أن تشتمل عليها الدراسة الاستنباطية التي تصوّرتُها لهذا العلم، لم أجدها فيما سبق من مؤلفات، ولم أستفدها من كتاب سابق، بل هي ممّا فتح الله به عليّ بمَنِّهِ وجوده وفيض عطائه، وقد كانت تتوارد عليّ توارداً تكاملياً خلال البحث والكتابة، ولم تكن جاهزة عندي منذ البداية.

وأرجو أن أكون قد وُفِّقْتُ فِي هَذِهِ الدَّرَاسَةِ الَّتِي اشْتَمَلَ عَلَيْهَا هَذَا الْكِتَابِ، لِتَأْسِيسِ عِلْمٍ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ تَدْوِينٌ يَشْمَلُ كُلَّ عُنَاوَرِ شَجَرَتِهِ الْفِكْرِيَّةِ، لَكِنِ اشْتَمَلَتْ الْمَكْتُوبَاتُ السَّابِقَاتُ عَلَى مَتَفَرِّقَاتٍ مَتَنَاثِرَاتٍ نَافِعَاتٍ، غَيْرِ مِتْكَامَلَاتٍ فِي نِظَامٍ وَاحِدٍ.

وَأَسْأَلُ اللَّهَ الْعَلِيِّ الْقَدِيرَ الْمَنَّانَ، ذَا الْجُودِ وَالْفَضْلِ وَالْإِحْسَانَ، أَنْ يَنْفَعِ

به المسلمين، وأن يجعله بمثابة بناء تأسيسي قابل للتكميل والإضافة
والتحسين، من قبل الباحثين ذوي الاهتمام المجتهدين في البحث والتنقيب،
ومن قبل الدعاة الناصحين المرشدين الغيورين المجريين، حتى يكون هذا
العلم صرحاً من صروح العلوم الإسلامية الراسخة الرصينة.

وفي ختام هذه المقدمة أهدي جزيل شكري، وعظيم امتناني، إلى من
يُهدي إليّ تَصَوِّباً، أو تَعْدِيلاً، أو إضافةً، أو نُصْحاً.

وَأخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ
اضْطَفَىٰ.

عبد الرحمن حسن جنته المياداني

أستاذ بجامعة أم القرى

في مكة المكرمة

مكة المكرمة في يوم الجمعة

١٨ من شهر محرم لعام ١٤١٦ هجرية

و ١٦/٦/١٩٩٥ ميلادية

البَابُ الْأَوَّلُ

مُقَدِّمَاتٌ عَامَّاتٌ

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الأمة الإسلامية حَمَلَةُ رِسَالَةِ هِدَايَةٍ وَإِصْلَاحٍ:

● بالدعوة إلى الإيمان بالله، وإلى سلوك صراطه المستقيم، بالحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، مع المتابعة بالتذكير إن نفعت الذكرى.

● وبالتنصيح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الفصل الثاني: أثرُ التنصيح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإصلاح وحماية المجتمع الإسلامي وصيانه.

الفصل الثالث: نظرةُ عامَّةٌ إلى أصناف الناس الذين تُوجَّهُ لهم وظائفُ الرسالة.

الفصل الأول

الأمة الإسلامية حملة رسالة هداية وإصلاح

● بالدعوة إلى الإيمان بالله، وإلى سلوك صراطه المستقيم، بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، مع المتابعة بالتذكير إن نفعت الذكرى.

● وبالتُّصْح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفيه ثماني مقولات:

المقولة الأولى: تعريفات عامات.

المقولة الثانية: الدعوة والتبليغ.

المقولة الثالثة: الشهادة يوم الدين على الذين تلقوا البلاغ.

المقولة الرابعة: حكم تبليغ دين الله للناس.

المقولة الخامسة: التذكير والتُّصْح والإرشاد.

المقولة السادسة: وظيفتا الهداية، والإصلاح.

المقولة السابعة: منزلة الدعوة إلى دين الله في سلم الأولويات الجهادية.

المقولة الثامنة: أقسام الدُّعَاة الهداة، والمُصْلِحِينَ الحُمَاة.

المقولة الأولى

تعريفات عامات

للدعوة، والتبليغ، والتذكير، والتُّصْح، والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

١ - الدَّعوة:

الدَّعوة إلى الشيء أو الأمرِ لُغَةً: هي الطلبُ بشدَّةٍ وحثٍّ إلى الاستجابة لما تكون الدعوة إليه، أخذاً أو تركاً، من اعتقاد أو قولٍ أو عملٍ.

ومما ينطبق عليه هذا التعريف اللغوي ما جاء في قول الله عز وجل في

سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ... ﴾

وتكون دعوة القريب بنداءٍ منخفضٍ مُسمِع، وتكون دعوة البعيد حسياً

أو معنوياً بنداءٍ عالٍ وصياحٍ.

وتكون الدَّعوة بالمقال ملفوظاً، وقد تكون بالكلام مكتوباً، وقد تكون

الدَّعوةً بالحال عن طريق عَرْضِ النموذج لتقليده والاقتراء به، وقد تكون

بوسائلٍ مُباشرة وبوسائلٍ غير مباشرة، وقد تكون بوسائلٍ إغرائية أو تحذيرية

مثيرة لدوافع النفوس ورغباتها في الإقبال أو النفور.

وإطلاق عنوان الدعوة على ما يتضمّن معناها بغير الكلام إطلاقاً مجازيًّا على سبيل المجاز المرسل، وهو من إطلاق اللفظ على أيّ دليل آخر يؤدّي معناه.

ومن هذا التعريف العامّ للدعوة نستطيع أن نستخلص تعريفاً منضبطاً للدعوة إلى الإسلام.

فالدعوة إلى الإسلام: هي الطلب بشدّةٍ وحثّ على الدخول في دين الإسلام اعتقاداً وقولاً وعملاً، ظاهراً وباطناً.

وعِلْمُ الدَّعْوَةِ إلى الإسلام: هو العِلْمُ الذي تُعْرَفُ به مناهجُ ومسالكُ ووسائلُ وآدابُ الدَّعْوَةِ إلى الدخول في دين الإسلام اعتقاداً وقولاً وعملاً، ظاهراً وباطناً.

والأصلُّ في الدَّعْوَةِ إلى الإسلام أن تكون لغير المسلمين، وقد تكون لبعض المسلمين حينما يكون حالُهُمْ مثَل حال غير المسلمين.

٢ - التبليغ:

يقال لغةً: بَلَّغَ الرَّجُلُ الشَّيْءَ تَبْلِيغًا إِلَى كَذَا، وَأَبْلَغُهُ إِبْلَاغًا وَإِبْلَاغًا إِلَى كَذَا، إِذَا أَوْصَلَهُ إِلَيْهِ.

وعليه نقول: بَلَّغَ أَوْ أَبْلَغَ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ نُصُوصَ الدِّينِ وَبَيَانَاتِهِ وَتَعْلِيمَاتِهِ أَوْ شَيْئًا مِنْهَا إِلَى النَّاسِ تَبْلِيغًا وَإِبْلَاغًا وَإِبْلَاغًا إِذَا أَوْصَلَهَا إِلَيْهِمْ، قَوْلًا مَسْمُوعًا، أَوْ كَلَامًا مَكْتُوبًا.

فَتَبْلِيغُ نُصُوصِ الدِّينِ وَبَيَانَاتِهِ وَتَعْلِيمَاتِهِ، تَبْلِيغًا يُوصِلُ الْمَعَانِي إِلَى فَهْمِ الْمُتَبَلِّغِينَ فَهْمًا صَحِيحًا وَافِيًا، أَوَّلُ وَاجِبَاتِ حَمَلَةِ رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، وَإِلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ، مَعَ دَعْوَتِهِمْ إِلَى الدخول في دين الإسلام، وَإِشْعَارِهِمْ بِأَنَّهُمْ بَعْدَ الْبَلَاغِ يَحْمِلُونَ هُمْ مَسْئُولِيَّاتِهِمْ تُجَاهَ رَبِّهِمْ، وَعَلَيْهِمْ أَنْ

يتحمّلوا نتائج ما يختارون هُم لأنفسهم من استجابة وطاعة، أو رَفْضٍ ومعصية .

فإذا استجابوا فعَلَيْهِمْ أَنْ يَتَعَلَّمُوا أَحْكَامَ الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعَهُ وَمَطْلُوبَاتِ اللَّهِ مِنْهُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَأَنْ يَضَعُوا أَنْفُسَهُمْ مُسْتَسْلِمِينَ لَوْسَائِلِ التَّرْبِيَةِ وَالتَّأْدِيبِ وَالتَّزْكِيَةِ الَّتِي يُوجِّهُهَا لَهُمُ الدُّعَاةُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ، الْمُؤَهَّلُونَ لِحَمْلِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ الرَّبَّانِيَةِ الْعَظِيمَةِ .

٣ - التذكير:

التذكير هو إعادة ما سَبَقَ تَبْلِيغُهُ وَبَيَانُهُ وَشَرْحُهُ، لِيَذْكُرَهُ مَنْ كَانَ قَدْ تَبَلَّغَهُ حَتَّى مُسْتَوَى الْفَهْمِ الصَّحِيحِ الْوَافِي، بِأَنْ يَجْعَلَهُ حَاضِرًا فِي ذَاكِرَتِهِ، وَيَسْتَخْرِجُهُ مِنْ مَطْوِيَّاتِ نَفْسِهِ، رَجَاءً أَنْ يَنْتَفِعَ بِهِ اعْتِقَادًا، أَوْ قَوْلًا، أَوْ عَمَلًا ظَاهِرًا أَوْ بَاطِنًا.

يُقَالُ لُغَةً: ذَكَرَ الشَّيْءَ ذِكْرًا وَذُكِرَ وَذُكِرَى وَتَذَكَرَ، إِذَا اسْتَحْضَرَهُ فِي ذَاكِرَتِهِ، مِنْ مَحْفُوظَاتِهِ السَّابِقَاتِ، وَاسْتَخْرِجَهُ مِنَ الْمَطْوِيَّاتِ فِي نَفْسِهِ .

فَالذِّكْرُ وَالدُّكْرُ وَالدُّكْرَى وَالتَّذْكَارُ ضِدُّ الطِّيِّ فِي النَّفْسِ بَعِيدًا عَنْ سَاحَةِ الْحَضُورِ الْآنِيِّ فِي الذَّاكِرَةِ، وَضِدُّ النِّسْيَانِ الْكَلْبِيِّ إِهْمَالًا وَتَرْكًَا، أَوْ عَجْزًا عَنْ حِفْظِهِ فِي مَطْوِيَّاتِ النَّفْسِ وَمَحْفُوظَاتِهَا .

وَالتَّذْكَرَةُ: مَا يَحْضُلُ بِهِ تَذْكَرُ الشَّيْءِ، حَتَّى لَا يَطْوِيَهُ أَوْ يَسْتَبْعِدَهُ النِّسْيَانُ عَنِ الْحِفْظِ . وَمِنْ هَذَا أُطْلِقَ عَلَى الْقُرْآنِ وَآيَاتِهِ، وَسَائِرِ النُّصُوصِ الدِّينِيَّةِ الْمَدُونَةِ الْمَطْلُوبِ حِفْظُهَا لَفْظَ «تَذْكَرَةُ» لِأَنَّ تِلَاوَتَهَا وَإِعَادَةَ قِرَاءَتِهَا تُذَكِّرُ بِمَفْهُومَاتِ الدِّينِ وَتَعْلِيمَاتِهِ وَأَحْكَامِهِ وَشَرَائِعِهِ، وَسَائِرِ مَطْلُوبَاتِ اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ .

قال الله عزّ وجل بشأن القرآن في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٤ نزول):

﴿ فَمَالَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ ﴾ (٤٩).

وقال أيضاً بشأنه في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ طه ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذِكْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾ ﴾.

أي: ما أنزلنا عليك القرآن إلا ليكون تذكرةً لمن يخشى.

وقال أيضاً بشأنه في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿ وَإِنَّهُ لَنَذِكْرٌ لِّلْمُنْفِقِينَ ﴾ (٤٨).

لمن يكون التذكير؟:

ويكون التذكير لمن تَبَلَّغَ سابقاً، ممن لم يستجب للإسلام، أو ممن استجاب له، وهو بحاجة إلى استذكار ما عَلِمَ سابقاً من نصوصه وتعليماته وشرائعه وأحكامه ووصاياه.

٤ - التَّضَحُّ:

نُضِحَ الْإِنْسَانُ لِلْإِنْسَانِ بِالْبَيَانِ، أَنْ يَدُلَّهُ عَلَى مَا هُوَ خَيْرَ لَهُ، وَيُرْعَبُهُ فِيهِ، وَيَحْتَهُ عَلَيْهِ، وَيُبَيِّنَ لَهُ مَا يُحِبُّ مِنْ عَاقِبَةِ حَسَنَةٍ، إِذَا أَخَذَ بِمَا نَصَحَهُ بِهِ، وَمَا يَكْرَهُ مِنْ عَاقِبَةِ سَيِّئَةٍ إِذَا لَمْ يَسْتَجِبْ لِنُصْحِهِ، بِشَرَطِ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْبَيَانُ خَالِياً مِنَ الْغِشِّ وَالْخَدِيعَةِ وَالتَّوْرِيظِ فِيمَا لَا خَيْرَ فِيهِ.

فالنصيحة: هي المقالة الهادية إلى خير المنصوح، الخالية الخالصة من دَخَلٍ وَغَشٍّ لَهُ.

وأصلُ التَّضَحُّ الخُلُوصُ مِنَ الشَّوَابِ، يُقَالُ: نَصَحَ الْمَعْدِنُ كَالذَّهَبِ إِذَا خَلَصَ مِنَ الشَّوَابِ الْمُخَالَفَةِ لِجَوْهَرِهِ.

وَتَوَجَّهَ النَّصِيحَةُ لِكُلِّ مَنْ يُدْرِكُهَا وَيُمْكِنُ أَنْ يَنْتَفِعَ بِهَا، وَلَوْ كَانَ كَافِراً رَافِضاً الْإِسْتِجَابَةَ لِلدَّعْوَةِ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، فَالنصيحة تكون لغير

المسلمين، بدعوتهم إلى الدخول في الإسلام، وتكون للمسلمين بحثهم على التزام صراط الله المستقيم، وأداء واجبات الإسلام، واجتناب مُحَرَّماته، والعمل بما رَغِبَ بِفِعْلِهِ، وتَرْكِ الْعَمَلِ بما رَغِبَ بِتَرْكِهِ.

ومن شواهد استعمال النصيحة في هداية غير المسلمين، قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) حكاية لما قال نوح لقومه:

﴿ قَالَ يَنْفُورَ لَيْسَ بِى ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ ۝﴾ .

وكذلك ما جاء فيها بشأن صالح وشُعَيْبِ عليهما السلام.

ولما كانت النصيحة شاملة عامة، جاء في الحديث الصحيح قول الرسول ﷺ: «الدِّينُ النصيحة».

روى مسلمٌ عن تميم بن أوس الداري، أن النبي ﷺ قال:

«الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ».

قُلْنَا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال:

«لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتَهُمْ».

وكان الرسول ﷺ يُبَايِعُ أَصْحَابَهُ عَلَى النَّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ.

روى البخاري ومسلم عن جرير بن عبد الله، قال: «بَايَعْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيْتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنَّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ».

وروى مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا: يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَّلَاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ».

٥ - الإرشاد:

الإرشاد في اللغة: الهداية، يقال لغة: أرشده إلى الأمر إرشاداً، ورشده ترشيداً، أي: هداه إليه.

وإرشاد الضال: هدايته الطريق، وتعريفه به.

الرُّشْدُ والرَّشْدُ والرَّشَادُ: هو السُّلُوكُ الفكري والنفسي والخُلُقِي والعمليُّ الموافق للحق والصواب، أو لما هو الأفضل والأحسن والأكثرُ نفعاً، والأبعدُ عن الضرر.

ويقال لغة: رَشَدَ يَزْشُدُ فهو رَاشِدٌ، وَرَشِدَ يَرِشُدُ رَشْدًا وَرَشَادًا فَهُوَ رَشِيدٌ، إذا اهتدى إلى الحق والصواب، أو لما هو الأحسن والأفضل.

٦ - الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر:

المعروف لغة: هو المَعْلُوم، يقال لغة: عَرَفَ الشَّيْءَ يَعْرِفُهُ مَعْرِفَةً وَعِزْفَانًا، إذا عَلِمَهُ.

ويقال: عَرَفَهُ الأَمْرَ، إذا عَلِمَهُ إِيَّاهُ، وَعَرَفَهُ بَيْتَهُ إذا عَلِمَهُ بِمَكَانِهِ.

فالأَمْرُ المَعْرُوفُ هُوَ الأَمْرُ المَعْلُومُ، وَالمَعْرُوفُ ضِدُّ المُنْكَرِ بمعنى المجهول.

وَيُطْلَقُ المَعْرُوفُ وَالعَرَفُ عَلَى الجُودِ وَالإِحْسَانِ، يَقَالُ: فُلَانٌ صَاحِبُ مَعْرُوفٍ أَوْ عُرْفٍ، أَي: جَوَادٌ مُحْسِنٌ.

وَيُطْلَقُ المَعْرُوفُ لُغَةً عَلَى مَا يُسْتَحْسَنُ مِنَ الأَفْعَالِ.

أما المعروف في الاصطلاح الإسلامي: فهو يُطْلَقُ عَلَى كُلِّ مَا أَمَرَ الشَّارِعَ بِفِعْلِهِ إِزْمَامًا أَوْ تَرْغِييًّا، فَهُوَ كُلُّ مَا يُسْتَحْسَنُ فِعْلُهُ فِي الإِسْلَامِ، وَيَدْخُلُ فِيهَا هُوَ مُسْتَحْسَنٌ فِي الإِسْلَامِ كُلُّ مَا هُوَ حَسَنٌ فِي العُقُولِ السَّلِيمَةِ الصَّحِيحَةِ الرَّشِيدَةِ.

وأما المنكر في الاصطلاح الإسلامي: فهو يُطلق على كُلِّ مَا نَهَى الشَّارِعُ عَنْ فِعْلِهِ نَهْيًا إلزاميًا تحريميًا، فهو كلُّ مُسْتَقْبَحٍ في الإسلام، ويدخُلُ فيما هو مُسْتَقْبَحٌ في الإسلام ما هو قبيحٌ في العقول السليمة الصحيحة الرشيدة.

ولا يدخُلُ في المنكر ما يُسْتَحْسَنُ تَرْكُهُ وَلَا يَنْبَغِي إنكاره، بل يقال فيه: من المعروف تركه، لأنَّ الشارِعَ أمرَ بِتَرْكِهِ ترغيباً لا إلزاماً.

ولا يَعْرِفُ مفرداتِ المعروفِ ومفرداتِ المنكرِ في الاصطلاح الإسلامي إلاَّ مُسْلِمٌ تَعَلَّمَ أَحْكَامَ الإسلامِ وشرائعَهُ، وَعَرَفَ أَنَّهُ مُطَالِبٌ شرعاً بتطبيقها، واتباع ما جاء فيها، فهو الذي يُوجِّه له الأُمُرُ بالمعروف والنهي عن المنكر وفق الاصطلاح الإسلامي.

وعلى هذا فلا يُوجِّه الأُمُرُ بالمعروف والنهي عن المنكر وفق الاصطلاح الإسلامي إلاَّ لمن أسلم، وتعلَّم أَحْكَامَ الإسلامِ وشرائعَهُ، فَعَرَفَ المعروفَ وَعَرَفَ المنكرَ في اصطلاحِهِ.

ويُمْكِنُ توجيهُ الأُمُرِ بِالْعُرْفِ وبالمعروف لغير المسلمين بمعنى الجود والإحسان للناس، وبمعنى ما يُسْتَحْسَنُ من الأَفْعَالِ في أعرافِ الناس بوجهِ عامٍّ، لأنَّ هذه الأمور لا تَخْتَصُّ بمن أسلمَ والتزمَ العملَ بأحكام الإسلام، بل تَعُمُّ الناس جميعاً، ويُدْرِكُهَا الناس جميعاً بمفاهيمِهِمُ العامَّة، بشرط أن يكونَ مَا يُوجِّهُ لَهُ مِمَّا هو مُسْتَحْسَنٌ مَأْمُورٌ بِهِ في الإسلام.

ويُمْكِنُ نَهْيُ غير المسلمين عن المنكر من الأفعال في أعرافِ الناس إذا كان مِمَّا هو قبيحٌ منهيٌّ عنه في الإسلام.

* * *

المقالة الثانية

الدعوة والتبليغ

١ - مرّت البشريّة في مراحل كثيرة مُنذ نشأتها، وكانت تَرْتَقِي قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ في معارجِ الفكرِ والعِلْمِ والخُلُقِ، وفي مُخْتَلِفِ الظواهرِ الحضاريّة، والعلاقاتِ الإنسانيّة الاجتماعيّة السلميّة والحزبيّة، الأسريّة والقبليّة والقومية والشعوبيّة بوجه عامّ، وتتشابك فيها العلاقات الاقتصادية والسياسية والإدارية والحقوقية على اختلاف أجناسها وأنواعها وأصنافها.

٢ - وكان الله عزّ وجلّ يصطفي منهم أنبياءً لوحيه، ويُرسِلُ منهم إليهم رُسُلًا بحسب مقتضى حاجة الأمم والشعوب والأقوام المتباعدة التي ليسَ بيّنها خُطوطُ مواصلاتٍ، وكان يُنزلُ على الرسلِ كتباً ليُبلّغوها مَنْ أُرسلوا إليهم، وليُبلّغُوهم معها رسالاتِ ربّهم الأخرى التي يأمرهم بتبليغها ولو لم يُنزلْ بيّانها في كتّبه، وليقومَ الذين آمنوا بالرُّسلِ بتعلُّمِ ودراسةِ رسالاتِ ربّهم، والمحافظةِ عليها، واتباعِ ما جاء فيها، والعملِ بما أوجب الله عمله، واجتنابِ ما نهى الله عنه نهياً جازماً، ولتكون رسالات الله في ذكرات أهل الذكرِ منهمُ للتذكير بها عند المناسبات الداعيات، فوجود أهل الذكرِ فيهم على مقادير الحاجات من فروض الكفاية.

وكان على الذين آمنوا برُّسُلِ ربّهم أن يُقوموا بدعوة أقوامهم إلى دين

رَبِّهِمْ، وَاتَّبَاعِ رُسُلِهِ، عَلَى مِقْدَارِ مَا يَسْتَطِيعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنْ دَعْوَةِ بَعْلِمٍ وَحِكْمَةٍ، وَمَوْعِظَةٍ حَسَنَةٍ، وَمَجَادَلَةٍ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، أَوْ مَنَاصِرَةٍ وَتَأْيِيدٍ لِلرَّسُولِ، أَوْ لِلدُّعَاةِ مِنْ أُمَّتِهِ.

٣ - وَكَانَ الرُّسُلُ يَخْتَارُونَ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ مَنْ يَرَوْنَهُمْ مُؤَهَّلِينَ لِحَمْلِ الدِّينِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَيَكْلَفُونَهُمُ الْقِيَامَ بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ، مَعَ تَكْلِيفِ جَمِيعِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ بِمَنَاصِرَةِ دِينِ اللَّهِ وَمَنَاصِرَةِ رَسُولِهِ، وَمَنَاصِرَةِ الدُّعَاةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنْ يَدْعُوا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى مِقْدَارِ عِلْمِهِ وَإِمْكَانَاتِهِ.

فَكَانَ مِنْ خَاصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يُوشَعَ بْنِ نُونٍ» وَ«كَالِبُ بْنُ يَفْتَةَ» وَ«الْعَازَارُ الْكَاهَنُ بْنُ هَارُونَ» وَغَيْرِهِمْ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ بَقِيَّةُ السَّبْعِينَ الَّذِينَ اخْتَارَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلِقَاءِ الْاِعْتِذَارِ، فَهَؤُلَاءِ كَانُوا مُؤَهَّلِينَ لِلْقِيَامِ بِالدَّعْوَةِ إِلَى دِينِ اللَّهِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

وَكَانَ مِنْ خَاصَّةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامِ الْخَوَارِثُونَ، ثُمَّ الرُّسُلُ السَّبْعُونَ الَّذِينَ كَلَّفَهُمْ أَنْ يَكُونُوا دُعَاةً إِلَى دِينِ اللَّهِ، وَأَنْ يَنْشُرُوهُ فِي الْأَرْضِ، وَقَدْ فَعَلُوا، وَبِهِمْ انْتَشَرَ دِينُ اللَّهِ فِي مَسَاحَاتٍ وَاسِعَاتٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَفِي أُمَّمٍ كَثِيرَةٍ مَخْتَلِفَةٍ الْأَعْرَاقِ وَالْأَقْوَامِ.

٤ - لَكِنَّ الْأُمَّمَ السَّابِقَةَ لَمْ تَكُنْ بِحَسَبِ أَوْضَاعِهَا الْفِكْرِيَّةِ وَالْحَضَارِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ مُؤَهَّلَةً لِحَفَظِ كِتَابِ اللَّهِ وَحِفْظِ دِينِهِ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّغْيِيرِ، وَلَا أَمِينَةً عَلَيْهِ، وَلَا قَائِمَةً بِنَشْرِ دِينِ اللَّهِ صَافِيًا مِنَ الشَّوَابِ وَالتَّحْرِيفَاتِ وَالمَفَاهِيمِ وَالأَحْكَامِ وَالعِبَادَاتِ الدَّخِيلَةِ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَضْطَفِهَا اللَّهُ لِتَكُونَ وَارثَةً كِتَابِهِ الْخَاتَمِ، وَلَا أَمِينَةً عَلَى نَشْرِ رِسَالَتِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى رُسُلِهِ بِالتَّبَاعِ وَالتَّكَامُلِ حَتَّى دَرَجَةِ التَّمَامِ.

٥ - وَلَمَّا وَصَلَتِ الْبَشَرِيَّةُ إِلَى مَرَحَلَةٍ مِنَ الْاِرْتِقَاءِ الْفِكْرِيِّ وَالْعِلْمِيِّ

والتَّقْسِيّ والحضاري، وإمكاناتِ التّواصلِ بين الشعوب، صالحةٌ لأنّ تتقبَّلَ رسالةَ عامَّةٍ واحدةً، كانَ من حكمةِ الله عزَّ وجلَّ أنْ يصطفي للناسِ جميعاً رسالتهُ الخاتِمةَ، والكتابَ الخاتمَ، والرَّسولَ الخاتمَ، والأُمَّةَ الخاتمةَ.

● فاصطفى الله للناسِ جميعاً الدِّينَ كاملاً تامَّاً، وأتمَّ به نِعْمَتَه على عباده، وجعلهُ الدِّينَ الخاتمَ، وجعل رسالته فيهِ الرِّسالةَ الخاتمةَ.

● واصطفى لهم القرآنَ كتاباً هو آيةٌ أنّه كتاب الله لا كتابٌ من بشر، بما فيه من وجوه إعجازٍ تجعل أولي الألباب يؤمنون بأنّه تنزيل العزيز الحميد، وجعله هو الكتاب الرِّبّاني الخاتم.

● واصطفى مِنَ النَّاسِ لتلقّي الوحي بهذا الدِّين الخاتم محمَّدَ بنَ عبد الله ﷺ من عرب قريش، الذين هم من سلالةِ إسماعيل بن إبراهيم^(١) عليهما السلام من زوجته هاجر المصرية، التي أهداها فرعون مصر إلى زوجته سارة، التي استمرت عقيماً حتى كَبُرَتْ سِنُها، فأهدتها إلى زوجها إبراهيم، فولدت له إسماعيل عليه السلام، وأمره الله بأن يسكنهما في مكَّةَ عند بيته المحرَّم، إذ كانت وادياً غير ذي زرع ولا ماء ولا ساكنين، ثم أصلح الله لإبراهيم زوجته سارة، فولدت له إسحق عليه السلام، وكان من ذريته أنبياءٌ ورُسُلٌ بني إسرائيل.

● واصطفى الله عزَّ وجلَّ لرسوله محمد ﷺ جمهوراً من الصادقين الأبطال المجاهدين الذين آمنوا به واتَّبَعُوهُ مِنْ قومه وَبَعْضِ غَيْرِ قومه، فكانوا أصحابه وأنصاره، فحملوا رسالته عامِلينَ بها، وداعين إليها، وناشرين لها، ومجاهدين في سبيل الله حقَّ جهاده، مُغْلِينَ كلمته، وحافظينَ لكتابه، وسُنَّةَ رَسُولِهِ ﷺ.

(١) إبراهيم عليه السلام عراقي المولد والنشأة، شامي المُهاجر، نائر ذريته في الشام والحجاز وسيناء.

● واصطفى الله عزّ وجلّ لحفظ كتابه وسُنَّةَ رسوله، ولنشر هذا الدين في الناس أجمعين أُمَّةَ الإِجَابَةِ للدَّعْوَةِ الرَّسُولِ الْخَاتِمِ، فأورثَهُمُ الْكِتَابَ، وَحَمَلَهُمْ وَظِيْفَةَ تَبْلِيغِ هَذَا الدِّينِ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وجعل منهم طَائِفَةً ظَاهِرَةً عَلَى الْحَقِّ، تُمَسِّكُ بِالْكِتَابِ، وتدعو إلى هذا الدين بِصِدْقٍ، وهذه الطائفة لا تزال تتجدد وتتوارث حملَ رسالةِ الإسلامِ خلفاً عن سلفٍ حَتَّى انْتِهَاءَ مَدَّةِ امْتِحَانِ النَّاسِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

ونظراً إلى فضل الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَهُدَايَةِ الْخَلْقِ إِلَى الْحَقِّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ خَيْبَرَ فِيمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ - مِنْ حَدِيثٍ طَوِيلٍ -:

«... فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»^(١).

وأُمَّةُ الإِجَابَةِ هَذِهِ هُمْ كُلُّ مَنْ آمَنَ بِهَذَا الدِّينِ الْخَاتِمِ، مِنْ كُلِّ شُعُوبِ الْأَرْضِ، وَيَبْرُزُ مِنْهُمْ مُزْتَفِعًا أُمَّةُ الْمُتَّقِينَ، الْمُوصُوفُونَ بِأَنَّهُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ، فَيَتَسَلَّمُ رَايَةَ الدَّعْوَةِ إِلَى دِينِ اللَّهِ خَلْفًا عَنْ سَلْفٍ، حَتَّى تَنْتَهِيَ ظُرُوفُ امْتِحَانِ النَّاسِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

فَالأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ هِيَ الأُمَّةُ الْوَارِثَةُ لِكِتَابِ اللَّهِ الْخَاتِمِ، وَقَدْ أَدَّتْ وَظِيْفَتَهَا بِحِفْظِهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَبِحِفْظِ سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ.

وقام السابقون بتأدية وظيفة تبليغ الإسلام ونشره في الأرض، مع تقصيراتٍ في بعض القرون، مَسَّهُمْ بِسَبَبِهَا ظُلْمٌ وَعَدْوَانٌ عَلَيْهِمْ مِنَ الأُمَّمِ، وَبَعْضُ ذُلٍّ وَهَوَانٍ.

(١) البخاري: كتاب فضائل الصحابة (٩ باب مناقب علي). مسلم: فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وعلى كل جيل من هذه الأمة أن يقوم بوظيفة تبليغ الإسلام ونشره في الأرض، مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل جماعات المسلمين، لصيانتهم وحمايتهم عن انتشار الفساد فيهم، الذي يقدف بهم في أودية الضلال والغي فالمهالك .

وفيما يلي طائفة من النصوص الكاشفة لعناصر هذه الفقرة الأخيرة :

النص الأول :

قول الله عز وجل في سورة (فاطر/ ٣٥ / مصحف/ ٤٣ / نزول) خطاباً لرسوله بشأن القرآن، قبيحاً لو ارثيه المصطفين من أمة الإجابة :

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٣﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

فالأمة الإسلامية الخاتمة هي الأمة التي اصطفاهما الله عز وجل بحكمته لورائته كتابه الخاتم القرآن، إذ علم تبارك وتعالى أنها مؤهلة لحفظ هذا الكتاب، ونشره في الناس، على الرغم من وجود قسم منهم هو ظالم لنفسه بالمعاصي والمخالفات على اختلاف دركاتها من دون الشرك بالله، وأما القسم الثاني منهم فهو مقتصد يكتفي بحدود التقوى، فلا يترك الفرائض والواجبات، ولا يترك المحرمات، وأما القسم الثالث الذي جعل هذه الأمة بمجموعها أهلاً لهذا الاصطفاء الرباني، فهم السابقون بالخيرات بإذن الله، الذين يتوسعون في مرتبة البر بفعل الصالحات من غير الواجبات، وترك ما دون المحرمات من المكروهات ونحوها، ويتوسعون في مرتبة الإحسان كما وكيفا، فيعبدون الله كأنهم يرونه، ويصبرون ويصابرون، ويجاهدون في الله حق جهاده .

ولما كان قضاء الله بتوريث الأمة المحمدية الكتاب قضاء مبرماً

حَكِيمًا، مستنداً إلى عِلْمِهِ بما ستكون عليه هذه الأمة، حَسَنَ التَّعْبِيرِ عَنْهُ
 بِالْفِعْلِ الْمَاضِي الْمَعْطُوفِ بِحَرْفِ الْعَطْفِ «ثُمَّ» الَّذِي يُشِيرُ إِلَى حَدِيثِ
 سَيَحْضُلُ، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾ مع أَنَّ هذا التورث
 لم يحصل بَعْدُ، لأنَّ رسول الله يومئذٍ ما زال حيًّا يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، ولم
 يَنْزِلْ عَلَيْهِ مِنْهُ إِلَّا بَعْضُهُ، فسورة (فاطر) من أواسط التنزيل المكي، لكنَّ
 قِضَاءَ اللَّهِ السَّابِقَ لَهُ حُكْمُ الْأَمْرِ النَّاظِدِ الَّذِي يَصِحُّ أَنْ يُعَبَّرَ عَنْهُ بِبَلَاغِيًّا بِالْفِعْلِ
 الْمَاضِي، إشارةً إلى أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَتَحَقَّقَ حَتْمًا، فَهُوَ أَمْرٌ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ.

النص الثاني:

لقد عَلِمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ أُمَّةَ الْإِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ من
 مختلف شعوب الأرض، وفي مقدمتهم المؤمنون المسلمون من الأمة
 العربية، هي خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَهَا بِالتَّكْلِيفِ لِلْقِيَامِ بِبَشْرِ رِسَالَتِهِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى دِينِهِ
 الْخَاتِمِ، وَتَبْلِيغِ كِتَابِهِ، وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ، فَحَمَلَهَا وَظِيْفَةَ الدَّعْوَةِ إِلَى دِينِ اللَّهِ،
 وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَثْنَى عَلَيْهَا بِالْأَخْيَرِيَّةِ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ
 السَّابِقَةِ لَهَا، فَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ (آلِ عِمْرَانَ/ ٣ مَصْحَفٍ/ ٨٩ نَزُولٍ) مُخَاطَبًا
 الَّذِينَ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ وَبِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ:

﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ
 هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١١٣) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ
 عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٥﴾ .

فَحَمَلَّ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ وَاجِبَ الدَّعْوَةِ إِلَى الْخَيْرِ، نَظْرًا إِلَى أَنَّ هَذَا الدِّينَ
 قَدْ اشْتَمَلَ عَلَى الْخَيْرِ الَّذِي تُذَرِّكُهُ الْعُقُولُ السَّلِيمَةُ، وَتَشْعُرُ بِهِ النَّفْسُ
 وَالْوَجْدَانَاتُ الَّتِي لَمْ تَفْسُدْ فِطْرَهَا الَّتِي فَطَرَهَا اللَّهُ عَلَيْهَا، وَحَمَلَهَا أَيْضًا وَاجِبَ
 الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ دَاخِلَ جَمَاعَاتِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ عَرَفُوا
 أَوَامِرَ الدِّينِ وَعَرَفُوا حُسْنَهَا، فَهِيَ عِنْدَهُمْ تَنْدَرِجُ تَحْتَ عِنْوَانِ «الْمَعْرُوفِ»

وعرفوا نواهي الدين وعرفوا قُبْحَهَا، فهي عندهم تدرج تحت عنوان «المنكر».

فإذا قام بهذا الواجب فريقٌ مِنْهُمْ كان على سائر المسلمين أن يُظَاهِرُوهُمْ وَيُمِدُّوهُمْ بما يحتاجون إليه إذا احتاجوا مدداً، كشأن سائر فروض الكفاية التي فَرَضَهَا اللهُ على عامَّةِ المسلمين، وإذا لَمْ يَقُمْ بهذا الواجب فريقٌ منهم يكفي لتبليغ الناس دينَ اللهِ، ولِحِمَايَةِ المجتمع الإسلامي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الانحرافِ الخطير، كانوا جميعاً آثمين.

عَلَى أَنْ كُلَّ قَادِرٍ عَلَى الدَّعْوَةِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مَكَلَّفٌ أَنْ يُؤَدِّيَ مِنْ هَذَا الْوَاجِبِ فِي حُدُودِ مَجَالَاتِ عَمَلِهِ بَدَأَ مِنْ أَسْرَتِهِ فَأَصْحَابِهِ فِرَاقٍ عَمَلِهِ فَمَنْ يَتَسَرَّرُ لَهُ أَنْ يَدْعُوهُ إِلَى الدِّينِ، أَوْ يَنْصَحَهُ أَوْ يَأْمُرَهُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ.

النص الثالث:

قول الله عز وجل في سورة (آل عمران) أيضاً بعد بضع آياتٍ من النصِّ السابقِ مخاطباً هذه الأمة ومُثْنِياً عليها:

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ .

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ: أي: أَنْتُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ حُمِّلَتْ وَظِيْفَةُ الْخُرُوجِ لِتَبْلِيغِ النَّاسِ دِينَ اللهِ لَهُمْ، وَهَذِهِ الْأَخِيرِيَّةُ قَدْ عَلِمَهَا اللهُ فَيَكُمُ قَبْلَ أَنْ يُخْرِجَكُمْ لِأَنَّ عِلْمَهُ يَشْمَلُ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ وَمَا سَيَكُونُ، فَأَتَيْنِي عَلَيْكُمْ بِهَا.

أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ: أي: أَمِرْتُ بِالْخُرُوجِ لِلنَّاسِ لِتَبْلِيغِ دِينِ اللهِ.

وسبب بقاء هذه الأَخِيرِيَّةِ فَيَكُمُ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ أَنْكُمْ سَتَظَلُّونَ دَاخِلَ

مجتمعكم الإسلامي تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، فتخمون مجتمعكم بهذا من الانحراف الخطير والانهيار إلى الحضيض الذي بلغتْه الأمم قبلكم، وأنكم ستظلون تؤمنون بالله مهما اشتدت عليكم النكبات من الأمم الأخرى بغية إخراجكم من الإيمان إلى الكفر.

ولو آمن أهل الكتاب من اليهود والنصارى بهذا الدين لكان خيراً لهم، ولدخلوا معكم في هذه الأخيرة، لكن القليل منهم الذين استجابوا لدعوة هذا الدين فآمنوا، أما أكثرهم فلم يؤمنوا إذ منعهم فسقهم من الإيمان حتى لا يلتزموا بشرايع الإسلام وأحكامه، فيمتنعوا عما هم فيه من فسق وعصيان وكبائر فاجرة.

فالأمة الإسلامية مسؤولة عن تبليغ دين الله الخاتم للناس أجمعين، بمختلف وسائل التبليغ الحكيمة المؤثرة، التي أرشد الله إليها في كتابه، أو أبانها الرسول في سنته، أو توصل إليها الناس بتجاربههم وخبراتهم في حقول الدعوة، والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

النص الرابع:

قول الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً لهذه الأمة الإسلامية المحمدية بالنظر إلى مجموعها لا إلى كل فرد منها:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا... ﴾ (١٤٧)

أُمَّةً وَسَطًا: أي: أُمَّة ذات عدالة، وهذه العدالة التي جعلها الله عز وجل لهذه الأمة هي التي جعلتها مؤهلة لتقديم شهادتها يوم الدين، وقبول هذه الشهادة منها.

فالوظيفة الأولى للأمة الإسلامية المحمدية بالنسبة إلى غيرها من

شعوب الأرض هي تبليغ دين الله، على ما أنزله الله وبلغه رسوله، وتعليم كتاب الله وسنة رسوله.

النص الخامس:

روى البخاري ومسلم عن المغيرة أن رسول الله ﷺ قال:

«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ».

وروى مسلم والترمذي وغيرهما عن ثوبان، أن رسول الله ﷺ قال:

«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ».

وروى البخاري ومسلم والإمام أحمد عن معاوية، أن النبي ﷺ قال:

«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ».

هذه الروايات وأشباهها أبانت أن أخيرية هذه الأمة الخاتمة قد اكتسبتها بسبب وجود طائفة منها في كل جيل تكون ظاهرة ظهور بيان ودعوة وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، فتؤدي على مقدار استطاعتها ما أوجب الله على هذه الأمة من تبليغ دينه، ودعوة الناس إليه، وتقوم في داخل جماعات المسلمين بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهذه الطائفة لا يضرها من خالفها أو خذلها فيصرفها عن القيام بهذه الوظيفة العظيمة التي حملها الله الأمة الإسلامية المحمدية.

النص السادس:

جاء في خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع قوله:

«أَلَا فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ فَرَبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ».

فَحَمَلُ الْحَاضِرِينَ وَاجِبُ تَبْلِيغِ الْغَائِبِينَ، وَيُفْهَمُ مِنْ هَذَا تَسَلُّلُ وَظِيْفَةُ التَّبْلِيغِ، فَكُلُّ مَنْ تَبَلَّغَ مِنْ دِينِ اللَّهِ شَيْئاً فَعَلَيْهِ أَنْ يُبَلِّغَهُ.

النص السابع:

رَوَى الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «نَصَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَحَفِظَهَا، وَوَعَاَهَا، وَأَدَاَهَا، فَرَبَّ حَامِلٍ فِيهِ غَيْرُ فِقِيهِ، وَرَبَّ حَامِلٍ فِيهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ...». وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهَ.

فَحَثَّ الرَّسُولُ ﷺ بِهَذَا كُلِّ مُؤْمِنٍ مُسْلِمٍ يَسْمَعُ مِنْ كَلَامِهِ شَيْئاً عَلَى أَنْ يَحْفَظَهُ، وَيَعْبِيَهُ، وَيُؤَدِّيَهُ بِلَاغاً إِلَى غَيْرِهِ، لِيَعْمَ فِي النَّاسِ عِلْمُ هَذَا الدِّينِ.

وَأَبَانَ الرَّسُولُ أَنَّ سَامِعَ الْقَوْلِ قَدْ لَا يَكُونُ قَادِراً عَلَى أَنْ يَفْقَهُ مَعْنَاهُ فِقْهاً عَمِيقاً، فَإِذَا بَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ فَقَدْ يَتَلَقَّاهُ مِنْهُ مَنْ هُوَ أَفْذَرُّ عَلَى فَهْمِهِ فَهْماً عَمِيقاً وَاسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ مِنْهُ.

النص الثامن:

وَرَوَى مُسْلِمٌ وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْآثَامِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً»^(١).

فَأَبَانَ هَذَا الْحَدِيثُ فَضَّلَ مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، وَأَنَّهُ يُكْتَبُ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَظَاهِرٌ أَنَّهُ يَدْخُلُ فِيْمَنْ تَبِعَهُ مِنْ اسْتِفَادٍ مِنْ دَعْوَتِهِ لَوْ بَعْدَ وَفَاتِهِ إِلَى آخِرِ حَيَاةِ النَّاسِ فِي الْأَرْضِ.

وَيَشْهَدُ لِهَذَا الْمَعْنَى مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ الْمَفْرُودِ وَمُسْلِمٌ عَنْ

أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

(١) مسلم: «كتاب العلم - باب من سنَّ سنة حسنة أو سيئة... دعا إلى هدى».

«إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ»^(١).

والعلم الذي يُنتَفَعُ به يَدْخُلُ في عموم الدعوة إلى هدى، والمدون المقروء منه الذي تتوارثه الأجيال بالانتفاع به أكثر دواماً، وأبقى بين الناس، ولا سيما طلاب العلم الذين يقرؤون الكتب الإسلامية الداعية إلى هدى.

النص التاسع:

ولما كانت وظيفة الدعوة إلى الله والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تدخل ضمن المسؤولية الفردية تجاه الآخرين، كانت هذه الوظيفة داخلة في عموم الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال:

«كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ».

* * *

(١) انظر «صحيح الجامع الصغير وزياداته» ح ٧٩٣.

المقولة الثالثة

الشهادة يوم الدين على الذين تلقوا البلاغ

إن وظيفة التبليغ تستلزم شهادة المبلِّغ يوم الدين على مَنْ تلقَّوا بلاغَهُ، بكلِّ ما بلَّغهم إياه من الدين، ولم يستجيبوا له، ويكون ذلك حين يُخضِرُ الله الناسَ يوم الدين ليحاسبهم ويقضي لهم أو عليهم بما قدّموا في الحياة الدنيا حياة الابتلاء، من إيمانٍ أو كفر، أو عمل صالحٍ أو عمل سيِّئٍ، وبما أحرَّروا فلم يعملوا من واجبات.

ومن حكمة الله عزّ وجلّ أنّه جعلَ محكمة العدل التي يُقيّمها لعباده يومَ الدِّين مستجمعةً كلّ الشروط التي تقتضيها محاكم العدل بين العباد.

ومن هذه الشروط سؤال من يُخضِرُ لمحكمة العدل الربّانية، وتسليمه كتاب أعماله التي عملها في الحياة الدنيا مطابقةً تامّةً لما كان منه، وعرضُ صحفِ كتابِ أعمالِهِ عليه، وإشهادُ الشهودِ عليه من الملائكة الذين كانوا يرصدون أعمال العباد ويدوّنونها، وإشهادُ جوارح الإنسان عليه إذا جحد ما نُسبَ إليه بلسانه المعبّر عمّا يريد التعبير عنه.

فإذا ادّعى أنّه لم يتلقَ بلاغاً عن الله بما هو مطلوبٌ منه في الحياة الدنيا إيماناً وعملاً أخضَرَ الله الذين تلقَّوْا عنهم البلاغَ فشهدوا عليه بأنهم بلَّغوه، وفي مقدّمة هؤلاء الشهودِ المرسلون والنبيّون الذين بلَّغوا أقوامهم ما أنزل الله

عَزَّ وَجَلَّ وَأَمَرَ بِتَبْلِيغِهِ، وَيَأْتِي بَعْدَهُمُ الدَّعَاةُ إِلَى دِينِ اللَّهِ، الَّذِينَ بَلَّغُوا أَقْوَامَهُمْ
عَنِ الرُّسُلِ مَا تَلَقَّوهُ مِنْهُمْ، مِنْ كِتَابٍ مُنَزَّلٍ أَوْ سُنَّةٍ مَبِينَةٍ لِشَرَائِعِ اللَّهِ وَأَحْكَامِهِ
ووصاياه .

ويأتي في خاتمة الأمم الرسول محمد ﷺ، فيشهدُ على من عاصره
وسَمِعَ منه، بأنه قد بَلَّغَهُمْ ما أَمَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِتَبْلِيغِهِ لِلنَّاسِ .

ويأتي الدُّعَاةُ مِنْ أُمَّةِ الرَّسُولِ الْخَاتِمِ فيشهدونَ على النَّاسِ بما بَلَّغُوهُمُ
مِنْ دِينِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى خَاتَمِ رُسُلِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فِي حُدُودِ مَا بَلَّغُوهُمُ
منه .

وبيان هذه الشهادة في النصوص القرآنية يستلزم أنهم مُكَلَّفُونَ أَنْ
يُبَلِّغُوا، فَإِذَا لَمْ يَفْعَلُوا كَانُوا غَيْرِ قَائِمِينَ بِمَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ تَبْلِيغِ،
وَيَكُونُ لِلَّذِينَ لَمْ يَتَبَلَّغُوا دِينَ اللَّهِ مِنْ مَخْتَلِفِ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ بَعْدَ بَعْتِ
مُحَمَّدٍ ﷺ عُدْرٌ بَأَنَّ أَتْبَاعَهُ لَمْ يُبَلِّغُوهُمُ، وَحِينَئِذٍ يُحَاسِبُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
الْمَقْصِرِينَ بِوَأَجِبِ الْبَلَاغِ .

ومن أجل تحقيق هذا البلاغ شرع الله عز وجلَّ الجهاد في سبيله، بدءاً
من جهاد إصلاح النفس، فالدَّعْوَةُ اللَّسَانِيَّةُ حِينَما تَتَيَسَّرُ هذه الدعوة، فبذل
المالِ والنفسِ في خدمة الدَّعْوَةِ اللَّسَانِيَّةِ، فَعَرَضِ الدَّعْوَةِ الدِّيْنِيَّةِ عَلَى حُكَّامِ
الْأُمَّمِ وَالشُّعُوبِ وَذَوِي سُلْطَانِهَا بِالتَّدْرِجِ الْحَكِيمِ، فمواجهتهم بهذه الدعوة
مدعومةً بالقوة القتالية المسلحة بالأسلحة العسكـرية، فالقتال الفعلي عند
استيفاء شروطه إذا لم تحضل الاستجابة للدَّعْوَةِ، ويشارك في هذا الجهاد كُلُّ
مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ بما يستطيع مما يلائم فِطْرَتَهُ مِنْ مُسَارَكَةِ النَّفْسِ أَوْ بِالْمَالِ، أَوْ
بِالْعِلْمِ وَالرَّأْيِ وَالْفِكْرِ وَالْخِطِّطِ، وَأَدْنَاهَا الْمَشَارَكَةُ بِالدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ وَالْمَشَاعِرِ
النَّفْسِيَّةِ .

والغرض الأعظم من الجهاد بالقتال إزاحة العقبات البشرية من طريق

الدعوة إلى دين الله وتبليغ رسالة الإسلام للناس، وتأمين توصيل الدعوة الإسلامية إلى جماهير الشعوب التي حجبها حكامها وذوو السلطان فيها عن أن تتلقى بلاغ دين الله للناس أجمعين.

فجهاذ التبليغ أول درجات الجهاد في سبيل الله بعد جهاد النفس وتقويمها، وإلزامها بأحكام الإسلام.

إن واجب التبليغ لا يتحقق في الواقع الإنساني إلا بالجهاد، وهو بذل غاية الجهد ضمن حدود الاستطاعة والصبر، وبه يتحمل المجاهد المبلغ لدين الله متاعب جسدية ونفسية، وبعض مشقات وأذى من الذين يدعوهم، موجهاً لهم دعوته التبليغية بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.

فإذا أراد المجاهد أن يكون من الأبرار فالمحسنين في جهاده، لاغتنام مراتب رفيعة في الجنة حتى منازل الفردوس، ضاعف جهاده وصبره، وضحى بماله ونفسه ومحابه من الحياة الدنيا، وربما ضحى بحياته كلها في سبيل تبليغ دين الله للناس.

لكن الأمر الواجب هو القيام بالتبليغ ضمن حدود الاستطاعة، فهذا هو الذي تأمر به أوامر التقوى، كقول الله تعالى في سورة (التغابن/ ٦٤ مصحف/ ١٠٨ نزول):

﴿ فَأَنْقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ... ﴾

أما أوامر البر والإحسان فتندب إلى أكثر من ذلك.

وإن اجتناب الأمة المحمدية من كل الشعوب والأقوام على اختلاف ألوانهم وصورهم ولغاتهم، واصطفاءها وجعلها أمة وسطاً عدولاً، تفضيل من الله يوجب عليها أن تجاهد في سبيل الله بالقيام بتبليغ دينه الذي ورثته عن الرسول محمد ﷺ، ويتحقق هذا الواجب بإيصال بلاغات هذا الدين إلى

الناس أجمعين، بالوسائل الحكيمة التي تقتضيها ظروف الحياة الإنسانيّة المتطورة.

هذه المفاهيم قد دلت عليها نصوصٌ متعدّدة من القرآن ومن السنة.

● فمن القرآن المجيد النصوص التالية:

النص الأول:

قول الله عزّ وجل في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) خطاباً

لرسول الله ﷺ:

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾.

أي: ويوم نبعث من كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم، وهو الرسول الذي أُرسل إليهم منهم نَسَباً ولُغَةً، أو منهم لُغَةً أو انتماءً أو نحو ذلك ممّا يُهَيِّئُ لَهُ تَبْلِيغاً مُنَاسِباً لِدِينِ اللَّهِ.

وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ: أي: وجئنا بك يا مُحَمَّدُ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَبَلَّغُهُمْ دِينَ اللَّهِ الَّذِي يُنَزِّلُهُ عَلَيْكَ.

وأشارت الآية إلى شمول هذه الرسالة الربّانيّة التي بعث الله بها محمداً ﷺ، واشتمالها على تبيان كلّ شيء يحسن أن تشتمل عليه رسالة عامّة للناس أجمعين، وخاتمة لرسالات الله للناس، وفيها هدى ورحمة وبُشْرَى لكلّ المسلمين الذين يؤمنون بالله ورسوله وكتابه، ويُغْلِنُونَ اسْتِسْلَامَهُمْ لشرائع هذا الدين وأحكامه وتكاليفه ووصاياه، فقال الله عزّ وجلّ فيها خطاباً لرسوله:

﴿ .. وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى

لِلْمُسْلِمِينَ ﴾.

فكون القرآن مشتملاً على تبيين كل شيء من مسائل أصول الدين الذي اصطفاه الله للناس، وعلى الآيات التي فيها هدى عظيم دلالة وإقناعاً، وفيها رحمة ويشرى لكل المسلمين، من كل الأمم والشعوب، هو بمثابة التمهيد لإعلان أنه الدين الخاتم الذي قضى الله أن يختم به رسالاته للناس أجمعين.

النص الثاني:

وخاطب الله عز وجل أمة محمد ﷺ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بقوله تعالى لهم:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا... ﴾ (١١٣)

أمة وسطا: أي: أمة عدولاً في الدعوة إلى سبيل ربكم، وفي الشهادة على الناس يوم الدين.

وتشير عبارة: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ خطاباً لأمة محمد ﷺ، إلى ما جاء في الآية (١١٩) السابقة في سورة (البقرة) التي يخاطب الله فيها رسوله بقوله:

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا... ﴾ (١١٩)

أي: وكذلك الإرسال الذي أرسلنا رسولكم به بشيراً للناس ونذيراً، جعلناكم يا من اتبعتم محمداً مؤمنين صادقين مسلمين قائمين بما فرض الله عليكم أمة عدولاً لتكونوا حاملي رسالة رسولكم كما بلغكم إياها، مبشرين ومُنذرين، ولتكونوا شهداء على الناس يوم الدين، بأنكم قد أدتُم الرسالة وبلغتم الأمانة، وليكون الرسول على من بلغه منكم شهيداً.

وتتسلسل حلقات التبليغ، وحلقات الشهادة على المبلغين من الأمم

وَالشُّعُوبِ وَأَجْيَالِهِمْ، زَمَنًا بَعْدَ زَمَنٍ، حَتَّى تَنْتَهِيَ مُدَّةُ امْتِحَانِ النَّاسِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

النص الثالث:

قول الله عز وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) خطاباً لرسوله محمد ﷺ بعد بيان أنه سبحانه لا يظلم مثقال ذرة:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ۗ ﴾

فدلّت هذه الآية على أن رسول كل أمة سلف في تاريخ البشرية يكون هو الشهيد عليها بأنه قد بلغها ما أمر الله بتبليغهم إيّاه، وأن الرسول محمداً ﷺ يكون شهيداً على الذين بلغهم من الذين عاصروه.

ويفهم من هذا أن المبلّغين من أتباع الرُّسُل يكونون يوم الدين شهداء على من بلغوهم من الناس.

النص الرابع:

قول الله عز وجل في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول) خطاباً لأمة محمد ﷺ:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۗ ﴾ ﴿٧٦﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ بَلَّةَ أَيْكُمْ إِذْ رَاهِمُ هُوَ سَمَنَكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ۗ ﴾ ﴿٧٧﴾

لقد أبان هذا النص ما يجب على الذين آمنوا بمحمد ﷺ وبما أنزل الله عليه في سلوكهم الخاص فقال الله عز وجل لهم:

﴿ .. ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ ۗ ﴾

وبعد هذا التكليف حمَلَهُمْ وظيفة الجهاد في سبيل الله بصِدْقٍ، لتبليغ دين الله الذي بَلَّغَهُمْ إِيَّاهُ الرسول ﷺ، فقال تعالى لهم:

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾.

حَقَّ جِهَادِهِ: أي: الجهاد الحق في سبيله، والمعنى: وجاهدوا في سبيل الله بتبليغ دينه للناس الجهادَ الحق، الذي لا نفاق فيه، ولا رياء، ولا تقصير.

وبعد ذلك أبان الله لهم أَنَّهُ تبارك وتعالى قد اجْتَبَاهُمْ، أي: اصْطَفَاهُمْ واختارهم من دون سائر الأمم السابقة لحمل الرسالة الخاتمة، وتبليغها للناس أجمعين، كما تَبَلَّغُوها من الرسول ﷺ، فقال تعالى مخاطباً لهم:

﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾.

وَإِذِ اجْتَبَاهُمُ اللهُ وَحَمَّلَهُمْ وظيفَةَ تبليغِ الدِّينِ الخاتمِ للناسِ أجمعين، وَجَعَلَهُ جزءاً من تكاليفِ الدِّينِ الَّتِي كَلَّفَهُمْ إِيَّاهَا، فَإِنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ عَلَيْهِمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ، وَإِذْ كَانَ التَّبْلِيغُ جزءاً من هذا الدِّينِ فَإِنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ عَلَيْهِمْ مِنْ حَرَجٍ فِي هذا التَّبْلِيغِ، فَلَمْ يَحْمَلْهُمْ مَسْئُولِيَّةَ تحوِيلِ الناسِ مِنَ الكُفْرِ إِلَى الإِيمَانِ، وَلَا مِنَ العَصِيَانِ إِلَى الطَّاعَةِ، وَلَكِنْ عَلَيْهِمْ أَنْ يُبَلِّغُوا وَيُعَلِّمُوا وينصَحُوا للناسِ، وَلَمْ يَجْعَلْ عَلَيْهِمْ أَيْضاً مِنْ حَرَجٍ فِي أَنْ يَتَحَمَّلُوا فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ التَّبْلِيغِيَّةِ مَا لَا يُطِيقُونَ، أَوْ أَنْ يُدْخِلُوا أَنْفُسَهُمْ فِي مَضَائِقِ شَاقَّةٍ عَلَيْهِمْ، مِنْ أَجْلِ دَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى دِينِ اللهِ، لَكِنَّ هَذَا لَا يَقْتَضِي مَنَعَ مَنْ شَاءَ مِنَ الدَّعَاةِ أَنْ يَتَوَسَّعَ فِي أَعْمَالِ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ بِالمجاهدةِ الشَّاقَّةِ الَّتِي قَدْ يَكُونُ فِيهَا تَضْحِيَةٌ بِالأموالِ أَوْ بِالأَنْفُسِ، إِذَا كَانَتْ هَذِهِ التَّضْحِيَّةُ تَخْدُمُ قَضِيَّةَ انْتِشَارِ الدَّعْوَةِ وَتَبْلِيغِهَا لِلنَّاسِ.

هذا التوسُّع في أعمال البرِّ والإحسان في سبيل الدعوة إلى دين الله ليسَ

واجباً، بل هو تطوُّعٌ قد يختاره لنفسه بعضُ المجاهدين، فلا يُمنَعُ منه إذا تَرَجَّحَ أنه مما يخدم قضيَّةَ الدَّعوةِ، ولا يُؤثِّرُ عليها تأثيراً سلبياً.

وهذا البيان المتعلِّقُ بدعوة الدعاة من المؤمنين، نَجَدُهُ مفصَّلاً تفصيلاً واسعاً في البيانات التي خاطب الله بها رسوله محمداً ﷺ، إذ لم يكلفه الله عز وجل إلا التبليغَ، فلمَ يحمله مسؤوليَّةُ تحويل من بلَّغَهُم من الكفر أو النفاق إلى الإيمان، وطلَّبَ منه أن لا يُشَقِّي نفسه من أجلهم، وأن لا يكون في صدره حرجٌ ممَّا أنزل إليه، فحدودُ البلاغ هي وظيفة جميع المرسلين وسائر الدعاة إلى سبيل ربهم، فقال الله عز وجل لرسوله محمداً ﷺ في سورة (الشورى/ ٤٢/ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِلَّا أَلْبَلَعُ... ﴾

أي: فإن أَعْرَضُوا فلم يستجيبوا لدعوتك فدعهم وإعراضهم، فما أَرْسَلْنَاكَ عليهم حفيظاً، مكلفاً أن تحفظهم فتكرههم على الإيمان والإسلام والطاعة، كما يُكَلِّفُ راعي الغنم أن يحفظ غنمه فيحميها من الذئاب والمُهْلِكَات، لأنهم مطالبون بأن يؤمنوا ويُسلموا ويطيعوا عن طريق اختيارهم الحرِّ، لا بالإكراه والإجبار القسريِّ.

إِنْ عَلَيكَ إِلَّا الْبَلَاغُ: أي: ما يجب عليك بالنسبة إلى دعوتهم إلى سبيل ربك إلا أن تبلِّغَهُم ما تُؤمَرُ بتبليغه.

وقال الله عز وجل في سورة (النحل/ ١٦/ مصحف/ ٧٠ نزول) بشأن جميع الرُّسل:

﴿ .. فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾

أي: فما عَلَيْهِم إلا البلاغُ المبيِّنُ الواضحُ الذي يعرفُ به المدعُؤونَ قضايا دين الله لهم.

وقال فيها أيضاً خطاباً لرسوله بشأن الذين يَتَوَلَّوْنَ عَنْ دَعْوَتِهِ أَي: يُدْبِرُونَ وَيَنْصِرُونَ، ولا يقتصرون على مُجَرِّدِ الإِعْرَاضِ:

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمَمِينُ ﴾ (٨٧)

وأكد الله عز وجل هذا البيان في مناسبات ودواعي مختلفات:

في الآية (١٨) من سورة (العنكبوت/ ٢٩/ مصحف/ ٨٥/ نزول) وفي الآية (٢٠) من سورة (آل عمران/ ٣/ مصحف/ ٩٢/ نزول) وفي الآية (٤٠) من سورة (الرعد/ ١٣/ مصحف/ ٩٦/ نزول) وفي الآية (٥٤) من سورة (النور/ ٢٤/ مصحف/ ١٠٢/ نزول) وفي الآية (١٢) من سورة (التغابن/ ٦٤/ مصحف ١٠٨/ نزول) وفي الآية (٩٢) من سورة (المائدة/ ٥/ مصحف/ ١١٢/ نزول).

وقال الله عز وجل خطاباً لرسوله في سورة (فاطر/ ٣٥/ مصحف/ ٤٣/ نزول):

﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (٨)

وقال تعالى أيضاً في سورة (طه/ ٢٠/ مصحف/ ٤٥/ نزول):

﴿ طه ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذِيرًا لِمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾

فنهى الله رسوله نهى إزْشَادٍ وَوَصِيَّةٍ وَنُصْحٍ أَنْ لَا يَشْتَدَّ حُزْنُهُ عَلَى الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لدَعْوَتِهِ مِنْ قَوْمِهِ، وَهُوَ شَدِيدُ الْحَرْصِ عَلَى نَجَاتِهِمْ مِنَ النَّارِ بِالْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَالطَّاعَةِ، فَالْحُزْنَ الشَّدِيدُ مِنْ أَجْلِهِمْ قَدْ يُؤَثِّرُ عَلَى جَسَدِهِ وَنَفْسِهِ، فَتَذْهَبُ نَفْسُهُ عَلَيْهِمْ ذَهَابَ حَسْرَاتٍ مِنْ تَلَهُّفٍ وَأَحْزَانٍ وَكُرُوبٍ.

وأبان له في سورة (طه) أَنَّهُ مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ لِشِقَايَ بِلَاغِهِ لِقَوْمِهِ، بِتَحْمُلِ مَا لَا يُطِيقُ مِنْ كَدٍّ وَمُجَاهَدَةٍ وَحُزْنٍ وَكُزْبٍ، بَلْ لِيُبَلِّغَهُ، وَلِيَذَكَّرَ بِهِ مَنْ يَخْشَى اللَّهَ وَعَذَابَهُ يَوْمَ الدِّينِ.

ونعود بعد هذا إلى استكمال النظرات في فقرات النصّ الرابع الذي من سورة (الحج) فبعد أن قال الله عزّ وجلّ لَأُمَّةٌ مَّحَمَّدٍ فِيهِ :

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ...﴾ (٧٨)

أَبَانَ لَهُمْ أَنَّ هَذَا الدِّينَ هُوَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِي هَذَا تَذْكَيرٍ لَهُمْ بِجِهَادِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي دَعْوَتِهِ قَوْمَهُ إِلَى دِينِ اللَّهِ، وَمُجَادَلَتِهِ لَهُمْ، وَتَكْسِيرِهِ أَصْنَامَهُمْ، وَإِقَامَتِهِ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ، حَتَّى وَصَلَ بِهِ الْأَمْرَ إِلَى أَنْ اشْتَدَّ غَضَبُ مَلِكِ قَوْمِهِ عَلَيْهِ الثُّمُرُودُ، فَأَمَرَ بِإِيقَادِ نَارٍ عَظِيمَةٍ وَقَذَفَهُ فِيهَا، لِيَذُوقَ عَذَابَ مَخَالَفَتِهِ دِينَ قَوْمِهِ وَدِينَ مَلِكِهِمْ، وَقَدْ فَعَلَ وَاتَّخَذَ كُلَّ سَبَابِهِ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَنْقَذَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ نَارِهِمْ، بِآيَةٍ عَظِيمَةٍ، إِذْ قَالَ لِلنَّارِ: كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ، فَكَانَتْ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيْهِ فَقَطَّ مَعَ أَنَّهَا كَانَتْ تُحْرِقُ كُلَّ مَا تَمَسَّهُ .

وَأَبَانَ لَهُمْ أَيْضًا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ بَشَّرَ بِرَسُولِهِمُ الْخَاتَمِ، وَسَمَى مِنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ الْمُسْلِمِينَ، فَاسْمُهُمُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ قَبْلِ وَجُودِ رَسُولِهِمُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَبِعَثْتِهِ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، إِذْ أَعْلَمَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ، فَكَلَّمَ مِنْ الْبَشَارَةِ وَالتَّسْمِيَةِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ تَعَالَى :

﴿قِيلَ آيِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ .

وبعد ذلك أَبَانَ اللَّهُ لَهُمْ أَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ سَمَّاهُمْ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الدِّينِ الْخَاتَمِ، وَالْمُسْلِمُونَ هُمُ الْمُسْتَسْلِمُونَ السَّامِعُونَ الْمُطِيعُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمِنْ عُنَاوَرِ هَذِهِ الطَّاعَةِ الْقِيَامُ بِوَأَجِبِ تَبْلِيغِ دِينِ اللَّهِ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَيَقَعُ عَلَيَّ كُلِّ مُسْلِمٍ مِنْ هَذَا الْوَأَجِبِ بِمُقَدَّارِ مَوْقِعِهِ وَإِمْكَانَاتِهِ وَاسْتِطَاعَتِهِ فِي الْمَجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ، بَدَأَ مِنْ أُسْرَتِهِ، ثُمَّ تَوَسَّعَ فِي دَوَائِرِ حَرَكَةِ حَيَاتِهِ، فَقَالَ تَعَالَى :

﴿وَفِي هَذَا﴾ .

أي: وفي هذا الدين أنتم المسلمون .

وبعد هذا التكليف بالتبليغ، وقيام المسلمين بواجب البلاغ على الوجه المطلوب منهم، يَكُونُونَ مؤهلين لأداء شهادتهم على الناس يوم الدين، كما يشهدُ الرَّسُولُ عَلَى الَّذِينَ بَلَّغَهُمْ مِنْهُمْ، وَتَشْهَدُ كُلُّ دَائِرَةٍ تَبْلِيغٍ مِنْ بَعْدِ الرَّسُولِ عَلَى الدَّائِرَةِ الْأَوْسَعِ الَّتِي بَلَّغْتَهَا، وهكذا تتسلسل الدوائر، فقال الله عز وجل في النصِّ بياناً لهذا:

﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ .

ولِئَلَّا يُحَافِظَ عُمُومُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى هَذَا الِاجْتِبَاءِ الرَّبَّانِيِّ الْمَشْرِفِ لَهُمْ، الَّذِي جَعَلَهُمْ فِيهِ حَمَلَةَ رَسُولِهِ وَمُبَلِّغِيهَا لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَعُدُولًا فِي التَّبْلِيغِ وَفِي الشَّهَادَةِ عَلَى النَّاسِ يَوْمَ الدِّينِ، فَإِنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَلَا يَضِيعُوهَا وَلَا يَتَهَاوَنُوا بِشَيْءٍ مِنْهَا، وَأَنْ يُؤْتُوا الزَّكَاةَ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَلَا يَمْنَعُوا شَيْئًا مِمَّا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ، وَأَنْ يَعْتَصِمُوا مُحْتَمِينَ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الَّذِي لَهُ الْقُوَّةُ الْغَالِبَةُ، مُجْتَمِعِينَ غَيْرَ مُتَفَرِّقِينَ وَلَا مُتَنَازِعِينَ، وَلَا مُتَبَعِينَ أَهْوَاءٍ وَمَصَالِحَ دُنْيَوِيَّةٍ خَاصَّةٍ وَسَاوِسَ شَيْطَانِينَ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي النَّصِّ:

﴿فَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ .

أي: وانتشروا مبلغين دين الله في الأرض وأنتم محافظون على وصايا الله لكم .

فإذا فعل المسلمون ذلك الذي أمرهم الله به، كَانَ اللَّهُ مَوْلَاهُمْ، أَي: حَافِظُهُمْ، وَمُعِينُهُمْ، وَمُسَدِّدَ خَطَاهُمْ، وَمُؤَمِّدَهُمْ بِعِطَائِهِ، وَنَاصِرَهُمْ، وَمُزِيلَ الْعِقَابِ مِنْ طُرُقِ انْسِيَاحِهِمْ فِي الْأَرْضِ مُبَلِّغِينَ، فَقَالَ تَعَالَى لَهُمْ فِي خَاتَمَةِ النَّصِّ:

﴿هُوَ مَوْلَانَكُمْ فَرِئِمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ .

● ومن الشئنة ما يلي :

النص الأول :

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ

قال :

«بَلَّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(١).

فَأَمَرَ الرَّسُولُ أَضْحَابَهُ بِأَنْ يُبَلِّغُوا عَنْهُ، وَلَوْ كَانَ مَا سَمِعُوهُ آيَةً وَاحِدَةً.

النص الثاني :

وروى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن

رسول الله ﷺ قال :

«لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ».

قال : فبات الناس يدوكون ليلتهم (أي : يتحدثون ليلتهم) أيهم يُعْطَاهَا،

فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يزجوا أن يُعْطَاهَا، فقال :

«أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟».

فقالوا : يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ» فقال :

«فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ فَأَتُونِي بِهِ».

فلما جاء بصق في عينيه ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع،

فأعطاه الراية، فقال علي : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ . فقال :

«انْفُذْ عَلَيَّ رِسْلِكَ، حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ،

وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا

(١) فتح الباري، الحديث ٣٤٦١.

وَاحِدًا خَيْرٌ لَّكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»^(١).

وجاء في رواية عند البخاري عن سَلَمَةَ أَنَّ هَذِهِ الْحَادِثَةَ كَانَتْ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ .
فَأَبَانَ الرَّسُولَ ﷺ كَمَا جَاءَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الْغَرَضَ مِنَ الْغَزْوِ
الدَّعْوَةُ إِلَى الْإِسْلَامِ .

النص الثالث :

قال البخاري في «كتاب أخبار الآحاد» باب وَصَاةِ النَّبِيِّ ﷺ وفود
العرب أَنْ يُبَلِّغُوا مَنْ وَرَاءَهُمْ، قَالَهُ مَالِكُ بْنُ الْحُوَيْرِثِ .
وروى حديثاً بشأنِ وَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ لَمَّا أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ .
قال : «مَنْ الْوَفْدُ؟» .

قالوا: ربيعة .

قال : «مَرْحَبًا بِالْوَفْدِ وَالْقَوْمِ غَيْرِ خَزَائِيَا وَلَا نِدَامِي» .

قالوا: يا رسول الله، إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ كُفَّارَ مُضَرٍّ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ نَدْخُلُ بِهِ
الْجَنَّةَ، وَنُخَيَّرَ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا .

فنهاهم عن أَرْبَعٍ وَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ .. وجاء في آخر الحديث أن
الرسول ﷺ قال لهم :

«أَحْفَظُوهُمْ وَأَبْلِغُوهُمْ مَنْ وَرَاءَكُمْ»^(٢) .

النص الرابع :

وجاء في خطبة للنبي ﷺ في حجة الوداع على ما رواه البخاري
ومسلم :

(١) حُمْرُ النَّعَمِ: أي: الإبل الحمراء، وهي أعظم الأموال عند العرب وأنفسها .

(٢) انظر الحديث (٧٢٦٦) في فتح الباري لابن حجر .

«فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَىٰ مِنْ سَامِعٍ».

أي: فربُّ مُبَلِّغٍ حديثَ الرسول ﷺ من بَعْدِهِ، يُعْطِيهِ اللهُ مِنَ الْوَعْيِ فِي فَهْمِ قَوْلِ الرَّسُولِ أَكْثَرَ مِمَّا أُعْطِيَ الَّذِي سَمِعَ قَوْلَ الرَّسُولِ مِنْ فَمِّهِ مَبَاشَرَةً، وَكَأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَدْ بَشَّرَ فِي هَذَا بِظُهُورِ الْأُئِمَّةِ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْ بَعْدِهِ، وَالْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَ مَعَانِيَ النُّصُوصِ وَدَلَالَاتِهَا الدَّقِيقَةَ، وَيَسْتَخْرِجُونَ مِنْهَا مَا لَمْ يَكُنْ قَدْ أُدْرِكُهُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ.

* * *

حُكْمُ تَبْلِيغِ دِينِ اللَّهِ لِلنَّاسِ

مِمَّا سَبَقَ يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ تَبْلِيغَ دِينِ اللَّهِ لِلنَّاسِ وَاجِبُ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ الَّتِي اجْتَبَاهَا اللَّهُ، وَجَعَلَهَا أُمَّةً وَسَطًا عَدُولًا.

وهذا الواجبُ تَحَمُّلُ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ جَمِيعُهَا مَسْئُولِيَّةَ تَهْيِئَةِ مَا يَلْزَمُ لِلْقِيَامِ بِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ، وَمِنْ ذَلِكَ تَهْيِئَةُ وَإِعْدَادُ مَنْ يَقُومُ بِالذَّعْوَةِ الرَّصِيَّةِ الْحَكِيمَةِ إِلَى دِينِ اللَّهِ، وَتَبْلِيغُهُ النَّاسَ مَهْمَا اخْتَلَفَتْ أَجْنَاسُهُمْ وَلِغَاثُهُمْ، وَتَبَاعَدَتْ مَوَاطِنُهُمْ وَمَسَاكِينُهُمْ وَمَنَازِلُهُمْ، وَتَهْيِئَةُ وَإِعْدَادُ الْوَسَائِلِ الْمَادِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ لِلْقِيَامِ بِهِ.

وَبِالْعَمَلِ الْحَكِيمِ وَالصَّبْرِ يُفْرَزُ الْمُجْتَمَعُ الْإِسْلَامِيُّ لِلْقِيَامِ بِوَاجِبِ الذَّعْوَةِ إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ، وَتَبْلِيغِ دِينِهِ، مَنْ يَتَحَلَّوْنَ بِالْمَوْهَلَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ وَالذَّعْوِيَّةِ وَالسَّلْوَكِيَّةِ لِأَنَّ يَكُونُوا أُمَّةً لِلْمُتَّقِينَ مِنْ جِهَةٍ، وَقُدْوَةً حَسَنَةً لِلْمُدْعَوِينَ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى.

وهؤلاءُ يَتَحَمَّلُونَ مَسْئُولِيَّةَ الْقِيَامِ الْفِعْلِيِّ بِهَذَا الْوَاجِبِ، سِوَاءِ أَكَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ مَتَفَرِّغًا لَهُ أَمْ غَيْرِ مَتَفَرِّغٍ، كَطَيِّبِ دَاعِيَةٍ، وَمُهَنْدِسِ دَاعِيَةٍ، وَتَاجِرِ دَاعِيَةٍ، وَأَسْتَاذِ عُلُومِ دَاعِيَةٍ، وَنَحْوِ هَؤُلَاءِ مِنْ مُخْتَلِفِ الْإِخْتِصَاصَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ.

وعلى كلِّ داعٍ إلى سبيلِ ربِّه يُفِرِّزُهُ المجتمعُ الإسلاميُّ للقيام بهذا الواجب، متفرغاً له أو غيرَ متفرغٍ، أن يقوم به على مقدار استطاعته وإمكاناته الفكرية والعلمية والبيانية والتفسيّة والجسديّة الجهاديّة..

ولا يجوز للواحد منهم أن يقومَ بما ليس مؤهلاً له، لئلا يُفتي بغير علم، أو يدعُو بغير الأسلوب الحكيم، فيكونَ في الدِّينِ محرِّفاً، أو من الإسلام منقراً.

وعلى كلِّ مُسلم بعد فئة الدُّعاة المتخصّصين، وفئة أئمة المتقين الذين يحملون رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بتخصص، أن يقوم بالدعوة إلى دين الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بالمقدار الذي يَعْلَمُه من الدِّينِ علماً صحيحاً واضحاً، وبالمقدار الذي يُحسِنُه من الدَّعوة والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) خطاباً للذين آمنوا:

﴿وَلَسَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١١﴾﴾.

فأمر الله عزَّ وجلَّ في هذا النصِّ جميع المؤمنين بأن يكونَ منهم أُمَّةٌ يدعونَ إلى الخير ويأمرُونَ بالمعروف وينهون عن المنكر.

ويُلاحظُ أنه جاء التعبير عن الدَّعوة إلى دين الله بأنها دَعْوَةٌ إلى الخير، إذ كلُّ ما في دينِ الله من عِلْمٍ واعتقادٍ وخُلُقٍ وسلوكٍ نفسيٍّ وجسديٍّ، فرديٍّ واجتماعيٍّ يدخلُ تحت عنوانِ الخير، وكلُّ ما ناقضُهُ وضادُّه هو شرٌّ لا محالة.

وقد دلَّ هذا النصّ على أنّ المؤمنين جميعاً مكلّفون أنّ يُعدّوا أُمَّةَ الدَّعْوَةِ والأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر، وأن يُهيئوا ما يلزم لذلك من وسائل وأسباب.

وسمّى اللهُ فِئَةَ الدَّعَاةِ والأميرين بالمعروفِ والناهين عن المنكر أُمَّةً، للإيماءِ إلى وُجُوب كونهم مجتمعين على صفاتٍ وخصائصٍ وروابطٍ متميّزة، تجعلُهُم ظاهرين في الناس كأُمَّةٍ واحدةٍ لا تفرّق بين أفرادها ولا اختلاف، ولا تصدّع ولا تشقيق بين صفوفها، ولا تنازع فيما بينها على المصالح الدنيوية التي تُغذيها الأهواء والشهوات.

وأكدَ هذا المعنى الذي أوّماً إليه لفظُ «أُمَّة» بنهي المؤمنين جميعاً عن التفرّق والاختلاف، فقال تعالى:

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

أما الذين تفرّقوا واختلّفوا من بعد ما جاءهمُ البيّناتُ فهمُ أهلُ الكتابِ الأوّل: اليهودُ والنصارى.

ومعلومٌ أنّ التفرّق والاختلاف لا يكونان في المجتمع البشريّ إلاّ بأسبابٍ من الأهواء والشهواتِ ومطالبِ الحياة الدنيا.

أما مطالبُ الآخرة، ونُشدانُ الظفرِ برضوانِ الله فأمورٌ لا تُحدثُ تفرّقاً ولا اختلافاً.

* * *

المقولة الخامسة

التذكير والنصح والإرشاد

روى الإمام مُسْلِمٌ عَنْ تَمِيمِ بْنِ أَوْسٍ الدَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

«الدِّينُ النَّصِيحَةُ».

قُلْنَا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ:

«لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَيِّمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ».

يُلْحَقُ بالدعوة إلى دين الله التذكير والنصح والإرشاد، فبعد البلاغ والبيان وشرح الحقيقة الدينية شرحاً كافياً مقنعاً لمن شاء أن يقتنع بالحق، تأتي وظيفة التذكير بما سبق تبليغه وبيانه وشرحه حقيقته، مع النصح الحسن، والإرشاد برفق إلى التغلب على عقبات النفس، لسلك طريق النور المُسْعِد لسالكه، وهو صراط الله المستقيم.

والتذكير المصحوب بالنصح والإرشاد إلى التغلب على عقبات النفس، يُساعد بعض النفوس التي لم تصل إلى مستوى الكفر العنادي، والإصرار على الباطل.

فمن طبيعة كثير من الناس أنَّ البَلاغَ الأوَّلَ لَا يَكْفِيهِ حَتَّى يَتَخَلَّصُوا مِنْ عِقَاتِهِمُ الْبَاطِلَةَ، وَسُلُوكِهِمُ الْجَائِرَ عَنْ صِرَاطِ اللهِ الْمُسْتَقِيمِ، وَحَتَّى تَتَغَلَّبَ إِرَادَاتُهُمُ الْوَاعِيَاتُ عَلَى أَهْوَانِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَعَصَبِيَّاتِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمُ الْعَمِيَاءَ،

فهم بحاجة قوية إلى التذكير مرّات متعدّاتٍ مَضْحُوبَاتٍ بالتَّضْحِ والإرشاد، حتّى يَقْوُوا على دوافع اسْتِمْسَاكِهِم بِالْبَاطِلِ، وانحرافهم عن صراط الله، وتَحَطُّمِ الْعُقُبَاتِ الَّتِي فِي نَفْسِهِمْ، الْحَاجِزَاتُ لَهُمْ عَنِ الِاسْتِجَابَةِ لِلْحَقِّ الَّذِي دُعُوا إِلَيْهِ، وَاسْتَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ.

فلتكرار التذكير أثره البالغ في النفوس، ولا سيما إذا وصل إلى المتلقّي من مصادِرَ شَتَّى، والمفروض في حامل الرسالة أن يُسَاعِدَ النَفُوسَ الْجَافِيَةَ حَتَّى تَسْتَأْنِسَ، وَتَمِيلَ إِلَى الِاسْتِجَابَةِ.

ونلاحظُ دوماً ما لتكرار الإعلانات التجارية والدعايات السياسيّة من تأثير على النفوس، حتى تُصَدِّقَ الْأَخْبَارَ الْكُوَاذِبَ، فما بالك بالحقّ الجليّ الذي تُؤَيِّدُهُ الْبَرَاهِينُ السَّاطِعَةُ، وَالْحُجُجُ الدَّامِغَةُ، وتستميل إليه النّصائحُ الْحَسَنَةُ، وَالْإِرْشَادَاتُ الْمَقْدَمَةُ بِرَفْقٍ وَتَكْرِيمٍ.

ولكن يَجِبُ أَنْ لَا يَكُونَ تَكْرِيرُ التَّذْكَيرِ مُتَلَاحِقاً بِصُورَةٍ مُتَّفَرِّةً.

يُضَافُ إِلَى الْأَثَرِ النَّافِعِ لِتَكَرُّرِ التَّذْكَيرِ بِصُورَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَنْفِيرٌ، أَنَّ مِنْ طَبِيعَةِ النَّاسِ أَنْ يَنْسُوا بِسُرْعَةٍ مَا لَا يَحْتَبُونَ الْإِتِّمَادَ بِهِ مِنْ عَقِيدَةٍ تَخَالَفُ سَوَائِقَ عَقِيدَتِهِمْ، أَوْ عَمَلٍ يَخَالَفُ عَادَاتِهِمْ وَتَقَالِيدَهُمْ، وَمَطَالِبَ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، وَنَزَعَاتِهِمْ وَمُيُولَاتِهِمْ النَّفْسِيَّةِ، فَهُمْ بِحَاجَةٍ إِلَى مَنْ يُسَاعِدُهُمْ عَلَى نَفْسِهِمْ بِالتَّذْكَيرِ حِيناً ثُمَّ حِيناً.

من أجل هذا الذي سبق بيّانه كان من العناصر التابعة للدعوة إلى سبيل الله، التَّذْكَيرُ بِمَا سَبَقَ بِهِ الْبَلَاغُ مَصْحُوباً بِالتَّضْحِ وَالْإِرْشَادِ.

والتَّذْكَيرُ يُطَلَّبُ فِيهِ التَّكْرِيرُ بِحِكْمَةٍ مَا دَامَ احْتِمَالُ الِاسْتِجَابَةِ أَمراً قائماً، بالنسبة إلى الفرد، أو إلى بعض أفراد الجماعة، وما دامت الجماعة يخرج منها كلّ حينٍ مستجيب أو مستجيبةٌ لدعوة الحقّ، فالتذكير في هذه الأحوال نافع، وتجب متابعتها، ولا يصحّ معه اليأس.

لَكِنْ إِذَا مَرَّتْ مُدَّةٌ طَوِيلَةٌ جَدًّا مِنَ الزَّمَنِ عَلَى شَخْصٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ، وَهَؤُلَاءِ قَدْ سَبَقَ تَبْلِيغُهُمْ وَدَعْوَتُهُمْ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِمْ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَبُشِّرُوا وَأَنْذِرُوا، وَتَتَابَعَ عَلَيْهِمُ التَّذْكَيرُ الْحَكِيمُ الْمَصْحُوبُ بِالتُّصْحِ وَالْإِرْشَادِ، دُونَ أَنْ تَتَحَرَّكَ قُلُوبُهُمْ وَلَا نَفْسُهُمْ بِأَقْلٍ دَرَجَةٍ مِنْ دَرَجَاتِ الْمَيْلِ وَالِاسْتِجَابَةِ، بَلْ كَانُوا يَزِدَادُونَ بِالتَّذْكَيرِ نَفُورًا، عِنَادًا وَإِصْرَارًا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ بَاطِلٍ وَانْحِرَافٍ عَنِ طِرَاطِ اللَّهِ، فَمِنَ الْخَيْرِ إِذْنُ الْإِعْرَاضِ عَنِ تَذْكَيرِهِمْ إِذَا تَوَلَّوْا، وَالتَّوَلَّى عَنْهُمْ إِذَا طَغَوْا.

الإِعْرَاضُ : حَالَةٌ وَسَطَى بَيْنَ الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ.

التَّوَلَّى : الْإِدْبَارُ وَيَصْحَبُهُ غَالِبًا الْإِبْتِعَادُ.

وَالسَّبَبُ فِي هَذَا أَنَّهُمْ قَدْ وَصَلُوا إِلَى حَالَةٍ مَيْئُوسٍ مِنْهَا، فَمِنَ الْخَيْرِ إِنْفَاقُ الْجَهْدِ فِي آخِرِينَ مَطْمُوعٍ فِي اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، أَوْ آخِرِينَ لَمْ يُعْجِرُوا بَعْدَ، فَهُمْ بِمِثَابَةِ الْأَرْضِ الْبَكْرِ الَّتِي لَمْ تُعَالَجْ بِالْحَرثِ وَالزَّرْعِ.

هَذَا هُوَ الْأَمْرُ الَّذِي يَقْضِي بِهِ مَنْطِقُ الْعَقْلِ السَّلِيمِ، وَهُوَ مَا دَعَتْ إِلَيْهِ نُصُوصُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فِي تَرْبِيَةِ اللَّهِ رَسُولَهُ ﷺ وَحَمَلَةَ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ.

وَمِنْهُجِ الْقُرْآنِ فِي التَّذْكَيرِ بِمَا سَبَقَ تَبْلِيغُهُ وَالدَّعْوَةُ إِلَيْهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَسَبَقَ شَرْحُهُ شَرْحًا وَافِيًّا مِنْ أَصُولِ الدِّينِ، لَهُ نِظَامٌ حَرَكِيٌّ تَطَوُّرِيٌّ بِحَسَبِ الْمَوَاقِفِ الَّتِي يَتَطَوَّرُ إِلَيْهَا الَّذِينَ يُوجَّهُ لَهُمُ الْبَلَاغُ، ثُمَّ التَّذْكَيرُ مِنْ بَعْدِهِ.

وَهَذَا النِّظَامُ الْحَرَكِيُّ تَكْشِفُهُ النُّصُوصُ التَّالِيَةُ، الْمُرْتَبَّةُ بِحَسَبِ تَرْتِيبِ نَزُولِ السُّورِ الَّتِي هِيَ مِنْهَا، وَالَّتِي جَرَى تَدْبِيرُهَا ضَمْنًا مُمْلِحَةً أَطْوَارِ الدِّينِ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يُعَالِجُهُمُ بِالْبَلَاغِ، وَالتَّبَيَانِ الْكَافِي، ثُمَّ بِالتَّذْكَيرِ أَنَا ثُمَّ أَنَا وَفَقِ الْحِكْمَةِ.

النص الأول:

بعد البلاغات الأولى والبيانات الشارحات لها ومع أوائل التنزيل القرآني، خاطب الله رسوله محمداً ﷺ، ويُلحَقُ به كلّ داعٍ إلى سبيل ربّه من أمته، بقوله عزّ وجلّ في سورة (الأعلى / ٨٧ / مصحف / ٨ / نزول):

﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ۝٩ سَيَذَكِّرُنَا مَنْ يَخْشَى ۝١٠ وَنَجِّنَهَا الْأَشْقَى ۝١١ الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى ۝١٢ ﴾ .

الذِّكْرَى: اسم للتذكير، وتأتي بمعنى التذكُّر، وتأتي اسماً للتذكيرة (أي: للوسيلة التي تُذكِّر، كبطاقة، أو رتيمة، وهي الخيط الذي يُدار على الإصبع للتذكير بشيء ما).

أي: فذكّر بما سبق أن بلّغته وبَيَّنَّته ولو كان احتمال نفع الذكرى احتمالاً مشكوكاً فيه، باعتباره من أدنى درجات الظنّ الضعيف، وقد دلّ على هذا استعمال حرف الشرط (إن) الذي يُستعمل كثيراً فيما يكون احتمال تحقُّقه ضعيفاً، وكثيراً ما يأتي لمطلق الربط الشرطي.

وأطمع الله عزّ وجلّ بأنّ تحقُّق نفع التذكير سيكون حتماً، لدى من يخشى عذاب ربّه، الذي جاء به الإنذارُ ضمن فقرات البلاغ.

وأياسَ الله عزّ وجلّ من استجابة الأَشْقَى، مُبَيِّناً أنّه سيصلّي حتماً النار الكبرى يوم الدين. والأشقى هو من بلّغَتْ شِقْوَتُهُ مَبْلَغَهَا الْأَقْصَى، ويُمكنُ اكتشافه من سلوكه وعناده وجبروته وإصراره على باطله وإجرامه، وطغيانه في الأرض.

النص الثاني:

ثمّ أمر الله عزّ وجلّ بالإعراض عن تذكير من تَوَلَّى عن ذكر ربّه جلّ وعلا، أي: أدبّر ونأى، ولم يكتفِ بمجرد الإعراض.

الإعراض: حالة وَسَطَى بين الإقبال والتولي، وهو من إعطاء عارض الوجه، وهو جائئُهُ، فعارضا الإنسان: صفحتا خديهِ.

التَّوَلَّى: يأتي بمعنى الإدبار، وبمعنى التَّأْيِي.

فأنزل قوله تعالى خطاباً لرسوله ﷺ وَيُلْحَقُ بِهِ كُلَّ دَاعٍ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، فِي سُورَةِ (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

﴿فَاعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٦﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن أَهْتَدَىٰ ﴿٢٧﴾﴾.

النص الثالث:

تم أمر الله عز وجل بالتذكير بالقرآن، وبأن يُوجَّهَ هذا التذكير لِمَنْ يُسْتَشْعَرُ مِنْهُ أَنَّهُ يَخَافُ مِنْ وَعِيدِ رَبِّهِ خَوْفًا مَّا، فَأَنْزَلَ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: فذكر بما جاء في القرآن من أصول الدين مَنْ يَخَافُ وَعِيدِي الَّذِي أَنْذَرْتُ بِهِ الْكَافِرِينَ مِنْ عِبَادِي.

النص الرابع:

ثم أمر الله عز وجل بِتَرْكِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهُوَ فُلْمٌ يَعْبُؤُوا بِبِلَاغَاتِ رَسُولِ رَبِّهِمْ، وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، أَي: بِتَرْكِ الْإِهْتِمَامِ بِتَذْكَيرِهِمْ، وَأَمَرَ بِتَذْكَيرِ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ لَمْ يَصِلُوا إِلَى مَسْتَوَى الْيَأْسِ مِنْ انْتِفَاعِهِمْ بِالتَّذْكَيرِ، لِإِعْطَائِهِمْ أَقْصَى مَا يُمْكِنُ مِنْ وَسَائِلَ لِهْدَايَتِهِمْ، وَاسْتِجَابَتِهِمْ اسْتِجَابَةَ طَوْعِيَّةٍ لِدَعْوَةِ دَاعِيهِمْ إِلَى دِينِ اللَّهِ، فَأَنْزَلَ فِي سُورَةِ (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) قَوْلَهُ تَعَالَى:

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهُوَ غُرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرَ بِهِ أَن

تُبَسَّلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَلَ كُلَّ عَدَلٍ لَأَ
يُؤَخَذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا
يَكْفُرُونَ ﴿٧٤﴾ .

فالذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً فجعلوا يستهزئون به وبالرسول الذي
بلغهم إياه، وأصروا بعنادٍ على كفرهم، على الرُّغم من وصول البلاغ إليهم،
ومتابعتهم بالتذكير، هؤلاء ينبغي تركهم، ومعاملتهم بسياسة الإعراض، إذ
حالتهم قاربت أن يكون ميثوساً منها، فيكفي الإعراض عن مواجهتهم،
وتذكير غيرهم وهم يسمعون.

أما مَنْ لم تصل حالته إلى هذا المستوى فذكّرهم بالقرآن وجهاً لوجه،
واهتمّ بنصحهم وإرشادهم، وتكرير عرض البلاغ والبيان عليهم.

وذكّر به: أي: وذكّر بالقرآن غير الذين تركتهم لأنهم اتخذوا دينهم لعباً
ولهواً وغرّتهم الحياة الدنيا.

أن تُبَسَّلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ: أي: مُبادراً بالتذكير بالقرآن وقوع هذا
الإبسال، فعسى أن يتدارك من تُذكره أمره، فيخمي نفسه من عذاب الله
بالاستجابة والتوبة والإيمان والإسلام.

الإبسال: يأتي بمعنى إسلام المجرم ليد العدالة، وبمعنى الارتهان،
وبمعنى إنزال العذاب، وتجتمع هذه المعاني هنا.

فمعنى ﴿أَنْ تُبَسَّلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾: مبادرة أن تُسلمَ نفس بجريرتها،
وتزتهن بها، في انتظار الحكم عليها بالعذاب يوم الدين، مع احتمال الحكم
عليها بالعذاب والهلاك في الدنيا.

والارتهان جاء مصرحاً به في قوله تعالى في سورة (المدثر/ ٧٤)

مصحف/ ٤ نزول):

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ ﴾

ويكون الإنساق بالموت، أو مع بدء نزول العذاب المعجل.

أي: فذكر بالقرآن من لديك أمل ما باستجابته، تدارك أن تُبْسَلَ نَفْسٌ بما كَسَبَتْ، مُرْتَهَنَةٌ سَجِينَةٌ، صائرة إلى عذابها، حالة كونها ليس لها من دُونِ اللَّهِ وَلِيٍّ يحميها من عذاب الله، ولا شفيع يشفع لها، وإن تَمَلِّكَ فِدَاءٌ مَا مُعَادِلًا لِحُرْمِهَا لَا يُقْبَلُ منها، على أنها لن تَمَلِّكَ فِدَاءً مَا.

وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ: أي: وإن تَفِدِ كُلَّ فِدَاءٍ بالعدل لا يُؤْخَذُ منها.

وقد جاء التمهيد في هذه السورة نفسها ببيان ما حَصَلَ لأُمَّمٍ سَابِقَةٍ ذُكِّرُوا بِالْمَذَكَّرَاتِ الْمُتَتَابِعَاتِ، فَتَرَكُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُ فِي ذَاكِرَاتِهِمْ آثَارٌ فَاعْلَةٌ، فَاسْتَحْفُوا الْعَذَابَ وَالْهَلَاكَ فَأَهْلِكُوا، وَهُوَ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا: (الأنعام/ ٦/ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَعُونَ ﴿١١﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

مُبلِسُونَ: أي: ساكتون يائِسُونَ نادمون. يُقال: أبلَسَ من رَحْمَةِ اللَّهِ، إِذَا يئِسَ وَندَم.

النص الخامس:

ولما ظهر في المشركين جماعاتٌ عاندوا عناداً شديداً، ولم تُثَلِّينِ المذَكَّرَاتِ وَالْإِنْذَارَاتِ بِالصَّاعِقَةِ الْمَهْلِكَةِ شَيْئاً مِنْ قَسْوَةِ قُلُوبِهِمْ، لِإِصْرَارِهِمْ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ، وَإِعْدَادِهِمُ الْوَسَائِلَ لِقَمْعِ دَعْوَةِ الرَّسُولِ بِالْقُوَّةِ الْمَادِيَةِ

المسلحة، أمر الله رسوله بأن يتولى عنهم، أي: بأن يُدير إليهم ظهره، ويتركهم إلى ربهم، وما يُجره فيهم بحكمته، فأنزل عليه قوله تعالى في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْنَاتِنَا لِإِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِنَّهُمْ لَكُفْرٌ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٧﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٨﴾ فَنَوَّلْنَاهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٩﴾ وَأَبْصَرْتُمْ فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ ﴿١٨٠﴾ أَفِعْبَدَانَا يُسْتَعْجِلُونَ ﴿١٨١﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ الْمُنذَرِينَ ﴿١٨٢﴾ وَنَوَّلْنَاهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٨٣﴾ وَأَبْصَرْتُمْ فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ ﴿١٨٤﴾﴾.

في هذا النص إشعار بأن حكمة الله قضت بأن ينصر رسوله والذين آمنوا معه على طغاة المشركين بمعارك قتالية، لا بمهلكات ينزلها عليهم من السماء، دل على هذا قوله تعالى فيه: ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

وفيه دلالة على أنهم تحدوا الرسول بأن يسأل ربه أن ينزل عليهم ما سبق أن أُنذرهم به.

ومع أمر الله رسوله بأن يتولى عنهم، أمره بأن يُنصرهم ليكون على علم وحذر مما يَمْكُرُونَ، وطلب منه - ويُلْحَقُ به المؤمنون - أن يترث ويتربص حتى حين.

وفيه أيضاً وعيدٌ لهؤلاء المشركين الطغاة الذين ناصبوا الرسول والذين آمنوا العدا، وهذا الوعيد جاء في النص مكرراً مرتين بقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ﴾.

فالأولى وعيدٌ بإهلاكِ سَمَويِّ، والثانية وعيدٌ بالهزيمة والقتل على أيدي المؤمنين.

النص السادس:

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ أَنْ يُوجِّهَ لِمُعَانِدِي قَوْمِهِ الْمُصِرِّينَ عَلَى الْكُفْرِ، المعرضين عما يُوجِّه لهم من تذكير بعد البلاغ والبيان، إنذاراً بعقاب

مُعْجَلٍ مُهْلِكٍ فِي الدُّنْيَا، فَأَنْزَلَ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ (فُصِّلَتْ/ ٤١
مصحف/ ٦١ نزول):

﴿ فَإِنِ اعْرَضُوا فَعَلْنَا الذُّكْرَ صَاحِقَةً مِثْلَ صَاحِقَةِ عَادٍ وَنُوحٍ ﴾ .

«إن» هنا لمطلق الربط الشرطي، ولا تفيد تقييداً ولا تشكيكاً.

النص السابع:

ثم أبان الله عز وجل لرسوله أنه ليس مسؤولاً عن تحويل من دعاهم
وبيّن لهم وتابعتهم بالتذكير، من الكفر إلى الإيمان، وأنه ليس حفيظاً عليهم،
كما يُعتبر راعي القطيع مسؤولاً عن حفظ قطيعه من الافتراس والشرود أو
الهلاك، فهم ذوو إرادات حرة، وهم مُمتحنون من خلال إراداتهم، لا من
خلال إلزامهم بالإكراه والإجبار القسري، فأُنزل قوله تعالى في سورة
(الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿ فَإِنِ اعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِذْ أَلْبَسُوا... ﴾ .

«إن» الأولى لمطلق الربط الشرطي، و«إن» الثانية نافية مثل «ما»

النافية.

النص الثامن:

وأخذ طغاة المشركين يُطلقون أسلحة التشهير الإعلامي باتهام الرسول
بأنه ساحرٌ أو مجنون، فأمر الله رسوله بأن يتولى عنهم، وأبان له أنه إذا تولى
عن تذكير هؤلاء الطغاة، فإنّ عليه أن يُتابع تذكير من يجد لديهم استعداداً ما
لأنّ يؤمنوا، فعسى أن ينتفعوا بالتذكير، فأُنزل الله عز وجل على رسوله قوله
في سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿ كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴾ .

﴿ فَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ الَّذِي فِيهِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُذَكِّرُونَ ﴾ .

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ: أي: فأدبر ظهرَكَ لهؤلاء الذين هم قَوْمٌ طَاغُونَ، ولا تهتمَّ بهم ولا بتذكيرهم، فقد بَلَّغُوا إلى حالةٍ مَيْئُوسٍ منها.

فَمَا أَنْتَ بَمَلُومٍ: أي: فَإِنَّكَ إِذَا تَوَلَّيْتَ عَنْ تَذْكِيرِهِمْ وَأَدْرَيْتَ لَهُمْ ظَهْرَكَ بعد أن وصلوا إلى مُسْتَوَى الطغيان، فَلَا يُوجِبُ لَكَ لَوْمًا، إذ قد بَلَّغْتَ مِنْهُمْ غَايَةَ الْعُذْرِ.

وَذَكَرَ فَإِنَّ الذُّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ^(١): أي: وذكر آخرين لم يَزَلِ الْأَمَلُ بإيمانهم قائماً، ولو باستجابة بعض أفرادٍ منهم، فَإِنَّ الذُّكْرَى تَنْفَعُ مَنْ لَدَيْهِمْ استعدادٌ ما مُسْتَقْبَلًا لَأَنْ يُؤْمِنُوا.

النص التاسع:

ولئلاَّ يَتَصَوَّرَ الرَّسُولُ ﷺ أو أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِهِ، أَنَّهُ إِذَا مَلَكَ قُوَّةٌ مُسَيِّرَةٌ، فَإِنَّ لَهُ أَنْ يُجْبِرَ الْمُعَانِدِينَ بِإِصْرَارٍ عَلَى أَنْ يُؤْمِنُوا بِالْقُوَّةِ، أَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ أَنَّهُ بعد التَّبْلِيغِ وَالْبَيَانِ وَالشَّرْحِ لِأَصُولِ الدِّينِ، لَيْسَ إِلَّا مُذَكَّرًا، وَأَنَّهُ لَيْسَ مَأْذُونًا بِأَنْ يُكْرِهَ أَحَدًا عَلَى الْإِيمَانِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوْلَهُ فِي سُورَةِ (الغاشية/ ٨٨ مصحف/ ٦٨ نزول):

﴿ فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فِعْدَبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾ ﴾.

إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ: أي: ما أَنْتَ بِالنَّسْبَةِ إِلَى مَنْ بَلَّغْتَهُ بِلَاغًا تَامًا، وَبَيَّنْتَ لَهُ بَيَانًا شَافِيًا، إِلَّا مُذَكَّرٌ، فَلَسْتَ مُجْبِرًا أَوْ مُكْرِهًا أَوْ مُسَيِّرًا.

إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فِعْدَبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ: أي: لَكِنْ مَنْ تَوَلَّى مُدْبِرًا

(١) وَجَدْتُ اسْمَ الْفَاعِلِ فِي كَثِيرٍ مِنَ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ مُسْتَعْمَلًا فِي الْإِسْتِقْبَالِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ (الأعراف/ ٧) فِي مَعْرِضِ قِصَّةِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ عَادَ الَّذِينَ أَهْلَكُوا: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٧﴾: وَمَا كَانَ لَدَيْهِمُ الْإِسْتِعْدَادُ لِأَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبَلًا.

مُبْتَعِدًا، وَأَصْرًا عَلَى كَفْرِهِ بَعْنَادًا، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى أَمْرَهُ، وَهُوَ الَّذِي يُعَذِّبُهُ يَوْمَ الدِّينِ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَالْعَذَابُ الْأَكْبَرُ هُوَ عَذَابُ يَوْمِ الدِّينِ .

«إِلَّا» هُنَا هِيَ بِمَعْنَى «لَكِنَّ» حَرْفَ اسْتِدْرَاكٍ، وَهَكَذَا كُلُّ مَا يُقَالُ فِيهِ: اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ .

النَّصُّ الْعَاشِرُ:

ثُمَّ أَبَانَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَوَاجَهَهَا بِمَبَاشَرَةٍ بِالْإِعْرَاضِ، غَيْرَ مَكْتَرِثٍ لَهَا، فَأَنْزَلَ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ (الْكَهْفِ/ ١٨) مَصْحَفٍ/ ٦٩ نَزُولٍ:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَاعْرَضَ عَنْهَا... ﴾

فَدَلَّ هَذَا النَّصُّ عَلَى مَبْلَغِ الظُّلْمِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَتَّصِفُ بِهِ مَنْ يُقَابِلُ بِالْإِعْرَاضِ الْمُبَاشِرِ مَا يُذَكِّرُ بِهِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، مُشْعِرًا بِعَدَمِ اسْتِعْدَادِهِ لِلتَّفَكُّرِ فِيهَا .

النَّصُّ الْحَادِي عَشَرَ:

ثُمَّ أَبَانَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ أَيْضًا أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَنَظَرَ فِيهَا وَأَدْرَكَ دَلَالَاتِهَا، ثُمَّ وَاجَهَهَا بِالْإِعْرَاضِ عَنْهَا، فَأَنْزَلَ تَعَالَى قَوْلَهُ فِي سُورَةِ (السَّجْدَةِ/ ٣٢) مَصْحَفٍ/ ٧٥ نَزُولٍ:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ اعْرَضَ عَنْهَا... ﴾

فَدَلَّ هَذَا النَّصُّ عَلَى مَبْلَغِ الظُّلْمِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَتَّصِفُ بِهِ مَنْ يُضْغِي لِآيَاتِ اللَّهِ الَّتِي يُذَكِّرُ بِهَا، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يُعْرِضُ عَنْهَا، وَلَا يَسْتَجِيبُ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ .

وَقَدْ دَلَّ هَذَا النَّصُّ وَالنَّصُّ الَّذِي قَبْلَهُ عَلَى التَّسَاوِيِّ فِي دَرَكَةِ الظُّلْمِ الْعَظِيمِ بَيْنَ مَنْ يُعْرِضُ ابْتِدَاءً وَبِصُورَةٍ مَبَاشَرَةٍ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِمَا يُذَكِّرُ بِهِ مَنْ

آيات رَبِّهِ، وَبَيَّنَّ مِنْ يُعْرِضُ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لَهُ بَعْدَ أَنْ يُصْغِيَ لَهُ، وَيُذَكِّرُ مَا فِيهِ مِنْ دَلَالَاتٍ وَبَيِّنَاتٍ وَعِظَاتٍ، فَالْأَوَّلُ بِسَبَبِ الرِّفْضِ دُونَ مَحَاوَلَةِ الإِصْغَاءِ وَالتَّفْهَمِ، وَالثَّانِي بِسَبَبِ الرِّفْضِ بَعْدَ الإِصْغَاءِ وَالتَّفْهَمِ، إِذْ رَفَضَ الْحَقُّ الَّذِي وَضَحَّ لَهُ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُ عُذْرٌ بِالرِّفْضِ.

النص الثاني عشر:

وأخيراً أمر الله عز وجل الرسول بأن يُتَابِعَ تَذْكَيرَهُ لِلَّذِينَ لَمْ يَصِلُوا إِلَى حَالَةِ مَيْتُوسٍ مِنْهَا، غَيْرَ مَكْتَرٍ لِلطَّاعِينَ، الَّذِينَ يُشِيعُونَ فِي قَوْمِهِ أَنَّهُ كَاهِنٌ، أَوْ مَجْنُونٌ، أَوْ شَاعِرٌ، وَأَنَّهُمْ يَتَرَبَّصُونَ مَوْتَهُ لِيَتَخَلَّصُوا مِنْهُ وَمِنْ دَعْوَتِهِ الَّتِي أزعجتهم، وهزّت منازلهم الرفيعة في قومهم، فأنزل تعالى قوله في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول):

﴿ فَذَكَرْنَاكَ فَأَنْتَ رِنَمْتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّهِ الْمُتُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُمْ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ .

فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ: أَي: فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ، وَنِعْمَةِ الْقُرْآنِ وَتَعْلِيمَاتِ الدِّينِ، الَّتِي تَفَضَّلَ اللَّهُ بِإِنزَالِهَا عَلَيْكَ بِمَجْنُونٍ.

وما أنت بشاعرٍ كما اتَّهَمُوكَ، وما أنت بمُتَقَوِّلٍ عَلَى رَبِّكَ قَوْلًا لَمْ يُنَزَّلْهُ عَلَيْكَ بِالْوَحْيِ، وَلَوْ كَانَ الْقُرْآنُ مِنْ عِنْدِكَ لاسْتَطَاعُوا أَنْ يَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ، فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي ادِّعَاءِ أَنَّكَ تَتَقَوَّلُ الْقُرْآنَ عَلَى رَبِّكَ تَقْوَلًا مِنْ عِنْدِ نَفْسِكَ.

فتابع تذكيرك لمن تأمل أن يستجيب لدعوتك ولو أملاً يسيراً.

خاتمة:

وهكذا ظهر لنا منهج القرآن في التذكير، ونظامه الحركي المتطور بحسب مقتضيات الحكمة.

وظهر لنا أن المدعوَّ بالحكمة والموعظة الحسنة الذي لم يستجب للدعوة، فإنه ما دام في منزلة الإعراض فالمطلوب متابعة تذكيره تذكيراً مصحوباً بالتَّصْحِح والإرشاد.

فإذا هبط إلى دَرَكَه التولي، فقد صار ميئوساً منه، وعندئذٍ يُكْتَفَى بالإعراض عن تذكيره بصورة مباشرة وبالمواجهة، وتُتْرَكُ لَهُ فُرْصُ استماع التذكير الذي يُوجِّهُ لِعَيْرِهِ بحضوره.

فإذا تَسَفَّلَ إلى قاع الطغيان، ومُنَاصَبَةِ الدَّعْوَةِ والدُّعَاةِ العداء، وتَدْبِيرِ أنواع المكر والكَيْدِ ضِدَّهُمَا، فينبغي معاملته بسياسة التولي بالإدبارِ عنه تَمَاماً، والاشتغال بغيره من المظموع باستجابتهم، ولو في حدودِ طَمَعٍ يسير هو من الآمال..

وهؤلاء المتسفلون إلى قاع الطغيان تُتْرَكُ مصائرهم إلى بارئهم.

أما أعمال المكر والكَيْدِ التي يُدَبِّرُونَهَا فَلَهَا سياساتٌ أُخْرَى عَيْزٌ دَعْوِيَّةٌ، وهي بَعْدَ الصَّبْرِ تَدْوُرُ حَوْلَ الهَجْرَةِ، والدَّفَاعِ، وإعدادِ القوَّةِ المُرْهِبَةِ، ومُنَاجَزَةِ القتالِ إِذَا لَزِمَ الأَمْرُ، وتهَيَّأتِ الأسبابِ.

* * *

وظيفتا

- الهداية بالدعوة والتذكير والنصح والإرشاد
- والإصلاح والحماية بالنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

- ١ -

الفرق بين الوظيفتين:

يُوجد فَرْقٌ بين وظيفة: «الهداية بالدعوة إلى الله وإلى سبيله» بوصفها حُطَّةً من خطط العمل لخدمة الناس جميعاً بغية إنقاذهم من الضلال والكفر والشقاء، وعذابِ الله الأبدِيّ في دار العذاب يوم الدين، وخدمة الإسلام بنشره، وخدمة جماعة المسلمين بتوسيع قاعدتهم البشرية.

وبين وظيفة: «الإصلاح والحماية بالنصح والإرشاد والأمر والنهي» بوصفها حُطَّةً من خطط العمل لخدمة أفراد المسلمين وجماعتهم بُغْيَةً إصلاحهم وحمايتهم من الانحراف عن صراط الله، إلى سبيل الضلال والغي والفسق والفجور فالرَّذَّةِ وَالْكَفْرِ، والشقاء العاجل والآجل، وبغية حماية المجتمع الإسلامي من التَّفَكُّكِ والانهيارِ بعوامل الفساد، التي قد تظهر فيه من قبل ذوي الانحراف فيه عن صراط الله، وما يكون من نتيجة انحرافهم من عَدْوَى وتأثيرٍ على هيكل المجتمع الإسلامي بوجه عام.

● وبما أنّ الإسلام هو صراط الله المستقيم اعتقاداً وخلقاً وسلوكاً

نفسياً وجسدياً، فمن كان خارجاً عنه غَيْرَ سَالِكٍ فِيهِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّهُ يُدْعَى دَعْوَةً إِلَى دُخُولِهِ، وَالانْتِمَاءَ إِلَى الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَسُلُوكَهُ مَعَ السَّالِكِينَ فِيهِ، عَلَى مَا يَخْتَارُ مِنْ مَرَاتِبِهِمْ وَدَرَجَاتِهِمْ فِي هَذِهِ الْمَرَاتِبِ.

فالمرتبة العليا: هي مرتبة المحسنين، وفيها درجات كثيرات.

والمرتبة الوسطى: هي مرتبة الأبرار، وفيها درجات كثيرات. وأصحاب هاتين المرتبتين سابقون في الخيرات بإذن الله.

والمرتبة الدنيا: هي مرتبة المتقين، وفيها درجات كثيرات. ولمرتبة المتقين درجةً علياً تبدأ بعدها مرتبة الأبرار، وأصحابُ الدرجة العليا من مرتبة المتقين هم المقتصدون، الَّذِينَ اقْتَصَرُوا عَلَى فِعْلِ الْوَاجِبَاتِ وَتَرَكُوا الْمَحْرَمَاتِ وَمَنْ يُلْحَقْ بِهِمْ.

وتأتي دونها درجاتُ الَّذِينَ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، وَلَمْ تَزِدْ سَيِّئَاتِهِمْ عَلَى حَسَنَاتِهِمْ زِيَادَةً فَاحِشَةً. وتأتي دون هذه الدرجات درجات الذي أُسْرِفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِكَثْرَةِ الْمَعَاصِي وَالْمُخَالَفَاتِ، وَزَادَتْ سَيِّئَاتِهِمْ عَلَى حَسَنَاتِهِمْ زِيَادَاتٍ فَاحِشَاتٍ.

وأصحابُ هَذَيْنِ الْمَسْتَوِيَيْنِ الْهَابِطَيْنِ: (الَّذِينَ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، وَالَّذِينَ أُسْرِفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ) يَشْتَرِكُونَ بِأَنْهَمُ ظَالِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ.

هَذَا مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ التَّعْبِيرَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ فِي عِدَّةِ نصوصٍ مُتَكَامِلَةِ الدَّلَالَاتِ فِيمَا بَيَّنَّهَا.

وَمَنْ كَانَ دَاخِلًا فِي الْإِسْلَامِ، وَسَالِكًا فِي صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، ضَمَّنَ دَرَجَةً مِنْ دَرَجَاتِ مَرَاتِبِهِمْ، وَمُنْتَمِيًا إِلَى جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَالْمَفْرُوضُ فِيهِ أَنْ يَجْتَهِدَ لِتَعَلُّمِ شُرَائِعِ الْإِسْلَامِ، وَمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ خَيْرٍ، وَمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنْ شَرٍّ.

فما أمر الله به في الإسلام من خير، يدخل تحت عنوان «المعروف».

وما نهى الله عنه في الإسلام من شر، يدخل تحت عنوان «المنكر».

والأصل أن تكون وظيفة عمل إصلاح المجتمع الإسلامي وحمانيته من الانحراف والانهيار بالبيان، نصحاً وإرشاداً وأمرأً بالمعروف ونهياً عن المنكر، إذ المفروض في المسلمين أن يكونوا قد عِلِّمُوا أوامر الدين ونواهيهِ، فعلموا ما يدخل تحت عنوان «المعروف» وعِلِّمُوا ما يدخل تحت عنوان «المنكر».

ولكن انتشار الجهل بين المسلمين، وانتشار الانحرافات الفكرية والمفهومات الباطلات، والبدع والخرافات، ووافدات الغزو الفكري ممّا صدّره أعداء الإسلام إلى شعوب الأمة الإسلامية، أدّى إلى أن يكون كثير جداً من المسلمين لا يعلم «المعروف» في الدين، حتّى يعمل به، ويحثّ عليه أهله وذويه، ولا يعلم «المنكر» في الدين، حتّى يجتنبه ويحثّ على اجتنابه أهله وذويه.

فهؤلاء لا يُلائمهم أن يُوجّه لهم الأمر بالمعروف الذي لا يعلمون أنّه يدخل تحت عنوان «المعروف».

ولا يُلائمهم أن يُوجّه لهم النهي عن المنكر الذي لا يعلمون أنّه يدخل تحت عنوان «المنكر».

بل ينبغي أن تُوجّه لهم الدّعوة بغاية الرّفق والحكمة ليعلموا ما يجهلون أنّه يدخل تحت عنوان «المعروف» وأنّه يجب عليهم أن يعملوا به، وليعلموا ما يجهلون أنّه يدخل تحت عنوان «المنكر» وأنّه يحرم عليهم أن يفعلوه ويرتكبوا إثمه، فإذا عِلِّمُوا وأعلّنوا استجابتهم وطاعتهم صار من المناسب أن يُوجّه لهم بالنسبة إليه الأمر بالمعروف والنّهْي عن المنكر.

يضاف إلى ما سبق أنّ الأعمال التي تَدْخُلُ في درجات مرتبة البرّ، أو درجاتِ مَرْتَبَةِ الإِحْسَانِ، من الأعمالِ الصَّالِحَةِ التي يَنْبَغِي أَنْ يُنْدَبَ المسلمونَ إليها ندباً تَطَوُّعِيّاً، لا تَضَلُحُ معها سياسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل تُلائمها الدَّعْوَةُ بِغَايَةِ الرَّفْقِ، والتشجيع على الأخذ بها بأسلوب النَّدْبِ التَطَوُّعِيِّ، فمن وَجَدَ في نَفْسِهِ استعداداً وَهَمَّةً لأن يرتقي في درجات السابقين في الخيرات بإذن الله، توسَّعَ في أعمال البرِّ لِيَرْتَقِيَ فِي درجات الأبرار، وزادَ في إِحْسَانِ عَمَلِهِ حَتَّى كَانَهُ يَرَى رَبَّهُ وهو بين يَدَيْهِ يَعْبُدُهُ، لِيَرْتَقِيَ فِي درجات المحسنين .

إنّ ترك المنذوباتِ والسُّنَنِ والآدابِ، وارتكاب المكروهات وما هو خلاف الأولى ليس من المنكرات حتّى تستعمل فيها عبارات النهي الإلزامي التي تستعمل في النهي عن المنكر، واتخاذ سياسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالنسبة إلى هذه الأمور سياسة سيئة منفرة .

وإذا وُجِدَ في بعض هذه الأمور خلافٌ عند أهل الاجتهاد من علماء المسلمين بين الوجوب والندب، أو بين التحريم والكرهية، فمن الخير في الإرشاد إليها الابتعادُ عن سياسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاقْتِصَارُ على الدعوة بالرفق والحكمة والتشجيع .

لكن ينبغي للداعي والأمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يأخذ نفسه بالأكمل دوماً، ما استطاعَ إلى ذلك سبيلاً، ليكون أُسْوَةً حَسَنَةً للمتّقين، وإماماً صالحاً يُقْتَدَى به، على أنّه قد يكون لبعض هؤلاء ظروفٌ خاصةٌ بيئيةٌ في مجالاتِ أنشطتهم يحسُنُ مَعَهَا الأخذُ بسياسة الترخُّصِ بعدم الالتزام بما هو الأفضل والأكمل دوماً، كمن يقوم بالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضمن أقليةٍ مُسْلِمَةٍ، في بلدان أهل الكفر، أو في بلدان كثيرة الانحراف من بلدان العالم الإسلامي .

الخلاصة:

● سياسة الدعوة إلى سبيل الله وظيفته من وظائف الأمة الإسلامية، التي يضطلع بمهامها المؤهلون علمياً وفكرياً ونفسياً وبيانياً وخلقياً وسلوكياً، للقيام بها، على مقادير معرفتهم الصحيحة الثابتة من الدين مع التزامهم بواجبات الدعوة وآدابها، وهي توجه:

١ - لمن هم خارج صراط الإسلام الذي يُدْعَوْنَ إلى الدخول فيه، وسلوكه مع المؤمنين المسلمين، على وفق مرضي الله فيه، وإلى الانتماء الإرادي إلى الأمة الإسلامية الربانية الواحدة.

٢ - وللمسلمين الذين هم بسبب جهلهم بشرائع الإسلام وأحكامه، وبسبب انتشار الأفكار الباطلة والانحرافات والخرافات والبدع لديهم، بمثابة غير الداخلين في صراط الإسلام.

٣ - وللمسلمين الذين يُنْدَبُونَ نَدْباً تَطَوُّعِيّاً للارتقاء في درجات الأبرار ودرجات المحسنين.

● وسياسة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وظيفته من وظائف الأمة الإسلامية التي يضطلع بمهامها المؤهلون علمياً وفكرياً ونفسياً وبيانياً وخلقياً وسلوكياً، للقيام بها على مقادير معرفتهم الصحيحة الثابتة من الدين، مع التزامهم بواجبات هذه الوظيفة وآدابها، وهي توجه:

للمسلمين العالمين بالفروض والواجبات الإسلامية، فهم يَعْلَمُونَ دخولها تحت عنوان «المعروف» والعالمين بالمحرمات الإسلامية، فهم يَعْلَمُونَ دخولها تحت عنوان «المنكر».

إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عملٌ إرشاديٌّ تذكيريٌّ، يُوجِّهُ لِكُلِّ مسلم في حدود ما يَعْلَمُ عَامَّةُ المسلمين من الواجبات والمحرمات الدينية.

فما هو واجبٌ معلومٌ الوجوب عند جماهير المسلمين يُطلق عليه عنوان «المعروف» كما سبق بيانه في التعريفات .

وما هو حرامٌ معلومٌ الحُرْمَة عند جماهير المسلمين يُطلق عليه عنوان «المنكر» كما سبق بيانه في التعريفات .

فالتذكيرُ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يوجّه للذين عرفوا الواجب في الدّين فهو «معروف» لديهم، وعرفوا المحرّم في الدّين فهو «منكر» لديهم .

والمذكّرُ إذا رأى شخصاً مُسْلِماً جاهلاً ببعض الواجبات أو المحرّمات الدينية فعليه أن يُعلّمه، ويكون بالنسبة إليه في ذلك داعياً هادياً مُرشدًا، ولا يَصِحُّ أن يقف منه موقف الأمر بالمعروف النَّاهي عن المنكر، لأنّ الأمر الذي يُريدُ أن يُقدّم له التّصحّح حوله لم يَصِرْ بعدُ لَدَيْهِ معروفاً إذا كان من الواجبات، ولا مُنكراً إذا كان من المحرّمات .

* * *

- ٢ -

مادة فعل «دعا» في اللغة وفي النصوص الدينية

جاء في كتب اللغة أنّ الدّعوة، والدّعاء، والدّعو، والدّعو، والدّعو، والدّعاية، والدّاعية، بعضها مصادر وبعضها بمثابة المصادر لفعل «دعا - يدّعو» بمعنى: نادى يُنادي، وَطَلَبَ يطلب، وشأن النّداء لأمر ما، أو طلبِ أمرٍ ما، أن يكون برفق ولينٍ وتَلَطُّفٍ، وقد يُصاحبه أحياناً استعطافٌ واستجداءٌ واستغاثةٌ واستثارةٌ للعواطف الدافعة للاستجابة .

يقال لغة: دَعَا الرَّسُولُ قَوْمَهُ إِلَى دِينِ اللَّهِ دَعْوَةً، وَدُعَاءً، وَدَعَا، وَدَعْوَى، وَدِعَايَةً، وَدَاعِيَةً، إِذَا نَادَاهُمْ، وَطَلَبَ مِنْهُمْ الدَّخُولَ فِيهِ، وَحَثَّهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ فِيهِ، وَعَلَى الْإِسْلَامِ وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالانْتِمَاءَ إِلَى الْأُمَّةِ الْمُؤْمِنَةِ الْمُسْلِمَةِ.

ويقال: دَعَا فُلَانٌ إِلَى مَذْهَبِهِ غَيْرِ الدَّخِيلِينَ فِيهِ، إِذَا نَادَاهُمْ وَطَلَبَ مِنْهُمْ اعْتِقَادَ صِحَّتِهِ، وَالدَّخُولَ فِيهِ وَسُلُوكَهُ.

ويقال: دَعَا الشَّيْطَانُ جِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ، أَي: نَادَاهُمْ وَطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُ، فَيَكْفُرُوا بِرَبِّهِمْ، وَاسْتَعْمَلَ لِإِغْرَائِهِمْ وَإِغْوَائِهِمْ وَسَائِلَ الاستهواءِ، وَالإِطْمَاعِ بِالْبَاطِلِ، وَإِرْضَاءِ الشَّهَوَاتِ، وَغَرَضُهُ أَنْ تَكُونَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِمُ الْعَذَابَ فِي النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ.

ويقال: دَعَا أُمَّةٌ الضَّلَالِ أَقْوَامَهُمْ إِلَى اتِّبَاعِ طَرَائِقِهِمُ الضَّالَّةِ، وَإِلَى نُصْرَتِهِمْ عَلَى مَنْ خَالَفَهُمْ.

وجاء في كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل:

«أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمْتَ تَسَلَّمَ...» وفي رواية: «أَدْعُوكَ بِدَاعِيَةِ الْإِسْلَامِ...» أَي: بِدَعْوَةِ الْإِسْلَامِ.

وَالدَّعْوَةُ إِلَى شَيْءٍ مَا تُقَابِلُ بِأَحَدٍ أَمْرِينَ:

● إِمَّا بِالاسْتِجَابَةِ وَالِاتِّبَاعِ.

● وَإِمَّا بِالرَّفْضِ وَالِامْتِنَاعِ.

وُتَّعَمَلُ هَذِهِ الْمَادَّةُ بِمَعْنَى طَلَبٍ مَرْغُوبٍ فِيهِ، مِمَّنْ تُرَجَى مِنْهُ اسْتِجَابَتُهُ، كَدُعَاءِ الْمُؤْمِنِ رَبَّهُ أَنْ يَهَبَهُ مَا يَرْعَبُ فِيهِ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا، أَوْ خَيْرِ الْآخِرَةِ، وَهَذَا الْمَعْنَى لَا يَخْرُجُ عَنْ أَصْلِ الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةِ.

وبما أن هذا الدعاء الموجّه لمدعُوٍّ غائبٍ عن الحواسِّ يدخلُ في عموم العبادة، فقد حصلَ توسُّعٌ في معنى الدعاء، فصار بمعنى العبادة، فيقالُ: دعا المؤمنُ رَبَّهُ بمعنى عبدهُ.

ومن عبادة الله ذكرُهُ بالأذكار التي يحبُّ من عباده أن يذكرُها بها، ولهذا جاء في قول الرسول ﷺ الذي رواه الترمذي عن عمرو بن شعيبٍ عن أبيه عن جدِّه، أن النبي ﷺ قال:

«خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». قال الترمذي: حديث حسن.

فجعلَ الرسول ﷺ هذا الذكْرَ دُعَاءً، لأنه لون من ألوان عبادة الله عزَّ وجلَّ، مع ما في الاشتغال بذكر الله من تعويضٍ يُعَادِلُ أفضلَ ما يسألُ السائلون، كما جاء في بعض الأحاديث.

ومن عبادة اللّهِ الدَّعْوَةُ إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة، وعلى هذا يمكن أن نفهم قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الجن/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول):

﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۗ﴾

أي: لما قام رسولُ الله محمد ﷺ يعبُدُ رَبَّهُ بالدَّعْوَةِ إلى سبيله في قومِهِ، عَادَاهُ قَوْمُهُ، واجتمعوا ضِدَّهُ، وأحاطوا به ليتخلَّصوا مِنْهُ وَمِنْ دَعْوَتِهِ، حتَّى كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ فِي حَزْبِهِمْ لَهُ وَمَقَاوِمَتِهِمْ لِدَعْوَتِهِ مجتمعين كاجتماع الشَّعْرِ والصُّوفِ المتلبَّد، الذي ضغط بعضه على بعض.

وحول هذه المعاني التي سبق بيانها جاء استعمالُ مادَّة «دَعَا» ومشتقَّاتها في التَّصْوِصِ القُرْآنِيَّةِ والحديثية، ونلاحظ فيها كلاًها أن الدَّعْوَةَ شَيْءٌ غَيْرُ الأَمْرِ

بالمعروف والنهي عن المنكر حتماً، وأنها تكونُ نداءً وتزغيباً في قبولِ أمرٍ غيرِ مُلتزمٍ بهِ سابقاً، ولم يُؤخذْ بالتزامه عهدٌ ولا بيعةٌ .

أما وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتوجّه لمن بايع على الإسلام، وأعلن الالتزام بأحكامه وشرائعه، وعرفَ تفصيلاً أحكامَ ما يؤمّرُ بهِ فيه، وما يُنهي عنه فيه، مما هو معلومٌ لدى عامّة المسلمين .

فمن النصوص التي جاء فيها استعمال مادة «دَعَا - يَدْعُو» ما يلي :

١ - قول الله عزَّ وجلَّ لرسوله ﷺ في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول) بشأن المشركين من قومه :

﴿ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ .

واذعُ إلى ربِّك: أي: واذعُ إلى الإيمانِ بهِ واتباع صراطه المستقيم الكافرينَ والمشركين .

وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ: أي: وَلَا تَعْبُدْ مَعَ اللَّهِ فِي عِبَادَتِكَ الْخَاصَّةِ، وَفِي عِبَادَتِكَ بِدَعْوَتِكَ إِلَىٰ رَبِّكَ إِلَهًا آخَرَ، إِذْ الْحَقُّ فِي الْوُجُودِ أَنَّهُ: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وكيف يكون معه إلهٌ غيرُهُ؟ ف ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ أي: إِلَّا ذَاتَهُ .

٢ - وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣٣) .

أي: لا يُوجدُ قائلٌ مِنَ النَّاسِ يَقُولُ قَوْلًا وَيَكُونُ قَوْلُهُ أَحْسَنَ مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ بِمِقَالِهِ، فَهَذَا الْقَائِلُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ مِثْلَهُ، أَوْ غَيْرِ دَاعٍ إِلَى

الله، فإن كان داعياً إلى الله فقد اشتركا في جنس أحسن القول، وإن كان غير داعٍ إلى الله، فلن يرقى قوله إلى قول الداعي إلى الله في سمو الغاية، والآثار الحميدة، مهما كان ذا جمال أدبي زخرفي رائع.

لكن أفضلية قول الداعي إلى الله مشروطة بأن يكون الداعي في سلوكه الخاص ملتزماً بالعمل الصالح من قبل دعوته إلى الله، ليكون قدوة حسنة لمن يدعوهم، وبأن يُعلن للجميع بأنه واحد من المسلمين، فليس له ميزة خاصة على سائر المسلمين بإعفاءات خاصة أو تسهيلات، أو تقليل واجبات، أو إباحة محرمات أو نحو ذلك، وهكذا كان الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، باستثناء بعض خصوصيات تقتضيها رسالتهم، وأما التكليف فهم أكثر الناس أعباء وواجبات، وأكثرهم بلاء.

٣ - وقول الله عز وجل في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول)

يحكي مقالة نوح عليه السلام في شكواه لربه من عدم استجابة قومه لدعوته:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿١﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٢﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا ﴿٣﴾ فِيءَآذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٤﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴿٥﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٦﴾ ﴾ .

فجاء في هذا التص استعمال: «دَعَوْتُ - دُعَائِي - دَعَوْتُهُمْ» بمعنى ناديتهم وطلبت منهم أن يؤمنوا بك ربّي، وينبذوا الشرك، ويتبعوا سبيل الهدى الذي أنزلته، فلم يستجيبوا.

٤ - ولما كان المنافقون خارجين عن سبيل الله في حقيقة الأمر، كان المناسب في توجيههم ليحكم الله ورسوله بينهم أن تُستعمل سياسة الدعوة، لا سياسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن المعروف لدى المسلمين ليس معروفاً في اعتقادهم، ولأن المنكر لدى المسلمين ليس منكراً في اعتقادهم، ولهذا جاء في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) بشأنهم:

﴿ وَيَقُولُونَ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِبِينَ ﴿٤٩﴾ .

فجاء في هذا النَّصِّ بشأنِ الْمُتَافِقِينَ استعمالُ عبارة ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ لِأَنَّ حَالَهُمْ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ حَالُ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يُدْعَوْنَ دَعْوَةً، لَا حَالُ الْمُؤْمِنِينَ الْعَالِمِينَ الَّذِينَ يُؤْمَرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيُنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ .

٥ - ولَمَّا كَانَ الْقِتَالُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَمَلًا مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ وَليْسَ أَمْرًا وَاجِبًا وَتَكْلِيفًا لِأَزْمًا تَقْتَضِيهِ مَرْتَبَةُ التَّقْوَى، كَانَ الْمُنَاسِبُ فِي تَوْجِيهِ الْمُؤْمِنِينَ لَهُ أَنْ تُسْتَعْمَلَ سِيَاسَةُ الدَّعْوَةِ لَا سِيَاسَةَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَهَكَذَا كَانَ حَالُ الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِبَّانَ غَزْوَةِ بَدْرٍ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خُطَابًا لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي سُورَةِ (الأنفال/ ٨ / مصحف/ ٨٨ / نزول):

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ . . . ﴾ (٦٤) .

لَقَدْ كَانَتِ الدَّعْوَةُ يَوْمَئِذٍ إِلَى قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ وَكَانَ نَدْبًا، وَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ اسْتِجَابَتَهُمْ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ سَتَكُونُ سَبَبَ حَيَاتِهِمْ .

أَمَّا الَّذِينَ يُسْتَشْهِدُونَ فَهَمُ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، وَأَمَّا الْآخَرُونَ فَإِنَّ اللَّهَ يَمْنَحُهُمُ النَّصْرَ عَلَى عَدُوِّهِمْ فَيَكُونُ ذَلِكَ حَيَاةً عَزِيْزَةً سَعِيدَةً لَهُمْ، بَعْدَ مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ حَيَاةِ الذَّلِّ وَالْإِضْطِهَادِ وَالْخَوْفِ، وَيَكُونُ حَيَاةً لِلدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِذْ تَمْتَدُّ وَتَنْتَشِرُ بِسَبَبِ الظَّفَرِ الَّذِي يُحَقِّقُهُ اللَّهُ لَهُمْ عَلَى مُشْرِكِي مَكَّةَ .

٦ - وَلَمَّا كَانَ الْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِإِعْدَادِ الْمُسْتَطَاعِ مِنَ الْقُوَّةِ، بُغْيَةً مُوَاجَهَةَ الْأَعْدَاءِ بِالْقِتَالِ، أَوْ بُغْيَةً نَشْرَ الْإِسْلَامِ، عَمَلًا تَطَوُّعِيًّا مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ، وَلَمْ يَكُنْ فَرِيضَةً وَاجِبَةً كَالزَّكَاةِ، كَانَ الْمُنَاسِبُ فِي تَوْجِيهِ

المؤمنين له أن تُستعمل سياسة الدَّعوة، لا سياسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال الله عز وجل خطاباً للذين آمنوا في سورة (محمد/٤٧ مصحف/٩٥ نزول):

﴿ هَتَأْتُهُمْ هَتُؤَاءٌ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾

إنه لما كان الإنفاق في سبيل الله الذي جاء في هذه الآية أمراً تطوعياً لا أمراً واجباً مفروضاً، كان المناسب أن يجيء فيها عبارة: ﴿ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾.

٧- ويقابل الدَّعوة إلى سبيل الله لِمَنْ كَانَ خَارِجاً عَنْهُ، الدَّعوة إلى سبيل الطَّاغوت لدخوله والسير في متاهاته، والدَّعوة إلى سُبُلِ الشَّيَاطِينِ وَأُتَمَّةِ الضلال في الأرض، والدَّعوة إلى مذاهبهم وكفرياتهم.

وقد جاءت عدَّة نصوص قرآنيَّة تُبَيِّنُ هذا:

● فقال الله عز وجل في سورة (فاطر/٣٥ مصحف/٤٣ نزول) خطاباً للناس أجمعين:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ۗ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾

فالشيطان يدعو الناس، ليستجيب له منهم من يكونون حِزْبَهُ، فإذا صاروا حِزْبَهُ قَادَهُمْ أَوْ سَاقَهُمْ فَكَانُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ يَوْمَ الدِّينِ.

● وقال الله عز وجل بشأن فرعون وجنوده في سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول):

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يُدْعَوْنَ إِلَى الْكَارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾

أي: وجعلناهم بمقتضى النظام العام الذي فطرنا الناس عليه، إذ جعلناهم ذوي خصائص قيادية ومخيرين مُمتَحنين في الحياة الدنيا، أئمةً يَدْعُونَ إلى مذهبهم الكفريّ الباطل، فمن استجاب لهم كان مصيره إلى عذاب النار، وكلُّ من الدّاعين والمستجيبين يعملون أعمالهم باختيارهم الحرّ، بمقتضى النظام التكوينيّ العامّ الذي جعله اللّهُ في فطرته التي فطر الناس عليها.

● وقال تعالى في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزل) مبيّناً ما يقول الشيطان يوم القيامة للذين استجابوا له بعد أن يقضي الله بين العباد:

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَمْوَأ أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنشد بِمُصْرِخِي ۗ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ .

فبين الشيطان أنه لم يكن منه إلا أن دَعَاهم فاستجابوا له، فلم يكن منه إكراه ولا تكليف إلزامي.

ما أنا بمصرخكم: أي: ما أنا بمغيثكم.

● فمن استجاب وانتظم في حزب الشيطان، أو في حزب إمام من أئمة الكفر والضلال، وجد نفسه خاضعاً للأوامر والنواهي التي توجّه له من قِبَل مَنْ جعله لنفسه إماماً.

وقد أبان الله أن الأتباع يخاصمون أئمتهم يوم الدين، بأنهم كانوا يمكُرُونَ بهم ليلاً ونهاراً، فيأمرونهم بأن يكفروا بالله وأن يجعلوا له أنداداً، فقال جلّ وعلا في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزل):

﴿ . . . وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ

الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ
 اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لَنْ نَصَّدَّقَكَ عَنْ هُدًى بَعْدَ إِجَاءِ كُرْبَلَىٰ كُنْتُمْ تَجْرِمُونَ ﴿٣٢﴾
 وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ
 وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْتَدِلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا
 هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

لقد كانوا يوجهون لهم الأوامر والنواهي لأنهم استجابوا لدعوتهم،
 وانتظموا في حزبهم.

* * *

منزلة الدَّعوة إلى دين الله في سلم الأولويات الجهادية

على المسلمين جميعاً ولا سيما الدعوة إلى الله أن يضعوا نُصْبَ أعينهم دوماً أن الدعوة إلى دين الله بين الناس، بعد مجاهدة النفس لإصلاحها، تحتل منزلة الدرجة الأولى في مُدَرَج الأولويات الجهادية لإعلاء دين الله ونشره في العالمين.

إنَّ الوضعَ الذي يتهيأ به انتشار الإسلام عن طريق الدعوة إلى الله هو الفتح الحقيقيُّ الأعظم عند الله، أمَّا نَصْرُ المسلمين على أعدائهم، وسُقُوطُ بُلدان الكفر في أيدي المسلمين بالقوة المسلَّحة، فهو فَتْحٌ من الدرجة الثانية، إلا أن يكون سبباً لانتشار الإسلام ودُخُولِ النَّاسِ فيه أفواجاً.

فقد وصف الله عزَّ وجلَّ في أوَّل سورة (الفتح/ ٤٨) مصحف/ ١١١ نزول) صُلْحَ الحديبية الذي جَرَى بين الرسول ﷺ ومشركي مَكَّة بأنَّه فتح مبين، فقال تعالى خطاباً لرسوله:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾

أي: إنَّا فتحنا لك فتحاً واضحاً جلياً لانتشار الإسلام وامتداده عن طريق الدَّعوة إلى دين الله، وصراطه المستقيم.

وذلك لأنَّ الدَّعوة إلى الله قد انطلقت بسببه دون أن تَقِفَ في وجهها

عوائق من ألد أعدائها يومئذ، وهم مشركو قُريش، لقد انطلقت الدعوة إلى الإسلام بعد صلح الحديبية في مكة، وفيما حولها، وفي قبائل العرب، وأخذ الإسلام ينتشر بحرية، وسعى الدعاة المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ يدعون إلى الإسلام آمنين مطمئنين، في أهل مكة وفي مختلف قبائل العرب، ودخل في الإسلام بالدعوة بعد صلح الحديبية خلقٌ كثير.

قال الزهري: فما فُتِحَ في الإسلام فَتُحَ قَبْلَهُ كَانَ أَعْظَمَ مِنْهُ، إِنَّمَا كَانَ الْقِتَالُ حَيْثُ التَّقَى النَّاسُ، فَلَمَّا كَانَتْ الْهُدْنَةُ وَوُضِعَتِ الْحَرْبُ، وَأَمِنَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَالتَّقُوا فَتَفَاوَضُوا فِي الْحَدِيثِ وَالْمُنَازَعَةِ، فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدٌ بِالْإِسْلَامِ يَعْغُلُ شَيْئًا إِلَّا دَخَلَ فِيهِ، وَلَقَدْ دَخَلَ فِي تَيْنِكَ السَّنَتَيْنِ (أي: من صلح الحديبية الذي كان في شهر ذي القعدة من سنة ست للهجرة حتى فتح مكة) مَثَلٌ مَنْ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرَ^(١).

قال ابن هشام: والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربع مئة، في قول جابر بن عبد الله، ثُمَّ خَرَجَ عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ بِسَنَتَيْنِ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ.

أقول:

ويغلط كثير من حاملي راية الجهاد في سبيل الله، فيَقْفِرُونَ عن إدراك هذه الحقيقة، ولا يَضَعُونَ من صُور الجهاد في سبيل الله نُصَبَ أَعْيُنُهُمْ إِلَّا الْجِهَادَ بِالْقِتَالِ الَّذِي هُوَ بِمَنْزِلَةِ ذُرْوَةِ السَّنَامِ مِنَ الْجَمَلِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ ذُرْوَةَ السَّنَامِ تَقَعُ فِي الْحَاشِيَةِ الْمَرْتَفِعَةِ مِنْ جِسْمِ الْجَمَلِ، فَلَا يُبْدَأُ بِهَا قَبْلَ أَنْ يَسْتَوْفِيَ الْجَمَلُ مَطَالِبَهُ، حَتَّى يَنْهَضَ وَيَقُومَ عَلَى قَوَائِمِهِ الْأَرْبَعِ، وَيَصِيرُ قَادِرًا عَلَى حَمْلِ الْأَثْقَالِ، وَاجْتِيَازِ الصَّحَارِيِّ وَالْوُدْيَانِ، وَارْتِقَاءِ الْجِبَالِ.

* * *

(١) انظر سيرة ابن هشام (في أخبار صلح الحديبية).

المقولة الثامنة

أقسام الدعاة إلى دين الله والآخرين بالمعروف الناهين عن المنكر

فريق حَمَلَةٌ رسالة الدعوة إلى دين الله، وفريق حَمَلَةٌ رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كلُّ منهما ينقسم إلى فئتين كُبْرَيَيْنِ، وكلُّ فئة من هاتين الفئتين الكُبْرَيَيْنِ ينقسمون إلى أقسام ذوات مستوياتٍ ودرجاتٍ متفاوتة، على حسب تفاضل المؤهلات والقدرات والمواهب لدى الأفراد.

وأَقْتَصِرُ على ذكر الفئتين الكبيرتين، وهما الفئة العامة، والفئة الخاصة.
أما الفئة العامة: فهي فئة غير المتخصصين، ويدخُلُ فيها كلُّ مؤمن مسلم يَعْلَمُ شيئاً من دين الله علماً يقينياً، شهد له به عالم متخصص من علماء الذين الموثوق بهم لدى جماهير علماء الدين الإسلامي المتخصصين.
وأفرادُ هذه الفئة العامة يتحمَّلون من مسؤولية دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، ومن مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على مقادير ما يعلمون بيقين من أمور الدين.

ويؤدِّي هؤلاء رسالتهم ما وجدوا لأدائها سبيلاً، خلال أعمالهم، وأنشِطَتِهِمْ، وفي أوقات فراغهم، ويتحرَّون أداءها متلطفين بالتوجيه والتبليغ

والتعليم والنُّصْحِ لمن يَأْتُسُونَ أَنَّهُمْ ذَوُو حَاجَةٍ لَهَا، تعليمًا أو تذكيرًا أو موعظةً بالترغيب والترهيب، ومن الخير دائماً أن يكون أداؤهم لرسالاتهم بصورة غير مباشرة، وأن تُتَنَهَّزَ فيها المناسبات العارضات، والمحادثات والمذاكرات والمداومات في مختلفِ أُمُورِ الحياة، التي لا يَشْعُرُ معها المقصودُ بالتوجيه والتعليم والنُّصْحِ والموعظة، أنَّ الحديث موجَّهٌ له قصداً.

ويكون هذا في مجال الأسرة، وفي مجالات الأعمال والأنشطة التي تكتسبُ بها معاش الحياة، وفي مجالس التسلية، ومجالس السمر، وعند كلِّ لقاء مع إنسان مُسْتَعِدٌّ لأن يستمع حديثاً، في إقامة أو سفر.

ويكون هذا أيضاً في مختلفات الأحوال، في الصحة والمرض، والسَّلْمِ والحرب، والنَّعْمَةِ والمصيبة، والعُسْر واليسر، والاستمتاع والبؤس، والمسرات والأحزان، والجدُّ والهزل، إلى غير ذلك من أحوال.

ومن صُورِ الأنشطة التي يمكن وَيَحْسُنُ أن يُؤدِّيَ أفراد هذه الفئة العامَّة رسالتهم بها ما يلي:

● بيان إتيان صَنَعَةِ الخالق في كونه - بيان أن الله واحدٌ لا شريك له في ربوبيته فلا يصحَّ عقلاً أن يُشْرِكَ الناس بعبادته شيئاً - حديثٌ حَوْلَ عَدْلِ الله وَحِكْمَتِهِ في خَلْقِهِ - حَدِيثٌ حَوْلَ أن الله قد خلق الناس ليمتحنهم في هذه الحياة الدنيا فلا بُدَّ أن يُحَاسِبَهُمْ على أعمالهم ويجازيهم - حديثٌ حَوْلَ الدار الآخرة والجنة والنار - حديثٌ حَوْلَ إعجاز القرآن وأنه حقٌّ لا رَيْبَ فيه، وأنَّ الْمُنْصِفِينَ من علماء العلوم الكونية من غير المسلمين يَدْخُلُونَ في الإسلام كلِّما اكتشفوا ما جاء في القرآن من حقائق علمية - إلى غير ذلك مما يَصْلُحُ في الدعوة.

● تعليمُ آيةٍ أو سورة من القرآن - تعليمُ حديثٍ صحيحٍ من أحاديث الرسولٍ تَلَقَّاهُ حَامِلُ الرسالة بالضَّبْطِ التام عن عالمِ بالدِّينِ متخصص - نَصِيحَةٌ

حول خلق من أخلاق الإسلام كالصدق، والأمانة، والعفة، والوفاء بالعهد والوعد، ورعاية حقوق الجار، ورعاية حقوق الفقراء والمساكين واليتامى والضعفاء، ومن الخير أن تكون هذه النصيحة بأسلوب غير مباشر، كعرض قصة فيها تحقيق المقصود والإقناع بالمراد - نصيحة بشأن وجوب اجتناب رذيلة خلقية أو سلوكية، كالظلم، والعدوان على حقوق الناس أو أعراضهم وكراماتهم، والقتل، وأكل أموال الناس بالباطل، والسرقه، والربا، والزنا، وغيرها من كبائر الإثم، ومن الخير دائماً أن تكون النصيحة بأسلوب غير مباشر.

● عَرَضُ حَدَثٍ مِنْ أَحْدَاثِ سِيرَةِ الرَّسُولِ ﷺ، أَوْ قِصَّةٍ مِنْ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ، أَوْ قِصَصِ الصَّحَابَةِ وَفَضَلَاءِ التَّابِعِينَ وَعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ قِصَّةٍ مِنْ قِصَصِ الْمَجْرِمِينَ الَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ أَوْ عَاقَبَهُمْ بِعَذَابٍ مَعْجَلٍ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ عَذَابِ الْآخِرَةِ.

قراءةٌ بحث من كتاب من كتب أحاديث الرسول ﷺ، أو من كتب الأخلاق، أو قراءة تفسير آية، أو سورة من كتاب مُعْتَمَدٍ لِدَى الْعُلَمَاءِ الْمُتَخَصِّصِينَ بِعِلْمِ الدِّينِ - قِرَاءَةُ قِطْعَةٍ أَدْبِيَّةٍ مِنْ شِعْرِ أَوْ نَثْرِ تَتَضَمَّنُ مَعَانِيَ دِينِيَّةً صَحِيحَةً.

إلى غير ذلك من أمورٍ كثيرةٍ جداً يَتَفَتَّقُ عَنْهَا ذَهْنَ حَامِلِ الرِّسَالَةِ، لِتَوْصِيلِ الْفِكْرَةِ أَوْ النَّصِيحَةِ أَوْ الْمَوْعِظَةِ لِمَنْ يُقْصَدُ تَبْلِيغُهُ أَوْ تَوْجِيهِهُ، كِاسْمَاعِ شَرِيطٍ مَسْجَلٍ لِأَحَدِ الْعُلَمَاءِ الْمُتَخَصِّصِينَ، وَكَعَرْضِ شَرِيطٍ فِدْيُو قَدْ سُجِّلَ عَلَيْهِ حَدِيثٌ دِينِيٌّ أَوْ حَوَازٍ دِينِيٍّ بَيْنَ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَهْلِ الْفِكْرِ وَالرَّأْيِ.

وقد دل على هذه الفئة العامة بالنسبة إلى رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قول الله عز وجل في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ .

وَدَلَّ عَلَيْهَا بِالنَّسْبَةِ إِلَى رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى دِينِ اللَّهِ، ذِكْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قِصَّةَ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ وَدَعْوَتِهِ لِقَوْمِهِ، وَقَدْ كَانَ مِنْ أَحَادِ النَّاسِ غَيْرِ الْمُتَخَصِّصِينَ، وَنَظِيرُهَا قِصَّةُ مُؤْمِنِ أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ الَّتِي جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ وَالَّتِي جَاءَ بَيَانُهَا فِي سُورَةِ (يَس/ ٣٦/ مِصْحَف/ ٤١ نَزُول) وَنُصُوصٌ مِنْ أَقْوَالِ الرَّسُولِ ﷺ سَبَقَ بَيَانُهَا فِي هَذَا الْبَابِ .

الفئة الخاصة: وهي فئة المتخصصين من حملة رسالة الدعوة إلى دين الله، أو من حملة رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهذه الفئة يجب أن يتحقق في كل فرد من أفرادها المؤهلات الملائمة للمستوى التخصصي الذي يقوم به، ومنها المؤهلات العلمية، والمؤهلات الفكرية، والمؤهلات البيانية، والمؤهلات النفسية والخلقية، مع الأوصاف الإيمانية والسلوكية التي تُرشح صاحبها لأن يكون من عباد الرحمن وإماماً للمتقين، ومع الالتزام بواجبات وآداب الدعوة إلى الله، إذا كان يحمل رسالة الدعوة إلى الله، والالتزام بواجبات وآداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا كان يحمل بين المسلمين هذه الرسالة.

وسياتي إن شاء الله تفصيل كل ذلك .

* * *

الفصل الثاني

أثر النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في إصلاح المجتمع الإسلامي وحمايته وصيانتته

وفيه مقولتان:

المقولة الأولى: نظرات تحليلية

وفيه خمس فقرات.

١ - ظاهرة تعاوية.

٢ - الجسدية الواحدة للمجتمع الإسلامي ومقتضياتها من الحماية والإصلاح.

٣ - من شروط بقاء التمكين للمؤمنين في الأرض.

٤ - حماية سفينة المجتمع الإسلامي من الغرق.

٥ - ما يجب على حامل الرسالة عند أدائها، وما يجب على من توجه له الرسالة.

المقولة الثانية: استعراض طائفة من النصوص.

المقولة الأولى

نظرات تحليلية

- ١ -

ظاهرة تعاونية

قال الله عز وجل في سورة (المائدة/ ٥ مصحف / ١١٢ نزول) خطاباً للذين آمنوا:

﴿... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْمُدُونِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

بالتأمل المتأنّي والتفكير الدقيق، نلاحظ أن التّصحّ والإزّشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالرّفق واللّين والموعظة الحسنة، ظاهرة اجتماعية تعاونية على البرّ والتّقوى بين أفراد وجماعات المجتمع الإسلاميّ المثالي.

فالإنسان الفرد ضعيفٌ عن السيطرة على أهواء نفسه وشهواتها، وكبح جماحها، ولا سيّما إذا نزّعه من الشيطان نزغاتٌ، وتواترت عليه وسائوسه وتسويلاته^(١)، وأحاط به قرناء الشّوء.

(١) التسويل: هو الإطعام بالباطل.

فهو مع الاستعدادِ برّبه في هذه الحالة يحتاج إلى مُسَاعَدَةٍ من أخٍ مؤمنٍ أو أكثر، لَتَقْوَى بهم إرادته، وَتَنَجِّلِي بهم بَصِيرَتَهُ، وعندئذٍ يستطيع أن يتغلب على نوازع نفسه، التي تَدْفَعُهُ إلى تلبية رغباتِ أهوائها وشهواتها الجانحات عن سِوَاءِ الصراطِ .

فنفسُ الإنسان متى انطلقت مُطْلَقَةً العِنَانِ، دُونَ قِيَادَةِ حَكِيمَةٍ من عَقْلِ رَشِيدٍ، وَإِرَادَةِ حَازِمَةٍ، جَارَتْ ذَاتَ اليمينِ أو ذَاتَ الشمالِ، وخرجت عن غايةِ حَدِّي الصراطِ المستقيمِ، وتوغَّلت في متاهاتِ السُّبُلِ والمسالكِ، التي تستدرج سَالِكَهَا إلى المهالكِ، إِذْ تَسْتَهْوِيهِ لارتكابِ كِبَائِرِ الإثمِ والعصيانِ، من الفِسْقِ إلى الفجورِ، فَالكُفْرِ والطغيانِ .

لكن المجتمع الذي يكونُ أفرادُهُ بعضهم على بعضٍ رُقْبَاءَ، رجلاً ونساءً، يكونُ له ضَغْطُ اجتماعيٌّ يَمْنَعُ الأفرادَ من الانحرافِ العَلَنِيِّ، ويكونُ لَهُ قُوَّةُ انتظامِ تَسْرِي في الأفرادِ، فَتُحَبِّبُ إلى نفوسهم الانسجامَ مع حركته وعاداته وتقاليده، وَتُكْرَهُ إليها الشُّذُودَ والخروجَ عن نظامِ مسيرته المشهودَةِ لِلْعُمُومِ، في حركته وعاداته وتقاليده وَمَحَابِّهِ وَمَكَارِهِهِ .

على أن الانحرافَ السَّرِيِّ الَّذِي قد يحدثُ من بعض الأفراد لا بُدَّ أن ينكشِفَ يوماً ما، وعندئذٍ يَخْضَعُ المنحرفُ للمراقبة الزائدة والمتابعة، وَتَتَوَجَّهُ له الضواغطُ الاجتماعيةُ القويَّةُ المقومة لاعوجاجه، والمعدلة لانحرافه .

وهذا من شأنه أن يُخَفِّفَ الانحرافَ في المجتمع إلى أدنى الحدود المُمكِنَةِ في واقع مجتمعاتٍ بشريَّةٍ سَوِيَّةٍ .

وإذْ جَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المؤمنين إخوةً، برابطة الإيمان والإسلام، مع رابطة الاشتراك في الإنسانية المنحدرة من أصل واحد، في حين أن الأخوة تستدعي التواددَ والتحاببَ والتعاونَ والتناصرَ والموالاتةَ بكلِّ معانيها، فالإخوة المؤمنون بعضهم أولياء بعض، وهذا يوجب أن يكون بعضهم رقباء على

بعض فيما يظهر من أمورهم، وأن يكون بعضهم لبعض أعواناً وأنصاراً على كلِّ عدوِّ لهم، حتَّى نفوسهم ووساوسِ شياطينهم، وما يُوحون إليهم من تسويلات، وأن يكون بعضهم لبعض نصيحة مُرشدين، ثمَّ أمرين بالمعروف وناهين عن المنكر، يُريدون لهم الخيرَ، ويكرهون لهم الشرَّ، ويخافون عليهم من الانزلاق إلى مهالكهم بالمعاصي وكبائر الإثم، ويخافون عليهم أن يكونوا من أهل النار، يُعذبون فيها مع المعذبين.

فِبدافعِ الأُخوةِ الإيمانيَّة، والمحبَّةِ النابعة منها، وبدافعِ ابتغاءِ رضوانِ الله والظفرِ بالمنازلِ الرفيعةِ بجَناتِ النعيم، وبمشاعرِ الرحمةِ بإخوانهم في الدِّين، يَنصرون كلَّ فردٍ منهم على نفسه، إذا نزعَتْ به إلى مَعْصِيَةِ رَبِّهِ، مُتَأَثِّراً بوساوسِ الشياطينِ ونزغاتهمِ وتَسْويلاتِهِمْ، فَيَقْدُمُونَ لَهُ التُّضْحِ بِسَدَادٍ فِي الرَّأْيِ، وَإِخْلَاصٍ فِي الْقَوْلِ، وَاسْتِعْطَافٍ بِالْمَوْدَةِ، وَيُرْشِدُونَهُ إِلَى الَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، وَيَأْخُذُونَ بِيَدِهِ بِرَفْقٍ وَلُطْفٍ وَمُسَاعَدَةٍ جَمِيلَةٍ، لِلتَّرْتِامِ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، وَيَحْمُونَهُ مِنَ الْانْزِلَاقِ، وَمِنَ الْعَثَرَاتِ، وَيُنْهَضُونَهُ إِذَا عَثَرَ، وَيُخْرِجُونَهُ مِنَ الْمَزَالِقِ إِذَا انْتَزَقَ فِيهَا.

فَإِذَا تَعَنَّتْ عَلَيْهِمْ، مُسْتَحِجًّا مَا هُوَ فِيهِ مِنْ لَذَاتِ مُحَرَّمَاتٍ، أَمْرُوهُ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَوُهُ عَنِ الْمُنْكَرِ، بِشَيْءٍ مِنَ الْحَزْمِ، وَأَعَانُوهُ عَلَى الْإِسْتِمْتَاعِ بِمَا أَبَاحَ اللَّهُ مِنْ لَذَاتٍ، عَسَى أَنْ يَغْلِبَ صَوْتُ الْحَقِّ النَّافِذُ مِنْ أُذُنَيْهِ إِلَى قَلْبِهِ، صَوْتُ نَفْسِهِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، وَصَوْتُ الشَّيْطَانِ الْمَوْسُوسِ دَاخِلِ نَفْسِهِ، يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْتِمْتَاعِ بِاللَّذَاتِ الْمُحَرَّمَاتِ، فَيَسْتَجِيبَ لَهُمْ وَيُطِيعَ، وَيَسْتَقِيمَ عَلَى صِرَاطِ الْهُدَى، فِي سُلُوكِهِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ.

وبهذا يَتَبَادَلُ الْمُؤْمِنُونَ مُسَاعَدَةً بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَنُصْرَةً بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى نَفْسِهِ، بِرَدِّعِهِ عَنِ ظُلْمِ نَفْسِهِ، وَعَنِ ظُلْمِ غَيْرِهِ، وَهَذَا يَأْتِي مَوْقِعَ الْقَوْلِ الْحَكِيمِ ذِي الْمَعْنَى الدَّقِيقِ الَّذِي قَالَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فِيمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ

والإمام أحمد والترمذي عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:
«انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا».

قيل: كيف أنصُرُهُ ظالماً؟!!!

قال: «تَخْجُزُهُ عَنِ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ».

- ٢ -

الجسدية الواحدة للمجتمع الإسلامي ومقتضياتها من الحماية والإصلاح

وبهذا التعاون التناصري بين المؤمنين المسلمين لحماية بعضهم بعضاً من الوقوع في معصية الله عز وجل، تظهرُ ذرورةٌ معاني كونهم بمثابة الجسد الواحد، الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهرِ والحُمى، كما أبان الرسول ﷺ فيما رواه مُسلمٌ والإمام أحمد عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى».

أي: تسارعت بقية الأعضاء لنصرتِه ومؤازرتِه وحمايته، ومشاركته الآلام، وللسهر من أجله، وارتفاع درجة حرارتها لإمداده بالمعونة، وإنقاذه من ورطته.

فبُنصرة المؤمنين بعضهم بعضاً على أنفسهم بالتضح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر برفقٍ وتلطُّفٍ وحُسنِ عبارة، وبراعةِ أسلوب، يظهرُ حقاً أن بعضهم أولياء بعض، إذ إنَّ من أبرز عناصر الولاية النَّصرة.

فمن معاني الولي: الناصر، والمحِبُّ، والتابع، والحليف، والمنعم، والمنعم عليه.

ومن أهم عناصر الثَّصْرَةِ نُصْرَةُ الإنسان على نوازغ نفسه، ونوازغ شياطينِ
الإنسِ والجنِّ، الذين يَسْتَهْوُونَهُ إلى معصية الله، التي تجرُّه إلى عَذَابِ أليمٍ .

ومن أجلِ هذا قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣
نزول) يَصِفُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ
اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٦) .

فأبانَ اللهُ تعالى في هذه الآية أنَّ من أهمِّ عناصر الوِلايَةِ بين المؤمنين
والمؤمنات أن يأمرَ بعضهم بعضاً بالمعروف، وينهى بعضهم بعضاً عن
المنكر، وقبَّلَ هذا يأتي في سلَمِ الإِصلاحِ التَّصْحُحِ والإرشاد، بمقتضى الترتيب
الطبيعيِّ للأمر، وبمقتضى اتِّباعِ السياسة التربويَّة القرآنيَّة .

وأبانَ اللهُ عزَّ وجلَّ في سورة (العصر/ ١٠٣ مصحف/ ١٣ نزول) أنَّ من
صفات النَّاجين من الخُسْرِ بَعْدَ الإيمان والعمل الصالح أنَّهم يتواصونَ بالحقِّ
ويتواصونَ بالصَّبْرِ، فهم يتعاوَنون فيما بينهم على أن يُوصيَ بعضهم بعضاً
بالحقِّ، وأن يُوصيَ بعضهم بعضاً بالصَّبْرِ، فهذا التواصي هو من أهمِّ عناصرِ
كونِ بعضهم أولياء بعض .

- ٣ -

من شروط بقاء التمكين للمؤمنين في الأرض

حتَّى الوعدُ باستخلافِ المؤمنين في الأرض بالحكم والسلطان المُعانِ
بالمُعونة الرِّبانيَّة، المستتبعُ بالوعد بأن يُمكنَ اللهُ لهم في الأرض ويجعلهم
دَوي قُوَّة وسلطان، مشروطٌ باتِّصافهم بصفات، منها أن يُواظبوا على الأمرِ

بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يكونَ هذا ظاهرة اجتماعية فيهم .

فقال الله عز وجل في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا
أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ
أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٦﴾
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٧﴾ .

وانزلَ اللهُ عز وجلَ بَعْدَهُ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ
وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ غَلِيبٌ ﴿١١﴾ .

فجعل الله من الصفات الدائمة للمؤمنين سواءً أكان لهم تمكينٌ في الأرض أم لم يكنْ لهم تمكينٌ أنْ يَعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ، وذلك بأنْ يَعْبُدُوهُ لا يشركون به شيئاً، ويطيعوا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويطيعوا الله ورسوله .

أما الَّذِينَ يُمَكِّنُ اللهُ لهم في الأرضِ بالقوة والسلطان فشرطُ بقاء هذا التمكين مع الصفات السابقات أن تكونَ لهم ثلاث صفات ظاهرات:

● إقامة الصلاة .

● وإيتاء الزكاة .

● والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر .

فالأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر مع ما يسبقه من وسائل تربوية منها النَّصْحُ والإرشاد إحدَى الظواهر اللازمة للمجتمع الإسلامي الذي يُمَكِّنُ له في الأرض، وَيَبْقَى له هذا التمكين .

فإذا اختلَّت شروطُ بقاء التمكين لهم في الأرض لم يكنْ لهم عند الله

وَعَدَّ بِأَنْ يُبْقِيَ لَهُمْ هَذَا التَّمَكِينَ الْمُعَانَ بِمَعُونَاتٍ غَيْبِيَّةٍ مِنْ لَدُنْهُ، بَلْ يَكْلُهُمْ
إِلَى أَنْفُسِهِمْ، وَإِلَى أَسْبَابِهِمْ.

- ٤ -

حماية سفينة المجتمع الإسلامي من الغرق

وبقيام أفراد وجماعات المجتمع الإسلامي بوظيفة التُّصْح والإرشاد،
والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وَفَقَّ المنهج التربويِّ القرآنيِّ، تسييرُ سفينةِ
المجتمَعِ الْمُؤْمِنِ المسلم في بَحْرِ الزَّمَنِ آمَنَةً مِنَ التَّعَرُّضِ لِلغَرَقِ، لِأَنَّ رُكَّابَهَا
يَسِيرُونَ بِهَا وَفَقَّ مِنْهُجِ اللَّهِ لَهُمْ، فَيَحْمِيهَا اللَّهُ لَهُمْ، بِسَبَبِ قِيَامِهِمْ بِحِمَايَتِهَا
وَحِرَاسَتِهَا الْمُسْتَمْرَّةِ، مُتَعَاوِنِينَ مُتَنَاصِرِينَ، مُتَنَاصِحِينَ، مُتَوَادِّينَ، أَمْرِينَ
بِالمَعْرُوفِ وَنَاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَخْذِينَ عَلَى أَيْدِي الْمُفْسِدِينَ يَمْنَعُونَهُمْ مِنْ
خَرَقِ السَّفِينَةِ بِاسْمِ حَرِّيَاتِهِمْ الْفَرْدِيَّةِ، وَذَرَائِعِهِمُ الْمُضَلَّلَةَ.

فَكُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ رَقِيبٌ وَحَارِسٌ وَقَائِمٌ بِوَجْهِهِ ضَمَّنَ مَجَالَ حَرَكَتِهِ فِي
مَجْتَمَعِهِ، فَإِذَا ضَعُفَتْ إِرَادَةُ أَحَدِهِمْ فِي صِرَاعِهِ مَعَ نَفْسِهِ، وَمَالَ إِلَى الْإِنْحِرَافِ
أَعَانَهُ أَخُوهُ الْمُؤْمِنُ الْقَرِيبُ مِنْهُ، فَصَحَّحَهُ وَأَرْشَدَهُ وَأَنْهَضَهُ مِنْ كِبَوْتِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُ
بِالمَعْرُوفِ وَنَهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ بِحِزْمٍ إِذَا لَمْ يَسْتَجِبْ بِالرَّفْقِ، فَإِذَا تَمَادَى أَخَذَ
عَلَى يَدِهِ بِقُوَّةٍ إِنْ تيسَّرَ لَهُ ذَلِكَ، وَإِلَّا اسْتَعَانَ بِمُؤْمِنِينَ آخَرِينَ فِي دَائِرَةِ حَرَكَتِهِ
الْمُنْحَرَفِ، فَإِذَا عَظُمَ الْإِنْحِرَافُ فِي الْمَجْتَمَعِ تَدَخَّلَتْ دَائِرَةٌ أَوْسَعُ مِنْ دَائِرَةِ
حَرَكَتِ الْمُنْحَرَفِينَ، وَهَكَذَا حَتَّى يَهْبَّ أَهْلُ الْبَلَدِ لِتَقْوِيمِ الْإِنْحِرَافِ وَتَغْيِيرِ
الْمُنْكَرِ، وَتَتَسَّعُ الدَّوَائِرُ كُلَّمَا تَمَادَى الْإِنْحِرَافُ فِي الْإِتْسَاعِ، وَتَتَدَخَّلُ الدَّوَائِرُ
الْكُبْرَى لِلْقَمْعِ إِذَا كَانَ الْمُنْكَرُ مِمَّا يَخْشَى مِنْهُ غَرَقُ سَفِينَةِ الْمَجْتَمَعِ.

ويبدأ تغيير المنكر بالإنكار القلبي، الذي يظهر له آثار في قسَمَاتِ
الوَجْهِ، وَحَرَكَاتِ الْجِسْمِ، وَأَبْرُزُهَا مَفَارِقَةُ مَجْلِسِ الْمُنْكَرِ، ثُمَّ بِالْإِنْكَارِ

اللِّسَانِي، نصحاً وإرشاداً فأمرأً بالمعروف ونهياً عن المنكر، ثُمَّ بالتَّغْيِيرِ الْعَمَلِيّ بِالْيَدِ إِذَا كَانَ الْقَائِمُ بِهَذَا التَّغْيِيرِ أَوْ الْقَائِمُونَ بِهِ يَمْلِكُونَ ذَلِكَ، دُونَ أَنْ يَتَسَبَّبَ عَمَلُهُمْ بِشَرِّ أَكْبَرَ مِنْ وَقُوعِ الْمُنْكَرِ، هَذَا هُوَ الْمَنْهَجُ الْقُرْآنِيُّ الْإِصْلَاحِيّ الَّذِي يُسْتَفَادُ مِنْ قَوَاعِدِهِ التَّرْبَوِيَّةِ الْعَامَّةِ، وَعَلَيْهِ يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ قَوْلُ الرَّسُولِ ﷺ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ».

إِنَّ دَلَالََةَ التَّرْتِيبِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ تَتَعَلَّقُ بِحَالَةِ وَصُولِ فَاعِلِي الْمُنْكَرِ إِلَى إِصْرَارِهِمْ عَلَى عَدَمِ الْاسْتِجَابَةِ لَوْسَائِلِ التُّصْحِ وَالْإِشْرَادِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ بِرَفْقٍ وَمَوْعِظَةٍ حَسَنَةٍ، فَإِذَا اسْتَجَابُوا فَلَا دَاعِيَ لِمُبَاشَرَةِ عَمَلِيَّةِ التَّغْيِيرِ، لِأَنَّ فَاعِلِي الْمُنْكَرِ هُمُ الَّذِينَ يُحَقِّقُونَ الْمَطْلُوبَ مِنْهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ.

لَكِنْ إِذَا أَصْرُوا عَلَى فِعْلِ الْمُنْكَرِ عَلَى الرُّغْمِ مِنْ نَصِيحَتِهِمْ وَإِشْرَادِهِمْ، وَأَمَرَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَيْهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ بِرَفْقٍ وَمَوْعِظَةٍ حَسَنَةٍ، ثُمَّ بَحَزَمَ وَشِيءَ مِنَ الْعَنْفِ الْقَوْلِي، فَإِنَّهُ عِنْدئذٍ يَأْتِي دَوْرُ التَّغْيِيرِ الْقَسْرِيِّ، وَوَسِيلَتُهُ التَّغْيِيرُ بِالْيَدِ، إِذَا أُمْكِنَ ذَلِكَ دُونَ حَدُوثِ فِتْنَةٍ وَشَرِّ أَكْبَرَ مِنَ الْمُنْكَرِ.

لَكِنْ إِذَا كَانَ التَّغْيِيرُ بِالْيَدِ غَيْرَ مُمَكِّنٍ، أَوْ كَانَ يُحْدِثُ فِتْنَةً وَشَرًّا أَكْبَرَ مِنَ الْمُنْكَرِ، فَإِنَّهُ يَجِبُ الْاِقْتِصَارُ عَلَى الْإِنْكَارِ بِاللِّسَانِ، وَهُوَ أَحَدُ عُنَاصِرِ الْمَرْحَلَةِ السَّابِقَةِ، وَإِذَا كَانَ الْإِنْكَارُ بِاللِّسَانِ يُحْدِثُ فِتْنَةً وَشَرًّا أَكْبَرَ مِنَ الْمُنْكَرِ، فَإِنَّهُ يَجِبُ الْاِقْتِصَارُ عَلَى الْإِنْكَارِ بِالْقَلْبِ، مَعَ اتِّخَاذِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ فِي قِسْمَاتِ الْوَجْهِ، وَحَرَكَاتِ الْجِسْمِ، وَمَفَارِقَةِ مَجْلِسِ الْمُنْكَرِ إِنْ أُمْكِنَ ذَلِكَ، وَلِلضَّعِيفِ أَنْ يَتَّخِذَ ذَرَائِعَ لِمَفَارِقَةِ الْمَجْلِسِ.

لكن المجتمع الإسلامي إذا كان مجتمعاً قائماً بوظيفته دواماً فإنَّ حالة الضعف هذه لا تُوجدُ فيه، إذ تكون قُوَّةُ جمهور المسلمين هي الدرع الواقية لحِمْيَةِ سَفِينَةِ المجتمع وَحُرَّاسِهَا، النَّاصِحِينَ المرشدين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وعليهم تَنْطَبِقُ صورةُ المثل الذي ضربَهُ الرَّسُولُ ﷺ للمجتمع الإسلامي المثالي الذي يملك أن يأخذ على أيدي المفسدين الذين يَتَذَرَعُونَ بذرائع شَتَّى لِتَزْيِينِ إفسادهم، الذي له صفة التأثير على سفينة المجتمع الإسلامي.

فقد روى البخاري بسنده عن الثُّعْمَانَ بْنِ بشير رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال:

«مَثَلُ الْقَائِمِ فِي حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَصَارَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا.

فَإِنْ تَرَكَوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا».

القائم في حدود الله: هو العامل بما هو واجب عليه، التارك لما هو محرّم عليه، فحدود الله أوامره ونواهيه الإلزامية، وأحكام شريعته لعباده.

اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ: أي: اقترعوا على مكانٍ كُلِّ مِنْهُمْ فيها.

أما المجتمع الإسلامي الذي كثر الفساد فيه فَسَفِينَتُهُ غرقى، وأهلها يتخبطون أفراداً وجماعاتٍ على أمواج البحر، أو في زوارق، وعلى خشبات متفرقات متكسراتٍ من سفينتهم، وبعضُهُمْ غَرِقَ وَأَمْسَى من غير أهلها، أما أهلها فَهُمْ في شتات.

اللهم أجمع شتات المسلمين بفضلك ومَنَّك وكرمك، وأعدّ لهم
مُجْتَمَعَهُمُ الْإِسْلَامِيَّ السَّوِيَّ، وأصْلِحْ لهم سفينتهم.

وسياتي إن شاء الله مزيد بيان وشرح لموضوع تغيير المنكر باليد في
الفصل السابع من الباب الرابع.

* * *

- ٥ -

ما يجب على حامل الرسالة عند أدائها،
وما يجب على مَنْ تَوَجَّهَ لَهُ الرسالة

أولاً - ما يجب على حامل الرسالة عند أدائها:

على المسلم حينما يَحْمِلُ الرِّسَالَةَ وَيُرِيدُ تَأْدِيَةَ وِظَائِفِهَا، أَنْ يَضَعَ نُصْبَ
عَيْنَيْهِ دَوَامًا، أَنَّهُ يَحْمِلُ رِسَالَةَ رَبَّانِيَّةٍ، وَأَنَّهُ مُكَلَّفٌ أَنْ يُؤَدِّيَهَا ضِمْنَ الْحُدُودِ
الَّتِي أَوْصَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِهَا، فَلَا يَتَجَاوَزُهَا، مَتَأْتِرًا بِعَوَامِلَ نَفْسِيَّةٍ تَجْعَلُهُ
يَخْرُجُ عَنْ آدَابِ آدَاءِ الرِّسَالَةِ؛ وَإِلَّا كَانَ ضَرَرُهُ أَكْثَرَ مِنْ نَفْعِهِ، وَكَانَ خَارِجًا
عَنْ مَنَهِاجِ الْمُرْسَلِينَ.

فعليه إذا أراد أن يُؤَدِّيَ وِظَائِفَ رِسَالَتِهِ أَنْ يَلْتَزِمَ بِآدَابِ التَّبْلِيغِ وَالتَّنْضِيحِ
وَالْإِرْشَادِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ الَّتِي سِيَّاتِي فِي أَثْنَاءِ الْكِتَابِ
تَفْصِيلُهَا مَعَ أُدْلِيَّتِهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، أَخْذًا مِمَّا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ وَالسَّنَةِ.

ومما ينبغي هُنَا بيانه ما يلي:

أن يلتزم حامل الرسالة بالحكمة، وتكريم مَنْ يُوجَّهَ لَهُ رِسَالَتُهُ، وَالرَّفْقَ
بِهِ، وَمَخَاطَبَتَهُ بِلِغَةِ الْقَوْلِ مَعَ حُسْنِ بَيَانٍ، وَأَنْ يَهْتَبِلَ الْفُرْصَةَ الْمُنَاسِبَةَ الْمَلَائِمَةَ
لِاجْتِيَازِ عَقَبَاتِ نَفْسِهِ، وَأَنْ يُشْعِرَهُ بِبَالِغِ حِرْصِهِ عَلَى صَلَاحِ حَالِهِ، وَنَجَاتِهِ مِنْ

عذاب الله، وظفره بالسعادة العاجلة والآجلة يوم الدين، وأن لا يُشهر به فاضحاً.

وأن لا يُواجهه باستِعلاء واستِكبار وترَفُّع، وأن لا يُشعره بأنه خير منه عند الله وأفضل، وأن لا يستثير غضبه بما يجرح مشاعره تجاه شخصه، أو ذويه الأقربين، أو آباءه وأجداده الموتى، أو عشيرته، أو قبيلته، أو قومه، أو لغته، أو لونه، أو بلده، أو غير ذلك مما يمكن أن يثير في نفسه غضباً، أو كراهية، أو نفوراً.

وأن لا يقسو عليه، ما لم يجد له مجاهراً مكابراً معانداً متحدياً لأحكام الدين وشرائعه، مع ادعائه أنه مُسلمٌ.

وقد يؤذَنُ لعالم ذي مكانة في مجتمعه، بأن يقسو بالعبارة أحياناً على سلطانٍ مُستَهينٍ بتطبيق أحكام الإسلام في إدارته وحكمه، لا في سلوكه الشخصي الخاص الذي لا يُجاهر به أمام العامة، فقد تكون هذه القسوة في بعض الأحيان جزاءً حكيمة نافعة تزدع السلطان عن غيئه، إذ يخشى أن يتقلب عليه جمهور الناس انتصاراً لعالمهم الموقر المحبوب لديهم.

● روى الحاكم في مستدركه بسنده إلى جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، أَنَّ عِيَاضَ بْنَ غَنَمِ الْأَسْرِي وَقَعَ عَلَى صَاحِبِ دَارِ جَيْنٍ فُتِحَتْ (أَي: عَذَبَهُ بِالضَّرْبِ وَالْجَلْدِ) فَأَتَاهُ هِشَامُ بْنُ حَكِيمٍ فَأَغْلَظَ لَهُ الْقَوْلَ، وَمَكَثَ هِشَامٌ لَيْالِي فَأَتَاهُ هِشَامٌ مُعْتَذِراً فَقَالَ لِعِيَاضَ:

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً لِلنَّاسِ»؟

فقال له عياض: يَا هِشَامُ إِنَّا قَدْ سَمِعْنَا الَّذِي قَدْ سَمِعْتَ، وَرَأَيْنَا الَّذِي قَدْ رَأَيْتَ، وَصَحِبْنَا مَنْ صَحِبْتَ، أَلَمْ تَسْمَعْ يَا هِشَامُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

«مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ نَصِيحَةٌ لِذِي سُلْطَانٍ فَلَا يُكَلِّمُهُ بِهَا عِلَاتِيَّةً، وَلْيَأْخُذْ بِيَدِهِ، وَلْيَخْلُ بِهٖ، فَإِنْ قَبِلَهَا قَبِلَهَا، وَإِلَّا كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ وَالَّذِي لَهُ».

وَإِنَّكَ يَا هِشَامُ لَأَنْتَ الْمُجْتَرِيءُ إِنْ تَجْتَرِيءُ عَلَى سُلْطَانِ اللَّهِ، فَهَلَّا خَشِيتَ أَنْ يَقْتُلَكَ سُلْطَانُ اللَّهِ، فَتَكُونَ قَتِيلَ سُلْطَانِ اللَّهِ؟!».

قال الحاكم: حديث صحيح الإسناد، ولم يُخَرِّجَاهُ^(١).

● وروى الإمام أحمد في مسنده عن عامر بن وائل، أن رجلاً مرَّ على قومٍ في حياة رسول الله ﷺ، فسلمَ عليهم، فردوا عليه السَّلام، فلَمَّا جاوزَهُم قال رجلٌ منهم:

إِنِّي لَأَبْغِضُ هَذَا فِي اللَّهِ.

فقال أهل المجلس: لَبِئْسَ مَا قُلْتَ، وَاللَّهِ لَنَنْبِئَنَّهٗ، ثُمَّ قَالُوا: يَا فُلَانُ - لِرَجُلٍ مِنْهُمْ - قُمْ فَأَذْرِكُهُ وَأَخْبِرْهُ بِمَا قَالَ.

فَأَذْرِكُهُ رَسُولُهُمْ فَأَخْبِرْهُ، فَاتَى الرَّجُلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَذَكَرَ لَهُ مَا قَالَ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَسْتَدْعِيَ الرَّجُلَ، فَدَعَا الرَّسُولَ لَهُ، وَسَأَلَهُ، فَقَالَ الرَّجُلُ: قَدْ قُلْتُ ذَلِكَ.

فقال الرسول ﷺ: «لِمَ تُبْغِضُهُ؟».

فقال الرجل: أَنَا جَاؤُهُ، وَأَنَا بِهِ خَابِرٌ، وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُهُ يُصَلِّي صَلَاةً قَطُّ إِلَّا هَذِهِ الْمَكْتُوبَةُ.

قال: فاسأله يا رسول الله، هَلْ رَأَيْتُ أَخْرَجْتُهَا عَنْ وَفْتِهَا؟ أَوْ أَسَأْتُ الْوَضُوءَ لَهَا؟ أَوْ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ فِيهَا؟

فسأله الرَّسُولُ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَا، وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُهُ يَصُومُ شَهْرًا قَطُّ إِلَّا هَذَا

(١) انظر المستدرک على الصحيحین للحاکم ج ٣ ص ٢٩٠.

الشَّهْرَ الَّذِي يَصُومُهُ الْبِرُّ وَالْفَاجِرُ .

قال : فاسأله يا رسول الله ، هل رأني أفطرتُ فيه ؟ أو نَقَصْتُ مِنْ حَقِّهِ شَيْئاً ؟
فقال الرجل : لا ، واللَّهِ مَا رَأَيْتُهُ يُعْطِي سَائِلاً وَلَا مِسْكِيناً قَطُّ ، وَلَا رَأَيْتُهُ
يُنْفِقُ شَيْئاً مِنْ مَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا هَذِهِ الزَّكَاةُ الَّتِي يُؤَدِّيهَا الْبِرُّ وَالْفَاجِرُ .

قال : فاسأله يا رسول الله ، هل رأني نَقَصْتُ مِنْهَا ؟ أَوْ مَا كَسْتُ فِي طَالِبِهَا
الَّذِي يَسْأَلُهَا ؟

فسأله ، فقال الرَّجُلُ : لا ، فقال رسول الله ﷺ : « قُمْ فَلَعَلَّهُ خَيْرٌ مِنْكَ » .

● وروى الإمام مسلم بسنده ، أَنَّ رجلاً قال : واللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ .

فقال رسول الله ﷺ ، يُحَدِّثُ عَنْ رَبِّهِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ :
« مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ إِلَّا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ ، إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ ، وَأَحْبَبْتُ
عَمَلَكَ » .

● وروى أبو داود أَنَّ رسول الله ﷺ مَرَّ بِقَبْرِ وَهُوَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى
الطَّائِفِ ، فَسَأَلَ أَبَا بَكْرٍ عَنْ صَاحِبِ هَذَا الْقَبْرِ ، فَقَالَ : هَذَا قَبْرُ رَجُلٍ كَانَ عَاتِيًا
عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَهُوَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ .

فغضب ابنه عَمْرُو بْنُ سَعِيدٍ ، وَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَذَا قَبْرُ رَجُلٍ كَانَ
أَطْعَمَ لِلطَّعَامِ ، وَأَضْرَبَ لِلسَّهَامِ ، مِنْ أَبِي قُحَافَةَ .

فقال أبو بكر : يُكَلِّمُنِي هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ بِمِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ ؟ ! .

فقال الرسول ﷺ : اكْفُفْ عَنْ أَبِي بَكْرٍ . فانصرف الرجل . ثم أقبلَ
الرسول ﷺ على أبي بكرٍ فقال :

« يَا أَبَا بَكْرٍ ، إِذَا ذَكَرْتُمُ الْكُفَّارَ فَعَمِّمُوا ، فَإِنَّكُمْ إِذَا خَصَصْتُمْ غَضِبَ الْأَبْنَاءُ
لِلْآبَاءِ » .

فَكَفَّ النَّاسُ عَنْ ذَلِكَ .

ثانياً - ما يجب على من توجّه له الرسالة :

على المُسْلِم الذي توجّه له رِسَالَةُ التُّصْحِحِ والإرشادِ، أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن لا يأنفَ ولا يَسْتَكْبِرَ ولا يَغْضَبَ، ولا تأخذه العِزَّةُ بالإثم، إذا كان من ذوي القوّة أو المالِ، أو الجاه، أو السُلْطَانِ .

بل عليه أن يتقبّلَ ما يُوجّهُ له حامداً شاكراً، وأن يسألَ اللهَ أن يُلهمه السَّدَادَ والرُّشْدَ في أمرِهِ كُلِّهِ، وأن يَصْرِفَ عنه نَزَعَاتِ الشيطان، وأن يُقَدِرَهُ على أن يتغلّبَ على أهواءِ نفسه وشهواتها الجانحاتِ الجامحاتِ .

وقد ذم الله عز وجل الذي تأخذه العِزَّةُ بالإثم إذا قيل له : اتق الله، وتوعّده بعذابٍ في جهنّم على استكباره عن تقبّل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتخويف من عذاب الله، فقال الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ لَهُمْ جَهَنَّمُ ۗ وَيَلْسَنَ الْمُهَادِّ ﴿٢٠٧﴾ ۝ ﴾ .

وهو أَلَدُّ الْخِصَامِ: أي: وهو أشدُّ الخُصومة بالباطل من غيره، وأكثر المخاصمين جدلاً، وأغلبهم لأقرانه بغير حقّ .

الْخِصَامِ: مَصْدَرُ خَاصَمَ، يقال: خاصم يخاصم مخاصمةً وخصاماً .

وَإِذَا تَوَلَّىٰ: أي: إذا أدبَرَ، وإذا صار ذا وِلايَةٍ عامّة .

أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ: أي: هو يَغْتَرُّ بقوِّته، فتأخذه مشاعر اعتزازه بنفسه مُكَبَّلًا بسلاسل الإثم بعيداً عن مواطنِ تقوى الله، فتوقّعه في جهنّم يوم الدين،

بجريرة الإثم الذي ارتكبه .

لهذا لم يكن السلفُ الصالح يستكبرونَ عن الاستجابة للأمرِ بتقوى الله عز وجلّ، ولو كان من وجهه لهم مخطئاً في اجتهاده وفي وجهه نظره .

رُوي أنّ رجلاً قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو أمير للمؤمنين ، في حوارٍ بينهما: اتق الله .

فأنكرَ على الرجلِ بعض الحاضرين ، وقال له : أتقولُ لأمرِ المؤمنين : اتق الله؟!

فقال عمر رضي الله عنه : دعه فليقلها لي ، نعم ما قال ، لا خيرَ فيكم إذا لم تقولوها ، ولا خيرَ فينا إذا لم نسمعها .

وجاء في خطبةِ عمر رضي الله عنه لما وليَ الخلافةَ فيما رُوي عن سَعِيدِ بن المسيّب قولُهُ :

«فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ، وَأَعِينُونِي عَلَى أَنْفُسِكُمْ بِكَفِّهَا عَنِّي، وَأَعِينُونِي عَلَى نَفْسِي بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَإِحْضَارِي النَّصِيحَةَ فِيمَا وَلَانِي اللَّهُ مِنْ أَمْرِكُمْ»^(١) .

* * *

(١) انظر كنز العمال، الحديث ١٤١٨٤ .

المقولة الثانية

استعراض طائفة من النصوص

من غير النصوص التي سبق الاستشهاد بها حول هذا الموضوع استعراض طائفة أخرى، تُفيد الدارس المتدبر، وتُعينه على الاستبصار إن شاء الله عز وجل .

١ - سياسة الأنبياء والمرسلين في أقوامهم كانت سياسة نُصح وإرشاد إلى طريق الهدى بصِدقٍ وأمانة .

دلّ على هذا قول نوح عليه السلام لقومه: ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ قال الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١١٠﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ .

وقول هود عليه السلام لقومه كما جاء في (الأعراف) أيضاً:

﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿١١٨﴾﴾ .

وقول صالح عليه السلام كما جاء فيها أيضاً يخاطب قومه بعد أن أهلكوا:

﴿... يَقْوَرُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ
التَّصْحِيحَ﴾ (٧١).

وقولُ شُعَيْبٍ عليه السلام كما جاء فيها أيضاً يخاطب قومه بعدَ أن
أهْلِكُوا:

﴿... يَقْوَرُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأُ عَلَى قَوْمٍ
كَافِرِينَ﴾ (٧٢).

والنُّصْحُ في البيان الدَّعَوِي والإرشادي والإصلاحِي هو أن يدلَّ الناصح
مَنْ يَنْصَحُهُ على ما هو خَيْرٌ لَهُ في عاجل أمره أو آجله، وَيُرْعَبُهُ فيه، وَيَحْتَهُ
عليه، وَيُبَيِّنُ له عاقبة الأخذ بما نصحه به من خير، وعاقبة ما حذَّره منه من
شر إذا لم يجتنبه.

٢ - وروى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص،
أن رسول الله ﷺ خطبهم في سَفَرٍ عِنْدَ مَنْزِلٍ نَزَلُوهُ، فقال:

«إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا قَبْلِي إِلَّا دَلَّ أُمَّتَهُ عَلَى مَا يَعْلَمُهُ خَيْرًا لَهُمْ، وَيُحَذِّرُهُمْ
مَا يَعْلَمُهُ شَرًّا لَهُمْ...».

هذا أوَّلُ الخطبة ولها في المُسْنَدِ تَمِّمَةٌ^(١).

أي: ما من نبيٍّ إِلَّا نَصَحَ أُمَّتَهُ بِالتِّزَامِ كُلِّ مَا يَعْلَمُهُ خَيْرًا لَهُمْ، واجتناب
كُلِّ مَا يَعْلَمُهُ شَرًّا لَهُمْ.

٣ - وروى البخاريُّ ومسلم عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال:
«بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ على إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالتَّصْحِحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ».

ومن النصح لكلِّ مُسْلِمٍ إِزْشَادُهُ وتعليمه، وترغيبه في الخير، وتحذيره

(١) انظر المجلد الثاني ص ١٦١.

من الشرِّ، والأخذُ بيده إلى الاستقامة على صراط الله، وأمرُهُ بالمعروف ونهيه عن المنكر.

٤ - وروى أبو داود عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّفْسُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ وَهُوَ عَلَى حَالِهِ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيْبَهُ وَقَعِيدَهُ.

فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ».

ثم قال من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٦﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٧﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٧٨﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا آلِهَةً وَلَاكِن كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾.

ثم قال:

«كَأَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذَنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطِرَّنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرَاءً، وَلَتَقْضِرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَنَكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ»^(١).

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرحلة تأتي بعد التضح والإرشاد. والأخذُ على يد الظالم يكون من قبل مَنْ بأيديهم سُطْطَةُ الأخذِ على أيدي

(١) وروى الترمذي نحوه وقال: حديث حسن، انظر «رياض الصالحين» الحديث (١٩٦).

المجرمين ، كما سيأتي إن شاء الله تفصيله .

وَلَتَأْطِرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا: أي: وَلَتَعْطِفُنَّهُ عَطْفًا بوسائلِ مُلَيِّنَةٍ، كَمَا تُعْطَفُ الخَشْبَةُ أو الحديدية حَتَّى تَكُونَ إِطَارًا.

وهذه وظيفة الجماعة المؤمنة التي تَضَعُ على المنحرف بَقْوَةَ الضَّغْطِ الجماعي، وبدوام مراقبتها، ودوام نُضْحِهَا، وحرارة عاطفتها ومودتها، وخوفها عليه من عذاب الله المعجل والمؤجل .

وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا: أي: وَلَتُحِيطُنَّهُ بِمَا يَخْبِيهِ عن التَّقَلُّبِ والخروج عن دائرة رقابة جماعته المسؤولين عن الإحاطة به وِحْرَاسَتِهِ .

فَبَعْضُ النَّاسِ إِذَا لَمْ يُحِطْ هذه الإحاطة من جماعة حريصة عليه، حارسة له، تَقَلَّتْ وخرَجَ عن منهج الاستقامة، وعندئذٍ تجتأله الشياطين من كلِّ جهة .

٥ - وروى أبو داودَ والترمذيُّ عن أبي سَعِيدِ الخدري رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال:

«أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ».

قال الترمذي: حديث حسن .

٦ - وروى الترمذيُّ عن حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رضي الله عنه عن النَّبِيِّ ﷺ قال:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُوهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ» .

قال الترمذي: حديث حسن .

٧ - وروى مُسْلِمٌ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:

«إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أَمْرًا، فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِيَءٌ،
وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ».

قالوا: يا رسول الله ألا نقاتلهم؟ قال:

«لَا مَا صَلَّوْا».

فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ: أي: فتَرَوْنَ بعض أعمالهم مَعْرُوفَةً مطابقةً لأحكام
الدين، وَتَرَوْنَ بَعْضَ أعمالهم مُنْكَرَةً مخالفةً لأحكام الدين.

فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِيَءٌ: أي: فَمَنْ كَرِهَ المنكر بقلبه فقد برىء.

وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ: أي: وَمَنْ أَنْكَرَ بِلِسَانِهِ أَوْ بِقَلْبِهِ، وَلَمْ يُتَابِعْ وَلَمْ
يُدَاهِنْ وَلَمْ يُسَايِرْ، فَقَدْ سَلِمَ، وَالسَّلَامَةُ أَحْسَنُ حَالًا مِنَ الْبُرْءِ.

وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ: أي: وَلَكِنَّ الَّذِي لَا يَبْرَأُ وَلَا يَسْلَمُ هُوَ مَنْ رَضِيَ
بقلبه وَلَمْ يُنْكَرْ بِلِ تَابَعَ وَوَأَفَقَ.

٨ - وروى الحاكم في مُسْتَدْرَكِهِ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «سَيِّدُ
الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ،
فَقَتَلَهُ».

فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ: أي: أَمَرَهُ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَغَضِبَ مِنْ
تَوْجِيهِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ لَهُ فَقَتَلَهُ، إِذْ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ.

* * *

الفصل الثالث

نظرة عامة

إلى أصناف الناس الذين تُوجّه لهم وظائف الرسالة

وفيه بيان ثمانية أصناف :

الصفة الأولى: صنف جاهل خالي الذهن من المعرفة الإسلامية، وهو منفتح النفس لها، لا يَرْفُضُ عرضها عليه، بل لديه استعداد لتقبلها.

الصفة الثانية: صنفٌ جاهلٌ خالي الذهن من المعرفة الدينية، إلا أنه مُغْلَقُ النفس دُونَهَا، لاستغراقه بمطالب دُنْيَاهِ وَلَذَاتِهِ وَأَهْوَاهِ وَالْجَمْعِ وَالْمَنْعِ، فَلَا هَمَّ لَهُ إِلَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا.

الصفة الثالثة: صنف جاهلٌ خالي الذهن من المعرفة بالإسلام، إلا أنه مُغْلَقُ النفس عن تقبل شيء يتعلّق به، تعصّباً لما هو عليه من دين أو مذهب. أو حرصاً على مصالحه مما هو فيه من دين أو كفرٍ بكلّ دين.

الصفة الرابعة: صنف عالمٌ بالعقائد الإسلامية، مستيقنٌ متابع، إلا أنه ناقص المعرفة، وتغلبه أهواؤه وشهواته فهو عُزْضَةٌ دَوَاماً لارتكاب المعاصي والمخالفات.

الصفة الخامسة: صنفٌ عالمٌ بأسس الإسلام وعقائده، إلا أن علمه لم يَفْتَرِنْ باعتقاد وإيمان جازم، وقد أعلن إسلامه منتسباً للأمة الإسلامية، ولمَّا

يَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ، وَلَيْسَ مُنَافِقًا فِي إِعْلَانِهِ .

الصف السادس: صنف عالم بأسس الإسلام وعقائده، مستيقن مؤمن بها، إلا أنه غافل عن مُقْتَضِيَّاتِ إيمانه، قد استحوذت عليه أهواؤه وشهواته .

الصف السابع: صنف عالم بأسس الإسلام وعقائده، وعالم بأنها حق، إلا أنه جاحد لها ظلماً وعدواناً، غير راغب في الإيمان بها والعمل بأحكامها، فهم مغضوب عليهم .

الصف الثامن: هو كالصف السابع عالم بأسس الإسلام وعقائده، وعالم بأنها حق، وجاحد لها ظلماً وعدواناً، وزاد بأنه شيطان مُضِلُّ فَتَانٌ، فاسد مُفسِدٌ في الأرض، ومن هذا الصنف الجبَّارَةُ الطغاة .

مقدمة:

إِنَّ حَمَلَةَ رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، وَرِسَالَةِ التُّصْحِحِ وَالْإِرْشَادِ وَالْأَمْرِ
بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، يُوَاجِهُونَ ثَمَانِيَةَ أَصْنَافٍ مِنَ النَّاسِ، وَلِكُلِّ
صَنْفٍ مِنْهُمْ أُسْلُوبٌ يَلَائِمُهُ، وَفِي مَا يَلِي بَيَانَهُمْ:

الصنف الأول:

صنفٌ جاهلٌ خالي الذهن من المعرفة الإسلامية، وهو مُنْفَتِحٌ النَّفْسِ
لِهَا، لَا يَرْفُضُ عَرَضَهَا عَلَيْهِ، بَلْ لَدَيْهِ اسْتِعْدَادٌ لِتَقْبِيلِهَا.

وهذا الصنف من الناس هو الحقلُ الممتاز ذو الأرض الخصبة الصالحة
لِلْحَرْثِ وَالْبَذْرِ، وَالْإِنْتِاجِ الْوَفِيرِ، وَالْعَطَاءِ الْكَثِيرِ، بِعَمَلٍ قَلِيلٍ، وَجَهْدٍ غَيْرِ
مُضْنٍ، وَزَمَنٍ غَيْرِ طَوِيلٍ.

فعلَى حَامِلِ الرِّسَالَةِ أَنْ يَكُونَ شَدِيدَ الْعَنَاءِ وَالْإِهْتِمَامِ بِالْبَحْثِ عَنِ هَذَا
الصَّنْفِ مِنَ النَّاسِ، وَالتَّعَرُّفِ عَلَيْهِ، وَالظَّفَرِ بِهِ، وَاسْتِثْمَارِهِ اسْتِثْمَاراً مُمْتَازاً،
لِيَكُونَ عَطَاؤُهُ غَزِيرًا، وَإِنْتِاجُهُ وَفِيرًا، مَعَ اقْتِصَادٍ فِي الْجَهْدِ وَالْجِهَادِ، وَالْإِنْفَاقِ
وَالْإِمْدَادِ.

وَيَكْثُرُ وَجُودُ هَذَا الصَّنْفِ مِنَ النَّاسِ فِي الْفُقَرَاءِ وَالْكَادِحِينَ، وَالْمَكْتُوبِينَ
بِنِيرَانِ ظُلْمٍ مَجْتَمِعِهِمْ لَهُمْ.

وَفِي طَلِيعَةِ هَذَا الصَّنْفِ مِنَ النَّاسِ النَّاشِئُونَ وَالنَّاشِئَاتُ مِنَ الْفَتِيَانِ

والفتيات، مَمَّنْ لَمْ تَزَلْ صَفَحَاتُ أَفْكَارِهِمْ وَنَفُوسِهِمْ بِيضَاءَ قَابِلَةٍ لِمَلئِهَا بِالْمَعَارِفِ الصَّحِيحَةِ، وَالْحَقَائِقِ الثَّابِتَةِ، وَقَابِلَةٍ لِإِذَاقَتِهَا لِذَاتِ جَمَالِ فِضَائِلِ الْأَخْلَاقِ، وَمَكَارِمِ الشِّيمِ، وَمَحَاسِنِ السُّلُوكِ.

إِنَّ عَمَلَ حَمَلَةِ الرِّسَالَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي هَذَا الصَّنْفِ مِنَ النَّاسِ، كَعَمَلِ الزَّارِعِ فِي جَنَّةِ بَرْنُورَةَ، إِذَا أَصَابَهَا وَابِلٌ آتَتْ أَكْلَهَا ضَعْفَيْنِ، وَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ كَفَاهَا طَلٌّ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ نَتَائِجَ عَمَلِهِ، وَمَشِيئَتُهُ جَلٌّ جَلَالُهُ لَا تُفَارِقُ حُكْمَتَهُ، فَهُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَمْنَحُ الْعَامِلِينَ الصَّادِقِينَ الْمَخْلُصِينَ مَدَدًا مِنْهُ عَظِيمًا، يُضَاعِفُ بِهِ ثَمَرَاتِ أَعْمَالِهِمْ أضعافًا مضعفَةً بغيرِ حِسَابٍ ثُمَّ يُبَيِّهُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَعَلَى ثَمَرَاتِهَا وَنَتَائِجِهَا وَأَثَارِهَا أضعافًا مضعفَةً بغيرِ حِسَابٍ.

وهذا الصنف من الناس هو الحَقْلُ الذي توافد منه إلى الإسلام بدعوة الرسولِ الأُولَى ﷺ الْقِسْمُ الْأَعْظَمُ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ مِنْ قَوْمِهِ وَاتَّبَعُوهُ.

ومن الأدلة ما جاء في قصة لقاء أبي سفيان لهرقل عظيم الروم في الشام، ومعه ركبٌ من تجار قريش، وسؤالِ هرقل له عن الرسول ﷺ وجوابِ أبي سفيان له، وكانَ هذا بَعْدَ صَلْحِ الْحَدِيثِيَّةِ، وَقَبْلَ نَقْضِ قُرَيْشٍ لَهُ، فِي حَدِيثِ طَوِيلٍ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ أَبِي سَفْيَانَ:

فقد جاء فيه أَنَّ هِرْقَلَ سَأَلَ أَبَا سَفْيَانَ أَسْئَلَةً مُتَعَدِّدَةً، عَنْ الرَّسُولِ ﷺ، مِنْهَا مَا يَلِي:

قال هرقل: فَهَلْ أَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟

فقال أبو سفيان: بل ضعفاؤهم.

قال هرقل: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟

فقال أبو سفيان: بل يزيدون.

قال هرقل: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخَطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟

قال أبو سفيان: لا.

ثم قال هرقل في تعليقه على الأسئلة وأجوبتها لأبي سفيان: وسألتك: أشرافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضَعُفَاؤُهُمْ، فذكرت أَنَّ ضَعُفَاؤُهُمْ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ اتِّبَاعُ الرَّسُلِ.

وسألتك: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فذكرت أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ.

وسألتك: أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخَطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّ لَا، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بِشَاشَتِهِ الْقُلُوبَ.

وسألتك: هَلْ يَغْدُرُ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّ لَا، وَكَذَلِكَ الرَّسُلُ لَا تَغْدُرُ.

وسألتك: بِمَا يَأْمُرُكُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَيَنْهَأَكُمْ عَنِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعِفَافِ، فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا، فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ.

إلى آخر ما جاء في الحديث.

الصنف الثاني:

صنف جاهل خالي الذهن من المعرفة الدينيَّة، إِلَّا أَنَّهُ مُغْلَقُ النَّفْسِ دُونَهَا، لَا يُرِيدُ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْ مَسَائِلِ الدِّينِ شَيْئاً، إِذْ هُوَ مَنْصَرِفٌ لِأُمُورِ دُنْيَاهُ، غَارِقٌ فِيهَا، لَا يُحِبُّ إِلَّا الْعَاجِلَةَ، وَلَا هَمَّ لَهُ إِلَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، فَهُوَ لَا يُفَكِّرُ بِخَالِقِهِ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى شُؤْنِ الْآخِرَةِ، وَلَا يُحِبُّ أَنْ يُوجَّهَ انْتِبَاهُهُ وَلَا شَيْئاً مِنْ تَفْكِيرِهِ لَهَا، وَمَنْ حَاوَلَ أَنْ يَلْفِتَ نَظْرَهُ إِلَيْهَا ضَاقَ بِهِ صَدْرُهُ، وَاشْمَأَزَّتْ مِنْهُ نَفْسُهُ.

إنَّ حال هذا الصنفِ من الناس كحال الأنعام بل هو أضلُّ سبيلاً، لأنَّ لديه أدواتِ التفكير والتأمُّل والعقل، وهو لا يستعملُها فيما خُلِقَتْ له، وينطبقُ على أهلِ هذا الصنفِ قولُ الله عزَّ وجلَّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٢٥﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ .

أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا: أي: كَشَّانِ الوكيلِ على قُطْعَانِ الأنعام، المسؤولِ عن حمايتها وجراسَتِها وغذائها وشرابها ونامها، فإذا افترس الذئبُ شيئاً منها أُدينَ بتقصيره .

إِنَّكَ لَنْتَ يَا مُحَمَّدُ وَيَا كُلَّ حَامِلٍ لِرِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ وَكِيلًا عَلَيْهِمْ، بل هُمُ المسؤولون عن أنفسهم، لأنَّ لهم إراداتٍ خاصَّةً حُرَّةً مسؤولةً عن الإيمان والإسلام، أما أنتَ فما عليكِ إلاَّ البلاغُ المبين .

إِنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يَعْقِلُونَ، لأنَّهُمْ عَلَّقُوا كُلَّ هُمُومِ أَنْفُسِهِمْ بِشُؤْنِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَلَا تَنْقُلُ آذَانُهُمْ إِلَى مَرَاكِزِ السَّمْعِ فِي أَدْمَعَتِهِمْ شَيْئاً مِنْ بَلَاغَاتِ الدِّينِ وَبَيَانَاتِهِ، وَلَا تَعْقِلُ عُقُولُهُمْ شَيْئاً مِنْهَا، لَا فَهْماً، وَلَا حِفْظاً، وَلَا عَمَلًا .

إِنَّهُمْ كَالْأَنْعَامِ فِي الظَّاهِرِ أَكْلًا وَشُرْبًا وَسِفَادًا، وَأَضَلُّ مِنَ الْأَنْعَامِ فِي الْبَاطِنِ لِتَعْطِيلِهِمْ أَدْوَاتِ التَّفَكِيرِ وَالْفَهْمِ وَالتَّأْمُّلِ وَالْعَقْلِ، الَّتِي وَهَبَهُمُ اللَّهُ إِيَّاهَا لِيَبْلُغُوهُمْ إِلَيْهِمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، فَلَمْ يَسْتَعْمِلُوهَا فِيمَا خُلِقَتْ لَهَا .

ومعالجةُ هذا الصنفِ من الناس تكونُ باستِغْلالِ حالةِ فراغِ نفوسِهِمْ مِنْ شُؤْغَلِ دُنْيَاهُمْ، وَبِتُّ بَلَاغَاتِ الدِّينِ إِلَيْهِمْ، وَلَا سِيَّما أُمُورَ الآخِرَةِ بِدَءٍ بِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، فَالْبَعْثِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ بِالْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا مِنْ نَعِيمٍ، وَالنَّارِ وَمَا فِيهَا مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ .

وَيَحْسُنُ فِي مَعَالِجَةِ هَذَا الصَّنْفِ مِنَ النَّاسِ، اسْتِغْلَالُ الْأَزْمَاتِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي يَقَعُ فِيهَا أَحَدُهُمْ، وَالَّتِي تُسَبِّبُهَا الْمَصَائِبُ الْمَالِيَّةُ، أَوْ الْمَصَائِبُ الْبَدَنِيَّةُ، كَالْأَمْرَاضِ وَالْأَوْجَاعِ، وَأَنْوَاعِ الظُّلْمِ الَّتِي تَأْتِي مِنْ قِبَلِ قُوَى سُلْطَانِيَّةِ عَاشِمَةِ قَاهِرَةَ، وَكَذَلِكَ الْمَصَائِبُ فِي الْأَهْلِ وَالْأَقْرَبِينَ، وَمِنْهَا مُصِيبَةُ الْمَوْتِ، وَالْآلَامُ النَّفْسِيَّةُ الَّتِي يُسَبِّبُهَا الْحِرْمَانُ مِنْ مَطْلُوبٍ مَعْشُوقٍ، كَجَاهٍ أَوْ سُلْطَانٍ أَوْ زَوْجَةٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

فَالْمَصَائِبُ وَالْحَرَمَانَاتُ تُوقِظُ النَّفُوسَ مِنْ سَكَرَاتِهَا، وَتُبْهِهَهَا عَلَى مَرْتَبَاتٍ كَانَتْ مَحْجُوبَةً عَنْهَا، بِسَبَبِ مَا هِيَ مَفْتُونَةٌ فِيهِ مِنْ شُؤْنِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، أَوْ بِسَبَبِ انشغالها بِتَهْيِئَةِ الْوَسَائِلِ الَّتِي تَتَصَوَّرُ أَنَّهَا تَجْلِبُ لَهَا مَا تَشْتَهِي مِنْ مُتَعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَذَاتِهَا.

فَهِيَ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ قَدْ تَكُونُ نُفُوسُهَا مَفْتُوحَةً الْأَبْوَابِ لِدُخُولِ الْمَعَارِفِ الَّتِي تَحْمِلُ إِلَيْهَا شَيْئاً مِنَ الثَّوْرِ وَالْهِدَايَةِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا أُعْطِيَتْ مَعَهَا جِرْعَاتٍ تَهْدِيَةٌ تُبْرِدُ حَرَارَةَ مَطَالِبِهَا وَأَشْوَاقِهَا.

وَمِنْ سُنَنِ اللَّهِ فِي تَرْبِيَةِ عِبَادِهِ أَنْ يُنْزَلَ بِهِمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ، رَغْبَةً فِي أَنْ تَنْفَتَحَ أَبْوَابُ قُلُوبِهِمْ لَوَارِدَاتِ الرَّحْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ، فَيَتَضَرَّعُوا لِلَّهِ مُنْكَسِرِينَ دَاعِينَ، فَإِذَا تَضَرَّعُوا لَهُ اسْتَقْبَلُوا بِسِكِينَةٍ بِلَاغَاتِ الدُّعَاةِ الْمُبْلَغِينَ، وَنُصَحَ النَّاصِحِينَ، وَإِرْشَادَ الْمُرْشِدِينَ، وَمَوَاعِظَ الْوَاعِظِينَ.

قال الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ / مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِينَةٍ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ
يَضُرَّعُونَ ﴾

ففي حالة انفتاح النفوس للتضرع لله عز وجل، ينبغي بث أنوار الهداية الدعوية أو الإرشادية إليها، فعسى أن تجد هذه الأنوار قابلية داخلية

للاستجابة لِلْحَقِّ وَالْهُدَى، أو لقبول التُّصْحِ والإِزْشَادِ والأَمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر.

إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ يَكْذُبُ فِي جَمْعِ الْأَمْوَالِ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ حَلَالِهَا وَحَرَامِهَا، ذَاهِلًا فِيمَا هُوَ فِيهِ عَنِ اللَّهِ وَعَنِ الْيَوْمِ الْآخِرِ، وَغَايَتُهُ إِسْعَادُ وَلَدِهِ الْوَحِيدِ، بَأَنْ يُهَيِّئَ لَهُ ثَرْوَةً عَظِيمَةً تَكُونُ سَبَبَ سَعَادَتِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ يَقْضِي اللَّهُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْقَهَّارُ بَأَنْ يَأْخُذَ لَهُ وَوَلَدَهُ بِحَادِثٍ مَفَاجِئٍ، أَوْ بِمَرَضٍ مَا، أَوْ بِمَوْتٍ عَادِيٍّ كَمَا يَمُوتُ كُلُّ مَنْ انْتَهَى أَجَلُهُ، وَعِنْدَئِذٍ يُصَابُ الرَّجُلُ جَامِعَ الْمَالِ الْوَفِيرِ لَوْلَدِهِ بِخَبِيَّةٍ أَمَلٍ تُسَلِّمُهُ إِلَى حُزْنٍ شَدِيدٍ عَمِيقٍ، فَيَزْهَدُ بِكُلِّ الْأَمْوَالِ الَّتِي جَمَعَهَا لَوْلَدِهِ، وَيُعْرَضُ عَنْهَا.

إنه في هذه الحالة تكون أبواب نفسه مفتحة تماماً لبث أنوار الهداية التي تدخل إلى أعماقها.

وهنا يكون على حامل الرسالة أن ينتهز الفرصة المواتية للتوجيه الرشيد، دعوة إلى الله، أو نُصْحًا وإِشَادًا، أو أَمْرًا بالمعروف ونهياً عن المنكر.

الصنف الثالث:

صنف جاهل خالي الذهن من المعرفة بالإسلام، إلا أنه مُغْلَقُ النَّفْسِ عَنِ تَقَبُّلِ آيَةِ مَعْرِفَةٍ تَتَعَلَّقُ بِحَقَائِقِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ وَشَرَائِعِهِ، لِأَنَّ لَهُ عَقَائِدَ ثَابِتَةً رَاسِخَةً مُضَادَّةً لِمَا يُرَادُ إِعْلَامُهُ بِهِ، وَتَوْصِيلُهُ إِلَيْهِ، وَهُوَ لَا يَقْبَلُ بِهَا بَدِيلًا، تَعْصَبًا لَتَقَالِيدِهِ، وَمَوَارِيثِهِ وَعَادَاتِهِ الَّتِي هِيَ جُزْءٌ مِنْ ذَاتِهِ، وَلَوْ كَانَتْ بَاطِلَةً وَضَارَّةً وَفَاسِدَةً، أَوْ حِرْصًا عَلَى تَحْقِيقِ أَهْوَاءِهِ وَشَهْوَاتِهِ وَمَصَالِحِهِ الَّتِي يَحْصُلُ عَلَيْهَا مَا دَامَ مُسْتَمْسِكًا بِمَلْتِهِ الْبَاطِلَةِ، أَوْ اسْتِجَابَةً لِنَوَازِعِ كِبْرِهِ وَرَغْبَتِهِ فِي الْفُجُورِ الْمَنَافِيَةِ لِلْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْإِسْلَامِ لَهُ.

ومن هذا الصنف من الناس أتباع الأديان والملل والمذاهب الفكرية الباطلة، كعامة اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والبوذيين والهندوس والوثنيين والملاحدة.

فهم ضالون بسبب العصائب والسُّتور الكثيفة التي وضعوها على بصائرهم، فهي لا تستقبل عن طريق مداركهم أية معارف مضادة لما هم عليه، وعلى حامل الرسالة أن يحتال على من يتفرس لديه استعداداً لتقبل الهداية، حتى يفتح بعض أبواب نفسه ويدخل إليها بالمعرفة الحق.

إن مواريتهم الدينية الباطلة، واعتقاداتهم لها بطريقة عمياء، تجعل على أبصارهم وأسماعهم وبصائرهم غشاوات من العسير جداً إزالتها لرؤية الحق، إلا عن طريق من يضحو منهم من أهل بصيرة ورشد علمي، إذ يعملون عقولهم إعمالاً هادئاً رشيداً، فيستبصرون الحق، ويرشدون بعض أتباع مللهم إلى أن ما هم فيه باطل، وأنهم على ضلالة، وأن ما جاء به الإسلام هو الحق المبين.

وهذه الظاهرة قد بدأت فعلاً في كثير من الشعوب غير المسلمة، فمع ضعف تعصب هذه الشعوب لأديانها ومللها الموروثة، وشيوع الحرية الفكرية بين أفرادها، والدفاع عن هذه الحرية، وانتشار المذاهب الفكرية المعاصرة المعارضة للموارث الاعتقادية السابقة، دون اعتراض المجتمع على الفرد فيما يختار لنفسه من مذهب يدين به، بدأ يظهر في الغرب مفكرون كثيرون، يدرسون الإسلام دراسات متجردة، ويتعرفون عليه من مصادره، أو من مكتوبات بعض الكتاب المسلمين.

ومن هؤلاء علماء من مختلف التخصصات العلمية، وباحثون متفكرون متحررون من موروثاتهم الاعتقادية السابقة.

وبعض هؤلاء توجهوا ضمن أسس علمية صحيحة، يدرسون القرآن

الكريم، وأزكَانَ الإيمان، وأركانَ الإسلام وشرائعه وأحكامه دراساتِ
جاذات، غير مقيدات بِجبالِ عَصِيَّاتٍ مُضَادَّاتٍ، وغير مشحونات بركاماتِ
عداءٍ للإسلام والمسلمين .

وقد بدأ هؤلاء يُعَرِّفُونَ مَنْ حولهم بأنَّ الإسلام هو الدِّينَ الحَقَّ الذي لم
يَدْخُلْهُ تحريفٌ ولا تَبْدِيلٌ، في أسسه ومفاهيمه ومَصَادِرِهِ المتفق عليها .

وقد بدأ يتوافد من فئاتٍ مثقفي الغرب وعلمائه أفواجٌ إلى الإسلام،
وهذه الأفواج تُبَشِّرُ بمستقبلٍ زاهرٍ للإسلام في الغرب .

فعلَى حَمَلَةِ الرسالة الإسلامية الصَّادِقِينَ المخلصين أن يتصَيَّدُوا من هذا
الصنْفِ علماء وعقلاء وأهلَ أناةٍ وبصيرة، ويصادقوهم ويُعَرِّفُوهم بالإسلام
تعريفًا هادئًا، عن طريق الحوار التَّزْيِيهِ المتجرِّد، أو عن طريق نشر الكتب التي
تُعَرِّفُ بالإسلام تعريفًا علميًا وَعَقْلِيًّا، وبالأسلوبِ الذي يَقْتَنِعُ به الْمُثَقَّفُ
الغَرْبِيُّ، مع الاهتمام بأسس الإسلام وعقائده، وأزْكَانِهِ، وأخلاقه، وكَبَائِرِ
المحرَّمات فيه .

فمن استبصر الحَقَّ منهم وآمَنَ به، طُولِبَ بأن يتحمَّلَ مسؤوليَّةَ تبليغ ما
آمن به إلى مَنْ حَوْلَهُ من ذَوِيهِ وَقَوْمِيهِ، ثمَّ انتقالاً إلى آخرين، على اتِّساع
الدوائر الاجتماعية .

إنَّ البيئات التي لها أديانٌ سابقاتٌ كانت تَتَعَصَّبُ لها، وكانت تُوصِدُ
أَبْوَابَ نُفُوسِهَا عن التعرفِ على غير أديانها، قد أصبح كثيرٌ من شعوبها
مُتَحَرِّراً من قُبُودِ هذا التعصُّبِ الأعمى، ولم يَبْقَ لَدَيْهَا إِلَّا وِلَاءَاتُ اسْمِيَّةٌ
لأقوامها، ولأديانها التي فَرَّغَتْ من محتواها .

وهذه فُرْصَةٌ مُواتيةٌ جداً لِنَشْرِ الإسلام بين أفرادها عن طريق مَنْ يُؤْمِنُ
وَيُسَلِّمُ من مُثَقِّفِي شعوبها، فينبغي إمدادُ هؤلاء بما يَحْتَاجُونَ إليه، حتَّى
يكونوا حَمَلَةَ رسالة الدعوة إلى اللَّهِ في أقوامهم .

ومن الحاجات الأساسية، التعليم الصحيح السليم، والكتب الملائمة، والأموال.

وباستطاعتنا أن نقول: إن كثيراً من بيئات هذا الصنف الثالث، قد تحوّل فصار من بيئات الصنف الأول، الخالي الذهن من المعرفة الإسلامية، وهو مُنْفَتِح النفس لها، لا يَرْفُض عَرْضَهَا، بل لَدَيْهِ اسْتِعْدَادٌ لَتَقْبُلِهَا، وهذه غَنِيمةٌ مُعَاصِرَةٌ للفكر الإسلامي الحق، وقابليّة امتداده في الشعوب بوسيلة الفتح الفكري العلمي.

الصنف الرابع:

صنفٌ عالم بالعقائد الإسلامية مُسْتَنِقِنٌ متابعٌ، إلا أنه ناقص المعرفة، وتغلبه أهواؤه وشهواته، فهو عُزُضَةٌ دواماً لارتكاب المعاصي والمخالفات.

وأصحابُ هذا الصنف على درجاتٍ متفاوتات، وكلهم من المؤمنين الملتزمين ببعض حقوق مرتبة التقوى، إلا أنهم غير مُسْتَوْفِينَ لكل حقوق هذه المرتبة، وهم الغالبية العظمى من المسلمين.

وظيفة حَمَلَةِ الرِّسَالَةِ بالنسبة إلى هذا الصنف تثبيت عقائد أفرادها وتعميقها، وتكميل معارفهم بمفاهيم الإسلام وأحكامه وشرائعه، والأخذ بأيديهم برفق، ومساعدتهم على نفوسهم بالتعليم والموعظة والتدريبات التطبيقية العملية ارتقاء بهم علماً وعملاً، في درجَاتٍ مرتبة التقوى، فدرجات مرتبة البرّ، فَدَرَجَاتٍ مرتبة الإحسان.

ولا بُدَّ في التدريب على السلوك الإسلامي من العناية دواماً بنوعِي السلوك الباطن والظاهر معاً، لئلا يكون الظاهر عامراً والباطن خرباً.

ومن الباطن الصّدق والإخلاص لله في العمل، وابتغاء مرضاة الله، والبراءة من الشرك والرياء والحقد والحسد، ومن الاعتراض على أحكام الله

عز وجل، وعلى مجاري قضاائه وقدره في عطائه ومنعه، ونعمه ومصائبه، إلى غير ذلك من أعمال القلوب والنفوس.

وهذه الوظيفة قد كان العلماء المسلمون المرثون المسلمون لتلاميذهم يُقومون بها قياماً حسناً، اتباعاً لمنهج مدرسة رسول الله ﷺ في تربيته لأصحابه رضوان الله عليهم.

الصنف الخامس:

صنف عالمٌ بأسس الإسلام وعقائده، إلا أن علمه لم يقترن باعتقاد وإيمان جازم، وقد أعلن إسلامه منتسباً للأمة الإسلامية، ولما يدخل الإيمان في قلبه، وليس منافقاً في إعلانه.

هذا الصنف من الناس قد جاء بيانه في قول الله عز وجل في سورة (الحجرات/ ٤٩/ مصحف/ ١٠٦ نزول):

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً: أي: لا ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئاً. يقال لغة: لَاتَ فلاناً حقّه، إذا نقصه إياه.

ومعالجة هذا الصنف من الناس تكون بالصبر على تزويد أفراده يوماً فيوماً بالبراهين الإيمانية القرآنية، والعقلية، والكونية، والتجريبية من أحداث الجزاء الرباني بالثواب المعجل للمحسنين، والعقاب المعجل للمسيئين، ويكون أيضاً بإذاعة أفراده حلاوة السلوك الإسلامي، النابع من صدق الإيمان، وهذه تكون بأنواع من التجارب الوجدانية التي تذيب القلوب والنفوس هذه الحلاوة، بعبادة الله عبادة خاشعة تفيض معها الدموع، وبحسن الصلة بالله دواماً عن طريق الذكر والدعاء، والمراقبة لله في السر والعلن، وفعل الخير، والمشاركة في الأعمال الاجتماعية ذات الآثار الإصلاحية، ولا سيما التي

ترفع البؤسَ عن البائسينَ، والظلمَ عن المظلومينَ، وتُسعد الصغارَ والضعفاءَ، بالطعام والكساء، والمُسكنَ والدواءَ، فهذه الأعمالُ ترافقها في القلوب غالباً مشاعرٌ لذةٌ إيمانيَّةٌ حلوةٌ، مصحوبةٌ بسكينةٍ وطمأنينةٍ، وهي تُشبهُ مشاعرَ الأم الحنون حين تُرضعُ طفلها الجائعَ.

الصنف السادس:

صنف عالم بأسس الإسلام وعقائده، مستيقنٌ مؤمنٌ بها، إلاَّ أنَّه غافلٌ عن مقتضيات إيمانه، قد استحوذت عليه أهواؤه وشهوَّاته، فهو مُندفعٌ لتحقيق مطالبِ حياته العاجلة وزينتها، والاستكثار من الأموال والأنصار والعقار والمراكب الفارهة والجاهِ والسلطان، ونحو ذلك، وفي الغالبِ يكون من أهل المعاصي بسببِ غفلته واستغراقه في أمور دنياه.

ومعالجةُ هذا الصنف من الناس تُكونُ بإيقاظه من غفلاته وسكراته، بتذكيره بما يَعلمُه ممَّا هو مؤمنٌ به، وباستخراج عناصر إيمانه من مكائدها، وإحضارها في ساحة تصوراتهِ المتحرِّكة العاملة الموجَّهة لإرادته، حتَّى تُوجَّهَ أوامرها في داخله للاجتهاد في مُمَارَسَات السلوكِ الإسلاميِّ الباطن والظاهر.

وتكونُ أيضاً بتحريكِ مخوِّري الطمع والخوف في نفسه بالترغيب فيما عند الله من أجرٍ عظيم، وبالترهيب ممَّا عند الله من جزاءٍ بعذاب أليم.

وتكونُ باستصحابه إلى مجالس العِلْمِ والذِّكْرِ والعبادةِ، وبغَمْسِهِ في البيئات الصالحاتِ، التي يجدُ فيها مُتعةً لقلبه ونفسه، مع أصحابٍ ورفاقٍ صالحين، مؤمنين، أوفياء، ودُودين، يؤثرون على نفسه.

وتكونُ بترقيق قلبه بالمواعظ النافعة، والمشاركات الوجدانيَّة المثيرة للعواطف النبيلة، وباستخراجه ممَّا هو منغمسٌ فيه من أمورِ دُنياه، ببدائل يجد فيها لذةً لنفسه ومُتعتها ضمن حدود طاعة الله عزَّ وجلَّ، وهذه البدائل

مصحوبةٌ بدروسٍ علمٍ وموعظةٍ وذكرٍ ومجاهدةٍ في نشر الإسلام، وخدمةٍ
قضايا المسلمين العامة.

الصف السابع :

صنف عالم بأسس الإسلام وعقائده، مستيقن في قلبه بصدق محمد
رسول الله ﷺ وبما جاء به عن ربه، إلا أنه جاحدٌ لها بغياً أو كبراً أو حسداً أو
رغبةً في الفجور، أو غير ذلك من دوافع نفسية خبيثة، فهو لا يريد أن يؤمنَ
بالحق لهوى في نفسه وعصية عمياء، ويتعلل بالمعاذير، ويصطنع لنفسه ما
يُزين لها جحود الحق.

وأهل هذا الصنف مغضوبٌ عليهم، لأنهم عرّفوا الحق وجحدوه ظلماً
وعدواناً.

ويَدْخُلُ في هذا الصنفِ علماءُ اليهود الذين عرفوا صدقَ الرسول ﷺ
وجحدوا رسالته بغياً وحسداً من عند أنفسهم، ويُلحِقُ بهم كُلَّ مَنْ عَرَفَ أَنَّ
الإسلامَ حقٌّ وجحدَهُ ظلماً وبغياً، من نصارى وملاحدة، وبوذيين،
وهندوسيين، ووثنيين.

وفي شأن علماء اليهود الجاحدين للحق مع معرفتهم له، قال الله
عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

وأهل هذا الصنف تَضَعُبُ مُعَالَجَتَهُمْ، لأنهم لم يكفروا عن جهل
بالحق، أو عن غفلة عنه، بل كفروا بغياً وظلماً وعناداً، فلا يُجدي فيهم إلا
العقاب الذي يجدون آلامه، حتى الإنذارُ بالعقاب المؤجل لا يُغيّر فيهم شيئاً،
وبشأن هذا الصنف من الكافرين قال الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢
مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٦) حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشًوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ .

ومع أن أهل هذا الصنف لا يُجدي فيهم الإنذار، فينبغي الإغذار إليهم بإنذارهم بعذاب الله المؤجل إلى يوم الدين، مع ما قد يُنزل الله بهم من عذابٍ معجلٍ في الحياة الدنيا.

الصنف الثامن:

هو كالصنف السابع عالم بأُسس الإسلام وعقائده، وعالم بأنها حقٌ، وجاحدٌ لها ظلماً وعُدواناً، وزادَ بأنه شيطانٌ مُضِلٌّ فتانٌ فاسِدٌ مفسِدٌ في الأرض، ومن هذا الصنف الجبابرة الطُّغاة.

هذا صنف من الناس قد جعل نفسه من جنود إبليس مغوياً مُضِلاً فاسداً مُفسِداً.

وهذا الصَّنْفُ من المتعذّر بحسب العادة إضلاًحُه، والتعاملُ معه يكونُ بدزءٍ شرِّه، وكفٍّ ضرِّه، وإبعاده عن التأثير في الناس، ومكافحةٍ وسائِله المضلَّةِ قَدَرِ المستطاع، ومُقاوَمَةِ اضطهادِه وإكراهِه وإجبارِه الناسَ على الكُفر والفسوقِ والعصيان، ولو بالقتال عند الاستطاعة.

أما المنافقون فهم كافرون، أو مُتردّدون في الباطن، متظاهرون كذباً بالإسلام والإيمان، فيدخلون في بعض الأصناف الثمانية السابقة، بحسبِ أحوالهم الباطنة، ولا قِيَمَةَ لأحوالهم الظاهرة.

* * *

البَابُ الْإِثْنَانِي

الصِّفَاتُ

الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَحَلِّيَ بِهَا حَمَلَةُ الرِّسَالَةِ

وفيه ستة فصول:

الفصل الأول: وجوب تحلي حامل الرسالة بصفة الصبر وعدم التضجر، وعدم اليأس، مهما اشتدّ عليه الأذى، وضعفت آثار أعماله الرشيدة.

الفصل الثاني: وجوب تحلي حامل الرسالة بصفة التجرد عن المصالح الشخصية، لدى من يُؤدّي بينهم رسالته.

الفصل الثالث: وجوب تحلي حامل الرسالة بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وبتطبيقه لما يدعو إليه من فضائل الإسلام وأحكامه.

الفصل الرابع: وجوب تحلي حامل الرسالة بالصفات التي ذكر الله عزّ وجلّ أنها صفاتُ عباد الرحمن، ليكون أسوةً حسنةً.

الفصل الخامس: وجوب تحلي حامل الرسالة بالأهلية البيانية.

الفصل السادس: وجوب تحلي حامل الرسالة بالأهلية العلمية.

الفصل الأول

وجوب تحلي حامل الرسالة بصفة الصبر
وعدم التضجر واليأس مهما اشتدّ عليه الأذى
وضغفت آثار أعماله الرشيدة

وفيه أربع مقولات:

المقولة الأولى: قيمة خلق الصبر ووجوب تحلي حامل الرسالة به.

المقولة الثانية: نصوص قرآنية يلاحظ فيها توجيه الأمر بالصبر لحاملي الرسالة من أمة محمد ﷺ.

المقولة الثالثة: نصوص قرآنية يلاحظ فيها توجيه الأمر بالصبر للرسول ﷺ، ويلحق به حاملو رسالته من أمته.

المقولة الرابعة: نماذج من سيرة الرسول ﷺ في الصبر.

المقولة الأولى

قيمة خلق الصبر ووجوب تحلي حامل الرسالة به

الصبر: خلقٌ نفسيٌّ فطريٌّ أو مكتسب، من آثاره القدرة على الدأب في الأعمال الظاهرة أو الباطنة، وعلى تحمُّل المشقَّات النفسيَّة والجسديَّة، ممَّا يُخالفُ أهواءَ النفس وشهواتها ورغباتها في فعل ما تكرهه فعله، أو ترك ما تُحبُّ فعله.

وهو خلقٌ يُمكنُ من يتحلَّى به ويضعه في المواضع الملائمة له من الظفر بأفضل النتائج التي يُريدُ الحصول عليها، ممَّا يقوم به من أعمال ظاهرة أو باطنة.

والصَّبْرُ من أَجَلِّ الصِّفَاتِ النفسيَّةِ ذواتِ الأثرِ في السلوكِ الباطنِ والظاهر، وذواتِ القيمةِ الثمينة، ممَّا يتحلَّى به العقلاءُ ذَوُو الإراداتِ القويَّاتِ، والأنفُسِ العالياتِ الزاكياتِ.

وهو من صفات الله جلَّ جلاله، فمن أسمائه تبارك وتعالى: «الصَّبُور» وهو يُحبُّ الصَّابِرِينَ، وهو مع الصَّابِرِينَ، وهو يُبَشِّرُ الصَّابِرِينَ بالنتائج التي يُحبُّونها، وبالأجرِ العظيمِ عندهُ يومَ الدين، فقد جاء في النصوص القرآنية: ﴿وَاللَّهُ يَحِبُّ الصَّابِرِينَ - إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ - إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ - وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ إلى غيرها من نصوص.

وأكثر الخصمين أو المتنافسين ذوي القوة المتكافئة أو المتقاربة حظاً
من الظفر بما يُريدُ أكثرُهُمَا صَبْرًا.

والمَحْرُومُ من خَلْقِ الصَّبْرِ يُصَابُ بالسَّامِ والمَلَلِ، فالتضجُّرُ، وأخيراً
يُصَابُ بداء اليأس وتَزَكِ مَا هو فيه من عَمَلٍ، وكثيرٌ ممَّن أُصِيبَ بداء اليأس
فترك العمل، لو صَبَرَ صبراً قليلاً لظفر بما يُريدُ الوصول إليه، أو بأكثر ممَّا
يريد الوصول إليه.

وأكثرُ النَّاسِ حاجةً إلى التحلِّي بخلقِ الصَّبْرِ مَنْ يَحْمِلُ رِسَالَةَ الدَّعْوَةِ
إلى الله، وإلى صراطه المستقيم، والنُّصْحِ والإرشاد، والأمرِ بالمعروف
والنهي عن المنكر، والاضطِّلاعِ بِمَهَامِّهَا.

فالسَّامُ والمَلَلُ والتضجُّرُ يَجْعَلُ حَامِلَ الرِّسَالَةِ ييأس من فائدة قيامه
برسالته، فيكفُّ عن أدائها، أو يتهاونُ في القيام بها، وقد يلجأ إلى اعتزال
النَّاسِ والانكفاء على نَفْسِهِ، ورُبَّمَا يَجِدُ نفسه مع أسرته الخاصة بعد حين
يطولُ أو يَقْصُرُ منساقاً مع مؤثرات البيئة التي يعيش فيها، ومُتَنَازِلاً عَن بَعْضِ
مبادئه التي دَعَا إليها، أو عن التزامه السُّلُوكِيِّ بما كَانَ يدعو إليه، أو بما كان
يأمرُ بِهِ وينهى عنه.

فصاحبُ الرِّسَالَةِ إذا لم يكن حاملاً لرسالته بصورة عملية نشيطة، قائماً
بوظائفها ومهماتها، مناضلاً من أجلها، مهتماً بأن يبلغ رسالته، مبيّناً،
شارحاً، داعياً، أو مذكراً، أو أمراً ناهياً، رجاءً التأثير في الآخرين، وتقويم
المنحرفين، وتحقيق الإصلاح المنشود، فإنه يتحوّل تلقائياً إلى مُدَافِع، ثم
إلى مراقبٍ غَيْرِ مُدَافِع، ثم إلى متأثرٍ شيئاً فشيئاً، وقد يَصِلُ إلى مُسَايِرِ مُتَابِع،
تأثراً بضواغط البيئة التي لم يستطع أن يكون فيها صامداً صابراً على القيام
بوظائف رسالته في الدعوة، والتقويم والإصلاح.

وهنا نلاحظ أن حكمة الله العليّ الجليل اقتضت أن يأمرَ رُسُلَهُ عليهم

الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالذُّعَاءَ إِلَيْهِ وَالْأَمْرِينَ بِالْمَعْرُوفِ النَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنْ وَرَائِهِمْ، بِالصَّبْرِ فِي قِيَامِهِمْ بِوُضَائِفِ رِسَالَاتِهِمْ وَمَهَامِّهَا فِي الدَّعْوَةِ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِمْ، وَفِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

وجاء في القرآن المجيد الأمر بالصبر في مناسباتٍ متعدّدة، تشمّل جوانبٍ مختلفاتٍ مِنْ مُشْكَلاتٍ يَتَعَرَّضُ لَهَا الدُّعَاءُ، وَكُلُّ مُشْكَلةٍ مِنْهَا تَحْتَاجُ مِنْ حَامِلِ الرِّسَالَةِ الصَّبْرَ، وَتَقْتَضِي الْحِكْمَةَ الرَّبَّانِيَّةَ أَنْ يُوجَّهَ لَهُ الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ مَعَهَا، لِثَلَاثِ تَصَرُّفَاتٍ يَتَنَافَى مَعِ مَقْتَضِيَّاتِ رِسَالَتِهِ.

* * *

المقالة الثانية

نصوص قرآنية يلاحظ فيها توجيه الأمر بالصبر لحاملي الرسالة
من أمة محمد ﷺ

ظهر لدى استقراء نصوص الأمر بالصبر في القرآن المجيد وجود خمسة نصوص أنزلت في المرحلة المدنية من تاريخ دعوة الرسول محمد ﷺ، وضمت هذه النصوص إلى سور أنزلت في المرحلة المكية، ووضعت منها في مواضع ملائمة لها فكرياً، وجاء الخطاب فيها موجهاً للرسول ﷺ، باعتباره أول المؤمنين والمسلمين من هذه الأمة.

ويلاحظ المتدبر في هذا الإجراء البديع أن الغرض منه الإشعار بأن الرسول محمد ﷺ قد كان متحققاً بالصبر الأمور به في هذه النصوص، إلا أن حاملي رسالته من أمته يحتاجون إلى هذا التوجيه في مثل المراحل التي مرّ بها الرسول ﷺ، وكان فيها متحلياً بفضيلة خلق الصبر.

فنفهم من هذا الإجراء أن المقصود بالتوجيه في هذه النصوص هم حملة رسالة الرسول من أمته.

وهذا من لطائف الإجراءات في القرآن المجيد التي يلاحظ فيها اقتضاء ان؛ اقتضاء فكري واقتضاء زمني، ويحسن بالمتدبر التأني في تدبر القرآن، والنظر إلى إجراءاته بإمعان، ليكتشف المقاصد الدقيقة من أساليب البيان.

فلننظر في تدبر النصوص الخمسة التي كشفها الاستقراء، ممّا أنزل في العهد المدني، وضمّ إلى سور مكيّة التنزيل:

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (القلم/ ٦٨/ مصحف/ ٢/ نزول) خطاباً لرسوله ﷺ، والمقصودُ به كلُّ داعٍ إلى سبيل ربّه وأميرٍ بالمعروف ناهٍ عن المنكر من أمته، وناصح مُرشد:

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُكِنُّ كَصَاحِبِ الْهَوَىٰ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٦٨﴾ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٦٩﴾ فَاجْتَنِبْهُ رَبُّهُمُ فَجَعَلَهُمُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ .

كصاحبِ الهوى: أي: كيونسَ عليه السلام، إذ تركَ قومه أهلَ نينوى مغاضباً، لما كذّبوه ورفضوا الاستجابة لدعوته، قبل أن يأذنَ اللهُ له بذلك، ولم يصبرِ على مُتابعة دعوته لهم حتّى يأتيه من الله أمرٌ بما يعملُ .

إذ نادى وهو مكظومٌ: أي: اذكُرْ إذ نادى داعياً ربّه وهو في فم الحوتِ قائلاً: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ كما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١) .

وهو مكظومٌ: أي: حابسٌ غيظُهُ من قومه الذين رفضوا دعوته، ومعترفٌ بذنبيهِ إذ تركهم قبل أن يأذنَ اللهُ له .

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١١٦﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ كما جاء في سورة (الصافات/ ٣٧) .

ولولا أن تداركهُ نعمةٌ من ربّه لنُذِبَ بالعرَاءِ وهو مذموم، لكن تداركته هذه النعمةُ فنُذِبَ بالعرَاءِ سقيماً غيرَ مذموم، وأنبت اللهُ عليه شجرةً من يقطين، وشفاه، واجتباها وجعله من الصالحين، وأرسله إلى قومه فآمنوا به .

وفي هذا النَّصِّ تلوِيحٌ بتهديد حامل رسالة الدَّعوةِ إلى الله والامرِ بالمعروف والناهي عن المنكر، إذا تَضَجَّرَ وَيَسَّ وَتَرَكَ وظيفته، أن يُعاقبه الله على ذلك بما يشاء من عقابٍ ملائمٍ.

وقد علمنا أن الرسول ﷺ قد كان متحقِّقاً بالصَّبْرِ المطلوب في هذا النَّصِّ، خلال المرحلة الدَّعوِيَّة التي نزلت فيها سورة (القلم) وقد وصفه الله فيها بأنَّه على خَلْقٍ عظيم، فالصَّبْرُ لحكم الله أحدُ عناصر هذا الخُلُقِ العظيم.

إنَّ حاملَ رسالة الرسول من أُمَّته المؤهلَ لحملها، مُطالِبٌ بأن يَصْبِرَ مستمرّاً في القيام بوظائفها، دون أن يتضجَّرَ أو ييأس ويكفَّ عَنِ القيام بالدَّعوة إلى الله والأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر مُتَسَرِّعاً مغاضباً، بلْ كُلِّمَا يَسَّ فِعْلاً من مَدْعُوٍّ مُعَانِدٍ استبانَ لَهُ الحقَّ وَأَصْرَّ عَلَى الكُفْرِ، تَحَوَّلَ إلى آخِرِينَ لم يَبْلُغُوا بَعْدَ إلى دَرَكَةِ العناد والإصرار على الكُفْرِ، فهذا التحوُّل هو من عناصر الاستمرار على القيام بوظائف هذه الرسالة الرِّبَاتِيَّة.

وعلى هذا الفهم يكون معنى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ فاصْبِرْ مُتَابِعاً القيام بوظائف رسالتك انتظاراً لِحُكْمِ رَبِّكَ فيمَن عانَدُوا وَأَصْرُوا على الكفر، مع استبانة الحقِّ لَهُمْ، فَلِلَّهِ حِكْمَتُهُ في حُكْمِهِ بعباده، أو فاصْبِرْ مُسْتَسْلِمًا لحكم رَبِّكَ.

لكنَّ مُتَابِعَةَ توجيهِ الدَّعوةِ لأشخاصٍ بأعيانهم تخضع لقاعدة: ﴿فَدَاكِرُ﴾ **إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى** أَي: فَإِذَا وَصَلَ بَعْضُ أَفْرَادِ النَّاسِ إِلَى حَالَةِ مَيُّوسٍ مِنْهَا كَلِيًّا، فلا تنفعه الذكرى بدلالة التجربة الطويلة، فمن الخير تَوَجِيهُ جُهودِ الدعوة والتذكير لغيره من الذين لم يصلوا بَعْدُ إلى حَالَةِ مَيُّوسٍ مِنْهَا، وسيأتي إن شاء الله مزيد تفصيل لهذه القاعدة.

* * *

النص الثاني :

قول الله عز وجل لرسوله في سورة (المزمل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول)
خطاباً لرسوله ﷺ، والمقصودُ به كلُّ داعٍ إلى سبيلِ ربِّه وأمرٍ بالمعروفِ ناهٍ
عن المنكر من أُمَّته :

﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١١﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمُ
قَلِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾

لقد كان الرسول ﷺ متحققاً بمضمون هذا التوجيه الرباني إبان نزول
سورة (المزمل) فأخَّرَ اللهُ إنزالَهُ إلى العَهْدِ المدني، للإشعار بأن المقصودَ به
كلُّ حاملٍ لرسالة الرسول من أُمَّته .

وذلك لأنَّ كلَّ داعٍ إلى سبيلِ ربِّه وأمرٍ بالمعروفِ ناهٍ عن المنكر، لا بُدَّ
أنَّ يَتَعَرَّضُ مُنْذُ أوائلِ قيامه بوظائف رسالته لأقوالٍ جارحاتٍ واتِّهَامَاتٍ
بِاطِلَاتٍ من بعض الذين يُوجِّه لهم دعوته أو تذكيره، والمطلوبُ منه في هذه
الحالة أن يَصْبِرَ على ما يَقُولُونَ فيه من أقوالٍ مُؤَلِّمَةٍ لِنَفْسِهِ، وأن لا يُقَابِلَهُمْ
عليها بمثلها .

وحين لا يستطيع تحمُّلَ مواجهتهم وهم يقولون فيه ما يقولون ممَّا
يُؤَلِّمُهُ، فباستطاعته أن يَهْجُرَهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا .

الهَجْرُ الجميل يكون بالتواري عنهم بصورة مؤقتة، وعدمِ مقابلتهم على
أقوالهم بأمثالها، والاشتغالِ بغيرهم مدَّة من الزمن، حتَّى إذا شَعَرَ بأنَّهم كَفُّوا
عن أقوالهم عادَ إلى دَعْوَتِهِم وتوجيه النَّصْح والتذكير لهم، لإشعارهم بأنَّه قد
هجرهم هَجْرًا مُوقَّتًا لئلا يُجَرِّئُهُمْ على إهانته، ولئلا يَرُدَّ على إساءاتهم
بأمثالها .

فالهَجْرُ الجميل المؤقت لا يَحْمِلُ أكثر من إشعارٍ بأنَّهم قد أساءوا إليه،

ولم يقابلهم على إساءاتهم بأمثالها، وهذا الأسلوب من التَّعَامُلِ يَجْعَلُ ذُوِي
الفطر السليمة السوية تَشْعُرُ بِإِكْبَارِهِ، وَحُسْنِ خُلُقِهِ، وَسَمُوِّ سَجَايَاهُ.

وأمر الله عزَّ وجلَّ حاملَ رسالة الرسول من أُمَّتِهِ بِأَنْ يَتْرُكَ لِرَبِّهِ الْكُفْرَةَ
الْمَكْذِبِينَ بِالذِّينِ أَوْلِي النَّعْمَةِ (أي: أولي الرفاهية وطيب العيش لكثرة ما
لديهم من أموال) فَلَا يَتَّخِذُ مَعَهُمْ وَسَائِلَ مَوَاجِهَاتٍ عَنِيفَةٍ وَمَصَادِمَاتٍ، بَلْ
يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَزِيدَ فِي مَعَامَلَتِهِم بِالْإِمْهَالِ وَالْمَطَاوَلَةِ وَالصَّبْرِ وَسِعَةِ الصَّدْرِ.

لقد أمر الله حاملَ رسالة الرَّسُولِ مِنْ أُمَّتِهِ بِالصَّبْرِ عَلَى مَا يُقَالُ فِيهِ،
وَالهَجْرِ الْجَمِيلِ إِذَا اقْتَضَى الْحَالُ ذَلِكَ، وَبِالْإِمْهَالِ وَالْمَطَاوَلَةِ وَسِعَةِ الصَّدْرِ،
لأنَّ هَذِهِ السِّيَاسَةُ هِيَ الْأَجْدَى وَالْأَنْفَعُ لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ، وَلِانْتِشَارِ الدَّعْوَةِ،
وَلِتَحْقِيقِ الْإِصْلَاحِ الْمُنْشُودِ، وَتَبْلِيغِ دِينِ اللَّهِ لِلنَّاسِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِ وَأَتَمِّهِ.

* * *

النص الثالث:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) خطاباً
لرسوله ﷺ، وَالْمَقْصُودُ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ، وَأَمْرٍ بِالْمَعْرُوفِ نَاهٍ عَنِ
الْمُنْكَرِ مِنْ أُمَّتِهِ:

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ
الَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿٢٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرَرِّقْ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾.

لقد كان الرسول ﷺ متحلياً بالمطلوب منه في هذا النص، إذ أنزل الله
عليه قبل سورة (طه) أربعة نصوص أمره الله فيها بالصبر، أو لاها في سورة
(المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٤ نزول) ثم في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول)
وأمره فيها بالتسبيح قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل وأدبار
السجود، ثم في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) ثم في سورة

(الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

ولم يكن الرسول ﷺ إبان نزول سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) بحاجة إلى أن يُوجَّهَ لَهُ الأمر بالصَّبْر، والتَّسْبِيح بحمد ربِّه، وأن لا يَمُدَّ عينيه إلى زهرة الحياة الدنيا التي أتاها بعض عباده، لكنَّ الدُّعَاء من أمته في مثل المرحلة التي نزلت فيها سورة (طه) يحتاجون إلى هذا التوجيه، فأنزله الله عزَّ وجلَّ في المرحلة المدنيَّة، وضمَّه إلى سورة (طه) التي أنزلت في أواسط المرحلة المكيَّة.

فكلَّ داعٍ إلى سبيل ربِّه مطالبٌ بالصَّبْرِ كلِّما تعرَّضَ لما يُؤلِّمُه ويؤذيه من الذين يدعوه، ومطالبٌ باستعمالِ الدواء الذي يَسْتَعِين به، حتى يصرف اللُّهُ به عنه الضواغِطَ النفسيَّة التي قد تستنفد لَدَيْهِ طاقات الصَّبْر، وهو أن يُسَبِّح بحمد ربِّه:

- قبل طلوع الشمس .
- وقبل غروب الشمس .
- ومن آناء اللَّيْلِ، أي: من ساعات اللَّيْلِ، آناء: أي: ساعات، مفردُه: «أني» و «إني» .
- وأطرافَ النَّهار، أي: وفي أوقات صلاتي الظَّهر والعصر، اللَّتين تقعان في مفصلين من النَّهار لهما طرفان .

وكلُّ داعٍ إلى سبيل ربِّه مُطالبٌ بأن لا يَمُدَّ عينيه متطلِّعاً بهوى أو شهوة أو رغبة قويَّة إلى شيءٍ من زهرة الحياة الدُّنيا، ممَّا متَّع الله به أصنافاً من عباده .

وقد كان الرسول ﷺ مُتَحَلِّياً بهذا الخلق الرِّفيع، فلم يكن مقصوداً بالتوجيه، إذ أُخِّرَ تنزيلُ النَّصِّ إلى المرحلة المدنيَّة، للإشعار بأنَّ المقصود به حملةُ رسالته من أمته .

فقال لكل حامل رسالة الرسول من أمته :

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۗ ﴾ (١٣)

مَدُّ الْعَيْنِ كِنَايَةٌ عَنِ تَطَّلُعِ النَّفْسِ وَتَشَهِّيهَا، وَهُوَ أَمْرٌ يُفْسِدُ نَفْسَ الدَّاعِي إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ، وَيَجْعَلُهُ مِنْ طُلَّابِ الدُّنْيَا، وَقَدْ تُغْرِيهِ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَيَزِيغُ عَنِ الْحَقِّ فِي فِكْرِهِ أَوْ فِي سُلُوكِهِ.

إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ: أَي: إِلَى شَيْءٍ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَتَّعْنَا بِهِ مَتَاعًا مُوقْتًا عَاجِلًا، أَصْنَافًا مِنَ النَّاسِ، وَالْمَتَاعُ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ مُوقْتًا وَالزَّوَالُ يَلْحَقُهُ.

وَسَمَّى اللهُ كُلَّ زِينَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا زَهْرَةً لِأَنَّهَا بِمِثَابَةِ الزَّهْرَةِ الْمَغْرِبِيَةِ السَّرِيعَةِ الذَّبُولِ.

لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ: أَي: لِنَمْتَحِنَهُمْ فِيهِ خِلَالَ رِحْلَةِ ابْتِلَائِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. لَكِنَّ رِزْقَ رَبِّكَ الدَّائِمُ فِي الْآخِرَةِ أَيُّهَا الدَّاعِي إِلَى سَبِيلِهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى.

النص الرابع :

قول الله عز وجل في سورة (النحل/ ١٦/ مصحف/ ٧٠/ نزول) خطاباً لرسوله والمقصود به كلُّ داعٍ إلى سبيل ربِّه وأمرٍ بالمعروف ناهٍ عن المنكر من أمته :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ۗ ﴾ (١٢٧) وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٨﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٩﴾ .

لقد كان الرسول ﷺ متحققاً بمضمون هذا التوجيه الرباني إبان نزول

سورة (النحل) فَأَخْرَجَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِنْزَالَهُ إِلَى الْعَهْدِ الْمَدِينِيِّ، لِلإِشْعَارِ بِأَنَّ الْمَقْصُودَ بِهِ كُلَّ حَامِلٍ لِرِسَالَةِ الرَّسُولِ مِنْ أُمَّتِهِ.

إِنَّ الدَّاعِيَ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ قَدْ يَتَعَرَّضُ لِأَذَى عَمَلِيٍّ مِنْ بَعْضِ الَّذِينَ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْهُدَى، وَإِلَى تَرْكِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ بَاطِلٍ وَشَرٍّ وَضَلَالٍ، وَقَدْ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ الْقُدْرَةَ عَلَى الْإِنْتِقَامِ.

وهنا يَكْبَحُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَفْسَ الدَّاعِي الْقَادِرِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ، وَيَقْبِدُهُ بِحُدُودِ مُقَابَلَةِ الْأَذَى بِمِثْلِهِ فَقَطْ دُونَ زِيَادَةٍ، وَيُبَيِّنُ أَنَّ الْأَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ الصَّبْرُ وَالصَّفْحُ وَالْمُسَامَحَةُ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ

لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٧﴾﴾.

جَاءَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ اسْتِعْمَالُ حَرْفِ (إِنْ) الَّتِي تَفِيدُ التَّشْكِيكَ بِحُدُوثِ مَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ، أَوْ تَقْلِيلَهُ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْمَعَاقِبَةَ مَأْذُونٌ بِهَا ضَمِنَ مَبْدَأَ الْعَدْلِ، لَكِنَّ السِّيَاسَةَ الرَّشِيدَةَ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى دِينِ اللَّهِ تَقْتَضِي اسْتِبْعَادَ الْمَعَاقِبَةِ، أَوْ تَقْلِيلَ حَدُوثِهَا جَدًّا، وَأَنَّ الْمُسَامَحَةَ وَالصَّفْحَ وَالصَّبْرَ عَلَى الْأَذَى خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ، إِذْ إِنَّ هَذِهِ السِّيَاسَةَ أَنْفَعُ وَأَجْدَى لِتَحْقِيقِ أَهْدَافِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ.

فَالْمَعْنَى: وَإِنْ عَاقَبْتُمْ عَلَى سَبِيلِ الْإِحْتِمَالِ الَّذِي نُفِضَ لَكُمْ اسْتِبْعَادُهُ، فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ مِنَ الَّذِينَ تَدْعُونَهُمْ، وَسَمَى اللَّهُ الْأَذَى الَّذِي يُوجِّهُهُ رَافِضُوا دَعْوَةَ الْحَقِّ لِلدَّعَاةِ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِمْ عِقَابًا مَجَارَاةً لَهُمْ فِي مَفْهُومَاتِهِمُ الْبَاطِلَاتِ، لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ مَا يُنْزَلُونَهُ بِالْإِعْذَارِ مِنَ الْأَذَى أَوْ تَعْذِيبٍ، إِنَّمَا هُوَ عِقَابٌ لَهُمْ عَلَى مَخَالَفَةِ مَا عَلَيْهِ قَوْمُهُمْ، مِنْ عَقِيدَةٍ أَوْ نَظْمٍ أَوْ قَوَانِينٍ مَعْمُولٍ بِهَا مِنْ أَوْضَاعِ النَّاسِ، أَوْ عَادَاتٍ وَتَقَالِيدٍ موروثة.

بعد هذا أَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى الْأَذَى خَيْرٌ مِنَ الْمَعَاقِبَةِ، فَقَالَ

تعالى: ﴿وَلَيْنَ صَبْرَتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ .

أي: وَلَيْنَ صَبْرَتُمْ عَلَى الْأَذَى، فَصَفَحْتُمْ عَنْهُ، وَلَمْ تَعَاقِبُوا عَلَيْهِ مَعَ قَدْرَتِكُمْ عَلَى الْمَعَاقِبَةِ، لَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ .

وجاء في الآية وضع الاسم الظاهر وهو لفظ ﴿الصَّابِرِينَ﴾ موضع الضمير، للإشعار بأن الخير الذي يأتيهم إنما يأتي بسبب الصَّبْرِ .

وبعد هذا التوجيه العام لكل الدعاة إلى سبيل ربهم، وَجَّهَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لكل واحد منهم بأسلوب التوجيه الإفرادي فقال تعالى له:

﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ .

في هذا التوجيه الإفرادي لحامل رسالة الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أربع قضايا:

القضية الأولى: الأمر الإرشادي الترغيبي بالصَّبْرِ عَلَى الْأَذَى وَعَدَمَ اللُّجُوءِ إِلَى الْمَعَاقِبَةِ بِالْعَدْلِ، مَعَ بَيَانِ أَنَّ هَذَا الصَّبْرَ لَا يُمْكِنُ تَحْقِيقَهُ إِلَّا بِالِاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ .

القضية الثانية: النَّهْيُ الْإِرْشَادِيُّ التَّرْغِيبِيُّ لِحَامِلِ الرِّسَالَةِ عَنْ أَنْ يَحْزَنَ عَلَى مَنْ يَرْفُضُ دَعْوَتَهُ وَيَخْتَارُ لِنَفْسِهِ سُبُلَ الضَّلَالِ وَالشَّرِّ .

وهذه القضية تُعَالَجُ مَا يَعْتَرِي أَنْفُسَ بَعْضِ الدُّعَاةِ مِنْ حِرْصٍ وَشَفَقَةٍ عَلَى أَرْحَامِهِمْ وَأَقَارِبِهِمْ أَوْ أَصْدِقَائِهِمْ أَوْ قَوْمِهِمْ، فَإِذَا وَجَدُوهُمْ قَدْ رَفَضُوا الْحَقَّ بِإِصْرَارٍ وَمَعَانِدَةٍ وَإِثَارٍ لِلْبَاطِلِ عَلَى الْحَقِّ حَزِنُوا عَلَيْهِمْ، لِأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُمْ إِلَى عَذَابِ اللَّهِ فِي جَهَنَّمَ صَائِرُونَ، وَأَنَّهُمْ عَلَى النَّارِ يَتَهافتون، فَقَالَ اللَّهُ لِلدَّاعِي إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ .

أي: إنَّهم بسبب ما اختاروه لأنفسهم من الشرِّ والإثم والضللال يستحقُّون عقابَ الله بالعدل، فالله يُعَاقِبُهُم على ما اختاروه لأنفسهم، وهو أرحم الرّاحمين، فلا يستحقون أن يَحْزَنَ عليهم أحدٌ من عباد الله، ولو كانوا أقربَ الأقربين إليهم.

وقد خاطب الله الداعي بهذا كما خاطب بمثله رسوله في الآية (٧٠) من سورة (النمل/ ٢٧/ مصحف/ ٤٨/ نزول):

القضية الثالثة: النهي الإرشاديّ الترغيبي لحامل الرسالة عن أن يكون في ضيقٍ ممَّا يَمْكُرُ أعداءُ رسالته لصدّه عنها، أو منعه من القيام بها، أو تحويله واجتذابه إلى طريقتهم، أو التخلُّص منه ومن أتباعه المُتَاصِرِينَ له بالقتل أو السجن أو غير ذلك، فقال الله تعالى للداعي إلى سبيل ربّه: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾.

الضيقُ: والضيقُ: يأتي بمعنى الألم النفسي الذي يَضْغُطُ عليها فيضيقُ عليها مجاريها، وهو المراد هنا، ويأتي بمعنى الشدّة والفقر.

وشعورُ الإنسان بمكر أعدائه لإيقاع الضّرِّ به يُؤلِّدُ لديه هذا الضيق في نفسه.

وفي نهى الله الداعي عن أن يكونَ في ضيقٍ ممَّا يَمْكُرُ أعداءُ دعوته، إشعارٌ ضمّنيّ بأنّه جلٌّ وعلاً سيُحِطُّ مكرهم، ويرُدُّه إلى نحورهم، وينصُرُ أوليائه، كما قال تعالى في سورة (الأنفال/ ٨): ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ﴾ وهو من التنزيل المكيّ المضاف إلى سورة مدنية.

وقد خاطب الله الداعي بهذا النهي الإرشاديّ الترغيبي كما خاطب بمثله رسوله في الآية (٧٠) من سورة (النمل/ ٢٧/ مصحف/ ٤٨/ نزول).

القضية الرابعة: بيان أن الله عز وجل مع أوليائه معيناً وناصرأ، سواءً أكانوا من المتقين الذين يُعاقِبُونَ بِمِثْلِ مَا عُوِقِبُوا بِهِ، أم كانوا من المحسنين الصابرين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (١٢٨).

ومَعِيَّةُ اللَّهِ لَهُمْ هِيَ مَعِيَّةُ إِعَانَةٍ وَحِفْظٍ وَنَصْرِ وَإِخْبَاطٍ لِمَكْرِ أَعْدَائِهِمُ الْكَافِرِينَ الْمَجْرِمِينَ.

ونلاحظ أن هذا النصّ المدنيّ التنزيل قد وضع عَقَبَ الآيَةِ المَكِّيَةِ التي يُبَيِّنُ اللهُ فِيهَا لِرَسُولِهِ وَلِحَامِلِي رِسَالَتِهِ مِنْ بَعْدِهِ الْقَوَاعِدَ الرَّئِيسَةَ الْعَامَّةَ لِمَنْهَاجِ الدَّعْوَةِ إِلَى سَبِيلِ اللهِ، وَهِيَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١٢٩).

والحكمة في هذا أن الداعي إلى سبيل ربه في مجتمعات كافرة معاندة لا بُدَّ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِأَحْوَالٍ مُخْتَلِفَةٍ تَسْتَدْعِي إِرْشَادَهُ إِلَى مَا يَنْبَغِي أَنْ يَفْعَلَهُ حِيَالَهَا، فَجَاءَ النَّصُّ الْمَدِينِيُّ التَّنْزِيلِيُّ مُرْشِداً مُعَلِّماً.

أما تحليل ما جاء في هذه الآية (١٢٥) فله موضع آخر من هذا الكتاب.

وهكذا وضَحَّ لنا من هذه النصوص الأربعة ذاتِ التَّنْزِيلِ الْمَدِينِيِّ، وَالْمَوْضُوعَةِ فِي سُورَةِ مَكِّيَةٍ أَنَّهَا مُوجَّهَةٌ لِحَامِلِي رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِمْ، وَالْأَمْرَيْنِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِيْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُ الْخُطَابِ مُوجَّهًا لِلرَّسُولِ، إِذِ التَّوْجِيهِ لَهُ مَلَاخِظٌ فِيهِ أَنَّهُ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَأَوَّلُ الدَّعَاةِ إِلَى سَبِيلِ اللهِ، وَأَوَّلُ الْآمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِيْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَإِمَامُهُمْ جَمِيعاً، وَالْخُطَابُ لِلْإِمَامِ هُوَ خُطَابٌ لِكُلِّ الْمُؤْتَمِنِينَ بِهِ.

* * *

النص الخامس:

قول الله عز وجل في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ .

هذه الآية أنزلت في المرحلة المدنية وضمت إلى سورة هي من أواخر التنزيل المكي، للإشعار بأن المقصود بالخطاب فيها قادة الدعوة الذين يُشرفون على تربية الدعاة وتعليمهم وتزكيتهم بغية إعدادهم وتأهيلهم للقيام برسالة الدعوة إلى سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ كان الرسول ﷺ متحققاً بما جاء فيها من توجيه، لكن المرحلة التي أنزلت فيها سورة الكهف مرحلة قد تهيأ فيها قادة مربون من أصحاب الرسول ﷺ، وهم محتاجون للتوجيه الذي جاء فيها، وكذلك كل من وصل إلى مثل هذا المستوى من بعدهم، وقد كان هؤلاء الأصحاب يتأسون بالرسول ﷺ، إلا أن أهمية الموضوع تستدعي إنزال قرآن يتلى به، فحصل هذا الإجراء البديع.

إن العالم الديني ينبغي أن يكون عالماً وداعياً وهادياً ومربياً اقتداءً بالرسول ﷺ، فهو مسؤول عن تربية الدعاة إلى الله والأمين بالمعروف والناهي عن المنكر، وهذه التربية تتطلب منه الإشراف على من يعلمهم ويزكيهم إشرافاً متتابعاً بالغداة والعشي، حتى يكونوا مؤهلين لأداء هذه الوظيفة الجليلة.

ولما كان هذا الإشراف التعليمي التربوي المتتابع يتطلب بذل جهد كبير، بدأ منتظم لا ينقطع، وهذا لا يتحقق إلا بصبر عظيم، أنزل الله هذه الآية يخاطب فيها رسوله، والمقصود أئمة الدعاة المرئون المعلمون من أمته، وجاء فيها الخطاب بأسلوب الخطاب الإفرادي، لإشعار كل فرد منهم بأنه

مُطَالِبٌ بِخَطَابٍ خَاصٍّ بِهِ أَنْ يَتَحَقَّقَ بِمَا جَاءَ فِي التَّوْجِيهِ الَّذِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
الآيَةُ .

وَاضْبِرْ نَفْسَكَ : أَي : وَاضْبِرْ يَا أَيُّهَا الْعَالَمُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ،
الْمَسْئُولُ عَنْ إِعْدَادِ الدَّعَاةِ إِلَى اللَّهِ وَالْأَمْرِينَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ ،
حَامِلًا نَفْسَكَ عَلَى تَحْمُلِ مَسْئَلَاتِ التَّعْلِيمِ وَالتَّرْبِيَةِ وَالتَّزْكِيَةِ ، مَعَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ
رَبَّهُمْ بِإِعْدَادِ أَنْفُسِهِمْ ، لِيَكُونُوا دَعَاةً إِلَى دِينِ اللَّهِ ، وَأَمْرِينَ بِالْمَعْرُوفِ نَاهِينَ عَنِ
الْمُنْكَرِ .

مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ : أَي : مَعَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ رَبَّهُمْ بِتَعَلُّمِ عُلُومِ
الَّذِينَ ، وَإِعْدَادِ أَنْفُسِهِمْ لِيَكُونُوا دَعَاةً مُؤَهَّلِينَ .

فَالدَّعَاءُ يَأْتِي بِمَعْنَى الْعِبَادَةِ ، وَأَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ تَعَلُّمُ عُلُومِ الدِّينِ ،
وَالْقِيَامُ بِرِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ ، وَإِعْدَادُ النَّفْسِ لِهَذِهِ الْوِظِيْفَةِ الْعَظِيمَةِ .

بِالْفِدَاةِ وَالْعَشِيِّ : أَي : فِي أَوَّلِ النَّهَارِ وَآخِرِهِ .

وَلَا تَعُدُّ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ : أَي : وَلَا تَتَجَاوَزْ عَيْنَاكَ مُرَاقَبَتَهُمْ وَالْإِشْرَافَ
عَلَيْهِمْ ، لِئَلَّا يَفْلَتَ زِمَامُ قِيَادَتِهِمْ مِنْ يَدِكَ ، بِغَفْلَتِكَ عَنْهُمْ ، وَإِهْمَالِكَ مُرَاقَبَتَهُمْ .

تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا : أَي : تُرِيدُ بِتَجَاوُزِ عَيْنَيْكَ مُرَاقَبَتَهُمْ وَالْإِشْرَافَ
عَلَيْهِمْ ، وَبِغَفْلَتِكَ عَنْهُمْ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ مَالٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ شَهْوَاتٍ وَنَحْوِهَا .

وَلَا تُطِغْ مَنْ أَعْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا : أَي : وَلَا تُطِغْ مُثْبِطًا لَكَ عَنْ عَمَلِكَ ،
أَوْ مُسْتَدْرَجًا إِيَّاكَ إِلَى مَزَالِقِ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهْوَاتِ ، فَهَذَا قَدْ وَجَدْنَا قَلْبَهُ غَافِلًا
عَنْ ذِكْرِنَا ، وَإِذْ غَفَلَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ فَهُوَ دَاعِيَةٌ تُشْبِطُ عَنْ تَرْبِيَةِ الدَّعَاةِ وَتَعْلِيمِهِمْ
وَتَزْكِيَتِهِمْ .

وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطًا : أَي : وَمِنْ عِلَامَاتِ كَوْنِهِ غَافِلًا عَنْ

ذکر الله، أَنَّهُ اتَّبَعَ هَوَاهُ فِي أَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ. وَكَانَ أَمْرُهُ فِي حَيَاتِهِ وَسُلُوكِهِ
النَّفْسِي وَالظَّاهِر مُجَاوِزاً حَدَّ أَوْامِرِ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ بِالْمَعَاصِي وَالْمُخَالَفَاتِ.
الْفُرْطُ: هُوَ مَا كَانَ مِنَ الْأُمُورِ مُجَاوِزاً حَدَّ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْهُدَى.

* * *

المقولة الثالثة

نصوص قرآنية يُلاحظُ فيها توجيه الأمرِ بالصَّبْرِ للرسول
ويُلحَقُ به حاملو رسالته من أمته ﷺ

مقدمة:

اشتمل القرآن المجيد على نحو عشرين نصاً فيها توجيه الأمر بالصَّبْرِ في مجال الدعوة إلى سبيل الله، للرسول ﷺ، ويُلحَقُ به حاملو رسالته من بعده. وقد وردت هذه النصوص في مناسباتٍ شتى تشمل جوانب مختلفة من مشكلات يتعرَّض لها حامل رسالة الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكلّ مُشكِلةٍ منها تحتاجُ من حامل الرسالة الصَّبْرَ. وقد اقتضت الحكمة الربانية أن يُوجَّه له الأمرُ بالصَّبْرِ معها لئلا يتصرَّفَ تصرُّفاً يتنافى مع مقتضيات رسالته.

ونظراً إلى واجب تربية الدعاة إلى سبيل الله، والأمين بالمعروف والناهي عن المنكر على فضيلة خُلُقِ الصَّبْرِ في مختلف المشكلات التي يتعرَّضون لها، ومختلف المواقف التي أمر الله فيها رسوله بالصَّبْرِ، ويُلحَقُ به كلُّ حاملٍ لرسالته من بعده، فقد وجَدْتُ من الخَيْرِ تَبَعُ هذه النصوص بحسب ترتيب نزولها، مصحوبةً بنظرات تدبُّريَّة تَهْدِي حاملي رسالة الرسول ﷺ، إلى ما يَنْبَغِي لهم الالتزام به من الصَّبْرِ، في المواقف المختلفة

التي يتعرّضون لها في مسيرتهم التي يؤدّون فيها مهامّ رسالتهم .

نظرات تدبّرية للنصوص مع مراحل الدعوة :

١ - بدأ الله عزّ وجلّ نبوّة رسوله فأوحى إليه أوائل سورة (العلق) أولِ سُورَةٍ أنزلت من القرآن المجيد، ولم يُؤمّر فيها بأن يدعو الناس إلى الإيمان والإسلام .

بل كان إنزالها وقيام الرسول بمقتضى إيمانه وإسلامه في صلاته، وتلاوته ما أنزل عليه منها، بمثابة البيان التمهيدي بأنّه نبيّ يُوحى الله إليه بقرآن يُتلى .

فتعرّض من بعض قومه للأذى، بُعِيَةَ مِنْهُ عن صلاته الخاصّة، إذ صار يُصلّي لربه منفرداً، على خلاف طريقة قومه، فأنزل الله عليه بقية السورة .

* * *

٢ - وتذاكر ملاً قريش بنبوّته، فاستنكر بعضهم أن يكون نبياً يُوحى إليه، فاتهمه بالجنون، فأنزل الله عليه سورة (القلم/٦٨) ثاني سورة أنزلت عليه .

وأنزل عليه فيها ما فيه تثبيت له، وثناء عليه بأنّه لعلی خلقٍ عظيم، وأبان له فيها أنّ من عارضه من قومه وأتهمه بالجنون قد فعل ذلك بدافع الحسد، ووجه الله فيها النكير الشديد مُنصّباً على من تولّى كبر ذلك، مع سوق أدلّة إقناعيّة، تعتمد على حجج عقلية برهانية، وتقديم إنذارٍ بعذاب أليم يوم الدين .

* * *

٣ - واقتضت الحكمة التربويّة أن يُعدّ الله رسوله للقيام بوظيفة الدّعوة والإنذار إعداداً نفسياً ملائماً للمهمة العظيمة التي سيكلف القيام بها، فأنزل عليه سورة (المزمل/٧٣) ثالث سورة أنزلت من القرآن المجيد، فكلّفه فيها

أن يقوم اللئيل إلا قليلاً، عابداً ربه، وكلفه أن يذكر اسم ربه، ويتبتل إليه تبتيلاً، أي: يتفرغ تفرغاً كاملاً لعبادة ربه، وكلفه أن يتخذه وكيلاً في أمره كله.

ولم يأمُرهُ في هذه المرحلة بأن يقول لقومه: إني رسول الله إليكم.

لكنَّ الله عزَّ وجلَّ حذَّر فيها النَّاس من عذابه، وخاطبهم فيها خطاباً مباشراً بقوله:

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ .

فأبان لهم عاقبة فرعون إذ كذب رسول ربه، وأنذرهم فيها إن كفروا بعذاب أليم يوم الدين.

والإعدادُ النفسي الذي أعدَّ الله به رسوله جعله يحْمِلُ همًّا عظيمًا، ومع الهمَّ العظيم للقيام بأمر عظيم يُصَابُ جسد الإنسان بعوارض بزْدٍ يحتاج معها إلى أن يتدبَّرَ بأعطية تعطيه دفأً، وهذا هو الذي شعر به الرسول ﷺ، فصار يقول دَثُرُونِي دَثُرُونِي، كما جاء في روايات السيرة.

* * *

٤ - وبعد أن أعدَّ الله رسوله للقيام بمهمته العظيمة إعداداً نفسياً مُلائماً أنزَلَ عليه سورة (المذثر/ ٧٤) رابع سورة أنزلت من القرآن المجيد، فقال له:

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمَنَّ عَلَىٰ الْمُنْكَرِ ﴿٦﴾ وَلَا تَبْتَغِ بِسُلْطَانٍ ﴿٧﴾ .

أي: نَحَّ عَنكَ دِثَارَكَ فقد انتهت مرحلة الإعداد، وقم بالدعوة إلى سبيل ربك وفق مراحلها، تبليغاً وإقناعاً وتبشيراً بثواب الله العظيم يوم الدين، حتى آخِرِ مراحلها وهي الإنذار بعذاب الله المعجل والمؤجل إلى يوم الدين، دلَّ

على هذا قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدِينَةُ لَئِيْلًا وَقَدْ أَنْذَرْنَا قُرْآنًا زَيْدًا﴾ .

وعلمه ربُّه الأسس العامة الكبرى للدين الذي يلتزم به ويدعو إليه،

وهي:

(أ) تكبيرُ الله وحده، فلا شريك له في ذاته ولا في صفاته، وهذا يلزم منه توحيد الله في ربوبيته وفي إلهيته، فقال: ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ وتوحيدُ الله في إلهيته يلزم منه إفراده في العبادة، وهذا تندرج تحته كل أحكام الدين.

(ب) التَّطَهُّرُ من الأرجاس والأدران، فقال له: ﴿وَيَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَطَهِّرُوا﴾ وهذا يلزم منه تَطْهِيرُ جَسَدِهِ، وتَطْهِيرُ الثِّيَابِ والبَدَنِ من الأرجاس والأنجاس والأدران المادية، يدلُّ على وجوب تَطْهِيرِ النفس من النجاسات المعنوية من باب أولى.

(ج) الابتعادُ عن كلِّ الوثنيات والشركيات ولوازم الاقتراب منها في الاعتقاد والسلوك، فقال له: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ أي: واحْصُصِ الرُّجْزَ (وهو الشرك) بالهَجْرِ الكامل، فلا تَقْرَبْ من شيءٍ مِنْهُ مُطْلَقاً، واذْعُ إلى هَجْرِهِ في رسالتك.

وأزْشَدَهُ رَبَّهُ إِلَى مَا يَجْذِبُ به قلوب من يدعوهم في مسيرته الدعوية، وإلى ما يَحْمِي به نفسه من التَّخَاذُلِ وَالضَّجَرِ، فَأَبَانَ له فضيلتين خُلُقِيَّتَيْنِ:

الفضيلة الأولى: العَطَاءُ ابتغاء مرضاة الله فقط، دون ابتغاء الفوائد الدنيوية من الناس، فقال الله له: ﴿وَلَا تَمُنُّنَّ سَتَكْثُرُ﴾ .

المن: التفضُّلُ بالعطاء الحسن.

أي: وأنعمُ بالعطاء الحسنِ مِمَّا تَمْلِكُ من جَسَدِكَ وَنَفْسِكَ وَمَالِكَ عطاءً لا يُرَادُ منه الرِنْحُ من الناس، والمعنى: فامُنُّنْ بعطاءاتك غيرِ مستكثِرٍ بها أعضاً من الناس.

وهذا يدلُّ على أَنَّ الدَّاعِيَ إلى سبيلِ رَبِّهِ ينبغي له أن يكون ذا بَدَلٍ وَعَطَاءٍ، حَتَّى يَمْلِكَ مشاعِرَ التُّفُوسِ بالمحَبَّةِ، وَأَنْ لا يكون عطاؤُهُ وَسِيلَةً لتحصيلِ العطايا من الناسِ مستكثراً، فمن استكثَرَ من عطاءاتِ الناسِ بعطاءاتِهِ لَهُمْ، زهد به الناسُ، إِذْ يَرَوْنَهُ تاجِراً طالباً للربِّحِ ممَّا يبذلُّه.

الفضيلة الثانية: الصَّبْرُ ابتغاءَ مرضاةِ الله، فقال الله له: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾.

أي: ولا ابتغاءَ مرضاةِ رَبِّكَ وثوابِهِ الجزيلِ فاصْبِرْ على ما تَلْقَاهُ من الذين تدعوهم إلى سبيلِ رَبِّكَ، من إعراضٍ أو إذبارٍ، أو أذى بأقوالهم أو بأعمالهم. وكان هذا أوَّلَ توجيهٍ من الله لرسوله بأن يَصْبِرَ على ما سَيَلْقَى من قَوْمِهِ من مؤلماتٍ له، وهو يَقُومُ بأداءِ رسالته التي حمَّله اللهُ أَعْبَاءَهَا.

* * *

٥ - وقام الرسول ﷺ بِمُهَمَّاتِ رسالته كما أمره اللهُ، وتعرَّضَ فِعْلاً لِاتِّهَامَاتٍ وَأَقْوَالٍ جارحاتٍ أَثَرَتْ في نفسه صلواتُ اللهُ عليه، فَأَنْزَلَ اللهُ عليه قوله في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ (٣٩)
وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ﴾.

فأمر اللهُ رسوله بالصَّبْرِ، ووصفَ لَهُ الدَّوَاءَ الَّذِي يستعين به، حَتَّى يَصْرِفَ اللهُ به عنه الضَّوَاعِظَ النفسيةَ التي تستنفد طاقاتِ الصَّبْرِ عادةً في نفوسِ الناسِ، وهو أن ينقطع متبتلاً لذكرِ رَبِّهِ مُسَبِّحاً بحمده في الأوقاتِ التالية:

● قبل طلوع الشمس، وهذا الوقت يستمر حتى طلوعها.

● وقبل غروب الشمس، وهذا الوقت يكون من بدء اصفرار الشمس حتى غروبها.

● وأثناء الليل ، وهذا يكون في وقت أو أوقاتٍ ما بين صلاة المغرب وصلاة العشاء ، وما بين صلاة العشاء وطلوع الفجر .

● وعقب كل صلاة .

وهذا التعليم الموجه للرسول ﷺ تعلیمٌ موجه أيضاً لكل الدعاة إلى الله من أمته ، الذين سيتعرضون في مسيرتهم الدعوية لما قد يستهلك طاقات الصبر لديهم ، فالتسبيح بحمد الله بعبارة : «سبحان الله وبحمده» ونحوها في الأوقات التي أُرشد الله إلى التسبيح فيها يمدُّ طاقات الصبر في النفس بفيوض من معونة الله ومدده .

* * *

٦ - ثم تعرّض الرسول ﷺ لآتهامه بأنه ساحرٌ كذابٌ وبأنه صاحب غرضٍ دنيويٍّ خاصٍّ من دعوته ، وبأن التوحيد الذي يدعو إليه قضيةٌ يختلقها من عنده اختلاقاً ، فالمِلَّةُ الآخرة وهي التصرّاتية مِلَّةٌ فيها عقيدة التثليث ، وفيها تعظيمٌ للأوثان فأنزل الله عليه في سورة (ص/ ٣٨ / مصحف/ ٣٨ / نزول) قوله :

﴿ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ . . . ﴾

وأشعر الله رسوله فيها ضمناً بأن الرسل من قبله قد امتحنوا امتحانات شديداً فصبروا على ما ابتلاهم الله به ، فذكر له داود وسليمان وأيوب ، مبيّناً ما امتحنوا به ، وذكر له : إبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل واليسع وذا الكفل ، في إشارة ضمنية إلى أنهم امتحنوا فصبروا ، دون التّصريح بهذا .

* * *

٧ - ثم تعرّض الرسول ﷺ لآتهامه بأنه يفتري القرآن على ربه ، وبأنه يُعينه عليه قومٌ آخرون ، وبأنه ينقله من أساطير الأولين .

وشكك كُبراء مشركي مكة في أن يكون رسولا بسبب أنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لكسب رزقه .

واقترحوا أن يُنزل إليه ملك من السماء فيكون معه نذيراً، حتى يشهد له بأنه صادق في رسالته .

واقترحوا أن يُلقى إليه كثر من السماء، أو أن تكون له في مكة جنة يأكل منها، فالله الذي اصطفاه بالنبوة والرسالة كما يدعي قادر على أن يجعل له ذلك .

وقالوا للذين آمنوا به إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً.

ويظهر أن بعض أصحاب الرسول ﷺ رغبت نفوسهم في إجابة الكافرين إلى بعض مطالبهم رجاء إيمانهم، لكن الله يعلم أنهم متعتون متشهون، فلو أجابهم إلى مقترحاتهم لما آمنوا، فأنزل على رسوله قوله في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿ .. وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ .

فأبان الله لرسوله ولكل أمة أن من سننه في الحياة الدنيا ضمن قانون الخلق العام، أن يكون بعض الناس فتنة لبعض، أي: يمتحن الله الناس بعضهم ببعض من خلال مجرى سننه في كونه، فايداء الكافرين للرسول وللذين آمنوا معه أحد مواد الامتحان الرباني لعباده .

وأبان لهم أن اجتياز هذا الامتحان الرباني لهم بنجاح إنما يكون بالصبر، فقال تعالى على سبيل الاستفهام الترغيب: ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾؟! أي: إذا صبرتم ظفرتم وفرتم، وإن لم تصبروا فإنكم لن تغيروا من الواقع شيئاً، وستخسرون ثواب الصابرين، وتصابون بالآلام المتضجرين .

* * *

٨ - واستمرَّ قادةُ المشركين على مواقفهم في اتِّهام الرسول بأنَّه ساحر مبین، نظراً إلى تأثيره بالقرآن وبدعوته الحكیمة، وتزايد الذين یؤمنون به وبما جاء به عن ربِّه .

وفي أواسط المرحلة المکیة عرض قادةُ المشركين علیه أن یأتي بقرآن غیر القرآن الذي أنزله الله علیه، أو أن یبدله تبديلاً یوافق أهواءهم .

ولعلَّ الرسول تحدّث نفسه بأن یسأل ربّه إنهاء مدّة إمهالهم، والحکم بمعاقتهم، فأنزل الله علیه قوله في سورة (یونس/ ١٠ / مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ فَإِنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخْرُجَ إِلَيْكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَارِعِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ .

فأمر الله بهذا رسوله أن يخاطب الناس جميعاً بأنَّه قد جاءهم الحقُّ من ربِّهم، وأن من اهتدى فإنَّه هو وخذهُ المستفيد من هدايته، وأن من ضلَّ فإنَّه هو وخذهُ الذي يتضرَّر من ضلالته .

وأمره أن يبيِّن لهم أنه ليس وكيلاً عليهم، بمعنى أنه ليس مكلفاً أن يهديهم بالإكراه والإجبار، كالوكيل على قطع من الغنم .

وأمره بأن يتَّبِع ما يوْحَىٰ إليه، فلا يكثر لِقَوْلِ المشركين له: ائت بقرآن غير هذا أو بدِّله .

وأمره أخيراً بأن يصْبِرَ حتَّى يَخْرُجَ إِلَيْكَ اللهُ بِشَأْنِ المصْرِينِ على كُفْرِهِمْ، وهو خير الحاكمين، فلا يسأل ربّه التعجيل بإهلاكهم، إنَّه هو أعلم بعباده .

* * *

٩ - ثم عرض الله على رسوله لِقِطَّةً من قصَّة نوح عليه السلام وصبره على قومه، في سورة (هود/ ١١ / مصحف/ ٥٢ نزول) وقال له بعدها:

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنْقِيبِ ﴾ (١١٤).

أي: فتأس بنوح، واصبر كما صبر على قومه.

والصبر هنا هو من مستوى الصبر الواجب، لقوله تعالى بعده: ﴿ إِنْ الْعَقِيبَةُ لِلْمُنْقِيبِ ﴾ فمرتبة التقوى تقتضي فعل الواجبات وترك المحرمات.

وقال له فيها أيضاً:

﴿ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١١٥).

والصبر المأمور به في هذه الآية هو من الصبر المندوب إليه، لقوله تعالى بعد: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١١٥) فمرتبة الإحسان مرتبة يصل إليها من يتوسعون في فعل مرضي الله من نوافل الصالحات.

* * *

١٠ - ثم اشتدت لهجة تربية الله عز وجل لرسوله ﷺ في توجيهه لأن يصبر على ما يلقى من كبراء قومه من تكذيب وإيذاء واضطهاد لأصحابه، وضمته وعداً بالنصر، وأبان له أن كثيراً من الرسل من قبله قد كذبوا وأودوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله لهم، فأنزل عليه قوله في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ وَكَذَّبَتْ كَدْبَتْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُودُوا حَتَّى أَنْتَهُمْ نَصْرًا وَلَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٣٦) وَإِنْ كَانَ كَبْرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَمْتَ أَنْ تَبْنِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيهِمْ بِنَايٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣٥).

ولا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ: أي: ولا مُبَدَّلَ لكلمات الله التكوينية ومنها سننه في ابتلاء بعض عباده ببعض، التي منها ابتلاء رُسُلِهِ بتكذيب الكافرين

وإذائهم لهم، لاختبار مقدار صبرهم، ولا مُبدّل لكلماتِ اللهِ التكليفيةِ
والجَزَائِيَّةِ.

ويظهرُ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ رَغِبَتْ نَفْسُهُ فِي أَنْ يُجْرِيَ اللهُ لَهُ بَعْضَ الْآيَاتِ
الْخَوَارِقِ الَّتِي طَلَبَهَا كُفْرَاءُ مُشْرِكِي قَوْمِهِ، رَجَاءً أَنْ يُؤْمِنُوا، لَكِنْ عَلِمَ اللهُ أَنَّهُمْ
مُعَانِدُونَ مُتَعَتِّتُونَ، وَأَنَّ إِجْرَاءَ الْخَوَارِقِ الَّتِي يَطْلُبُونَهَا لَا يُغَيِّرُ مِنْ مَوَاقِفِهِمْ
شَيْئاً، بَلْ يَزِيدُهُمْ إِصْرَاراً وَعِنَاداً وَتَشَهَّيَاتٍ فِي طَلَبِ الْمَعْجَزَاتِ، وَحَيْثُ
تَقْتَضِي الْحِكْمَةُ إِهْلَاكَهُمْ إِهْلَاكاً شَامِلاً، فَقَالَ اللهُ لَهُ:

﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْنِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي
السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ﴾.

أي: فَإِنْ اسْتَطَعْتَ ذَلِكَ فَافْعَلْ، لَكِنَّهُ لَنْ يَسْتَطِيعَ ذَلِكَ مَا لَمْ يُقَدِّرْهُ اللهُ
عَلَيْهِ. وَفِي هَذَا تَأْدِيبٌ لَهُ بِأَسْلُوبِ التَّعْجِيزِ، وَالْغَرَضُ تَرْبِيَةٌ حَامِلِي رِسَالَتِهِ مِنْ
بَعْدِهِ.

وَفِي عِبَارَةِ ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾ إِشْعَارٌ بِأَنَّهُمْ فِي مَجْمُوعِهِمْ مَا زَالُوا فِي مَرْحَلَةِ
الْإِعْرَاضِ الَّتِي يُرْجَى مَعَهَا اسْتِجَابَةُ فِتَاتٍ مِنْهُمْ حِينَاً فَحِيناً، وَلَمْ يَصِلُوا بَعْدَ
إِلَى مَرْحَلَةِ الْإِدْبَارِ وَالتَّوَلَّى الَّتِي تَكُونُ حَالَهُمْ مَعَهَا حَالَةٌ مَيْتُوساً مِنْهَا.

وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى: أَي: وَلَوْ شَاءَ اللهُ هَدَايَتَهُمْ هَدَايَةً
إِجْبَارِيَّةً لَسَلَبَهُمْ إِرَادَاتِهِمْ الْحَرَّةَ فَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى، لَكِنَّ اللهَ أَرَادَ اخْتِبَارَهُمْ
فَاعْطَاهُمْ إِرَادَاتٍ حُرَّةً، فَالْمَطْلُوبُ مِنْهُمْ أَنْ يَهْتَدُوا بِاخْتِبَارِهِمْ الْحُرِّ لَا بِالْجَبْرِ.

فاعلم هذه الحقيقة واعمل بمقتضاها دواماً.

* * *

١١ - ثُمَّ تَطَلَّعَتْ نُفُوسُ أَصْحَابِ الرَّسُولِ ﷺ بِقُوَّةٍ لَطْلُبِ نَصْرِ اللهِ،

فأنزل الله عز وجل في سورة (غافر/ ٤٠ / مصحف/ ٦٠ / نزول) قوله :

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴾ .

وبعد ثلاث آيات قال تعالى خطاباً لرسوله فلكل حامل رسالته من

أمته :

﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ .

فوعده الله رسوله والذين آمنوا بالنصر في الدنيا وفي الآخرة يوم يقوم الأشهاد، وهم الذين يشهدون للعباد أو يشهدون عليهم بما كان منهم، مبيناً أن النصر حق لا ريب فيه .

وأمر أمراً إفرادياً الرسول ﷺ وكل حامل رسالته من أمته بالصبر، وبأن يستغفر الله لذنبه، وبأن يسبح بحمد ربه بالعشي والإبكار .

ويظهر أن المقصود بهذا التوجيه حامل رسالة الرسول من أمته، وجاء الخطاب بصورة الخطاب الإفرادي بدءاً بالرسول ﷺ نظراً إلى أنه أول المؤمنين المسلمين الدعاة، وقائدهم، وينتقل توجيه الخطاب تلقائياً إلى كل حامل رسالة الرسول من أمته، فحال أصحاب الرسول ﷺ في الثلث الأخير من المرحلة المكية تستدعي هذا التوجيه الحازم .

وبعد عشرين آية من السورة نفسها قال الله عز وجل :

﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْفَ نُزَيِّنُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنِّيَارْتَجِعُونَ ﴾ .

ويظهر أن نفس الرسول ﷺ تطلعت إلى أن يجري الله له آية إعجازية كبرى تكون سبباً في هداية كثير من كبراء قومه، فقال الله عز وجل له فيها :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَن لَّمْ يَنْقُصْ

عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ .

أي: إذا أتى الله رسوله آية كبرى استجابة لطلب قومه، ثم أصرَّ قومه على العناد والكفر، قضت إرادة الله الحكيمة بإهلاك القوم كما حصل لشمود إذ أصروا على الكفر بعد آية الناقة .

* * *

١٢ - وبعد أن أبان الله عز وجل لرسوله ﷺ أن الحكمة تقتضي عدم إجراء آية إعجازية كبرى له، لئلا يتعرض قومه للإهلاك الشامل إذا أصروا على الكفر بعد إجرائها، يظهر أن الرسول خطرت له حواطر تعجيل معاقبة مستحقي العقاب من قومه، دون أن يسأل ربه شيئاً من ذلك، فأنزل الله عليه قوله في سورة (الأحقاف/ ٤٦/ مصحف/ ٦٦ نزول):

﴿ فَأَصْبَرَ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغٌ فُهِلَّ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴿١٢٠﴾ .

أي: ولا تستعجل لهم الإهلاك المعجل في الدنيا، فالعذاب الذي وعِدوا به يوم الدين آتٍ لا محالة، وحين يرون يوم القيامة العذاب يشعرون أنهم لم يلبثوا بين الموت والبعث إلا ساعة من نهار .

وأعلن الله عز وجل في آخر الآية بلاغاً عاماً لكل المؤمنين لقطع تطلعات نفوسهم لإهلاك جماعات الكافرين، فأبان في هذا البلاغ أن الإهلاك الشامل لقوم من الأقسام إنما يكون حينما يكون فسقهم أمراً عاماً شاملاً، ويُمسي إصلاح أفراد منهم ميثوساً منه، فقال تعالى: ﴿ بَلَّغٌ فُهِلَّ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي: فما داموا لم يصلوا إلى هذا الحضيض فإنهم لا يُهلكون إهلاكاً عاماً شاملاً .

* * *

١٣ - ثم أبان الله عز وجل دعوة الرسل السابقين لأقوامهم، وحوارهم لهم، وإعلانهم صبرهم على إيذاء قومهم لهم، ليتأسى الدعوة إلى الله من أمة محمد ﷺ بهم، فقال تعالى: في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿الَّذِينَ يَأْتِكُمْ بِنُوحٍ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ، وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَنَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلًا وَلَنْصَبِرَ عَلَى مَا أَدْيَسْتُمْونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٥﴾ وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ .

في هذا النصّ عرضٌ شامل، لمنهاج الرسل في دعوة أقوامهم إلى سبيل ربهم، ولمجادلتهم لهم بالتّي هي أحسن، وصبرهم على أذاهم الذي أدّوهم به من أجل قيامهم برسالة ربهم بينهم، وبيان أنّ الطغاة من الأقوام يوجهون التهديد لرسل ربهم بالإخراج من بلادهم، إذا لم يعودوا إلى دين قومهم .

وأخيراً يتدارك الله رُسُلَهُ بالتصبر، وبإهلاك أعدائهم الكافرين الطغاة .

وظاهر من هذا النصّ التوجيه للاقتداء بالرُّسل السابقين في دعوتهم، وفي حوارهم وجدالهم، وفي إعلان الصبر على أذى كلّ جبارٍ عنيد .

وهذا من أساليب التربية بالأسوة الحسنة، ومعلوم أن الرُّسُلَ عليهم الصلاة والسلام هم أكمل من يُقتدى بهم في مهمات رسالاتهم.

* * *

١٤ - ثم أبان الله عز وجل أنه جعل من بني إسرائيل أمة من الدعاة إلى سبيل ربهم، يهدون الناس بأمره، لما صبروا صبراً مبنياً على قاعدة اليقين بآيات الله.

وفي هذا تشجيع لنخبة من أمة محمد ﷺ أن يوقنوا بآيات الله، ويصبروا حتى يجعل الله منهم أئمة يهدون الناس ملتزمين بأمر الله في منهاج دعوتهم إلى سبيل ربهم، فقال الله عز وجل في سورة (السجدة/٣٢ مصحف/٧٥ نزول):

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: ولقد آتينا موسى كتاب التوراة، فلا تكن في مزية من لقاء موسى، وقد حصل هذا ليلة الإسراء والمعراج، وجعلنا موسى والتوراة هدى لبني إسرائيل، وجعلنا من بني إسرائيل أئمة دعوة إلى دين الله يهدون بأمر ربهم، لما صبروا على ما أصابهم في سبيل الله، وكانوا بآيات ربهم يوقنون.

والمعنى: فاصبروا يا أئمة محمد، وكونوا بآيات ربكم موقنين، حتى يجعل الله منكم أئمة يهدون بأمر ربهم.

* * *

١٥ - ثم وجه الله رسوله لأن يصبر لحكم ربه، وأبان له أنه محفوظ بحفظه، محروس بأعينه، وأكد له لزوم استعمال دواء التسييح بحمد ربه عند

كُلَّ حَرَكَةِ قِيَامٍ يَفْعَلُهُ، كَقِيَامٍ مِنْ نَوْمٍ أَوْ قَعُودٍ أَوْ اضْطِجَاعٍ أَوْ تَوَقُّفٍ عَنِ مَتَابَعَةِ سِيرٍ، وَأَنَاءِ اللَّيْلِ وَهِيَ سَاعَاتُهُ، وَعِنْدَ السَّحَرِ إِذْ تُدْبِرُ النُّجُومُ آخِذَةً إِلَى الْمَغِيبِ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَذَرَ الْكُفْرَةَ الْمَعَانِدِينَ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُضْعَفُونَ، بِمَوْتٍ فِي آجَالِهِمْ حَتْفَ أُنُوفِهِمْ، أَوْ بِقَتْلِ بَأْيَدِي الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ بِغَيْرِ ذَلِكَ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ فِي سُورَةِ (الطُّورِ/ ٥٢ مَصْحَفِ/ ٧٦ نَزُولٍ):

﴿ فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُضْعَفُونَ ﴿١٦﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿١٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ .

أضف دواء التسبيح في هذا النص أوقاتاً لم تُذكر في التصوص التي نزلت قبله، وهي عند حركة كل قيام، وعند السحر في وقت إزبار النجوم.

والتوجيه الذي اشتمل عليه هذا النص موجه أيضاً لقادة الدعوة من أمة محمد ﷺ، فعلى حامل رسالة الرسول ﷺ في الدعوة إلى سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يصبر قائماً بمهمات رسالته تاركاً أمر المدعوين المعاندين لحكم ربه، وأن يذره حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يضعفون، فيوم القيامة لا يُغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم يُنصرون، على أن لهم دون ذلك العذاب عذاباً آخر في الحياة الدنيا سيأتهم، وأكثرهم لا يعلمون أنه من عقاب الله لهم.

* * *

١٦ - ثم أرشد الله رسوله وكل داع إلى سبيل ربه من أمته أن يصبر صبراً جميلاً على الذين يرون عذاب الله يوم الدين أمراً بعيداً.

والصبر الجميل هو الصبر الذي يكون مصحوباً بالتلطف وحسن مقابلة أذى المدعوين بالصَّفْحِ والعفو والإحسان بالعطاء وبالكلمة الطيبة، وسيلة إلى تأليف القلوب.

ففي معرض الحديث عن سؤال سائلٍ بعذابٍ واقع، للكافرين ليس له دافع، وهذا السائل يستبعدة إذ يراه وعيداً مؤجلاً التنفيذ إلى يوم القيامة، قال الله عز وجل لرسوله في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول):

﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ٦ وَرَأَتْهُ قُرْبًا ٧ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ٨ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ٩ وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمٌ حَمِيمًا ١٠ ﴾ .

كالمُهْل: كالمعدن المذاب، ويظهر أنه كالتحاس المذاب إذ جاء أن السماء تكون يومئذ كالوردة الحمراء .

كالعُهْن: كالصوف المنفوش ذي الألوان المختلفة .

حَمِيمٌ حَمِيمًا: الحميم هو القريب الذي توذُّه ويوذُّك .

* * *

١٧ - ثم أشار الله عز وجل إلى أن المشركين تابَعُوا مطالبَتَهُمُ الرسول ﷺ بأن يأتيهم بأية ماديّة من الآيات ذوات الإعجاز المادي الخارق للعادات، ويظهر أن طائفة من أصحاب الرسول ﷺ تمنّوا لو يجري الله لرسوله ما يطالب به المشركون من آيات مادية معجزة، رغبة منهم في أن يستجيب المُصرِّون على كفرهم لدعوة الرسول ﷺ، فأبان الله لهم أن حال هؤلاء المطالبين بالآيات المادية المعجزة متشهُون، ليسوا على استعداد لأن يؤمنوا ولو جاءهم الرسول بما يطلبون، لأن قلوبهم مقلعة مطبوع عليها بسبب عنادهم وإصرارهم على الكفر، واتباعهم أهواءهم وشهواتهم من زينة الحياة الدنيا، فهي لا تقبل الحق، ولا تقنعها الآيات الخارقات .

فما على الرسول والذين آمنوا معه إلا أن يصبروا حتّى يحقق الله وعده بنصرهم، وإنزال الهزيمة أو القتل بأعدائهم، فأنزل عز وجل قوله في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿... وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾
 كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا
 يَسْتَخْفَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

أي: ولئن جئت هؤلاء المعاندين المتعتنين بآية مادية معجزة على
 حسب طلبهم ليقولن الذين كفروا منهم للرسل وللذين آمنوا معه ما أنتم إلا
 مبطلون، فما هذه الآية التي جاء بها محمد إلا عمل من أعمال السحر.

إنهم لا يُطالِبُونَ بالآية ليستفيدوا منها الاقتناع بالحق، فقد دَمَعَتْهُمْ
 الحجج البرهانية، وكشفت لهم وجه الحق المشرق، لكنهم مُصْرُونَ على
 رفضهم وعدم استجابتهم لدعوة الحق، غَيْرُ مُسْتَعِدِّين لأن يفتحوا أقفال
 قلوبهم للإيمان بالحق الداغ لأفكارهم بالبراهين العقلية.

إن من ظواهر السَّنَنِ الرَّبَّانِيَّةِ التَّكْوِينِيَّةِ التي فطر الله عليها النفوسَ
 الإنسانيَّةَ، أن مَنْ رفض الحق أتباعاً لأهوائه وشهواته ورغباته من الحياة الدنيا،
 وأصرَّ على أن يُقيِّم السُّرَّ وَالْحُجُبَ بين براهين الحق، وبين ما لَدَيْهِ من مراكز
 تفكير سليم، ومستقبلاتِ عِلْمٍ صحيح، في أجهزة المعرفة التي وهب الله إيَّاهَا،
 فلا بُدَّ أَنْ يَظَلَّ قَلْبُهُ مُقْفَلًا عن دخول واردات الخير إليه، وَأَنْ يُطْبَعَ على خَتَمِ
 أَقْفَالِهَا، إشعاراً بعدم استعدادها للاستجابة لدعوة الحق، وعدم تقبُّلِهَا
 لَوَارِدَاتِ المعارف والعلوم التي تُخَالِفُ أهواءها وشهواتها ورغباتها الدنيوية.

إنهم بِرَغْبَةٍ دَاخِلِيَّةٍ عميقة مُسَيِّرَةٌ على إراداتهم لا يُرِيدُونَ أَنْ يَعْلَمُوا
 الحقائق التي تُخَالِفُ هذه الأهواء والشهوات والرغبات الدنيوية، وبسبب ذلك
 أَقْفَلَتْ قُلُوبُهُمْ، وَخَتِمَ عَلَى أَقْفَالِهَا، وَطُبِعَ على أَخْتَامِ الْأَقْفَالِ، إِذِنَانًا بِأَنَّهَا
 صَارَتْ غير قابلة للفتح، وكلُّ هذا على سبيل الاستعارة القائمة على تشبيه
 القلوب بالبيوت ذات الأبواب التي تقفل ويوضع الطين على القفل، ثم
 يضرب الختم على الطين.

الخروج فيها عمّا أمر الله به، أو الاستجابة لمطالبه التي لم يأذن الله بها، كإباحة ما حرّم الله، أو تحريم ما أحلّ الله، أو الاستهانة ببعض شرائع الإسلام وأحكامه.

وحذّر الله فيه أيضاً من طاعة أيّ كفّورٍ، وهو الآثم الذي بلغت آثامه مَبْلَغَ الكُفْرِ بما يجب الإيمان به، فهذا الكفور خارج خروجاً كُليّاً عن الإيمان والإسلام.

وأكدّ الله فيه لزوم استعمال دواء ذكر الله وتسيّحه والسجود له في أوقات من النهار والليل، فقال تعالى:

﴿وَأذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿١٥٠﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿١٥١﴾﴾.

ومن الليل فاسجد له: أي: واجعل لك مواظبة على الصلاة في جوف الليل.

* * *

المقولة الرابعة

نماذج من سيرة الرسول ﷺ في الصبر

١ - أخرج البخاري وغيره عن حَبَابِ رضي الله عنه قال: أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَشَكُونَا إِلَيْهِ فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟! أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟! فَجَلَسَ مُحَمَّرًا وَجْهَهُ فَقَالَ:

«قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُخْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمِنْشَارِ فَيُجْعَلُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ فِرْقَتَيْنِ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عَظْمِهِ مِنْ لَحْمٍ وَعَصَبٍ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّابِئُ مَا بَيْنَ صَنْعَاءَ وَحَضْرَمَوْتَ مَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَعْجَلُونَ».

٢ - وثبت في الصحيحين البخاري ومسلم، عن عُرْوَةَ بن الزبير، أن عائشة رضي الله عنها حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ عَلَيْكَ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ:

«لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلِ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ، فَلَمْ يُجِئْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَأَنْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الشَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ، فَإِذَا فِيهَا جَبْرِيْلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ، لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا

مَحَمَّدٌ، قَدْ بَعَثَنِي اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلِكُ الْجِبَالِ،
قَدْ بَعَثَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ، لِتَأْمُرَنِي مَا شِئْتَ، إِنَّ شِئْتَ أَنْ أُطَبِّقَ عَلَيْهِمُ الْأَحْشِينَ^(١)؟» .

فقال النبي ﷺ:

«بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَضْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَخَدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً» .

٣ - مَا لَقِيَ الرَّسُولَ ﷺ مِنْ أَدَى شَدِيدٍ حِينَ خَرَجَ إِلَى الطَّائِفِ يَلْتَمِسُ
مِنْ ثَقِيفِ النَّضْرَةِ وَالْمَنْعَةِ بِهِمْ مِنْ قَوْمِهِ .

وقد خرج إليهم وخده، فلما انتهى إلى الطائف، توجه إلى سادة ثقيف
وأشرافهم، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله، وكلّمهم فيما جاءهم له من نصرته
على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فلم يستجيبوا له، فطلب
منهم أن يكتموا أمره إذ يئس منهم فلم يفعلوا، بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم
يسبونه، ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجؤوه إلى حائط^(٢)
لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه لا ينصرا، ورجع عنه من كان يتبعه
من سفهاء ثقيف .

فلما اطمأن قال يدعو ربه:

«اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ يَا أَرْحَمَ
الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعِفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلِيَّ مَنْ تَكَلَّمَنِي، إِلِيَّ بَعِيدِ
يَتَجَهَّمَنِي، أُمُّ إِلَى عَدُوِّ مَلَكْتُهُ أَمْرِي، إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي،
وَلَكِنْ عَافِيَتِكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ،
وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ تُحِلَّ عَلَيَّ
سَخَطَكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ» .

(١) الأخبشان: جبلاً مكة .

(٢) حائط: أي: بستان .

الفصل الثاني

وجوب تحلّي حامل الرسالة بصفة التجرد من المصالح الشخصية لدى من يوجّه لهم رسالته

وفيه ثلاث مقولات :

المقولة الأولى : نظرة تحليليّة .

المقولة الثانية : البيانات القرآنية حول تجريد الرّسل من المصالح الشخصية الدنيوية لدى أقوامهم، ويلحقّ بهم سائر حمّلة رسالاتهم .

المقولة الثالثة : معاش حمّلة الرسالة المتفرغين لها .

المقولة الأولى

نظرة تحليلية

● من أوليات ما يُطلَب من حامل رسالة الدّعوة إلى سبيل ربّه، والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن يكون متجرّداً من المصالح الشخصية لدى من يُوجّه لهم رسالته، كأجرٍ ماليّ يَطْلُبُه منهم على ما يقوم به من أداء رسالته، أو زواجٍ هو راغِبٌ فيه، أو زعاميّة، أو جاهٍ، أو رياسة أو سلطانٍ أو مُلكٍ، أو رغبةٍ في الاستعلاء على الأتباع والاستنصار بهم للاستعلاء في الأرض على الناس، أو أيّ شيءٍ من مطالب الحياة الدنيا يرجو الوصول إليه، والظّفر به، والاستمتاع بلذائذه وطيباته الجسديّة أو النفسيّة.

● وإنّ الدعوة إلى سبيل الله عزّ وجلّ دعوةٌ إلى تبديل المعتقدات السّابقات التي رسّخت في أعماق المدعوّين بالتقاليد الموروثة عن الآباء والأجداد، وبالممارسات العملية الطويلة الأمد لمقتضياتها من السلوك النفسي والجسديّ الظاهر، حتّى صارت بمثابة جُزءٍ من كيان نفس كلِّ واحدٍ منهم، فهم يُدافعون عنها كما يُدافعون عن ذواتهم، ويَرْفُضون تبديلها كما يرفضون تبديل ذواتهم.

ورسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تتضمّن المطالبة بالكفّ عن شهوات النفوس ومَحَابَّهَا، والقيام بما يَشُقُّ عليها وتحمل ما تكره.

ومتى أحسَّ المدعوون أو الذين يُوجَّه لهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنَّ حامل الرسالة ومُبلِّغها ذو مصلحة شخصية لديهم من قيامه بوظائف رسالته - ولو بعد حين - فإنهم يَرُفُضون ما يُوجَّههم له بتلقائية غير واعية، وغير مقترنة بمناقشة فكرية ولا محاكمة لما ينصحهم به، ويصدون عنه مهما كانت الأدلة التي يُقدِّمها لهم صحيحة سليمة، وواضحة وُضوح الشمس في رابعة النهار.

● وإن اقتران دعوة الداعي إلى سبيل ربه بمصلحة شخصية يسعى للحصول عليها لدى من يدعوهم، وكذلك أيضاً رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يُقيم عقبة صلبة كثيفة بينه وبين من يُوجَّه لهم رسالته.

وهذه العقبة الصلبة الكثيفة تحجب عن قلوبهم ونفوسهم ما يُوجَّه لهم من بيان، ولو كان حقاً جلياً، وما ينصحهم به ولو كان فيه خيرٌ لهم وهدايتهم وصلاخ دُنياهم وأخراهم، وتحجب عنهم ما يأمرهم به من معروف وما ينهاهم عنه من منكر.

ولهذا نجدُ الدعاة الساعين إلى مصالح شخصية دنيوية من خلال دعوتهم لدى من يدعونهم إلى سبيل ربهم، ذوي آثارٍ ضعيفة جداً، وذلك لأنَّ المدعوين يلاحظون أنَّ هؤلاء الدعاة غيرُ مخلصين في دعواتهم، ويعتقدون أنَّهم يريدون تحقيقَ مصالح شخصية دنيوية من وراء دعواتهم التي يقومون بها.

ونظير حال الدعاة حال الأمرين بالمعروف والنهي عن المنكر، كلما كان قيامهم برسالاتهم مقترناً بتحقيق مصالح شخصية دنيوية لدى من يوجهون لهم أوامرهم ونواهيهم ونصائحهم، ولو زينوا سعيهم لهذه المصالح الشخصية الدنيوية بأنها حقوق لهم على المسلمين، مُقابل تفرُّغهم لتعلم علوم الدين، وقيامهم بواجبات تعليم المسلمين أمور دينهم، وصيانة المجتمع

الإسلامي من الانحراف عن صراط الله، وانتشار الفساد فيه، إذ يُؤدُون وظيفة تذكير أفرادهِ وجماعته بواجباتهم الدنيّة، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

فالنفس البشريّة قلّما تثقُ بنصائح ذوي المصالح الشخصية الذين ترتبط مصالحهم هذه بتوجيه نصائحهم، ما لم يكونوا أساساً مُستشارين بالأجر لتقديم هذه النصائح، كما يستشار الطبيب بالأجر ليُقَدِّم للمريض مشورته الصحيّة أو الدوائية.

على أنّ إرادة حامل رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تضعفُ عن القيام بأداء رسالته على الوجه المطلوب منه في الدين، متى كانت حاجاتُ معيشتِهِ أو مصالحُ دنياه مرتبطةً بمن يؤدّي فيهم رسالة ربّه، إنّه قلّما يجدُ الجرأة الكافية لنصحهم بما يخالف أهواء نفوسهم، أو لأمرهم بالمعروف الذي لا يراهم مستعدين لأدائه، أو لنهيهم عن منكر لا يراهم مستعدين لاجتنابه أو تركه، ويخشى إذا وجّه لهم نصائحهُ وأوامره ونواهيهِ وأظْهَرَ استنكارَهُ لأعمالهم أن يُغضبهم فيمنعوا عنه حاجات حياتهِ، أو يحجّبوا عنه مصالح دنياه التي يحققونها له بأنفسهم أو بسلطانهم.

وكم سقط حاملو رسالة الدعوة إلى دين الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في أحوال مُداراةٍ فمجاراةٍ الذين ارتبطتْ مصالحُ دنياهمُ بهم، من الذين يؤدُون رسالاتهم بينهم، فأغضوا عن موبقاتهم وكبائر معاصيهم، وربما شاركوهم فيها، وربما تجرّأ بعضهم على الفتوى بغير ما أنزل الله استرضاءً وتزلفاً لسلطانٍ فاسقٍ أو جائرٍ أو كافرٍ ليحتفظ لنفسه بمصالح دنياه التي تتحقّق له عن طريقهِ، أو ليستزيد منها.

● وإنّ مَنْ توجّه له الدعوة إلى سبيل ربّه، أو يوجّه له الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، متى استقرّ في نفسه اتهام حاملِ الرسالة بأنه ذو مصلحة شخصية لدى مَنْ يوجّه له مضمون رسالته، تولدَتْ في نفسه غالباً عقبةً صلبةً

كثيفة من ردود أفعالها التلقائية رفضُ التُّضح الذي يوجهه له، دون تفكُّرٍ في صحَّتِهِ أو عَدَمِ صحته، ودُونِ بَحْثٍ في عناصره، ولو كان حقاً وخيراً وجالباً لنفع عظيم.

لكنَّ هذه العقبة الصلبة تتحطَّم وتَصِيرُ كثيراً مهياً حينما يُذرك من توجَّه له الرسالةُ أنّ حامل الرسالة مُخْلِصٌ في نُضجِه، ليسَ له مصلحةٌ خاصَّةٌ لدى من يُوجَّه لهم نصائحه أو أوامره التي يأمرهم فيها بالمعروف، ونواهيهِ التي ينهاهم فيها عن المنكر، وأنَّ الباعث له رضوانُ الله عزَّ وجلَّ، وإرادة الخير للناس بعاطفة الرحمة بهم، والشفقة عليهم، والحرص على نجاتهم من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة، وعلى ظفرهم بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

● ومن أجل تبرئة الرُّسل عليهم الصلاة والسلام من أن يكونوا عُرضةً للاتِّهام بالمصالح الشخصية لدى من يدعونهم إلى دين الله الحق، حتَّى لا يكون هذا الاتِّهامُ ذريعةً لرفض دعوتهم إلى سبيل ربهم، كلَّف الله رُسُلَه عليهم الصلاة والسلام أن يتجرّدوا من المصالح الشخصية الدنيويّة لدى أقوامهم، وأن يُعلِّنوا إعلاناً صريحاً واضحاً بين الناس أنهم لا يسألون أقوامهم على ما يقومون به من تبليغ رسالات ربهم أجراً ما، قليلاً أو كثيراً، مادّياً أو معنوياً.

ويُلحق بالرُّسل في هذا كلّ الدعاة إلى الله من الذين اتَّبعوهم بإحسان، وكلُّ الأمرين بالمعروف والناهيين عن المنكر والناصحين المرشدين.

● فَمِنْ أخطرِ آفات الدعوة إلى سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسائر الأعمال الإسلاميّة، استخدامها وسيلةً للحصول على الأموال، أو النجاهِ والسُلطانِ والمناصبِ الرفيعة، أو غيرِ هذه الرغائب من مطالب الحياة الدنيا ولذاتها وشهواتها، كحُبِّ السيطرة على الأتباع والأنصار والطلاب والمريدين والمحبيين، وتَسخيرهم لمطالب النَّفسِ وإرضاء شهوة العظْمَة والاستعلاء في الأرض.

المقولة الثانية

البيانات القرآنية

حول تجريد الرّسل من المصالح الشخصية الدنيوية لدى أقوامهم
ويلحق بالرسل سائر حَمَلَةِ رِسَالَتِهِمْ

أظهر استقراء ما جاء في القرآن المجيد حول تجريد الله رُسُلُهُ وتجرُّدِهِمْ عليهم السلام من المصالح الشخصية الدنيوية لدى من يُوجِّهُونَ لهم رسالات ربِّهم اثني عشر نصّاً، نزلت جميعها خلال المرحلة المكيّة لدعوة الرسول محمد ﷺ، بدءاً مِنْ أوائلها، وهو ما نَزَلَ منها في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٢ نزول) ثم في مناسبات ملائمتِ أثناء هذه المرحلة، وحتى قبيل أواخرها، وهو ما نزل منها في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول).

ويُحْسُنُ بنا أن نتدبّر هذه النصوص وفقّ مراحل تنزيلها، لنُدرك مبلغ الاهتمام في سياسة الدَّعْوَةِ إلى سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بوجوب تجرّد الدّاعي إلى سبيل ربّه من كلّ مصلحةٍ شخصيةٍ دنيويةٍ لدى من يدعوهم، لئلا يكون الاتهام بالمصلحة الشخصية عقبةً صادةً لنفوس الناس عن الاستجابة لبيانات الدَّعْوَةِ، والاهتداء بأنوار الهداية الربّانية، ولئلا يتخذوا من مصالح رُسُلِ الله لديهم ذرائع يتذرّعون بها لرفض دعواتهم، ومعاذير يعتذرون بها لعدم استجابتهم لهم فيما يدعوهم إليه من حقٍّ وخيرٍ وهُدًى.

وفيما يلي تدبُّرٌ موجزٌ لهذه النصوص:

النصّ الأوّل:

في سورة (القلم/ ٦٨ / مصحف/ ٢ نزول) عرض الله عزّ وجلّ على طريقة الاستفهام الإنكاري طائفة من الاحتمالات التي لو وُجد واحدٌ منها في الواقع لكان لمشركي مكّة عُذْرٌ ما في عدم استجابتهم لدعوة الرسول محمد ﷺ، لكنّ أيّ واحدٍ منها غير موجودٍ في الواقع، فلا عُذْرَ لهم في عدم استجابتهم لدعوته التي هي دعوة إلى الحق والخير وفضائل الأخلاق ومحاسن السلوك، ومن هذه الاحتمالات كون الرسول محمد ﷺ يسألهم أجراً على ما يقوم به من مجاهدة في دعوتهم، ونصحهم، وتعليمهم، وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، فقال الله تعالى فيها خطاباً لرسوله في تعريضٍ باستفهام إنكاريٍّ عليهم إذ لم يستجيبوا لدعوته:

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا: أي: بل أتسألهم أجراً ما من الأجور المادية أو المعنوية؟! .

فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ: أي: فهم مُثْقَلُونَ بتحميلهم ثقلِ أجرٍ هو عليهم عُزْمٌ، أي: خسارة. المَغْرَمُ، وَالْمَغْرَامَةُ: الخسارة في الأموال أو الأنفس أو غيرهما ممّا للإنسان فيه حظٌّ ما كالأهل والولد والأنصار.

فكان هذا النصّ أوّل ما أنزل في هذا الموضوع، وقد جاء بأسلوب التعجيب من إعراضهم عن دعوة الرسول ﷺ وهي دعوة حقّ وخير، مع أنّه لم يسألهم أجراً على ما يُقدّم لهم من نصح وهداية إلى سبيل الله، فهو ليس له مصلحة شخصية من هذا عندهم مادية ولا معنوية، وفي هذا الأسلوب الاستفهامي التعجيب من إعراضهم إنكاراً عليهم.

* * *

النص الثاني :

ثم أنزل الله عز وجل في سورة (ص/ ٣٨ / مصحف/ ٣٨ / نزول) توجيهاً للرسول محمد ﷺ أمره فيه بأن يقول لقومه: ما أسألكم عليه من أجر، مُعلنًا لهم هذا المقال، لطمأنتهم بأنه لا يبتغي لنفسه مصالح دنيوية لدى الذين يستجيبون لدعوته، ولقطع تعللاتهم بأنه طالب مصالح دنيوية لديهم، من مال، أو زعامة أو مُلك، أو غير ذلك، وليردّ على عروضهم التي عرضوها عليه من أمور الدنيا بشرط أن يترك دعوته، فقال الله تعالى فيها لرسوله:

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨١﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ .

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ: أي: قُلْ يا محمد ما أسألكم على دعوتي لكم ومجاهدتي في نصحكم أيّ أجرٍ مادّيّ أو معنويّ مهما كان قليلاً، إذ أُجري أخذه عند ربّي الذي أرسلني .

وهذا التوجيه يُطالب به كلُّ الدعاة إلى سبيل الله من أمة الرسول ﷺ، إذ هو ليس من خصوصيات الرسول، بل هو من مطلوبات الدعوة إلى دين الله .

وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ: أي: وما أنا من الذين يتصنعون الأمور فيما تعهدون من شأني، حتّى أكون عندكم مُتّهماً بالتقول على الله، وباختراع ما لم يُنزل الله عليّ، فخلقي عندكم معروف، وحالي لديكم غير خافٍ، فقد لبثت فيكم مدّة علمتم بها صدقي ونزاهتي وأمانتي وحرصني على الالتزام بالحق وعدم مجافاة فضائل الأخلاق ومحاسن السلوك .

إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ: أي: ما الذي أبلغكم إياه وأدعوكم إلى اتّباعه هو لكم وحدكم من دون سائر الناس، إنّما هو بلاغ للعالمين كلّ العالمين، وعليهم أن يعوّه ويتدبّروا معانيه، وأن يكون لهم ذكراً دواماً، يذكرونه عند كلّ مناسبة داعية ليُعملوا بما فيه من أوامر ونواهي ووصايا، وليتفهموا ما اشتمل عليه من علوم .

وبما أنه ذكر لكلّ الناس فليس من المناسب أن تشكّوا في غاية رسولكم، وتتهموه بأن له مصلحة خاصّة لنفسه فيما يدعوكم إليه.

* * *

النصّ الثالث:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ على رسوله في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) تأكيداً لما جاء في سورة (ص) مع إضافة استثناء من شاء من المؤمنين أن يتخذ إلى مرضاة ربّه سبيلاً، فيقدّم هديّة أو خدمة أو مصلحةً دنيويّة للرسول ﷺ، لا على أنها أجرٌ على ما يقوم به من وظائف رسالته، بل يريد بها التقرب إلى الله بما يحبّ من عبده من وجوه العطاء المقصود به وجهه تعالى، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۗ ﴾

قُلْ: مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ: أي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ مَا أَسْأَلُكُمْ أَتِيهَا المؤمنون على تعليمي ونُصْحِي لَكُمْ وَحِرْصِي عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتِي بِكُمْ وَمَجَاهِدَتِي مِنْ أَجْلِكُمْ، مِنْ أَجْرِ مَاذِي أَوْ مَعْنَوِيْ مَهْمَا كَانَ قَلِيلاً، فَأَجْرِي عَلَى رَبِّي الَّذِي أَرْسَلَنِي وَحَمَلَنِي وَظَانَفَ رِسَالَتِي وَمُهْمَاتِ قِيَادَتِي لَكُمْ.

وَيُلْحَقُ بِالرَّسُولِ كُلِّ دَاعٍ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّهِ مِنْ أُمَّتِهِ.

إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا: أي: ولا أقبل منكم شيئاً من أمور الدنيا إلا شيئاً أراد مقدّمه لي أن يتخذ به إلى مرضاة ربّه سبيلاً، فهو يبذله لوجه الله وابتغاء مرضاته، لا على سبيل أنه أجرٌ يبذله لي، فأجري على ربّي، وثوابكم على ما تقدّمون عند ربكم، أو نعتبر «إلّا» بمنزلة «لكن» حرف استدراك كشأن كلّ ما يُقَالُ فيه: استثناء منقطع، والمعنى: لَكِنْ مِنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ مَرْضَاةِ رَبِّهِ سَبِيلًا فَلِلرَّسُولِ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ مَا يَقْدَمُ لَهُ مِنْ إِكْرَامٍ أَوْ خِدْمَةٍ.

النص الرابع :

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦/ مصحف/ ٤٧/ نزول) ما يفيد أنّ سياسة تجريد الداعي إلى سبيل الله من المصالح الشخصية الدنيوية لدى المدعوين إحدى المبادئ الرئيسة التي ألزم الله عزّ وجلّ بها رُسُلَه السابقين، فكلٌّ من نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيب عليهم السلام قد قال لقومه :

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ .

وقد جاء بيان هذا في الآيات (١٠٩ - ١٢٧ - ١٤٥ - ١٦٤ - ١٨٠) من السورة .

فعلى الدعاة إلى سبيل الله أن يقتدوا في هذا برسُلِ الله عليهم السلام .

* * *

النص الخامس :

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠/ مصحف/ ٥١/ نزول) بيان مقالته قالها نوحٌ عليه السلام لقومه بعد أن لبثَ فيهم زمناً يدعوهم إلى سبيل الله، فأوضح لهم فيها أنّه ما سألهم من أجرٍ ماديٍّ أو معنويٍّ حتى يكون هذا الطلُبُ ذريعةً لتوليهم عن دعوته وعدم استجابتهم لها، وأوضح لهم فيها أنّه بالنسبة إلى التطبيقات الإسلامية التي هي ظواهر سلوكيّة للإيمان بالقاعدة الإيمانية في دين الله، أخذُ المطبقين لها، فقد أمره الله بأن يكون واحداً من المسلمين المطبّقين لأحكام الإسلام في سلوكه الباطنِ والظاهر، فقال الله عزّ وجلّ فيها حكاية لما قاله نوح عليه السلام لقومه :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ

الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ .

فإن تَوَلَّيْتُمْ : أي : فَإِنْ أَذْبَرْتُمْ مُتَّبِعِينَ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِي .

فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ: أي: فما كان مِنِّي مَا يُمكن أن تتذَرَّعوا به لرفض دعوتي، لِأَنِّي مَا سَبَقَ أَنْ سَأَلْتُكُمْ لِنَفْسِي مِنْ أَجْرِ مَادِيٍّ أَوْ مَعْنَوِيٍّ، بل كنت مُجَرَّدَ مَبْلَغِ إِيَّاكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي، وداعٍ لَكُمْ إِلَى الْحَقِّ وَالهُدَى وَمَا فِيهِ نِجَاتِكُمْ وَسَعَادَتِكُمْ.

إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ: أي: مَا أَجْرِي عَلَى قِيَامِي بِوِظَائِفِ رِسَالَتِي فِيكُمْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ الَّذِي أَرْسَلَنِي لِأَبْلَغِكُمْ رِسَالَاتِهِ، وَأَدْعُوَكُمْ إِلَى نِجَاتِكُمْ وَسَعَادَتِكُمْ، وَأَبَيَّنَ لَكُمْ الْحَقَّ وَالْخَيْرَ وَالْهُدَى وَصِرَاطَ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ.

وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: أي: وَحَالِي بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَضْمُونِ رِسَالَتِي كَحَالِ وَاحِدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ، مُطَالِبٌ بِفِعْلِ أَوْامِرِ اللَّهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، وَلَيْسَ لَهُ إِعْفَاءَاتٌ خَاصَةٌ مِرَاعَاةً لِكُونِي حَامِلَ رِسَالَةِ رَبِّي إِلَيْكُمْ.

* * *

النص السادس:

ثم أنزل الله عز وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) بيان مقالة ثالثة قالها نوح عليه السلام لقومه أوضح لهم فيها أنه لا يسألهم على تبليغهم رسالات ربهم، وتعليمهم أمور دينهم، ومتابعة تذكيرهم . . مالا، فخصص نوع الأجر المالي، إذ رآهم بخلاء ذوي حزم على أموالهم يحذرون إذا آمنوا به وأتبعوه أن يحملهم أعباء مالية لنفسه، فقال الله تعالى فيها حكاية لهذه المقالة التي قالها نوح عليه السلام لقومه:

﴿وَيَقُولُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلِنُكْفِيَ - أَرْكَزَ قَوْمًا بَجَهْلُوتَ ﴿٦٧﴾﴾.

وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ: دل هذا على أن الملاء الذين كفروا من قومه طالبوهُ بِأَنْ يَطْرُدَ عَنْهُ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ طَبَقَةِ الْفُقَرَاءِ الضَّعْفَاءِ الْمُنْبُوذِينَ، إِذْ يُسَمُّونَهُمْ أَرَادِلَهُمْ، فَأَجَابَهُمْ بِالرَّفْضِ، وَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّهم بَشَرٌ

مثلهم، مطالبون بالإيمان والإسلام، وسَيُلاقون رَبَّهُمْ لِيَحْسَبَهُمْ وَيَجَازِيَهُمْ
على ما قَدَمُوا في الحياة الدُّنيا من إيمانٍ وعملٍ، فهو مرسلٌ إليهم كما هو
مرسلٌ إلى غيرهم من مختلف طبقات الناس.

ولكنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ: أي: وعلى طول العهد بكم، وكثرة
تعليمي وتذكيري إياكم، ومُحَاجَّتِي لَكُمْ بالأدلة البرهانية المُقنعة، ما أراكم
تتعلمون ولا تَقْتَنِعُونَ ولا تستجيبون، ولكنِّي أراكم تُتَابِعُونَ إِضَافَةَ جَهْلٍ إِلَى
جهلٍ، بإضافة مَفْهُومَاتِ باطِلَاتِ جَدِيدَاتٍ، إلى مَفْهُومَاتِ باطِلَاتِ سَابِقَاتِ،
هذا ما دلَّ عليه الفعل المضارع: «تَجْهَلُونَ» الذي يَدُلُّ على التكرار والتجديد.

* * *

النص السابع:

وفي سورة هود (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) أيضاً أنزل الله عز وجل بيان
مقالة قالها هود عليه السلام لقومه، فقال تعالى فيها حكاية لمقالته لقومه:

﴿.. يَنْقُورِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿١٠﴾
يَنْقُورِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾﴾.

وهذه ثاني مقالة قالها هود عليه السلام لقومه عادٍ حول هذا الموضوع،
إلا أنه أضاف في هذه المقالة قوله لَهُمْ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ مستنكراً عدم عقلهم
عقلاً علمياً، وعقلاً إرادياً، وأضاف أيضاً بيان أن أجره على الذي فَطَرَهُ،
وهو الله الذي أَرْسَلَهُ.

إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ: أي: ما أنتم إلا تفترون الكذب على الحقيقة، إذ
تتخذون مع الله آلهة تعبدونها من دونه.

إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي: أي: ما أجري على ما أقوم به من
تبليغكم رسالات ربي، ودعوتكم ومجاهدتكم هادياً معلماً ناصحاً، إلا على
الذي أوجدني من العدم وخلقني.

أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟! : استفهام إنكارِيّ وَجَّههُ هود عليه السلام لقومه عاد، لأنهم لم يعقلوا الحقائق بأدوات التفكير التي لديهم عقلاً علمياً، ولم يعقلوا نفوسهم عن اتباع أهوائهم وشهواتهم عقلاً إرادياً.

إنه عَلَيْهِ السلام قد أنكر عليهم إنكاراً بشدة كَوْنَهُمْ لا يعقلون، إذ لا يتخذون ما يلزم حتى يعقلوا ما يُبَيِّن لهم، وحتى يعقلوا نَفْسَهُمْ عن اتباع أهوائهم وشهواتهم التي تَقُودُهُمْ إلى شقائهم.

* * *

النص الثامن:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزل) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ شَهِدَ لَهُ فيه بآته قد التزم بوَصِيَّةِ الله له التي أوصاه فيها أن لا يسأل قومه أجراً على ما يقوم به من أجل نجاتهم وسعادتهم بهدايتهم إلى الحق والخير والفضيلة، وأبان له فيه أن أَكْثَرَ النَّاسِ لَنْ يختاروا لأنفسهم سبيل الإيمان ولو حَرَصَ على إيمانهم رحمةً بهم، ورجاء نجاتهم وسعادتهم، فَعَلَيْهِ أَنْ يَقْضُرَ مطامعه على هذا الواقع مع مُجَاهَدَتِهِ جميع المدعويين إلى سبيل ربه، وعليه أن لا يُعَلِّقَ مطامعه بإيمان الناس جميعاً، أو إيمان أكثرهم أو إيمان نصفهم، إذ أكثرهم سوف يختارون لأنفسهم سبيل الكفر الذي يجدون فيه تحقيق أهوائهم وشهواتهم ورغباتهم من زينة الحياة الدنيا، فقال الله عزّ وجلّ لرسوله فيها:

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا تَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

فعلَى الدُّعَاةِ إِلَى دِينِ اللَّهِ أَنْ يذكروا دوماً هذه الحقيقة من حقائق المجتمع البشريّ، وأن لا يُعَلِّقُوا مطامعهم بأن يتحوّل أكثر الناس ولا نصفهم إلى الإيمان والعملِ الصالح، وَعَلَيْهِمْ أَنْ يُلَاحِظُوا دوماً أنّ الإيمان عمَلٌ

إرادتي اختياري مَزَكُزُهُ الرَّئِيسِيُّ الْقَلْبُ، وَلَيْسَ جَبْرِيًّا، وَأَنْ وَظِيفَةُ الدَّاعِي إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ إِنَّمَا هِيَ التَّبْلِغُ وَالتَّعْلِيمُ وَالتَّذْكَيرُ وَالإِقْنَاعُ وَالتَّبْشِيرُ وَالإِنذَارُ وَالمَجَاهَدَةُ فِي كُلِّ ذَلِكَ .

فَمَنْ اسْتَجَابَ فَقَدْ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ سَبِيلَ النِّجَاةِ وَالسَّعَادَةِ الأَبَدِيَّةِ، وَمَنْ أَبَى فَقَدْ آثَرَ مَتَاعَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا القَصِيرِ الفَانِي عَلَى النِّعَمِ الخَالِدِ، جَا حِدًا الدَّارِ الآخِرَةِ أَوْ مُعْرِضًا عَنِ التَّفْكِيرِ فِيهَا، وَالتَّبَصُّرِ بِأَدِلَّتِهَا، وَأَدِلَّةَ الإِيمَانِ بِاللهِ وَصِفَاتِهِ .

* * *

النص التاسع :

ثم أنزل الله عز وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) بياناً أمر فيه رسوله بأن يهتدي بهدي الرُّسُلِ السابقين، في التجرد من المصالح الشخصية لدى من يدعوهم، والمقصودُ الدُّعَاةُ من أُمَّتِهِ، فقد سبق أن شهد الله له بأنه لم يسأل قومه على دعوته ومُجَاهَدَتِهِ من أجلهم أجراً، فقال الله عز وجل مشيراً إلى الرسل السابقين :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْمَلِئِكَةِ ﴿٥١﴾ ﴾ .

فأضاف هذا النص بيان أن جميع الرسل السابقين لمحمد ﷺ قد كان من هديهم التجرد من المصالح الشخصية الدنيوية لدى أقوامهم، وأن يقول كل واحد منهم لقومه : لا أسألكم عليه أجراً .

وإذ قد شهد الله لرسوله محمد في النص السابق الذي جاء في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول) بأنه مُتَحَقِّقٌ بمضمون هذا التكليف، فلا بُدَّ أَنْ نَفْهَمَ أَنَّ المَقْصُودَ بِهَذَا التَّوْجِيهِ الَّذِي فِي سُورَةِ (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) هُمُ الدُّعَاةُ إِلَى سَبِيلِ اللهِ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ، لِإِعْلَامِهِمْ بِأَنَّ جَمِيعَ الرُّسُلِ

السابقين قد كان هذا من هَدْيِهِمْ، وَأَنْتُمْ مَكْلَفُونَ تَبَعاً لتكليف الرسول محمد ﷺ أَنْ يَتَجَرَّدُوا فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَى دِينِ اللَّهِ مِنْ كُلِّ مَصْلَحَةٍ شَخْصِيَّةٍ لَدَى مَنْ يَدْعُونَهُمْ.

فعلى الدعاة إذا كانوا صادقين في دعوتهم أن لا يسألوا الناس أجراً على دعوتهم إلى سبيل الله، وأن لا تتعلّق مطامعهم بمنافع ماديّة دنيويّة يَنَالُونَهَا مِنْ مُجَاهَدَتِهِمْ فِي تَبْلِيغِ النَّاسِ دِينَ اللَّهِ، وَإِقْنَاعِهِمْ بِهِ، وَتَعْلِيمِهِمْ شَرَائِعَهُ وَأَحْكَامَهُ، وَتَذْكَيرِهِمْ بِهِ عَلَى مَقْدَارِ حَاجَاتِ التَّذْكَيرِ.

فمن تعلّقت مطامعُه بأجورٍ ومنافعٍ ومصالحٍ دنيويّةٍ من دعوته لم يكن مخلصاً لله فيها، وكان من طُلَّابِ الدُّنْيَا الَّذِي يَتَّخِذُونَ الدِّينَ سُلْماً لِلْوَصُولِ إِلَى مَصَالِحِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ.

* * *

النص العاشر:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ على رسوله في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) بياناً أرشده فيه إلى محااجة قومه بأنه ليس صاحب مصلحة شخصية عندهم، إذ يدعوهم إلى دين الله، فهو لم يطلب منهم أيّ أجرٍ على دعوته وتبليغه وتعليمه ونُصِّحِه، فقال الله تعالى فيها خطاباً لرسوله:

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿٤٧﴾.

مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ: أي: إن كنتم تزعمون أنني أريد من دعوتي أجراً لنفسي عندكم من مطالب الحياة الدنيا، أو تزعمون أنني سألتكم أجراً على ما أقوم به من مُجَاهَدَةٍ لِنِجَاتِكُمْ وَسَعَادَتِكُمْ فَادْكُرُوهُ، حَتَّى أُبَيِّنَ لَكُمْ أَنَّهُ لَكُمْ، وَلَيْسَ لِي مِنْهُ شَيْءٌ، وَإِنْ وَجَدْتُمُوهُ عِنْدِي فَخُذُوهُ فَهُوَ لَكُمْ، وَهَذَا بِمِثَابَةِ التَّعْجِيزِ الَّذِي يَتَضَمَّنُ نَفْيَ وَجُودِ الْأَجْرِ بِأَبْلَغِ صُورَةٍ.

وهذا نظير قول مُتَّهَمٍ بحيازة مالٍ لغيره في داره: فتشوا داري، فإن
وجدتم فيها شيئاً مما تزعمون أنه موجود فيها فخذوه، يقول هذا على سبيل
التحدّي لهم، إذ يعلمُ أنه لا يوجد في داره شيءٌ مما يزعمون.

أو: ما سألتكم من إيمان وعمل صالح يحقق أجراً عند الله فهو لكم،
وليس لي منه شيء، أما أجري على مجاهدتي من أجلكم فعلى الله، وليس
عليكم منه شيء، وأجري عند ربّي لا ينقص شيئاً من أجور الذين يؤمنون
ويعملون الصالحات استجابة لدعوتي.

وهو على كلّ شيء شهيد: أي: والله عزّ وجلّ شهيد حاضرٌ يعلم حالي
وحالكم لا تخفى عليه خافيةٌ من أمورنا، وهو جلّ وعلا يعلمُ أيّ ما
سألتكم أجراً، ولا أحقُّ لنفسي لدى الذين آمنوا بي أجراً، إن أجري إلّا
على الله.

شهيد: أي: حاضرٌ عليمٌ مُدركٌ إدراكاً تاماً كلّ شيء.

* * *

النص الحادي عشر:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول) على
رسوله قوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ...﴾ (١٣)

فأرشد الله عزّ وجلّ بهذا البيان رسوله إلى أن يستثني من عموم ما
يُتَوَهَّمُ أنه أجرٌ خصوصَ المودة في القربى.

هذا نص مدنيّ التنزيل أضيف إلى سورة مكية للإشعار بأن المعنيّ به
مشركو مكة أهلُ قرابة الرسول الذين عادوه وأخرجوه من بلده وقاتلوه، فيعتبر
ترتيبه الفكري مع ترتيب السورة التي ضُمَّ إليها.

ويظهر أن الله أرشد رسوله إلى أن يقول هذا القول لكبراء مشركي مكة

بعد أن عَادَوْه أَشدَّ العداة وأخرجوه وقاتلوه، فهو بهذا يستعطفهم إلى أن يكفُوا عن معاداته ومقاتلته .

والمعنى: كافئوني على نُصْحِي، ومجاهدتي من أجل نجاتكم وسعادتكم، وحسن معاملتي لكم، وصَبْرِي على أذاكم، بالموَدَّة الَّتِي تَقْتَضِيهَا قرابتي فيكم، إذ أنتم أهلي وعشيرتي وأهلُ قرابتي، فإن كنتم تعتبرون أن معاملتكم لي بالموَدَّة الَّتِي تَقْتَضِيهَا قرابتي لكم أجراً، فمن محاسن الشِّيم أن تكافئوني بهذه المودَّة، مع أنها في الحقيقة ليست من قبيل الأجر على دعوتي ومجاهدتي فيها، بل هي إحدى مقتضياتِ القرابة بين ذوي القربى، أفيلقُ بمحاسن الشِّيم الَّتِي تؤمنون بها أن تُعَادُونِي، وتخرجوني من بلدي وتقاتلوني وأنتم أهلُ قرابتي .

إني حريص على نجاتكم وسعادتكم رحمةً بكم بدافع إنسانيّ عامّ، ولأنكم عشيرتي وأهل قرابتي، فلا أقلّ من أن تقابلوني بالموَدَّة في القربى، فتكفُوا عَنِّي أذاكم، وتركوني أسعى في نشر دعوتي بين الناس، فإذا بلغتُ مأمولي كان هذا خيراً لكم وعِزّاً، وإلّا فَحَسْبُكُمْ أنكم حفظتم المودّة في القُرْبَى، ولمْ تُفسِدُواها بإيذائي ومُقاتلتي واضطهاد من آمن بي .

هذا المعنى هو مضمون ما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنه في تفسيره لهذه الآية .

وهذا المعنى هو المعنى الأرجح لهذا النصّ فيما ظهر لي، لأنّه نصٌّ مدنيٌّ أُضيفَ إلى سُورَةِ مَكِّيَّة، فما تَضَمَّنَه إرشادٌ للرسول ﷺ إلى أن يستعطف ملاً قومه المشركين في مكة، باستثارة عاطفة القرابة الَّتِي بَيْنَهُ وبينهم، ليؤمنوا به، أو ليكفُوا أذاهم عنه، وحَزَبُهُمْ لَهُ، واضطهادهم للذين آمنوا به . ولا يبدو منه فيما أرى - والله أعلم - تكليفُ الرّسول أن يقول هذا القول للذين آمنوا به، حتى يُحْمَلَ على مودَّة قرابته من أهل بيته، فموقع هذا النصّ الفكري هو

ما جاء في سورة (الشورى) وتأخّر إنزاله ليكونَ عرضه على مشركي مكة في الوقت الذي وصل فيه الرسول إلى بناء الدّولة الإسلامية، ذات الأرض المحصنة، والجيش ذي البأس.

* * *

النصّ الثاني عشر:

وأخيراً أنزل الله عزّ وجلّ على رسوله حول هذا الموضوع في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) قوله تعالى خطاباً لرسوله:

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾.

فختم الله عزّ وجلّ عقْدَ هذا الموضوع مع اقتراب انتهاء المرحلة المكيّة من حياة دَعْوَةِ الرسول ﷺ بمثل العبارة التي بدأ بها هذا الموضوع في أوائل المرحلة المكيّة في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٢ نزول).

وكان هذا الختام بمثابة القُفْل الذي انطبّق على نظيره الذي كان به البدء، واكتمل بجملته هذه النصوص عقْدُ الموضوع من كلّ أطرافه، وظهرت حركيّة التّوجّيه التربوي في مراحل الزمنية خلال المدّة المكيّة من دعوة الرسول ﷺ، وفي النصّ المدني المضاف إلى سورة (الشورى) المكيّة.

والحمد لله على توفيقه وفتحه.

* * *

المقولة الثالثة

معايش حملة الرسالة المتفرّغين لها

بعد كَفِّ حَمَلَةِ رسالة الدعوة إلى دين الله والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَجْرٌ مَا لَدَى الَّذِينَ يَقُومُونَ بِرِسَالَتِهِمْ بَيْنَهُمْ، لَا بُدَّ مِنَ النَّظَرِ فِي الْوَسَائِلِ الْأُخْرَى الَّتِي يَكْتَسِبُونَ بِهَا أَرْزَاقَهُمْ وَمَعَايِشَهُمْ مِنْ مَطَالِبِ حَيَاتِهِمْ وَحَيَاةِ أُسْرِهِمْ.

وبالنظر في مفاهيم الإسلام وتعاليمه وأحكامه نلاحظ ما يلي:

أولاً: كُلُّ مُؤْمِنٍ مُسْلِمٍ مُؤَهَّلٌ لِلْقِيَامِ بِمَسْتَوَى مَا مِنْ مَسْتَوِيَاتِ رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، وَالتُّنْصِحِ وَالْإِشْرَادِ وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُومَ بِهَذَا الْمَسْتَوَى الَّذِي هُوَ مُؤَهَّلٌ لِلْقِيَامِ بِهِ أَثْنَاءَ قِيَامِهِ بِأَعْمَالِهِ الْخَاصَّةِ الَّتِي يَكْتَسِبُ بِهَا مَعَايِشَهُ، وَمَعَايِشَ أُسْرَتِهِ، ضَمَّنَ الَّذِينَ يَتَعَامَلُ مَعَهُمْ، وَفِي وَقْتٍ أَوْ أَوْقَاتٍ يَخْصُصُهَا مِنْ كُلِّ يَوْمٍ، أَوْ مِنْ كُلِّ أُسْبُوعٍ لِلْقِيَامِ بِرِسَالَتِهِ الَّتِي هُوَ مُؤَهَّلٌ لِلْقِيَامِ بِهَا فِي مَجْتَمَعِهِ.

كما يجب عليه أن يقتطع أوقاتاً لصلاته المفروضة، ولطعامه وشرابه وَمَنَامِهِ وَحَاجَاتِهِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَإِلْيَاسِ أَهْلِهِ، وَرِعَايَةِ أُسْرَتِهِ بِالتَّحْرِيبِ وَالتَّعْلِيمِ وَالْإِيْنِاسِ.

وهكذا كان كثير من الفقهاء في الدِّينِ وعلماء الشريعة الإسلامية على

اختلاف تخصصاتهم، لهم أعمال يكتسبون بها معاشهم كالتجارة والصناعة والزراعة، وهم مع ذلك يقومون برسالاتهم أثناء أعمالهم، وفي أوقات يخصصونها لها، صباحاً، وبعد صلاة العصر، وما بين المغرب والعشاء، وربما في أكثر من ذلك، وكان لهؤلاء نفع عظيم في كثير من حواضر العالم الإسلامي وقراه.

وهذا القسم من حملة الرسالة قسم غير مُفَرَّغ لها، وهو يكسب معاشه من أعماله كسائر الناس، وتنطبق عليه الأحكام العامة التي تشمل جميع أفراد المجتمع، فإن كانت أعمال اكتساب المعاش التي يقوم بها الواحد من أفراد هذا القسم لا تكفي حاجاته وحاجات أسرته، فإن له حقاً في صندوق الزكاة كما للفقراء والمساكين بوجه عام، ويُعطى منه ما يفي بمطالب حياته وحياة من يعولهم.

ثانياً: أما حملة الرسالة المؤهلون والمتفرغون للقيام بها، وليس لهم أعمال يكتسبون بها معاشهم، فحكمهم هو حكم المجاهدين في سبيل الله، لأن رسالة الدعوة إلى دين الله والتضح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رسالة داخلية في عموم الجهاد في سبيل الله.

أما الدعوة إلى دين الله فهي جهاد بالنفس لتبليغ الدين والإقناع به، وإعلاء كلمة الله في الأرض، وهي في مفاهيم النصوص القرآنية أول مراحل الجهاد في سبيل الله بالنفس.

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو الوظيفة الدائمة لصيانة المجتمع الإسلامي من الانحراف عن دين الله، والبعد عن التزام حدوده، وهو بهذا المعنى جهاد في سبيل الله، فتبليغ الدين والتذكير به، وصيانة المجتمع الإسلامي عن الانحراف عنه، كل ذلك مشمول بعنوان «في سبيل الله» ويدخل في عموم «الجهاد» فكل ذلك من الجهاد في سبيل الله.

ولمّا كان المجاهدون في سبيل الله داخِلينَ في أحد الأَصناف الثمانية المُستَحِقِّينَ للزكاة، كان المتفرغون لرسالة من هاتين الرّسالتين أو لِكِلَيْهِمَا داخِلينَ حتماً في صنف «في سبيل الله» من الأَصناف الثمانية المُبَيَّنِّينَ في قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩/ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوقِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْفَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

فعلى صندوق الزكاة أن يكفل لهؤلاء معاشهم في الحياة على حسب مستوياتهم، حتّى لا تكون مطالبُ حياتهم مرتبطةً بالذين يُوجِّهون لهم رسالاتهم.

وأفضل هؤلاء هم الذين تكون لهم مَوَارِدُ مَالِيَّةٍ يعيشون منها، ثم يقومون متبرّعين برسالة الدَّعْوَةِ إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإذا لم تُقَمَّ السلطة الإدارية بكفالة معاش هؤلاء من صندوق الزكاة، أو من بيت مال المسلمين بحسب مستوياتهم، لفساد الأوضاع العامّة، أو فساد الأوضاع الإدارية، أو انحراف السلطة عن صراط الله، فعلى جماعات المسلمين أن ينظموها جمعيات أو مؤسسات خاصة لكفالة حملة رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولإعداد من يُزجى أن يكونوا مؤهلين لحمل هاتين الرّسالتين أو لإحداهما، من الذين يُتَوَسَّمُ فيهم الاستعداد، وتَبَدُّو عليهم أماراتُ أن يصيروا في المستقبل ذوي أهليّة مناسبة لذلك العمل الجليل، ويجب أن تصل نسبة حملة هاتين الرّسالتين إلى المقدار الذي يفي بأداء مهمّاتهما.

ولهذه الجمعيات أو المؤسسات الخاصّة أن تُمدّد صناديقها بأموالٍ من أموال الزكاة، وأموال الصدقات العامّة، وأموال الأوقاف، والمساعدات من

الدولة، والاستثمارات المشروعة المختلفة، وشأنها في هذا كشأن تمويل المقاتلين في سبيل الله إذا اقتضى الأمر ذلك.

وحين تُزِيل داعياً مؤهلاً من الدعاة إلى دين الله، وتكلفه أن يتفرغ لهذه الدعوة، فإنّ عليها أن تكفّل معيشته ومعيشة أسرته بحسب حالته الاجتماعية، وبحسب حالة البلد الذي تبعته إليه.

وحين تُكَلَّف مؤهلاً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يتفرغ للقيام بهذه الرسالة الشريفة في بلد أو ناحية، فعليها أن تكفّل معيشته ومعيشة أسرته، بحسب حالته الاجتماعية، وبحسب حالة البلد أو الناحية التي يؤدي فيها رسالته.

ويزاعى في هؤلاء وهؤلاء نظراًؤهم من عمال الدولة وموظفيها.

وعندئذٍ فليس لحامل رسالة الدعوة إلى دين الله، أو لحامل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يمدّ يده إلى صدقات المحسنين، وعطاءات ذوي الهبات، بغية تجميع ثروة يجاري بها الأغنياء، لكن لا يمنع من أن تكون له أعمال كسب مشروع من زراعة أو تجارة أو صناعة أو غيرها بشرط أن لا يكون ذلك على حساب الأوقات التي يجب عليه فيها أن يقوم برسالته التي كُلف القيام بها من قبل الجمعية، أو المؤسسة الخاصة باعتباره متفرغاً لحمل رسالته.

وينبغي أن لا ننسى ما تقوم به جمعيات ومؤسسات التنصير (= التكفير) في العالم من جهود جبارة، وما تجمعه من أموال ضخمة جداً، من الدول والبنوك والشعوب النصرانية، وما تفرضه الكنيسة من ضريبة على كل فرد لتمويل مشروعاتها التنصيرية، وإعداد المبشرين الكثيرين جداً، الذين ينشرونهم في العالم، ولا سيما بلدان الشعوب الإسلامية، ويمدّونهم بكل ما يحتاجون إليه من أموال للقيام بمهماتهم.

أليس عجباً أن يكون المبطلون حملةً رسالاتِ التكفير في العالم أكثر
بذلاً، وأحسن تنظيمًا، وأكثر تجميعاً وتحمساً، للقيام بمهماتهم التضليلية،
من المنتسبين إلى الإسلام الحق؟! .

بلى إنه لعجيب حقاً فيما يظهر، إلا أنه ظاهرة طبيعية للاضطراب
الفكري، والخلل والشتات النفسي الذي يعيشه المسلمون، وظاهرةً طبيعيةً
لأنّ إسلام أكثرهم إسلامٌ تقليديٌّ نسبيّ، وليس انتماءً إرادياً قائماً على بصيرة
واعية بالإسلام في نظرة شاملة، والسبب في هذا فقد المؤهلين من حملة
الرسالتين بنسبة كافية، رسالة الدعوة إلى الله، ورسالة الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر، مع النصّح والإرشاد في كلّ منهما.

* * *

الفصل الثالث

وجوب تحلي حامل الرسالة
بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وبتطبيقه لما يدعو إليه

وفيه مقولتان:

المقولة الأولى: تحليل وتفصيل.

المقولة الثانية: أمثلة من أخلاق الرسول وسيرته العظيمة.

تحليل وتفصيل

- ١ -

بيان تحليلي عام

كلُّ مؤمن مسلم مطالبٌ بأن يتحلَّى بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم،
فخير المسلمين أحاسنهم أخلاقاً، الموطؤون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون،
كما جاء في الصحيح من أقوال الرسول ﷺ.

غير أن التحلَّى بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم يبدو أمراً ضرورياً جداً
لحملة رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
والتُّضح والإرشاد.

فالإنسان الذي لا يكون من ذوي الأخلاق الفاضلة والشيم الحميدة لا
يصلح لحمل هاتين الرسالتين أو إحداهما، ولا يصلح لأن يواجه الناس
ويخالطهم لأداء رسالته بينهم.

إن حامل رسالة غايتها إصلاح الفساد، وتقويم الانحراف في الناس،
وتحويلهم عن عاداتهم السيئة، ومفاهيمهم الباطلة، وما يهوون وما يشتهون
من مضارٍ وشور، لا بد أن تتوافر لديه الصفات الخلقية الحميدة التي من
شأنها أن تملك النفوس والقلوب، وتقبض على أعتها، وتقودها إلى الحق

والخير والفضيلة، ومخالفة أهوائها وشهواتها الضارة، وتقاليدها العمياء، وترك سائر الأخلاق والأعمال التي فيها معصيةٌ لله ولرسوله.

إنَّ حامل الرسالة المتخصِّص ينبغي أن يتحلَّى بنسبة رفيعة من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، كالصدق، والأمانة، والحلم، وسعة الصَّدر، والعفة، وعَدَمِ التَّطَلُّعِ إلى ما آتَى الله عباده من زينة الحياة الدنيا، والكَرَم، والتواضع، ولين الجانب، وحُسنِ المعاملة والمعاشرة للناس والرفق بهم، والشجاعة الحكيمة، وعواطف المحبة والتوَدُّد للناس صغارهم وكبارهم، ضعفائهم وذوي المكانة فيهم، فقرائهم وأغنيائهم.

ولستُ هنا في صدد شرح مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم وبيان فضليها، وبيان خِسة أضرارها، فقد كتبت في موضوع الأخلاق كتاباً موسعاً يقع في مجلدين، بعنوان: «الأخلاق الإسلامية وأسسها» ويحسُنُ بحامل الرسالة أن يرجع إليه، وإلى ما كُتِبَ حول الأخلاق الإسلامية من كتب نفيسة اعتمدت على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، إلا أن ما ينبغي التوجيهِ له هنا هو ضرورة التحلِّي بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم بالنسبة إلى حامل رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتُّصْحح والإرشاد.

فمما لا شكَّ فيه أنَّ من يتحلَّى بنسبة رفيعة من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم التي سبق ذكر طائفة منها، يَمْلِكُ من أدوات التأثير في الناس وتأليف قلوبهم للتلقِّي منه والاستجابة له، ما لا يملكه مَنْ تنخفض لديه النسبة التي يتحلَّى بها من هذه المكارم والمحاسن.

* * *

أما المحروم من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم فتأثيره في الناس تأثير مضادٍّ تماماً، إنَّه بسوء خلقه يجعل الناس تنفر منه، وتتباعده عنه، وتَجْفُو

مجالسَه، ولا تكثرث لأقواله ونصائحه، وإن كانَ من أكثر الناس علماً وفصاحةً وحُسنَ بيان، ومثل هذا لا يصلح لمخالطة الناس ومعاشرتهم ودعوتهم إلى دين الله، أو أمرهم بالمعروف ونهيه عن المنكر، فإن كان لديه علمٌ نافع، وكلام صالح، وبيان مؤثر، فعلى القيادة الإدارية المسنقة للأعمال، والموزعة لها على الأكفاء من النساء والرجال، بحسب كفاءاتهم وتخصصاتهم ومواهبهم الفطرية التي وهبهم الله إياها، أن تستفيد منه في كلام يكتُبُه، أو خطبُه يخطبُها وينصِرِف عن الجماهير عقبها إلى عزلته، أو حديث من وراء مذياع، حتّى لا يَحْتَكَّ مع الذين يُوجّه لهم حديثه، ويَحْسُن أن لا يتصل به الناس إلا عن طريق الرسائل المكتوبة، وبوساطة مُنقَّحٍ يُصَفِّي الوارد إليه والصادر عنه.

كيف يقبل الناس نُضح كذابٍ معروف لديهم بالكذب، أو ينكشف لهم كذبه في تعامله معهم، وفيما يخبرهم به من أخبارٍ يسهُلُ عليهم معرفة حقيقتها؟!!

كيف يستجيب الناس لإرشادٍ وتوجيهٍ خائنٍ لا أمانة عنده؟!!

كيف يصبر الناس على التلقّي من غضوب ضيق الصدر نُفور يخاطبهم بلسان المُغاضِب المشاتم المؤذي بأقواله؟!!

كيف يثقُ الناس بدنيء النفس غير عفيف، فيقبلون منه دعوته، أو نصائحه، أو أوامره ونواهيهِ؟!!

كيف يقبل الناس نُضح حَسودٍ يتطلَّعُ إلى ما آتاهم الله ممّا يحبون من زينة الحياة الدنيا من أموال أو نساء أو ذرّية أو جاه أو سلطان أو غير ذلك؟!!

كيف يصبر الناس على ملازمة فظٍّ غليظ القلب تنفّر النفوس من ملاقاته، والاجتماع به، والاستماع لأحاديثه؟!!

* * *

لكن، كم نشاهد داعياً إلى الله، أو آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، ذا علم قليل، وبيان ضعيف، تجتمع عليه الجماهير وتُحِبُّه، وتتأثر بنصائحه ومواعظه، لأنه صدوق، أمين ودودٌ حلِيم، واسع الصدر، عفيفٌ، كريمٌ، متواضعٌ، لين الجانب، حسن المجاملة والمعاشرة، شجاع بحكمة في مرضاة الله عز وجل، بريء من داء الحسد والتطلع إلى ما أتى الله بغض عباده من زينة الحياة الدنيا، لا يَحْمِلُ الحقدَ والضعينة لِسَمَاحَةِ نفسه، ونقاء سريره .

* * *

فحامل رسالة إصلاحية يجب أن تتفوق فيه الصفات الخلقية الكريمة، التي تُؤثّر في النفوس أثراً حسناً، وتؤلّف القلوب على الحق والخير والهدى، مع أهليته العلميّة والفكرية المناسبة للقيام بالمستوى الذي يضطلع بمهامته من رسالته التي يقوم بأدائها بين الناس . .

* * *

- ٢ -

بيان تفصيلي

أولاً - أهمية البراءة من التطلع إلى ما وهب الله الناس :

ونظراً إلى خفاء وأهميّة براءة حامل إحدى الرسالتين أو كليهما من التطلع إلى ما أتى الله الناس من زينة الحياة الدنيا، لثلا تتفاعل في نفسه رغباتُ التَّشَهِّي والتَّمَنِّي التي تُصِيبُ النفوسَ بداء الحسد، خاطب الله عز وجل رسوله بخطاب يظهر أن المقصود به أمُّته، ولا سيما الدعاة إلى الله منهم، والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، فقال تعالى له كما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُكَ رَبُّكَ

خَيْرًا وَأَبْقَىٰ ۖ ﴿١٧٣﴾

هذه الآية مع آية قبلها أنزلتا في المدينة وأضيفتا إلى سورة (طه) التي هي من أواسط التنزيل المكي، للإشعار بأن المقصود توجيه أمة الرسول ﷺ ولا سيما حملة رسالة الدعوة إلى الله منهم أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حينما يكونون في أحوال مثل الحالة التي كان فيها الرسول صلوات الله عليه في أواسط المرحلة المكية التي أنزلت فيها سورة (طه) فقد كان الرسول ﷺ حينئذ في حالة ضعف وفقر واضطهاد من قبل كبراء قومه في مكة، وكان هؤلاء الكبراء فيها سادة أقوياء ذوي سلطان فيها وغلبة، لكن الرسول ﷺ لم يتطع إلى ما هم فيه من زينة الحياة الدنيا، فقد عرضت عليه أن تكون له جبال مكة ذهباً فأبى ولو قيل هذا العرض لكان أكثر الناس عزاً وسلطاناً وقوة في الأرض، ولملك من زينة الحياة الدنيا ما لم يملك أحدٌ سواه، لكنه لم يختَر لنفسه هذا من الدنيا.

أما في المدينة فقد كان السيد المطاع فيها، وذا السلطان المفدى بالأموال والأنفس، ولو شاء الاستمتاع بما يشاء لفعل، فلم يكن شأنه فيها مما يُتوَهَّمُ معه أن يمدَّ عينيه إلى شيء من زينة الحياة حينئذ.

فإنزال هذا التوجيه له وهو في العهد المدني ظاهرٌ منه تماماً أن المقصود به أمته، ولا سيما حاملو رسالته منهم.

وبما أن الرسول هو قائد أمته، والممثل لهم في تلقى أوامر الله ونواهيهِ وتوجيهاته، خاطبه الله بالإنفراد، ليشعر كل حاملٍ لرسالته من أمته أنه مخاطبٌ به على طريقة الخطاب الإفرادي، كما خاطب الله به الرسول، لكن الرسول ﷺ قد كان متحققاً بمضمون الخطاب في النص من قبل أن يُنزل عليه، فدل هذا على أن المقصود به كل فرد من أمته، ولا سيما حملة رسالته

في الدعوة إلى دين الله، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي النصيح والإرشاد.

وَلَا تَمَدَّنْ عَيْنَيْكَ: التعبير بمدّ العين كناية عن تشهّي النفس وتمنّيها، وذلك لأنّ من نظر إلى شيء فاستحسنه واشتهاه وتمناه لنفسه، ثبت نظره فيه، ومع تثبيت النظر تتوالى رغباتُ التشهّي والتمني النفسية، وتندفع هذه الرغبات مع توالي النظرات وتُطلِقُ طاقاتٍ خَفِيَّةً على خطوط النظر بالعينين، حتّى كأنّ العينين أنفسهما تمتدان إلى الشيء الذي استحسنته النفس، فاشتتهته، فتمنّته، وهنا يتفاعل في النفس داء الحسد، ومن هنا قد تكون الإصابة بالعين، إذا كان لدى المتمني إرادة حسد، وكانت لديه قوة خفية تؤثر في المحسود أو في أشياءه التي يمتلكها.

فعلى المؤمن أن يغيض بصره عمّا آتى الله بعض عباده من زينة الحياة الدنيا، لئلا تتعلّق نفسه به، فيتمناه لنفسه، فيتفاعل فيها داء الحسد الخبيث، وإذا تفاعل في النفس هذا الداء بحرارة التشهّي والتمني، كان من آثاره خُدوشٌ تُدمي وجه الإيمان السليم في القلب، فيشكُّ الحاسدُ بحكمة الله عزّ وجلّ في عطاياه ومنعه، ويستغلُّ شيطانُ النفس هذا الشك، فيحرّك قوَى خبيثة ضارة مؤذية فيها، فتنتليق منها بعض هذه القوى الكامنة فيها، وربّما انطلق هو معها، فتحدّث بإذن الله وعلمه الإصابة بالعين على درجات متفاوتات.

إلى ما متعنا به أزواجاً منهم: أي: إلى شيء متعنا به أصنافاً وجماعات وأفراداً من الناس من متاع الحياة الدنيا، فما في الحياة الدنيا كلّ متاع، والمتاع كلّ ما يُنتفع به مؤقتاً وهو إلى فناء وزوال.

زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا: أي: حالة كون ما متعناهم به زهرة الحياة الدنيا، شبه الله عزّ وجلّ كلّ ما في الحياة الدنيا من زينتها المحببة للنفوس بالزّهرة، لأنّ الزهرة التي تتفتح في الشجر قبل أن تنعقد منها الثمرة ذات زينة ورونق

وجمال وإغراء، إلا أنها قصيرة العمر جداً يُسرَعُ إليها الذبول، ونظيرها كل ما في الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما في الدار الآخرة.

لِنُقْتِنَهُمْ فِيهِ: أي: لنختبرهم أو لنعذب كفارهم في هذا الذي متعناهم به من زينة الحياة الدنيا الذي هو كالزهرة السريعة الذبول والقصيرة العمر.

وَرَزُقْ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى: أي: ورزق ربك الذي أعدّه في دار النعيم يوم الدين لمن آمن وعمل صالحاً ولم يتطّلع إلى ما أتى بعض عباده من زهرة الحياة الدنيا خيرٌ من كل ما في هذه الحياة من متاع وزينة، وأبقى أنواعاً وأصنافاً وأفراداً، لأن دار النعيم هي دار البقاء، أما الحياة الدنيا فهي دار الفناء، ودار الأكدار.

فعلى كل من يحمل رسالة الدّعوة إلى الله أو رسالة التّضح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون شديد الحذر، من مد النظر إلى ما متّع الله به غيرَه من زهرة الحياة الدنيا بتشوّه وطلب وتمنّ، لأن هذا يكدر صفاء نفسه ويُفسدُها ويحوّل طريقه من ابتغاء مرضاة الله في أداء رسالته، إلى ساعٍ لتحصيل ما يشتهي من زهرة الحياة الدنيا، ويجعله مستعداً للتنازل عن رسالته أو تسخيرها في غير ما هي له، إذا عرضت عليه المغريات مما يشتهي ويتمنّى، وعندئذ يستغلّه شياطين الإنس والجنّ لتحريف الدين، والتلاعب في مفاهيمه، وتحسين أعمال المفسدين والمجرمين والفاستقين في الأرض، ثم مشاركتهم فيما هم فيه.

وكم ابتلي أناسٌ من حاملي رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بهذا الداء، فكانوا شراً وضراً ونقمةً على الرسالة التي حملوها.

* * *

ثانياً - أهمية البراءة من الفظاظة وغلظ القلب :

ونظراً إلى أهمية براءة حامل إحدى الرسالتين أو كليهما من أن يكون فظاً، أي: حشن الكلام سبب الخلق شرساً، ومن أن يكون غليظ القلب، أي: قاسياً لا رَحمةَ عنده، مع عدم توجيه الكثيرين أنظارهم لمراعاة البراءة منهما. . أثنى الله عز وجل على رسوله محمد ﷺ بأنه لعلى خلقٍ عظيم، وكان هذا في أوائل المرحلة المكية، ثم أثنى عليه في أوائل المرحلة المدنية بأنه ليس فظاً ولا غليظ القلب، لتوجيه أمته ولا سيما حملة رسالته لأن يقتدوا به، ويتحلوا بمثل أخلاقه وسيرته في دعوته إلى دين ربّه، وفي قيادته لأمته.

أما ثناؤه عليه بالخلق العظيم في أوائل المرحلة المكية فنجدّه في قوله تعالى له في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٢ نزول):

﴿ تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِمَعْنُونَ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾

أي: وَإِنَّكَ لَمْتَمَكِّنٌ بَعْلُوٌّ مِنْ خُلُقِي عَظِيمٍ تَسِيرُ بِهِ فِي حَيَاتِكَ، وَقَدْ عَرَضْتُ لَنَا السَّنَةَ النَّبَوِيَّةَ أُمْتِلَةً رَائِعَةً كَثِيرَةً جَدًّا مِنْ سِيرَتِهِ الْعَظِيمَةِ وَشِمَائِلِهِ الْفَدَّةِ، الَّتِي تَكْشِفُ عَنْ خُلُقِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي مَلَكَ بِهِ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ، وَمَلَكَ بِهِ إِعْجَابَ خُصُومِهِ وَالْكَافِرِينَ بِهِ وَبِرِسَالَتِهِ.

وأما ثناء الله على رسوله بأنه ليس فظاً ولا غليظ القلب، وآته لو كان فظاً غليظ القلب لانفض أصحابه من حوله نافرين، فنجدّه في قول الله عز وجل في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول)^(١) خطاباً لرسوله:

(١) سورة آل عمران ثالث سورة نزلت في المرحلة المدنية: (البقرة - الأنفال - آل عمران).

﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾

● ففي هذه الآية ثناء من الله على رسوله بأنه ليس فظاً ولا غليظ القلب، وبيان أنه لو كان فظاً غليظ القلب لانفضَّ أصحابه من حوله نافرين. وفي هذا توجيه بصورة غير مباشرة لكل من يضطلع بمهمات إمامة المتقين أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، أسوة حسنة لهم، أن لا يكون فظاً سبياً الخلق شرساً، وأن لا يكون غليظ القلب قاسياً لا رحمة عنده، فمن كان كذلك نقر عنه المتأثرون ببياناته الدينية، وانفضوا من حوله، وصار مزهوداً فيه، وغير ذي تأثير في دعوته، ولا في أمره بالمعروف، ولا في نهيه عن المنكر، ولا في نُصحه وإرشاده.

وما يجب أن يتحلَّى به إمام المؤمنين المتقين من صفات تجعلهم ينضمون إليه، ويلتفتون حوله، ويقتدون به محبين مُقدِّرين ومناصرين، ويستجيبون له إذا أمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر، يجب من باب أولى أن يتحلَّى به الداعي إلى دين الله الذي يدعو غير المسلمين إلى الدخول في الإسلام بصدق والتزام وحسن اتباع وعمل.

فالفظ السبىء الخلق، أو الغليظ القلب، لا يصلح ابتداءً لأن يكون داعياً لأحد من غير المسلمين إلى دين الله، لأنه سيُنقَرُه من الدين لأول بادرة سوء خلق وفضاظة يلاحظها فيه، ويجفوه إذا أدرك أنه غليظ القلب عديم الرحمة جاف العواطف النبيلة، فلا يَستَمِعُ إليه، ولا يُصغِي إلى أقواله ونصائحه.

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ: أي: فبسبب رَحْمَةٍ عَظِيمَةٍ فَطَرَتْ عَلَيْهَا بِفِطْرَةٍ مِنَ اللَّهِ، لِنْتَ يَا مُحَمَّدٌ لِمَنْ أَتَبَعَكَ فِي أَقْوَالِكَ وَأَعْمَالِكَ، وَكُنْتَ رُوفاً بِهِمْ، رَفِيقاً فِي سِيَاسَتِهِمْ، عَطُوفاً عَلَيْهِمْ.

أَضِيفَ حَرْفُ (ما) بين الجار والمجرور للتأكيد ، وللدلالة على عظمة خُلِقَ الرحمة التي فَطَرَهُ اللهُ عليها، فهي في قلبه رحمةٌ عظيمةٌ جليلة المقدار .

وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَأَنْفَضُوا مِنَ حَوْلِكَ : أي : لم تكن يا مُحَمَّدٌ فَظًّا وَلَا غَلِيظًا ولذلك لم يَنْفَضْ عَنْكَ الَّذِينَ آمَنُوا بِكَ وَاتَّبَعُوكَ ، بل اسْتَمَرُّوا حَافِينَ بِكَ ، مجتمعين عليك ، محبين معظمين مُوقِّرين ناصرين لك ولكل ماجتتهم به ، مطيعين لأوامرك ونواهيك .

الْفُظُّ : هو ذو الكلام الخشن المؤذي المنقر، يقال لغة : رجلٌ فظٌ ذو فظَاظة ، إذا كان جافياً خشن القول يخاطب الناس بما يقسو على نفوسهم . والفظٌ أيضاً من الناس : من كان سَيِّءَ الْخُلُقِ شَرِساً فِي طَبِيعِهِ وَتَعَامُلِهِ .

الغليظ : هو من لا رِقَّةَ في خلقه وطبعه ، أو في قوله أو فعله . وغلِظَ الْقَلْبُ كناية عن كونه خالياً من عاطفة الرحمة ، أو كون رحمته قليلة بالنسبة إلى ما يُطَلَّبُ من أمثاله .

وأصل الغلِظِ في الأشياء تكاثف ذراتها وعِظْمُ سُمْكِهَا وَثَخَانَتُهَا ، فتكون بذلك صُلْبَةً قَاسِيَةً لَا تَلِينُ ، والصُّلْبُ القاسي من الأشياء تنعدم رطوبته أو تَقَلُّ ، فهو لا يَرَشُحٌ وَلَا يُعْتَصِرُ ، أو يكون رَشْحُهُ قليلاً جداً .

فالقلب الغليظ لا يَرَشُحُ برحمة ، أو يكون رَشْحُهُ قليلاً ضئيلاً .

والله عزَّ وجلَّ أتنى على رسوله محمد ﷺ بأنه عظيم الرحمة ، وهذا قد ظهر في مُعَامَلَتِهِ لمن أتبعه من المؤمنين باللين في أقواله ، وأعماله ، ومشاعره ، رفقاً ورأفة بهم ، وشفقةً عليهم ، فقال له موجهاً بأسلوبٍ غير مباشرٍ كلَّ دَاعٍ إلى سبيل ربِّه من أمته أو أمرٍ بالمعروف ونَاهٍ عن المنكر وناصحٍ مُرشدٍ :

﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ .

أي: إنك لست فظاً ولو من أدنى مستويات الفظاظة، ولست غليظ القلب ولو من أدنى مستويات الغلاظة، بل أنت لئن حسن المعاشرة، رفيق رقيق في أقوالك وأعمالك، ذو خلق عظيم. وذو قلب رحيم، يفيض برغبات العطاء والمعونة، ويفيض بالشفقة على عباد الله، ولو كنت فظاً غليظ القلب، لما اجتمع عليك هذا الجم الغفير من أصحابك الذين يحبونك ويعظمونك ويؤفرونك وينصرونك ويقدونك بأموالهم وأنفسهم، ولو أنهم اجتمعوا عليك ابتداءً لإعجابهم ببيانك وصحة مبادئك، ومصانعتك لهم باللين والخلق الكريم على خلاف الخلق الحقيقي لنفسك وقلبك، لانفضوا من حولك متى طال بهم العهد، إذ لا بد أن تنهار يوماً ما مصانعتك لهم بما يؤلف قلوبهم، فالمصانعة المتكلفة على خلاف خلق النفس لا تدوم طويلاً.

ويلزم من هذا الخطاب للرسول خطاب حاملة رسالته، فالمعنى: ويا أيها الدعاة إلى الله، ويا أيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، اقتدوا برسولكم محمد، فليئوا للناس في أقوالكم وفي أعمالكم، ولا يكن واحد منكم فظاً ولا غليظاً في مواجهة عباد الله ومخاطبتهم ومعاملتهم، وإن أنكرتم عليهم انحرافهم عن الحق وصراط الله في أفكارهم أو أقوالهم أو أعمالهم.

ولما كان اللين بالقول من واجبات الدعوة إلى دين الله، إذ هو من وسائلها النافعة غير المنقرة، أوصى الله عز وجل موسى وهارون عليهما السلام بأن يقولوا لفرعون قولاً لئناً، راجيين بأسلوب القول اللين في عرض الحق عليه وتخويله من عذاب الله أن يتأثر، فيتذكر أصول الحق التي فطر الله عليها العقول فيؤمن، أو يخشى عقاب الله وعذابه بما في نفسه من مشاعر الرهب على مصيره عنده، فقال الله عز وجل في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) في حكاية خطاب خاطب به موسى عليه السلام إذ ناداه بالوادي المقدس طوى، وأبان له فيه أنه اجتبه رسولاً، وجعل له أخاه هارون وزيراً:

﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نُبَيِّنَا فِي ذِكْرِي ﴾ ﴿٢١﴾ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٢﴾ فَقَوْلًا
لَهُ قَوْلًا لِنَا أَلَمْ يَتَذَكَّرْ أَوْ يَخْشَى ﴿٢٣﴾ .

أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي: أي: مصحوبين بآياتي البيانية والإعجازية
والجزائية .

وَلَا نُبَيِّنَا فِي ذِكْرِي: أي: ولا تفترا في الاشتغال بذكري في أنفسكما
وقلوبكما وأفكاركم وألسنتكما، ولا تضعفا ولا تكلا، وذكر الله يشمل
تسيحه وحمده، والتفكر في صفاته الجليلة وأسمائه الحسنى، والتفكر في
آياته وآياته الكونية، وآياته المنزلة وتدبر دلالاتها ومعانيها، والدعوة إلى
الإيمان به وبما أنزل على رسوله مع الشرح والبيان .

يقال لغة: «وَتَى بِنِي» إذا فترَ وضعفَ وكَلَّ .

إِنَّهُ طَغَى: أي: إنه تجاوز الحدَّ ظلماً وتكبُّراً، وكفراً وفجوراً .

فَقَوْلًا لَهُ قَوْلًا لِيُنَّا: أي: فقولا له في دعوتكما له إلى الإيمان، وترك ما
هو فيه من ادعاء الربوبية، واتخاذ أوثانٍ من دون الله قولاً لينا .

لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى: أي: راجيين من دعوته بالقول اللين أن يتذكر ما
هو كامنٌ في فطرة عقله من أصول الحق والإيمان، أو يتعظ فيخشى عقاب الله
وعذابه، بما في نفسه من مشاعر الخوف على مصيره من الرب الخالق، وبما
في ذاكرته من قصص الجبابرة الأولين الذين أهلكهم الله، كعادٍ وثمود وقوم
نوح عليه السلام .

● وبعد أن أثنى الله على رسوله محمد ﷺ بأنه رحيم بالمؤمنين،
فبهذه الرحمة لأن لهم في أقواله وأعماله وعواطفه، وبعد أن أبان له أنه لو
كان فظاً غليظ القلب لانفضوا من حوله، توجيهاً للمؤمنين ولا سيما حملة
رسالته أن لا يكون أحدٌ منهم فظاً ولا غليظ القلب، أمر الله رسوله بأن يعفو

عن المُسيء من المؤمنين، وأن يستغفر للمذنبين منهم، وأن يُشعرهم بأنهم شركاؤه في أمور الدولة الإسلامية ومصالح المسلمين العامة، فيشاورهم في الأمر، ويبني عزمه على ما ظهر له من مصلحة للمسلمين بعد المشاورة، فإذا عزم على أمرٍ فليَتَوَكَّلْ على الله في تنفيذه، فالله يُحِبُّ من يتَوَكَّلْ عليه فيمِدُّه بمعونته، فقال الله عزَّ وجلَّ له في الآية التي نتدبرها من سورة (آل عمران):

﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

أي: فيما أتك يا مُحَمَّدٌ رحيمٌ بالمؤمنين برحمةٍ فطريةٍ رشيدةٍ من ربك، وهذه الرحمة جعلتك تلين لهم، وبرئت بها من أن تكونَ فظاً غليظَ القلب، فاجعل من مظاهر رحمتك بهم في معاملتك لهم، ثلاثَ خصالٍ مُهمَّةٍ لازمةٍ للقائد الحكيم الرشيد في قيادته وسياسته:

الخصلة الأولى: ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ ﴾ أي: إذا أساء إليك مُسيءٌ منهم في مقاله أو في عمله فاعفُ عنه، فلا تُعاقبه على إساءته، ولا تُعاقبه عليها، واجعلها غيرَ ظاهرةٍ الأثر في معاملتك له، ومن شأن هذه الخصلة أن تملك القلوب.

العفو: أعلى درجةٍ من العُفْران، لأنَّ العُفْران ستر الذنب مع بقاء الأثر الدالَّ عليه، أما العفو فهو مَحْوٌ للأثر من بعد السَّتر، فالزَّارعُ يدفن البزور ويغطيها بالتراب، لكن تبقى الآثار، والرياح تسوي الأرض فتعفو هذه الآثار.

الخصلة الثانية: ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ أي: واسأل الله أن يغفر لهم ذنوبهم ومعاصيهم التي تتعلق به، وإذا جاءك مذنبٌ منهم بذنبٍ وسألك أن تستغفر له، فاستغفر له، فدعاء الرسول لأُمَّته مستجاب، ومن شأن هذا الاستغفار أن يزيد في امتلاك القلوب، ويُشعر المؤمن من أصحاب الرسول أن خطيئته مع ربه قد مُحييت فلم يبقَ لها أثرٌ، لأنَّ الرسول قد سأل ربه أن يغفر له.

الخصلة الثالثة: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: وشاورهم في قضايا ولايتك للأمر، فوليّ أمرِ الأمة هو الذي يدير ويسوس شؤونها العامة، باعتباره قائداً ذا سلطان، يقضي في شؤونهم ويحكم ويصدر الأوامر والقرارات في السُّلْمِ والحَرْبِ.

ومع كون الرسول ﷺ هو قائد أمته ووليّ أمورها العامة، ومع كونه مؤيداً ومُسدّداً بالوحي، فقد أمره الله بأن يُشاوِرَ أهلَ المشورة من أمته، ليكون أسوة في هذا لِمَنْ بَعْدَهُ من أئمة المسلمين وقادتهم وأولياء أمورهم.

فالمشاورة أذعَى لَصِحَّةِ رُؤْيَةِ الْقَضِيَّةِ المهمة من كلِّ جوانبها، وتقلُّ نسبة احتمالات الخطأ في الأمر الذي يتجه له العزم، وتُعْطِي المستشارين تَكْرِيماً واحتراماً وشعوراً بأنهم شركاء في الأمر، وأن قرارَ قائدهم صدرَ بعد مشاورتهم، ولم يكن مستقلاً في الأمر ولا مستبدّاً ولا مُتَّبِعاً لمزاجه ولأهوائه الخاصة.

وبعد المشاورة واستعراض مختلف الآراء وترجيح الرأي الأكثر نفعاً وسداداً لعامة المسلمين، يَغْزِمُ الرسول على بتّ القرار المناسب، فيُصْدِرُهُ، ويُوَجِّه فيه أمره للتنفيذ، وعليه عندئذٍ أن يتوكَّلَ على الله ويقوم بما يلزم لتنفيذ ما أصدره من قرارات وأوامر.

وبياناً لهذا قال الله لرسوله:

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

أي: فإذا عزمْتَ بعد المشاورة على تنفيذ أمرٍ من أمور المسلمين في السُّلْمِ والحَرْبِ فاعمل على تنفيذه متوكلاً على الله، والله سَيُمِدُّك بمعونته وتسديده، لأنه يحبُّ المتوكلين عليه مع قيامهم بكلِّ ما تقتضيه حاجات التنفيذ من أسباب.

وما أمر الله به رسوله بوصفه قائد أُمَّتِهِ ووليّ أمورهم، مطالبٌ بمثله كلّ إمام من أئمة المتقين، الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ومطالب بمثله كلّ إمام من أئمة المسلمين الذين يتولّون قيادة وسياسة أمورهم العامّة، إلاّ أنّ رأي الأكثرية في المَشُورَةِ ملزمةٌ لغير الرسول فيما ظهر لي^(١) لقول الله تعالى: ﴿وَأْمُرُهُمْ شُورَى بَيْنِهِمْ﴾.

فعلى حامل رسالة الدعوة إلى الله أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يتحلّى بالأخلاق والخصال التي أثنى الله بها على رسوله، والتي أمره بها، فمن تحلّى بها كان أكثر توفيقاً ونجاحاً، وأكثر سداداً في رسالته التي يضطلع بمهمّاتها.

وعليه أن يكون هاشاً باشاً مع كلّ الناس، وأن لا ينظر إلى المخالفين مهما كان شأنهم بتقطيب وعُبُوسٍ واشمئزاز.

وعليه أن يكون حسن المحادثة، حكيم المجاملة، جميل المعاشرة، خدوماً، ينهض بمصالح الآخرين كأنها مصالحه الشخصية، تأليفاً لقلوب الناس على حبّ الالتزام الإسلاميّ والعمل الإسلامي، وحبّ الدعاة إلى الله والأمين بالمعروف الناهين عن المنكر الناصحين المرشدين.

* * *

(١) انظر ما كتبه حول هذا في كتاب «كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة» بمبحث نظام الحكم في الإسلام.

المقولة الثانية

أمثلة من أخلاق الرسول ﷺ وسيرته العظيمة

أعرض في هذه المقولة طائفة مما ورد في السنة حول السيرة العظيمة والأخلاق العظيمة، التي كان الرسول محمد ﷺ يتحلّى بها، ليتخذها حملة رسالة الدعوة إلى دين الله، ورسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمثلة يحتذون حذوها تأسياً برسولهم العظيم، حتى يكونوا مؤهلين لإمامة المتقين، في أخلاقهم ومحاسن سلوكهم.

المثال الأول:

روى البخاري ومسلم عن جابر رضي الله عنه، أنه غزا مع النبي ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَفَلَ مَعَهُمْ، فَأَدْرَكَتَهُمُ الْقَائِلَةُ فِي وادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ^(١)، فنزل رسول الله ﷺ، وتفرّق الناس يستظلّون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سَمْرَةٍ^(٢)، فعلقَ بِهَا سَيْفَهُ، وَنِمْنَا نَوْمَةً، فإذا رسولُ الله يَدْعُونَا وَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ:

«إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ^(٣) عَلَيَّ سَيْفِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقِظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا^(٤)»، قَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قُلْتُ: اللهُ ثَلَاثًا» وَلَمْ يُعَاقِبْهُ وَجَلَسَ ﷺ.

(١) القائلة: وقت الظهيرة. والعِضَاهُ: الشجر الذي له شوك.

(٢) تحت سَمْرَةٍ: أي: تحت شجرة كبيرة من هذه الأشجار.

(٣) اخترط السيف: أي: سلّه من غمده.

(٤) صلّتاً: أي: مجرداً جاهزاً للضرب به.

وفي رواية عن جابر، أن المشرك قال للرسول ﷺ: تخافني؟ قال رسول الله ﷺ: «لا» فقال: فمن يمنعك مني؟ قال: «الله».

وجاء في رواية أخرى: فسقط السيف من يده، فأخذ رسول الله ﷺ السيف، فقال للأعرابي: «من يمنعك مني» فقال: كن خير أخذ، فقال: «تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله» قال: لا، ولكنني أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلني سبيله، فأتى الرجل أصحابه فقال لهم: جئتمكم من عند خير الناس!!.

المثال الثاني:

روى البخاري عن سهل بن سعد، أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ بيزدة منسوجة^(١)، فقالت: نسجتها بيدي لأكسوكها، فأخذها النبي ﷺ محتاجاً إليها، فخرج إلينا وإنها إزاره، فقال فلان: اكسنيها، ما أحسنها!، فقال: «نعم» فجلس النبي ﷺ في المجلس، ثم رجع فطواها، ثم أرسل بها إليه، فقال له القوم: ما أحسنت، لبسها النبي ﷺ محتاجاً إليها، ثم سألته وعلمت أنه لا يزيد سائلاً، فقال: إني والله ما سألته لألبسها، إنما سألته لتكون كفني، قال سهل: فكانت كفنه.

المثال الثالث:

روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ، وعليه بيزد^(٢) نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذته بردائه جبذة شديدة، فنظرت إلى صفة عاتق^(٣) النبي ﷺ وقد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مزي من مال الله الذي

(١) بيرة منسوجة: أي: بكساء موشى له هذب.

(٢) البزد: كساء مخطط يلتحف به.

(٣) العاتق: ما بين المنكب والعتق، والمنكب: مجتمع رأس العضد والكتف.

عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحَكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ!! .

المثال الرابع:

روى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: ما سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامَ شَيْئاً إِلَّا أَعْطَاهُ، وَلَقَدْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: يَا قَوْمِ اسْلِمُوا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً مَنْ لَا يَخْشَى الْفَقْرَ.

وإن كان الرجل لئسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يلبث إلا يسيراً، حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما فيها.

المثال الخامس:

روى البخاري عن جبير بن مطعم: بينما هو يسير مع رسول الله ﷺ مَقْفَلُهُ مِنْ حُنَيْنٍ، فَعَلِقَتِ الْأَعْرَابُ يَسْأَلُونَهُ، حَتَّى اضْطَرُّوهُ إِلَى سَمُرَةٍ، فَخَطَفَتْ رِدَاءَهُ، فَوَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ:

«أَعْطُونِي رِدَائِي، لَوْ كَانَ لِي عَدَدُ هَذِهِ الْعِضَاهِ نَعَمٌ لَقَسَمْتُ بَيْنَكُمْ، ثُمَّ لَا تَجِدُونِي بَخِيلاً وَلَا كَذُوباً وَلَا جَبَاناً».

سَمُرَةٌ: أي: شجرة من شجر الطلح.

العِضَاهُ: الشجر الذي له شوكة.

المثال السادس:

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، ادعُ على المشركين، قال:

«إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لِعَانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً».

المثال السابع:

روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال:

«لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ، فَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلِ بْنِ كَلَالٍ، فَلَمْ يُجِئْنِي إِلَيَّ مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ^(١)، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسِحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيْلُ، فَتَادَانِي، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ».

قال: «فتاداني ملك الجبال، فسلم عليّ، ثمّ قال: يا محمّد، إنّ الله قد سمع قول قَوْمِكَ، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين».

فقال رسول الله ﷺ: «بل أزوجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً».

أن أطبق عليهم الأخشبين: الأخشبان هما جبلا مكة.

المثال الثامن:

رُوي أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ يطلب منه عطاءً، فأعطاه الرسول، ثمّ قال: «أحسنّت إليك؟» قال الأعرابي: لا، ولا أجملت.

فغضب المسلمون وقاموا إليه، وقد همّوا أن يؤدّبوه بالعنف، فأشار إليهم الرسول ﷺ أن كفّوا، ثمّ قام ودخل منزله، فأرسل إليه وزاده شيئاً، ثمّ قال له: «أحسنّت إليك؟» قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً، فقال له النبي ﷺ: «إنك قلت ما قلت، وفي نفس أصحابي من ذلك شيء، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي، حتّى يذهب ما في صدورهم عنك» قال: نعم.

(١) قون الثعالب: ميقات الإحرام للقادم إلى مكة من الطائف، ويسمى أيضاً قون المنازل.

فَلَمَّا كَانَ الْعَدُوُّ جَاءَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ هَذَا الْأَعْرَابِيَّ قَالَ مَا قَالَ فِرْدَانَاهُ، فَرَعَمَ أَنَّهُ رَضِي، أَكْذَلِكْ؟» قَالَ: نَعَمْ، فَجَزَاكَ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ وَعَشِيرَةِ خَيْرًا.

فقال الرسول ﷺ:

«مَثَلِي وَمَثَلُ هَذَا كَمَثَلِ رَجُلٍ لَهُ نَاقَةٌ شَرَدَتْ عَلَيْهِ، فَاتَّبَعَهَا النَّاسُ، فَلَمْ يَزِيدُوهَا إِلَّا نُفُورًا، فَنَادَاهُمْ صَاحِبُهَا، فَقَالَ لَهُمْ: خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ نَاقَتِي، فَإِنِّي أَرْفُقُ بِهَا مِنْكُمْ وَأَعْلَمُ، فَتَوَجَّهَ لَهَا بَيْنَ يَدَيْهَا، فَأَخَذَ مِنْ قُمَامٍ^(١) الْأَرْضِ، فَرَدَّهَا، حَتَّى جَاءَتْ وَاسْتَنَاحَتْ، وَشَدَّ عَلَيْهَا رَحْلَهَا، وَاسْتَوَى عَلَيْهَا، وَإِنِّي لَوْ تَرَكْتُكُمْ حَيْثُ قَالَ الرَّجُلُ مَا قَالَ فَقَتَلْتُمُوهُ دَخَلَ النَّارَ».

وفي سيرة الرسول من نظائر هذه الأمثلة روائع تُتخذى، صلوات الله وسلاماته عليه.

* * *

(١) قُمَامٌ: جَمْعُ قُمَامَةٍ، وَهِيَ الْكُنَاسَةُ الَّتِي تَجْمَعُ مِنَ الْبُيُوتِ وَالطَّرِيقِ.

الفصل الرابع

وجوب تحلي حامل الرسالة
بالصفات التي ذكر الله عز وجل أنّها صفات عباد الرحمن
ليكون أسوة حسنة

وفيه مقولتان:

المقولة الأولى: مقدمة تحليلية عامة مع بيان الشروط التي هي بمنزلة
الأسس الأولى لكلّ داعٍ لأمر أو ناصحٍ به .
المقولة الثانية: صفات المرشّح لأن يكون إماماً للمتقين .

مقدمة تحليلية عامة

كل من يحمل مسؤولية رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح والإرشاد، أو رسالة الدعوة إلى دين الله، من مستوى الفئة الخاصة فئة المتخصصين لحمل إحدى هاتين الرسالتين أو كليهما، يجب أن يكون أسوة حسنة لمن يُؤدّي رسالته بينهم، ويجب أن يتحلّى بصفات تؤهله لأن يكون إماماً للمتقين.

فحامل رسالة النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فئة المتخصصين يضع نفسه إماماً لمن يحمل بينهم رسالته، وكل مؤمن مسلم داخل في عموم المتقين، إذ له درجة ما من درجات مرتبة التقوى، ومن يضع نفسه إماماً للمتقين أمراً بينهم بالمعروف ناهياً عن المنكر ناصحاً مرشداً، لا بد أن يرتقي في صفاته السلوكية حتى يتجاوز أعلى درجات المتقين، ويكون ولو ببعض أعماله من الأبرار، ليكون أسوة حسنة للمتقين، وأن يجتهد أيضاً حتى يكون ولو ببعض أعماله من المحسنين.

وكذلك الداعية المتخصصة الذي يحمل رسالة الدعوة إلى دين الله بين غير المسلمين، أو من هم بحكم غير المسلمين، ويضع نفسه في منزلة داعٍ متخصص، لا بد أن يكون في أخلاقه وسلوكه ودعوته مثلاً صالحاً للاقتداء

به، ولا أقل من أن يكون إماماً للمتقين، مع زيادة أهلية فكرية، ونفسية، وعلمية، وبيانية، تتطلبها رسالة دعوة غير المسلمين إلى الإسلام بصفة تخصصية.

- ٢ -

الشروط الأساسية الأولى لكل داعٍ لأمرٍ أو ناصحٍ به مُرشدٍ إليه

لا يكون حامل رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أسوةً حسنةً، ما لم يكن مؤمناً بما يدعو إليه، أو ينصح به، ومطبقاً بسلوكه النفسي وسلوكه الجسدي ما يدعو إليه أو ينصح به، وعلى بصيرة بما يدعو إليه أو ينصح به، أو يرشد إليه.

فهي ثلاثة شروطٍ أساسيةٍ أولى لكل داعٍ إلى أمر، أو ناصحٍ به ومُرشدٍ إليه :

١ - شرط الإيمان بما يدعو إليه أو ينصح به ويرشد إليه .

٢ - شرط الأداء الفعلي لما يدعو إليه أو ينصح به ويرشد إليه .

٣ - شرط البصيرة بما يدعو إليه أو ينصح به ويرشد إليه .

وفمياً يلي شرحُ هذه الشروط :

الشرط الأول: الإيمان بما يدعو إليه أو ينصح به ويرشد إليه .

من البدهي أن هذا الشرط شرطٌ طبيعيٌّ لا بُدَّ من تحقُّقه في كلِّ داعٍ إلى قضيةٍ ما، أو مبدأ من المبادئ، وإلا فهو منافقٌ كذابٌ، أو صاحبٌ مصلحةٍ خاصَّةٍ من قيامه بدعوته، ويكون حاله كحال أهل بلدةٍ مات مؤذنٌ جامعها الكبير الذي كان نديَّ الصوت وحسنه، فلم يجدوا في المسلمين ذا صوتٍ نديٍّ حسنٍ يؤذِّن لهم، فاستأجروا رجلاً غير مسلم أعجبهم صوته ليؤذِّن لهم،

فما استطاع أن يقول في أذانه: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله» لأنه غير مؤمن بمضمون هاتين الشهادتين، فصار ينادي: أشهد أن مسلمي هذا البلد يشهدون أن لا إله إلا الله، وأشهد أنهم يشهدون أن محمداً رسول الله.

وبما أنه شرط عقلياً بدهي كان من الحكمة أن يُبين الله تعالى أن رُسُلَهُ من المؤمنين بما دعوا إلى الإيمان به، أو من أول المؤمنين إذا كانوا في الواقع أول من آمن بما دَعَوْا إلى الإيمان به، إذ قد يُوجد من أقوامهم من سَبَقَهُم إلى الإيمان، باعتبار أن ما يدْعُونَ إليه مبني على رسالة سابقة، يُوجد في القوم بَقِيَّةٌ يؤمنون بها، أو هو رسولٌ تابعٌ كهارون مع موسى عليهما السلام.

ونجد في القرآن المجيد أدلة على هذه الحقيقة، فمنها ما يلي:

قول الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ءَأَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾

٢ - ولما كان موسى عليه السلام أول من آمن إيماناً غيبياً كاملاً من قومه قال بعد أن أفاق من صعقته التي صعقها في مُناجاة رَبِّهِ: ﴿سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كما أبان الله عز وجل هذا بقوله في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا بَلَغَ رَبُّهُ لَاجِبَ الْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَوْعًا فَلَمَّا أفاق قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

٣ - وَلَمَّا سَأَلَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ قَائِلًا: «رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى» قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنُ﴾ فقال إبراهيم: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾. «انظر الآية (٢٦٠) من سورة (البقرة)».

فكلُّ داعٍ إلى الله سواءً أكان رسولاً أم تابعاً من أتباع الرسول لا بُدَّ أن يكون من المؤمنين المستوفين للإيمان الصحيح الصادق، وهذا أوَّل شرط من الشروط اللازمة له.

الشرط الثاني: الأداء الفعلي لما يدعو إليه أو ينصح به ويُرشد إليه.

إن التزام الداعي في سلوكه بأداء ما يدعو إليه، والتزام الناصح المرشد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بفعل ما يأمر بفعله، وترك ما ينهى الناس عن فعله شرط أساسي في مفاهيم الناس لتقبُّلهم ما يدعوهم إليه، أو يأمرهم به، أو ينهاهم عنه، وقليلٌ جدًّا من الناس الذين يَفْصِلُونَ بَيْنَ دَعْوَةِ الداعي، أو نُصْحِ الناصح، وبَيْنَ سلوكه الخاص.

إنَّ المخالف في سلوكه لما يدعو إليه أو يأمرُ به أو ينهى عنه بمثابة من يقول للناس بلسان حاله: إنَّ ما أنصَحُكُمْ به ليس ذا قيمة حقيقيَّة، ولو كان ذا قيمة حقيقيَّة لَكُنْتُ من الملتزمين بتطبيق ما أنصَحُكُمْ به.

● ولهذا خاطب الله عزَّ وجلَّ رسوله بقوله تعالى في سورة (هود/ ١١) مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطَّغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلَا تَزَكُّوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمِمَّا كُنتُمْ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾.

● وخاطب الله عزَّ وجلَّ رسوله في سورة (الشورى/ ٤٢) مصحف/ ٦٢ نزول) بعد أن ذكَّر له أنَّه شرع لهذه الأمة من الدين ما وصَّى به الرُّسُلَ

السابقين، وما أوصى به إليه، فقال تعالى له:

﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ...﴾ (١٥)

● ولما كان الالتزام بالصراف المستقيم في التطبيق العملي هو الإسلام التنفيذي، لإعلان الطاعة والإسلام لله في أوامره ونواهيه، قال الله عز وجل لرسوله في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِثْلَ آبَائِهِمْ خَيْرًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٦) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ لَا شَرِيكَ لَّهِ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٧﴾ .

وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ: أي: وأنا أول الذين يعلنون إسلامهم وطاعتهم لله عز وجل، وأول المنفذين لأحكام الإسلام، وتطبيق أوامر الله ونواهيه في سلوكي النفسي والجسدي.

وقال نوح عليه السلام لقومه كما جاء في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿... وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١٧)

أي: من المطبقين لأحكام الدين، فليس لي استثناء خاص من التطبيق.

● وأبان الله عز وجل ميزة من يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم في سلوكه العملي الظاهر والباطن، وأنه خير أقسام الناس، فقال الله عز وجل في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لَرَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٧)

ونفهم من هذا أن الأبكم الذي لا يقدر على شيء هو أعلى منزلة ممن

يَدْعُو إِلَى ضَلَالَةٍ أَوْ يَأْمُر بِالظُّلْمِ وَالْجَوْرِ، وَأَعْلَىٰ مَنْزِلَةً مِنَ الَّذِي يَأْمُر بِالْعَدْلِ
بِلِسَانِهِ فَقَطْ، وَهُوَ مُتَنَكِّبُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فِي عَمَلِهِ، فَأَقْسَامُ النَّاسِ أَرْبَعَةٌ:

١ - دَاعٍ إِلَى ضَلَالَةٍ يَأْمُر بِالظُّلْمِ وَالْجَوْرِ.

٢ - دَاعٍ إِلَى هُدًى يَأْمُر بِالْعَدْلِ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ.

٣ - أَنْبَكُمْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ لَا يَأْتِ
بِخَيْرٍ، فَهُوَ مَعْدُورٌ لِأَنَّهُ نَاقِصُ الْأَهْلِيَّةِ بِالْخَلْقَةِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا، وَهُوَ أَعْلَىٰ
مَنْزِلَةً مِنَ الْقَسَمِينَ السَّابِقِينَ.

٤ - دَاعٍ إِلَى هُدًى يَأْمُر بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ، وَهُوَ كَامِلُ
الْأَهْلِيَّةِ، وَهَذَا أَشْرَفُ الْأَقْسَامِ.

وإيجازاً في التعبير القرآني عُرضتِ القسمةُ فيه ثنائِيَّةً، لأنَّ القسمين
الأولَين ساقطان ببداهة الفكر، ويمكن إدراكهما بالتأمل.

فينبغي أن يكون حامل رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة النصيح
والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متحققاً في سلوكه بما يدعو
إليه، أو ينصح به.

● وقد ذمَّ الله عزَّ وجلَّ علماء اليهود الذين يأمرون الناس بالبرِّ وينسَوْنَ
أَنْفُسَهُمْ، فقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) مخاطباً
عُلَمَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ:

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٤٤﴾

أفلا تعقلون؟: استفهام إنكاري في تلويم وتوبيخ.

● وكتب رسول الله ﷺ كتاباً إلى ملكي عُمان، بعثه مع عمرو بن
العاص رضي الله عنه، جاء فيه:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، من محمد بن عبد الله إلى جَيْفَرَ وَعَبْدِ ابْنِي
الْجَلَنْدِيِّ، سَلَامٌ عَلَيَّ مِنْ اتَّبِعِ الْهُدَى، أَمَا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكُمَا بِدَعَايَةِ
الْإِسْلَامِ، أَسْلِمَا تَسْلِمَا، فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، لِأُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا،
وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَيَّ الْكَافِرِينَ، فَإِنِّكُمَا إِنِ أَقْرَزْتُمَا بِالْإِسْلَامِ وَلَيْتُكُمَا، وَإِنِ أُبَيَّتُمَا
أَنْ تُقِرَّا بِالْإِسْلَامِ فَإِنَّ مُلْكَكُمَا زَائِلٌ عَنْكُمَا، وَخَيْلٌ تَحُلُّ بِسَاحَتِكُمَا، وَتَنْظَهُرُ
نُبُوتِي عَلَيَّ مُلْكِكُمَا».

وَكَتَبَ أَبُو بِنُ كَعْبٍ وَخَتَمَ الْكِتَابَ .

وبعد حوارٍ طويلٍ بينَ عمرو بن العاصِ والمليكينِ الأخوينِ أسلمَا،
وجاء في بعض أخبار إسلامِ مليكِ عُمانَ «جَيْفَرَ» أَنَّهُ قَالَ:

«إِنَّهُ وَاللَّهِ لَقَدْ دَلَّنِي عَلَيَّ هَذَا النَّبِيِّ الْأَمِيِّ أَنَّهُ لَا يَأْمُرُ بِخَيْرٍ إِلَّا كَانَ أَوَّلَ
مَنْ أَخَذَ بِهِ، وَلَا يَنْهَى عَنْ شَرٍّ إِلَّا كَانَ أَوَّلَ تَارِكٍ لَهُ، وَأَنَّهُ يَغْلِبُ فَلَا يَبْطُرُ،
وَيُغْلَبُ فَلَا يَضْجَرُ، وَأَنَّهُ يَفِي بِالْعَهْدِ، وَيُنْجِزُ الْمَوْعُودَ».

فَاسْتَدَلَّ مَلِكُ عُمانَ عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ ﷺ بِتَحْلِيهِ بِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ،
فَاسْتَجَابَ لِدَعْوَتِهِ، كَمَا جَاءَ فِي هَذِهِ الرَّوَايَةِ .

الشرط الثالث: البصيرة بما يدعو إليه أو ينصح به .

البصيرة هي العلم الجلي الواضح بما يدعو إليه أو ينصح به، وهي في
القلب والفكر بمثابة البصر بالنسبة إلى المرئيات الحسية،

وهذا الشرط شرطٌ طبيعيٌّ عقليٌّ بدهيٌّ أيضاً، فمن لم تكن لديه بصيرة،
بما يدعو إليه أو ينصح به، فقد يدعو إلى باطل وهو يحسبه حقاً، وقد يأمر
بالمنكر وهو يحسب أنه يأمر بالمعروف، وقد ينهى عن المعروف وهو يحسب
أنه ينهى عن المنكر .

● وتنبهاً على هذا الشرط قال الله عز وجل لرسوله في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول):

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾.

فدلّت هذه الآية على أن الرسول ﷺ يدعو إلى الله وهو على بصيرة تامة بما يدعوه إليه، أي: على علم جلي واضح لا شبهة فيه، فهو متمكن من هذه البصيرة بمقتضى علوه عليها: ﴿ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾.

ودلّت على أن من اتبع الرسول مُشارك له في الدعوة إلى الله على بصيرة، وهذا يدل على قضيتين:

الأولى: أن كل قدير على أن يمتلك البصيرة بأسس أركان الإيمان فإن عليه أن يسعى أخذاً بأسباب العلم حتى يمتلكها.

الثانية: أن من كانت لديه هذه البصيرة، فإن عليه أن يساهم بنصيب ما في الدعوة إلى الله، في أي مجال من مجالات أنشطته في الحياة.

* * *

- ١ -

نظرة إجمالية

إلى صفات المرشح لأن يكون إماماً للمتقين

جاء في القرآن المجيد بيان صفات المرشح لأن يكون إماماً للمتقين،
بأنه ينبغي أن يكون من عباد الرحمن، وأن يتحلّى بصفات عباد الرحمن، التي
من ضمنها دُعاؤه ربه أن يجعله للمتقين إماماً.

وعباد الرحمن المرشحون لأن يكونوا أئمةً للمتقين يجب أن يتحقّقوا

بأمرين:

الأمر الأول: أن يكونوا مُستوفين لكلّ حقوق مرتبة التقوى، ويكون
استيفاء هذه الحقوق بالتزامهم بأداء الواجبات وترك المحرّمات، وإذا وقعت
منهم خطايا فعليهم أن يتداركوا أنفسهم بما يُكفّرُها أو يَمْحُوها، وذلك بإتباع
السيئات بالحسنات، وبالتعوّض بنوافل الطاعات والقُرْبَات، وبالاستغفار
والتوبة والندم.

والتزامهم بحقوق مرتبة التقوى يُوصِلُهم إلى أعلى درجات مَرْتَبَةِ

المتقين.

الأمر الثاني: أن يرتقوا فوق مرتبة التقوى بالقيام بأعمال صالحة هي من

مرتبة البرّ أو مرتبة الإحسان.

فأعمال البرّ هي من قبيل التوسّع في الصالحات من الشّنن والمندوبات ونوافل القُرْبَات من أفعال الخير التي تُطلَب من المتقين على سبيل التطوُّع، لا على سبيل الإلزام.

وأعمال الإحسان هي من قبيل زيادة إتقان الأعمال الصالحة بسبب شدّة مُرَاقِبَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عند أداء العمل الصالح، حتّى كأنّ العامل يرى الله عَزَّ وَجَلَّ وهو يؤدّي من أجله عمله، إذ يَسْتَضِحُّ مع عمله الصالح الشُّعُورَ في داخل نفسه بأنّ الله عَزَّ وَجَلَّ يراهُ دوماً، وهو حاضرٌ معه دوماً، لا تغيبُ عنه حَرَكَتُهُ ظاهرة ولا حركةٌ باطنة، حتّى ما يمرُّ في خواطر الفكر وحركات النفس ومشاعرها.

وقد جاء في القرآن المجيد لدى بيان صفات عباد الرحمن المرشحين لأن يكونوا أئمة للمتقين، ذكُرُ الصفات المطلوبة التي هي من حقوق مرتبة البرّ، أو مرتبة الإحسان، وذكُرُ بعض الصفات المهمة التي هي من حقوق مرتبة التقوى، للإشعار بأنّ الارتقاء إلى منزلة عباد الرحمن بأعمال البرّ والإحسان التي يرتقي بها العبد المؤمن في درجات الأبرار والمحسنين، لا بُدَّ أن يكون بعد الارتقاء في درجات مرتبة التقوى، فاستيفاء حقّ المرتبة الأدنى شَرْطٌ طبيعيٌّ للارتقاء إلى المَرْتَبَةِ التي فَوْقَهَا.

إنّ مرتبة المتقين ذاتُ درجاتٍ كثيرات، تبدأ بالإيمان الصحيح، وترتقي الدرجات حتى درجة أداء كلّ الواجبات، وترك كلّ المحرمات، ولا يهبط عن أعلى درجاتها من أحلّ ببعض حقوقها أحياناً إلاّ أنّه تدارك نفسه بالتكفير أو المحو أو التعويض كما سبق بيانه.

ومرتبة الأبرار ذات درجاتٍ كثيرات أيضاً، ويكون الارتقاء في درجاتها بالتوسّع في أعمال الخير المشروعة التطوعيّة، التي يتقرّب بها العبد إلى ربّه بمراضيه.

ومرتبة المحسنين ذات درجات كثيرات أيضاً، ويكون الارتقاء في درجاتها بمقدار تحقيق الإحسان في الأعمال التي هي من مرتبة المتقين، والأعمال التي هي من مرتبة الأبرار، والإحسان في العمل قد شرحه الرسول ﷺ بقوله في الحديث الصحيح: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» وقد سبق آنفاً تحليله.

فكل ما يُطلب على وجه الإلزام من المتقين مطلوب من عباد الرحمن المرشحين لأن يكونوا أئمة للمتقين.

ثم عليهم بعد ذلك أن يتحققوا بصفات أخرى ذكرها الله عز وجل أوصافاً لعباد الرحمن، وهي من مرتبة البر، أو مرتبة الإحسان.

- ٢ -

نظرة تفصيلية

إلى صفات المرشح لأن يكون إماماً للمتقين

الصفات التي ذكرها الله عز وجل لعباد الرحمن المرشحين لأن يكونوا أئمة للمتقين تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: صفات متغلغلة في عمق النفس.

القسم الثاني: صفات في السلوك الظاهر.

● أما الصفات المتغلغلة في عمق النفس فهي ثلاث:

الصفة الأولى: الإيمان بالرحمن إيماناً صحيحاً صادقاً متتامياً، ومعلوم أن مقداراً من هذه الصفة هو من مطلوبات مرتبة التقوى، أما المقادير الزائدة فوق حدود حقوقها فهو من مرتبة البر، أو من مرتبة الإحسان، والمطلوب من المرشح لأن يكون من عباد الرحمن وإماماً للمتقين أن يكون إيمانه زائداً على مطلوبات مرتبة التقوى.

والمذهب الحق أن الإيمان يزيد وينقص، وله مقدارٌ هو من مطلوبات مرتبة التقوى، فإذا زاد دخل في درجات مرتبة البرّ، فدرجات مرتبة الإحسان.

الصفة الثانية: صدق التوكل على الرحمن، مع القيام بالأسباب التي أمر الله عزّ وجلّ باتخاذها.

ولهذه الصفة درجات دنيا هي من حقوق مرتبة التقوى، أما الدرجات العليا فهي من حقوق مرتبة البرّ أو مرتبة الإحسان، والمطلوب من المرشح لأن يكون من عباد الرحمن وإماماً للمتقين، أن يكون توكله على الرحمن من مستوى الدرجات العليا.

وقد دلّ على هاتين الصفتين قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (المُلْك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول) خطاباً للرسول فلكلّ داعٍ إلى الله من أمته، في تعليم جدليّ يجادل به الداعي إلى الله الكافرين المعاندين:

﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

أي: أمناً به إيماناً عظيماً متامياً، وتوكلنا عليه توكلًا عظيماً لا يتزلزل. الصفة الثالثة: خشيةُ الرحمن بالغيب، وهذه الصفة ثمرةٌ من ثمرات الإيمان القويّ المائل في التصوّرات ذات الأثر في حركة النفس ومشاعر القلب.

ومن آثار خشية الرحمن بالغيب، أن يكون العبد المؤمن أواباً إلى الله بالتوبة والتّدم، واتباع السيئة الحسنّة، عند كلّ معصية أو مخالفة، حفيظاً على التزام حدود الله وفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه.

وقد دلّ على هذه الصفة قول الله عزّ وجلّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿ وَأَزَلَفْتِ الْهَنَةَ لِلْمُتَّقِينَ عَمَّ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

والأواب الحفيظ لا تنزل درجته عن أعلى درجات المتقين، ولا بد أن يكون من المتطوعين بالنوافل ومن المحسنين أحياناً، فهو سالك في أعمال عباد الرحمن من مرتبتي الأبرار والمحسنين.

* * *

● وأما صفات عباد الرحمن المرشحين لأن يكونوا أئمة للمتقين في السلوك الظاهر، فهي اثنتا عشرة صفة جاء بيانها في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) وبعض هذه الصفات هي من حقوق مرتبة التقوى، وقد ذكرت ضمن الصفات التي هي من حقوق مرتبة البر، أو من حقوق مرتبة الإحسان للإشعار كما سبق بيانه بأن حق المرتبة الأدنى شرط طبيعي للارتقاء إلى المرتبة التي فوقها.

وفيما يلي ذكر مفصل لهذه الصفات دون شرح موسع، لأنني شرحتها في رسالة مفردة بعنوان: «صفات عباد الرحمن في القرآن - دراسة في طريق التفسير الموضوعي» وفي كتابي: «تدبر سورة الفرقان في وحدة موضوع» فأحيل عليهما، ولا داعي إلى إعادة الشرح في هذا الكتاب.

الصفة الأولى: أَنَّهُمْ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا، أي: يمشون على الأرض لتحقيق مطالبهم من الحياة بخفة ورفق وسكينة ووقار، فهم لا يمشون بعنفٍ، ومرحٍ، وبطرٍ، وتبختُرٍ، وتعاضمٍ، وضربٍ على الأرض، وتطاؤلٍ في السماء، ولا يسعون في الأرض فساداً، أو طلباً للعلو فيها، والاستئثار بحظوظها الفانية، ولا يطلبون معاشهم بالسعي الحثيث، بل بالمشي هوناً برفق.

ولدى التحليل نلاحظ أن بعض ما يخالف هذه الصفة هو من منافيات

حقوق مرتبة التقوى، كمشية المستكبرين البَطْرِين، وكمشية الساعين في الأرض فساداً، وكمشية أهل الفسق والفجور، فهي مَشِيَاتٌ محرّمات تنافي التقوى .

ونلاحظ أنّ بعض ما يخالف هذه الصفة هو من منافيات حقوق مرتبة البرّ، فالخَفَقُ في الأسواق بسَعْيِ حثيث وهمة مُجْهِدَةٍ لطلب معاش الحياة الدنيا لا ينافي أحوال المتقين، لكنّه ينافي أحوال الأبرار والمحسنين .

فاستكمال صور هذه الصفة هو من حقوق مرتبة البرّ، أو من حقوق مرتبة الإحسان، وهذا الاستكمال هو من صفات عباد الرحمن المرشّحين لأن يكونوا أئمةً للمتقين .

الصفة الثانية: أَنَّهُمْ إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا، أي: إذا خاطبهم الجاهلون بجهالةٍ وسَفَهٍ مستثيرين غَضَبَهُمْ، قالوا لهم: سلاماً، أي: نُسَلِّمُ سلاماً، ويفارقون بإعلان السلام مجلس الجاهلين، ولا يردّون على الجهالة بمثلها، بل يضبطون أنفسهم بالصبر والحلم وسعة الصدر .

وهذه الصفة هي من حقوق مرتبة البرّ، أو مرتبة الإحسان، لأنّ ردّ الأذى بمثله لا يُنافي حقوق مرتبة التقوى، إذ هو من العدل، ولكنّه لا يكون من صفات عباد الرحمن المرشّحين لأن يكونوا أئمةً للمتقين .

إنّهم يقطعون على الجاهلين طريق الفتنة والشّرّ، ويُطفئون الشرارة الأولى التي لو قُوْبِلَتْ بمثلها لكانت ناراً متأججةً قد تجرّ إلى قتالٍ كبير، وشرٌّ مُستطير .

الصفة الثالثة: أَنَّهُمْ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجْدًا وَقِيَامًا، أي: يجعلون قسماً من ليلهم لعبادة ربّهم، يتهجّدون بكثرة السجود لله وحده، وكثرة القيام لله وحده، ذاكرين الله عزّ وجلّ بألستهم، وقلوبهم، وأفكارهم، يُمجّدونه، ويحمّدونه، ويُسَبِّحونه، ويقدّسون له، ويسألونه خوفاً وطمعاً، يخشون عذابه، ويرجون ثوابه .

وهذه الصفة هي من حقوق مرتبة البرّ أو مرتبة الإحسان، لأنّ قيام اللّيل وإحياءه بعبادة الله في الصلاة والذكر هو من نوافل القُرْبَات، وليس من الواجبات، فهو من صفات عباد الرحمن المرشّحين لأن يكون أئمةً للمتقين .

الصفة الرابعة: أنّهم يقولون في دعائهم لربّهم الذي يكرّرونه: رَبَّنَا اضْرِبْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ، أَي: وَقَفْنَا لِأداء الواجبات وترك المحرّمات، واغْفِرْ لَنَا خطايانا ودُنُوبنا حتّى تَحْمِينَا بِذلك من عذاب جهنّم .

ويظهر أنّ هذه الصفة هي من حقوق مرتبة التقوى، إذ يكفي للحماية من عذاب جهنم أن يَسْتَوْفِيَ المؤمن حقوق هذه المرتبة، وقد علمنا أنّ كلّ حقوق هذه المرتبة هي من صفات عباد الرحمن، لأن حق المرتبة الأذنى شرط طبيعيٌّ للازْتقاء إلى المرتبة التي فوقها .

الصفة الخامسة: أنّهم إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وكان بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا، أَي: إِنْهُمْ يُنْفِقُونَ باعتدال فلا يُسْرِفُونَ في الإنفاق على أنفسهم وأهليهم، ولا يُضَيِّقُونَ مع استطاعتهم أن يوسّعوا على أنفسهم وأهليهم، وهذا من عقلهم وإدارتهم الاقتصادية الحكيمة .

وهذه الصفة هي من حقوق مرتبة البرّ أو مرتبة الإحسان، لأنّ الإسراف في المباحات بمقدارٍ لا يَصِلُ إلى حدّ التبذير الذي هو سِمةُ إخوان الشياطين قد لا يتنافى في كثير من صوره مع واجبات التقوى، فالحكمة الاقتصادية في الإنفاق هي من صفات عباد الرحمن المرشّحين لأن يكونوا أئمةً للمتقين .

الصفة السادسة: أنّهم لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، أَي: لا يسألون في دعائهم غير الله، ولا يَعْبُدُونَ في عباداتهم إلّا الله وحده، فلا يشركون بعبادته شيئاً .

وهذه الصفة هي أولى حقوق مرتبة التقوى، والإخلال بها ينقض

الإيمان، ويُدخل في الكفر، لأن الله عز وجل لا يغفر أن يُشركَ به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

وقد سبق أن علمنا أن كلَّ حقوق مرتبة التقوى هي من صفات عباد الرحمن المرشحين لأن يكونوا أئمةً للمتقين، وذكرُ هذه الصفة يُشعرُ بأن أئمة المتقين قد يتعرَّضون لضغوط سُلطانية أو غيرها تجعلهم يُخلون بمقتضيات هذه الصِّفة مداراةً أو خوفاً على مناصبهم، فكان من الحكمة التَّنبيهُ عليها .

الصفة السابعة: أَنَّهُمْ لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ .

ومعلومٌ أن هذه الصفة هي من كبريات حقوق مرتبة التقوى، فقتل النفس التي حرّم الله قتلها من الكبائر العظمى، وقد علمنا أن كلَّ حقٍّ من حقوق مرتبة التقوى هو من صفات عباد الرحمن المرشحين لأن يكونوا أئمةً للمتقين .

وذكر هذه الصفة ضمن صفات عباد الرحمن يُشعرُ بأن أئمة المتقين قد يتعرَّضون لضغوطٍ سُلطانية أو غيرها تجعلهم يخلون بمقتضيات هذه الصفة، كأن يُفتوا بإهدار دَمٍ مُعَارِضٍ للسُلطانٍ معارضةً لا تقتضي إهدار دمه، فتكون فتواهم مشاركةً في القتل الذي حرّمه الله، وإنما أفتوا مداراةً للسُلطان أو خوفاً على مناصبهم .

وقد يَفْتِنُهُمْ ما هم فيه من سلطانٍ فَيَقْتُلُونَ مناصبهم فيه بغير حقٍّ، لِيَسْلَمَ لَهُمْ سُلْطَانُهُمْ .

الصفة الثامنة: أَنَّهُمْ لَا يَزْنُونَ، ومعلومٌ أن هذه الصفة هي من كبريات حقوق مرتبة التقوى، وكلَّ حقٍّ من حقوق مرتبة التقوى هو من صفات عباد الرحمن المرشحين لأن يكونوا أئمةً للمتقين .

وذكر هذه الصفة ضمن صفات عباد الرحمن، يُشعرُ بأن أئمة المتقين

وهم في مناصبهم قد يتعرّضون لفتنة قويّة من قبل بعض النساء، فتنهأز معها
مقاومتهم، فيزنون، فكان من الحكمة التّنبية عليها.

ونحن نعلم أنّ لأئمة الضلال مكرّاً كُباراً يتخذونه لإغواء أئمة المتقين،
حتى يُسايروهم أو يُغضوا الأنظار عنهم.

الصفة التاسعة: أنّهم لا يشهدون الرّور، أي: لا يشهدون شهادة كاذبة،
فالزور الكذب والباطل، ولا يحضرون في مجلس يتم فيه أمرٌ باطلٌ غير
مشروع ليكونوا شهداء عليه، كعقد ربا، وكقسمة جائرة.

وهذه الصفة هي من كبريات حقوق مرتبة التقوى، وذكرها ضمن
صفات عباد الرحمن المرشحين لأن يكونوا أئمة للمتقين، يُشعر بأن أئمة
المتقين وهم في مناصبهم في القضاء أو في الإفتاء قد يتعرّضون لفتنة قويّة
تجعلهم ينزلون فيشهدون شهادة زور، أو يقبلون شهادة زور وهم يعلمون
بطلانها، أو يحضرون مجلساً يتم فيه أمرٌ باطلٌ غير مشروع ليكونوا شهداء
عليه، فكان من الحكمة التنبية على هذه الصفة.

الصفة العاشرة: أنّهم إذا مرّوا باللغو مرّوا كراماً.

اللغو كلّ ما ينبغي أن يُلغى ويُترك، لعدم تحصيل فائدة منه دنيوية أو
أخروية.

إنّ عباد الرحمن المرشحين لأن يكونوا أئمة للمتقين إذا مرّوا باللغو
مرّوا وهم كرامٌ في نفوسهم، يكرّمونها عن أن تضيع أوقاتهم في اللغو، سواء
أكان قولاً أم عملاً، إنهم يُدركون قيمة الوقت، ويعلمون أنّ الزمن الذي يمرّ
عليهم هو رأس مالهم في هذه الحياة، مع ما وهبهم الله من طاقات جسدية
وفكرية ونفسية، فإذا سمّحوا لأوقاتهم أن تضيع في اللغو الذي لا فائدة منه
لديناهم أو أخراهم، فقد بدّدوا من رؤوس أموالهم بمقدار الزمن الذي أنفقوه
في اللغو، وهم يعلمون أنّ الخسارة التي يخسرونها بذلك لا تعوّض.

وهذه الصفة هي من حقوق مرتبة البرّ أو مرتبة الإحسان، إذ اللغو الذي لا تُتْرَكُ بسببه واجبات، ولا تُزْتَكَبُ بسببه مُحْرَمَاتٌ، لا يَتَنَافَى مع حقوق مرتبة التقوى، لكنّ عباد الرحمن المرشحين لأن يكونوا أئمة للمتقين يَتَرَفَعُونَ عن إضاعة أوقاتهم في اللغو، وإذا مَرُّوا به مَرُّوا كِرَاماً، أي: مَرُّوا مُروراً عارضاً وسريعاً، فهم لا يطيلون المقام فيه، لأنهم حريصون على أوقاتهم أن تضيع بلا فائدة لآخرتهم أو لدنياهم.

الصفة الحادية عشرة: أَنَّهُمْ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْزُوا عَلَيْهَا ضُمًّا وَعُْمِيَانًا.

أي: هم إذا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ تَذَكَّرُوا وَتَدَبَّرُوا، وَخَرُّوا لَهِجَةً سَجْدًا، وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ، غَيْرِ مُسْتَكْبِرِينَ، مع حضورٍ فكريٍّ بمعاني آياتِ الله التي ذُكِّرُوا بِهَا، وَلَا يَخْزُونَ عَلَيْهَا كَمَا يَفْعَلُ الْغَافِلُونَ وَالْمُنَافِقُونَ خُرُورًا شَكْلِيًّا، لَا مِنْ أَعْمَاقِ قُلُوبِهِمْ وَنَفُوسِهِمْ، إِذْ تَكُونُ أَفْكَارُهُمْ وَتَصَوُّرَاتُهُمْ مَنْصَرَفَةً عَنْ آيَاتِ اللَّهِ وَمَا فِيهَا مِنْ دَلَالَاتٍ، مَنْشَغَلَةٌ لِأَهْيَةِ بِشُؤْنِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَاعِهَا وَلذَاتِهَا وَمَطَامِعِهَا، فَهَمُّ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ الْمَشْهُودَةِ بِمِثَابَةِ الْعُمِّيِّ، وَعَنْ آيَاتِ اللَّهِ الْمَتَلُوَّةِ بِمِثَابَةِ الضَّمِّ.

أمّا عباد الرحمن المرشحون لأن يكونوا أئمة للمتقين فإنهم إذا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ خَرُّوا سَاجِدِينَ لِلَّهِ سَامِعِينَ وَاعِينَ، مَبْصِرِينَ مَتَفَكِّرِينَ.

وهذه الصفة في مستوياتها المرتفعة هي من حقوق مرتبة البرّ، أو مرتبة الإحسان.

الصفة الثانية عشرة: أَنَّهُمْ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِقَوْلِهِمْ: رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا.

فعبادُ الرحمن المرشحون لأن يكونوا أئمة للمتقين يَهْتَمُّونَ بِأَنْ يَدْعُوا

رَبِّهِمْ بِدَعَاءِ ذِي شَقِيْنِ :

الشَّقَّ الْأَوَّلُ: أَنْ يَهَبَهُمُ اللَّهُ قُرَّةَ أَعْيُنٍ مِنْ أَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، وَهَذَا لِذُنْيَاهُمْ، ثُمَّ يَكُونُ لَهُ امْتِدَادٌ إِلَى أُخْرَاهُمْ، وَإِنَّمَا يَكُونُونَ قُرَّةَ أَعْيُنٍ لَهُمْ فِي أُخْرَاهُمْ إِذَا كَانُوا مُتَّقِينَ أَوْ أَبْرَارًا أَوْ مُحْسِنِينَ.

الشَّقَّ الثَّانِي: أَنْ يَجْعَلَهُمُ اللَّهُ لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا، وَهَذَا لِأَخْرَاهُمْ، أَي: أَنْ يُعَيِّنَهُمْ وَيُوقِّفَهُمْ لِلْقِيَامِ بِاسْتِيفَاءِ حَقُوقِ مَرْتَبَةِ التَّقْوَى، وَالْقِيَامِ بِأَعْمَالِ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ، حَتَّى يَكُونُوا أُمَّةً لِلْمُتَّقِينَ، يُقْتَدَى بِهِمْ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، وَأَنْ يُوقِّفَهُمْ لِلْإِخْلَاصِ فِي أَعْمَالِهِمْ حَتَّى تَكُونَ مَقْبُولَةً عِنْدَهُ.

فَعَلَى فِئَةِ الْمُتَخَصِّصِينَ لِلْقِيَامِ بِرِسَالَةِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لِلْقِيَامِ بِرِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى دِينِ اللَّهِ، أَنْ يَتَحَلَّوْا بِالصِّفَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِعِبَادِ الرَّحْمَنِ، إِذْ وَضَعُوا أَنْفُسَهُمْ فِي مَوْضِعِ أُمَّةِ الْمُتَّقِينَ النَّاصِحِينَ الْمُرْشِدِينَ بِأَقْوَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ.

* * *

الفصل الخامس

وجوب تحلي حامل الرسالة بالأهلية البيانية

وفيه ثلاث فقرات :

- ١ - وظيفة البيان في حياة الإنسان .
- ٢ - الكلام ذو وجوه كثيرة مختلفة وأساليب شتى .
- ٣ - البيان المطلوب من حامل الرسالة . وهو يشتمل على ذكر الصفات التي ينبغي أن يتحلّى بها الداعي ، ليكون ذا بيان مؤثر نافع .

وظيفة البيان في حياة الإنسان

البيان بالكلمة التي ينطق بها اللسان، أو يكتبها القلم، وقد شاع عند أهل اللغة دلالتها الاصطلاحية على المعنى المراد بها، هو من نعم الله الجليّة على الناس، إذ جعله أيسر وأوسع وسائل التعبير عن الأفكار، وعن صور الأشياء في الذهن، وعن المعاني المجردة، وعن الإحساسات والمشاعر الظاهرة والباطنة.

فالبيان بالكلمة بمثابة الجسر الذي يوصل ما تدلُّ عليه في ذهن أو نفس المُعبِّر إلى ذهن أو نفس المتلقّي، ولو تباعدت بينهما المسافات المكانية والزمانية، فيُدرك المتلقّي المراد من كلام متكلّم يعلم لغته التي عبّر بها، ولو كان في أبعد الأرض عنه، أو في أبعد الأزمان الخوالي عنه، إذا سمع ما نطق به، أو قرأ ما كتبه.

هذه الوسيلة التعبيرية سواءً أكانت منطوقة أم مكتوبة هي من أهم وأوسع وسائل تبليغ رسالة الداعي، إلى من يُراد تبليغه إيّاها، وتبليغ رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح والإرشاد إلى من هي مُوجهة له.

وقد امتنَّ الله عزّ وجلّ على الإنسان بأنّه علّمه البيان، لما يؤدّيه البيان المنطوق والمكتوب من نشر العلوم والمعارف وتدوينها، وتعبير الناس عما يختلج في نفوسهم وأفكارهم وأذهانهم وإحساساتهم ومشاعرهم مما يريدون

إعلام الآخرين به، لغرض من أغراضهم في الحياة، فقال الله عز وجل في أول سورة (الرَّحْمَنُ/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾ .

وامتنن الله عز وجل على الإنسان بأنه هداه إلى كتابة الرموز الدالة على الكلام المنطوق بالقلم، فكان القلم من أجل وسائل تدوين العلوم وتناقلها عبر الأجيال، فقال الله عز وجل في سورة (العلق/ ٩٦ مصحف/ ١ نزول) خطاباً للرسول محمد ﷺ ولكل فرد من أمته:

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٦ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٧ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٨﴾ .

والبيان الكلامي هو وسيلة خطاب الله لعباده عن طريق المبلغين من رُسُلِهِ، وهذا الخطاب قد اشتمل على الإقناع والتشجيع والموعظة الحسنة بالترغيب تبشيراً، والترهيب إنذاراً، وقد جاءت هذه العناصر البيانية بأسلوب الحديث من مُحَدِّثٍ هو الرَّبُّ جَلَّ وَعَلَا، ومُتَحَدِّثٍ إليه هو الْعَبْدُ الَّذِي أَوْجَدَهُ رَبُّهُ وهو يحيا بهباتِ رَبِّهِ له، وإمداده إياه لحظةً فلحظةً بالحياة وأسبابها، ولو كان هذا العبد جاحداً كافراً برَّبه أبقاً عن طاعته .

ولمَّا كَانَتْ هذه العناصرُ البيانيةُ قد جاءت بأسلوب الحديث الذي هو خَيْرُ وسائلِ التبليغِ وأكْرَمُهَا لمخلوق وضعه خالقه في الحياة الدنيا موضع الامتحان، ومنَحَهُ الحريةَ في أن يؤمن أو يكْفُرَ، ويُطِيعَ أو يَعْصِي، كان من دقة البيان أن يُعَبِّرَ اللهُ عز وجل عن كلامه الذي تَضَمَّنَ الدلالةَ عليها بأنه حديثٌ منه لعباده، وقد جاء هذا في قرابة عشرة نصوص قرآنية، فمنها ما يلي:

١ - قول الله عز وجل في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٢ نزول) خطاباً

لرسوله:

﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٢﴾ ﴾

أي: فدعني مع من يكذب الآن ومستقبلاً، بهذا القرآن الذي أنزله بأسلوب حديث الداعي المعلم الناصح المرشد الذي يُقدِّم الإقناع بالحكمة، والاستعطاف بالموعظة الحسنة المشتملة على الأخبار التبشيرية، والأخبار الإنذارية.

سنستدرجهم فيما هم فيه من مالٍ ونعمةٍ وقوةٍ، من حيث لا يعلمون أنهم مُستدرجون.

وأُملي لهم بتطويل مدة اختبارهم حتى لا يبقى لهم عذرٌ يعتدرون به يوم الحساب والجزاء.

إن كيدي الذي أنزله بهم يوم أصب عليهم سوط عذابي متين قوي لا يستطيعون مقاومته.

٢ - وقول الله عز وجل في سورة (النجم/ ٥٣/ مصحف/ ٢٣ نزول) خطاباً لمنكري أن القرآن كلام الله، الذين قدّموا إنكارهم بأسلوب التعجب الذي يستثير ضحكهم:

﴿ أَفَمَنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجَّبُونَ ﴿٥١﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْتُمْ سَمِعْتُمْ ﴿٥٣﴾ ﴾

أي: إن الذي يُثير التعجب والضحك حقاً هو حالكم، إذ تعجبون وتضحكون من هذا الحديث الموجه لكم في آيات القرآن، وهو يشتمل على حقائق وإقناعات وإرشادات ونصائح وبشارات وإنذارات فيها الخير العظيم لكم في دنياكم وأخراكم.

سامدون: لأهون لاعبون - ساهون غافلون - مشغلون بالغناء - متكبرون بطرون أشرون - قائمون جامدون لا تتأثرون - أغبياء - متحيرون.

وكلّ هذه المعاني مرادة، لأنّ المخاطبين كانوا جماعات ذوات أحوال مختلفات، وكلُّ واحدٍ منهم له وصفٌ من هذه الأوصاف.

٣ - وقول الله عزّ وجلّ في آخرِ سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) التي اشتملت على بيانات إقناعية إنذارية تخلع قلوب أولي الألباب:

﴿فِي أَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾.

وقد جاءت هذه العبارة في الآية (١٨٥) من سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) أيضاً.

٤ - وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا نَقَشِعُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ ۗ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَآلَهُمْ مِنْ هَادٍ﴾.

فوصف الله عزّ وجلّ كتابه القرآن بأنّه أحسن الحديث.

إلى سائر النصوص التي جاء فيها وصف خطاب الله لعباده بالقرآن بأنّه من نوع الحديث، إذ أنزله الله عزّ وجلّ بأسلوب الحديث، لا بأسلوب قراراتٍ سلطانية، أو بلاغات عسكرية، أو شتائم عدوانية، أو إنذاراتٍ حربية، أو نحو ذلك، وفي الحديث تكريم عظيم لمن يوجّه له من ربّ كريم.

- ٢ -

الكلام ذو وجوه كثيرة مختلفة وأساليب شتى

المعنى الواحد ولو كان حقاً لا شكّ فيه، يُمكن التّعبير عنه بوجوه مختلفة وأساليب من القول شتى، منها الحسن اللين المقبول، ومنها دون ذلك، حتى دركة أقبح القبيح المنفر المذموم.

فيمكن أن تقول عن ذي العين الواحدة: هو أعور، أو إحدى عينيه عمياء .
ويمكن أن تقولَ عنه: هو يرى بعين واحدة، وأن تخاطبه بقولك: سلّم
الله عينك المبصرة. أو بقولك: إنك ترى بعينك المبصرة ما لا يراه ذو عينيّن
مبصرتين. أو بقولك: حافظْ على عينك السليمة فهي ميراثك من البصر. أو
بقولك: لو سلّمتَ عينك لأرئتنا الأعاجيب.

ويأتي أديب فيقول له: وجهك كالسما في النهار، أي: ليس فيها إلا
عين واحدة قويّة الإبصار فهي كالشمس.

إلى غير ذلك من تَغْيِيرَاتٍ لا حصر لها.

● ويمكنُ أن تقولَ: جاءني السّاقى بكأس نصفها فارغ، فتلفتُ النظرَ
إلى النصفِ الفارغِ منها.

يمكن أن تقول: جاءني بكأسٍ قد ملأ لي نصفها، فتلفت النظر إلى
النصف الممتلئ منها.

● وقدم أحدُ طلابِ الداسات العليا بحثاً قرأه لأستاذه بحضور زملاءه،
فلم يشأ الأستاذ الحكيم أن يصدّم مشاعر كاتب البحث بما يجرحه بعنف،
فقال له: لك أجرٌ واحد، مشيراً ضمناً إلى قول الرسول ﷺ: «إِذَا اجْتَهَدَ
الْمُجْتَهِدُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ».

● واستدعى أحد الملوك معبّرَ أخلام فقال له الملك: رأيت في حلمي
أن أسناني كلّها قد سقطت من فمي، فما تأويل هذا الحلم عندك؟!!

قال المعبر بسداجة: يموتُ كلُّ أهلِكَ الذين يجمعهم بيتك، فالأسنانُ
الأهلُ والأقارب، والفم: البيت الجامع لهم.

فغضب الملك وأمر بأخذه إلى السّجن وضربه، واستدعى معبّراً آخرَ،
فقصّ عليه رؤياه، وسأله عن تعبيرها.

فقال هذا المعبر: يا سيدي يطولُ عُمرُكَ في حياتك أكثر من كلِّ أهلك
الذين يجمعهم بيتك .

فابتهج الملك ومنحه كيساً من الذهب، وأذن له بالانصراف، ثم قال
لحاشيته: تعبير هذا للرؤيا لا يختلف عن تعبير المعبر الأول، إلا أن أسلوب
عبارتيهما هو الذي اختلف، فالأول ساءني إذ أخبرني بموت أهلي، فاستحق
السجن والضرب، وهذا قد سزني إذ بشرني بطول عمري أكثر من كلِّ أهل
بيتي، فاستحقَّ الثناء والمكافأة .

● والأمر بالمعروف الناهي عن المنكر، يمكن أن يخاطب الفساق
العصاة المرفين على أنفسهم فيقول لهم:

يا معشر الفسقة الزناة الكذابين الخونة الآكلين لأموال الناس بالباطل،
إنكم ستلقون عذاب الله في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة، ما لم تتوبوا إلى
بارئكم وتكفروا عن معاصيكم .

ويمكن أن يخاطبهم بقوله:

يا أيها الذين آمنوا وبايعوا على الإسلام لله عز وجل في أوامره
ونواهيه، إياكم والزنا والكذب والخيانة وأكل أموال الناس بالباطل، فإنها
مهالك، وما بال أقوام يفعلون هذه الكبائر، ألا يخشون عذاب الله المعجل
في الدنيا وعذابه الأليم المؤجل إلى يوم الدين؟! !!

فالأسلوب الأول منقر، والأسلوب الثاني جذاب مؤثر .

من هذه الأمثلة نذكر أن الكلام ذو وجوه مختلفة، وأساليب من البيان
شتى .

١ - فمنه ما هو سهل الفهم مبين، ومنه ما هو صعب شديد الكثافة
غير مبين، ومنه ما هو وسط بينهما، وهو في هذا على درجات متفاوتات .

٢ - ومنه ما هو جميل محبب للنفوس، ومنه ما هو دون ذلك، حتى
دركة الكلام القبيح المنقر الذي تسمتت منه النفوس، وتقررت منه الطباع

وللكلام في مستويات الجمال والقبح درجات ودَرَكَات متفاوتاتٌ كثيرات .

٣ - ومن الكلام ما هو لَيِّنٌ، رَفِيقٌ، رَقِيقٌ، لَطِيفٌ، يَسْتَعْطِفُ القلوب والنفوس، وله في هذا درجات متفاوتات .

ومنه ما هو خَشِنٌ جافٍ جارحٌ يؤذي ويشير الغضب، وله في هذا دركاتٌ متنازلات .

٤ - ومن الكلام ما هو مُزَيَّنٌ بعناصر جماليةً أدبيةً، وله في هذا درجات متفاوتات .

ومنه ما هو خالٍ من أيِّ عنصر جمالي .

٥ - ومن الكلام ما هو مُعَقَّدٌ ركيكٌ ممجوج، ومنه ما هو سويُّ البناء والتركيب، ملتزمٌ بضوابط الكلام الفصيح البليغ .

٦ - ومن الكلام ما يُؤدِّي المعنى بصورة مباشرة، ومنه ما يُؤدِّيه بصورة غير مباشرة، كأن يُساق المعنى مُغَطَّىً بستور رقيقة أو كثيفة، أو يُساق بصورة متوارية، وقد يصل إلى حدِّ الغموض، أو الرَّمْزِيَّةِ إذا كثرت السُّتُورُ الفكرية، أو كثر التواري وابتعدت المسافة^(١) .

ومن الخيرِ دوماً أَنْ يُخْتَارَ من وجوه الكلام ما هو أكثر تأثيرات، ونافعاً ومفيداً في نَفْسٍ من يُوجَّهُ له الخطاب، أو يكونُ هو المقصود به، ولو لم يُوجَّهْ له بصورة مباشرة .

وحامل رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مُطَالَبٌ إلزاماً بهذا، حتَّى تُؤدِّي رسالته

(١) يحسن بالقارئ الرجوع إلى كتابي «مبادئ في الأدب والدعوة» فقد بسطت فيه وجوه الكلام بَسْطاً يُفِيدُ حاملَ رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والرجوع أيضاً إلى كتابي: «البلاغة العربية» .

وظيفتها النافعة، وحتى لا يكون في أدائه لها مُتَفَرِّقاً، وذا تأثير ضارٍّ مُضَادٍّ لما هو مَرْجُوٌّ من أدائه رسالته .

- ٣ -

البيان المطلوب من حامل الرسالة

حامل رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح والإرشاد يُطَلَبُ منه في بيانه أن يكون مُتَحَلِّياً بِعِدَّةِ صفات :

الصفة الأولى: أن يكون حريصاً على التأثير النافع في نفس وفكر من يُوجِّه له رسالته، فلا يختار من البيان ما يَعْسُرُ عليه فهمه، ولا يَسْتَطِيعُ استيعابَ معناه، ولا يَخْتَارُ من أساليب البيان ما يُتَفَرِّقُهُ وَيُبْعِدُهُ عن دين الله وصراطه المستقيم، بل يختار من البيان ما يَسْهُلُ عليه فهمه، وَيَسْتَطِيعُ استيعابَ معناه، ويختار من أساليب البيان ما يجذبُه ويملك قلبه ونفسه وَيُمْتَعُ فِكْرَهُ ويخلو لديه، ومن ذلك اختيار القول اللين، والموعظة الحسنة، التي تبلغ إلى أعماق النفس، والقول الذي يبلغ إلى أعمال النفس هو المستجمع للرفقة والجمال والحكمة ورعاية كرامة المخاطب به، أما القول الخشن القبيح المهين المجافي لشروط الحكمة فلا يمكن أن يكون بليغاً .

الصفة الثانية: أن يُؤدِّي رسالته وهو مشحونٌ بمشاعرِ الرَّحْمَةِ بِمَنْ يُوجِّه له رسالته، والشفقةِ عليه، والحرصِ على سعادته ونجاته من عذاب الله المعجَّلِ والمؤجَّلِ، والحرصِ على ظفره بجنات النعيم يوم الدين، اقتداءً بالرَّسُولِ الرَّحِيمِ ﷺ .

وعليه أن يضع في تصوُّره دوماً أنه يَحْمِلُ الرِّسَالَةَ الَّتِي كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَضطلع بعبيها الأعظم، وأن الله عزَّ وجلَّ قد بعثه رحمةً للعالمين، فقال له في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٢١٧)

الصفة الثالثة: أن يضع في تصوّره دوماً أنه مكلف أن يقتدي بالرسول في تأدية رسالته، وأن الرسول ﷺ لم يكن يؤدّي رسالته بدوافع نفسه وأهوائه، بل كان يؤدّيها بالأسلوب البياني الذي أمره الله به، أو أذن له به.

فالأسلوب البياني الذي أمره الله به نجده في النصوص القرآنية التعليمية المصدّرة بقول الله له: ﴿ قُلْ ﴾ ونحوه.

والأسلوب البياني الذي أذن الله له به، تدلّ عليه سيرته ﷺ في دعوته، وفي أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فهذه السيرة تكشف ما أذن الله له به في قوله له في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (١٥) ﴿ وَدَاعِبًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ (١٦)

والشاهد في هذا النصّ قوله تعالى فيه: ﴿ وَدَاعِبًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ﴾ .

أما أصل قيام الرسول بالدعوة إلى الله فقد أمر الله به على سبيل الوجوب، في عدّة نصوص، مثل: ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ - وادْعُ إِلَى رَبِّكَ - فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ - ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ .

وأما ما علّم الله رسوله أن يقوله لقومه في المعنى والأسلوب فهو مأمور به على سبيل الوجوب أيضاً أو النذب أو الإرشاد. ثم أذن الله لرسوله بعد ذلك بأن يجتهد في اختيار الأسلوب البياني الذي يراه مُحَقَّقاً للحكمة والموعظة الحسنة، في دعوة ليس فيها تكليف خاص من الله بأسلوب خاص.

وتتبع دعوة الرسول ﷺ في سيرته وفي السنّة الثابتة عنه، يكشف وجوه الحكمة والموعظة الحسنة التي أذن الله له بها، ليقتدي بها حملة رسالته من بعده.

فالدعاة إلى الله من بعده مُلْزَمُونَ بالتقيّد بمنهاج الدعوة الرّباني، وبما أذن الله به لرسوله، وكشفته سيرته وستته صلوات الله وسلاماته عليه.

الصفة الرابعة: أن يضع في تصوّره دواماً أنّه بمثابة الأب المرّبي الحكيم في معاملة من يؤدّي بينهم رسالته، فعَلَيْهِ أَنْ يُعَالَجَهُمْ بدافع الأبوّة الحانية، لا بدافع الغضب للنفس، والانتقام لها، إذا لم يُسْتَجَبْ له.

إنّ المرّبي لا يَصِحُّ بحالٍ من الأحوال وهو يُؤدّي وظيفته التربوية أن يغضب لنفسه، مهما استعصى عليه من يُشْرِفُ على تربيته، فمن يَغْضَبُ لنفسه يسعَى للانتقام متشقيّاً لا مؤدّباً، ومن يغضب الله في دعوته وتربيته ونُصْحِهِ وأمره ونهيه يتقيّد بما أذن الله به، لأنّه لا يعمل من أجل نفسه، بل يعمل ابتغاء مرضاة ربّه وطاعة له.

ومنذ اللحظة التي يتجاوز فيها حامل الرسالة حدود ما أذن الله به، يكون تصرّفه من أجل نفسه، غضباً وثأراً لكرامته، أو انتقاماً وتشقيّاً، أو يكون جاهلاً أو غافلاً عن واجبات رسالته التي يؤدّيها.

الصفة الخامسة: أن يضع في تصوّره دواماً أنّه بمثابة الطبيب الذي يعالج مرضاه بالشفقة والنُصح والحكمة، والحذر عليهم من الهلاك، والحذر على المجتمع من سريانِ الداء إليه.

إنّ من شأن الطبيب أن يستعطف المريض الذي يُعَالَجُه، وأن يَضِرَّ عليه، ولو نفر منه وآذاه، وأن لا يعتبره عدوّاً فيَقَاتِلُهُ ويُسَاتِمه، بل يُشْعِرُه دواماً بأنّه يعمل لمصلحته رحمةً به، وشفقةً عليه لتخليصه من الداء النازل به، وحماية المجتمع من سريانِ الداء إليه.

وإذا اقتضت حالة المريض معالجته بالإكراه في بعض الأحيان، فعلى الطبيب أن يُشْعِرَه بأن استخدام هذه الوسيلة الإكراهية إنّما اقتضتها حالته

النفسية، مع وجوب استعماله الدواء الذي يَرْفُضُهُ، لأنَّ صحته متوقفة على استعماله، ومن هذا القبيل معالِجَةُ مدمني المخدراتِ بالقوَّة، وهُم كارهون لوسائلِ العلاجِ.

فحامل رسالة الدعوة إلى الله أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طبيب معالج للمنحرفين عن دين الله وصراطه المستقيم، فعليه أن يسير في معالجته على صراط الله، ويعمل بما أمر الله به أو أذن به، وينتهي عما نهى الله عنه، وأن يكون همه دوماً الإصلاح والتقويم وإعلاء كَلِمَةِ الله، وأن يُراقب نَفْسَهُ حتى لا تَدْخُلَهَا شوائب الانتصار للنفس، وحب الاستعلاء والتفوقِ على الناس برسالته التي يضطلع بمُهَمَّاتِها.

الصفة السادسة: أن يكون على علم بأساليب البيان البليغ المهدَّب المؤثر، وأن يتعلَّم كيف يُواجه الناس برسالته، وكيف يخاطبهم أفراداً وجماعات، بحسب مُستوياتهم الفكرية، والثقافية، والاجتماعية، وبحسب أحوالهم النفسية، في السُّلم والحرب، والصحة والمرض، والغنى والفقْر، والنشاط والكسل، إلى غير ذلك من أحوال.

فمن المعلوم المشاهد في كلِّ مجتمع أنَّ الناس على مستويات مختلفات متفاضلات، من العلم، والفهم، والذكاء، والمكانة الاجتماعية، وأنَّ كلَّ مستوى من مُستوياتهم له أسلوبٌ ومستوى من الخِطاب يلائمه، وأنَّه لا يصحُّ أن يُخاطب الناس جميعاً بأسلوبٍ واحدٍ، ولا بمضمونٍ فكريٍّ واحدٍ.

إنَّ خطاب العلماء يختلف عن خطاب العامة، وخطاب الأذكياء الفطناء يختلف عن خطاب متوسطي الذكاء والأغبياء، وخطاب الملوك والرؤساء والقادة يختلف عن خطاب من دونهم من الناس، وخطاب المرضى يختلف عن خطاب الأصحاء.

وللأغنياء خطابٌ يَخُصُّهم، وللفقراء خطابٌ يلائم أحوالهم، والخطابُ في السُّلم يختلف عن الخطاب في حالة الحرب، وهكذا إلى سائر أحوال النَّاسِ المختلفة.

فعلى حامل الرسالة أن يُدَرِّبَ نفسه تدريباً طويلاً على استخدام وجوه الخطاب المختلفة، وعلى وضع كلِّ منها في الموضع الملائم له، وعلى اختيار الأسلوب البياني الأكثر نفعاً للموقف التوجيهي الذي يؤدي رسالته فيه، وينبغي أن يكون هذا التدريب قبل أن يحمل رسالته التخصصية في الدعوى إلى دين الله، أو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يكون تدرُّبه وهو في طريق التخصص.

ومن الخير أن يكون أديباً بليغاً رقيقَ الحاشية مُهدِّباً، مع شجاعة أديبة حكيمة، ويتَّهياً له هذا إذا كان لديه الاستعداد الفطري، بكثرة اطلاعه على النفيس من كلام الأدباء، والنفيس من شعر الشعراء، وممارسته الكتابة والمحادثة والخطابة والمحاضرة من مُرتَجِلٍ ومكْتُوبٍ، وبكثرة تدبُّره لآيات القرآن المجيد، وتفهُمه لأقوال الرسول العظيم ﷺ.

ولا بدَّ أن يكون لديه قَدْرٌ مناسبٌ من المحفوظات القرآنية التي تُناسب موضوعاته التي يطرَحُها لدى أدائه رسالته، وقَدْرٌ وافٍ من أحاديث الرسول ﷺ الصالحة للاستشهاد بها عند المناسبات الداعيات لها، فهذه المحفوظات تُساعده على أن يكونَ بيانه أكثرَ ارتقاءً في معارج البلاغة الرفيعة، وأكثرَ تأثيراً، ولا سيَّما إذا استطاع أن يستنبط منها نفائس المعاني، ويعرِّضها بتناسق فكري حَوْلَ موضوعٍ متشابك العناصر، في نظرةٍ تكامليةٍ من الموضوعات التي يُقدِّمها لدى أدائه رسالته.

وقد يكون من المفيد جداً أن تكون لديه ثروة من المحفوظات الشعرية، ذاتِ الأدب الرفيع والبيان البليغ لكبار الشعراء، ممَّا يصلحُ

للاستشهاد به في موضوعاته التي يُقَدِّمُها لدى أدائه رسالته، وثروة من المحفوظات النثرية لكبار العلماء والمفكرين عَبْرَ التاريخ البشري، ومن الحكم والأقوال المأثورة، ممَّا يَصْلُحُ للاستشهاد به، مع اطلاع واسع على مُستجدات العلوم الكونية الثابتة الصحيحة، لأنَّها تخدم رسالته التي يقوم بها، وترفع من قيمة بيانه.

وسياتي إن شاء الله تفصيل بعض هذه المطلوبات من حامل الرسالة، لدى بيان أهليته العلميَّة، فذكرها هنا قد جاء في معرض الأهلية البيانية إذ دَعَتِ المناسبة لذكرها.

ومن المفيد جدًّا لاكتساب الملكة البياتيَّة، أن يُمارِسَ كتابة الموضوعات التي تَصْلُحُ لمضمون رسالته، ممَّا يُعِدُّ نفسه لمخاطبة الناس به، وأن يَعْرضَهُ على ذوي خبرة، وأن يُضْغِي إلى انتقاداتهم، كما ينبغي أن يُضْغِي إلى انتقادات الرُّملاء المنافسين، ولا يغضب منها، وأن يفرح بالتَّنْقِدِ أكثر من فَرَحِهِ بالمدح والثناء، وأن يُعَدِّلَ ويصلح ويَحَسِّنَ فيما سَبَقَ أن كتبه، ليُدْرِكَ الفُروق بين مستويات الكلام حول موضوع واحد.

وينبغي أن يبتعد فيما يقولُ أو يكتب عن التعقيد، وعن الركاقة في التعبير، وعن التكرار والإسهاب المملِّ، وأن يستخدم في كثيرٍ من توجيهاته الأساليب غير المباشرة، وأن يستخدم الإيجاز في البدايات والخواتيم، وعليه أن يلاحظ دوماً أنَّ الحقَّ المخالف لشهوات النفوس وأهوائها مُرُّ المذاق، وهو يحتاج تغليفاً بما يجمِّله ويَحَسِّنُهُ ويجعل مذاقه في الظاهر حلواً.

وقد شرحتُ وظيفة البيان البليغ ووجوب أن يكون مطابقاً لمقتضى حال المخاطب في كتابي «مبادئ في الأدب والدعوة» وكتابي «البلاغة العربية» فيَحْسُنُ الرجوع إليهما.

الصفة السابعة: أن يكون على علم بخصائص النفوس الإنسانية،

واختلاف الصفات النفسية بين الناس، واختلاف أحوال هذه الصفات، وأن يكون ذا دراية بالفروق الفردية، وذا دراية بما يلائم كلَّ صفةٍ نفسيةٍ وكلَّ حالةٍ من أحوالها من خطاب، ليختار نوع البيان الملائم للحالة النفسية التي يتصفُّ بها مَنْ يوجّه له البيان، أو يكونُ هو المقصود به.

خاتمة:

ولتحقيق الأهلية البيانية المناسبة لا بُدَّ من تدريب من يُعَدُّ لِحَمْلِ الرِّسالة على الخطابة، والمحاضرة، والمحادثة، والمحاورة، وكلِّ وسائل التأثير والإقناع البيانية.

* * *

الفصل السادس

وجوب تحلي حامل الرسالة بالأهلية العلمية

وفيه مقدمة، وفقرتان:

- ١ - بيان وجوب تحقّق الأهلية العلميّة لدى حامل الرسالة.
- ٢ - عناصر الأهلية العلمية المطلوبة للمستوى التخصّصي.

مقدمة:

ليست الأهلية العلمية المطلوبة في هذا الفصل من الفئة القيادية ذات التخصص في حمل رسالة الدعوة إلى دين الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، خطة لدراسة جامعية محددة بأربع سنوات أو حتى ست سنوات، حتى يتخرج بها داع إلى دين الله، أو أمر بالمعروف ناه عن المنكر من مستوى تخصصي ومؤهل تأهيلاً علمياً وافياً بالمطلوب.

فقد أصبحت لا أومن بأن الدراسات الجامعية التي تخضع لأنظمة الجامعات صالحة لإعداد مؤهلين لأن يكونوا حملة لأحدى الرسالتين بصورة قيادية صحيحة، باستثناء أفراد لهم دراسات خاصة على علماء المسلمين وفق طرائقهم القديمة، واهتمامات خاصة تؤهلهم بالصبر الطويل حتى يكونوا مؤهلين حقاً بصورة جيدة أو أكثر من جيدة.

بل ما في هذا الفصل هو بمثابة مخطط عام يُوجّه للراغبين من ذوي الاختصاصات الجامعية المختلفة، في أن يؤهلوا أنفسهم بدراسات حرة مقارنة لدراساتهم الأخرى، أو لأعمالهم في الحياة، حتى يكونوا حملة إحدى الرسالتين من فئة القياديين، ذوي التخصص العالي.

- ١ -

بيان وجوب تحقق الأهلية العلمية

كلّ داعٍ إلى قضية ما أو مُوجّهٍ لنصيحةٍ حول قضية ما، سواء أكانت

أنشطته من مستويات دنيا، أم مستويات متوسطات، أم من مستويات تخصصية عليا، لا بُدَّ أن يكون على علم بما يدعو إليه، أو ينصح به، وعلم بما يخالفه، لتكون لديه قدرة ما على الإقناع بالقضية التي يدعو إليها، أو ينصح بها.

والداعي إلى دين الله، والامر بالمعروف الناهي عن المنكر، ولو لم يكن من الفئة القيادية ذات التخصص في حمل إحدى الرسالتين أو كليهما، لا بُدَّ أن يكون عالماً علماً يقينياً بما يدعو إليه، أو يأمر به من معروف أو ينهى عنه من منكر، ولا بُدَّ أن يكون عالماً بالأسلوب الذي ينبغي له أن يستخدمه، وذلك للأسباب التالية:

السبب الأول: الحذر من أن يدعو إلى باطل وهو يحسبه حقاً، فيكون ضرره على الدين أشد من ضرر الصامتين، وأشد من ضرر أعداء الدين، ولا سيما إذا اتَّخَذَ قُدْوَةً فيما يدعو إليه من باطل في سلوكه الخاص.

السبب الثاني: الحذر من أن يتَّخَذَ أسلوباً مُنْقَرَأً، وهذا أيضاً ضرره أكثر من نفعه.

السبب الثالث: الحذر من أن يستدل للقضية التي يدعو إليها أو ينصح بها ويوجه لها بأدلة باطلة، فيكون ضرره أكثر من نفعه، لأن المدعو أو الموجه له التصح متى اكتشف أن الدليل باطل سقطت القضية كلها من نظره أو اعتباره، ولو كانت في واقع أمرها حقاً، إذ يكون غير مستعداً ليبحث عن دليل صحيح لها، نظراً إلى أنه لم يؤمن بها بعد، وقليل من الناس من يترك دليل الداعي إلى القضية، إذا كان دليله باطلاً، ويهتم بالبحث ليصل إلى دليل صحيح لها.

السبب الرابع: الحذر من أن يُسأل عن مسألة فيفتي فيها بغير علم، فيضلل ويضل.

وَأَسْأَلُ جَهْلَةَ الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ وَالْأَمْرِينَ بِالْمَعْرُوفِ النَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ، هُمْ الَّذِينَ يَتَّخِذُهُمُ النَّاسُ رُؤَسَاءَ قِيَادِيَّينَ لِلْقِيَامِ بِرِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، أَوْ رِسَالَةِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ.

فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ بِسَنَدِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:

«إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْزِعُ الْعِلْمَ بَعْدَ أَنْ أَعْطَاكُمْوَهُ انْتِزَاعًا، وَلَكِنْ يَنْتَرِعُهُ مِنْهُمْ مَعَ قَبْضِ الْعُلَمَاءِ بِعِلْمِهِمْ، فَيَبْتِغِي نَاسٌ جُهَالًا يُسْتَفْتُونَ فَيَفْتُونَ بِرَأْيِهِمْ، فَيَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ»^(١).

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عِنْدَ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَغَيْرِهِمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَرِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤَسَاءَ جُهَالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا».

- ٢ -

عناصر الأهلية العلمية المطلوبة للمستوى التخصصي

● نظرة إجمالية:

حَامِلُ رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، أَوْ رِسَالَةِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، مِنَ الْمُسْتَوَى التَّخْصُّصِيِّ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُؤَهَّلًا عِلْمِيًّا بِثَمَانِيَةِ أَقْسَامٍ مِنَ الْعُلُومِ:

القسم الأول: المواد العلمية التي تشتمل على أدوات البحث والفهم

(١) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري الحديث رقم ٧٣٠٧.

والإفهام والقدرة على الإقناع، والقدرة على التأثير التربوي .

القسم الثاني : المواد العلمية التي تشتمل على أصول الدين وما يناقضها وتشتمل على فروع الدين .

القسم الثالث : مقداراً مناسباً من المواد العلمية الكونية المشتملة على معارف ثابتة أو مؤكدة برُجْحان، ممّا يُسَاعِدُ منها على فهم الدين، وما جاء في نصوصه من حقائق عن الكون، ويُسَاعِدُ على الإقناع بأنّ الدين حقٌّ من عند الله عزّ وجلّ، وأنّ صراط الله فيه هو الصراط المستقيم، وأنّ أحكام السلوك التي جاء بها هي الأقومُ من كلّ ما يَضَعُ الناسُ ويتدعون من أحكام لسلوكهم النفسي والظاهر في الحياة الدنيا .

القسم الرابع : البحوث التي تكشف زيوف المذاهب الفكرية المعاصرة الوافدة إلى العالم الإسلامي من الغرب والشرق، وتكشفُ انحرافاتِها عن الحقّ وعن صراط الله المستقيم، وعمّا هو خيرٌ للإنسانية وسعادتها وأمنها واستقرارها وحضارتها الرشيدة .

القسم الخامس : البحوث التي تكشف وسائل الغزو الفكري الذي تعرّض له المسلمون، وأساليب وحبائل شياطين الإنس والجنّ، لصدّ الناس، أو إخراجهم عن الحقّ، وصراط الله المستقيم، وعن العمل بشرائعه وأحكام دينه الذي اصطفاه لعباده، في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، وتكشفُ ما يتخذونه من طرائق شديدة المكر والكيد والخُبثِ للعبثِ بالأفكار والأهواء والشهوات، والإغراء بزينات الحياة الدنيا الخادعات، بُغية تحقيق مصالحهم الخاصة، عن طريق فتنة الناس عن دين الله، لاستغلال جماهيرهم واستعبادهم وإذلالهم وتسخيرهم عبيداً لهم بالقوّة أو بالحيلة .

القسم السادس : التمكن من التحدّثِ بِلِسَانِ القوم الذين يُودّي رسالته بينهم، إذا كان لسائهم مخالفاً للغة الأم التي تعلمها منذ نشأته .

القسم السابع: متابعة العلوم والثقافات المعاصرة في مستجداتها، والأحداث الإنسانية، وواقع المسلمين المعاصر، ليستفيد منها حامل الرسالة في أداء رسالته على أحسن وجهٍ يستطيعه بحسب إمكاناته واستعداداته الفِطرية.

القسم الثامن: أن يكون لديه إلمام مناسب بالتاريخ البشري، وإلمامٌ بجغرافية العالم القديم والحديث، ولا سيما تاريخ الأمة الإسلامية بدءاً من سيرة الرسول ﷺ وحياة النخبة الرائدة من أصحابه الكرام والتابعين لهم بإحسان، ولا سيما أيضاً جغرافية العالم الإسلامي بحسب أطوارها امتداداً وانحساراً.

● البيان التفصيلي لهذه الأقسام:

- أما القسم الأول: وهو قسم المواد العلمية التي تشتمل على أدوات البحث، والفهم، والإفهام، والقدرة على الإقناع والتأثير، فهو يشتمل على المواد العلمية التالية:

أولاً - علوم اللغة العربية:

القرآن الكريم قد أنزله الله عزّ وجلّ باللغة العربية الفصحى، وأحاديثُ الرسول الخاتم ﷺ قد نطق بها الرسول ورواها عنه أصحابُه والتابعون من بعدهم باللغة العربية الفصحى، وقد دُوِّنَتْ في كُتُبِ السُّنَنِ كما رُوِيَتْ باللغة العربية الفصحى.

والقرآن والسنة هما مصدرنا الإسلام، ووعاؤُهُما اللُّغَوِيُّ اللُّغَةُ العربية الفصحى، ولا يستطيع الباحث تدبُّر القرآن الكريم تدبُّراً سليماً، وتفهُم معاني أحاديث الرسول ﷺ تفهُماً صحيحاً، ما لم يكن عالماً باللغة العربية الفصحى، على مستوى يكفي لسلامة التدبُّر والفهم.

وقد بذل علماء المسلمين جهوداً عظيمةً وجَليلةً، لاستخراج واستنباط

قَوَاعِدِ نَحْوِ هَذِهِ اللَّغَةِ، وَقَوَاعِدِ صَرْفِهَا، وَدَلَالَاتِ صِيغِهَا، وَتَرَاكِبِهَا، وَأَسَالِيهَا الْبَيَانِيَّةَ الْحَقِيقِيَّةَ وَالْمَجَازِيَّةَ، وَتَصْنِيفِهَا فِي عِدَّةِ عُلُومٍ.

وَبَذَلُوا جُهُوداً عَظِيمَةً وَجَلِيلَةً لَجَمْعِ مَا أَحْصَوْهُ مِنْ كَلِمَاتِهَا وَتَدْوِينِهَا مَعَ بَيَانِ مَعَانِيهَا فِي مُعْجَمَاتٍ مُوسَّعَاتٍ.

وقد أنتجت هذه الجهود العظيمة الجليلة أربعة علوم:

١ - علم النحو الذي نضج بجهود كبار أئمة اللغة العربية.

٢ - علم الصرف الذي نضج أيضاً مع علم النحو.

٣ - علم البلاغة الذي شقّ طريقاً مهماً جداً لِحُسْنِ تَدَبُّرِ النُّصُوصِ الْقَرَأْنِيَّةِ وَالْحَدِيثِيَّةِ.

٤ - علم معاني مفردات اللغة العربية المدوّن في المعاجم اللغوية.

والتمكن من هذه العلوم ولو عن طريق مراجعة مسائلها في مُدَوَّنَاتِهَا الْكَبِيرَى، مَعَ حِفْظِ مَقْدَارِ كَافٍ مِنْهَا لِلْفَهْمِ الْمَعْتَادِ، أَحَدُ الشُّرُوطِ الْأَسَاسِيَّةِ الَّتِي لَا يَسْتَعْنِي عَنْهَا حَامِلُ الرِّسَالَةِ مِنْ مَسْتَوَى تَخْصُّصِيٍّ.

فَلَا بُدَّ أَنْ يَشْتَمِلَ إِعْدَادُ الْمُؤَهَّلِ لِذَلِكَ عَلَى مَنَهِاجِ تَدْرِيسِيٍّ جَادٍ يُحَقِّقُ هَذَا الشَّرْطَ مَعَ تَطْبِيقَاتٍ يَكُونُ بِهَا لِسَانُهُ مَنْضَبُطاً انضباطاً يَنْدُرُ مَعَهُ اللَّحْنُ وَالخَطَأُ.

ثانياً - علم أصول الفقه:

لَقَدْ وَجَدَ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ عِبْرَ تَارِيخِ الْبَحْثِ التَّدْبِيرِيِّ لِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، وَلَا سِيَّمَا الْفُقَهَاءَ الْمُسْتَنْبِطِينَ لِلْأَحْكَامِ الْفُقَهِيَّةِ مِنْهُمَا أَنَّ الْحَاجَةَ الشَّدِيدَةَ تَدْعُو لِاسْتِخْرَاجِ قَوَاعِدِ كَلِيَّةٍ تَهْدِي الْبَاحِثِينَ الْمَتَدَبِّرِينَ لِاسْتِنْبَاطِ الْمَعَانِي الَّتِي يَدُلُّانِ عَلَيْهَا، بِصُورَةٍ مُبَاشِرَةٍ، أَوْ بِصُورَةٍ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ، كَالْمَعَانِي وَالْأَحْكَامِ الَّتِي يُسْتَدَلُّ عَلَيْهَا بِاللُّزُومِ الْعَقْلِيِّ، وَالْمَعَانِي وَالْأَحْكَامِ الَّتِي يُسْتَدَلُّ

عليها بقياس الأمثال غير المدلول عليها بطريقة مباشرة في نصوص القرآن والسنة، على أمثالها المدلول عليها بطريقة مباشرة.

وقد دونوا هذه القواعد في علم اصطلاحوا على تسميته: «علم أصول الفقه» وهو علم يُسَاعِدُ على تَفْهَمِ النصوص، واستنباط أحكام الدين كله منها، بفهم مُتَعَمِّقٍ من مستوى الفقه^(١)، وليس خاصاً في استنباط الأحكام التي اصطَلَحَ على تَسْمِيَتِهَا فِقْهًا، ودُوِّنَتْ فيها كتب الفقه.

فَعَلِمُ أصول الفقه يُسَاعِدُ على فهم النصوص المشتملة على العقائد التي هي أصول الدين، والنصوص المشتملة على الأخلاق، والمشتملة على الآداب، والمشتملة على مسائل تصنف في علم النفس، ومسائل تُصَنَّفُ في علم الاجتماع، ومسائل تُصَنَّفُ في العلوم الكونية أو الطبيعية أو المنطقية أو الفلسفة أو غير ذلك.

وحامل الرسالة المتخصص لا بُدَّ أن يكون لديه مقدارٌ كافٍ من هذا العلم، باعتباره أحد أدوات البحث السليم، لفهم كتاب الله عز وجل، وفهم سنة نبيه ﷺ، ولا استخراج المعاني والأحكام المدلول عليها بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

ثالثاً - علم المنطق:

استطاع الفكر الإنساني عبر تاريخه الطويل أن يتوصل إلى اكتشاف ضوابط عقلية تُسَاعِدُ المتفكّر على حماية فكره من الخطأ في فهم كثير من حقائق الأمور التي هي من جذور الفكر وأصوله الكلية العامة، وأن يُدَوِّنَها في علم اصطلاح العلماء على تسميته «علم المنطق» وهو مقدمات عقلية تتفق عليها العقول مما كان يُسَمَّى قديماً بعلم الفلسفة، الذي اختلطت فيه حقائق فكرية ورياضية، بنظرات تكهنيّة نفسية وكونية وإنسانية فيها باطل كثير، وغث

(١) الفقه في اللغة: الفهم المتعمق الدقيق.

كثير، وآراء بعضها حقٌّ، وبعضها مقبولٌ في بحثٍ علميٍّ متطورٍ، وبعضها مردود، كشأن بدايات كلِّ البحوث الإنسانية، التي تختلط فيها منتجات الفكر بمنتجات الأهواء والشهوات ورغبات النفوس وخرافات المنحرفين .

أما علم المنطق الذي عزله علماء المسلمين عن سائر ما جاء في الفلسفات القديمة، فهو موازين وضوابط عقلية فطرية فطر الله عقول الناس عليها .

وأرى أنّ الفكر الإنسانيّ قد توصل إليها قبل الإسلام بهديٍّ ممّا أنزل الله على رُسُلِهِ السابقين .

وقد تحقّق من صحة السليم منها بعد الإسلام جمٌّ غفير من علماء المسلمين الباحثين في مجالات الفكر بهديٍّ ممّا جاء في القرآن المجيد من أصول عقلية، ومناظراتٍ ومجادلات تستند إلى أصولٍ وموازين وضوابط عقلية، وقد فتح الله عزّ وجلّ عليّ في تيسير هذا العلم، وتزويد كثير من مسائله بأمثلة متعدّدة، ومنها أمثلة قرآنية وحديثية، في كتاب بعنوان: «ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة» .

وحامل الرسالة المتخصص ينبغي له أن يكون على علم بمقدار مُناسب من هذه الضوابط والموازين العقلية التي اشتمل عليها علم المنطق، لأنها تُساعده على الحماية من الخطأ في الفكر، في كلّ ما يُعده أو يُقدّمه من بحوث، وما يتعرض له من مناظرات ومجادلات ومناقشات .

فمن لا يملك هذه الحماية يكثر لديه التعرّض للخطأ في أفكاره، وهو يحسب الخطأ صواباً، والباطل حقّاً، وربما اشتدّ في نصرته خطئه والدفاع عنه بكلّ قوّة .

فإذا اكتشف الذين يؤدي رسالته بينهم أنّه مخطيء بيّن الخطأ، وأنّه متناقض في فهمه مع أصول الفكر الصحيح وموازينه وضوابطه التي تتفق

عليها العقول، ولو في بعض القضايا، وهو مع ذلك يُصِرُّ على تصويب مفاهيمه الخاطئة، سَقَطَ احترامه من نفوسهم، ولم يَبْقَ لكلامه أثرٌ فيها، وزَهْدُوا فيه، وعزَفُوا عنه، وعزَلُوهُ في نفوسهم عن المكانة التي وَضَعَ نفسه فيها، قائداً من قادة الدَّعوة إلى دين الله، أو من قادة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنُّصح والإرشاد.

رابعاً - علم آداب البحث والمناظرة:

وضع علماء المسلمين قواعد للمناظرة والجدل، ضبطوا بها الآداب والخطوات والمراحل التي يجب أن يلتزم بها المتناظران أو المتجادلان، حتَّى لا يخرج كلُّ منهما عن موضوع البحث الذي تجري حوله المناظرة، فتتحوَّل إلى مهاترة ومشاتمة، أو مشاغبة ومغالطات، وهذه لا يمكن أن تخدمَ قضيةً فكريةً، أو توصلَ إلى الإقناع بحقيقة يُرادُ الإقناع بها.

وسمى علماء المسلمين هذه القواعد: «آداب البحث والمناظرة.

فعلى حامل الرسالة المتخصص أن يكون على علم بهذه القواعد، لأنه قد يتعرض وهو يؤدِّي رسالته إلى مجادلين حول القضايا التي يطرحها، فلا يُحسِنُ مناظرتهم بضوابط جدلية، وقد يستندِرِجُه شياطين المناظرين المضلِّين بخطوات مُزَلِّقة، فيخرجونه عن أصل الموضوع إلى مواطن تكثرُ فيها الشُّبهات ومataهات الأفكار ويُسقِطونه في أغاليط يُسَلِّمُ بها مع بطلانها، وخلاصة هذا الفن مُيسِّرة في كتابي «ضوابط المعرفة وأصول استدلال والمناظرة» بتوفيق الله ومعونته.

خامساً - علوم النفس والاجتماع والتربية:

توصَّلت الدراسات النفسية النظرية والتجريبية الإنسانية التي قام بها طائفة من الباحثين في علم النفس، إلى اكتشاف أشياء مُهمَّة من صفات النفس ودوافعها وطرقِ التأثير عليها.

وبعض ما توصلوا إليه لا يتعارض ولا يتنافى مع تعاليم الإسلام وعقائده وشرائعه وأحكامه، ويجد الباحث المنقّب في النصوص الإسلامية ما يُشير إلى طائفة كثيرة ومُهمّة منه .

ومعرفة هذه الأمور مما يفيدُ حامل الرسالة المتخصص، ويُسهّل عليه أداءه لرسالته أداءً حسناً، إذ هو يتعامل في أداء رسالته مع نفوس بشرية متنوعة الصفات، وذوات فروق فردية، فينبغي له أن يعرفها فيُحسّن التعامل معها، والتأثير عليها .

إلا أن علم النفس المعاصر علّمُ موجّه بصفةٍ عامّة بوجهات نظر باحثين لا يعرفون تعاليم الإسلام، ولا يُؤمنون بها، حتّى يهتدوا بهديها إلى السلوك الأقوم في الحياة، وحتّى لا يتخذوا من الوسائل ما لا تجيزه هذه التعاليم . وبعض الباحثين فيه ذُؤو أغراض تدميرية للبشرية تعتمد على الإلحاد ونشر الإباحية، وتفكيك المجتمعات الإنسانية، وإقامة الصراعات فيما بينها، كدراسات فرويد ومدرسته، ومن تأثر بالشعارات اليهودية، لإطلاق دوافع النفس من قيود الدين والأخلاق والسلطات الأسرية والاجتماعية .

فينبغي لحامل الرسالة المتخصص أن يكون على معرفة بما هو صحيح من صفات النفس الإنسانية وخصائص أنواعها وفتاتها ودوافعها وكيفية التأثير عليها، وما يجذبها وما يُنفرها، بغية الاستفادة من هذه المعرفة في توجيه الأقوم نحو الخير والفضيلة ومرضاة الله عزّ وجلّ، وتأليف قلوب الناس والإصلاح بينهم .

ويجب أن تُقدّم له لدى إعداده للقيام برسالته مُصفاةً من كلّ ما يتعارض مع تعليمات الإسلام ومبادئه وشرائعه وأحكامه، ممّا يتعلّق بالفكر، أو بالسلوك الظاهر والباطن .

ونظير علم النفس علم الاجتماع وعلم التربية، لأنّ فيهما قدرًا مناسباً

مما يفيد حامل الرسالة في التأثير الفردي والجماعي، بشرط أن تُقدّم له لدى إعداده مُصنّفةً من كلّ ما يتعارض مع الإسلام فكراً وسلوكاً ظاهراً وباطناً.

* * *

- وأما القسم الثاني: وهو قسم العلوم التي تتناول بيان أصول الدين وفروعه، فهو يَشْتَمِلُ على المواد العلمية التالية:

أولاً - علم العقيدة الإسلامية:

إنّ أساس الدّين وقاعدته العظمى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورُسُله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله عزّ وجلّ.

وهذه الأركان الستة ذواتُ أُسس فكرية ثم خبرية عن الله عزّ وجلّ، وذواتُ تفصيلاتٍ كثيرات.

وقد أفرد علماء المسلمين للبحوث المتعلقة بأركان الإيمان مؤلفات متخصصة اهتمت ببيان أدلة أركان الإيمان، وبيان أقوال المخالفين وشبهاتهم والرّدّ عليها، واهتمت ببيان كثير من عناصرها التفصيلية، وأدخلوا هذه المؤلفات تحت اسم «علم التوحيد» لأنّ مسألة توحيد الله كانت أهمّ المسائل التي دارت حولها العقيدة الإسلامية في مقابل عقائد المشركين.

ثم اختار كتاب المؤلفات المعاصرة وواضعو المناهج التدريسية المعاصرة لهذا العلم اسم «العقيدة الإسلامية» لشموله كلّ بحوث هذا العلم.

وبما أنّ هذا العِلْمَ قد اختصّ بالبحوث المتعلقة بأركان الإيمان التي هي أصلُ الدّين، وبالبحوث المتصلة بها سواءً أكانت مشتقةً منها أم معارضةً لها، كالمُلل والنَّحل والأديان والمذاهب الاعتقاديّة الباطلة، فلا بدّ أن يكون هذا العلم من أوّل العلوم التي يجبُ أن يتمكّن منها حامل رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنُصح والإرشاد المتخصّص، وأن يكون على علم بها بصورةٍ إجمالية كلّ مسلم، لأنّها أساس الدين.

ثانياً - علم الأخلاق الإسلامية:

من الملاحظ في مراحل تنزيل القرآن الأولى، والبيانات النبوية الأولى، اهتمام الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم الفردية والاجتماعية، فعليها تعتمد الانطلاقة الأولى إلى الإيمان الصحيح الصادق، والسلوك الفاضل الذي تتفق عليه العقول والنفوس، وعليها تعتمد مصالح الحياة الإنسانية الاجتماعية السعيدة، باعتبارها معاهد الترابط الاجتماعي بين الناس.

فمنزلة الأخلاق الفاضلة في الإسلام تقع في المرتبة الثانية بعد منزلة الإيمان.

ولهذا كان على حامل الرسالة المتخصص، أن يكون لديه زادٌ واسعٌ من علم الأخلاق الإسلامية، ليوّجه اهتمامه للدعوة إليها مع الدعوة إلى الإيمان، وليكون قدوةً حسنةً فيها، وليربّي من يستجيب له عليها بوسائل التربية المؤثرة النافعة.

الثالث - علمُ فقه أحكام العبادات والمعاملات:

كان عامة المسلمين في بداية الأمر بعد عصر الرسول ﷺ يسألون علماء الصحابة والتابعين وفقهاءهم عن أحكام دينهم، المتعلقة بعبادات الصلاة والزكاة والصوم والحجّ والعمرة، وبالمعاملات الشاملة لكلّ النظم الإسلامية، مع ملاحظة أن العمل بكلّ حكم إسلامي عبادة.

ثمّ ظهر أئمةٌ متخصصون في استنباط هذه الأحكام، وبدأت اجتهاداتهم في فقه العبادات والمعاملات تُدوّن في مؤلفات، وبرّز من هؤلاء الفقهاء الأئمة الأربعة المجتهدون من أئمة أهل السنة والجماعة، أبو حنيفة النعمان، ومالك بن أنس، ومحمد بن إدريس الشافعي، وأحمد بن حنبل، الذين دوّنت آراؤهم الاجتهادية تدويناً كاملاً، وكان لهم أتباعٌ من كبار العلماء صنّفوا في مذاهبهم كتباً محرّرة على أبواب فقه العبادات والمعاملات.

وُجِدَ آخرون لم تُدَوِّن ولم تحرَّرْ مذاهبهم تحريراً كاملاً، كالأوزاعي، وسفيان الثوري، وأبي ثور.

وظهر للزيدية الشيعة المنتسبين إلى زيد بن عليّ (زين العابدين) بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب مذهبٌ مدوّن، وظهر غيرهم.

وحامل الرسالة المتخصّص لا بُدَّ أن يكون متمكناً من مهمّات أحكام فقه العبادات والمعاملات التي ينبغي أن يُبيّنها لمن يؤدّي رسالته بينهم، وأن تكون لديه المَلَكَةُ لمراجعة آيةٍ مسألةٍ فقهيةٍ يُسألُ عنها في أيِّ بابٍ من أبواب الفقه.

ولا مانع من أن تكون دراسته للفقه من خلال مذهب من المذاهب المعتمدة لدى جمهور علماء المسلمين، بشرط إطلاعه على الأدلّة وعلى اجتهادات فقهاء المذاهب الأخرى وأدلّتها، لئلا يُصابِ بداءِ التعصُّبِ المذهبي، الذي يُحدِثُ الشُّقَاقَ بين المسلمين، ويجعلهم فرّقاً وأحزاباً.

والأفضل أن يدرُسَ حملة الرسالة المتخصّصون فقه الكتاب والسنة دراسةً تقتزن الأحكام فيها بأدلّتها الشرعية، وتُعرضُ فيها اجتهادات أصحاب المذاهب، متى تهيأت الأسباب لهذه الدراسة بشكل منظم على أبواب الفقه التي حرَّرَ فقهاء المذاهب بمقتضاها مذاهبهم الفقهية.

رابعاً - دراسات قرآنية:

وتشمل هذه الدراسات ما يلي:

- ١ - ضبط تلاوة القرآن كلّه مجوِّداً.
- ٢ - حفظ ما لا يقلُّ عن خمسة أجزاء، ومنها الجزء الثلاثون، والأفضل حفظ القرآن كلّه.
- ٣ - تفسير القرآن كلّه في حدود شرح المفردات والعجمل. وتفسير ما

لا يقلّ عن خمسة أجزاء منه تفسيراً موسّعاً، ضمن منهج وحدة موضوع السّورة القرآنيّة^(١).

ودراسة عدّة موضوعات قرآنيّة ضمن منهج التفسير الموضوعي الذي تُجمَعُ فيه الآيات القرآنيّة المتعلقة بموضوع واحد من القرآن كلّهُ، وتُدْرَسُ دراسةً متكاملةً، كموضوع الإيمان والمؤمنين، والكفر والكافرين، والنفاق والمنافقين، والتقوى والمتقين، وكقصة من قصص الأنبياء وأقوامهم، مثل قصة نوح عليه السلام وقومه^(٢).

٤ - دراسة كتاب موسع معتمد من كتب علوم القرآن مثل كتاب «البرهان في علوم القرآن» للعلامة بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (٧٤٥ - ٧٩٤هـ).

٥ - دراسة كتاب معتمد تناول بيان شبهات المستشرقين حول القرآن وكشف زيوفها كشفاً محكماً.

٦ - دراسة كتاب اهتمّ بإبراز الجوانب الأدبية في القرآن، ويمكن الاستفادة من كتابي: «أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع».

خامساً - دراسات حديثيّة:

وتشمل هذه الدراسات ما يلي:

١ - الاطلاع على أمّهات المصنفات التي دُوِّنَتْ فيها الأحاديث النبويّة، ومنها: «صحيح الإمام البخاري - صحيح الإمام مسلم - سنن أبي داود - سنن الترمذي - سنن النسائي - سنن ابن ماجه - مسند الإمام أحمد بن حنبل

(١) مثل تدبر سورة (الفرقان) في وحدة موضوع. وتدبر سورة (الرعد) في وحدة موضوع، للمؤلف.

(٢) يمكن الاستفادة من منهج كتاب (ظاهرة النفاق) وكتاب (نوح عليه السلام وقومه في القرآن) للمؤلف.

- مستدرک الحاکم - صحیح ابن حبان - معجم الطبرانی الثلاثة الكبير والأوسط والصغير - مصنف عبد الرزاق الصنعاني) مع التعرف على خصائص كل منها، وترجمة مؤلفة .

٢ - دراسة «علوم الحديث» مع ما يتعلّق بتدوينه، ومع بيان شبهات المستشرقين حول الحديث الشريف، وكشف زيوفها كشفاً محكماً .

٣ - حفظ ما لا يقلّ عن مئتي حديثٍ مختارات في موضوعات مختلفات دعوية وأخلاقية، من الأحاديث الصحيحة أو الحسنة، مع شرحها شرحاً موسعاً .

٤ - دراسة ما لا يقلّ عن الجزء الأول من «فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن حجر .

٥ - دراسة ما لا يقلّ عن جزء مختار من شرح النووي على صحيح مسلم، وينبغي أن يكون من أبواب لم يتعرّض لها الجزء الأول من «فتح الباري شرح صحيح البخاري» .

٦ - معرفة كتب تراجم رواة الحديث، وكيفية مراجعة الأسماء فيها .

٧ - دراسة أدبية لنخبة مختارة من أحاديث الرسول ﷺ^(١) .

* * *

- وأما القسم الثالث: وهو قسم الموادّ العلميّة الكونية الطبيعيّة، فهو قسم يشتمل على ما لا يقلّ عن مستوى مناهج الدراسة الثانويّة في القسم العلمي، وهي علوم «الفيزياء - الكيمياء - الرياضيات - الأحياء - الجيولوجيا - الفلك - الحاسب الآلي» .

(١) يمكن الاستفادة من كتاب «روائع من أقوال الرسول ﷺ» للمؤلف، وكتاب «أمثال الحديث» للدكتور عبد المجيد محمود .

إنّ حامل الرسالة المتخصص للقيام بأداء وظائفها، لا يصحّ أن يكون بعيداً عن معرفة علوم عصره الكونية الطبيعية، وأن يعزل نفسه في العلوم الدينية، وعلوم اللّغة العربيّة والعلوم المساعدة لفهم نصوص الكتاب والسنة، لما يلي:

١ - لأنّ كلمات الله البيانية المنزّلة على رسله، وكلماته التكوينية التي تحققت فيما خلق الله، وتحقق فيما يخلق من شيء في الكون، وفيما يُجري فيه من تصاريف، لا يمكن أن يتناقض بعضها مع بعض، ولا يمكن أن يُصادم بعضها بعضاً، ولا بُدّ أن تُفهم مُطابقة فيما يتوارد منها على قضايا واحدة، أو متكاملة فيما لا يتوارد منها على قضايا واحدة، ولا بُدّ أن يُؤيّد الحقّ من كلّ منها الحقّ من القسم الآخر، إذا كانا يتعلقان بموضوع واحد، أو قضية واحدة.

٢ - ولأنّ حامل الرسالة يتعامل مع مجموعات إنسانية مختلفة، وفيهم متعلّمون على المناهج الدراسية التي عُزلت قصداً، وبتخطيط كيديّ من الدول العلمانية، والمؤسسات المعادية للإسلام، عن علوم الدين الحقّ، ودُسّت فيها أفكار وآراء تحليلية فلسفية مناقضة لأسس الدين، وقُدّمت فيها على أنّها حقائق كسائر الحقائق التجريبية التي اشتملت عليها هذه العلوم، والحقائق النظرية ذات البراهين العقلية الصحيحة، أو الأدلة المقبولة برجحان.

والجاهل بهذه العلوم لا يستطيع المحاوره حول المقرّرات فيها ولو كانت مقرّرات باطلاً، ولا يستطيع الإقناع بأنّ ما اندسّ فيها من تعليقات فلسفية ليس له قيمة علمية، إذ لا يعتمد على براهين عقلية، ولا على أدلة تجريبية.

فينبغي له أن يكون ذا معرفة ما بهذه العلوم، وكبريات مقرّراتها، في الحدود التي لا تقلّ عن مستوى مناهج الدراسة الثانوية العامة، في قسمها

العلمي، ولكن يجب لدى دراسته هذه العلوم أن يكون على بصيرة بما هو مهندسٌ فيها من تعليقات وتفسيرات فلسفية لا تستند إلى براهين عقلية، وما هو مهندسٌ فيها من أفكارٍ مناقضة لأسس الدين ومفهوماته وأحكامه ووصاياه، وأن تكون لديه الحجج البرهانية، أو الأدلة الكافية للإقناع، التي تكشف أنّها باطلة، أو منحرفة عن الصراط المستقيم الذي يُحقّق لمن سلكه السعادة في الدنيا والآخرة، وتكشف أنّها آراء لا علاقة لها أصلاً بالعناصر الأساسية لهذه العلوم.

وعليه أن يُتابع تطوّرات حركة العلم في العالم، لأنّ كثيراً ممّا كان يُدرّس في المؤسسات التعليمية في كلّ الدّول الغربية والشرقية على أنّه من الحقائق العلمية، صار في مقرّرات العلم المعاصر نظريات قابلة للتعديل والتبديل، أو فرضيات لا يصحّ الاعتماد عليها أصلاً، كالآراء الداروينية في التطور الذاتي للأشياء والأحياء.

* * *

- وأما القسم الرابع: وهو قسم البحوث التي تكشف زيوف المذاهب الفكرية المعاصرة الوافدة إلى شعوب العالم الإسلاميّ من دول الكفر وشعوبها، ففيما يلي بيان موجزٌ حوله.

نتيجة أسباب كثيرة داخلية وخارجية تخلف المسلمون في مختلف مجالات الحياة، وانتشرت الأمية في مختلف علوم الدين وعلوم الكون الطبيعية.

بينما كانت شعوبٌ غير مسلمة في الغرب ثمّ في الشرق تتقدّم في العلوم الكونية، التي ترتقي بها الحضارة المادّية، مستفيدين ممّا كان قد وصل إليه المسلمون في عصورهم الذهبية العلمية الحضارية، قبل مرحلة الانحطاط الذي نزل بهم.

ومع تقدّم هذه الشعوب غير المسلمة في العلوم الكونيّة الطبيعيّة، ظهرت لديهم مذاهب فكريّة معاصرة كثيرة، قائمة على إنكار الخالق عزّ وجلّ وعدم الإيمان به، أو على عزل الدّين وتعليماته في شؤون الكون والسلوك الإنساني، وعزل ما جاء به الرُّسل عليهم السلام بالنسبة إلى شؤون الحياة الدُّنيا كلّها، وكان وراء ظهور هذه المذاهب المعاصرة المكر اليهودي، ومخططاته الرّاميّة إلى محاربة الدّين، والأخلاق، والنظم الاجتماعيّة التي تربط الجماعات الإنسانيّة برباط وحدة متماسكة.

ولمّا زحف الاستعمار الغربيّ إلى بُدان العالم الإسلاميّ، الذي أضعفه وفكّكه بُعده عن أسس الإسلام وصراطه المستقيم، زحفت معه العلوم الكونيّة الطبيعيّة وما هو مندرسٌ فيها من باطل، وزحفت معه المذاهب الفكريّة المعاصرة الفلسفيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والنفسيّة والأدبيّة وغيرها.

لقد كان المسلمون يعانون من عُقدة التخلف والانحطاط الذي نزل بهم، ففتنوا بما جاءهم من الغرب، ثمّ بما جاءهم من الشرق، فابتلع كثيرون من المتطلعين إلى العلوم الكونيّة الطبيعيّة التي ترتقي بها الحضارة الماديّة، ما وفّد معها من زيوف، وما وفّد معها من مذاهب فكريّة معاصرة، فمنها ما يهدمُ الدّين من جذوره، ومنها ما يهدمُ نُظْمَهُ وشرائعه وأحكامه ووصاياه.

ثمّ بدأت الصّحوة الإسلاميّة ترجع إلى رؤوس كثير من مفكري المسلمين، من دارسين على المناهج الغربيّة، ومن دارسين لعلوم الدّين وأسس الفكريّة والعلميّة، فتوجّه هؤلاء للتّنبه على وجوب فضل المُندسّات الباطلات في العلوم عنها، وللتحذير من المذاهب الفكريّة المعاصرة، ونقّدها وكشّف زيوفها^(١).

(١) يمكن الاستفادة في هذا الموضوع من كتاب: «كواشف زيوف في المذاهب الفكريّة =

فعلى حامل الرسالة المتخصص أن تكون لَدَيْهِ معرفة ما بهذه المذاهب،
وقُدْرَةٌ على بيان ما فيها من زيوف، وعلى إقناع المفتونين بها من المسلمين
وغيرهم بالحقّ الذي جاء به الإسلام، وبأنه هو الخير لإسعاد الناس،
ولتَقْدُمِهِمُ الحضاريّ السليم.

* * *

- وأما القسم الخامس: وهو قسم البحوث التي تكشف وسائل
وأساليب الغزو الفكريّ الذي تعرّض له المسلمون من قِبَلِ أعداء الإسلام،
ففيما يلي بيانٌ موجزٌ حوله.

على الرغم من وصول المسلمين إلى حالة التَّخَلُّفِ التي سبق بيانها
أنفأ، وانتشارِ الأُمِّيَّةِ بينهم، فقد كان اعتزازهم بماضيهم، وارتباطهم بالإيمان
بالله وبرسوله محمد ﷺ، وارتباطهم بالقرآن، وإيمانهم بأنه لا يأتيه الباطل من
بين يديه ولا من خلفه، قد جعلهم في حِصْنِ نَفْسِيّ حَصِينٍ يَصْعُبُ جدًّا
اختراقُه وتهديمه من داخله إلاّ بأسباب شتّى ووسائل شيطانيّة مآكرة، تَعْتَمِدُ
على الحيلة وازتداء الأفتعة الخادعة المزورة الكثيرة.

وهذا ما اتَّخذه أعداء الإسلام لينشروا في المسلمين مفاهيم الباطلة،
والقوانين الموضوعيّة بدل أحكام الفقه الإسلامي، والسلوك المنحرف عن
صراط الله المستقيم، وقد دخلوا بها إلى بُلْدَانِ العالم الإسلاميّ مع دخول
جيوشهم الاستعمارية الغازية، في استعمار مادّيّ سافر، أو في استعمار
مُسْتَخْفٍ غير ظاهر.

وقد هيأ الله عزّ وجلّ طائفة من أهل الفكر الإسلاميّ، لكشف حيلِ
أعداء الإسلام، ووسائلهم الكثيرة، وأساليبهم الرامية إلى إخراج المسلمين

= المعاصرة» للمؤلف. وكتاب «المذاهب الفكرية المعاصرة» للأستاذ محمد قطب.

عن دينهم إخراجاً كلياً أو جزئياً، وإبعادهم عن حصونهم الفكرية والاعتقادية والنفسية والسلوكية، وتطويعهم حتى يتقبلوا أن يكونوا خاضعين لاستعمار الغرب الكافر بدين الإسلام لهم.

وكان هذا الكشف محدوداً في مقالات متناثرات في صحف ودوريات وبعض فصول من كتب، ولم تكن قد دُوِّنت به كتب محررة تبين أسس هذا الغزو الفكري، وتبين مناهجه ومخططاته وخطواته، ومراحله، ووسائله وأساليبه وحيلته وعناصره، كما لم يكن لدى المسلمين تأريخ له متابع لتحركاته، سواء ما كان منه بالمساعي الكيدية التي تولي كبرها اليهود، أو قام بها المبشرون بالنصرانية، أو المستشرقون، أو المستعمرون، أو الملاحدة الشيوعيون، أو غيرهم.

ثم ألهم الله ذوي غيرة من المسلمين الذين جعل في أيديهم بعض سلطات إدارية، فاستجابوا لمطالب أهل الفكر والرأي والقلم من أساتذة بعض الجامعات، فأدخلوا في المواد الدراسية ببعض الكليات الجامعية مادة دراسية باسم «الغزو الفكري».

وكنّت أحد الذين اشتركوا في هذا بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، وأسند إليّ فيها تدريس هذه المادة التي سبق أن كتبت فيها أكثر من ألف حديث يوميّ كان يُدّاع من إذاعة الرياض عقب نشرة الأخبار التي كانت تُذاع في الساعة العاشرة والربع ليلاً، باسم «برنامج أعداء الإسلام» الذي استمر أكثر من ثلاث سنوات متتابعات.

ثم دُوِّنت هذه البحوث وغيرها في كتب خاضعة لأسس التصنيف والتفعيد والتنظيم الشجري^(١)، وكتب كاتبون آخرون كتباً في الغزو الفكري صالحة للتدريس والدراسة، وغدّت المادة علماً يدرس بحمد الله وتوفيقه.

(١) انظر مجموعة الكتب المدرجة تحت عنوان «أعداء الإسلام» للمؤلف.

فعلى حامل الرسالة المتخصص وعلى كل مؤمن مُسلم متعلّم أن يكون على علم بما تشتمل عليه هذه المادة من بحوث، ليُحذّر جماهير المسلمين من مكايد أعداء الإسلام في كل مجالٍ من مجالات الحياة.

- وأما القسم السادس: وهو التمكن من التحدّث بلسان القوم الذين يؤدّي حامل الرسالة رسالته بينهم، إذا كان لسانهم مخالفاً لِلُغَتِهِ الأُمّ التي تعلّمها منذ نشأته، ففيما يلي بيان موجز عنه:

الإسلام دين أنزلهُ اللهُ عزّ وجلّ في خاتمة رسالاته للناس، وجعلهُ ديناً للناس أجمعين حتّى آخر حياة الناس في الأرض، وبعث به رسوله محمداً ﷺ للناس كافة، وأمرهُ أن يُعلّم الناس جميعاً بهذه الحقيقة، فقال له في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ... ﴾

وخاطب الله عزّ وجلّ في تمّة هذه الآية الناس أجمعين بقوله تعالى:

﴿ فَاقْبَلُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيَّ الَّذِي الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

ولمّا كان المسلمون مسؤولين عند الله عن تبليغ هذا الدين للناس أجمعين، كما سبق به البيان في الباب الأول من هذا الكتاب، فإنّ حملة رسالة الدعوة إلى هذا الدين وتبليغه للناس، مكلفون أن يُبلّغوه على وجه يفهمه كل قوم بلُغَتِهِمْ، ولا يتحقّق هذا التبليغ ما لم يتعلّم مُبلِّغ كل قوم لُغَتَهُمْ الخاصة إذا لم يكن على علم بها، وقُدرة على أن يخاطبَهُمْ ويُفهمَهُمْ ويُقنعَهُمْ بها.

ويمكن تحقيق هذه الغاية باستقدام جماعات من كل قوم، وتعليمهم

العربية، فإذا أسلموا واستقاموا اختير منهم صَفْوَةٌ ليكونوا دعاة إلى دين الله من المستوى التخصصي، وليقوموا بين أهل لغاتهم بتبليغهم هذا الدين ودعوتهم إليه.

فما لا يتحقق الواجب إلا به فهو واجب بالبديهة العقلية.

* * *

- وأما القسم السابع: وهو متابعة العلوم والثقافات المعاصرة في مُسْتَجِدَّاتها، ومتابعة الأحداث الإنسانية وصفات مجتمعاتها، ومتابعة واقع المسلمين المعاصر، في مختلف بلدان العالم، ليستفيد منها حامل الرسالة في أداء رسالته على أحسن وجهٍ يستطيعه، بحسب إمكاناته واستعداداته الفطرية، ففيما يلي بيان موجز حوله.

إنَّ ممَّا هو ملاحظٌ لكلِّ الناس أنَّ العلوم والثقافات في حركة تَطَوُّرٍ مُسْتَمِرٍّ، وفيها دائماً مُسْتَجِدَّاتٌ ينفع العلم بها حامل رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصح والإرشاد.

وكذلك الأحداث الإنسانية، وتطورات المجتمعات البشرية تأتي دائماً بجديد يفيد حامل الرسالة لدى أدائه رسالته.

وقد سهلت وسائل الإعلام المعاصرة هذه المتابعة المفيدة، على أن من أهم الأحداث الإنسانية ما يتصل بواقع حال المسلمين المعاصر، سواء أكانوا أكثرية في بلدان إقامتهم أم أقلية، ولا يليقُ بحامل الرسالة أن يكون جاهلاً بها.

وهذا القسم ليس مادة دراسية تُدرَّسُ في كتب، إلا أنه يتطلَّبُ متابعةً دائمة مع رحلة الحياة.

وينبغي أن تُوجَدُ مؤسسة إسلامية، أو فصيلة من فصائلها، تقدِّم

خلاصات موجوات شهريًا أو أسبوعيًا، لأهمّ المُسْتَجِدَّات والأحداث الإنسانية، بما فيها واقع حال المسلمين المعاصر، ليطلع عليها المسلمون، ولا سيّما حملة الرسالة منهم، بأقلّ جَهْدٍ وزمن، ليوقروا على أنفسهم ساعاتٍ كثيرات في متابعة ما نشره وسائل الإعلام المملوءةُ بغثِّ كثير، وسمين قليل لا يُنتقى إلاّ بجهد جهيد وصبر مديد، وتمييز للحقّ من الباطل.

* * *

- وأما القسم الثامن: وهو الإلمام المناسب بالتاريخ البشري، والإلمام المناسب بجغرافية العالم القديم والحديث، ولا سيّما تاريخ الأمة الإسلامية بدءاً من سيرة الرسول ﷺ، وحياة النُخبة الرائدة من أصحابه الكرام، ولا سيما أيضاً جغرافية العالم الإسلامي بحسب أطوارها امتداداً وانحساراً، ففيما يلي بيان موجز عنه:

إنّ الداعي إلى دين الله يحتاج في دعوته إلى علم ما بالتاريخ البشري، وما تعرّضت له الأقوام والأمم من إهلاك وتدمير بسبب تكذيبها رُسل ربّها، وبسبب فسقها وفجورها وظلمها وطغيانها.

وقصصُ الأنبياء مع أقوامهم في مقدّمة هذه الدراسة التاريخية لما فيها من العظات التي تَصْلُح في مجال الدعوة إلى دين الله، وفي بيان أنّ الرسالات الرّبّانية واحدة في أصولها الاعتقادية والأخلاقية والتعبديّة.

ويحتاج أيضاً إلى علم بجغرافية العالم القديم لتحديد أماكن الأقوام الذين أهلكوا بسبب كفرهم وظلمهم وطغيانهم، والتعرّف عليها، فالعلم بها والتعرّف عليها بالمباشرة، أو عن طريق الصُّور والرسوم يفيد في تعميق الاتعاظ بالمهلكين الأولين.

ولأهميّة معرفة تاريخ المهلكين الأولين من أهل القرون الأولى، ومشاهدة آثار مواطنهم التي أهلكوا فيها، جاء في القرآن المجيد خمسة

نصوص قرآنية تتضمنُ التوجيهَ للسير في الأرض بغيةً مشاهدة آثارهم، وكيف كانت عاقبة إجرامهم وتكذيبهم رسلَ ربهم، وأول هذه النصوص بحسب ترتيب النزول قول الله عز وجل في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) خطاباً لرسوله فلكل داعٍ إلى الله من أمته:

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (١١١)

ثم أنزل الله عز وجل قوله في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) خطاباً لرسوله أيضاً فلكل داعٍ إلى الله من أمته:

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (١١٢)

فأضاف هذا النص فكرتين:

الأولى: فكرة البحث والتنقيب للتوصل بعد حين إلى النظر في آثار المهلكين الأولين، دل عليها العطف بحرف العطف «ثم» بخلاف ما جاء في سورة (النمل) فقد جاء العطف فيه بالفاء: ﴿ فَانظُرُوا ﴾ فدلّت على الآثار الظاهرة التي لا تحتاج إلى بحث وتنقيب وحفريات.

الثانية: فكرة التكذيب لرسول الله، والتكذيب بما جاءوا به عن الله، فهم مجرمون بلغوا ذرّة الإجرام بسبب تكذيبهم بما أتاهم عن الله على السنة رُسُلُه، فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾.

ثم خاطب الله المكذبين خطاباً مباشراً منه، فأنزل قوله عز وجل في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (١١٣)

ثم أضاف النص الذي أنزل في الآية (٤٢) من سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول) فكرة أن أكثر المهلكين الأولين كانوا مشركين.

ثم أضاف النص الذي أنزل في الآية (١٣٧) من سورة (آل عمران/ ٣

مصحف/ ٨٩ نزول) فكرة أن إهلاك المكذبين سُنة من سُننِ الله في عباده.
فتكاملت النصوص في دلالاتها.

والعلم بتاريخ الأمة الإسلامية بدءاً من سيرة الرسول ﷺ والعلم بحياة النخبة الرائدة من أصحابه الكرام فالتابعين لهم بإحسان، يفيد حامل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في تقديم نماذج الأسوة الحسنة لدى تأديته رسالته، ومن المُشاهد أن للتاريخ تأثيراً عظيماً في النفوس، فقَصَصُ الأسوة الحسنة في العلم والخلُقِ والتقوى والورع والجهاد من شأنها أن تحرك النفوس الصالحة للاقتداء بها، ولترسُمِ خطواتها في حياتها.

مع ما في عرض تاريخ أمجاد الأمة الإسلامية من شَحْنِ نُفُوسِ الأحفاد، بالاعتزازِ والافتخارِ بأمجادِ وبُطُولاتِ الأجداد، وهذا يُؤلِّدُ في النفوسِ شِدَّةَ الارتباطِ بهذه الأمةِ المجيدة، وعَدَمَ التخلِّي عن الانتماء إليها وإلى مبادئها، التي كانت سَبَبَ تَحْقِيقِ أمجادها في التاريخ.

ويرتبط بدراسة التاريخ البشري معرفةً جغرافيةً الأرض التي عاشت فيها الأقوام والشعوب السالفة، وتعيش فيها الأقوام والشعوب المعاصرة، فهذه الدراسة ذات فائدة جدًّا للدُّعاة إلى دين الله، وللآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والناصحين المرشدين.

ومن المهمّ جدًّا دراسة جغرافية بلدان الدُّول والشعوب الإسلامية في أطوارها، امتداداً وتوسُّعاً بالفتوح وإسلام الشعوب، وانحساراً بالانحطاط والتخلُّف وما جرّه ذلك من هزائم في المعارك الحربية التي واجه بها المسلمون الغزاة من الصليبيين والوثنيين والملاحدة.

* * *

البَابُ الثَّلَاثُ

قَوَاعِدُ وَوَصَايَا كَلِّيَّةٍ عَامَّةٍ

وبيان لطائف من آفات حملة الرسالة

وفيه مقدمة وفصلان :

الفصل الأول : قواعد ووصايا كَلِّيَّةٍ عَامَّةٍ .

الفصل الثاني : آفات حملة الرسالة .

مقدمة

فتح الله عز وجل في هذا الباب باستخراج قواعد كلية، ووصايا عامة، تنفع حامل الرسالة المتخصص وغير المتخصص.

ولكن بعض هذه القواعد والوصايا ليست بمثابة الأختام التي تُطَبَعُ عند كل حالة، وفي كل الظروف، إنما هي بمثابة العلاجات والمستحضرات الصيدلانية، التي يَنْتَقِي منها الطبيب الحكيم ما يلائم الشخص الذي يُعالِجُه، والحالة المرضية التي يُعاني منها.

فَرُبَّ عِلَاجٍ يَصْلُحُ لبعض الناس، وهو نفسه لا يصلح لبعض آخر من الناس، لاختلاف البيئة، واختلاف العادات والمآكل والمشرب، ورُبَّ علاج يصلح لحالة مريض من المرضى، في حين يكون هذا العلاج نفسه ضاراً جداً بالنسبة إلى مريض آخر.

وكما يجب على الطبيب أن يلاحظ المقادير والأوقات لاستعمال العلاج الملائم، ملاحظاً أنه إذا زاد في المقادير، أو أساء في تحديد الأوقات، كان علاجه ضاراً، وربما كان قاتلاً، فعلى حامل الرسالة أن يكون حكيماً في الانتقاء من هذه القواعد والوصايا، وحكيماً في تحديد المقادير، وتحديد الأوقات، واختيار الأسلوب الذي يؤدي به رسالته أداءً ناجحاً موفقاً، يعطي النتائج الحسنة المرجوة من عمله إن شاء الله.

إن حامل الرسالة لا يتعامل مع جامدات، ولا مع نباتات ولا مع بهائم

ذواتِ طبائعٍ متماثلةة، إنّما يتعامل مع بشرٍ ذوي إراداتٍ حُرّة، وطبائعٍ مختلفة، ونفوسٍ ذواتِ صفاتٍ مُعقّدة متشابكة، تحتاجِ فِراسةً، وحُسنَ بصيرة، وتجرباتٍ تُكتسبُ بها خبراتٌ واسعات.

فما يصلحُ لبعضِ طبائعِ الناسِ لا يصلحُ لآخرينِ مخالفينِ لأولئكِ في الطّباع، وما يصلحُ لصفاتِ بعضِ النَّاسِ لا يصلحُ لصفاتِ آخرينِ مخالفينِ لهم في صفاتهم، فالحليم مثلاً يلائمه أسلوبُ علاجيّ، وحادُّ الطّبع الغضوبُ يلائمه أسلوبُ علاجيّ آخر.

وما يصلحُ توجيهُهُ لمؤمنٍ لا يصلحُ توجيهه لشاكِّ في الدين، أو كافرٍ بالإسلام، أو مُلحدٍ لا يُؤمنُ بالله ولا بالدّينونة والجزاء.

وما ينفعُ في إنسانٍ لديه خوفٌ مامن الله ونِقْمَتِهِ، لا ينفعُ في إنسانٍ عاصٍ مُسرفٍ على نفسه، مُستغرقٍ في الغفلات، منغمسٍ في الشهوات.

ولليهوديّ الذي نَبَتَ في مَنابِتِ المكر والكذب والحيلة والحرص على أن يكون اليَهُودُ سادة النَّاسِ أجمعين، أسلوبٌ دَعَوِيٌّ يلائمه.

وللنصرانيّ أسلوبٌ آخر يلائمه، ولمن يستحلُّ الكذب أو يُوجِبُهُ تقيّةً أسلوبٌ يتفقُ معَ ما يَعتَقِدُه، وللوثنيّ أسلوبٌ يلائمه، ولمن يَرى تقديسَ العقل والوسائل والأدلة العلمية المادية أسلوبٌ يلائمه، وهكذا إلى سائر أصنافِ الناسِ وسائرِ طبائعهم، وعلى الحكيم أن ينتقي ويختار ويستفيد من التجربات.

إلّا أنّ بعض هذه القواعد يجب الالتزام بها دوماً لأنها بمثابة التنفُّس لحامل رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة النُّصح والإرشاد والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وقد يجد مُطالعُ هذا الكتاب تفصيلاً موسعاً، وشرحاً مستفيضاً لكثير

من هذه القواعد والوصايا، في أبوابِ وفصولِ هذا الكتاب، إلا أنني رأيتُ الحاجةَ داعيةً إلى جَمْعِهَا موجزةً في هذا الباب على شكل قواعد، تيسيراً لاستيعابها وحفظها واستذكارها.

ورأيتُ أن أجعلَ هذا الباب سابقاً لمعظم الأبواب التي تشتمل على التفصيلات الموسَّعة والشُّروح المستفيضة، ليكون بمثابة المَتْنِ المختصر الذي يستتبعُ الشَّرْحَ الموسَّعَ بالأدلة والشواهد من القرآن والسنة، على أن بعض هذه القواعد قد سبق في الباب الثاني شرح له وتفصيل.

وبالله التوفيق والسداد.

* * *

الفصل الأول

قواعد كلية بوصايا لحامل الرسالة

وفيه إحدى وخمسون قاعدة:

القاعدة الأولى: على حامل الرسالة أن يكون مؤهلاً تأهيلاً علمياً وتأهيلاً بيانياً، للمستوى الذي يُريدُ أن يضطلع بمهامه لدى أدائه رسالته، وأن يكون متمكناً تمكناً كافياً من الموضوع الذي يُريد أن يُعرِّف به، ويشرحهُ للمتلقين، وقادراً على عرض أفكاره حوله، وردَّ الشُّبُهَاتِ الَّتِي يُمكنُ أن تردَّ على عناصر موضوعه الذي يُريد بيانهُ وشرحه.

القاعدة الثانية: على حامل الرسالة أن يكون مخلصاً لله في أدائه رسالته، متجرداً من المصالح الشخصية الدنيوية لدى من يُوجِّهُ لهم رسالته، ليكون أدائه لها بينهم مرجوً التأثير.

القاعدة الثالثة: ينبغي لحامل الرسالة أن يكون قويَّ الإرادة، واثقاً من نفسه، ثابتاً رابطاً الجأش، جواداً بوقته وماله ونفسه، وهذه الصفات قد يكتسبها من التمكن العلمي، والتمكُّن البياني، والإخلاص لله عزَّ وجلَّ في أدائه رسالته، ومن الممارسة الطويلة، مع التوكُّل على الله والاعتماد عليه والثقة به.

القاعدة الرابعة: ينبغي لحامل الرسالة إذا أراد أن يُؤدِّي بعض وظائف

رسالته البيانية، أن يُحسِنَ اختيارَ الموضوع الذي يريد بيانه لجمهوره مراعيًا في اختياره واقع حالهم، وأن يُحسِنَ تناوله من أسسه وجذوره الفكريّة إلى سوقه وفروعه، وأن يكون حكيماً في بيان ترابط الأفكار ترابطاً منطقيّاً، وأن يكشف ما استطاع سرايين وأوردة وأعصاب الترابط، وأن يُحسِنَ اختيارَ الزمان والمكان الملائمين لاستماع الجمهور وتقبّلهم.

القاعدة الخامسة: يُحسِنُ بحامل الرسالة المعلم أن يستثير في نفوس المتلقين عنه ما يجعلهم يسألون عما يريد أن يعرفهم به، أو يهديهم إليه، حتى يكون ما يلقيه إليهم جواباً على مطلوب لهم، أو تساؤلات يطرحونها أو يرغّبون في طرحها.

وينبغي له أن يترك لهم فرصة لطرح بعض التساؤلات حول الموضوع الذي يريد إعلامهم به، وشرحه لهم، ليكون البيان جواباً لسؤال مطروح، أو حلاً لإشكال قائم.

القاعدة السادسة: على حامل الرسالة أن يبدأ مع من يدعوه من نقطة الخلاف الرئيسيّة، بالاستناد إلى المسلّمات بينه وبين من يدعوه.

القاعدة السابعة: على حامل الرسالة أن يتقيد بالاستدلال بالحق، وأن يجتنب الاستدلال بالأباطيل والأكاذيب والموضوعات المفتريات، فالحق لا ينصر إلا بالحق.

القاعدة الثامنة: لا يُحتج على المخالف بحجّة لا يؤمن بها، فالذي يجحد النصوص الدينيّة لا يستدل لإقناعه بها.

القاعدة التاسعة: من رأيتُه يُغالط في دليلك فانقله إلى دليل لا يستطيع أن يُغالط فيه.

القاعدة العاشرة: على حامل الرسالة أن يكون في مقدّمة المؤمنين بما

يَدْعُو إِلَيْهِ، والملتزمين بأحكامه، حتى يكون قُدْوَةً حَسَنَةً، ومؤثراً بحاله أكثر من تأثيره بمقاله، وأن يَبْدَأَ بِدَعْوَةٍ وَإِصْلَاحِ عَشِيرَتِهِ الْأَقْرَبِينَ.

القاعدة الحادية عشرة: على حامل الرسالة الثباتُ عَلَى الْحَقِّ، والاستقامةُ عَلَى صِرَاطِ اللَّهِ، مَهْمَا وَاجَهَ مِنْ عَقَبَاتٍ وَصَعُوبَاتٍ وَمُعْرِياتٍ.

القاعدة الثانية عشرة: على حامل الرسالة أن يدأب في القيام بأداء وظائف رسالته بِصَبْرٍ وَحِلْمٍ وَتَحَثُّلٍ لِلأَذَى، وكلما يش من فردٍ أو جماعة انتقل إلى آخَرِينَ غَيْرِ مِيثُوسٍ مِنْهُمْ.

القاعدة الثالثة عشرة: على حامل الرسالة أن لا يُمَيِّزَ طَبَقَةً اجْتِمَاعِيَّةً مِنَ النَّاسِ عَلَى طَبَقَةٍ لَدَى قِيَامِهِ بِأَدَاءِ وَظَائِفِ رِسَالَتِهِ، فالطبقات الاجتماعية أمام الدِّينِ وَتَعَالِيمِهِ سَوَاءٌ.

القاعدة الرابعة عشرة: على حامل الرسالة أن يَتَلَطَّفَ وَيَرْفُقَ بِمَنْ يُوجَّهُ لَهُ بَعْضُ مَضَامِينِ رِسَالَتِهِ، وَأَنْ يَكُونَ حَسَنَ الْمَجَامِلَةِ وَالْمُعَامَلَةِ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَأَنْ يَتَحَلَّى بِالِاغْتِصَاءِ عَنِ السَّيِّئَةِ الَّتِي تُوجَّهُ ضِدَّهُ، وَبِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ، وَأَنْ يَكُونَ هَاشِئًا بِأَشْأَا لَا عَبُوسًا قَمَطِرِيرًا^(١)، وَأَنْ يَكُونَ هَمُّهُ الْإِصْلَاحَ وَالنَّصِيحَةَ، لَا التَّشْهِيرَ بِالنَّاسِ وَالْفَضِيحَةَ.

القاعدة الخامسة عشرة: ينبغي لحامل الرسالة أن يكونَ دَوَامًا هَيِّنًا لِيُنَاقِشَ حَسَنَ الْعِلَاقَاتِ الْجَمَاعِيَّةِ بِجَمِيعِ أَفْرَادِ مَجْتَمَعِهِ، لِتَأْلِيفِ الْقُلُوبِ، وَعَقْدِ الْمَوَدَّاتِ، وَاِكْتِسَابِ حُبِّ النَّاسِ وَتَقْدِيرِهِمْ لَهُ.

القاعدة السادسة عشرة: من وسائل تأليف القلوب وإزالة عَقَبَاتِ النُّفُوسِ، الْإِحْسَانُ إِلَى النَّاسِ وَصُنْعُ الْمَعْرُوفِ، فَعَلَى حَامِلِ الرِّسَالَةِ أَنْ يَسْتَخْدِمَ ذَلِكَ مَا اسْتَطَاعَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا.

(١) القمطيرير: المجتمع المتقبض، وهو عكس المنبسط المنفرج الأسارير.

القاعدة السابعة عشرة: ينبغي لحامل الرسالة أن لا يُبَيِّرَ سُكُوكاً
وَجَدَلِيَّاتٍ افترضية بُغْيَةَ الإجابة عليها.

فإذا طُرِحَتْ مِنْ قِبَلِ المدعُوِّينَ أو المتلقِّينَ لبيانات مسائل الدِّينِ أَجابَ
عليها بمقاديرها، ولا يَزِيدُ مِنْ عنده شيئاً، ثُمَّ إِذَا طُرِحَ غَيْرُهَا مِنْ قِبَلِهِمْ أَجابَ
عليه، وهكذا، تَأْسِيّاً بالمنهج القرآني.

القاعدة الثامنة عشرة: على حامل الرسالة أن يكون مقتنعاً اقتناعاً تاماً،
ومنفعلاً انفعالاً حقيقياً بما يُريدُ توصيلَهُ إلى غَيْرِهِ من عناصر رسالته.

القاعدة التاسعة عشرة: على حامل الرسالة أن لا يُبذِّرَ بِجُهودِهِ وَبِوَقْتِهِ
الشمينِ في الَّذِينَ دَلَّتِ التجربات على أَنَّ قابليَّتَهُم للاستجابة غير مطموعٍ فيها.

القاعدة العشرون: إِذَا دَعَتْ حَالُ مُتَلَقِّي الرِّسَالَةِ لإقناعه مُجَادَلَتَهُ حول
قضية من قضايا الدِّينِ، فعَلَى حامل الرسالة أن يُجَادِلَهُ بالتِي هي أَحْسَنُ.

القاعدة الحادية والعشرون: ينبغي لحامل الرسالة أن يكون يقظاً دائم
التنبُّه للأحداث الطارئة، وأن يكون حَسَنَ المُعَالَجَةِ لكلِّ حَدَثٍ طارئٍ بما
يلائمه، مع رجاحة عقل وَرَوِيَّةٍ وَحِكْمَةٍ، وبدون ثَوْرَةٍ انفعالية ولا طَيْشٍ،
وبدون اندفاعٍ مع زُدُودِ الأفعالِ التَّلَقَّائِيَّةِ غير الواعية.

ويُنْبَغِي له أيضاً أَنْ يتكَيَّفَ مع المتغيِّراتِ الطارئاتِ بوسائلِ المعالجةِ
وأساليبها، دون أن يتنازل عن مبادئه وعن أيِّ شيءٍ ممَّا يؤمن به.

القاعدة الثانية والعشرون: ينبغي لحامل الرسالة أن يواجه الناس دوماً
بزيٍّ حسن، ومَظْهَرٍ جميل، ونظافة تامَّة، وأناقة جذابة عاديَّة تلائم وضعه،
حتى يكون لمظهره من الحُسْنِ ما تميل إليه النفوس والحواس، ولا يكون في
جَسَدِهِ أو بَرِّيَّتِهِ ما يُنْفِرُهَا، أو يجعلها تتقرَّزُ كراهية.

القاعدة الثالثة والعشرون: على حامل الرسالة أن يتَّبِعَ سياسة التَّدْرُجِ

والتنمية المتصاعدة علماً وعملاً، فيبني الأفكار بناءً تكاملياً صاعداً ويبدأ في التطبيقات العملية بالأهم فالمهمّ فما دون ذلك بحسب نظام الأولويات .

القاعدة الرابعة والعشرون: من الحكمة التربوية في بيانات حامل الرسالة أن يُنبّه المُتلقِّين على ارتباط كُلِّ فرعٍ يشرحه أو يُذكر به بالجذر الاعتقادي الذي يربطُ به .

القاعدة الخامسة والعشرون: على حامل الرسالة أن يهتمّ في بياناته بمحاصرة من يوجّه له رسالته من كلِّ أركانه الداخليّة: الفكرية والوجدانية والنفسية .

القاعدة السادسة والعشرون: من الحكمة أن يتصيّد حامل الرسالة الحريص على تأديتها في أحسن الظروف، المناسبات الملائمة للبحث والتوجيه، وأن يَحْتال لإيجاد المناخ المناسب الذي تفتح فيه نفوس المتلقين لتقبُّل ما يُوجّه لها .

القاعدة السابعة والعشرون: على حامل الرسالة أن لا يتَّخذ من الوسائل والأسباب إلا ما أذن به الإسلام .

القاعدة الثامنة والعشرون: ينبغي لحامل الرسالة المُهمَّتُم بتربية الأجيال المؤمنة المسلمة أن يَستخدم أسلوبَ بذرِ البزور في الأرض بسَترها، وتعهُّدها دواماً بعدَ نباتها حتّى تصيرَ أشجاراً قويةً سامقةً تُؤتي أكلها كُلَّ حينٍ بإذن ربِّها .

القاعدة التاسعة والعشرون: على حامل الرسالة أن يضع في حسابه دواماً أنّ الوضع الذي يتهيأ به انتشار الإسلام عن طريق الدعوة إلى الله هو الفتح الحقيقيّ الأعظم عند الله، وهو الأحقُّ بالاختيار من البدائل .

القاعدة الثلاثون: ينبغي لحامل الرسالة أن يُجزّئ توجيهه لجمهوره،

ويُباعِدُ بين مجالس موعظته، لثلا يَقَعُ المخاطَبُونَ والمتلقُونَ بالسَّامِ فيَنفِرُوا.

القاعدة الحادية والثلاثون: على حامل الرسالة الثبات والتحلي بالشجاعة الأدبية الحكيمة في قول الحقِّ ونُصْرَتِهِ بكلِّ الأحوال.

القاعدة الثانية والثلاثون: ليس على حامل الرسالة إلاَّ البلاغُ المبين، ولا يُسألُ عن عَدَدٍ من استجابَ له واتَّبَعَهُ، ولا يسألُ عن التغيير بيده للمنكر ما لم تكن لديه سلطة هذا التغيير داخل المسلمين.

القاعدة الثالثة والثلاثون: على حامل الرسالة أن يقدم مضامين رسالته بأساليب بيانيةً أدبيةً جميلة مشرقة، تستثير الرغبة في الاستماع والمعرفة.

القاعدة الرابعة والثلاثون: على حامل الرسالة وسائر المسلمين أن يعاملوا غير المسلمين بكلِّ فضائل الإسلام وتعاليمه وأخلاقه وشرائعه، ليكونوا دعاة إلى الإسلام بأحوالهم مع أقوالهم.

القاعدة الخامسة والثلاثون: على حامل الرسالة أن يغرس في المسلمين مشاعر الانتماء والولاء لله ولرسوله، ولكل ما ينتمي إليهما ومن ينتمي إليهما.

القاعدة السادسة والثلاثون: على حامل الرسالة الداعي إلى الله أن يبتعدَ عن مسائل الخلاف التي اختلفَ فيها علماء المسلمين، لدى دعوته لغير المسلمين، وليَحْذَرُ من التعصّب لمذهب أو رأي يراه هو الصواب ما لم يكن هو الأقرب لإقناع المدعوِّ والأبعدَ عن إثارة الشبهات في نفسه.

القاعدة السابعة والثلاثون: على الداعي إلى دين الله أن يُعلِنَ لدى حوَّارِهِ لمن يدعوهُ تَجَرُّدَهُ عن التعصّب لسوابق الأفكار التي يؤمن بها، وأنَّه حريص أن يبحث الموضوع الذي يدعو إليه، على مائدة بحث مشتركة سواء.

القاعدة الثامنة والثلاثون: على حامل الرسالة أن لا يَسُبَّ ما يُؤمن به

الكافرون من طواغيت لثلا يَسُبُّوا الله عَدُوًّا بغير علم، وَعَلَيْهِ أَنْ يُنَزَّهَ لسانه عن كلِّ ما فيه إيذاءٌ لكلِّ مَنْ يُريدُ هدايتهم، وعن كلِّ ما فيه استشارةٌ لمشاعر الغضب في نفوسهم.

القاعدة التاسعة والثلاثون: من الحكمة التربوية للاستفادة من التدرّيات العملية على السلوك الإسلامي، وغرسه في أعماق النفس، جعلها مقترنة بما تُحبُّه النفوسُ من مشاعر وجدانية سعيدة، ومشاعر أخرى تذوقُ بها لذاتِ مُباحاتٍ مما ترغَّبُ فيه من متاعِ الحياة الدنيا.

القاعدة الأربعون: حامل الرسالة الإسلامية الداعي إلى الله، هو بمثابة الطبيب الرحيم الناصح، لا ينظر إلى المخالف على أنه عدوٌّ ينبغي أن يتخلَّص منه، إنما ينظر إليه على أنه مريضٌ يُريدُ أن يُنقذه من مرضه، ويمكن أن يكونَ غنيمةً يَغْنَمُها للإسلام.

القاعدة الحادية والأربعون: على حامل الرسالة أن لا يحملَ من يقدِّونَ به على الأخذ بأشدُّ الأعمال وأشقَّها على نفوسهم، أو بأشدُّ الاجتهادات الفقهية، ما دام في الدينِ فسحةٌ وسعة.

القاعدة الثانية والأربعون: حامل الرسالة الذي يُربِّي تلاميذه والمستجيبين له، إذا وجَّه اهتمامه البالغ للصغار من أحكام الدين، وحملهم حملاً شديداً على الالتزام بها، جعلهم من حيث لا يشعرون يسقطون في ارتكاب كبائر الإثم، نظراً إلى أن كلَّ بني آدم خطاء، فلأن تكون خطيئته في الصغار خيراً من أن تكون خطيئته في الكبار.

القاعدة الثالثة والأربعون: على حامل الرسالة أن يُخاطبَ الناس على مقادير أفهامهم، وبما يُدركون من مستويات فكرية، وبما يعجبهم من أساليب بيانية، وبالأساليب المشوقة الجذابة.

القاعدة الرابعة والأربعون: على حامل الرسالة أن يتَّخَذَ وسائل لتوصيل دعوته وبياناته للنساء، ولو بأنَّ يَعْقِدَ مجالس يَخُصُّهُنَّ بها، على أن تكونَ مَخْفُوفَةً بما يجعل اللقاءَ بِهِنَّ مَصُونًا لا تكون فيه خلوات .

القاعدة الخامسة والأربعون: على حامل الرسالة أن يكون حسنَ الإصغاء والاستماع والإنصاتِ لمن يُوجِّهُ لَهُ رسالته، إذا أراد أن يتكلَّم، لِيَعْرِفَ مَا لَدَيْهِ من شُبُهَاتٍ، أو مُشْكَلَاتٍ، أو عرُوضٍ مزالِق، أو غيرها، فيعالِجَهَا بما يُلائِمُهَا عِلَاجًا حَكِيمًا.

القاعدة السادسة والأربعون: على حامل الرسالة أن لا يتجسَّسَ على المسلمين مُتَّبِعًا عوراتهم في بيوتهم ومنازلهم، وأن لا يُواجِهَ بمقالة التلويح إلا مَنْ كان مجاهرًا بمعاصيه، أمَّا المُتَسَتِّرُ بمعاصيه فِحَسْبِهِ أن يقول في شأنه قولاً عامًّا: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا، دون أن يُعَيِّنَ المقصود، لا بالاسم ولا بالوصفِ المميِّز، أو أن يَنْصَحَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ سِرًّا، وإلَّا كان فاضحاً له لا ناصحاً، وقاصداً للتشهير به لا إصلاحه .

القاعدة السابعة والأربعون: ينبغي لحامل الرسالة أن يُنَزِّلَ النَّاسَ منازلهم، تأليفاً لقلوبهم، ومِنَّةً إعطاءً ذي المكانة والوجاهة في قومه ما تحتاجه نفسه من تمجيدٍ وتقدير .

القاعدة الثامنة والأربعون: ينبغي لحامل الرسالة أن يكون خبيراً بمُجْتَمَعِهِ الذي يَعِيشُ فِيهِ، مُتَّبِعًا الاطلاع على أَحْدَانِهِ، حَتَّى يُحَسِّنَ تَوْجِيهَهُ، وَيُحَسِّنَ مَعَالِجَةَ كُلِّ حَدَثٍ بما يلائمه .

القاعدة التاسعة والأربعون: على حامل الرسالة أن يكون شديد الحذر من الانحياز إلى فئة دون أخرى، لأنَّه يجب أن يكون للجميع مُعَلِّمًا وناصحاً ومُرْشِدًا وأمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، وناصرًا للحق حَيْثُ كَانَ، وحاكماً على الباطل بأنه باطل حَيْثُ كَانَ .

القاعدة الخمسون: يَحْسُنُ بِحَامِلِ الرِّسَالَةِ أَنْ يَكُونَ جَوَادًا سَخِيًّا،
فَالجُودُ وَالسَّخَاءُ مِنْ أَعْظَمِ الصِّفَاتِ الَّتِي تُؤَلَّفُ الْقُلُوبَ وَتَمْتَلِكُ الْمَشَاعِرَ
النَّبِيلَةَ، وَتَعْقِدُ الْمَوَدَّاتِ .

القاعدة الحادية والخمسون: عَلَى حَامِلِ الرِّسَالَةِ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ، أَنْ
يَقْدُمَ فِي أَكْثَرِ أَحْوَالِهِ الْبُشَارَةَ عَلَى الْإِنذَارِ، وَأَنْ يَضْرِبَ عَلَى أَوْتَارِ الطَّمَعِ
بِثَوَابِ اللَّهِ الْجَزِيلِ، قَبْلَ أَنْ يَضْرِبَ عَلَى أَوْتَارِ الْخَوْفِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ فِي نَفُوسِ
مَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى سُلُوكِ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ، حَتَّى إِذَا يَبْسُ مِنْ اسْتِجَابَةِ
مَنْ يَدْعُوهُ، وَظَهَرَ لَهُ عِنَادُهُ وَكُفْرُهُ وَجَهَّ ثِقَلَ بَيَانَهُ لِلْإِنذَارَاتِ وَالتَّحذِيرَاتِ مِنْ
عَذَابِ اللَّهِ وَنِقْمَتِهِ فِي الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ عَلَى مَقْدَارِ مَا يَرَى مِنْ عِنَادِهِ وَإِصْرَارِهِ
عَلَى الْكُفْرِ وَالْجُحُودِ .

ومهما وجدَ لدى مَنْ يَدْعُوهُ، وَلَوْ قَلِيلاً مِنْ لِينٍ نَحْوَ قَبُولِ الْحَقِّ، فَتَحَّ
لَهُ أَبْوَابَ الطَّمَعِ بِغُفْرَانِ اللَّهِ وَعَفْوِهِ، وَقَدَّمَ لَهُ الْبُشْرِيَّاتِ الْمُرْتَبِطَاتِ بِإِيمَانِهِ
وَاتَّبَاعِهِ الْحَقِّ .

وفيما يلي شرح موجز لهذه القواعد إن شاء الله .

* * *

شرح القواعد

القاعدة الأولى:

«على حامل الرسالة أن يكون مؤهلاً تأهيلاً علمياً وتأهيلاً بيانياً للمستوى الذي يُريد أن يضطلع بمهامه لدى أدائه رسالته، وأن يكون متمكناً تمكناً كافياً من الموضوع الذي يُريد أن يُعرّف به ويشرحهُ للمتلقين، وقادراً على عرض أفكاره حولهُ، ورَدّ الشبهات التي يمكن أن تردّ على عناصر موضوعه الذي يُريدُ بيانهُ وشرحه».

الشرح:

إنَّ التأهّلَ العلميَّ والتأهّلَ البيانيَّ من الشروط الأساسية البديهية، التي يجب على حامل الرسالة أن يتحلّى بها، قبل أن يتصدّر للقيام بمهام أدائه وظائف رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة التّضح والإرشاد العام، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للجماهير.

فالجاهل لا يصلحُ بداهةً لحمل الرسالة بصفة عامة، وغير القادر على البيان لتوصيل المفهومات التي يُريدُ التعريف بها لا يصلحُ بداهةً لحمل رسالة للجماهير.

فإذا تصدّرَ الجاهلُ، أو غيرَ القادر على البيان لحمل الرسالة بصفة عامّة قياديّة، وأخذَ يهرفُ بما لا يعرف، أضرَّ وأساءَ إلى دين الله، ونفّرَ منه الناسَ،

وَجَلَبَ إِلَى نَفْسِهِ الْمَعْرَةَ بِالْجَهْلِ أَوْ بِالْعِزِّ^(١).

* * *

القاعدة الثانية:

«على حامل الرسالة أن يكون مخلصاً لله في أدائه رسالته، متجرداً من المصالح الشخصية الدنيوية لدى من يُوجّه لهم رسالته، ليكون أداؤه لها بينهم مرجو التأثير».

الشرح:

إنّ اتهام الناس لحامل الرسالة بالمصلحة الشخصية الدنيوية من أدائه رسالته بينهم، يُؤلّد في نفوسهم عَقَبَةً من رُدود أفعالها رَفْضُ الاستجابة لدعوته، والإعراض عن قبول نصائحه وإرشاداته، قبل أن يتفكّروا فيما يدعوهم إليه، ولا سيما إذا رأوا لَدَيْهِ دلائل أو أماراتٍ تُؤكّد صحّة ما يتهمونه به.

لكنّهم إذا اقتنعوا بأنّه مُخْلِصٌ في تأدية رسالته، يبتغي رضوان الله وثوابه، ولا يبتغي لديهم مصلحة شخصية دنيوية، من مالٍ أو جاهٍ أو سلطانٍ أو شهواتٍ أو نحو ذلك، فإنّهم ينظرون إليه بإكبار وتقدير، وتفتح آذانهم غالباً لاستماع ما يقول، وتفتح عقولهم لوعْيٍ ما يُوجّهه لهم من دعوة إلى الحقّ، أو نُصْحٍ وإرشاد، أو أمر بالمعروف ونهي عن المنكر.

فعلى حامل الرسالة أن يكون مخلصاً لله عزّ وجلّ في أدائه وظائف رسالته، وأن يُعلِنَ تَجَرُّدَهُ من كلّ مصلحة شخصية دنيوية عند الناس، قائلاً

(١) انظر مزيد شرح لمضمون هذه القاعدة في الفصلين الخامس والسادس من الباب الثاني «الصفات التي يجب أن يتحلّى بها حملة الرسالة».

كما قال كلّ رسول من رسل الله لأمة: لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على ربّ العالمين^(١).

* * *

القاعدة الثالثة:

«ينبغي لحامل الرسالة أن يكون قويّ الإرادة، واثقاً من نفسه، ثابتاً، رابط الجأش، جواداً بوقته وماله ونفسه، وهذه الصفات تأتيه من التمكن العلميّ، والتمكن البياني، ومن الإخلاص لله عزّ وجلّ في أداء الرسالة، ومن الممارسة الطويلة الأمد، في تجربات متكرّرات، مع التوكّل على الله، والاعتماد عليه، والثقة بمعونته، فإذا أضيفت إليها شجاعةً فطريّةً فيه ارتقت ارتقاءً مُدهشاً».

الشرح:

إنّ مواجهة الجماهير بما يُخالفُ معتقداتهم ومفهوماتهم في الحياة، وأنواع سلوكهم، بغية إقناعهم للتحوّل عن اتجاهاتهم التي هم فيها، والسلوك في صراط الله المستقيم عقيدة وعملاً، هو بمثابة إعلان حربٍ فكريّة على معتقداتهم ومفهوماتهم في الحياة، وحربٍ أُخرى ضدّ أنواعِ سلوكهم.

ومعلومٌ أنّ مفهومات الإنسان وعقائده وأنواعِ سلوكه جزءٌ من ذاتيّته، التي يمتلكها وحده، فهو لا يتنازل عنها ما لم يقتنع بالبدائل الأفضل له، لينبذها ويأخذَ الأفضل ويستمسك به.

والناس من طبيعتهم أنّهم حينما يجدون من يُعلنُ خلافَ مُعتقداتهم

(١) انظر مزيد شرح لمضمون هذه القاعدة في فصل «العقبات الصادة للتوجيه» العقبة الأولى: عقبة الانتهام بالمصلحة الشخصية، والفصل الثاني من الباب الثاني «وجوب تحلّي حامل الرسالة بصفة التجرد من المصالح الشخصية لدى من يؤدي بينهم رسالته».

ومفهوماتهم في الحياة وأنواع سلوكهم، يَقْفُونَ منه موقف الْحَذِرِ، فالمدافع فالمُحَارِبِ، ما لم يجدوا حامل الرسالة يتحلَّى بقوة الإرادة، والوثوق من نفسه بما يدعو إليه وينصَحُ به، مع الثباتِ ورباطة الجأش، ومع الحكمة في الاستدلال، والحكمة في أسلوب العرض والبيان، فإنهم عندئذٍ يشعرون داخلياً بأنه قد يكونُ لهم ناصحاً، وعلى خيرهم وسعادتهم حريصاً، وقد يظهر فيهم من يُتَابِعُه، لأنه كان بينه وبين نفسه مُسْتَنَكِراً ما عليه قومه، إلا أنه لم يكن يَمْلِكُ الجرأة ولا وُضُوحَ الرُّؤْيَةِ، حتى يكون حاملاً لمثل هذه الرسالة بينهم.

ثم متى وُجِدَ العَدَدُ القليل من المستجيبين لحامل الرسالة، وتكونت حَوْلَهُ حَلْقَةٌ من المتابعين المناصرين، تلاحق من ورائهم مَنْ لَهُمْ شِبَهُ ما.

ثم تَتَسَّعُ الحلقة، ويتكاثر الأتباع، حتى تتكوّن لحامل الرسالة جماعة ذات قُوَّةٍ يناصرونه ويؤازرونه، وينشرون ما تلقَّوهُ عنه في الناس.

ويستمرّ الاتّساع بحسب سُنَّةِ الله في الاجتماع البشري، ويظْهَرُ حزب الله قَوِيّاً، وتنتشر فروعهُ بحسب استعداد أفراد الناس للاستجابة، وتغيّر ما هم فيه من شرٍّ وفساد، إلى ما ينصحهم به حَامِلُ الرِّسَالَةِ من خيرٍ وصلاح.

* * *

القاعدة الرابعة:

«ينبغي لحامل الرسالة إذا أُرِدَ أن يُؤدِّيَ بعض وظائف رسالته البيانية أن يُحَسِّنَ اختيار الموضوع الذي يريد بيانه لجمهوره، وأن يُحَسِّنَ تناوله من أسسه وجذوره الفكرية، إلى سوقه، وفروعه، في درس هادىء، وأن يكون حكيماً في بيان ترابط الأفكار ترابطاً منطقيّاً، وفي كشف تسلسلها، سواءً بدأ من جَذْرِ شَجَرَتِهَا، أم من ساقها، أم من بعض فروعها، وعليه أن يكشف ما استطاع شرايين الترابط وأوردته، وأصولَ جملة العصبية وفُروعها، وعليه أن

يُحَسِّن اختيار الزمان والمكان الملائمين لاستماع الجمهور وتقبُّلهم ما يُلقَى إليهم».

الشرح:

إنَّ كلَّ موضوع من الموضوعات الفكرية الصحيحة التي لا خلط فيها ولا تلفيق يخضع للنظام الشجريّ في الوجود.

فالشجرة لها جذور وشرابين وأوردة وساقٌ أو أكثر، وفروعٌ ثم فروع فروع وأوراق وثمرات، وكلّ جزء منها له ارتباط، إمّا بالذي فوقه أو بالذي تحته أو بالذي فوقه وبالذي تحته معاً.

والإنسان في تكوينه الجسدي كشجرة بأعضائه وأوردته وأعصابه وخلاياه وأعماله ووظائف كلّ جزء منه، وكذلك كل حيوان في الوجود.

والوجود كلّهُ يخضع لهذا النظام الشجريّ، حتّى الموازين الفطرية الفكرية تخضع أيضاً للنظام الشجريّ.

فإذا أراد حامل الرسالة الربانية أن يبحث موضوعاً ما، أو يشرح لطلابه موضوعاً ما فعليه أولاً أن يتفكر فيه حتّى يكتشف شجرته الفكرية.

ثم من الأفضل والأكثر نفعاً أن يُقدِّمه للَّذين يتلقَّونه عنه في دَرَس هادىء، موضَّحاً لهم ترابط عناصره ضمن شجرته الفكرية التي اكتشفها، إذا كانت حالتهم الفكرية تتحمَّل ذلك.

وبهذا تتمكَّن المعارف الإسلامية في قلوب المتلقِّين مقرونةً بالاقتناع التام، إذ جاء العلمُ بها مُنَّسجماً مع النظام الفكريّ الذي فطر الله عزَّ وجلَّ عقولَ الناس عليه.

وينبغي أيضاً لحامل الرسالة إذا أراد شرح بعض الموضوعات الفكرية الإسلامية لجمهوره، أن يُحَسِّن اختيارَ الزَّمان والمكان الملائمين

لاجتماعهم، وللحالة النفسية التي يكونون معها مستعدين لتقبُّل ما يعرضه عليهم ويُعرفهم به، وللحالة الاجتماعية التي تحيط بهم، وتكون مؤثرة فيهم.

* * *

القاعدة الخامسة:

«يُحْسَنُ بِحَامِلِ الرِّسَالَةِ الْمُعَلِّمِ أَنْ يَسْتَشِيرَ فِي نَفْسِ الْمَتَلَقِّينَ عَنْهُ مَا يَجْعَلُهُمْ يَسْأَلُونَ عَمَّا يُرِيدُ أَنْ يُعَرِّفَهُمْ بِهِ، أَوْ يَهْدِيَهُمْ إِلَيْهِ، حَتَّى يَكُونَ مَا يَلْقِيهِ إِلَيْهِمْ جَوَاباً عَلَى مَطْلُوبٍ لَهُمْ، أَوْ تَسْأُولَاتٍ يَطْرَحُونَهَا، أَوْ يَرِغْبُونَ فِي طَرَحِهَا.

وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتْرَكَ لَهُمْ فُرْصَةً لَطْرَحِ بَعْضَ التَّسْأُولَاتِ حَوْلَ الْمَوْضِعِ الَّذِي يُرِيدُ إِعْلَامَهُمْ بِهِ وَشَرْحَهُ لَهُمْ، لِيَكُونَ الْبَيَانُ جَوَاباً لِسْأُولٍ مَطْرُوحٍ، أَوْ حَلًّا لِإِشْكَالٍ قَائِمٍ».

الشرح:

إِنَّ أَرْسَخَ الْعِلْمِ وَأَثْبَتَهُ وَأَوْضَحَهُ مَا أَشْبَعَ فِي الْإِنْسَانِ الرَّغْبَةَ فِي التَّعْرِفِ عَلَيْهِ، وَالْحِرْصَ عَلَى إِدْرَاكِهِ إِدْرَاكاً صَحِيحاً وَاضِحاً، وَهُوَ نَظِيرُ الطَّعَامِ الَّذِي يَكُونُ عَنْ جُوعٍ، وَالشَّرَابِ الَّذِي يَكُونُ عَنْ ظَمَأٍ.

وَقَدْ كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ فِي تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ، أَنْ كَثِيرًا مِنْ آيَاتِهِ قَدْ نَزَلَتْ جَوَاباً لِسْأُولٍ، أَوْ بَيَاناً لِحُكْمٍ اسْتَدْعَتْهُ حَادِثَةٌ وَقَعَتْ، أَوْ نَازِلَةٌ نَزَلَتْ، أَوْ رَدًّا عَلَى اعْتِرَاضٍ وَجَّهَهُ الْكَافِرُونَ، أَوْ تَعْلِيْقاً عَلَى حَادِثَةٍ جَرَتْ كَحَوَادِثِ الْغَزَوَاتِ لِلتَّوْجِيهِ وَاسْتِخْلَاصِ الْعِبَرِ، وَبَيَانِ الْأَحْكَامِ.

● فَمِمَّا نَزَلَ جَوَاباً عَلَى سْأُولِ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الأنفال/ ٨٨) مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

● ومما نزل بياناً لحكم استدعته حادثة وَقَعَتْ، قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي
سورة (التحریم/ ٦٦/ مصحف/ ١٠٧/ نزول):

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَىٰ مَرَضَاتٍ أَرْوَجِيكَ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾ .

ومنه ما نزل في سورة (النور/ ٢٤/ مصحف/ ١٠٢/ نزول) بشأن حادثة
الإفك:

● ومما نزل ردّاً على اعتراض قول الله عز وجل في سورة
(الفرقان/ ٢٥/ مصحف/ ٤٢/ نزول):

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ
فِي الْأَسْوَاقِ... ﴿٢٠﴾﴾ .

ردّاً على اعتراض المشتركين إذ قالوا كما جاء فيها أيضاً:

﴿وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ... ﴿٧﴾﴾ .

● ومما نزل تعليقاً على حَدَثٍ جَرَى، النصوص الكثيرة التي نزلت
بمناسبة الغزوات وما جَرَى فيها .

إنّ هذا لَيَدُلُّنَا على أنّ من عناصر المنهج التعليمي التربوي الأمثل تَصَيُّدُ
المناسبات، واستشارةُ الأسئلة، لتوجيه البيان الديني الملائم، فهو الأسلوب
الأكثر تأثيراً وتثبيتاً، والأعظم نفعاً، وبه تكون رؤية عناصر الموضوع رؤيةً
أكثر وضوحاً وجلاءً .

* * *

القاعدة السادسة:

«يجب البدء من نقطة الخلاف الرئيسة بالاستناد إلى المسلمات بين
الداعي والمدعو، وعلى حامل الرسالة أن يقدم العقائد والمبادئ الإسلامية
الأولى مقرونة بحججها العقلية المنطقية، أو براهينها وأدلتها الحسية، انطلاقاً

من أَرْضِيَّةٍ ومفهومات يُسَلَّمُ بها المدعو إلى دين الله» .

الشرح :

ينبغي للداعي إلى الله أن يكون هو الآخذ بزمام المبادرة، فبيدًا مع من يدعوه إلى دين الله الحقّ من نقطة الخلاف الرئيسة الأولى، وأن يَبْنِي حوارَه معه على قاعدة من المُسَلَّماتِ الفكرية والعلمية التي يُسَلَّمُ بها كلا الطرفين: الداعي والمدعو، وأن يقدم له ما يدعوه إليه مقرونًا بالأدلة والبراهين التي يُسَلَّمُ بها.

هكذا كانت سياسة الرُّسل عليهم السلام في دعواتهم لأقوامهم، وهكذا يُبْنِي أن يكون عمل الدُّعاة إلى الله دوامًا.

وعلى الداعي إلى الله أن يكون شديد الحذر من أن يُسْتَدْرَجَ إلى جدليّاتٍ فكرية تتعلق بالفروع قبل تأسيس الأصول التي تتفرَّع عنها.

إن البحث في الفروع دون النَّظَرِ إلى ارتباطها بأصولها، يجرُّ إلى مناهاتٍ جدلية لا نهاية لها، ولا خلاصَ منها، وعن طريقها يجد الشَّخصُ المدعو منافذَ ومَسَارِبَ يروغُ فيها، ليتَهَرَّبَ من أن يُلْزَمَ بالحق، ويعترف به.

إن الفروع ولا سيما البعيدة منها عن الأصول تختلف وجهات أنظار الناس إليها، فيجادلون فيها جدلاً طويلاً، وكثيراً ما لا يصلُّ المتحاورون حَوْلَهَا إلى نتيجة مقنعة يُسَلَّمُ بها الطرفان المتنازعان المتحاوران، ولا تكادُ تتفق الأفكار على رأي ثابتٍ بشأنها ما دامت منقطعة الصلة بأصولها.

وقضايا الدين ترجع أصولها إلى الإيمان بالله ربًّا خالقاً لا ربَّ في الوجود غيره، وإلهاً معبوداً لا إله في الوجود يُعْبَدُ بحقِّ سواه، وأنَّ الله خلقَ الناس ليمتحنهم في ظروفِ هذه الحياة الدنيا، وليحاسبهم بعد البعث يوم الدين، وليفصل القضاء بينهم، وليجزئهم على ما قدَّموا وأخروا في الحياة الدنيا، والامتحان في الحياة الدنيا مادُّة أوامر الربِّ جلّ وعلا ونواهيهِ

وشرائعه التي يُبلِّغها للناس رُسُلُهُ، والتي تنزَلَتْ بها كُتُبُهُ، وكان مُحَمَّدٌ ﷺ خاتمَ الأنبياء والمرسلين، وكان القرآن الذي أنزل عليه خاتمَ كتب الله للناس أجمعين، وقد حفظه الله من كلِّ تحريف وتبديل وتغيير إذ شاء أن يجعله خاتمة كتبه، والحاوي على الدين الذي اصطفاه للناس أجمعين إلى أن تقوم الساعة.

وحين لا يضع الناس هذه الأصول لدى بحث أيَّة قضية من قضايا فروع الدِّين، فمن الصعب جدًّا أن يتَّفَقُوا على تحريم ما تشتهيه النفوس، وتميلُ إليه الأهواء، وأن يتَّفَقُوا مثلاً على وجوب عبادة الله بالصلوات المفروضة، أو بصيام شهر رمضان، أو بالزكاة، أو بالحجِّ، أو بغير ذلك من سائر أحكام فروع الدِّين في كلِّ مجال من مجالات الحياة.

فحين يرى المؤمنون بالإسلام عُرْيَ النساء واختلاطهم بالرجال وشيوع الفاحشة عملاً منكراً، ومُحَرَّمًا يستحقُّ العقابَ من باريء العباد، نجدُ غير المؤمنين بالإسلام أو بدين رباني لا يحرم هذه الأمور، يرون أنها ظاهرة طبيعية حَصَارِيَّة. وتعبيرٌ فطريٌّ ينبغي إطلاقه، ويرون أن حَجَرَ حُرِّيَّةِ النَّاسِ فِي هذا المجال كَبْتُ يُوَلِّدُ أمراضاً نفسية سيئة، ومهما قدّم الداعي إلى الحشمة والعفة وتحريم الفاحشة من أدلة، فإنَّ باستطاعة الداعي إلى إطلاق الحرية الجنسية أدلة كثيرة تُزيِّنُ ما يدعو إليه، وتُحَسِّنُهُ بزخرف القول، وتجد هذه الأدلة الزخرفية استجابةً لدى كثيرٍ من النفوس، لأنها تدغدغ الشهوات والأهواء وتَسْتَثِيرُها وترضيها.

ومن الفروع التي يَسْتَجِرُّ الْمُضِلُّونَ إِلَى المحاورَة حولها من أحكام الدِّين، ويَجُولون فيها بزخرف القول، ويؤثرون فيها على الذين لا علم لهم بالدِّين وأصوله، ولا علم لهم بالهدف من رحلة الحياة الدنيا، حُكْمُ إباحة تعدُّ الزوجات في الإسلام، وجَعْلُ الإسلام القوامة والطلاق بيد الرجل،

وَنُسْكُ رَمِي الْجِمْرَاتِ فِي الْحَجِّ، وَاسْتِلَامِ الْحَجْرِ الْأَسْوَدِ فِي الطَّوْفِ، وَأَشْبَاهُ
هَذِهِ الْأُمُورِ.

فَعَلَى الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ أَنْ يَأْخُذَ هُوَ زَمَامَ الْمُبَادَرَةِ فِي الْحَوَارِ، وَيَطْرَحَ
أَسْئَلَتَهُ حَوْلَ نَقْطَةِ الْخِلَافِ الْأُولَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ يَحَاوِرُهُ، وَأَنْ لَا يَتْرِكَ لِمَحَاوِرِ
مُتْرَاوِغٍ مَجَالًا يَسْتَجِرُّهُ فِيهِ إِلَى تَشْكِيكَاتٍ حَوْلَ فُرُوعِ أَحْكَامِ الدِّينِ، قَبْلَ اسْتِيفَاءِ
الْكَلَامِ حَوْلَ الْأَصُولِ الَّتِي تَتَفَرَّغُ عَنْهَا الْفُرُوعُ وَفُرُوعُ الْفُرُوعِ.

فَمَثَلًا: حِينَ يَكُونُ الْمَدْعُوُّ إِلَى دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ مَادِيًا مَلْحَدًا، يَعْتَقِدُ بَأَنَّ
الْوُجُودَ كُلَّهُ مَادَّةٌ لَا حَيَاةَ فِيهَا، وَهَذِهِ الْمَادَّةُ تَطَوَّرَتْ ضَمْنَ حَرَكَةِ آلِيَةِ ذَاتِيَّةٍ،
وَلَا تَزَالُ تَتَطَوَّرُ، وَبِسَبَبِ هَذَا التَّطَوُّرِ تَوَلَّدَتِ النَّبَاتَاتُ، ثُمَّ عَالَمُ الْأَحْيَاءِ، فِي
مُدْرَجِ هَرَمِيٍّ تَصَاعِدِيٍّ، وَيُظْهِرُ هَذَا الْإِعْتِقَادَ الْبَاطِلَ لَدَى شِيعِيِّ مُفْتَوِّنٍ
بِالْمَادِيَّةِ الْجَدَلِيَّةِ الْمَارِكْسِيَّةِ.

فَإِنَّ عَلَى الدَّاعِي إِلَى دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ أَنْ يَعْرِفَ أَوْلَى أَسْئَلَتِهِ حَوْلَ
الْمَادِيَّةِ، وَيَعْرِفَ الْحُجُجَ وَالْأَدْلَةَ الَّتِي تُسْقِطُهَا فِكْرِيًّا وَعِلْمِيًّا، وَأَنْ يَطْرَحَ
أَسْئَلَتَهُ مُحَاصِرًا مَنْ يَحَاوِرُهُ بِالْأَدْلَةِ الْبَرْهَانِيَّةِ، وَكَاشِفًا لَهُ أَنَّ الْمَادِيَّةَ الْجَدَلِيَّةَ
فِكْرَةً خِيَالِيَّةً وَهَمِيَّةً، لَا تَدْعُمُهَا دَلَائِلُ عَقْلِيَّةٌ، وَلَا شَوَاهِدُ عِلْمِيَّةٌ، وَمَبِينًا لَهُ
أَقْوَالَ كِبَارِ عُلَمَاءِ الْكُونِ الْمَحَايِدِينَ بِشَأْنِهَا، الَّتِي يَثْبُتُونَ بِهَا أَنَّهَا لَا تَمْلِكُ دَلِيلًا
صَحِيحًا يَثْبُتُهَا.

وَمِنْ أَدْلَةٍ سَقُوطِهَا أَنَّ عُلَمَاءَ الدَّوَلَةِ الشِّيعِيَّةِ الْمَارِكْسِيَّةِ الْعَظْمَى لَمْ
يَسْتَطِيعُوا طَوَالَ سِتِينَ عَامًا مِنَ الْبَحْثِ وَالدَّرْسِ وَالتَّجْرِبَاتِ الْكَثِيرَاتِ
الْمُخْتَلِفَاتِ، أَنْ يُولَدُوا مِنَ الْمَادَةِ الْمَيْتَةِ خَلِيَّةً حَيَّةً وَاحِدَةً، نَبَاتِيَّةً أَوْ حَيَوَانِيَّةً،
وَبِذَلِكَ سَقَطَتْ فِكْرَتُهُمُ الْقَائِلَةُ بِأَنَّ الْحَيَاةَ ظَهَرَتْ نَتِيجَةً تَطَوُّرَاتٍ ذَاتِيَّةٍ فِي
الْمَادَةِ.

وَحِينَ يَكُونُ الْمَدْعُوُّ إِلَى دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ نَصْرَانِيًّا يُؤْمِنُ بِالتَّثْلِيثِ، فَإِنَّ

على الداعي أن يبدأ معه من نقطة الخلاف، وهي قضية التثليث ويبيّن له أن الرب الخالق للكون لا يمكن أن يكون متعدّداً، ولا يمكن أن ينفصل منه جزء فيكون له ابناً، وأنّ مثل عيسى عليه السلام عند الله كمثّل آدم وحواء.

فكما أن آدم خلقه الله عزّ وجلّ من التراب دون أب ولا أم، وكما أن الله عزّ وجلّ خلق حواء من ذكر بلا أنثى، خلق عيسى عليه السلام من أمّ هي مريم عليها السلام بلا أب.

فإذا استجاب النصراني إلى الإيمان بأنّ عيسى عبّد الله ورسوله، تمكّن الداعي إلى الله من أن ينتقل به إلى عقائد الإسلام الأخرى حول الرسول ﷺ، وحول القرآن الذي أنزل عليه، وهكذا ارتقاءً إلى سائر العقائد فالشرايع فأحكام الفروع.

وأنبّه هنا على أنّ المبشرين بالنصرانية قد امتحنوا طرح حواراتهم التبشيرية بين المسلمين، بدءاً من أصول دينهم الباطلة التي يؤمنون بها، فأصيبوا بالهزائم الفكرية المنكرة.

إذاً كان عامّة المسلمين فضلاً عن طلاب العلم فيهم يستطيعون إبطال أصولهم الاعتقادية القائمة على التثليث والتجسّد بشخص إنسانية.

وحين تكاثرت عليهم الهزائم الفكرية في هذا المجال، حتى في البلدان النائية عن قلب العالم الإسلامي، وجّه قادتهم للعاملين في أنشطة التبشير بالنصرانية، الوصايا بأنّ يكفّوا نهائياً عن إثارة جدليات وحوارات ومناقشات حول أسس العقيدة النصرانية، وأن يقتصروا على توجيه الأسئلة الشكّية التي تُثير شبهات حول فروع الأحكام الشرعية الإسلامية، وأن ينشروا بين المسلمين العلمانية، وظواهر الحضارة الغربية والشرقية الكافرة، وأسلوب الحياة القائمة على الحريات الجنسية، وأن ينشروا بينهم المذاهب الفكرية المعاصرة المضادة لمبادئ الإسلام وشرايعه، فإذا تركوا الإسلام وأمسوا بلا

دين، أمكن يوماً ما جلبُ ذراريهم إلى النصرانية.

وأنبه أخيراً على أنّ من الخير لحامل الرسالة الإسلامية، أن يجتهد في استخراج الأدلة والبراهين لأصول الدين من القرآن الكريم والسنة المطهرة، ثم يعرضها بلغة العصر وأسلوب بيانه، ممّا يسهل على المعاصرين إدراكه وتفهمه، ويُسعِرهم بعد الافتناع بها بأنها أدلة قرآنية، أو أدلة نبوية، والجديد فيها هو أسلوب العرض، والبيان الملائم لطرائق البيان المعاصرة وأدلتيه وحججه.

* * *

القاعدة السابعة:

«على حامل الرسالة أن يتقيد بالاستدلال بالحق، وأن يجتنب الاستدلال بالأباطيل والأكاذيب والموضوعات المفتريات، فالحق لا يُنصرُ إلا بالحق.

إنّه لا يصحّ للدّاعي إلى الله أو إلى سبيله، أن يستدلّ بدليل باطل في ذاته ليؤيد به ما يدعو إليه من الحق، وإن قبله المدعو.

فكلُّ خرافة، وكلُّ باطلٍ وكلُّ افتراء، وكلُّ كذب، وكلُّ وهم، أمورٌ مرفوضةٌ منبوذةٌ في مفاهيم الإسلام، ولا يجوزُ بحالٍ من الأحوال اتّخاذها وسائلٍ لنصرة الإسلام، فالحقُّ الربّانيُّ لا يُنصرُ إلا بالحقّ».

الشرح:

إن الإسلام دينٌ حقٌّ، مُنزَلٌ من الله الحقّ، بوساطة الوحي الذي هو حقٌّ، على رسول الله المؤيد من الله بآياتٍ هي حقٌّ في ذاتها.

وللعقائد الإيمانية في الإسلام، وللنصوص الإسلامية المنزلة من عند الله، والثابتة بلاغاً عن الرسول محمد ﷺ، أدلةٌ برهانية، تعتمد على حقائق تُدرِكها العقول السليمة وتُدعِن لها القلوب المستعدة للاعتراف بالحق، وهي

القلوب التي لم تَطْمَسْ بِصِيرَتِهَا الأهواءُ والشهوات، ونوازع الجحود
والإنكار، وعوامل الاستعلاء والاستكبار، ورغبات الفجور في الأرض، دون
إحساسٍ بمشاعر الإثم ووخز الضمير.

فعلى الداعي إلى الله، أو إلى سبيله، أن يبحث عن الأدلة البرهانية
والحجج الصحيحة التي هي حقائق في ذاتها، ثم يستدل بها لإقناع من يدعوهُ
إلى دين الله، وعليه أن يختار منها ما يُلائم مدارك من يدعوهُ، ومستواه
العلمي، وحالته النفسية.

فإذا احتاج إلى تبسيط الأدلة وتيسيرها، بسّطها له ويسرها، وتسلسل
معه فيها على وفق النظام العقلي الذي فطر الله عقول الناس عليه.

وإذا رأى أن لدى فكر من يدعوهُ أغشية لا تسمح له برؤية الحقيقة
حاول إزالتها برفق، حتى تنجلي بصيرة فكره.

وإذا وجد لديه مسلمات يراها حقائق، وهي تناقض ما يريد إقناعه به
حاول برفق أن يكشف له بطلان هذه المسلمات بالحجج الصحيحة التي
يقبلها، أو تلجئه إلى أن يبهت ولا يجد حجة تدفعها أو تدعم مسلماته.

وبعد أن يُرْزَل اعتقاده بمسلماته يُقدّم له الأدلة الصحيحة التي تنتهي
مراحلها بإثبات القضية التي يريد أن يدعوه إليها.

إنه لا يجوز للداعي إلى دين الله الحق أن يحتج بأدلة خرافية
سوفسطائية، أو أدلة إيهامية، لإثبات القضية التي يدعو إليها من الدين.

كأن يذكر مثلاً لمن يدعوهُ إلى الإيمان بالملائكة، مدعيًا أن الشواهد
العلمية في معامل العلماء الفيزيائيين في بلد متقدم كأمریکا، قد أثبتت وجود
كائنات روحانية خيرة عليا، ذوات أجساد شفافة لا تراها أعين الناس، وهذه
الكائنات لها طاقات عظيمة، وقدرات على اجتياز المسافات الكونية

الشاسعة بسرعة تزيده على سرعة الضوء بمئة مرة، أو بألف مرة.

إنَّ أمثالَ هذه الشواهد لم تَصُدُرْ بَعْدُ عن مؤسَّسةٍ علميةٍ مُعترفٍ بها عالمياً، فلو أنَّ أحدَ الدُّعاةِ الإسلاميين ذكَّرَ مثلَ هذا لينصُرَ به وُجودُ الملائكةِ، أمامَ جماعةٍ غير متعلِّمةٍ، وهي تُحَسِّنُ الظَّنَّ به، وتعتقِدُ أنَّه صادقٌ فيما يذكِّره لهم، لكانَ عَمَلُهُ هذا جريمةً كُبرى في حقِّ الإسلام، لأنَّه يُريدُ أن ينصُرَ الحقَّ بما يدَّعيه من باطل، ولو قَبِلَهُ المتلقِّونَ عنه، وآمنوا بما يدَّعُوهم إليه.

إنَّ الحقَّ لا يُنصَرُ إلاَّ بالحقِّ، ولكلِّ حقٍّ من الحجج والأدلة الصحيحة ما يكفي لإثباته، لدى أهل العقول الصحيحة السليمة من الخللِ والعَلَلِ، فهو لا يحتاجُ إلى أكاذيب وأباطيل حتَّى يَسْتَنصِرَ بها.

وقد سَدَّ الرسولُ ﷺ على الوضاعين الكذابينَ بابَ الافتراءِ عليه، ولو كان ذلك لتأييده ونُصرةٍ ما جاءَ به، فقد ثبت عنه في حديثٍ متواترٍ قطعيٍّ قوله:

«مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

وراوي الكذب وناقلهُ والمستدِلُّ به دون بيان أنه كذبٌ مثلُ مَنْ افتراه.

إنَّ الكذب في مسائل الدين ولو في الأدلة والحجج هو من الافتراء على الله عزَّ وجلَّ، لأنَّ الدينَ كُلَّهُ لِلَّهِ، فلا يجوزُ الكذبُ في عناصر الدين، ولا في أدلته عناصره، ومن هانَ عليه أن يفترى الكذبَ لُنُصرةِ الدين، هانَ عليه أن يفترى في كلِّ شيءٍ حتَّى في هدم الدين، وفي قضايا الإيمان الكبرى، متى وجد لنفسه مصلحةً في ذلك.

وقد أبان القرآن المجيد في عدَّة نصوص تناولت موضوعات مختلفات من الدين، أنَّ من أظلم الظلم افتراء الكذب على الله، فمنها ما يلي:

١ - قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ...﴾ (٢٧)

٢ - وقول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١/ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٨)

٣ - وقول الله عز وجل في سورة (العنكبوت/ ٢٩/ مصحف/ ٨٥

نزول):

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ

مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (١٨)

يُضَافُ إِلَى مَا سَبَقَ أَنْ مَنَاصِرَةَ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ تُضَعِفُ قِيَمَةَ الْحَقِّ، وَقَدْ تُوْحِي بَأَنَّهُ بَاطِلٌ إِذَا اكْتَشَفَ أَحَدُ الْمُتَلَقِّينَ أَنَّ الدَّلِيلَ الَّذِي سَبَقَ لِنُصْرَتِهِ دَلِيلٌ بَاطِلٌ، وَرَبَّمَا ارْتَدَّ عَنِ الْإِيمَانِ بِالْحَقِّ مِنْ آمَنَ بِهِ بِدَلِيلٍ بَاطِلٍ إِذَا اكْتَشَفَ يَوْمًا مَا أَنَّ الدَّلِيلَ الَّذِي كَانَ السَّبَبَ فِي إِيمَانِهِ بِهِ دَلِيلٌ بَاطِلٌ.

وَكثِيرٌ مِنَ الْجُهْلَاءِ يَحَاطِلُونَ نُصْرَةَ الْإِسْلَامِ وَحَقَائِقِهِ وَمَفَاهِيمَهُ بِالْبَاطِلِ، أَوْ بِأَدَلَّةٍ وَاهِيَةٍ ضَعِيفَةٍ لَا تَقْوَى فِي مَوَازِينِ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ عَلَى نُصْرَةِ الْحَقِّ، وَضَرَرُ هَؤُلَاءِ عَلَى الْإِسْلَامِ شَدِيدٌ جَدًّا، وَرَبَّمَا كَانَ أَشَدَّ ضَرَرًا مِنْ ضَرَرِ بَعْضِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، وَيَقَالُ فِي شَأْنِهِمْ: عَدُوٌّ عَاقِلٌ خَيْرٌ مِنْ صَدِيقٍ جَاهِلٍ.

* * *

القاعدة الثامنة:

«لَا يُحْتَجُّ عَلَى الْمُخَالَفِ بِحُجَّةٍ لَا يُؤْمِنُ بِهَا فَلَا يَصِحُّ لِحَامِلِ الرِّسَالَةِ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ أَوْ الدَّاعِي إِلَى سَبِيلِهِ أَنْ يُقَدَّمَ حُجَّةٌ لَيْسَتْ مِمَّا يُؤْمِنُ بِهِ الْمَدْعُوُّ إِنَّمَا يُحْتَجُّ لَهُ بِمَا هُوَ مُسَلِّمٌ لَدَيْهِ مِنَ الْحَقِّ».

الشرح:

مما هو ساقط مرفوض عقلاً وشرعاً ومُنافٍ لأساليب الأدلة القرآنية، الاستدلال لمنكري الإسلام كُله أصوله وفروعه، بِأدلةٍ نصّيةٍ من القرآن أو من السنة.

إنّ بعض الجهلة من المتحمسين لنصرة الإسلام إذا اجتمعوا ببعض الملاحدة أو العلمانيين، صبّوا عليهم أدلة لما يدعونهم إليه من محفوظاتهم من نصوص القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وهذه النصوص تشتمل على أوامر ونواهي وتحذيرات وإنذارات بعذاب الله يوم الدين، أو يذكرون لهم أقوالاً واجتهادات وآراء لبعض علماء المسلمين.

مع أنّ الملاحدة أو العلمانيين غير مؤمنين أصلاً بوجود الله عزّ وجلّ، أو غير مؤمنين بأنّ القرآن المجيد هو كلام الله المنزّل من لدنّه، أو بأنّ محمداً ﷺ رسولُ الله حقّاً وصدقاً، وغيرُ مُسلمين بصحة الأخبار والتحذيرات والإنذارات التي تشتمل عليها نصوص القرآن والسنة، وغير معترفين بصحة أقوال علماء المسلمين واجتهاداتهم.

فكيف يُستدلّ لإنسانٍ بدليلٍ ما وهو لا يؤمن بهذا الدليل، ولا يَعترفُ بصحّته؟! .

إنّ هذا لأمرٌ مرفوضٌ بالبديهة العقلية.

فالأسلوب الحكيم الذي ينبغي للداعي إلى الله أو إلى سبيله أن يتّخذه، أن يطرح على المدعو الذي يشعر بأنّه شاكٌّ في أصول الإسلام الكبرى، ولو كان من ذراري المسلمين، أسئلة تتعلق بأسس الحقائق الكبرى في الإسلام.

كان يقول له مثلاً:

● هل تؤمن بوجود الله عزّ وجلّ ربّاً خالقاً لا ربّ سواه في الوجود؟ .

فإذا قال: لا، أقام له الأدلة البرهانية على هذه الحقيقة حتى يُسلمَ بها،
ويُذعنَ لها.

وإذا قال: نعم، سأله السؤال التالي:

● هل تؤمن بأنّ الرّب الخالق الذي لا ربّ سواه في الوجود، هو المستحقّ للعبادة وخدمته، وهو الذي يُدعى، والذي يُرجى لَدَيْهِ كُلُّ مطلوبٍ من مطالب الحياة، وخدمته لا شريك له، فلا يُدعى، ولا يُرجى مَلَكٌ ولا جِنٌّ ولا وثَنٌ ولا أيُّ قوّةٍ غيبيةٍ، إنّما يُدعى ويُرجى الله الرّب الخالق وحده؟.

فإذا قال: لا، أقام له الأدلة البرهانية على هذه الحقيقة حتى يُسلمَ بها،
ويُذعنَ لها.

وإذا قال: نعم، سأله السؤال التالي:

● هل تؤمن بأنّ الله الرّب الحكيم العليم القدير قد خلق الناس ليمتحنهم في هذه الحياة الدنيا، وبأنه جعل الموتَ فاصلاً بين حياة الامتحان وحياة الحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء بالعدل أو بالفضل على ما قدّم الإنسان في رحلته الحياة الدنيا رحلة الامتحان، فإذا جاء يوم البعث أحياء الله الموتى وساقهم إلى المحاسبة على أعمالهم، وقضى بينهم، ثمّ يُساقون بحسب أحكام الله فيهم إلى مصائرهم، فيساق الذي قضي عليه بالعذاب جزاء ما قدّم في الحياة الدنيا، إلى دار العذاب النار وبئس المصير، ويساق الذي قضي له بالنعيم جزاء ما قدّم في الحياة الدنيا من إيمانٍ وعملٍ صالح، إلى دار النعيم، جنّة الخلد التي أعدها الله عزّ وجلّ للمتقين ونيعم المصير؟.

فإذا قال: لا، أقام له الأدلة المستندة إلى حكمة الله الدالة على هذه الحقيقة، حتى يُسلمَ بها، ويُذعنَ لها.

وإذا قال: نعم، سأله السؤال التالي:

● هل تؤمن بأن الله عز وجل قد أرسل إلى الناس رسلاً منهم، ليبلغوا عنه مطلوبه منهم في رحلة امتحانهم؟

فإذا قال: لا، أقام له الأدلة على هذه الحقيقة حتى يسلم بها ويذعن لها.

وإذا قال: نعم، . سأله السؤال التالي:

● هل تؤمن بأن محمداً خاتم رسل الله أجمعين، وبأن القرآن الكريم منزل عليه من ربه؟

فإذا قال: لا، أقام له الأدلة على هذه الحقيقة حتى يسلم بها، ويذعن لها.

وإذا قال: نعم، بدأ يسوق له الأدلة من آيات القرآن المجيد، ومن أحاديث الرسول ﷺ الثابتة عنه بالأسانيد الصحيحة، ويشرح له دلالاتها على وفق اجتهادات كبار علماء المسلمين الموثوق بهم في تاريخ الأمة الإسلامية، وضمن قواعد فهم النصوص.

وباستطاعة الداعي أن يتفرس في حال المدعو، فإذا شعر بأنه من المؤمنين ببعض الأصول الإسلامية الكبرى، اختصر على نفسه سلسلة الأسئلة التي يلحق بعضها بعضاً، فيأتي اللاحق منها مبنياً على التسليم بالحقيقة التي يتوصل إليها نتيجة السؤال السابق منها.

هكذا يجب أن تُبنى السلاسل الفكرية بعضها على بعض بناءً تدرجياً، ولا يصح بناء درجة علياً إلا بعد استكمال بناء الدرجة التي تحتها بناءً صحيحاً سليماً، وكل ما بُني على باطل فهو باطل، أو لا يصح الثقة به والاعتماد عليه، ولو كان هو في ذاته صحيحاً، لأن له أصلاً آخر صحيحاً هو مبنياً

عليه، فالثقة به، والاعتماد عليه، لا يتحققان إلا إذا بُنِيَ على الأصل الآخر الصحيح الذي يَقْضِي العقل بوجوب التسليم به.

إن إثبات هلالٍ ذهبيٍّ، على بُرْجٍ قَصْرٍ عظيمٍ، في جزيرة، وسط البَحْرِ الواقع في صحراء الربع الخالي، من شبه الجزيرة العربية، يَتَطَلَّبُ سلسلةً فكريةً تتراجعُ إلى الأصول.

فقبل إثبات وجود الهلال الذهبيِّ، لا بُدَّ من إثبات وُجُودِ البُرْجِ، وقبل إثبات وجود البُرْجِ، لا بُدَّ من إثبات وُجُودِ القصر؛ وقبل إثبات وجود القصر لا بُدَّ من إثبات وجود الجزيرة التي هي وسط البحر، وقبل إثبات وجود الجزيرة لا بُدَّ من إثبات وجود البحر حولها.

لكن البحر المذكور في الادعاء لا وُجُودَ له مطلقاً، لأن الادعاء يَجْعَلُهُ في الربع الخالي من شبه الجزيرة العربية.

فسلسلةُ هذه الادعاءات ترجع إلى أمرٍ لا وجود له مطلقاً، فجميع حلقات هذه السلسلة ساقطةٌ بداهةً، بسبب سقوط الأصل الأوّل الذي بُنِيَ عليه.

والتزاماً بهذه القاعدة البديهية نجدُ الأدلة القرآنية المسوقة لإثبات وجود الرّب الخالق الواحد الأحد جلّ جلاله، تعتمد على أدلةٍ كونيةٍ وفكريةٍ يُشَارِكُ في التسليم بها وبأصولها الكافرون والمشركون، وهي أدلةُ الظواهر الكونية المشهودة بالحسّ، والتي تدلُّ صفاتها بالبراهين العقلية على أنّ لها ربّاً خالقاً واحداً، ومن الأدلة القرآنية أدلةٌ عقليةٌ صِرْفٌ يُدْرِكها العلماء المتفكرون، والفلاسفة المتممّون في التأملات الفلسفية.

ثم تنتقل الأدلة القرآنية إلى حُجَجٍ وبراهين عقليةٍ تُثَبِّتُ أنّ من له الرُّبُوبِيَّةُ وحده هو الذي يجب أن يكون وحده الإله المعبود.

ثم تنتقل إلى إثبات حكمة الله في الخلق، وحكمته في إرسال الرسل، وهكذا حتى إثبات أن القرآن المجيد كلام الله المنزل على رسوله محمد ﷺ، بدليل أنه آيةٌ مُعْجِزَةٌ. فإذا بلغ المدعوُّ إلى التسليم بما سبق وُجِّهَتْ له نصوص التكاليف المصدرة بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

* * *

القاعدة التاسعة:

«مَنْ رَأَيْتَهُ يُغَالِطُ فِي دَلِيلِكَ فَاَنْقُلْهُ إِلَى دَلِيلٍ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُغَالِطَ فِيهِ».

الشرح:

من المدعوين إلى الإيمان بالله أو إلى سلوك صراطه المستقيم من يكون مُرَاوِعًا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُجَادَلَ بِالْبَاطِلِ، فَإِذَا سُقَّتْ لَهُ دَلِيلًا صَحِيحًا يَتَضَمَّنُ حُجَّةً دَامِغَةً، وَجَدَّ لَدَيْهِ الْقُدْرَةَ عَلَى أَنْ يُرَاوِعَ فَيَحْتَالَ فِي حَمْلِ الْأَفْظَاءِ الَّتِي سُقَّتْ بِهَا دَلِيلِكَ عَلَى غَيْرِ مُرَادِكَ مِنْهَا، وَعَلَى أَنْ يَدُورَ بِهَا مِغَالِطًا.

فإذا وَجَدْتَ إِنْسَانًا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ قَادِرًا عَلَى الْمِغَالِطَةِ فِي الْأَفْظَاءِ، فَاتْرُكْ دَلِيلَكَ الَّذِي اسْتَطَاعَ أَنْ يُغَالِطَ فِيهِ، وَلَا تَشْغَلْ نَفْسَكَ مَعَهُ بِتَحْرِيرِ مُرَادِكَ مِنَ الْأَفْظَاءِ الَّتِي سُقَّتْ بِهَا دَلِيلِكَ، وَانْتَقِلْ إِلَى دَلِيلٍ آخَرَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُغَالِطَ فِيهِ، وَتَأَسَّ فِي هَذَا بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

إِذْ قَالَ لَهُ «نَمْرُودُ» الْجَبَّارُ: مَنْ رَبُّكَ؟ .

قَالَ إِبْرَاهِيمُ: رَبِّي الَّذِي يُخَيِّبِي وَيُمِيتُ.

قَالَ «نَمْرُودُ»: أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ: فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ .

فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ^(١).

(١) انظر شرح هذه المناظرة في الفصل الأول من الباب الخامس (الصورة الرابعة).

القاعدة العاشرة:

«على حامل الرسالة أن يكون في مقدّمة المؤمنين بما يدعو إليه، والملتزمين بأحكامه، وأن يبدأ بدعوة وإصلاح عشيرته الأقربين».

الشرح:

● إن على كلِّ داعٍ إلى سبيلِ الله، وكلِّ ناصِحٍ واعِظٍ أمرٍ بالمعروفِ ناهٍ عن المُنكرِ أن يكون من المؤمنين بما يدعو إليه، وأن يكون في مقدّمة الذين يطبقون ما يدعو إليه، أو ينصح به، أو يأمرُ به أو ينهى عنه.

إذ لا أثرٍ لحاملِ رسالةِ دينيَّةٍ ربّانيَّةٍ ما لم يكن أوَّلَ المؤمنينَ بها، والملتزمين بتطبيقِ أحكامِها وتكاليِفِها.

وعليه أن يبدأ بدعوة وإصلاح عشيرته الأقربين، فقد أمر الله رسوله في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بقوله:

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (١١٨)

إن إيمان الدعاة بما يدعون إليه والتزامهم به، من أولى الواجبات التي عليهم أن يتحلّوا بها، لأنهم يحتلّون بحملهم رسالة الدعوة إلى الله، والنصح والإرشاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر مناصب الإمامة، والإمام يقدم نفسه لياتم الناس به.

ولكون هذا من البدهيات الأولى وجذنا الأنبياء والمرسلين أوّل المؤمنين والمسلمين في أقوامهم، بأقوالهم وبأعمالهم.

● وقد أمر الله رسوله محمداً ﷺ بأن يعلن لقومه بأن الله عزّ وجلّ أمره بأن يكون أوّل المسلمين، جاء هذا في عدّة نصوص:

١ - قول الله عزّ وجلّ له في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿... قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسَلُ...﴾ (١١)

٢ - وقول الله عز وجل له فيها أيضاً:

﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّيَ لِأَنْ صِرْتُ مُسْتَقِيمًا دِينًا قِيمًا مِلَّةَ آبَائِهِمْ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَإِنِّي لَأَكُونُ مِنَ الَّذِينَ ﴾ .

٣ - وقول الله عز وجل له في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١١٣﴾ ﴾ .

وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ: أي: وَأُمِرْتُ بالأوامر والتكاليف الدينية لأجل أن أكون أول المسلمين المستسلمين المطيعين لأوامر الله من أمتي.

● وأبان شعيب عليه السلام لقومه أنه من الملتزمين بطاعة ربه، في اجتناب كل ما ينهأهم عنه، فقال لهم كما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ . . . وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنهَلَكْتُكُمْ إِلَيَّ مَا أَنهَلَكْتُكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ .

وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنهَلَكْتُكُمْ عَنْهُ: أي: وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَعْمَلَ شيئاً من الأعمال التي أنهاكم عنها. يقال لغة: خالفك إلى كذا، إذا قصد الشيء وأنت منصرف عنه.

● وسأل موسى عليه السلام ربه أن يُريه ذاته، وقال الله له: لن تراني، وأجرى الله عز وجل له تجربة تجلّي نوره للجبل فاندك الجبل وخر موسى صعقاً، فلما أفاق قال لربه: سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ .

قال الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ قَالَ لَن نَرِيكَ وَلَٰكِن نُنظِرُ إِلَىٰ الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا بَعَثْنَا إِلَيْكَ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحٰنَكَ بُدِّتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

* * *

القاعدة الحادية عشرة:

«على حامل الرسالة الثبات على الحق والاستقامة على صراط الله،
مهما واجه من عقبات وصعوبات ومغريات».

الشرح:

«إنَّ مما يجب على حامل الرسالة الربّانية أن يَثْبُت على الحق، ويستقيم على صراط الله الحق، وأن لا يتأثر بزيوف المبطلين، وبما يقدمونه من زخرف القول، للفتنة والإغراء والتغريب، ولا يتأثر بمغريات الحياة الدنيا وزينتها من مالٍ أو جاهٍ أو سلطانٍ أو شهواتٍ أو تحقيقٍ مصالح، فإنه متى تأثر بشيءٍ من ذلك اجتالته شياطين الإنس والجنّ، فسخروه جُنْدِيًّا من جنودهم، ومُساهِمًا في الإضلال والإفساد من حيث يشعرُ أو لا يشعرُ، وهو يَرْتَدِّي ألبسة المصلحين حاملي الرسالة الإسلامية، إذ يُلْزِمونه بأن يحافظ على مظاهره وصورِ أعماله التي تدلُّ على أنه من حملة الرسالة الإسلامية، ومن الدّعاة إلى الله وإلى صراطه المستقيم، ويُوْحُون له بالذرائع التي تُزَيِّنُ انحرافه ومسايرتَهُ للضّالين والمضللين من ذوي السلطان في الأرض، أو ذوي المال والجاه.

إنَّ وظيفة حمل الرسالة الربّانية بالدعوة إلى الله، أو إلى صراطه المستقيم وظيفَةٌ جليلةٌ خطيرة، تُشْبِه وظيفة الأنبياء والمرسلين، باستثناء الوحي والعصمة.

فمن انحرف عن واجبات رسالته وهو مُتَّصِدِّرٌ للإمامة فيها كان ضرره

أشد من ضرر المضلين المفسدين في الأرض منذ نشأتهم الأولى، لأن كثيراً من الناس يفتنون به على أنه حامل رسالة إسلامية يبلغها وبيئتها بصديق وأمانة، وأنه في مقدمة المتلزمين بها، والمنفذين لأحكامها، المستقيمين على صراط الله، فيقعون في الضلالة، ويتكبرون صراط الله اقتداءً به، وهم يحسبون أنهم مهتدون، ويحسنون صنعا، إذ يتبعون إماماً هادياً مُرشداً مُصلحاً.

إن المتظاهر بحمل الرسالة الربانية الذي يكون سبباً في تضليل أفكار من يأتهم به، وفي إفساد مفاهيمهم، وفي إخراجهم عن صراط الله المستقيم بأقواله وأعماله، شيطان خبيث، يلبس ثياب قديس، ويفسد إفساد إبليس، وهو شر وأخبث من الذي يأمر بالمعروف في ظاهره، ولا يأتيه في سره، وينهى عن المنكر في ظاهره، ويأتيه في سره، وقد جاء في أقوال الرسول ﷺ بشأن هذا الذي تخالف أعماله أقواله وعيد شديد.

روى البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ فِي الرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ، مَا لَكَ؟! أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟! فَيَقُولُ: بَلَى، كُنْتُ أَمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتَيْهِ».

أَقْتَابُ بَطْنِهِ: أَي: أَمْعَاءُ بَطْنِهِ.

واهتماماً بمراعاة هذه القاعدة أمر الله رسوله محمداً ﷺ وأمر من تاب إلى ربه معه بأن يستقيموا كما أمروا، ونهاهم عن أن يطغوا، وحذرهم من أن يركنوا إلى الذين ظلموا، فقال الله عز وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٦﴾ وَلَا تَزْكُوتُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ .

وبعد أن أبان الله عز وجل في سورة (الشورى/ ٤٢/ مصحف/ ٦٢ نزول) أنه شرع للناس في هذا الدين الخاتم ما وصى به الرُّسُلَ السَّابِقِينَ، خاطب رسوله محمداً ﷺ بقوله:

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ... ﴾ (١١٥) .

وَيُلْحَقُ بِالرَّسُولِ كُلِّ حَمَلَةَ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ .

إن الثبات على الحق، والاستقامة على صراط الله، وعدم التأثر بأهواء المضللين، ومزالق المُفسِدِينَ، ومُغْرِيَاتِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وزينتها، من شواهد الصِّدْقِ مع الله، وإبتغاء مرضاته، والحرص على طلب الآخرة، ومن المؤهلات الواجبات لاحتلال المنصب الديني الرفيع، وهو مَنْصِبُ «إمام المتقين» .

وإمام المتقين الصادق يَهْدِي بِأَقْوَالِهِ، وَأَعْمَالِهِ، وَكُلِّ حَالِهِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ .

* * *

القاعدة الثانية عشرة:

«على حامل الرسالة الإسلامية أن يدأب في القيام بأداء رسالته بصبرٍ وحِلْمٍ وتحملٍ لِلأذى، وكلِّ ما يثس من فَرْدٍ أو جماعةٍ انتقل إلى آخرين غير ميثوسٍ منهم، ويظلُّ طَوَالَ عُمُرِهِ حاملاً رسالته مؤدياً لها حَسَبَ استطاعته حتَّى آخِرِ لحظةٍ من عُمُرِهِ» .

الشرح:

إِنَّ رُسُلَ اللَّهِ وَأَنْبِيَاءَهُ فِي التَّارِيخِ هُمُ الْأَسْوَةُ الْحَسَنَةُ لِكُلِّ مَنْ يَحْمِلُ رِسَالَةَ الدَّعْوَةِ إِلَى دِينِ اللَّهِ وَصِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ، وَرِسَالَةَ التُّصْحِحِ وَالْإِرْشَادِ وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ.

وَقَدْ دَابَّ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ وَرُسُلُهُ عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَى دِينِ اللَّهِ وَصِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ، وَالتُّصْحِحِ وَالْإِرْشَادِ وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، بِصَبْرٍ وَحِلْمٍ وَتَحَمُّلٍ لِلْأَذَى، وَلَمْ يَكْفُؤْا عَنِ الْقِيَامِ بِأَدَاءِ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْيَقِينُ وَهُوَ الْمَوْتُ، أَوْ حَكَمَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَقْوَامِهِمْ، فَأَهْلَكَ الْكُفْرَةَ الْمَكْذِبِينَ.

وَبَعْضُ الرُّسُلِ لَمْ يَسْتَجِبْ لَهُمْ مِنْ أَقْوَامِهِمْ إِلَّا الْأَعْدَادُ الْقَلِيلَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُ مِنْ أُمَّتِهِ إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ.

رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ، لَمْ يُصَدِّقْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا صُدِّقْتُ، وَإِنَّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيًّا مَا صَدَّقَهُ مِنْ أُمَّتِهِ إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ».

عن مشكاة المصابيح رقم ٥٧٤٤.

وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَفْهَمُ أَنَّ عَلَى حَامِلِ رِسَالَةِ رَبِّهِ أَنْ يَقُومَ بِأَدَاءِ وَظَائِفِهَا حَتَّى تُؤَافِقَهُ مَنِيَّتُهُ، مِنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي سُورَةِ (الْحَجَرِ/ ١٥) مِصْحَفٍ/ ٥٤ نَزُولٍ:

﴿فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿١٩﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّجِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٢١﴾﴾.

أي: واعبد ربك حتى يأتيك الموت الذي هو يقين لا يشك فيه أحد.

ومعلوم أنّ القِيَامَ بوظائف الدّعوة إلى الله والتّصحّح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من أعظم عَنَاصِرِ عِبَادَةِ الله عزّ وجلّ، وهو من الجهاد في سبيل الله، بل من أوائل واجباته.

وقد جاء قوله تعالى لرسوله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ في سياق قوله له: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ للدلالة على أنّ صدّعه بما يُؤمَرُ بِتَبْلِغِهِ هو من واجبات عِبَادَتِهِ لربّه.

* * *

القاعدة الثالثة عشرة:

«على حامل الرسالة أن لا يُميّز طبقةً من الناس على طبقة لدى قيامه بوظائف رسالته، فيخصّ مثلاً باهتمامه وعنايته، أو بمجالس دعوته ونصحه وإرشاده وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، طبقةً ذوي المال والجاه والسُّلطان وكُبراء القوم، ويُعرض عن الفقراء والضعفاء والمُسْتَضْعَفِينَ، غير مُعتنٍ بهم، ولا حريص على هدايتهم وتعليمهم وتزيينهم ونصحهم».

الشرح:

إنّ دين الله عزّ وجلّ موجّه للناس أجمعين على سواء، ويأخذ كلُّ إنسانٍ من بلاغاته ما يناسبُ حاله، وما هو عليه من أوصاف، وليس دين الله موجهاً بتخصيصٍ لملأ القوم وكبرائهم وذوي المال والجاه فيهم، دون فقرائهم ومستضعفيهم، ولا للرجال فقط دون النساء، ولا للأقوياء فقط دون الضعفاء، ولا للأغنياء فقط دون الفقراء، ولا لذوي السلطان والحكم والإدارة فقط دون عمّة الناس.

وعلى حامل الرسالة أن يضع في تصوّره دواماً أنّ الله عزّ وجلّ عاتبَ رَسُوْلَهُ مُحَمَّدًا ﷺ في سورة (عبس/ ٨٠ / مصحف/ ٢٤ / نزل) عقب أنّ بَدَرَتْ منه بادرة إعراضٍ عن إجابة الأعمى ابن أم مكتوم، إذ جاءه سائلاً عن بعض

أمر دينه، بينما كان الرسول ﷺ مهتماً بدعوة بعض كبراء قومه إلى دين الله الحق.

ثم لم تنكّر منه هذه البادرة ولا أقلّ منها، وقد كان ﷺ موجّهاً اهتمامه لبعض كبراء قومه في تلك الساعة التي لم يرَ فيها من المناسب الانصراف عنهم وإجابة السائل الأعمى ابنِ أم مكتوم، لشدة حرصه على إيمان من يعتزّ الإسلامُ بهم إذا أسلموا، وليس احتفاءً بهم من أجل أنّهم من كبراء قومه، وذوي المكانة والوجاهة فيهم.

وعلى حامل الرسالة أن يذكّر دوماً أنّ الله عزّ وجلّ قال لرسوله في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) إذ طلبَ منه بعض كبراء قومه، ومنهم: (عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والمطعم بن عديّ، والحارث بن نوفل) إبعادَ الضعفاء والفقراء والمساكين عن مجالسه، كخبّاب، وبلال، وعمار، وصُهَيْب، حتّى يؤمنوا به ويتبعوه:

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْرِ وَالْمَيْثِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

أي: ما عليك يا مُحَمَّد من حساب الناس من شيءٍ إذا كفروا ولم يؤمنوا، بل كلُّ واحدٍ منهم يُحاسبُ عن نفسه، فلا تطرُدِ الفقراء والضعفاء طمعاً بإيمان الكبراء الأغنياء، فتتخلص من مسؤولية محاسبتك على عدم إيمانهم، إذ لا تتحمّل أنت من حسابهم شيئاً، وبما أنّك تقومُ بواجب التبليغ فإنّ عليهم أن يتبلّغوا، ويشاركوا في مجالس التبليغ سائر طالبي الهداية، والمستجيبين لدعوتها.

وأنت مسؤولٌ عن تبليغ دين الله لجميع طبقات الناس على سواء، فقرائهم وأغنيائهم، ضعفائهم وساداتهم، فإذا طرّدت الفقراء والضعفاء

وابعدتُهُمْ عن مَجَالِسِكِ استجابة لطلب الأغنياء والكبراء، فَإِنَّكَ تُعَرِّضُ نَفْسَكَ للمحاسبة والمؤاخذه على إبعادهم عن مجالس العلم الديني، الذي أمركَ ربُّكَ بتبليغه للناس، دون تمييزٍ ولا تخصيص، وإنَّ أغنياءَ المشركين وكبراءهم الذين تُريدُ إرضاءهم والاستجابة لطلبهم لِيُسَلِّمُوا لا يَحْمِلُونَ عَنْكَ من مسؤولية الحساب شيئاً، بل سَتُدَانُ وَحَدَّكَ بِطَرْدِ الْفُقَرَاءِ وَالضَّعْفَاءِ، وعدم تبليغهم دين ربهم، وبعْدَمِ تعليمهم وتزكيتهم.

وعلى هاتين القاعدتين من قَوَاعِدِ الْمَسْئُولِيَّةِ وَالْمَحَاسَبَةِ جَاءَ التَّفْرِيعُ بقول الله عزَّ وجلَّ لرسوله:

﴿... فَطَرَدْتَهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥١)

أي: فَطَرَدْتُ الْفُقَرَاءَ وَالضَّعْفَاءَ عَنْ مَجَالِسِ الْعِلْمِ الدِّينِيِّ، وَمَوَاطِنِ الْهَدَايَةِ وَالاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ ظَلَمْتُ، فَإِذَا طَرَدْتَهُمْ كُنْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ.

والغرض توجيه حملة رسالة الرسول من بعده باعتبار أن خطاب الأمة يُوجَّهُ لِإِمَامِهَا وَقَائِدِهَا وَهُمْ تَبِعٌ لَهُ.

وعلى حامل الرسالة أن يَذْكَرَ دَوَاماً أَنَّ نَوْحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِقَوْمِهِ بِتَوْجِيهِهِ مِنْ رَبِّهِ إِذْ طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَطْرُدَ عَنْ مَجَالِسَةِ الضَّعْفَاءِ وَالْفُقَرَاءِ وَالْوَضِيعِينَ، كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (هُود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿... وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْتَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَى قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ (٢١) وَيَقْوَمُونَ مِنْ بَعْضِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتَهُمْ أَفَلَا نَذْكُرُونَ﴾ (٢٢)

وقال لهم أيضاً كما جاء فيها:

﴿... وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ (٢٣) وَإِنِّي إِذًا لَإِنِّ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٤)

* * *

القاعدة الرابعة عشرة:

«على حامل الرسالة أن يتلطف ويرفق بمن يوجه له بعض مضامين رسالته، وأن يكون حسن المجاملة والتودد والإيناس والمعاملة بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأن يُعرضَ عن مقابلة من يُسيءُ إليه بمثل إساءته، وأنَّ يَغْفُو عنه ويصفح، ويعتبره مريضاً يجب علاجه وإنقاذه مما هو فيه، وليُحذر من أن يَعْتَبِرَهُ عَدُوًّا في معركةٍ قتالية، فمجالات تأدية الرسالة الدعوية مجالاتُ إصلاحٍ وهدايةٍ وعلاجٍ دوائي بحكمة، لا مجالاتُ قتالٍ غايته قتلُ العَدُوِّ أو أسرُهُ والانتصار عليه، وسلْبُهُ، وإبعاده عن مواطن سُلْطَتِهِ في قومه، لتأمين تبليغ كلمة الله في جماهير قومه.

وعلى حامل الرسالة أن يكون هَمُّهُ الإصلاح والنصيحة، لا التشهير بالناس والفضيحة».

الشرح:

لقد أبانت لنا شمائل الرسول ﷺ، وما صحَّ من شمائل الأنبياء والمرسلين من قبله، أنهم كانوا أحسنَ الناس خُلُقاً، وأكملهم تَلَطُّفاً وَرِفْقاً وحُسنَ مُجَامَلَةٍ ومعاملةٍ وتسامحٍ وعَفْوٍ وَصَفْحٍ، في علاقاتهم مع كلِّ الناس، سواءً مِنْهُمْ من استجاب لدعوتهم وأتبعهم أم من لم يستجب لها.

فقد كانوا يُقَابِلُونَ الشتائم بالإعراض والتجاهل، وإذا اتَّهِمُوا بما ليس فيهم أجابوا بالنفي المُجَرَّد، ولا يردون الإساءة بمثلهما.

لقد كانوا يحرصون أشدَّ الحرص على امتلاك القلوب بالوسائل التي من شأنها أن تغرس فيها محبتهم وإكبارهم، مع المهابة منهم، ومن هذه الوسائل البِشْرُ، والبِشْاشة، وطلاقة الوجه، وحُسنُ الاستقبال، ولينُ القول، والتكريم، والجود، والمعونة، والمؤانسة، والعفة، والتواضع مع عِزَّة النفس والترفع عن الصغائر.

أما الذين آمنوا بهم وأتبعوهم فقد كانوا يغمرونهم بالرحمة، ويحيطونهم بالعناية، ويؤاسونهم، ويجودون عليهم جوداً عظيماً، ويتواضعون لهم، ويؤانسونهم، ويعطون كلاً منهم مما يُناسِبُ حاله ما يجعل قلبه يتدقق بحبهم وتقديرهم وتعظيمهم، حتى كان بعض أصحاب الرسول محمد ﷺ يَفْدُونَهُ بأنفسهم وأحبَّ الناسِ والأشياءِ إليهم من شدةِ مَحَبَّتِهِمْ له .

وحملةُ الرسالة مأمورون بالتأسي بالرسول ﷺ، وبالأنبياء والمرسلين من قبله .

أما من هو فظٌ غليظُ القلبِ سيِّئُ الخلقِ والمعاملة، سيِّئُ المعاشرة، فاحشُ القول، فعليه أن يعتزل هذا الأمر، حتى يُصلِحَ من شأنه وَيَسْتَقِيمَ، ويكون أهلاً لحمل الرسالة، مهما كان ذا عِلْمٍ بعناصرِ الرسالة التي يؤديها، ويُمكنُ الاستفادة منه في مجالات لا يواجهُ فيها الناس، لثلاثِ يُنْفَرُهُمْ عن الدين بسبب نفرتهم منه .

وعلى حامل الرسالة أن يذكر دوماً ما كان عليه الرسول ﷺ، وفُضلاءِ أصحابه، ومن تبعهم بإحسان من علماء المسلمين ومرشديهم وهُدَاتِهِمْ .

وعليه أن يُراجِعَ دوماً ما كان عليه الرسول ﷺ من خُلُقٍ عظيم، فيما جاء من شمائله في السَّنةِ والسَّيرةِ النبوية، وحَسَبُ الرسول القائد أن الله عزَّ وجلَّ أثنى عليه بالخلق العظيم فخاطبه بقوله في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٢ نزول):

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

إنَّ النفوذ إلى القلوب على جِسْرِِ المَحَبَّةِ، والمؤاخاة، والمصافاة، والمعاملةِ الحسنة، والبذل، والعطاء، والتسامح، يجعل حامل الرسالة يَسْلُكُ إلى قُلُوبٍ من يوجِّه لهم رسالته من أسهل الطرق وأيسرها وأحبها إليهم .

فعلية أن يكون شديد البُعدِ عن الفظاظَةِ، والغِلَاطَةِ، والاستكبارِ، والعنجهيةِ، والجفاءِ، وكلُّ تعبيرٍ فيه إيذاءٌ للنَّاسِ، أو سوءُ أدبٍ معهم، وكلُّ تَعْبِيرٍ فاحشٍ أو نابٍ تَنفِرُ منه أذواقُ العقلاءِ والحكماءِ وأهلِ التهذيبِ.

إنَّ حاملَ الرسالةِ يجب أن يكون حكيماً في كلِّ تصرّفاتِهِ، وأن يكون قُدوةً حسنةً فيها، وأن يعبُرَ إلى قلوبِ الناسِ على جِسْرِ المحبَّةِ والرفقِ والتلطُّفِ والحُسْنَى.

وَيَذَكِّرُ دوماً ما جاء في بيانات الرسول ﷺ عن الرفقِ، ومنها ما يلي:

● روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ».

● وروى مسلم عن عائشة أيضاً، أن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى سِوَاهُ».

● وروى مسلم عن عائشة أيضاً. أن رسول الله ﷺ قال لها:

«عَلَيْكَ بِالرَّفْقِ، وَإِيَّاكَ وَالْعُنْفَ وَالْفُحْشَ، فَإِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَةً، وَلَا يَنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ».

● وروى مسلم عن جرير بن عبد الله البجلي، أن النبي ﷺ قال:

«مَنْ يُحْرَمِ الرَّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ».

وعلى حامل الرسالة أن يكون همُّه الإصلاحُ والنصيحةُ، لا التشهيرُ بالناسِ والفضيحةُ.

إنَّ الأصلَ في دعوةِ الأفرادِ ونُصحهم، أن يكون على سبيلِ المناجاةِ في

خَلْوَةٌ وَسِرٌّ، رِعَايَةٌ لِحَالَةِ السِّرِّ الَّتِي يَحْرَصُونَ عَلَيْهَا، وَلِيَكُونَ كَلَامُ النَّاصِحِ مَسْمُوعاً مِنْ قِبَلِهِمْ.

فكثيرٌ من الناس يرفضون توجيه النصيحة العلنية لهم، لأنهم يَعتَبِرُونَ ذلك فضيحةً لهم، وتَشْهيراً بهم، وربما أخذتْهُمُ العِزَّةُ الَّتِي هُمْ فِيهَا بِأَسْبَابِ الإِثْمِ الَّذِي فِي نَفْسِهِمْ، فدفعَتْ بهم إلى الانتقامِ مِمَّنْ وَجَّهَ لَهُمُ النِّصِيحَةَ علناً، وتحدثُ عندئذٍ ما لا تُحَمَدُ عقباه.

إنَّ النَّاصِحَ لِشَخْصٍ أَوْ جَمَاعَةٍ مَعِيْنَةٍ فِي السِّرِّ صَادِقٌ مُخْلِصٌ يُرِيدُ الإِصْلَاحَ، أَمَّا النَّاصِحُ فِي العَلَنِ فَهُوَ فَاضِحٌ مُشَهَّرٌ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ المَعْتَابِ، وَهُوَ لَيْسَ حَرِيصاً عَلَى الإِصْلَاحِ وَالتَّقْوِيمِ.

وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَقْتَدِيَ بِالرَّسُولِ ﷺ، إِذْ كَانَ يَقُولُ عَنْ نَاسٍ يَعْرِفُهُمْ وَيُرِيدُ نَصِيحَتَهُمْ، وَلَا يُرِيدُ التَّشْهِيرَ بِهِمْ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفْعَلُونَ كَذَا وَكَذَا».

لَكِنْ مَنْ أَبَى النِّصِيحَةَ فِي السِّرِّ، وَأَصْرَعَ عَلَى مَا هُوَ فِيهِ مِنْ إِثْمٍ وَشَرٍّ، أَوْ جَاهَرَ بِمَعْصِيَتِهِ غَيْرَ عَابِيٍّ بِدِينِ اللَّهِ وَأَحْكَامِ شَرِيعَتِهِ لِعِبَادِهِ، وَهُوَ مِنَ المُنْتَمِينَ إِلَى الإِسْلَامِ، فَلَا مَانِعَ مِنْ تَوْجِيهِ النِّصِيحَةَ وَالأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ لَهُ عَلَناً وَفِي مَلَأٍ مِنْ قَوْمِهِ.

وَحَامِلِ الرِّسَالَةِ الحَكِيمِ، يَخْتَارُ دَوَاماً الأَجْدَى وَالأَقْرَبَ للإِصْلَاحِ وَالتَّقْوِيمِ.

* * *

القاعدة الخامسة عشرة:

«ينبغي لحامل الرسالة أن يكون حسن العلاقات الاجتماعية بجميع أفراد مجتمعه، ومن العلاقات الاجتماعية الحسنة التي تؤلف القلوب وتعدد المودات وتُكسِبُ حُبَّ الناس: البَدْءُ بِالسَّلَامِ، وَالزِّيَارَاتِ، وَحُضُورِ مَنَاسِبَاتِ الأَفْرَاحِ وَالتَّعَاذِي مَا أَمْكَنَ، وَزِيَارَةِ المَرَضَى، وَإِصْلَاحِ ذَاتِ البَيْنِ، وَتَقْدِيمِ

الخدمات، ومؤانسةً وملاطفةً مختلفِ طبقات الشعب، ولا سيما الفقراء والضعفاء والمساكين والصغار، ومخاطبةً كلِّ إنسان بحسب ما يلائمه ويسرُّه، أسوةً بالرسول ﷺ».

الشرح:

إنَّ حُسْنَ العلاقات الاجتماعية من الوسائل التي تؤلِّف القلوب، وتَعقِد المودات بين الناس، وتربط بينهم بوشائج التحابب، والتوادد، فالترابط بهذه الوشائج يجعلُ التناصح بينهم والتواصي بالحق والصبر وعمل الخير والمسارة إلى الفضائل واجتناب الرذائل، من الأمور التي تُؤخَذُ بقبول حسن.

فمن الخير لحامل الرسالة أن يَبَيِّنَ بينه وبين الناس جُسُورَ المودة والمحبة، لتكون دَعْوَتُهُ لهم، ونُصْحُهُ، وإرشادُهُ، وأمرُهُ بالمعروف ونهيُهُ عن المنكر مقبولةً لديهم.

ولهذا أوصى الرسول ﷺ المسلمين بأن يتبادلوا فيما بينهم العلاقات الاجتماعية الحسنة.

وكان صلوات الله عليه وسلامه إمام الأئمة جميعاً في خُلُقهِ العظيم، وحُسْنِ علاقاته الاجتماعية بكلِّ طبقات الناس، فتعلقت القلوب بحبِّه وتعظيمه والتأسي به تعلقاً عظيماً.

ومن دعوته ﷺ إلى كثير من فضائل العلاقات هذه الطائفة التالية من النصوص:

١ - روى البخاري عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «أَطْعِمُوا الْجَائِعَ، وَعَوِّدُوا الْمَرِيضَ، وَفُكِّمُوا الْعَانِي».

العاني: الأسير.

٢ - وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ، رَدُّ السَّلَامِ، وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ».

٣ - وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ».

قيل: ما هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال:

«إِذَا لَقَيْتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرَضَ فَعُدَّهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ».

ومن تطبيقاته الكثيرة ﷺ:

ما روى البخاري عن أنس قال: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرَضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَفَعَدَّ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمُ» فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ، فَقَالَ: أَطْعِ أَبَا الْقَاسِمِ، فَأَسْلَمَ.

فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ».

والتُّصُوصُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

* * *

القاعدة السادسة عشرة:

«من وسائل تأليف القلوب وإزالة عقبات النفوس الإحسان إلى الناس بالبذل من المال، وبالبذل من النفس في الخدمات والمساعدات والمعونات، فعلى حامل الرسالة أن يستخدم هذه الوسيلة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً».

الشرح :

جعل الله عزّ وجلّ أحدَ مصارف الزكاة الثمانية مصرف «المؤلفة قلوبهم» وجعل للمسؤولين عن توزيع أموال الزكاة صلاحية بذل قسم منها لتأليف قلوب فريق من غير المسلمين بغية استمالتهم إلى التبصّر بحقائق الإسلام، فعسى أن يؤمنوا ويُسلموا أو يكفّوا أذاهم وشروهم عن الإسلام والمسلمين.

وربما يكون إسلام بعض المؤلفة قلوبهم سبباً في إسلام أتباع كثيرين لهم، أو سبباً في قوة الإسلام وإعلاء كلمته.

وهذا البذل الذي يُضَحِّي فيه المسلمون بالمال قد يخدم الدعوة إلى الله أكثر من القتال في سبيل الله الذي تُقدّم فيه النفوس ضحايا لنشر الدين، وإعلاء كلمة الله في الأرض.

وقد كان بذلُ المال الوفير لتأليف القلوب، وجذبها إلى قبول الإسلام، وإزالة ما في النفوس من عقبات ضده أو ضدّ المسلمين، من الوسائل العظيمة، ذات التأثير القويّ جدّاً، في سياسة الرسول الحكيمة صلوات الله وسلاماته عليه.

ويجد متتبع سيرة الرسول ﷺ أمثلة كثيرة من هذه السياسة الحكيمة.

* * *

القاعدة السابعة عشرة :

«ينبغي لحامل الرسالة أن لا يثير شكوكاً وجدلياتٍ افتراضيةً بغية الإجابة عليها، فإذا طرحت من قِبَل المدعويين أو المتلقين لبيانات الدين أجاب عليها بمقاديرها، ولا يزيد من عنده شيئاً، ثم إذا طُرِحَ غيرها من قبلهم أجاب عليه وهكذا.

إنَّ طرحها من قبل حامل الرسالة ليجيب عليها يقترن بخطرورة تَمَكَّنِ الشكوك من نفوس المتلقين، وصعوبة إزالتها بعد، وربما يكونون غير محتاجين أصلاً إلى هذه الإجابات، لأن لديهم القناعة التامة الكافية بالحق، فالمناسب بالنسبة إليهم عدم طرحها، وعدم شغل أفكارهم بها».

الشرح:

إنَّ مُتَابِعِ تَدَبُّرِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِإِمْعَانٍ، يُلَاحِظُ أَنَّ مَنَهِجَ الْقُرْآنِ التَّربُويَّ أَنَّهُ لَا يُقَدِّمُ شُكُوكًا افْتِرَاضِيَّةً لِيُجِيبَ عَلَيْهَا، وَلِيَبَيِّنَ وَجْهَ الْحَقِّ فِيهَا، بَلْ يَتَرَقَّبُ طَرَحَ الشُّكُوكِ وَالْجَدَلِيَّاتِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَوْ الْيَهُودِ أَوْ النَّصَارَى، ثُمَّ يُنْزِلُ فِي كِتَابِهِ مَا يُجِيبُ عَلَى هَذِهِ الشُّكُوكِ وَالْجَدَلِيَّاتِ بِالْحُجُجِ الدَّامِغَةِ، وَالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ، وَالْأَدَلَّةِ السَّاطِعَةِ.

إنَّ طَرَحَ الشُّكُوكِ لِلْإِجَابَةِ عَلَيْهَا فِيهِ خَطُورَةٌ عُلُوقٍ هَذِهِ الشُّكُوكِ فِي نَفُوسِ الْمُتَلَقِّينَ، وَصُعُوبَةٌ إِزَالَتِهَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهَا.

أَمَّا عَدَمُ طَرَحِهَا وَالْإِجَابَةُ عَلَيْهَا فَفِيهِ تَوْفِيرٌ لِلزَّمَنِ وَالْجُهْدِ الْفِكْرِيِّ، مَعَ مَا فِيهِ مِنْ عَدَمِ تَعَرُّضٍ لِلْخَطُورَةِ الْآنَفَةِ الذِّكْرِ.

فَعَلَى حَامِلِ الرِّسَالَةِ أَنْ يَتَّبِعَ هَذَا الْمَنَهِجَ الْقُرْآنِيَّ الرَّبَّانِيَّ، لِأَنَّهُ هُوَ الْأَحْكَمُ وَالْأَسْلَمُ، وَالْأَكْثَرُ نَفْعًا وَتَحْقِيقًا لِلْأَهْدَافِ الدَّعْوِيَّةِ وَهَدَايَةِ النَّاسِ إِلَى الْحَقِّ، وَإِبْعَادِهِمْ عَنِ مَزَالِقِ الشُّكُوكِ الَّتِي إِذَا عَلِقَتْ فِي النَّفْسِ اخْتِاجَتْ إِزَالَتَهَا إِلَى جُهُودٍ فِكْرِيَّةٍ عَظِيمَةٍ وَبَيِّنَاتٍ وَاسِعَاتٍ وَمُحَاوَرَاتٍ جَدَلِيَّةٍ حَكِيمَةٍ.

* * *

القاعدة الثامنة عشرة:

«على حامل الرسالة أن يكون مقتنعاً اقتناعاً تاماً ومنفعلاً انفعالاً حقيقياً بما يريد توصيله إلى غيره من عناصر رسالته، حتى يكون تبليغه ونصحه وإرشاده مما له أثرٌ حقيقيٌّ فيمن يتلقى منه أو يستمع إليه، فما يصدرُ من

القلب بانفعال حقيقي يصل إلى القلوب».

إنه كلما كانت مشاعر حامل الرسالة حول ما يريد توصيله إلى الآخرين أصدقَ وأعمقَ، وكان إحساسه بها أغنفَ وأوضحَ، كان تأثيره في المتلقين منه أكثرَ وأعمقَ، ولهذا نجد التأثير العظيم للمخلصين، فيما يقولون، أو يدعون له ويهدون إليه، أو ينصحون به.

ويرتقي حامل الرسالة في قدراته على التأثير في غيره لدى أدائه وظائف رسالته بمقدار ارتقاء تجاربه الإيمانية، وتجاربه الوجدانية، ومشاعره النفسية الحلوّة، في مجالات صلته بالله، وطاعته له، وتوبته له، وفي مجالات عطاءات الخير، والتطبيقات الإسلامية المُسعدّة للنفوس، والمريحة للضماير، والممدّة للقلوب بالطمأنينة. وبمقدار ما في نفسه وقلبه من كراهية وبُغضٍ للكُفر والفسوق والعصيان، والتَنكُّبِ لصراط الرحمن، معَ شهودٍ داخليٍّ لما فيها من خباثت، ولما لآثارها من أضرار وأنواع أذى، ثم لما لآثارها من عقوباتٍ بالعدلِ لدى ربِّ العباد.

* * *

القاعدة التاسعة عشرة:

«على حامل الرسالة أن يوفر جهوده العظمى من جهود أدائه وظائف رسالته، فلا ينفقها تبذيراً في الذين دلت التجربات المتكررات على أنّ قابليتهم للاستجابة غير مطموح فيها، لبلوغهم إلى حالة ميثوس منها، وعليه أن يوجه صرف طاقات أعماله الجهادية الدعوية والإرشادية إلى آخرين مطموح باستجابتهم، أو هم في أولى مراحل تلقي البلاغات والبيانات وتوجيهات التصحّح والإرشاد».

الشرح:

إنّ حامل الرسالة الحكيم ذا العقل والرُّشد، يتبع سياسة التاجر الحكيم

الذي يعمل في السوق الذي يكون ربحه فيه أكثر، وسياسة الزارع الحكيم الذي يبذر في الأرض التي يكون إنتاجها أكثر وأنفع، فلا يُضَيِّع وقته وجهده في استصلاح أرض سبخة وعنده أرض أخرى ذات عطاءٍ وفير إذا زرَعها، مع العلم بأن الوقت في الحياة الدنيا محدود، وطاقت كل عاملٍ كادح فيها محدودة، فهو لا يستطيع أن يعمل معاً في المُنتج النافع وفي غير المنتج.

إن الذين قد وصلوا إلى حدّ اليأس من أن يستجيبوا لدعوة الداعي الحكيم، ونُصَح الناصح الرشيد، بعد محاولات متعدّدة، في أزمانٍ كافيّاتٍ لاستجابة من لَدَيْهِ أدنى عقل ورُشد، وظَهَرَ تعَتُّبُهُم وعنادُهُم، وعداؤُهُم للحق والخير، وحملة رسالتَهُما، ينبغي الإعراض عنهم، إذا كانت حالتهم تقتضي الإعراض، أو التولّي عَنْهُم، إذا كانت حالتهم تقتضي التولّي، حَسَب المنهج القرآني، لتوجيه جهود الأعمال الجهاديّة الدعويّة والإرشاديّة لآخرين مطموع في هدايتهم واستجابتهم بما ظهر من الأمارات، أو لآخرين ما زالوا في أوّلٍ مراحل تلقّي جهود هذه الأعمال.

إنّ طاقت الأعمال الجهاديّة الدعويّة والإرشاديّة طاقتٌ نادرَةٌ في الناس، فينبغي استغلالُها أحسنَ استغلال، وهذا إنّما يكون بتوجيهها للذين لم تتحجّر قلوبُهُم بَعْدُ، ولم يَصِلُوا إلى حالةٍ مَيُّوسٍ منها.

ولهذا وَجَّهَ اللهُ عزّ وجلّ الَّذِينَ آمَنُوا بأن لا يطمعوا في إيمان يهود المدينة، ذوي العِلَلِ النفسيّة الكثيرة التي تصدّهم عن الإيمان بمحمد ﷺ، فليس من الحكمة أن يَصْرَفُوا جهودهم المحدودة في الإلحاح عليهم بالدعوة بغية هدايتهم إلى الحق، بل عليهم أن يوجّهوا جهودهم الدعويّة للَّذِينَ يَرَوْنَ لديهم قابليّاتٍ أفضل، وأرضاً أَصْلَحَ لِبَدْرِ بزور الهدى والخير فيها، وسوقاً أفضل للتجارة الرابحة.

فقال اللهُ عزّ وجلّ للمؤمنين في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿أَفَنظَمُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ
يَحْرِفُونَ﴾ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا
بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ ۖ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوكُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا
يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا ءَامَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يُظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ .

إن معرفة إمكان تحقق غاية من الغايات في مجتمع ما من المجتمعات
البشرية تتوقف على دراسة واقع حال هذا المجتمع .

فإذا كانت ظاهراتُ هذا المجتمع بفرقه وأقسامه، تدلُّ بحسبِ سننِ
الاجتماع البشري، على أنه لا مَطْمَعَ في إصلاح النسبة الكبرى منه، كان
الطمع بإصلاحه، واستجابة أفراده للهداية، تعليقاً لرغبات النفوس والقلوب
بأمرٍ غيرِ ذي جدوى سارة .

فمن الحكمة السياسية في سير الدعوة - والحال كذلك - أن تُصَرَفَ
الجهودُ إلى مجالاتٍ ومجتمعاتٍ تكونُ الدَّعوةُ فيها ذاتِ جدوى سارة، أو
جدواها أعظم وأكثر، وأن يقتصر توجيه الاهتمام في المجتمعات التي تدلُّ
ظاهراتها على أنها ميؤوسٌ من إصلاح جماهيرها ولا مَطْمَعَ فيه، على تصيِّدِ
الأفراد الذين يكون الأمل بهدايتهم قوياً، أو تكونُ هدايتهم أمراً غيرِ ميؤوسٍ
منه بعد .

ومجتمع اليهود في عصر الرسول ﷺ، ومنذ أوائل العهد المدني قد
دلَّت ملاحظة واقع حالهم مع تكرار التجربات، على أن الطمع بهداية النسبة
العظمى منهم طَمَعٌ في غيرِ محلِّه، وذلك لأنَّ الظاهرات الاجتماعية التي
تكشِفُها الملاحظة في مختلف فرقههم وأقسامهم وطبقاتهم، وتُثبِتُها التَّجَرِبَاتُ
المتكرراتُ لهم، تدلُّ على أن هداية جمهورهم هي بمثابة الأمر الميؤوس
منه، أو الذي لا مَطْمَعَ فيه، فينبغي إذاً التعاملُ معهم على هذا الأساس،

توفيراً للجهْد، واستغلالاً له فيما هو أجدى.

ومن البدهيات أن التعامل مع مطموع بهدايته، غير التعامل مع ميؤوس من هدايته بحسب الظواهر الاجتماعية المعتادة، أو الطمع في هدايته ضعيفٌ جداً.

هذه قاعدةٌ من قواعد الدعوة إلى الله، علّمها الله عزّ وجلّ للمؤمنين، بقوله تعالى في معرض الكلام عن اليهود:

﴿ أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾!؟.

بصيغة الاستفهام التعجيبى.

أي: أفتطمعون أيها المؤمنون أن يؤمن جمهور اليهود، لأجل دعوتكم، وحرصكم على هدايتهم، واتخاذ مختلف الأساليب لإقناعهم واسترضائهم؟!.

إنّ هذا الطمع في غير محلّه، لأنّ الظاهرات الاجتماعية التي برزت في مجتمع اليهود تدلّ على أنّ هداية معظم أفرادهم أمرٌ لا يصحّ أن يكون مطموعاً فيه، فالتعامل معهم على أساس هذا الطمع يبدّد جهودكم، ويضرّ فيها عمّا ينبغي أن توجه له، ومن ذلك توجيه الجهود لدعوة من يرجى من أفرادهم أن يستجيب، وتوجيه الجهود لدعوة مجتمعاتٍ أخرى يكون بذلّ الجهود فيها أنفع وأجدى، إذ هي للهداية والاستجابة والإصلاح أرجى.

وخاطب الله عزّ وجلّ رسوله وكلّ داعٍ إلى دين الله من أمته بقوله في سورة (فاطر/ ٣٥/ مصحف/ ٤٣/ نزول):

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ۗ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۗ ﴾.

أي: وما أنت بقادر على أن تحرق سنّة الله فتسمع الموتى وهم في

قُبُورِهِمْ، أَوْ تُسْمَعُ أَشْبَاهَ الْمَوْتَى وَهُمْ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ عِتَادًا، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِآيَاتِ اللَّهِ الْمُنْزَلَاتِ، وَقَطَعُوا صِلَةَ كُلِّ حَوَاسِمِهِمْ بِقَضَايَا الدِّينِ، فَكَانُوا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا مَوْتَى مَقْبُورِينَ.

إِنَّ الْقَادِرَ عَلَى تَغْيِيرِهَا هُوَ اللَّهُ وَاضِعُهَا، وَمَحَدِّدُ حُدُودِهَا، وَمَنْظِمُ أَنْظِمَتِهَا، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَا يَغْيِرُهَا إِلَّا فِي خَارِقَةٍ تَقْتَضِيهَا حِكْمَتُهُ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَنْ يَشَاءُ﴾.

وَلَكِنْ لَا تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الَّذِينَ وَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الْإِمْتِحَانِ أَنْ يُسْمَعَ بَعْضُهُمْ بِإِرَادَةٍ مِنْهُ جَبْرِيَّةً، إِذَا رَفَضُوا عَلَى عِلْمِ الْإِسْتِمَاعِ بِاخْتِيَارِهِمْ، ضِمْنَ سُنَنِ اللَّهِ فِيهِمْ، قَاطِعِينَ الصِّلَةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قَضَايَا الدِّينِ، وَلَا تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ تَعَالَى أَنْ يُعَامِلَهُمْ مَعَامِلَةً مُخَالَفَةً لِمَعَامِلَةِ نِظَرَاتِهِمُ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِدَعْوَةِ الرَّسُولِ، وَسَمِعُوا بِاخْتِيَارِهِمُ الْحَرَ، ضَمْنَ سُنَنِ اللَّهِ وَأَنْظَمَتَهُ فِيهِمْ، الَّتِي وَضَعَهَا فِي النَّفُوسِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى نِسْبَةٍ سِوَاهُ فِي الْإِسْتِجَابَةِ وَالرَّفْضِ.

وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ الْكَافِرِينَ الْمَعَانِدِينَ الْمَصْرِينَ عَلَى التَّزَامِ الْبَاطِلِ، وَالتَّوَلَّى عَنِ الْحَقِّ، بِوَصْفٍ مِنْ لَوَازِمِهِ أَنْ يَكُونُوا مَقْبُورِينَ، لِأَنَّهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى دَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ مَوْتَى.

فَحَسْبُ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ أَنْ يُبَلِّغَ وَيُنْذِرَ وَيَقْطَعُ بِتَذْكِيرِهِ الْعَذْرَ.

وَخَاطَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ وَكَلَّمَ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ فِي سُورَةِ (النمل/ ٢٧ / مصحف/ ٤٨ / نزول) بِشَأْنِ مَنكَرِي الْقُرْآنِ وَمَا جَاءَ فِيهِ مِنْ حَقِّ حَوْلٍ مُخْتَلَفٍ قَضَايَا الدِّينِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٦﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَةَ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨١﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى ﴾ .

أي: إنك لا تسمعُ الذين هم موتىُ بالنسبة إلى قضايا الدين، إذ فقدوا كلَّ حواسهم التي تَسْتَجِيبُ لمثيرات دعوة القرآن، التي تَسْتَثِيرُ من كانت لديهم هذه الحواس، وظاهرٌ أن فَقَدَ كلَّ الحواس الظاهرة والباطنة التي تَسْتَثِيرُها دعوة القرآن، هو نوعٌ من الموتِ لجانبٍ من جوانبِ الْمُحَسَّاتِ، وهو الجانب الذي كان لديه بالفطرة استعدادٌ لأن يُحَسَّ بالمُثِيرَاتِ المتعلقة بقضايا الدين الحق.

وقد سمَّاهم الله موتى، لأن نفوسهم منصرفة عن كلِّ القضايا التي تتصل بالله واليوم الآخر انصرافاً كلياً، فليس بينهم وبينها وسائلُ اتِّصال، وبانقطاع الاتصال يَنعَدِمُ التَّلَقِّي، وتَنعَدِمُ الاستجابة، فهم بالنسبة إليها كالموتى، وقد وُضِعَ الممَثِّلُ به موضع الممَثَّلِ له تأكيداً للمُمَاثَلَةِ .

﴿ وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ .

أي: وإنك لا تسمع الصَّمُّ الذين نزل بهم داءُ الصَّمَمِ بالنسبة إلى دعوة الدين الحق، ففقدوا القدرة على استماع أيِّ دُعَاءٍ أو نداءٍ يتعلَّقُ بها، لأنَّ كلَّ أجزاء أَسْمَاعِهِمْ مُتَّصِلَةٌ بأمور شهواتهم وأهوائهم ومطالبِهِمْ من دُنْيَاهُمْ، فليس فيها خَطُّ استماعيٍّ يَسْتَجِيبُ لمثيرٍ يتعلَّقُ بالله واليوم الآخر والواجبات الدنيوية، فهم بالنسبة إلى النداءات التي تتعلَّقُ بهذه الموضوعات مصابونٌ بداءِ الصَّمَمِ .

ولفَرَزِ حالة الصمم هذه عن حالة العَمَى قَيْدَها الله عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ وذلك لأنَّ الْأَصَمَّ البصير إذا كان يواجه بِبَصَرِهِ من يَنَادِيهِ، فإنه قد يَفْهَمُ من حركات شفاهه ووجهه بعض ما اشتمل عليه نداؤه، وبذلك لا تُكْشَفُ حالة الصَّمَمِ كَشْفًا تامًّا إِلَّا إذا كان الْأَصَمُّ قَدْ وَلَّى مُدْبِرًا .

وقد سمَّاهم الله صُمَّاً لأن نفوسهم منصرفة عن استماع كلِّ نداءٍ يتعلَّقُ

بقضايا الإيمان بالله واليوم الآخر وسائر قضايا الدين انصرافاً كلياً، فليس بينهم وبينها وسائل اتصالٍ سمعيٍّ، وبانعدام الاتصال ينعدم التلقّي، وتنعدم الاستجابة، فهم بالنسبة إليها كالصمّ، وقد وُضِعَ الممثلُ به مَوْضِعَ الممثلِ له تأكيداً للمثالة.

﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَدَى الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ﴾ :

أي: وإنك لا تهدي العُمَى بأنوار معرفة آيات الله مهما وجَّهتها لأبصارٍ بصيرتهم.

إنهم لا يرونها، فهم لا ينصرفون عن ضلالتهم التي هم فيها، إذ فقدوا القدرة على رؤية الحق الذي جاء في القرآن مهماً كشفتهُ الأنوار، بسبب أنهم عُمَى بالنسبة إلى القضايا التي تتعلق بالدين، وإن كانوا حديدي الأَبصار بالنسبة إلى شؤون دنياهم وأهوائهم وشهواتهم ولذاتِهِمْ فيها.

وقد سَمَّاهم الله عزّ وجلّ عُمَيًّا، لأنّ نفوسهم وبصائرهم منصرفَةٌ عن رؤية كلّ ما يتصلُّ بقضايا الدين انصرافاً كلياً، فليس بين بصائرهم وبينها وسائل اتصالٍ بصريٍّ، وبانعدام الاتصال البصريّ تنعدم الاستجابة بالرؤية، فهم بالنسبة إليها كالعمى، وقد وُضِعَ الممثلُ به مَوْضِعَ الممثلِ له تأكيداً للمثالة.

وأبان الله عزّ وجلّ السبب الحقيقي الذي جعلهم صُمًّا وعُمَيًّا وأشباه الموتى، وهو أنهم لم يؤمنوا بآياته، ومعلومٌ في طبائع النفوس أنّ من لا يؤمنُ بالشيء فإنه لا يهتمُّ له، ولا يستجيبُ لدعوته، بخلاف الذين آمنوا بآيات الله فإنهم يرون سعادة أنفسهم منوطةً بالعمل بما جاء فيها، فهم يستمعون إليها، ويُسلمون طائعين مجتهدين أن يعملوا بما جاء فيها، فقال تعالى:

﴿ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ :

أي: لا تُسْمِعُ إِلَّا الَّذِينَ يُتَابِعُونَ الْإِيمَانَ بِكُلِّ مَا يَدْرِكُونَ مِنْ آيَاتِنَا
استناداً إلى موازين فطرتهم، وهم حريصون على معرفة منهاج سعادتهم،
مستسلمون، فمن استسلم وأسلم اجتهد في أن يعمل بما علم مما آمن به،
وارتبطت بالعمل به سعادته.

إن الاستجابة للدعوة تنحصر فيمن يؤمن بالآيات الربانية الأولى،
والأدلة الجذور، فمن اقتنع بها وآمن صار بينه وبين الداعي أرضية مشتركة
صالحة للبناء عليها، وإلا فهو أعمى أو ميت تماماً بالنسبة إلى قضايا الدين.

وعلى هذا النمط ينبغي فهم كثير من النصوص القرآنية المؤكدة لهذا
التوجيه الذي دلّت عليه هذه النصوص، ومنها النصوص التالية:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿ وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَعِينُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ
إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٥٢﴾ .

● وقوله الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٦١﴾ .

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤١﴾ .

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الجاثية/ ٤٥ مصحف/ ٦٥ نزول):

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَدَىٰ إِلَهُمُ هَوْنَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَغَلَّبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ
غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ .

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدِيرِينَ ﴿٦١﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ

الْعَمَىٰ عَنْ ضَلٰلَتِهِمْ ۗ اِنْ سَمِعُ اِلَّا مَنْ يُّؤْمِنُ بِآيٰتِنَا فَهُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ .

● وقول الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بشأن الذين كفروا معاندين بعد معرفة الحق:

﴿ اِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَاَنْذَرْتَهُمْ اَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُوْنَ ﴿٦١﴾ خَتَمَ اللهُ عَلٰى قُلُوْبِهِمْ وَعَلٰى سَمْعِهِمْ وَعَلٰى اَبْصٰرِهِمْ غَشٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيْمٌ ﴿٦٢﴾ .

● وقول الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً بشأن الذين كفروا معاندين بعد معرفة الحق:

﴿ وَمَثَلِ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقِيْ بِمَآ لَا يَسْمَعُ اِلَّا دُعَاۗءَ وَنِدَآءَ صُومِ بُكْمٍ عَتٰى فَهُمْ لَا يَتَّقِلُوْنَ ﴿٧٧﴾ .

ويجد القارئ شرح هذه النصوص وتحليلها في كتابي: «أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع».

* * *

بعد البيان الكافي يأتي التذكير:

ولا بُدَّ هنا من التنبيه على أن الوظيفة الأولى لحامل الرسالة هي التبليغ المقرون بالبيان الكافي الذي ينقطع به العذر، فمن أبى أن يستجيب بعد ذلك وُجَّه له الإنذار بعقاب الله وعذابه.

أما التذكير بما سبق به البلاغ والبيان الكافي والإنذار الأخير بعذاب الله وعقابه، فالأمر به مشروط بوجود احتمال نفع الذكرى لدى من يُوجَّه له التذكير.

قال الله عز وجل في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول) خطاباً لرسوله فكلّ داع إلى الله من أمته:

﴿ فَذَكِّرْ اِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرٰى ﴿٩﴾ سَيَذَكِّرْ مَنْ يَخْتٰى ﴿١٠﴾ وَنَجِّنٰهَا الْاَشْقٰى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصَلٰى النَّارَ الْكُبْرٰى ﴿١٢﴾ .

الدُّكْرَى: اسمٌ للتذكير، وتكونُ بمعنى التذكُّر.

أي: إن رأيتَ أنَّ من توجَّه له خطابك غيرُ ميؤوس منه، إذ ما زال
لديك طَمَعٌ ما في أن يَنْفَعُهُ تذكيرُك فذكِّره بما سَبَقَ أن بيَّنَّته له من أمور الدين.
أما إن رأيتَ أنَّ تذكيرك له لا يُؤثِّر فيه أيُّ أثر، فلا تُضِعْ وَقْتَك وجَهْدَكَ
في تذكيره.

وقال الله عزَّ وجلَّ في سورة (الذاريات/ ٥١ / مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿ وَذِكْرٌ فَإِنَّ الذِّكْرَى نُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

أي: وَذَكَّرْ من تجد لديه استعداداً ما لأن يُؤمن في المستقبل، فإنَّ
الذكرى تنفع هؤلاء الذين لديهم استعدادٌ ما لأن يؤمنوا، أما الذين لا تجد
لديهم مثل هذا الاستعداد فلا حرج عليك في أن تتولَّى عنهم.

وقد جاءت هذه الآية عقب الحديث عن آخرين تحجَّرت قلوبهم فهم لم
يستجيبوا للدعوة، وينفرون من التذكير بسبب طغيانهم، وقال الله لرسوله
بشأنهم:

﴿ فَنُؤَلِّقُهَا فِي السَّمَاءِ فَتُنزَلُ مِنَ السَّمَاءِ نَازِلاً سَاجِداً مَّسْمُوماً فَيُضْرَبُونَ بِهَا بِرَءِيسِهِمْ ذُكْرًا وَذِكْرًا كَوْنًا ﴾

أي: فأدرِ ظهرك إليهم، وانصرف عنهم، واشتغل بآخرين غير ميؤوسٍ
منهم ممَّن تدلُّ الآمارات على أن إيمانهم مطموح به.

* * *

أحوال الذين لم يستجيبوا والسياسة القرآنية في التعامل معهم:
دلَّت النصوص القرآنية على أن عدم الاستجابة لدعوة مؤدِّي الرسالة
الربانية أو نصحهم وإرشادهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، له سبع
درجات مُتَنَازِلًا انحطاطاً بحسب شدتها.

الدركة الأولى: «لِيَّ الرَّأْسِ» وهي حركةٌ عَدَمِ استجابةٍ خفيفةٍ تُشعرُ برفقٍ بأن المدعوَ إليه لم يحظْ باستجابةِ النفسِ إليه بعدُ، لكنها لا تدلُّ على الرفضِ الجازمِ، وهي أخفُّ من حركةِ الإعراضِ.

دلَّ على هذه الدَّرَكَة قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُوفُوا قَوْمِينَ بِأَلْقَسِطِ شُهَدَاءَ اللَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوْا أَوْ نَعَرْتُمْ أَوْ لَمْ تُنْقِصُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١٣٥).

فأبانَ هذا النَّصُّ أَنَّ دَرَكَةَ اللَّيِّ مخالفةٌ لدركةِ الإعراضِ، وليَّيَّ الرؤوسِ في المفهومِ اللَّغويِّ أخفُّ من الإعراضِ الذي هو إعطاءُ عارضِ الوجهِ وهو جانبُه.

وعلى حاملِ الرِّسالةِ بالنسبةِ إلى هذه الدركة أن يتجاهلها، ويُتابعِ وسائله في الدعوةِ والنُّصحِ والإرشادِ والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ، مع استخدامِ الأساليبِ الملائمةِ لها.

فاللِّيُّ حركةٌ ابتدائيةٌ قد تكون من المترثِ ذي الشكوكِ الخفيفةِ، الذي يحتاجُ مَزِيدَ بيانٍ أو استيثاقٍ بالأدلةِ والحججِ ليقتنعَ.

الدركة الثانية: «الإعراض» وهو إعطاءُ الجانبِ بعدِ المواجهةِ أو اللَّيِّ، والإعراضُ منزلةٌ وسَطِيٌّ بين الإقبالِ والإذبارِ.

عُرِّضُ الشَّيْءِ فِي اللَّغَةِ جَانِبُهُ، وَعَارِضًا الْإِنْسَانَ صَفْحَتَا خَدَيْهِ.

والإعراضُ قد يدلُّ على الرفضِ الجازمِ بأسلوبِ ليس فيه شدَّةٌ ضدَّ مبلغِ الرسالةِ ومؤدِّيِ وظائفها، وقد يكون صاحبُ الإعراضِ راغباً نفسياً بمتابعةِ الاستماعِ والتلقِّيِ دونِ مواجهةٍ، فإذا وَجَدَ مَا يُقْنِعُهُ عادَ إلى الإقبالِ والمواجهةِ.

وقد جاء في القرآن المجيد استعمال الإعراض في الحديث عن الراضين بجزم، وفي الحديث عن الذين لم يَرْفُضُوا بَعْدُ رَفْضاً جَازِماً، وفي الأمر بالإعراض عن دعوة من تولى من المشركين وبعض المذنبين، وفي الأمر بالإعراض الداعي دُونَ أَنْ يُشْعِرَهُمُ الدَّاعِي بِأَنَّهُمْ مَقْصُودُونَ بِالتَّوْجِيهِ .

وعلى حامل الرسالة أن يتابع تذكير من أعرض ولم يُظْهِرْ إِذْبَارَهُ وَتَوَلَّيْهِ، لأنَّه لم يَكْشِفْ من حاله ما يَدُلُّ على رَفْضِهِ الجَازِمِ .

الدركة الثالثة: «الإعراضُ مع النَّأْيِ بِالْجَانِبِ» وهذه دركة أشدُّ من سابقتها، لأنَّ الإعراض اقترن بالابتعاد عن مجلس حامل الرسالة ومؤدِّيها، وبالابتعاد عن قوَّة تأثير صوته، مع بقاء المُعْرِضِ في الدائرة التي تصل إلى أطرافها بيانات حامل الرسالة .

دَلٌّ على هذه الدركة قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) يتحدث عن الإنسان الظالم لنفسه:

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَكُفِّرًا ﴾ .

وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ

عَرِيضٍ ﴾ .

أي: ففي حالة يكون يؤوساً إذا لم يكن له بالله صلة، أمّا من كان له صلة ما بالله فذو دعاء عريض .

وعلى حامل الرسالة أن يتابع تذكير من أعرض ونأى بجانبه ولم يَصِلْ بَعْدُ إلى دركة الإذبار، لكنَّ نسبة الاهتمام به تكون أقلَّ قليلاً من نسبة المعرض فقط دون أن ينأى بجانبه .

الدركة الرابعة: «التَّوَلَّى» وهو يأتي بمعنى الإذبار، ويأتي بمعنى الابتعاد الكلّي، أما الإذبار فهو عكسُ المقابلة بالوجه، ونظيره الابتعاد التام. والتوجيه القرآنيُّ بالنسبة إلى من تَوَلَّى مُذْبِرًا عن التلقّي أو مُبْتَعِدًا عن حامل الرسالة وبياناته، يُوصي بمقابلته بالإعراض فقط، لا بالتوليّ والإذبار. والاقتصارُ على الإعراض عمّن تولى يُفصّدُ منه تَرْقُبُهُ، وترصّدُ احتمال عودته إلى الدركة الأخرى لإسماعه بيانات رسالته.

وقد دلّ على هذا الموقف قول الله عزّ وجلّ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) خطاباً لرسوله فكلّ حاملٍ لرسالته من أمته:

﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٢١).

الدركة الخامسة: «التوليّ مع الانصراف الكامل والابتعاد» وقد نسّميه «الهجر» أخذاً من قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (٢٢).

والتوجيهُ القرآنيُّ بالنسبة إلى الهاجر الإعراض عنه كشأن صاحب الدركة الرابعة.

الدركة السادسة: «إعلان العداء والمشاقّة وممارسة أنواع الأذى».

دلّ على هذه الدركة عدّة نصوص، منها ما يلي:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ (١) بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِرْقٍ وَشِقَاقٍ﴾ (٢).

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول):

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (٣٢).

والتوجيه القرآني بالنسبة إلى أصحاب هذه الدركة الصَّبرُ على أذاهم، ومراقبةُ خطتهم دوماً، وترصُّدُ أعمالهم، والإعدادُ سِرّاً لِقِتَالِهِمْ إذا أرادوا قمع الدَّعوة الإسلاميَّة بالحرب.

الدركة السابعة: «إعلان حالة الحرب ضدَّ الإسلام وجماعة المسلمين» والتوجيه القرآني بالنسبة إلى أصحاب هذه الدركة مُقَاوَمَتُهُمْ بالقوَّة العسكريَّة الحربيَّة إذا تهيَّأت أسبابُ قتالهم، فإن لم تنهياً بعدُ فينبغي دفعُ شرورهم ما أمكن، والصَّبرُ على أذاهم، ريثما تنهياً أسبابُ مُحَارَبَتِهِمْ مع سؤال الله الانتصار عليهم.

* * *

القاعدة العشرون:

«إذا دعت حالٌ متلقِّي الرسالة لإقناعه مجادلته حول قضية من قضايا الدِّين، فعلى حامل الرسالة أن يُجَادِلَهُ بِالتِّي هي أحسن، ولا يَحْسُنُ اللَّجُوءُ إلى المجادلة إلاَّ بعد استفاد الوسائل الإقناعيَّة الحكيمة، ووسائل الموعظة الحسنة، بالترغيب والترهيب».

الشرح:

هذه القاعدة مستفادة من قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النحل/ ١٦) مصحف/ ٧٠ (نزل) خطاباً لرسوله فلكل داعٍ إلى سبيل الله من أمته بصورةٍ إفرادية:

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (١٢٩)

ومن قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الإسراء/ ١٧) مصحف/ ٥٠ (نزل):

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ

لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿١﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢﴾ .

فالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة تكون بالهداية الفكرية الإقناعية التي هي أقوم .

والموعظة الحسنة تكون بالترغيب عن طريق تبشير المؤمنين بأن لهم عند الله أجراً كبيراً، وبالترهيب عن طريق إنذار الذين لا يؤمنون بأن الله أعتد لهم عذاباً أليماً .

والجدال بالتي هي أحسن يكون بالحوار الجميل الهادئ الذي يأخذ بيد المدعو برفق حتى يدرك الحق ويهتدي إليه .

ويجد القارئ شرح وتفصيل هذه القاعدة في الفصل الثالث «المنهاج البياني ومسالكه» من الباب الرابع «مناهج ومسالك ووسائل الهداية والإصلاح والحماية بالقول والعمل» .

* * *

القاعدة الحادية والعشرون :

«ينبغي لحامل الرسالة أن يكون يَقِظاً دائم التنبُّه للأحداث الطارئة، وأن يكون حَسَنَ المعالجة لكلِّ حَدَثٍ طارئ بما يلائمه، مع عقل وروية، وبدون انفعال ولا طيش، وبدون اندفاع مع ردود الأفعال التلقائية غَيْرِ الواعية .

وينبغي له أيضاً أن يتكَيَّفَ مع المتغيِّرات الطارئات بوسائل المعالجة وأساليبها، دون أن يتنازل عن أيِّ عنصر من عناصر المبدأ الذي يؤمن به، وعن أيِّ عنصر مما يدعو إليه من فكر واعتقاد وخلق وعَمَلٍ نَفْسِيٍّ أو ظاهر» .

الشرح :

إنَّ شياطين الإنس والجن لا يفتنون يُغَيِّرُونَ في وسائلهم، مع الاستمسك بباطلهم وضلالتهم، كُلِّمَا قَلَّ أو ضَعُفَ تأثير وسائلهم السابقة،

ولا يَقْتُوْن وَيَتَّكِرُون وسائل جديدة لإضلال عباد الله ومقاومة الحق والخير والهدى، ولنشر الفساد في الأرض وفي الأنفس.

فإذا بقي حَمَلَةٌ رسالة الهدى لا يستخدمون إلا وسائلهم القديمة نفسها، كانوا كالأمم البدائية التي ما تزال تحارب بالحجارة والسيوف والرماح، في حين توصلت الأمم المتقدمة في الصناعة إلى ابتكار الأسلحة النارية العظيمة، والطائرات ذوات الأنواع المختلفة، والصواريخ، وأشعة الليزر، والقنابل الذرية والهيدروجينية، وأسلحة الدمار الشامل.

ومعلوم في سنن الله الكونية أن القوى لا تُقاوم إلا بأكفائها وأمثالها، أو بما هو أشد منها وأقوى.

ومراعاة لسنة تطوّر القوى في المجتمع البشري أمر الله الذين آمنوا بأن يُعدّوا لأعدائهم ما استطاعوا من قوّة حتى يصلّوا بها إلى مستوى إرهاب عدو الله وعدوهم وآخرين من دونهم، وأن تكون قواهم في الأرض هي القوى المتفوقة السابقة دوماً، بحسب أنظمة الله السببية، فقال الله عز وجل في سورة (الأنفال/ ٨ / مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

وعلى مثل وجوب إعداد الوسائل الحربية المادية في سباق تطوّرّي، يكون فيه الذين آمنوا هم السابقين دوماً، يجب عليهم أيضاً أن يكونوا هم السابقين دراماً في وسائل التأثير الفكري والوجداني والنفسي في مجالات القوى المعنوية، وهم السابقين في مجالات العلوم المختلفة، لأنّ السبق في العلم أحد مجالات السبق في القوّة التي أمر الله الذين آمنوا أن يُعدّوا منها ما استطاعوا لمواجهة أعدائهم الكثيرين في الأرض.

القاعدة الثانية والعشرون :

«ينبغي لحامل الرسالة أن يواجه الناس دواماً بزِيٍّ حَسَنٍ، ومظهر جميل، ونظافة تامة، وأناقة جذابة عادية تلائم وضعه، حتى يَكُونَ لمظهره من الحُسْنِ ما تميل إليه النفوس والحواس، ولا يكون في جَسَدِهِ أو بَرَّتِهِ ما يُنْفِرُهَا، أو يجعلها تتقزز كراهية».

الشرح :

كان النبي ﷺ كثير العناية بنظافة جسمه، ونظافة فَمِهِ بالسواك، ونظافة ثيابه، وترجيل شعره، وإزالة الشعور الأخرى من جَسَدِهِ، لئلاً تتجمع فيها الروائح غير المستحبة، مع أن عَرَفَهُ صلوات الله عليه قد كان طيبَ الرائحة، كما ثبت في شمائله .

وكان كثيرَ العناية بالطيب، فلا يَشْمُ الناس منه إلا الرائحة الطيبة .

واحتفاءً بأمر النظافة شرع الله في الإسلام الوضوء والاعتسال، وأبان الرسول ﷺ أنها من سُنَنِ الفطرة .

وجاء في الصحيح من كلام الرسول ﷺ قوله :

«الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ» .

وروى الإمام أحمد وأبو داود والبيهقي عن عمّار بن ياسر أن النبي ﷺ

قال :

«إِنَّ مِنَ الفِطْرَةِ المِضْمِضَةَ، وَالاسْتِنْشَاقَ، وَالسَّوَاكَ، وَقَصَّ الشَّوَارِبِ، وَتَقْلِيمِ الأظْفَارِ، وَنَتْفِ الإِبْطِ، وَالاسْتِحْدَادِ، وَغَسْلِ البُرَاجِمِ، وَالانْتِضَاحِ بالماءِ وَالاخْتِنَانِ» .

وهذه كُلُّهَا من وسائل النظافة .

الاستحداد: حلقُ شعر العانة .

البراجم: هي العقد في ظهور الأصابع، إذ تتجمع فيها الأوساخ.

الانتضاح بالماء: أي: غسل الفرج بالماء.

* * *

القاعدة الثالثة والعشرون:

«على حامل الرسالة أن يتبع سياسة التدرج والتنمية المتصاعدة، بدءاً بالأسس وارتقاءً إلى ما فوقها، ثم إلى الفروع الكبيرة، فالأصغر فالأصغر، فالأطراف، فالكماليات ذوات التزيين والتحسين في السلوك الإسلامي.

وعليه أن يبني الأفكار بناءً تكاملياً صاعداً، وأن يبدأ في التطبيقات العملية بالأهم فالمهم، ثم ما يليها بالأهمية وما يتفرع عنها من فروع، حتى الأطراف من المندوبات والمستحبات والمكروهات وخلاف الأولى».

الشرح:

أنزل الله عز وجل الرسالة الإسلامية على سيدنا محمد ﷺ وفق أسلوب التدرج التكاملي الذي اقتضته حكمته في تربية الناس علماً وعملاً.

فبدأ بالعقائد الأصول، وبكبريات الأخلاق الفردية والاجتماعية، ثم ترقى شيئاً فشيئاً في إنزال فروع العقائد وتفصيلاتها، وفروع الأخلاق، ثم تدرج في تنزيل أحكام التكاليف التعبدية فبدأ بالصلاة، ثم بالزكاة والصيام، ثم فرض الحج.

وتدرج في تنزيل أحكام المحرمات، فكان من أوائلها تحريم القتل والعدوان على الناس، والزنا والسرقه وأكل أموال الناس بالباطل.

وتأخر إنزال أحكام المعاملات وفي آخرها تحريم الربا.

وبعث رسول الله ﷺ معاذاً إلى اليمن فعلمه سنة التدرج في تربية الناس على تطبيق أحكام الدين.

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن:

«إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَعْيَانِهِمْ فَتَرُدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَأَتَىٰ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ».

فتح الباري رقم الحديث ١٩٤٦ ج ٣

إنَّ أسلوب التدرج التعليمي والتطبيقي للإسلام لا يَقْتَضِي تغيير شيء من أحكامه، ولكنَّ الحكمة التربوية تقتضي عَدَمَ حَمَلِ الناس على الأخذ بالمهمِّ مع حملهم على الأهمِّ، أو قبل حملهم على الأهمِّ، بل يَنْبَغِي الأخذ بأسلوب البناء التدريجيَّ بدءاً بالعقائد وكبريات الأخلاق، وتدرجاً حكيماً إلى ما بعدها بحَسَبِ الأولويات.

وهذا ما كان عليه السلف رضوان الله عليهم، فعن ميمون بن مهران، عن عبد الملك بن عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، أَنَّهُ قَالَ لِأَبِيهِ:

يَا أَبَتِ، مَا مَنَعَكَ أَنْ تَمْضِيَ لِمَا تُرِيدُ مِنَ الْعَدْلِ؟ فَوَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَبَالِي لَوْ غَلَّتْ بِي وَبِكَ الْقُدُورُ فِي ذَلِكَ.

فقال له أبوه عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: «يَا بُنَيَّ إِنَّمَا أَرُوضُ النَّاسَ رِيَاضَةَ الصَّعْبِ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُحْيِيَ الْأَمْرَ مِنَ الْعَدْلِ، فَأَوْخِرُ ذَلِكَ حَتَّىٰ أُخْرِجَ مَعَهُ طَمَعًا مِنْ طَمَعِ الدُّنْيَا، فَيَنْفِرُوا مِنْ هَذِهِ وَيَسْكُنُوا لِهَذِهِ».

وقال له كما جاء في روايةٍ أُخْرَى: «لَا تَعْجَلْ يَا بُنَيَّ، فَإِنَّ اللَّهَ ذَمَّ الْخَمْرَ

في القرآن مرتين وحرّمها في الثالثة، وإني أخافُ أن أحمل الناس على الحقّ جملةً فيَدْعُوهُ جُمْلَةً، فيكونُ من ذَا فِتْنَةٍ»^(١).

* * *

القاعدة الرابعة والعشرون:

«من الحكمة التربوية في بيانات حامل الرسالة أن يُنبّه المتلقين على ارتباط كلّ فرع يَشْرَحُهُ أو يُذَكِّرُ به من فروع الإسلام بالجذر الاعتقاديّ الذي يرتبط به، تأصيلاً لهذا الفرع ببيان ارتباطه بالجذر الإيمانيّ، وتحريضاً للبواعت الإيمانيّة الدافعة بقوة لتطبيق أنواع السُّلوك الإسلاميّ».

الشرح:

إن ربط الفرع الاعتقاديّ أو العمليّ بأصله الذي تفرّع عنه يجعل له تمكناً في القلوب، ويستثير للالتزام به الدوافع العميقة الداخليّة الذاتيّة في الإنسان، فيُنقِذ الإنسان المطلوب منهم كما يُنقِذ ماله فيه رغبةً ذاتيّةً.

فمنها رِبْطٌ وجوب طاعة الله في أوامره ونواهيه بأنّه الخالق المالك الذي له الحُكْمُ والأمرُ المحاسبُ المجازي، وربطُ واجب الشكر لله بأنّ هو المتفضل المنعم على عباده بكل ما فيهم من نِعَم، وبأنّ شكره على نِعَمِهِ يستدعي بفضل الله زيادتها، وربطُ النهي عن المحرمات بأنّ الله خلَقَ الناس ليتمتعهم في ظروف الحياة الدنيا، وربّ على طاعتهم له الثواب الجزيل العظيم، وعلى معصيتهم له العقاب بالعدل.

إلى غير ذلك من أنواع الربط الحكيم بالأصول الاعتقاديّة.

ويُلاحِظُ مُتَدَبِّرُ كتاب الله عزّ وجلّ أنّ هَذَا الربطُ أحدُ عناصر المنهج التربوي القرآنيّ للمؤمنين المسلمين.

(١) انظر «الأمر بالمعروف» للخلّال ص ٨٢.

فالتكاليف الشرعية التي تدلُّ عليها آيات أحكام السلوك النفسي والظاهر تشتمل غالباً على استثارة دوافع الإيمان في نفوس المؤمنين، لتكون القوَى الإيمانية محرّضاً ذاتياً للمؤمن المسلم على الطاعة والاستجابة لمطلوب الله من عباده.

هذا ما نلاحظه في النصوص القرآنية الكثيرة:

● فمنها نصوصٌ تخاطب الذين آمنوا بقول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مستثيرةً فيهم دوافع الإيمان لتحقيق المطلوب منهم.

● ومنها نصوصٌ يأتي في آخرها مثل: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ - إِنْ كُنْتُمْ بِرَبِّكُمْ يَأْتِيَتِيهِمْ مُؤْمِنِينَ - ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

● ومنها نصوصٌ يفترون بياناً الأحكام فيها بالتوجيه لتقوى الله، مثل: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ صَلَّى لَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ - خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ - لَقَوْمٍ يَتَّقُونَ - وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

● ومنها نصوصٌ تُطمعُ بثوابِ الله أو تُحذّرُ من عقابه مع بيان الأحكام أو بعد بيانها.

● ومنها نصوصٌ تُختتمُ ببيانِ بعضِ صفاتِ الله أو أسمائه الحُسنى.

إلى غير ذلك مما فيه ربط فروع الأحكام بالأصول الاعتقادية.

* * *

القاعدة الخامسة والعشرون:

«على حامل الرسالة أن يهتم في بياناته بمحاصرة من يوجّه له رسالته من كلِّ أركانه الداخلية الفكرية والوجدانية والنفسية.

فالمحاصرة الفكرية تكون عن طريق إقناعه بالبراهين والأدلة الصحيحة الحسية أو العقلية أو الخبرة التي يؤمن بها، مع انتقاء ما يلائم حالته منها.

والمحاصرةُ الوجدانيةُ تكونُ باستثارةِ ضميره المفظور على حبِّ الحقِّ والخير والفضيلة، والمفظور على كراهية الباطل والشرِّ والرذيلة.

والمحاصرةُ النفسيةُ تكونُ بتنبية محورِ الطمع فيما يرغبه فيه من الأجر العظيم عند الله، ومِحورِ الخوفِ ممَّا يُحذِّره منه من عذاب الله.

الشرح:

الإنسان له في أعماقه ثلاثة أركان رئيسة، إذا تلاقت على شيء واحد تولدت في داخله قُوَّةٌ ذاتيةٌ عظيمة، تدفعه من عمق كيانهِ لتحقيق السلوكِ النفسِيِّ أو الظاهر الذي يدعو إليه ذلك الشيء.

الركن الأول: فِكْرُهُ العِلْمِيُّ، والسبيل إليه البيان الإقناعي المقترن بالحجة والبرهان والأدلة الصحيحة، من المدركات الحسِّيَّة، والمستنبطات العقلية، والأخبار الصحيحة الثابتة التي يؤمن بها من يوجَّه له الإقناع.

الركن الثاني: وجدَّانه المفظور على حبِّ الخير والنزوع إليه، وكراهية الشرِّ والنفور منه، والسبيل إلى استثارتها البيان العاطفي الذي يحرك فيه حبه الفطري للخير والفضيلة، وكراهيته الفطرية للشرِّ والرذيلة، واستثارتها من مكانهما في أعماقه.

الركن الثالث: حاشية نفسه التي تدور في ساحتها الأهواء والشهوات والرغبات واللذات، والسبيل إلى استثارتها البيانُ الترغيبِي الذي يحرك فيها محور الطمع فيما تحبُّ وتهوى وتشتهي، والبيان الترهيبِي الذي يحرك فيها محور الخوف مما يُسبِّبُ لها الآلام والأحزان والهموم والأكدار.

إن من يتتبع أساليب البيانِ القرآني يدرك بوضوح أنها تهتمُّ بمحاصرة الإنسان من هذه الأركان الثلاثة فيه بالأدلة الإقناعية، وبالاستثارات الوجدانية، وبالترغيب والترهيب.

وقد جاء في وصف القرآن قول الله عز وجل في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ .

إن هداية القرآن للتي هي أقوم تشتمل على عنصر الحصار الفكري بالبيان الإقناعي، وهذه تستلزم استثارة وجدانه ومحاصرته .

أما المحاصرة النفسية فتكون بالتبشير بثواب الله وأجره الكبير الذي يحرك في النفس محور الطمع، وبالإنذار بالعذاب الأليم الذي يحرك محور الخوف .

وقول الله عز وجل في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۗ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

إن الدعوة بالحكمة مع المجادلة بالتي هي أحسن تشتمل على عنصري الحصار الفكري بالبيان الإقناعي، والحصار الوجداني بالبيان العاطفي .

أما الموعظة الحسنة فتؤدي وظيفة الحصار النفسي بالترغيب الذي يحرك في النفس محور الطمع، وبالترهيب الذي يحرك فيها محور الخوف .

وقد تُستخدم الموعظة الحسنة في استثارة الوجدان والتأثير فيه ومحاصرته .

مدى جدوى الإثارات الانفعالية العاطفية :

يُلاحظ أن كثيراً من مؤدي الرسالة يُلجؤون إلى أسلوب الإثارة الانفعالية العاطفية، ويقتصرون عليها، وقد يبدؤون بها قبل الإقناع الفكري العلمي الهادئ، وقبل الهداية للتي هي أقوم .

وهذا الأسلوب قد غدا في الإنسان المثقف المعاصر أسلوباً غير ذي تأثير فعّالٍ في بناء الأمة بناءً راسخاً متراصاً، على الرغم من الحاجة إليه في كثير من المواقف، وفي تجميع الجماهير حول قضيةٍ تحتاج إلى رأي عامٍ تؤيِّدهُ الجماهير وتنصره.

إنَّ تحريك العواطف وتهيجها هو بمثابة تحريك البركة المملوءة بالأسماك، واستشارة ما في قاعها من طين ومُترسِّبات، فتهتاج المجموعة السمكيَّة مختلِطَةً في البركة، ثم تنتهي مرحلة التحريك وتعود الأسماك إلى مثل ما كانت عليه، فينبغي اقتران هذا بما يُصطادُ به الأفراد الصالحون للبناء.

هكذا الخُطب الانفعالية الحماسية، التي لا تُستتبعُ مُباشرةً باصطياد بعض الأفراد، ونقلهم إلى أحواض التعليم التأسيسي الهادىء، الذي لا إثارة فيه ولا انفعال، فالإقتصار عليها ضعيفُ الجدوى في تأسيس الأفراد، وبناء الأمة الصالحة.

والمجدي في بناء الناس هو مخاطبتهم بالفكر الصحيح المتسلسل تسلسلاً منطقيّاً رصيناً، حتى تتكوّن لديهم العقائد والمفاهيم الراسخة.

ولقد غدت الأقوال المبالغ فيها، والقائمة على الوعظ والإثارة الانفعالية، أقوالاً مزهوداً فيها، وكثيرٌ من إحساسات الناس قد تبدلتُ تُجاهها لكثرة تكرارها على أسماعهم دون أن تُستتبع بما يؤسّس تأسيساً يُوصلُ إلى أعماق القلوب اعتقاداً راسخاً، وقد صار المثقفون يتصوِّرونها مائدة كلامية تُقدِّم لجمهور العامة، لا لجمهور المثقفين، الباحثين عن المعرفة الصحيحة.

ومع اتساع قاعدة المثقفين فقد غدا الوعظ المبالغ فيه أمراً غير مرغوب فيه لديهم، فهم يُعرضون عنه.

باستثناء نفحات تُتصَيِّدُ حينما يرى مؤدي الرسالة نفوس المتلقين

مستعدة لتقبلها، فينبغي الاقتصار في الخطب الحماسية على مقدار حاجة الجماهير في المواقف المناسبة لها.

* * *

القاعدة السادسة والعشرون:

«من الحكمة أن يتصيد حامل الرسالة الإسلامية الحريص على تأديتها في أحسن الظروف المناسبات الملائمات للبت والتوجيه، وأن يحتال لإيجاد المناخ المناسب الذي تنفتح فيه نفوس المتلقين لتقبل ما يوجهه لها، وعندئذ يتسلل من الأبواب النفسية المنفتحة، فيدخل منها، ليبتدئ بزوره، ويغرس غراسه، ثم يتعهد بها بعد ذلك بما يغذيها وينميها».

الشرح:

النفس الإنسانية بمثابة بيت لصاحبه، ولهذا البيت أبواب كثيرة مختلفة، وفي الحالة العادية تكون هذه الأبواب مغلقة، لأن الإنسان يحب أن يكون بيته له، لا يشاركه أحد فيه.

ومداهمة الإنسان وهو في داخل بيته دون استئذان منه يثير لديه قوى المدافعة والحماية لممتلكاته فيه.

وأفكار الإنسان ومفاهيمه وعقائده وعواطفه ورغباته هي ممتلكاته داخل نفسه، فلا يصح مهاجمته وهو في داخل بيته، والدخول عليه عنوة، لأنه سيقابل الداخل عليه بالعداء والمقاومة، ولو كان المهاجم يريد أن يجلب له خيراً كثيراً.

والحكمة والرشد يجعلان حامل الرسالة يتخذ ما يستطيع من وسائل ذكية تجعل من يريد هدايته ونصحه يفتح له بعض أبواب نفسه أو كلها، ويدعوه إلى الدخول، وعندئذ يدخل ضيفاً كريماً، ويجلس داخل نفسه في أحسن المجالس، وعندئذ تتهيأ له الفرصة الملائمة العظيمة ليقول لرب البيت

الذي استضافه ما يريد أن يقوله له .

فكما يقول الضيف لصاحب البيت المبني من الطين :

أليس من الأفضل أن تَفْتَحَ نافذةً في الجدار الذي تمتدُّ من جهته أشعةُ الشمس، لتدخل منها هذه الأشعة؟! .

أليس من الأفضل أن تفتح نافذةً أُخرى في الجدار الذي تأتي من جهته الرياح النظيفة النقيّة، حتّى يتجدد هواء البيت منها حيناً فحيناً؟! .

أليس من الأفضل أن تُزِيلَ هذا الجدار الترابيّ الذي أكلته الرطوبة، فهو يكاد يَسْقُطُ، فتبني مكانه جداراً حَجْرِيّاً لا يمتدُّ إليه رشحُ الماء المجاور لأرض الدار؟! .

إنّ كلام هذا الضيف الناصح سَيَجِدُ عند صاحب البيت آذاناً مصغية، وفكراً واعياً، وقلباً مستجيباً.

وكذلك حامل الرسالة إذا دخل إلى نفس من يدعوه وَيُرْشده ويهديه، من بعض أبواب نفسه أو كُلِّهَا، فَإِنَّهُ سَيَجِدُ لَدَيْهِ الاستجابة التامة لما يَنْصَحُهُ به .

فإذا وجد لديه أفكاراً باطلةً سَهَّلَ عليه أن يُرِيَهُ بطلانها، وأن يهديه إلى الحق والصواب .

وإذا وجد نفسه مُتَعَلِّقَةً بما فيه معصيةً لله عزّ وجلّ، سَهَّلَ عليه أن يَنْصَحَهُ، لِيُقْلِعَ عن المعصية وَيَلْتَزِمَ الطاعة .

وإذا وجد نفسه مُتَعَلِّقَةً بالدُّنيا وزينتها ومنصرفاً عن الآخرة، سَهَّلَ عليه أن يأخذه برفقٍ للتعلّق بالآخرة وما فيها من نعيمٍ مقيم .

وهكذا إلى سائر مجالات الهداية والتّضح والإرشاد .

* * *

القاعدة السابعة والعشرون:

«على حامل الرسالة أن لا يتخذ من الوسائل والأسباب لتحقيق أهدافه في الدعوة أو التّضح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا ما أذن به الإسلام، فلا يجوز اتّخاذ وسيلة محرّمة لذاتها، أو سبب محرّم لذاته بحجّة تحقّيق تبليغ رسالة الإسلام أو هداية الخلق إلى الحقّ».

الشرح:

يرى بعض المسلمين أنّ اليهود والنصارى وسائر الكفرة قد يتّخذون لنشر مبادئهم ومذاهبهم وأفكارهم وأنواع سلوكهم ومصالح أهل مللهم، وسائل محرّمة في أديانهم ووسائل غير أخلاقية، مما تتفق عقول الناس جميعاً على تحريمه، كاستخدامهم النساء وبذل الفواحش المحرّمة، واستخدامهم المسكرات والمخدّرات ونقض العهود والمواثيق، فيخطّرون لهم أن يُقاوموا هذا السلاح بنظيره لنشر الإسلام وتقوية الأمة الإسلامية.

لكنّ مثل هذا الأمر لا تسمّح به الشريعة الإسلامية، فلا يجوز للمسلم أن يتخذ أمراً محرّماً لذاته في الإسلام لنشر الإسلام، أو خدمة مصالح المسلمين.

غَيَّرَ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ فِي الْمَحْرَمَاتِ مِنَ الْوَسَائِلِ مِثْلَ الْكُذْبِ الْمَأْذُونِ بِهِ شَرْعاً لِحِمَايَةِ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ نَقْضِ عَهْدٍ مِّنْ بَدَأَ هُوَ بِنَقْضِ عَهْدِهِ، أَوْ مُقَاتَلَةٍ مِّنْ بَدَأَ هُوَ الْقِتَالَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ أَوْ فِي الْبَلَدِ الْحَرَامِ.

فَعَلَى الْمُسْلِمِ وَلَا سِيَّمَا حَامِلِ الرِّسَالَةِ أَنْ يَسْتَفْتِيَ فُقَهَاءَ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ أَمْرٍ كَبِيرٍ أَوْ صَغِيرٍ، لِيَعْلَمَ حُكْمَ الْإِسْلَامِ فِيهِ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَتَّقِيَ بِالْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ وَلَا يَتَجَاوِزَهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِهِ، وَفِي كُلِّ وَسِيلَةٍ مِنْ وَسَائِلِهِ أَوْ سَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِهِ.

* * *

القاعدة الثامنة والعشرون:

«ينبغي لحامل الرسالة الذي يهتمُّ بتربية الأجيال المؤمنة المسلمة، التي تنطلق منها كتائب الجهاد الإسلامي، في الدعوة إلى الله والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن يَسْتَخْدِم أسلوب بذر البزور في الأرض بسترها، وتعهدِها دوماً بعد نباتها، حتَّى تصير أشجاراً قويّة سامقة، لا تقتلعها الرياح الشديدة من مغارسِها، بل تكون ثابتة تُؤتي أَكْلها كُلَّ حين بإذن رَبِّها».

الشرح:

يتعجّل كثيرٌ من الذين يهتمون بتكوين الجماعات التي يستخدمونها لنصرة الإسلام وقضايا المسلمين، فيكتفون بالتجميع العاطفي المندفع المتحرّك، دون أن يَسْتَنْبِتُوا بزورهم في أرضٍ صالحة محمّية، ودون أن يسلكوا لما يقصدون صراط التعليم الرصين الهادىء، والتربية الحكيمة الرشيدة، بالبداية بتأصيل الأصول، ثمّ الانتقال إلى ما فوقها من سوق، فما فوقها من فروع وأغصان، حتَّى تكون بزورهم التي زرعوها وتعهدوها أشجاراً صالحة لأن تُنْقَل إلى مواطنٍ ثباتها واستقرارها، وعطائها المتوالي من الثمرات الناضجات.

وبسبب تعجّلهم المخالف لسنن الله في كونه تتعرّضُ أعمالُهُم الكثيرة المضنية، لعدّة نتائج غير سارة، مناقضة لما تقدّمت به شعاراتُهُم ودعاياتهم، فمن هذه النتائج غير السارة ما يلي:

١ - تعريض كثيرٍ من الذين جمعوهم من أنصار لم يُؤصّلوا تأصيلاً إسلامياً رصيناً، لنهبِ أعداء الإسلام لهم، من مواطن الضعف في نفوسهم، التي لم تُسَدَّ بالتربية الإسلامية الصحيحة تُغرّأها.

٢ - إغراء بعضهم بالظهور والشّهرة لاستقطاب المدح والثناء، والقفز

إلى القمم، طلباً لزيينة الحياة الدنيا، من استعلاء في الأرض، وجمعٍ للثروات، وانتهاجٍ للشهوات واللذات.

٣ - دفع بعضهم لاحتلال مراكز إسلامية قيادية، وهم جهلةٌ بالإسلام، فيصدّرون أحكاماً ومفاهيم ينسبونها إلى الإسلام، وهي في الحقيقة مباينةٌ للإسلام مباينةٌ كلّية، ويُسْتَفْتُونَ، فيفتونَ بغيرِ علمٍ فيصِلُونَ ويُضِلُّونَ.

٤ - قيام كثيرٍ منهم بأعمالٍ يدعون أنها أعمالٌ إسلامية، مع أن الإسلام لا يُوافق عليها، فيشوهون صورةَ الإسلام بأعمالهم التي يقومون بها لدى جماهير المسلمين، ولدى عامة الشعوب غير المسلمة.

٥ - تنافسهم على المصالح بسبب اختلاف الآراء والاجتهادات الخاصة، ثم تصارُعهم على حُطام الدنيا، ثم تدخل فيهم الانشقاقات والانشطارات إلى فِرَقٍ وأحزابٍ وجماعات، ويندفعُ كُلُّ فريقٍ منهم باجتهاده الخاص الذي يراه هو الإسلام وحده، ويرى ما ذهب إليه غيره خارجاً عن الإسلام ومناقضاً له، ومعادياً لأنصار الحق، وتحدثُ بذلك طامةٌ كبرى.

فعلى حامل الرسالة أن يتبصر بالمنهج الرباني الذي وصف الله به أمة محمد في الإنجيل، بأن إنشاءهم يكون كزرع استنبتت شجرته في أرضٍ صالحة، فأخرجَ شطأه فأزره، فاستغلظ، فاستوى على سوقه، فصار أشجاراً عظيمة وارقةً الظلال، تمتدُّ أفاؤها في مشارق الأرض ومغاربها، فقال تعالى في سورة (الفتح/ ٤٨/ مصحف/ ١١١ نزل):

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٠﴾ ﴾

وَالَّذِينَ مَعَهُ: أي: أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم.

أَشْدَاء: أي: أقوياء شجعان كالأسود.

رُكْعًا: جمع رُكْع، وهو من رُكْع الصلاة المعروف.

سُجْدًا: جمع ساجد، وهو من سجود الصلاة المعروف.

سِيَمَاهُمْ: أي: علامتهم الظاهرة، السِّيمَا في اللغة العلامة.

ذَلِكَ مِثْلُهُمْ: أي: وصفهم.

كَزْرَعٍ: أي: كنبات، الزَّرْعُ واحد الزروع.

أَخْرَجَ شَطْأَهُ: شَطْءُ الزَّرْعِ وَالنَّبَاتِ فِرَاخُهُ.

فَازَرَهُ: أي: فقَوَاهُ وَأَعَانَهُ.

فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ: أي: فاعتدلَ ووصل إلى درجة كماله قائماً على

جدوعه.

لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ: أي: ليغيط الله بهم الكُفَّارَ إِذْ يَرَوْنَهُمْ أَشْدَاءَ أَقْوِيَاءَ.

لقد دلّ تشبيه أصحاب محمد ﷺ في الإنجيل بزراع أخرج شطأه فازره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزَّاع ليغيط بهم الكُفَّارَ، على أنهم في تناميهم وتكاثرهم واشتداد قوتهم والمظهر البهيج الذي يصيرون إليه قد ساروا وفق سنة البناء التكاملي، المشبهة للزرع الذي ينبت نباتاً حسناً، وفق نظام النبات، في أخصب أرض، وأحسن شروط.

وهكذا ينبغي أن يكون استنبات الأمة القيادية الصالحة التي يحميها الله

في مجاري سنَّه من عوارض الفساد^(١).

(١) ينظر شرح النص باستيفاء في كتاب «الأمثال القرآنية وصور من أدبه الرفيع» للمؤلف

ص (٣٦٦ - ٣٧٣).

القاعدة التاسعة والعشرون :

«على حامل الرسالة أن يضع في حسابه دواماً أن الوضع الذي يتهيأ به انتشار الإسلام عن طريق الدعوة إلى الله هو الفتح الحقيقي الأعظم عند الله، كما حصل في صلح الحديبية.

وعليه أن يستبعد من نفسه ما أمكن رغباتها في الانتصار العسكري، وحمياتها التزاع إلى الغلبة والثأر للكرامة.

فما ينتشر به الإسلام بنسبة أكبر وأعظم هو الأولى دائماً بالاعتبار، وهو الأحق من البدائل بالاختيار».

الشرح :

إنّ القتال في سبيل الله إنّما شرع لنشر الإسلام، وإقامة أحكامه في الأرض، وردّ عدوان المعتدين، فإذا تحقق نشر الإسلام بغير القتال كان هو الذي يجب المصير إليه.

ولقد أنزل الله عزّ وجلّ على رسوله ﷺ سورة (الفتح) في طريق رجوعه مع من كان معه من المسلمين من صلح الحديبية، في شهر ذي القعدة من سنة ستّ من الهجرة، حين صدّه مشركو مكة عن الوصول إلى المسجد الحرام لأداء عمّرتهم فيه، وبعد مفاوضات تمّ الصلح على أن يرجع الرسول ﷺ والذين معه عامهم هذا، ثم يأتي في السنة القادمة إن شاء، وتحلّل الرسول ﷺ والمسلمون من عمّرتهم تحلّل المُحصّرين، بعد أن ذبحوا هديهم، وكان هذا التحلّل أمراً صعباً على كثير من الصحابة رضي الله عنهم، إلا أن إرادة الله الحكيمة شاءت ذلك.

وبينما هم قافلون ومتجهون للمدينة أنزل الله على رسوله سورة (الفتح) فأبان لهم فيها أنه قد حصل بهذا الصلح فتحّ مبين، وذلك بسبب أن الدعوة إلى الدخول في الإسلام قد انطلقت بعد الصلح، دون أن تقف في وجهها

عوائق من ألد أعدائها، وهم مشركو قريش، سواء في مكة، أم فيما حولها، أم في قبائل العرب، فقد أخذ الإسلام بعد الصلح ينتشر بحرّية، وأخذ الدعاة من أصحاب الرسول ﷺ يدعون إلى الإسلام آمنين مطمئنين في أهل مكة، وفي مختلف قبائل العرب، ودخل في الإسلام بعده خلق كثير.

قال الزُّهري: «فما فُتِحَ في الإسلام فَتْحٌ قَبْلَهُ كَانَ أَعْظَمَ مِنْهُ، إِنَّمَا كَانَ الْقِتَالُ حِينَ اتَّقَى النَّاسُ، فَلَمَّا كَانَتِ الْهُدْيَةُ، وَوُضِعَتِ الْحَرْبُ، وَأَمِنَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَاتَّقَوْا فَتَفَاوَضُوا فِي الْحَدِيثِ وَالْمِنَازَعَةِ، فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدٌ بِالْإِسْلَامِ يَعْقِلُ شَيْئًا إِلَّا دَخَلَ فِيهِ، وَلَقَدْ دَخَلَ فِي تَيْنِكَ السَّتِينَ (أي: من صلح الحديبية حتى فُتِحَ مَكَّةَ عَسْكَرِيًّا) مِثْلُ مَنْ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرَ»^(١).

فعلى حامل الرسالة أن يراعي هذه القاعدة بعناية في كل تحركاته التي يروم منها نشر الإسلام، وتبليغ دين الله للناس، وإقامة الحكم الإسلامي في الأرض.

* * *

القاعدة الثلاثون:

«ينبغي لحامل الرسالة أن يُجْزِيءَ تَوْجِيهَهُ لجمهوره، وَيُبَاعِدَ بَيْنَ مَجَالِسِ مَوْعِظَتِهِ، لِثَلَايِقِ الْمَخَاطَبُونَ بِالسَّامِ فَيَنْفِرُوا».

الشرح:

من طبيعة النفوس البشرية أنها تُصَابُ بِالسَّامِ وَالْمَلَلِ مِنْ طَوْلِ مَجَالِسِ الْمَوْعِظَةِ وَالنُّصُوحِ وَالْإِرْشَادِ وَالتَّوْجِيهِ الدِّينِيِّ، وَمَنْ تَوَالِيهَا صَبَاحًا وَمَسَاءً، أَوْ يَوْمِيًّا، وَمَعَ السَّامِ يَتَبَلَّدُ الْإِحْسَاسُ، أَوْ تَنْصَرِفُ الْأَذْهَانُ عَنِ الْإِسْتِمَاعِ، وَيَدْبُ الثُّعَاسُ إِلَى الْعْيُونِ، إِذَا لَمْ يَجِدِ الْمُسْتَمِعَ الْجِرَاءَةَ عَلَى مَفَارِقَةِ الْمَجْلِسِ خَوْفًا أَوْ حَيَاءً.

(١) انظر سيرة ابن هشام (في أخبار صلح الحديبية).

وقد يُجَدِّدُ حياةَ المجلسِ السُّؤالُ والجوابُ، والمناقشةُ المتبادلةُ،
والحوارُ الذي يستحثُّ الأفكارَ للمشاركةَ والإدلاءَ بالرأيِ.

وقد يجَدِّدُ حياةَ المجلسِ طرحُ بعضِ الطرائفِ والمداعباتِ الظريفةِ،
والنكاتِ الأدبيَّةِ المُحتشِمةِ، الَّتِي لا تَجْرَحُ ولا تُؤْذِي جالساً.

فمن أساليبِ التربيَةِ النَّبَوِيَّةِ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قد كان يَبُتُّ مواعظه بئاً
مُتَفَرِّقاً في أوقاتٍ متفاصلاتٍ، ولا يَكْتَفُها رصاً في مجلسٍ واحدٍ، ولا يَتَابِعُها
يوماً لثلاثِ يَومٍ فينفرُوا.

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كان
النبيُّ ﷺ يتخوَّلُنَا بالموعظةِ في الأيامِ كراهةَ السَّامَةِ عَلَيْنَا».

يتخوَّلُنَا بالموعظةِ في الأيامِ: أي: يَتَعَهَّدُنَا بالموعظةِ في الأيامِ ولا
يجعلها كلَّ يومٍ، كراهةَ السَّامَةِ أن تَنْزَلَ عَلَيْنَا، أو أن تُشَقَّ عَلَيْنَا.
يقال لغة: تخوَّلَ الشيءَ إذا تعهَّدهُ بالإصلاحِ.

وروى البخاريُّ عن أبي وائلٍ، قال: «كان عبْدُ اللَّهِ (يعني ابن
مسعود) يذكِّرُ الناسَ في كلِّ خميسٍ، فقال له رجلٌ يا أبا عبد الرحمن،
لو دِدْتَ أَنْكَ ذَكَرْتَنَا كلَّ يومٍ، قال: أما إنَّه يمنعني من ذلك أنِّي أكرهُ أن
أملكُكم، وإنِّي أتخوَّلُكم بالموعظةِ كما كان النبيُّ ﷺ يتخوَّلُنَا بها مَخَافَةً
السَّامَةِ عَلَيْنَا».

* * *

القاعدة الحادية والثلاثون:

«ينبغي لحامل الرسالة أن يتحلَّى بالشجاعة الأدبية الحكيمة التي لا
شتيمة فيها ولا تطاولٌ ولا استعلاء في قول الحقِّ ونُصْرَتِهِ، بالمواقف ذات
الخطر، فهي تستعطف قلوبَ معظمِ الناسِ للاستمسكِ بالحقِّ، والأخذ به،

وَمُنَاصَرَتِهِ، بسبب ما يظفرُ به الشُّجَاعُ من إعجاب الجماهير به، وتقديرهم لبَسَالَتِهِ وتضحيتِهِ .

فعلى حامل الرسالة أن يكون مع ثباته على الحقّ دواماً، شجاعاً حكيماً في قول الحقّ ومناصرتِهِ، بعقلٍ وحُسنِ تصرفٍ وأدبٍ جَمٍّ، إذ هو يناضل من أجل الحقّ المنزَّلِ من لدن حكيمٍ عليمٍ، وَيَنْصُرُ دينَ الله للناسِ أجمعين، أو يَنْصُرُ قضايا المسلمين لينالوا حقوقهم أو لِيَرْفَعُوا الظلمَ عنهم» .

الشرح :

إنّ الثبات على الحقّ سِمَةٌ كل مسلم مؤمن صادق تقيٍّ واثقٍ بالله متوكِّلٍ عليه، سواءً أكان من حملة الرسالة أم من عامّة الناس .

لكن حامل الرسالة مُكَلَّفٌ بشدّة أن يكون ثابتاً على عقائد الإسلام ومبادئه وأخلاقه وشرائعه، وأن يكون في بيان كلّ ذلك شجاعاً غير خوّارٍ ولا وجِلٍ ولا جبانٍ، في الالتزام بما يؤمن به، وفي مناصرة ما يدعو إليه، مع اتّخاذ الحكمة في ثباته ودعوته ونُصْحِهِ وإرشاده، وتصرفاته الشجاعة، وبُعْدِهِ عمّا يشوّه أداء الرسالة من سبَابٍ وشتائمٍ وتشهير بالأشخاص .

هذه السِّمَةُ هي التي رفعت كثيراً من أعلام المسلمين في التاريخ إلى مراتب المعجد العظيم، وكان لثباتهم على الحقّ، وشجاعتهم الأدبية الحكيمة في مناصرتِهِ أثرٌ عظيم في اتّخاذ جماهير المسلمين لهم أئمةً يتأسون بهم، وينصرونهم، ويتبعونهم في تمسكهم بالحقّ، وفي نصرتهم له، ودفاعهم عنه .

إنّ هذا الثبات النضاليّ المُعْجِبَ، المقرون بالشجاعة الحكيمة الرّشيدة التي تَحَلُّوا بِهَا، قد كان من الوسائل النافعة جداً في دفع كثير من الناس للدُّخُولِ في الإسلام، أو للالتزام به ومُنَاصَرَتِهِ، وفي اتّخاذ حامل الرسالة الثابت الشجاع الحكيم الرّشيد إماماً لهم، يتأسون به .

ولا بن تيمية مواقف شجاعة حكيمة لئنت قلوب جبابرة أهل الكفر،
ودفعت كثيراً من شرورهم، يطالعهما القارىء في سيرته رحمه الله، وسيأتي
إنشاء الله في النماذج بيان بعضها.

فعلى حامل الرسالة أن يقتدي بالأئمة الأعلام الدعاة الهداة الحكماء
العلماء الفقهاء في الدين، اللذين يضعون الأمور في مواضعها بثبات وشجاعة
ورفق ولين، ويتخذون لمقاصدهم في الدعوة والنصح والإرشاد، والأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر، أسبابها الحكيمة ذات الجدوى والنفع في
تحقيق المنشود.

وعلى حامل الرسالة أن يذكر دوماً ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله
عنه عن النبي ﷺ قال:

«أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ عَدَلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ».

رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن^(١).

* * *

القاعدة الثانية والثلاثون:

«حامل رسالة الدعوة إلى الله والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر ليس عليه إلا البلاغ المبين، أسوة بالرسول ﷺ وسائر
الرسل والأنبياء من قبله، وليس مسؤولاً عن تحويل الناس وتغييرهم من
الكفر إلى الإيمان، ومن العصيان إلى الطاعة، ولا يسأل عن عدد من
استجاب له واتبعه، ما لم تكن لديه سلطة التغيير بيده داخل المسلمين».

(١) عن رياض الصالحين (الباب الثالث والعشرون في الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر) رقم الحديث ١٩٤.

الشرح:

إنَّ خطة الامتحان الربّاني في الحياة الدنيا قائمةٌ على إعطاء الناس حُرّيّاتهم في أن يؤمنوا أو يكفروا، وفي أن يطيعوا أو يعصوا، وفي أن يَسْلُكُوا صراط الله المستقيم، ويلتزموه عن طريق إراداتهم الحرّة، لا بالقَسْر والقَهْر والجبر، ولكنَّ عليهم بعد ذلك أن يتحمّلوا نتائج اختياراتهم عقاباً بالعدل إذا خالفوا أوامر الله ونواهيهُ الإلزامية، وهم سيظفرون بثوابه الجزيل إذا أطاعوها وعملوا بمقتضاها.

والمُسَوِّقُ بالقَهْرِ والقَهْرُ لا أُجْرَ له في صالح العمل، ولا عقاب عليه في سَيِّء العمل.

فحامل الرسالة ليس من شأنه أن يُكره الناس أو يُلْزِمَهُم بالقهر، ولكن يتخذ ما يستطيع من وسائل للإقناع بما يدعو إليه وينصح به، ولتوليد الدافع الذاتي لدى من يَتَلَقَّوْنَ عنه أو يوجه لهم دعوته ونُصْحَه.

ففي شأن الكافرين قال الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة (الغاشية/ ٨٨ مصحف/ ٦٨ نزول):

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٦٨﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٦٩﴾ ﴾

وفي شأن المنافقين قال الله عزّ وجلّ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾

إلى نصوص كثيرة حول هذه القضية جاء بيانها في موضع آخر من هذا الكتاب^(١).

(١) انظر العقبه الثامنة من العقبات الصادة (الفصل الثاني من الباب الرابع).

وروى الإمام أحمد والبيهقي والنسائي عن أبي سعيد الخدري قال:
قال رسول الله ﷺ:

«يَجِيءُ النَّبِيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ
وَمَعَهُ الثَّلَاثَةُ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَغْتَ قَوْمَكَ؟ فَيَقُولُ:
نَعَمْ... الحديث؟!».

أما تغيير المنكر داخل المسلمين بالقوة فقد جاء تفصيله في موضع آخر
من هذا الكتاب، فليُرجع إليه^(١).

* * *

القاعدة الثالثة والثلاثون:

«على حامل الرسالة أن يقدم مضامين دعوته إلى الله ونصحه وإرشاده
وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر بأساليب بيانية أدبية جميلة مشرقة، مُزَيَّنَةٌ
بما يُمتنعُ الفكر والنفس من جمال في أدب الكلام، وبذلك يجمع بين
المضمون الحق والحلّل البيانيّة الجميلة المزخرقة».

الشرح:

● علّمنا القرآن بأسلوبه البياني الرفيع المعجز أن نستخدم الجمال
الأدبي في دَعْوَتِنَا إلى الله ونُصَحِنَا وإرشادنا وأمرنا بالمعروف ونهينا عن
المنكر، فعلى حامل الرسالة أن يتبع المنهج القرآني بشكل عام لدى أدائه
وظائف رسالته، مراعيًا المستوى الفكري للذين يُؤدّي بينهم رسالته، ويُوَجِّه
لَهُم بيانه.

● ونلاحظ أيضاً أنّ الإعلام الإسلاميّ مضمونهُ الحقُّ والهُدَى، والخيرُ
والفضيلةُ والكمال، والدَّعوةُ إلى كلِّ خَيْرٍ وَصَلَاحٍ وإصلاح، وإلى مُقاوِمَةِ
الباطل والشرِّ والفساد والإفساد في الأرض وفي الأنفس.

(١) انظر الفصل السابع «المجتمع الإسلامي والمنكرات حماية وتغييراً» من الباب الرابع.

أما الإعلام المضادُ فمضمونه على النقيض من مضمون الإعلام الإسلامي غالباً، إلا أنه شديد العناية والاهتمام بالأساليب المؤثرة في الأفكار والنفوس، فهو يستخدم زُخْرَفَ القول لنصرة الباطل، والترويج للخرافات والأكاذيب والشُرور، والفساد والإفساد في الأرض وفي الأنفس، ويسترضي الشهوات، ويستهوِي الأهواء، ويستعطف رغبات النفوس ولذاتها.

وقد أبان الله عز وجل أن شياطين الإنس والجن يُوحِي بعضهم إلى بعض زُخْرَفَ القول غروراً، لإغراء وإغواء أفراد الناس وجماعاتهم وجماهيرهم الغوغائية، وهم يستخدمون زينات الحياة الدنيا لتذليل النفوس وتطويعها، بغية أن تنتكب صراط الله المستقيم، فيضغي إلى زخرف أقوالهم الذين لا يؤمنون بالآخرة، وبعد الإصغاء تميل قلوبهم، فيرضون المضامين الفكرية التي يُزيّنونها لهم.

ثم تكون الممارسات التطبيقية التي يقرّف فيها الضالون المعاصي والآثام، وينشرون الشرور وأنواع الفساد في الأرض وفي الأنفس.

قال الله عز وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٧﴾ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

زُخْرَفَ القول: أي: القول المزخرف، وهو المزين المحسن.

ولِتَصْغَى إِلَيْهِ: أي: ولتَميلَ إليه، يقال لغةً: صَغَا إِلَيْهِ يَصْغُو إِذَا مَالَ

إِلَيْهِ.

والمراد من قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا ﴾ الجعلُ القدري بالنظام العام الذي يلزم منه وجودُ مؤمنين وكافرين، وأئمةٍ دعاةٍ إلى الحق، وأئمةٍ آخرين

دعاة إلى الباطل والشر، لأنَّ حكمة الامتحان في الحياة الدنيا تقتضي ذلك .

فإذا كان لأئمة الضلال أسلحةً بيانية تعتمد في إضلالها على زخرف القول، فلا بُدَّ لأئمة الهدى من أن يقابلوا الأسلحة بمثلها، فعلى حامل الرسالة أن يكون شديد الاهتمام والعناية بأنَّ يُقدِّم مضامين رسالته بأساليب بيانية مُزخرفة مؤثرة في الأفكار والنفوس والقلوب، حتى يجمعَ إلى كمال وجمال المضمون وسلامته، جمال الأسلوب البياني المؤثر، وبذلك يكون له الظفر على الشياطين وجنودهم، لأنهم مهما زينوا وزخرفوا أقوالهم بزينات جميلات، فإنهم لَن يستطيعوا أن يجعلوا الباطل حقاً، والشر الذي يدعون إليه خيراً، والفساد الذي يُريدون نشره صلاحاً.

إنَّ تأثير المضمون الحق ذي الأثر النافع الخيّر تأثير باقٍ ودائم على المدى الطويل، ولو كان في بداياته بطيء البناء .

أما تأثير زُخرف القول لتصديق المضمون الباطل ذي الأثر الضار، فهو تأثير ذو انتفاخ وزبدٍ وقتي، لكنّه لا يلبثُ أن ينكشف زيفه، فيسقط عندئذ المضمون، وتسقط معه الوسيلة المُزخرفة .

ولذلك يحاول المضللون والمبطلون أن يُغيروا وسائلهم ووجوههم دواماً حيناً بعد حين .

ونلاحظُ من ذلك أنَّ التاجر النَّاصح الصّدوق الذي يقدّم دواماً النافع الجميل، هو الذي يكون شيخ السوق ورئيسه .

أما صاحبُ الدعايات الزخرفية فإنه يكون رائجاً لوقتٍ محدود، ثمَّ يضمحلُّ زبده، ويظهرُ غثاؤه، فيذهبُ جُفاءً، وتكسدُ بضاعته .

هذه سنّة ربّانية أبانها الله عزّ وجلّ بقوله في سورة (الرعد/ ١٣) مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿... فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ

الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾

* * *

القاعدة الرابعة والثلاثون:

«على المسلمين جميعاً ولا سيما حملة الرسالة معاملة غير المسلمين بكل فضائل الإسلام وتعاليمه، في الأخلاق والمعاملات والعهود والمواثيق، وتقديم التطبيقات العملية دوماً لتعاليم الشريعة الإسلامية، لكيون ذلك صورة عملية داعية للإسلام، ومُرغبة فيه».

الشرح:

هذه القاعدة دلت عليها نصوص قرآنية كثيرة، ودلت عليها سيرة الرسول ﷺ في تعامله مع غير المسلمين.

ومن الأدلة القرآنية الآيات من (٩١ - ٩٦) من سورة (النحل/١٦ مصحف/٧٠ نزول) فقال الله عز وجل فيها:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ، وَلِيَبْتَلِيَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

يضرب الله عز وجل في هذا النص مثلاً للذين يتفوضون عهودهم ومواثيقهم وأيمانهم بالمرأة الحمقاء التي من شأنها أن تغزل غزلها، حتى إذا أحكمتها وأبرمتها إبراماً مناسباً، عادت فنقضته وجعلته أنكاثاً، أي: أعادته إلى مثل ما كان عليه سابقاً صوفاً أو شعراً أو قطناً.

قوله تعالى: ﴿لَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي: أتخلفون الأيمان

لتخدعوا بها الناس، وتغشوهم بها، حتى يُصدِّقوكم في أيمانناكم ووعودكم، ثم تنقضونها بغير حق، إن هذا لأمر شنيع جداً.

الدَّخْلُ: الغشُّ والخيانة.

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾.

أزبى: أي: أكثر، والمعنى اتَّخَذُوا أيمانكم الكاذبة وسيلة خديعة لتكون أمتكم أكثر وأقوى من أمة عدوكم؟!!

هذا أمرٌ شنيعٌ منافٍ لأحكام الإسلام، وغاياته النييلة، فمما لا يرضاه الله لكم أن تخادعوا الناس بالعهود والأيمان الموثقة لها، ثم تنقضوها بغير حق، وتندرعوا بأنكم اتخذتم هذه الوسيلة المحرمة عليكم لتحققوا تكثير أمة الإسلام وتقويتها ضدَّ أمة الكفر والعصيان.

إن الله عزَّ وجلَّ يُحرِّم هذه الوسيلة وأمثالها، ولو كان الغرض منها تقوية أمة الإسلام ضدَّ أمة الكفر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبْتَلُواكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ أي: إنكم أيها المؤمنون المسلمون في موضع الامتحان، والامتحان يتطلَّب منكم التزام حُدود الله، ولو مع أعداء الله، ويكلفكم أن تكونوا دعاة هداة صابرين، ملتزمين بأوامر الله ونواهيه، مُمثِّلين في أعمالكم شريعة الله لعباده.

إنكم أيها المؤمنون المسلمون أمة تبليغ وإقامة لحكم الله في الأرض، ولشريعته في الناس ما استطعتم إلى ذلك سبيلاً، ضمن حُدود أوامر الله ونواهيه، فإذا اتَّخذتم أيمانكم بالله وسيلة لمخادعة أعدائكم خالفتُم أسس رسالتكم للناس، وأعطيتُم مثلاً سيئاً عنها بتصرفاتكم، وكان ذلك منكم مَرَّةً قَدَم، وصدَّ عملكم هذا الناس عن الدخول في الإسلام، فتأتي النتيجة على عكس ما تريدون، إذ تُسمي أمة الكفر أزبى من أمة الإيمان.

إنكم أيها المؤمنون المسلمون لم تكلفوا أن تحوّلوا الناس إلى الإيمان، حتّى تتخذوا لذلك آية وسيلة، كالإكراه، والمخادعة بالعهود والوعود والأيمان التي لا تفون بها، إنّ الله لو شاء تحوّلهم إلى الإيمان بالإكراه لتولاه بنفسه، فجعل الناس كلهم أمة مؤمنة واحدة، فسلب الناس إرادتهم الحرّة وجعلهم مجبورين غير مُخَيَّرين، وإذا جعلهم مجبورين لم يجبرهم إلّا على الإيمان بالحق، والإسلام الكامل له جلّ جلاله، ولكن يبطل بذلك الابتلاء، وما يترتب عليه من جزاء.

ولذلك قال الله تعالى عقب الآيتين السابقتين:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَالًا بَيْنَكُمْ فَزِيلَ قَدَمُ بَعْدَ نَبْئِهَا وَتَذُوقُوا
السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُرْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ
وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا وَأَجْرُهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

فنفقض العهود مزلّة قدام عن صراط الله، والعقوبة المعجّلة أن يدوق ناقضو عهودهم السوء في الدنيا، بسبب عملهم الذي أعطى صورة سيئة صدت عن سبيل الله، ثم تكون العقوبة في الآخرة عذاباً عظيماً.

إنّ نقض العهود أمرٌ خطيرٌ وإثمٌ عظيمٌ في الإسلام، ولذلك كان حماقة تشبه حماقة التي نقضت غزلهما من بعد قوّة أنكاثاً، وهذه الحمافة مما ينفر منه العقلاء.

فعلى حامل الرسالة أن يعامل من يؤدّي بينهم رسالته بكلّ فضائل الإسلام وأخلاقه، ليكون بحاله أشدّ تأثيراً منه في مقاله.

* * *

القاعدة الخامسة والثلاثون:

«على حامل الرسالة أن يغرس في المسلمين مشاعر الانتماء والولاء لله ولرسوله ولصحابه وللتابعين لهم بإحسان، ولسائر الأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، وأن يستغل كلاً من الانتماء والولاء في تطبيقات أحكام الدين، وفي نُصْرَةِ الإسلام وقضايا المسلمين والتحمُّس لها».

الشرح:

الناس في طبيعتهم التي فطرهم الله عليها يحبون أن تكون لهم جهة يَنْتَمُونَ إليها، وَيَنْصُرُونَهَا، وَيُعْطُونَهَا ولاءهم، فهم يفرحون بانتصارها، ويحزنون لهزيمتها.

وَيُحِبُّونَ أيضاً أن تكون لهم جهة يُعَادُونَهَا أو ينافسونها ويخذلونها، فهم يفرحون بهزيمتها، ويكرهون انتصارها على من يوالون، أو على من هم أقرب إلى ولائهم.

وهذا يُفسِّرُ تعلق الجماهير التي لا تمارس الرياضة البدنية بأنفسها بمولاتٍ أحد الأندية التي تستأثر بإعجابهم، والفرح بانتصاره كأنهم هم المنتصرون، والحزن لهزيمته كأنهم هم المنهزمون.

وهو الذي يفسر تعلق الجماهير أحياناً بحزبٍ سياسيٍ استأثر بإعجابهم تأثراً ببعض أعماله أو بعض أفراده، أو بدعايته الإعلامية، أو تعلق الجماهير بقائد فاتح، أو زعيم مكافح، أو أديب أو كاتب منافع، أو عالم مُرشدٍ ناصح، أو نحو هؤلاء.

فعلى حامل الرسالة أن لا يُهمل غرسَ الولاء الصحيح الصادق في المسلمين لله ولرسوله، ولكل ما يَنْتَمِي إليهما ومن ينتمي إليهما.

* * *

القاعدة السادسة والثلاثون:

«على حامل الرسالة الداعي إلى الله أن يبتعد عن مسائل الخلاف التي اختلف فيها علماء المسلمين لدى دعوته غير المسلمين، وأن يهتم بالقضايا الأصول المجمع عليها، وليأخذ من التعصب لمذهب أو رأي يراه هو الصواب ما لم يكن هو الأقرب لإقناع المدعو والأبعد عن إثارة الشبهات في نفسه، فله حينئذ أن يذكر أنه هو الصواب فيما يرى؛ دون تعصب ولا غضب».

الشرح:

إن اشتغال الداعي إلى دين الله بالانتصار لرأي إمام من أئمة المسلمين، في قضية من قضايا الخلاف التي اختلفت فيها آراء واجتهادات علماء المسلمين، من شأنه أن ينفّر المدعوين إلى الإسلام، إذ يبدو لهم بما يغرس في نفوسهم الشك في الدين الذي يعرضه عليهم، لأن أول ما يخطر ببالهم أن أئمة المسلمين غير متفقين على الدين الذي يدعوهم الداعي إلى الدخول فيه، وهم لا يفترقون في أول الأمر بين الأصول المتفق عليها التي لا شك فيها، وبين مفهومات أخرى هي من وراء الأصول، وهي التي اختلفت الآراء الاجتهادية فيها.

حتى إذا تمكنت الأصول الصحيحة المتفق عليها بين جميع المسلمين، وقبلها المدعو إلى الإسلام واستجاب إليها، وأعلن دخوله في الإسلام، حسن عندئذ الأخذ بيده إلى التطبيقات الإسلامية المتفق عليها بين عموم المسلمين، وهي أركان الإسلام الخمس، ثم يوجه له التحذير الشديد من ارتكاب الكبائر كالقتل والسرقه والزنا والإضرار بالناس وإيذائهم، ثم يوجه له لزوم الامتناع عن شرب الخمر ولعب الميسر، وهكذا بالتدرج.

فإذا تمكن في الإسلام تمكناً صحيحاً صادقاً، وأشرقت أنواره في قلبه،

وما رسّ التطبيقات الإسلامية وذاقَ حلاوتها، جاز عندئذٍ تعريفه ببعض مسائل الخلاف مقرونةً بالرأي الصواب أو الراجح مع الدليل الصحيح الواضح .
وهذا من الحكمة التي أمر الله بها في الدعوة إلى سبيله .

* * *

القاعدة السابعة والثلاثون :

«على حامل الرسالة الداعي إلى دين الله الحق أن يُعلِنَ لدى حوارهِ لمن يدعوه تجرّده عن التعصّب لسوابق الأفكار التي يؤمن بها، وأن يُعلِنَ أنه يَضَعُ موضوع البحث الذي يريد أن يُحاوِرَ بشأنه من يدعوه، على مائدة بحثٍ مشتركة سواء تَبَدَأَ بإعلان كلِّ فريق من المتحاوِرِينَ تجرّده عن مؤثرات انتمائه السابق، ليكون بحث الموضوع حُرّاً نزيهاً غير مُشَدُّودٍ بسوابق قيود إلاّ الأسس العقلية العلمية الصحيحة .

وبهذا تكون استجابة المدعوّ إلى الحق الرّبّانيّ أرجى» .

الشرح :

قال الله عزّ وجلّ في سورة (سبا/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزل) معلّماً رسوله ﷺ، فكلّ داعٍ إلى دين الله من أمته أن يقول لمن يحاور من الكافرين :

﴿... وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ .

في هذا التعليم الرّبّانيّ إلزامٌ للداعي إلى الله بأن يُعلِنَ عند حوارهِ لغير المؤمنين تجرّده عن سوابق أفكارهِ حَوْلَ ما يُؤْمِنُ به، وأنّه يُقدِّمُ قضايا مَوْضُوعِهِ الذي يدعوه إليه للبحث المتجرد على مائدة سواء بين الفريقين، فعلى كلِّ منهما أن يَنْظُرَ بتجرّدٍ نظراً فكرياً عقلياً علمياً، ثُمَّ ما يُوصِلُ إليه البحث العلميّ المتجرّد، فعلى كلِّ من الفريقين المتحاوِرِينَ أن يَقْبَلَهُ، ويُذعنَ له، ويؤمنَ به، ويلتزم بمطلوباتهِ .

إن الدعوة إلى الإيمان بالله الرَّب الخالق الواحد الأحد الَّذِي لا شريك له، وإلى الإسلام له، دَعْوَةٌ إلى قَضِيَّةٍ حقِّ عَقْلِيَّةٍ، تَشْهَدُ لها قَوَاعِدُ البراهين، وسوَاطِعُ الأدلَّةِ، فَهِيَ حقٌّ لا شكَّ فيه، والدعوة إليها دعوةٌ إلى الهدى بلا ريب، أَمَّا نَقَائِضُهَا فَأُمُورٌ باطلةٌ دون شكِّ، والدَّعْوَةُ إلى هذه النِّقائِضِ دعوةٌ إلى ضلالٍ مَبِينٍ بلا ريب.

وعلى الرغم من هذا فقد علَّم الله عزَّ وجلَّ الداعيَ المسلم أن يقول للمدعو الكافر المشرك:

أنا وإيَّاك في أفكارنا ومعتقداتنا على طرفي نقيض، فلا بُدَّ أن يكون أحدهما حقًّا وهدىً بلا ريب، وأن يكون الآخر منهما باطلاً وضلالاً مَبِيناً بلا ريب.

وعلى هذا فإمَّا أن نكون نَحْنُ أو أنتم على هُدًى أو في ضلالٍ مَبِينٍ.

فإن كُنَّا نَحْنُ على هُدًى لالتزامنا جانب الحقِّ، كُنْتُمْ أنتم في ضلالٍ مَبِينٍ، لهجركم جانب الحقِّ.

وإن كنتم أنتم على هُدًى لالتزامكم جانب الحقِّ، كُنَّا نَحْنُ في ضلالٍ مَبِينٍ لهجرنا جانب الحقِّ.

وهكذا يَضَعُ الداعي المسلم مَنْ يُحَاوِرُهُ على مائدةٍ بحثٍ مشتركةٍ سواءً، لا تَرْجِيحَ فيها ابتداءً لأحد المُتَحَاوِرَيْنِ.

ثم إن نَتِيجَةَ البحثِ العَقْلِيِّ العِلْمِيِّ المتجرِّدِ الخالي من تعصُّبِ كلِّ فريقٍ من المتحاورين لسوابق أفكارهما، ومعتقداتهما، هي التي تحدّد الفريقَ الَّذِي هو على هُدًى، والفريقَ الَّذِي كان على ضلالٍ مَبِينٍ.

* * *

القاعدة الثامنة والثلاثون :

«على حامل الرسالة الداعي إلى الله أن يكون شديد الحذر من أن يُسْتَنَارَ أو يُسْتَدْرَجَ إلى سَبِّ وشتيمة ما يُؤْمِنُ به الكافرون من طواغيت .

وعليه أن يُنْزِرَ لِسَانَهُ عَن كُلِّ ما فيه إيذاء لمن يريد هدايتهم، وعن كلِّ ما فيه استشارة لمشاعيرِ الغضب في نفوسهم .

وعليه أن يَتَّبِعَ جدًّا عن تَسْفِيهِ آراءٍ ومعتقداتٍ ومفاهيمٍ من يَدْعُوهُ وَيُحَاوِرُهُ قبل أن يَصِلَ إلى الاقتناع الكاملِ بالحقِّ، فهو عندئذٍ سَيَسْفَهُ ما كان عليه سابقاً من ذلك .

فإذا أَفْحَمَهُ أو تَغَلَّبَ عليه بالحجج البرهانية ثم وَجَدَهُ قد أَصَرَ على بَاطِلِهِ عناداً فله أن يُشْعِرَهُ من طَرْفٍ خَفِيٍّ بأنَّ التزامه بما هو فيه وإصراره عليه سفاهةٌ وإصرارٌ على الباطل .»

الشرح :

قال الله عز وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) خطاباً للذين آمنوا :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِنْ رَبِّهِمْ تَرْجِعُهُمْ فَيُنْزِلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٠١) .

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ : أي : ولا تَسُبُّوا مَعْبُودَاتِ الْمُشْرِكِينَ الَّتِي يَدْعُونَهَا وَيَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ .

قوله تعالى: ﴿ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ : أي : فيردُّ المشركون على مَنْ سَبَّ آلِهَتِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَسُبُّوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا وَهُمْ فِي حَالِهِ غَضَبٍ أَفْقَدْتُهُمْ مُدْرَكَاتِهِمُ الْعِلْمِيَّةَ ، فَجَعَلْتَهُمْ يَسُبُّونَ مَنْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ .

عَدْوًا : أي : ظُلْمًا وَعُدْوَانًا .

وبذلك يتحوّل الخلاف بين المؤمنين والكافرين من خلافٍ فكريٍّ علميٍّ له أدلته العقلية العلمية البرهانية، إلى معركةٍ سبابٍ وشتائم، ولا بُدَّ في هذه الحالة أن يكون أكثرَ الفريقين انتصاراً أكثرهم سباً وشتائم وسفاهةً ووقاحةً، وهذه أمور يتنزّه عنها المؤمنون المسلمون فهم عقلاء راشدون، غيرُ سبّابين ولا طعّانين ولا شتّامين ولا سفهاء ولا أصحاب جهالة.

وحين ينتصر المشركون لأوثانهم التي سبّها لهم المؤمنون فيسبّوا اللهَ عدواً بغير علم، فإنهم يفعلون ذلك، لأن من طبيعة النفوس أن تدافع عما تؤمن به وتتنصر له، فترى أن سبَّ ومقاتلة ما يؤمن به الخصم أمرٌ حسنٌ، إذ يصنع الوهم لمن لم تُقَيِّدهُ أحكامُ الدين الحق ما يُزَيِّنُ له عمله الذي يُدافع به عما يؤمن به، فقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ وهذا التزيين هو من عناصر نظام التكوين العام، الذي فطر الله عليه النفوس جميعاً.

فعلى المؤمنين أن يُراعوا حالة فطر النفوس وطبائعها التكوينية، فلا يتخذوا من الوسائل ما يستثيرها إلى ما لا يجوزُ استثارُها إليه، وسبُّ الأوثان يستثيرُ المشرك إلى أن يسبَّ اللهَ عدواً بغير علم، فلا يجوز للمؤمن أن يستثيره إلى ذلك، لأنه يكون مشاركاً للمشرك في عمله الشنيع هذا.

* * *

القاعدة التاسعة والثلاثون:

«من الحكمة التربوية للاستفادة من التدريبات العملية على السلوك الإسلامي، وعزسها في أعماق النفس، وجعلها جزءاً من شخصية ممارسها، جعلها مُفترنة بما تُحبُّه النفوس من مشاعر وجدانية سعيدة، تدوق بها لذات فعل الخيرات والفضائل والصالحات، ومشاعرٍ أُخرى تدوق بها لذات مباحاتٍ مما ترغَّب فيه من متاع الحياة الدنيا».

الشرح:

حامل الرسالة الإسلامية يَحْمِلُ مِهْمَةً تَزِييَةً من يَسْتَجِيبُ له على ممارسات السلوك الإسلامي .

إن كثيراً من أنواع السلوك الإسلامي فيه مَشَقَّةٌ على النفوس، وسياسةُ الإكراه والقَسْرِ سياسةٌ مُنْقَرَةٌ، لا تَغْرِسُ في الإنسان عادةً سلوكٍ مُحَبَّبٍ للنفس، بل تَجْعَلُ منه إنساناً يقوم بعمله وهو كارُهُ له، نافرٌ منه .

بخلاف ما لو كان التوجيه للسلوك الإسلامي مقروناً بمشاعر تُحِبُّهَا النَّفْسُ، وترتاح لها، ومنها أن تكون مغموسة أو مشوبةً بمشاعر الإيمان، ومشاعر الأمل العظيم بالسعادة الخالدة، مع مشاعرٍ لَذَّةٍ تأتي بها بَعْضُ المتع الجسدية المباحة .

أمثلة:

١ - إذا أعطى الربِّي تلميذه مَبْلَغاً من المال، وقال له: خُذْ هذا المال وابدأه إحساناً لبيتِ فلان، ولا تَقُلْ لهم: إنَّها من شيخي بعثني بها إليكم .

أو اشتر لهم طعاماً طيباً لذيذاً، واذهب به إليهم، فَإِنَّهُمْ أهلُ بيت فقراء جياغ يشتهون الطعام الطيب اللذيذ الغني باللحم والدُّهْنِ، ويُحْسِنُ أَنْ تُطْعِمَ صغارهم بيديك .

فإذا ذهبَ التلميذ، حاملاً لأهل ذلك البيت الطعام الشهي اللذيذ، وقَدَّمَهُ إليهم بِنَفْسِهِ، وأطعمَ صِغارَهُمْ بيده، وشاهد مَبْلَغَ فَرَحِهِمْ وسَعَادَتِهِمْ بتناول ما قَدَّمَ إليهم من طعام، وكَيْفَ فرحوا وابتَهَجُوا، وكَيْفَ تعلقوا به تعلق الأولاد بأبيهم شاكرين ومُقدِّرين ومُحِبِّين، فإنَّ هذا التلميذ سيَشْعُرُ وهو يمارس هذا العمل بمشاعر إنسانية سعيدة يَضَعُ بِنَفْسِهِ .

وحيث تكرر لَدَيْهِ هذه المشاعر السعيدة، تتولد عنده عادةُ العطاء

الجمالية، فكلّما وجدَ نفسه يَمْلِكُ شيئاً من المال اندفَعَتْ نَفْسُهُ لِإِطْعَامِ الجائعين، لأنَّ نفسه اغْتَادَتْ أَنْ تَشْعُرَ بِمَشَاعِرِ السَّعَادَةِ بِالْعَطَاءِ وَإِطْعَامِ الجِياعِ، مع ابتغاءِ رضوانِ الله، والأجر العظيم عنده.

٢ - التدريب على مساعدة الضعفاء والعجزة من الناس بالخدمات الجسديّة يُفَجِّرُ فِي النَّفْسِ مَشَاعِرَ سَعَادَةٍ عَظِيمَةٍ، ثُمَّ تَتَكَوَّنُ فِي الْإِنْسَانِ الرَّغْبَةُ الدَّاخِلِيَّةُ فِي تَكَرُّرِ السُّلُوكِ، لِلإِحْسَاسِ بِمَشَاعِرِ السَّعَادَةِ الَّتِي سَبَقَ أَنْ ذَاقَهَا، ثُمَّ تَتَكَوَّنُ الْعَادَةُ الَّتِي هِيَ بِمِثَابَةِ الْخُلُقِ فِي السُّلُوكِ، وَتَعْدُو الممارسةُ جزءاً من كِيَانِ الذَّاتِ.

٣ - أَنْ يَأْخُذَ حَامِلُ الرِّسَالَةِ الْمُرَبِّي تَلِيمَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ لِيَدْرِبَهُ عَلَى المَحَافِظَةِ عَلَى صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ، فَيَخْتَارَ مَسْجِداً لَهُ إِمَامٌ حَسَنُ الْقِرَاءَةِ، جَمِيلُ الصَّوْتِ، خَفِيفُ الصَّلَاةِ، وَيُرْتَّبُ بَعْدَ الصَّلَاةِ جُلُوسَةً لَطِيفَةً خَارِجَ الْمَسْجِدِ، أَوْ فِي غُرْفَةٍ مَلْحَقَةٍ بِهِ، وَيَجْمَعُهُ مَعَ عَدَدٍ مِنْ أَتْرَابِهِ الَّذِينَ يَأْتَسُّ بِهِمْ، وَيَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْدَمِجَ مَعَهُمْ، وَيُعَدِّ لَهُمْ شَيْئاً مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ اللَّذِيذِ لِيَتَنَاوَلُوهُ فِي هَذِهِ الْجُلُوسَةِ، وَيُلْقِيَ عَلَيْهِمْ فِيهَا شَيْئاً خَفِيفاً مِنْ تَعْلِيمَاتِ الدِّينِ، وَيُرَوِّحُ عَنْهُمْ بِبَعْضِ الطَّرَائِفِ الَّتِي تُنَاسِبُ أَعْمَارَهُمْ.

إِذَا تَكَرَّرَ هَذَا وَلَمْ يَكُنْ مَصْحُوباً بِمَا يُسْنِمُ وَيُضَجِّرُ أَوْ يُنْفَرُ، فَإِنَّ التَّلْمِيذَ وَرِفَاقَهُ سَيَجِدُونَ فِي أَعْمَاقِهِمْ مَا يَدْفَعُهُمْ دَوَاماً إِلَى تَأْدِيَةِ الصَّلَاةِ مَعَ الْجَمَاعَةِ فِي أَوَّلِ وَقْتِهَا، نَظراً إِلَى أَنَّ الْعَادَةَ قَدْ اسْتَقَرَّتْ فِي نَفْسِهِمْ مَقْرُونَةً بِبَعْضِ مَا تَحِبُّهُ، وَتَمِيلُ إِلَيْهِ، وَتَأْتَسُّ بِهِ، وَصَارَتْ لَدَيْهِمْ خُلُقاً مَكْتَسَباً.

٤ - أَنْ يَجْمَعَ حَامِلُ الرِّسَالَةِ الْمُعَلِّمُ الْمَرْبِّي عَدَدًا مِنْ تَلَامِيذِهِ لِيَحْفَظُوا كِتَابَ اللَّهِ، وَيَجْعَلَ لِكُلِّ مَنْ يَحْفَظُ مَقْدَاراً مِنْهُ جَائِزَةً تَشْجِيعِيَّةً مَالِيَّةً، وَجَائِزَةً تَشْجِيعِيَّةً تَقْدِيرِيَّةً، حَتَّى يَشْعُرَ الْحَافِظُ بِأَنَّهُ نَالَ ثَنَاءً حَسَنًا، وَنَالَ ثَوَاباً مَادِّيًّا

يُحِبُّهُ عَلَى مَا حَفِظَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَهَكَذَا كُلَّمَا حَفِظَ مَقْدَاراً آخَرَ مِنْهُ .

فهذه المكافآت التَّشْجِيعِيَّةُ تَجْعَلُ التَّلَامِيذَ حَرِيصِينَ عَلَى مِتَابَعَةِ حَفِظِ الْقُرْآنِ، مَعَ دَافِعِ التَّنَافُسِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، حَتَّى تَتَكَوَّنَ لَدَيْهِمْ عَادَةُ الْحَفِظِ، ثُمَّ تَكُونُ تِلَاوَةَ الْقُرْآنِ جِزْءاً مِنْ سُلُوكِهِمُ الدَّائِمِ .

٥ - وكذلك في مجالس العلم، ومجالس الذكر، ورخلات الحج والعمرة، وسائر أنواع السلوك الإسلامي، فباستطاعة المربي الحكيم الذي يؤدي الرسالة الإسلامية أَنْ يُدَرِّبَ تَلَامِيذَهُ عَلَيْهَا تَدْرِيباً مَقْرُوناً بِمَا يُحِبُّونَ وَيَشْعُرُونَ مَعَهُ بِلَذَاتِ وَجْدَانِيَّةٍ، وَلذَاتِ مَادِّيَّةٍ مَبَاحَةٍ .

* * *

القاعدة الأربعون:

«حامل الرسالة الإسلامية الداعي إلى الله هو بمثابة الطبيب الرحيم الناصح، لا ينظر إلى المخالف على أنه عدو ينبغي أن يتخلص منه، إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ مَرِيضٌ يُرِيدُ أَنْ يُنْقِذَهُ مِنْ مَرَضِهِ، فَالْمُؤْمِنُ الْمَسْلَمُ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى دِينِ اللَّهِ بِدَافِعِ الرَّحْمَةِ بِهِمْ، لِنَجَاتِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَظَفَرِهِمْ بِالسَّعَادَةِ الْخَالِدَةِ» .

الشرح:

إِنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى دِينِ اللَّهِ يَجِبُ أَنْ تَقْتَرْنَ بِابْتِغَاءِ إِنْقَازِ الْمَخَالِفِينَ مِمَّا هُمْ فِيهِ، لِحِمَايَتِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَرَحْمَةً بِهِمْ، وَحِرْصاً عَلَى سَعَادَتِهِمْ فِي جَنَاتِ النِّعِيمِ، وَحَالُ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ كحَالِ الطَّيِّبِ الرَّحِيمِ النَّاصِحِ الْحَرِيصِ عَلَى إِنْقَازِ مَرَضَاهُ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ أَمْرَاضٍ .

وكما كانت الرسالة الإسلامية رحمةً من الله لعباده، وكان الرسول محمد ﷺ رحمةً للعالمين، كان من واجب حامل الرسالة الإسلامية أن يملأ قلبه بمشاعر الرحمة بالمخالفين، لإنقاذهم، وكذلك كان الرسول ﷺ شديد

الرحمة والحرص على إنقاذ الكافرين من الكفر، والعاصين من العصيان، حتى كانت رحمته العظيمة بهم تؤثر عليه، فَتُضَيِّبُهُ كُلَّمَا وَجَدَ مِنْهُمْ عُنَادًا وَإِعْرَاضًا. وكان القرآن ينزل على الرسول ﷺ ليخفف من حُزْنِهِ عَلَى كُفَّارِ قَوْمِهِ، فقد أنزل الله عليه قوله في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ طه ﴿١٠﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١١﴾ .

وأنزل عليه قوله في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿ أَفَمَنْ ذُنِبَ لَهُمْ سُوءُ عَمَلِهِمْ فَرَّاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨١﴾ .

وأنزل عليه قوله في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣٢﴾ .

لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ: أي: قَاتِلٌ نَفْسَكَ حُزْنًا عَلَيْهِمْ وَحَذَرًا أَنْ لَا يَكُونُوا

مُؤْمِنِينَ .

* * *

القاعدة الحادية والأربعون:

«على حامل الرسالة أن لا يَحْمِلَ مَنْ يَقْتَدُونَ به على الأخذ بأشدّ الأعمال وأشقها على نفوسهم، أو بأشدّ الاجتهادات الفقهية ما دام في الدين سعةً وفُسْحَةً، بل يكون رفيقاً بهم، مُبَشِّرًا غير مُنْفَرٍ، مُبَشِّرًا غير مُعَسَّرٍ، وإذا كان في الحكم الفقهي خلافٌ بين أئمة الاجتهاد من علماء المسلمين فمن الحكمة أن يُبَيِّنَ لَهُمْ اختلاف الآراء الاجتهادية، وَيَنْصَحُهُمْ بأن يأخذوا بما هو الأحوط لدينهم، ويترك لهم أن يختاروا لأنفسهم منها ما هو الأيسر لهم، ولا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَشُقَّ عَلَيْهِمُ بِالتَّوَافُلِ وَفَضَائِلِ الأَعْمَالِ إِذَا كَانَ إِمَامًا لَهُمْ لِثَلَا يُنْفَرَهُمْ وَيَفْتِنَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ» .

الشرح:

دلّت نصوص الكتاب والسنة على أن هذا الدين يُسرّ وليس يُعسر، وأن الله ما جعل على الناس في هذا الدين من حرج، فقد ادّخر الله لهذا الدين الخاتم أحكام التيسير، ورفع فيه الإضرّ الذي كان في رسالاته السابقة، فليس من حقّ أحد أن يغلو في هذا الدين غلواً يخرج به عن حدود أحكامه وشرائعه.

ومن النصوص الكثيرة المبيّنة لهذه الخصيصة من خصائص الدين ما يلي:

١ - روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغُدُوءِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ».

الغُدُوءُ: سَيْرٌ أَوَّلِ النَّهَارِ.

الرَّوْحَةُ: سَيْرٌ آخِرِ النَّهَارِ.

الدَّلْجَةُ: آخِرُ اللَّيْلِ عِنْدَ السَّحَرِ.

والمعنى استعينوا على طاعة الله عزّ وجلّ بالأعمال في أوقات نشاطكم، وفراغ قلوبكم، حتّى تجدوا للعبادة لذات في نفوسكم، ولا تسأموا.

٢ - وروى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا».

٣ - وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بَالَ أَعْرَابِيٌّ فِي

المسجد فقامَ النَّاسُ إِلَيْهِ لِيَقْعُوا فِيهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

«دَعُوهُ وَأَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجَلًا مِنْ مَاءٍ أَوْ ذُنُوبًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا يُعِثِّمُ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ» .

السَّجَلُ: الدَّلْوُ الْمُؤْتَلِئَةُ مَاءً .

٤ - وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: مَا خَيْرَ رَسُولٍ اللَّهُ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ قَطُّ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمُ لِلَّهِ تَعَالَى» .

٥ - وروى الإمام أحمد بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ وَمَعَهُ نَاضِحَانِ لَهُ (١)، وَقَدْ جَنَحَتِ الشَّمْسُ (٢)، وَمُعَاذٌ يُصَلِّي الْمَغْرِبَ، فَدَخَلَ مَعَهُ الصَّلَاةَ، فَاسْتَفْتَحَ مُعَاذٌ الْبُقْرَةَ أَوْ النَّسَاءَ، فَلَمَّا رَأَى الرَّجُلُ ذَلِكَ صَلَّى ثُمَّ خَرَجَ (٣) فَبَلَغَهُ أَنْ مُعَاذًا نَالَ مِنْهُ .

فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:

«أَفْتَانُ أَنْتَ يَا مُعَاذُ، أَفْتَانُ أَنْتَ يَا مُعَاذُ، فَلَوْلَا قَرَأْتَ: سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، فَصَلِّ وَرَاءَكَ الْكَبِيرُ وَدُو الْحَاجَةِ وَالضَّعِيفُ» .

فمن هذه الأحاديث نفهم أن قائد الجماعة وإمامهم وداعيهم إلى دين الله ينبغي له أن لا يحمل عاينتهم وأفرادهم حملًا على ما يشق عليهم، ما دام في أحكام الدين متسع لما فيه يسر وسهولة .

* * *

(١) الناضح: الدابة يُسْتَقَى عليها .

(٢) جنحت الشمس: أي: مالت غاربة .

(٣) أي: صلى منفردًا ناويًا مفارقة الإمام كما يظهر والله أعلم .

القاعدة الثانية والأربعون:

«حامل الرسالة الذي يُرَبِّي تَلَامِيذَهُ والمستجيبين له إِذَا وَجَّهَ اهْتِمَامَهُ الْبَالِغَ لِلصَّغَائِرِ من أحكام الدين، وحَمَلَهُمْ حَمَلًا شَدِيدًا على الالتزام بها، جَعَلَهُمْ من حيثُ لا يَشْعُرُ يَسْقُطُونَ في ارتكاب كبائر الإثم.

فَعَلَيْهِ أَنْ يُوجِّهَ اهْتِمَامَهُ الْأَفْضَى لِلالتزام بالفرائض العظمى كالصلاة والزَّكَاةِ والصَّيَامِ والحجِّ، واجتناب الكبائر كالقتل والسَّرقة والزنا وشرب الخمر والغيبة والنميمة والإضرار بالناس وأكل الرِّبَا وأكل أموال الناس بالباطل، ثم يتدرَّجُ بهم شيئاً فشيئاً في دَرَجَاتِ الكمال».

الشرح:

رَوَى الإمام أحمد والترمذي والبيهقي والحاكم عن أنس رضي الله عنه،
أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

«كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَائِينَ التَّوَابُونَ».

وروى البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّيْنِ أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فزِنَا الْعَيْنِ النَّظْرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ، وَالتَّنْفُسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ».

تَمَنَّى: أَي: تَتَمَنَّى.

فمن الحكمة أن يضع حامل الرسالة المرَبِّي في حسابه أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ عَرُضَةٌ لِلخَطَا وارتكاب المعاصي، وَأَنَّهُ إِذَا وَجَّهَ عِنَايَتَهُ الْعُظْمَى لِلإلزام بفعل صغائر الواجبات، والإلزام بترك صغائر المحرمات، مع أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ مَفْطُورٌ على السقوط في الخَطَايَا، فلا بُدَّ أَنْ تَرِلَّ قَدَمُهُ فَيَقَعَ في الكبائر مُتَسَتِّراً بها،

وَمُكْتَفِيًّا بِمَا يَرَى النَّاسُ مِنْهُ مِنَ التَّزَامِ بِفِعْلِ الْوَاجِبَاتِ الصَّغْرَى، وَاجْتِنَابِ
الْمَحْرَمَاتِ الصَّغْرَى.

لَكِنَّ الْأَفْضَلَ عِنْدَ اللَّهِ وَالْأَحَبَّ إِلَيْهِ جَلٌّ وَعِلَاءٌ، أَنْ يَلْتَزِمَ الْعَبْدُ بِأَدَاءِ
الْفَرَائِضِ الْعَظْمَى، وَتَرْكِ الْكِبَائِرِ مِنَ الْمَحْرَمَاتِ، فَإِذَا نَزَعَتْ فِي دَاخِلِهِ نَوَازِعَ
الْخَطِيئَةِ وَكَانَ لَا بُدَّ فَاعِلًا فَلْيَكُنْ ذَلِكَ بِتَرْكِ الْوَاجِبَاتِ الصَّغْرَى، وَارْتِكَابِ
الْمَحْرَمَاتِ الصَّغْرَى الَّتِي تَكْفُرُهَا الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ مِنَ النَّوَافِلِ، كإِسْبَاغِ
الْوُضوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةِ الْخَطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَقِيَامِ اللَّيْلِ، وَتِلَاوَةِ
الْقُرْآنِ، وَصِيَامِ الْأَيَّامِ الَّتِي يُسْتَحَبُّ الصِّيَامُ فِيهَا.

إِنَّ لِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ نِسْبًا، فَمِنْهَا الْفَرَائِضُ الْعَظْمَى وَكِبَائِرُ
الْمَحْرَمَاتِ، وَمِنْهَا دُونَ ذَلِكَ، وَمِنْهَا الصُّغْرَى، كَرَدِّ السَّلَامِ فِي الْوَاجِبَاتِ،
وَالنَّظَرَةِ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ الْأَجْنِبِيَّةِ فِي الْمَحْرَمَاتِ.

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (النِّسَاءِ/ ٤ / مَصْحَفِ/ ٩٢ نَزُولِ) خُطَابًا
لِلَّذِينَ آمَنُوا:

﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كِبَائِرَ مَا نُهَوْنَا عَنْهُ تَكْفُرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَتُدْخِلَكُمْ
مُدْخَلَ كَرِيمًا ﴾.

وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ
قَالَ:

«مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَهُ ذَنْبٌ، يَعْتَادُهُ الْفَيْئَةَ بَعْدَ الْفَيْئَةِ، أَوْ ذَنْبٌ هُوَ
مُقِيمٌ عَلَيْهِ لَا يُفَارِقُهُ حَتَّى يُفَارِقَ الدُّنْيَا، إِنَّ الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مُفْتَتَنًا، تَوَّابًا، نَسِيًّا،
إِذَا ذُكِرَ ذَكَرٌ».

وَرَوَى مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ
قَالَ:

«الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ،
مُكْفَرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنِبْتَ الْكَبَائِرَ».

وروى الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه عن أبي بكر، أنَّ
النبي ﷺ قال:

«مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيَتَوَضَّأُ، فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي
رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ بِذَلِكَ الذَّنْبِ، إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ».

إلى غير هذه النصوص من نصوص كثيرة.

* * *

القاعدة الثالثة والأربعون:

«على حامل الرسالة أن يُخاطب الناس على مقادير أفهامهم، وبما
يُدرِكُون من مستوياتٍ فكرية، وبما يُعجِبُهُم من أساليب بيانية، وبالوسائل
الجدابة المشوقة».

فلكلِّ فئة من الناس خُطابٌ يتلاءم مع نوع ثقافتهم ومستواها، وأسلوبُ
بيانٍ يكون أكثر تأثيراً في نفوسهم».

الشرح:

إنَّ الغرض من مخاطبة حامل الرسالة للناس توصيلُ المعاني المراد
توصيلُها إلى أفكارهم فقلوبهم، والتأثيرُ في نفوسهم بأسلوب الخطاب
الملائم لهم، ليتقبَّلوا ما يُوجَّه لهم من رسالة، في الدعوة إلى الله، أو في
النصح والإرشاد، أو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فعلى حامل الرسالة أن يتعرَّف على أحوال من يخاطبهم فكرياً وثقافياً
ونفسياً، وعلى ما يناسب أحوالهم من مستوى فكري، وأساليب خطابٍ
بيانية، ليختار في مخاطبته لهم ما يناسب أحوالهم، وبذلك يكون بليغاً في

بيانه، إذ البلاغة هي الكلام الفصيح المطابق لمقتضى حال المخاطب به .

ومعلوم أنّ كبراء القوم وأصحاب الجاه والسلطان لهم خطاب يلائمهم، والأدكيااء لهم خطاب يلائمهم، وذوي المستويات العلمية العالية لهم خطاب يلائمهم، وغير المتعلمين من عامة الناس لهم معاني وأساليب خطاب تلائم أحوالهم، والنساء لهنّ خطاب يلائم أحوالهنّ، وهكذا إلى سائر أصناف البشر .

والحكمة تقتضي من الحكيم أن يصطفي لكلّ فئة من الناس ذات صفاتٍ خاصّة، ما يلائم هذه الصفات فيهم من الكلام، حرصاً على أن يكون كلامه لهم أكثر تأثيراً وفعلاً، وأكثر تحقيقاً للأغراض المقصودة من تأديته رسالته بينهم .

* * *

القاعدة الرابعة والأربعون:

«على حامل الرسالة أن يتخذ وسائل لتوصيل دعوته وبياناته للنساء، ولو بأنّ يَعْقِدَ مجالسَ يَخُصُّهُنَّ بها، على أن تكون محفوفة بما يجعل اللقاء بهنّ مَصُوناً لا تكون فيه خَلَوَاتُ» .

الشرح:

النساء شقائق الرجال، وهنّ مطالبات بالإيمان والعمل الصالح كالرجال، وعليهنّ أن يَعْرِفْنَ أُمُورَ دِينِهِنَّ حتى يلتزمن بها، فلهنّ حقّ على حملة الرسالة الإسلامية في أن يُوصِلُوا إِلَيْهِنَّ مفهومات الدين وتعليمات أصوله وفروعه كالرجال، ويزدّن بأنّ لهنّ حقّ التعرف على أحكام الدين الخاصّة بهنّ، كأموال الحيض والنفاس والحمل والرضاع والستر والزينة، وحقوق الأزواج عليهن .

وقد كان النساء يستمعن إلى ما يُقال في مجالس العلم والتذكير في عهد

الرسول ﷺ وعهود الخلفاء الراشدين والتابعين لهم بإحسان.

وصح أن الرسول ﷺ خصص للنساء مجالس خاصة بهن ليتعرفن بها على أحكام الأمور الخاصة بهن.

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه نُعلِّمنا ممَّا علِّمك الله، قال: «اجتمعن يوم كذا وكذا» فاجتمعن، فأتاهن النبي ﷺ، فعلمهن ممَّا علِّمه الله ثم قال: «ما منكنَّ من امرأة تُقدِّم ثلاثة من الولد إلا كانوا لها حجاباً من النار».

فقالت امرأة: واثنين؟ فقال رسول الله ﷺ: «واثنين».

فعلى حامل الرسالة أن يتأسى برسول الله ﷺ في هذا، فيتخذ وسائل لتوصيل دعوته وبياناته ونُصحه وإرشاده وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر للنساء ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

* * *

القاعدة الخامسة والأربعون:

«على حامل الرسالة أن يكون حسن الإصغاء والاستماع والإنصات لمن يُوجّه له رسالته، إذا أراد أن يتكلّم، ليُعرف ما لديه من شُبّهات، أو مُشكلات، أو عُروضٍ مزالق، أو غيرها، فيُعالجها بما يُلائمها علاجاً حكيماً».

الشرح:

إذا لم يكن حامل الرسالة حسن الإصغاء والاستماع والإنصات لمن يُوجّه له رسالته، فإنه لا يستطيع أن يكتشف ما في نفسه من شُبّهات، أو مُشكلات، أو عُروضٍ مزالق، أو غيرها، ليعالج كلّ حالة بما يُلائمها، وربّما يتّجه بحديثه معه اتّجهاً يكون الطريقُ منه إلى نفسه مسدوداً، وتكون الأبواب إليها موصودة.

بخلاف ما لو تَرَكَ له فُرْصَةً لِيَسْرَحَ ما في نَفْسِهِ، وَيُعَبِّرَ عَمَّا في داخله، فَإِنَّهُ يكون بمثابة من يَسْتَخْرِجُ صَاحِبَ الحِصْنِ من حِصْنِهِ بما يُغْرِيه بالخروج، وَهُوَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا إذا فُتِحَ باباً أو أكثر من أبواب حِصْنِهِ باختياره، فإذا خَرَجَ تَلَقَّاهُ قاصِدُهُ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ ما يُهَمُّهُ أن يَعْرِضَهُ عَلَيْهِ.

إِنَّ نَفْسَ الإنسان الدَّاخِلِيَّةِ تكونُ في العادة داخلَ حِصْنِها الخاصِّ بِهَا، ولا يستطيعُ قاصِدٌ مُحَادَثَتَها من أَعْمَاقِهَا الدُّخُولَ إليها، إِلَّا إذا فَتَحَتْ لَهُ باباً أو أكثر من أبوابِ حِصْنِها.

ومعلوم أن الإنسان لا يَتَكَلَّمُ مع غيره مِمَّنْ هُمْ خارج حِصْنِهِ ما لَمْ تَخْرُجْ نَفْسُهُ أو بَعْضُها مِنْ بابٍ أو نَافِذَةٍ من الحِصْنِ، وعندئذٍ يَكُونُ بالإمكان مُلامَسَةُ النَّفْسِ، ومَعْرِفَةُ بَعْضِ ما لَدَيْهَا، ومُحاوَرَتُها من المنفذ الذي فَتَحْتَهُ، لِمَنْ هو خارج حِصْنِها.

وعلى حامل الرسالة أن يتَأَسَّى بالنبي ﷺ، إذ كان صلواتُ الله عليه حَسَنَ الاستماع والإصغاء والإنصاتِ لِمَنْ يُحَدِّثُهُ، حَتَّى يَكْتَشِفَ ما في نفسه، وَيُعَالَجَهُ بما يُلائمه.

ومن الأمثلة النبوية استماع الرسول ﷺ لعُتْبَةَ بنِ ربيعة، حين أرسلتُهُ قُرَيْشٌ لمفاوضته، رغبةً مِنْها في أن يَكْفَ عَنْ دَعْوَتِهِ.

جاء في سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق، أن عُتْبَةَ بنَ ربيعةَ وكان سَيِّداً في قومه، قالَ يَوْمَاً وَهُوَ جالِسٌ في نادي قُرَيْشٍ، وَرَسُولُ الله ﷺ جالِسٌ في المَسْجِدِ وِخْدَهُ: يا مَعَشَرَ قُرَيْشٍ، أَلَا أَقُومُ إلى مُحَمَّدٍ، فَأُكَلِّمَهُ، وَأَعْرِضَ عَلَيْهِ أُمُوراً، لَعَلَّهُ يَقْبَلُ بَعْضُها، فَتُعْطِيَهُ أَيُّها شاء، وَيَكْفَ عَنَّا؟

فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فَمَ إِلَيْهِ فَكَلِّمَهُ، فَقَامَ إليه عُتْبَةُ، حَتَّى جَلَسَ إلى رسول الله ﷺ فَقَالَ:

وَمَلَكُورِ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَوْكَبِ وَاللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا ۗ وَأَنذَرْتُ لِمُشْرِكِي ۖ
الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾

ومضى رسول الله ﷺ يتلو السورة على عتبة بن ربيعة، وهو يستمع ويُنصت، وقد ألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما، حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، عند قول الله عز وجل:

﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿٢٨﴾

فَسَجَدَ الرَّسُولُ ﷺ، ثم قال لعُتْبَةَ: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك.

فَقَامَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ إِلَىٰ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: نَحْلِفُ بِاللَّهِ لَقَدْ جَاءَكُمْ أَبُو الْوَلِيدِ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ.

فَلَمَّا جَلَسَ إِلَيْهِمْ قَالُوا: مَا وَرَاءَكَ يَا أبا الْوَلِيدِ؟

قَالَ: وَرَائِي أَنِّي قَدْ سَمِعْتُ قَوْلًا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَاللَّهِ مَا هُوَ بِالشُّعْرِ، وَلَا بِالسُّحْرِ، وَلَا بِالْكَهَانَةِ، يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَطِيعُونِي وَاجْعَلُوهَا بِي، وَخَلُّوا بَيْنَ هَذَا الرَّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ، فَاغْتَرِلُوهُ، فَوَاللَّهِ لِيَكُونََنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي سَمِعْتُ مِنْهُ نَبَأٌ عَظِيمٌ، فَإِنِ نُصِبَهُ الْعَرَبُ فَقَدْ كَفَيْتُمُوهُ بغيركم، وَإِنِ يَظْهَرِ عَلَى الْعَرَبِ، فَمَلِكُهُ مُلْكُكُمْ، وَعِزُّهُ عِزُّكُمْ، وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ.

قَالُوا: سَحَرَكَ وَاللَّهِ يَا أبا الْوَلِيدِ بِلِسَانِهِ.

فَقَالَ لَهُمْ: هَذَا رَأْيِي فِيهِ، فَاصْنَعُوا مَا بَدَأَ لَكُمْ.

* * *

القاعدة السادسة والأربعون:

«على حامل الرسالة أن لا يتجسس على المسلمين متتبعاً عوراتهم في بيوتهم ومنازلهم، وأن لا يواجه بمقالة التلويح إلا من كان مجاهرًا بمعاصيه، أما المتستر بمعاصيه فبحسبه أن يقول في شأنه قولاً عاماً: ما بال أقوام

يَفْعَلُونَ كَذَا وَكَذَا، دُونَ أَنْ يُعَيِّنَ الْمُقْصُودَ لَا بِالاسْمِ، وَلَا بِالْوَصْفِ الْمُمَيِّزِ،
أَوْ أَنْ يَنْصَحَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ سِرًّا، وَإِلَّا كَانَ فَاضِحًا لَهُ لَا نَاصِحًا، وَقَاصِدًا لِلتَّشْهِيرِ
بِهِ لَا إِصْلَاحِهِ».

الشرح:

من الوصايا النبوية العظمى تَحْذِيرُ الرَّسُولِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ الْمَشْدَدُ مِنْ
تَتَبُعِ عَوْرَاتِ النَّاسِ الَّتِي يَسْتَتِرُونَ بِهَا وَلَا يَجَاهِرُونَ بِارْتِكَابِهَا.

وَقَدْ خَاطَبَ الرَّسُولُ ﷺ مُتَتَبِعِي عَوْرَاتِ النَّاسِ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَلَمْ
يَدْخُلِ الْإِيمَانَ قُلُوبَهُمْ.

وَحَمَلَةُ رِسَالَةِ النَّصِيحِ وَالْإِرْشَادِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ
أَوْلَى الْمُسْلِمِينَ بِاجْتِنَابِ هَذَا الَّذِي حَذَّرَ مِنْهُ الرَّسُولُ ﷺ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

قَالَ:

«يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانَ قَلْبُهُ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ،
وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَّبَعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ
تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ».

وَعِنْدَ التِّرْمِذِيِّ نَظِيرُهُ عَنْ ابْنِ عَمْرٍو (١).

وَلَا يَسْتَنِي مِنْ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ إِلَّا الرُّعَاةُ فِي حَالَةِ كَوْنِ الْمَعَاصِي الْمَسْتَوْرَةِ
مِنْ بَعْضِ رَعِيَّتِهِمْ تُسَبِّبُ خَطَرَ عَلَى الْمَجْتَمَعِ، أَوْ ضَرَرَ لِلْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ،
كَالْخُونَةِ مَعَ الْأَعْدَاءِ.

* * *

(١) انظر صحيح الجامع الصغير، الحديث رقم ٧٩٨٤ والحديث ٧٩٨٥.

القاعدة السابعة والأربعون :

«ينبغي لحامل الرسالة أن يُنَزَلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ، تَأْلِيفًا لِقُلُوبِهِمْ، وَمِنْهُ إِعْطَاءُ ذِي الْمَكَانَةِ وَالْوَجَاهَةِ فِي قَوْمِهِ مَا تَحْتَاجُهُ نَفْسُهُ مِنْ تَمْجِيدٍ وَتَقْدِيرٍ».

ذوو المَكَانَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ يَتَأَصَّلُ فِي نَفْسِهِمْ حُبُّ التَّمْجِيدِ وَالتَّعْظِيمِ بَيْنَ النَّاسِ، وَيَنْمُو فِي دَاخِلِهِمْ حُبُّ التَّقْدِيرِ الْمَوْجُودِ لِدَى مَعْظَمِ النَّفُوسِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِنِسْبِ مِتْفَاضِلَةٍ.

وينبغي لتأليف قلوب هذا الصنف من الناس للدخول في الإسلام، أو للتمكُّن فيه إعطاؤهم شيئاً من هذا الذي يُحِبُّونَهُ مِنْ تَقْدِيرِ اجْتِمَاعِيٍّ، رِجَاءً إِزَالَةِ الْعَقْبَةِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي تَمْنَعُهُمْ مِنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَتُحِبِّبُهُمْ بِالِاسْتِجَابَةِ لِلدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ، أَوْ لِلتَّمَكُّنِ فِيهِ، بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَنُفُوسُهُمْ نَزَاعَةٌ لِمَا كَانُوا عَلَيهِ، أَوْ كَبَحُوا جَمَاحَ نَفُوسِهِمْ وَاسْتَجَابُوا لِدَّعْوَةِ الْحَقِّ، رَغْبَةً فِيهِ، وَطَلَباً لِثَوَابِ اللَّهِ وَالْآخِرَةِ.

وقد استخدم الرسول ﷺ هذا الأسلوب في المواضع الملائمة لاستخدامه.

● ففي فتح مكة، حين كان الرسول ﷺ وجيش المسلمين معه في «مرَّ الظهران»^(١) وَقَدِمَ الْعَبَّاسُ عَمُّ النَّبِيِّ ﷺ بِأَبِي سَفْيَانَ إِلَيْهِ، وَبَعَدَ مُحَادَثَةً بَيْنَهُمَا، وَحَثَّ الْعَبَّاسُ لَهُ عَلَى أَنْ يُسَلِّمَ أَعْلَنَ إِسْلَامَهُ، عِنْدَئِذٍ قَالَ الْعَبَّاسُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَبَا سَفْيَانَ يُحِبُّ هَذَا الْفَخْرَ، فَاجْعَلْ لَهُ شَيْئاً.

قال الرسول ﷺ: نعم، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سَفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَعْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ.

فَأَعْجَبَ أَبَا سَفْيَانَ أَنْ يُعْلَنَ بَيْنَ أَهْلِ مَكَّةَ أَنَّ مَنْ دَخَلَ دَارَهُ فَهُوَ آمِنٌ.

● وروى البخاريُّ عَنْ عَمْرِو بْنِ تَعْلِبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ

(١) يعرف الآن بوادي فاطمة.

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَيْ بِمَالٍ أَوْ سَبِي فَقَسَّمَهُ، فَأَعْطَى رِجَالًا وَتَرَكَ رِجَالًا، فَبَلَغَهُ
أَنَّ الَّذِينَ تَرَكَ عَتَبُوا، فَحَمِدَ اللَّهُ ثُمَّ أَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ:

«أَمَّا بَعْدُ: فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَأَدْعُ الرَّجُلَ، وَالَّذِي أَدْعُ أَحَبُّ إِلَيَّ
مِنَ الَّذِي أُعْطِي، وَلَكِنِّي إِنَّمَا أُعْطِي أَقْوَامًا لِمَا أَرَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجَزَعِ
وَالْهَلَعِ، وَأَكِلُ أَقْوَامًا إِلَى مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْغِنَى وَالْخَيْرِ، مِنْهُمْ
عَمْرُو بْنُ تَغْلِبٍ.»

قال عَمْرُو بْنُ تَغْلِبٍ: فَوَاللَّهِ مَا أَحَبُّ أَنْ لِي بِكَلِمَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حُمْرَ
النَّعَمِ.

لقد كان ثناء الرسول ﷺ أحب إليه مما لو كان أثره بالعطاء دون غيره،
وقد عالج الرسول نفسه بما يلائمها تماماً.

● وجاء عند ابن كثير في «البداية والنهاية»^(١) أن «وَإِئْتَلَ بِنَ حُجْرٍ أَحَدَ
أَقْبَالِ «حَضْرَمَوْتِ» قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُسْلِمًا وَكَانَ قَدْ بَشَّرَ بِهِ أَصْحَابَهُ
قَبْلَ قُدُومِهِ، وَقَالَ: يَا تَيْكُمُ بَقِيَّةُ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ رَحَبَ بِهِ، وَأَذْنَاهُ
مِنْ نَفْسِهِ، وَقَرَّبَ مَجْلِسَهُ، وَبَسَطَ لَهُ رِدَاءَهُ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ فِي وَائِلِ
وَوَلَدِهِ وَوَلَدِ وَلَدِهِ» وَاسْتَعْمَلَهُ عَلَى الْأَقْبَالِ مِنْ حَضْرَمَوْتِ»^(٢).

وروى مسلم في مقدمة صحيحه تعليقاً بإسنادٍ حسن عن عائشة
رضي الله عنها قالت: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نُنْزَلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ».

* * *

القاعدة الثامنة والأربعون:

«ينبغي لحامل الرسالة أن يكون خبيراً بمجتمعه الذي يعيش فيه، متتبِعاً

(١) انظر الجزء الرابع ص ٧١.

(٢) المصدر السابق نفسه.

الاطلاع على أحداثه، حتى يُحسِن توجيهِه، ويُحسِن مُعَالَجَةَ كُلِّ حَدَثٍ بما يلائمه».

الشرح:

كُلُّ من يطالع أحداثَ السَّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ بوعْيٍ وَتَدَبُّرٍ يُذْرِكُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قد كان عَظِيمَ الخَبْرَةِ بِمَجْتَمَعِهِ الخاص، وبمجتمعاتِ قَبَائِلِ العَرَبِ على اختلافها في الصفاتِ والخصائصِ والعاداتِ.

وكانَ صلواتُ الله عليه شديدَ اليَقَظَةِ والاطلاعِ على كُلِّ ما يجري من أحداثٍ، في بيئته، وفيما حولها.

وكان يُعالج المشكلاتِ بِأيسرِ الحُلُولِ، وأرضاها لله عزَّ وجلَّ، وأكثرها بُعداً عن النزاعِ والخلافِ، ويُعالجُ كُلَّ حَدَثٍ بما يلائمه من رُشْدٍ، مع غاية الحكمة في المعالجةِ.

وكانَ صلواتُ الله عليه يتَّخِذُ كُلَّ وَسِيلَةٍ تُتَّاحٌ له لتأليفِ القلوبِ، وتوحيدِ الصِّفِّ، وشدِّ الروابطِ المتينةِ بين أفرادِ المسلمين، وإطفاءِ نارِ الفتنةِ، ووأدِها في مكانها، ولو كان ذلكَ مخالفاً لما تهوَّى نفسه.

وكان صلواتُ الله عليه يتجاهل كرامةَ نفسه من أجلِ تأليفِ القلوبِ على الإسلامِ، ورأبِ الصَّدْعِ، ومنعِ وخذةِ الجماعةِ المُسْلِمَةِ من أن يَحْدُثَ بين صفوفها انشقاقٌ أو انقسامٌ أو نُغْرَاتٌ ينفذ منها أعداءُ الإسلامِ والمسلمين، أو تنافراً أو تناحراً بين أفرادهم أو فئاتهم.

فعلى حاملِ الرسالة أن يتأسى بالرسول ﷺ في كل ذلك.

* * *

القاعدة التاسعة والأربعون:

«على حاملِ الرسالة أن يكونَ شديدَ الحَدَرِ من الانحيازِ إلى فتنةٍ دُونَ

أخْرَى، لِأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلْجَمِيعِ مُعَلِّمًا وَنَاصِحًا وَمُرْشِدًا، وَأَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ وَنَاهِيًا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَنَاصِرًا لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ، وَحَاكِمًا عَلَى الْبَاطِلِ بِأَنَّهُ بَاطِلٌ حَيْثُ كَانَ».

الشرح:

لَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا، وَلَمْ يَكُنْ لِفِئَةٍ دُونَ أُخْرَى، وَلَمْ يَكُنْ يَنْحَازُ إِلَى فَرِيقٍ مِنْهُمْ دُونَ فَرِيقٍ، بَلْ كَانَ يَضَعُ كُلَّ إِنْسَانٍ فِي الْمَوْقِعِ الْمَلَائِمِ لِخِصَائِصِهِ وَصِفَاتِهِ وَمَا امْتَازَ بِهِ مِنْ أَفْضَلِيَّةٍ.

فَالسَّابِقُ مِثْلًا فِي الْإِسْلَامِ وَالْجِهَادِ وَالْهَجْرَةِ لَهُ تَفْضِيلٌ بِسَبَبِ مَالِهِ مِنْ مِيزَةِ السَّبْقِ فِي ذَلِكَ.

وَالْمَتَفَوِّقُ فِي الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ يَمْنَحُهُ الْعَمَلُ الْمَلَائِمَ لِنَفْوَقِهِ هَذَا.

وَالْمَوْهَلُ لِلْقِيَادَةِ الْإِدَارِيَّةِ أَوْ الْحَرْبِيَّةِ يَضَعُهُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يَلَائِمُ أَهْلِيَّتَهُ.

وَذَوُّ الرَّأْيِ الْحَصِيفِ وَالتَّجْرِبَاتِ ذَوَاتِ الْخِبْرَاتِ النَّافِعَاتِ يَسْتَشِيرُهُمْ فِيمَا هُمْ مُؤَهَّلُونَ لِإِبْدَاءِ الرَّأْيِ فِيهِ.

وَذَوُّ الْفَضْلِ بِالتَّقْوَى وَالتَّبَرُّ وَالْإِحْسَانَ بِمَنْحِهِمْ تَكْرِيمًا لِتَقْوَاهُمْ وَبِرَّهِمْ وَإِحْسَانِهِمْ.

وَالْجَمِيعُ أَمَامَ أَحْكَامِ الدِّينِ وَحُدُودِهِ سَوَاءً، فَلَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ وَتَبَتَ عَلَيْهَا السَّرْقَةُ، لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهَا.

وَلَمْ يَكُنْ يَزِيدُ فِي عَطَائِهِ مِنَ الْأَمْوَالِ الْعَامَةِ ذَا قُرْبَى لِقُرَابَتِهِ أَوْ ذَا رَحِمٍ لِرَحْمِهِ.

وَلَمْ يَكُنْ يَنْحَازُ لِنَصْرَةِ أَحَدٍ بَغَيْرِ حَقٍّ، مَهْمَا كَانَ ذَا مَكَانَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ عَالِيَةٍ فِي قَوْمِهِ، أَوْ ذَا قَرَابَةٍ، أَوْ رَجِمٍ، أَوْ مَوَدَّةٍ خَاصَّةٍ.

فَعَلَى حَامِلِ الرِّسَالَةِ أَنْ يَتَأَسَّى فِي عِلَاقَاتِهِ الْجَمَاعِيَّةِ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ

رسولُ الله ﷺ، وعلى حامل الرسالة أن يكون مع الجميع ناظراً إلى خصائصهم وصفاتهم ومؤهلاتهم، لا إلى انتماياتهم أو قراباتهم أو عواطفه الخاصة نَحْوَ كُلِّ مِنْهُمْ حُبًّا أَوْ كَرَاهِيَةً.

* * *

القاعدة الخمسون:

«يَحْسُنُ بِحَامِلِ الرِّسَالَةِ أَنْ يَكُونَ جَوَاداً سَخِيّاً، فَالْجُودُ وَالسَّخَاءُ مِنْ أَعْظَمِ الصِّفَاتِ الَّتِي تُؤَلَّفُ الْقُلُوبَ، وَتَمْتَلِكُ الْمَشَاعِرَ النَّبِيلَةَ وَتَعْقِدُ الْمَوَدَّاتِ».

الشرح:

كان رسول الله ﷺ أجودَ النَّاسِ، وأكثرَهُمْ سخاءً وعطاءً من نفسه أو ماله، وكانَ يَتَأَلَّفُ بِجُودِهِ قُلُوبَ النَّاسِ عَلَى الْإِسْلَامِ.

● روى البخاريُّ ومُسلمٌ عن ابنِ عَبَّاسٍ قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ، وَكَانَ جِبْرِيلُ يَلْقَاهُ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي رَمَضَانَ، يَغْرُضُ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ الْقُرْآنَ، فَإِذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ كَانَ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ.

● وروى مسلمٌ عن أَنَسٍ، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، فَاتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: أَيُّ قَوْمٍ، أَسْلِمُوا، فَوَاللَّهِ إِنَّ مُحَمَّدًا لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ.

● وروى البخاريُّ عَنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ: بَيْنَمَا هُوَ يَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَقْفَلُهُ مِنْ حُنَيْنٍ، فَعَلِقَتْ الْأَعْرَابُ يَسْأَلُونَهُ، حَتَّى اضْطَرَّوهُ إِلَى سَمْرَةَ فَحَطَفَتْ رِدَاءَهُ، فَوَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ:

«أَعْطُونِي رِدَائِي، لَوْ كَانَ لِي عِدْدُ هَذِهِ الْعِضَاهِ نَعَمَ لَقَسَمْتُه بَيْنَكُمْ، ثُمَّ لَا تَجِدُونِي بِخِيَالًا وَلَا كَذُوبًا وَلَا جَبَانًا».

سَمْرَةَ: أَي: شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرِ الطَّلْحِ.

العِضَاهُ: الشَّجَرُ الَّذِي لَهُ شَوْكٌ.

فَيَحْسُنُ بِحَامِلِ الرِّسَالَةِ أَنْ يَتَأَسَّى بِالرَّسُولِ ﷺ فِي جُودِهِ وَسَخَائِهِ تَأْلِيفًا
لِلْقُلُوبِ عَلَى الْإِلْتِمَامِ بِالْإِسْلَامِ، أَوْ قَبُولِ الدُّخُولِ فِيهِ .

القاعدة الحادية والخمسون: «عَلَى حَامِلِ الرِّسَالَةِ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ أَنْ
يُقَدِّمَ فِي أَكْثَرِ أَحْوَالِهِ الْبِشَارَةَ عَلَى الْإِنذَارِ، وَأَنْ يَضْرِبَ عَلَى أُوْتَارِ الطَّمَعِ بَثْوَابِ
اللَّهِ الْجَزِيلِ، قَبْلَ أَنْ يَضْرِبَ عَلَى أُوْتَارِ الْخَوْفِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ فِي نَفْسِهِمْ،
حَتَّى إِذَا يَبِينُ مِنْ اسْتِجَابَةِ الْمَدْعُوبِينَ وَظَهَرَ لَهُ عِنَادُهُمْ وَكُفْرُهُمْ، رَكَزَ عَلَى
تَوْجِيهِ الْإِنذَارَاتِ وَالتَّحذِيرَاتِ لَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَنَقْمَتِهِ فِي الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ،
عَلَى مِقْدَارِ مَا يَرَى مِنْ عِنَادِهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ .

ومهما وَجَدَ لَدَيْهِمْ وَلَوْ قَلِيلاً مِنْ لِينِ الْجَانِبِ نَحْوَ قَبُولِ الْحَقِّ، فَحَاحَ لَهُمْ
أَبْوَابَ الطَّمَعِ بِغُفْرَانِ اللَّهِ وَعَفْوِهِ، وَقَدَّمَ لَهُمُ الْبُشْرِيَّاتِ الْمُرْتَبِطَةَ بِإِيمَانِهِمْ
وَاتْبَاعِهِمُ الْحَقَّ» .

الشرح:

من استقراء وَسَبَرِ معاني التُّصُوصِ الْقَرَأْنِيَّةِ الَّتِي جَاءَ فِيهَا اسْتِعْمَالُ مَا دَتِي
التبشير والِإِنذَارِ تَبَيَّنَ لِي مَا يَلِي:

الأول: جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ «ثَلَاثَةٌ عَشْرَ نَصًّا» قُدِّمَ فِيهَا التَّبَشِيرُ عَلَى
الِإِنذَارِ، مِثْلَ: «بَشِيرًا وَنَذِيرًا - مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا - مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ» .

الثاني: جَاءَ فِي نَصِّينِ فَقَطْ تَقْدِيمِ الْإِنذَارِ عَلَى الْبِشَارَةِ، إِذْ رُوِيَ فِيهِمَا
حَالِ أَكْثَرِ الْقَوْمِ الْمَخَاطِبِينَ الَّذِينَ يَغْلِبُ فِيهِمُ الْكُفْرَةُ .

الثالث: جَاءَ فِي (٣١ نَصًّا) ذَكَرُ الْإِنذَارِ دُونَ الْبِشَارَةِ لِأَنَّ الْمَتَحَدِّثَ
عَنْهُمْ كَفَرُوا عَلَى الْكُفْرِ، أَوْ عَانَدُوا وَأَصْرُوا عَلَى الْكُفْرِ، وَصَارَ إِيْمَانُهُمْ
مَيْتُوسًا مِنْهُ، فَلَا يُلَايِمُهُمْ مِنَ الرِّسَالَةِ إِلَّا الْإِنذَارُ .

من هذا الاستقراء مَعَ سَبَرِ المعاني يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي الدَّعْوَةِ
إِلَى اللَّهِ وَالتَّضْحِيقِ الْإِرْشَادِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ الْعَمَلُ بِهَذِهِ
القاعدة .

* * *

الفصل الثاني

آفات حملة الرسالة

وفيه مقدمةٌ وبيانٌ إحدى وعشرين آفةً خطيرةً:

الآفة الأولى: استخدام حمل الرسالة لمطالب الحياة الدنيا.

الآفة الثانية: الاهتمام بمراءات الناس للدعاية للشخص أو الحزب والجماعة.

الآفة الثالثة: إلهاء الجماهير بالظواهر والشكليات ذات البهرج.

الآفة الرابعة: الارتقاء على سُلّم تحطيم الآخرين من العاملين في حقول العمل الإسلامي.

الآفة الخامسة: الاهتمام بالتجميع الغوغائي للجماهير، دون العناية بالتربية الصحيحة.

الآفة السادسة: التدرُّب على ألوان المكر السياسي العالمي المخالف للإسلام.

الآفة السابعة: تأسيس ما يحمل ألقاباً فخمة تجمَعُ المتهافتين من غير المؤهلين.

الآفة الثامنة: تولية الجهلة المتكسِّبين الوظائف الدينية.

الآفة التاسعة: المداهنة ومتابعة حامل الرسالة لأهواء ذوي السلطان أو غيرهم.

الآفة العاشرة: ابتداع بدعٍ في الدين ما أنزل الله بها من سلطان.

الآفة الحادية عشرة: العناية والاهتمام بالتزام صغائر الظواهر.

الآفة الثانية عشرة: الاندفاع إلى الوقوع في تورّطات غير رشيدة لا يأذن بها الإسلام.

الآفة الثالثة عشرة: الغلو في الدين بتحريم ما لا تقوى الأدلة على تحريمه.

الآفة الرابعة عشرة: التهاون في الدين بتتبع الأقوال الضعيفة دون اجتهاد صحيح.

الآفة الخامسة عشرة: اعتبار الارتحال لأداء الرسالة بمثابة رحلاتٍ سياحيةٍ ونزهاتٍ رفاهيةٍ.

الآفة السادسة عشرة: عدم اتخاذ الخطوات المتدرّجة في الدعوة والإصلاح.

الآفة السابعة عشرة: الولاء للأشخاص أو الجماعات والطاعة العمياء ولو بمخالفة أحكام الدين.

الآفة الثامنة عشرة: استهواء المكان العالي لمشاعر حُبّ العلوّ في الأرض.

الآفة التاسعة عشرة: استخدام أسلوب الفظاظة والغلاظة والسباب والشتائم.

الآفة العشرون: ضعف الإرادة، وقلة الصبر على المكاره وأنواع الأذى.

الآفة الحادية والعشرون: اتباع الهوى الذي يجزّئ إلى السكوت عن الآثام والجرائم.

مقدمة

لكلّ أمة من الناس يجمعهم جامع فكريّ أو نفسيّ أو عمليّ آفاتٌ وأمراض قد يصابون بها، أو يصابُ بها أفرادٌ منهم، فيشوهون الصورةَ العامّةَ لهذه الأمة.

وحَمَلَةُ رسالة الدعوة إلى الله والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أُمَّةٌ مُتَمَيِّزَةٌ من الناس، يَجْمَعُهُمْ جامع الهدف الذي ينشدونه، وجامعُ القيامِ بأداء وظائفِ الرسالة الإسلامية التي حملوا أعباءها، مع الوحدة الدينيّة التي نظمت أفرادهم بنظامٍ واحد، وهم أيضاً أُمَّةٌ مُتَمَيِّزَةٌ بمقتضى قول الله عزّ وجلّ للذين آمنوا في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١١﴾ ﴾

وقد عرفنا في الباب الثاني من هذا الكتاب الصفات التي يجب أن يتحلّى بها حامل الرسالة الإسلامية، وعرفنا في الفصل الأول من هذا الباب الثالث القواعد العامّة التي يُطالبُ حامل الرسالة بأن يلتزم بمضامينها.

ولمّا كانت الآفات المرضيّة تأتي مضادّةً لعناصر الصّحة والسّلامة، فإنّ باستطاعتنا أن نستخرج من كلّ وصف يجب أن يتحلّى به حامل الرسالة، ومن

كل قاعدة يجب عليه أو ينبغي له أن يلتزم بمضمونها مضافاً يعتبر من الآفات المرضية، التي قد يُصابُ بها حامل الرسالة، وعليه أن يتخلَّص منها، أو من العيوب والنواقص التي ينبغي أن يكون بريئاً منها حتى يكون مؤهلاً للانخراط في سلك حملة الرسالة، واكتساب شرف الانتماء لهذه الأمة المتميزة من عموم جماعة المسلمين.

والآفات المرضية التي قد يُصاب بها حامل الرسالة الإسلامية المجيدة تجعله عنصراً ضاراً أو مُفسداً في مجتمعه وقُدوةً سيئةً، بدل أن يكون عنصراً نافعاً، وإماماً مُصلحاً، وداعياً هادياً رشيدياً، وقُدوةً حسنةً.

فعلى الدارس أن يعكس مرآة كل وصف سبق بيانه، وكل قاعدة سبق شرحها، ليرى الآفة المرضية أو النقيصة التي هي عكس صورة الوصف، أو عكس مضمون القاعدة، ونختصر بهذا بيان وشرح الآفات والأمراض والنقائص.

لكن تُوجد طائفة من الآفات والأمراض المنتشرة البارزة في هذه الأمة من الناس، فيجب التنبيه عليها، والتحذير منها على وجه الخصوص، ليعمل المخلصون الصادقون الغيورون على الإسلام والأمة الإسلامية كلها، على معالجتها بمختلف وسائل العلاج، رجاء البراءة منها، أو التخفيف منها إلى أدنى السبب، ورجاء انطلاق العمل الإسلامي سليماً معافى من الآفات والأمراض، حتى يكتب الله له الامتداد في القارات، والتوفيق والتأييد والنصر المبين.

وفيما يلي بيان طائفة مهمة من آفات حملة الرسالة:

شرح الآفات الخطيرات الآفة الأولى

اسْتِخْدَامُ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَالتَّصْحِحِ وَالْإِرْشَادِ وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَحَرَكَاتِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لِلْحُصُولِ عَلَى الْأَمْوَالِ وَالْمَنَاصِبِ وَالجَاهِ الْعَرِيضِ، أَوْ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ، أَوْ نَحْوِهَا مِنْ مَطَالِبِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَالشُّهُرَةِ وَالشَّنَاءِ.

وهذا داءٌ خطيرٌ قد يَقَعُ فِيهِ الْكثِيرُونَ مِنَ الْأَفْرَادِ، وَمِنَ الْمُنْظَمَاتِ الْأِسْلَامِيَّةِ، وَبِسَبَبِهِ تَفْسُدُ أَعْمَالُهُمْ الْكَثِيرَةُ، ذَاتُ الدَّعَاوِي الْجِهَادِيَّةِ، ثُمَّ تَكُونُ أَعْمَالُهُمْ ضَائِعَةً فِي الْهَوَاءِ، وَتَكُونُ ثَمَرَاتُهَا كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، إِذْ لَمْ تَكُنْ خَالِصَةً لَوَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، بَلْ كَانَتْ بِمِثَابَةِ أَقْنَعَةٍ وَحُجُبٍ تَسْتُرُ الْأَهْدَافَ الْحَقِيقِيَّةَ الْكَامِنَةَ فِي التُّفُوسِ.

وهذا الداءُ الدَّوِيُّ الَّذِي قَدْ يُسَبِّبُهُ فِي الْجَمَاعَةِ مُنْذَرُونَ مَخْفِيُونَ ذَوُورَ قِيَادَةٍ سِرِّيَّةٍ وَأَهْدَافٍ سَوْدَاءَ، فَيَقُودُونَ الْجَمَاعَةَ الَّتِي تَضُمُّ تَحْتَ لَوَائِهَا جُمْهُورًا عَظِيمًا صَادِقًا مُخْلِصًا، وَيَسْتَهْوُونَهَا بِالْمَنَافِعِ وَالْمَصَالِحِ، وَيَسْتَدْرِجُونَهَا بِالشَّعَارَاتِ وَالْعَوَاطِفِ وَالْإِنْفِعَالَاتِ، لِيُبَدِّدُوا جِهَادَ أَفْرَادِهَا الْعَظِيمِ، وَيَجْعَلُوهُ هَبَاءً مَنثورًا، مَعَ الدَّفْعِ بِهِمْ إِلَى مَذَابِحِهِمْ، بِأَيْدِي أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، وَيَنْطَلِقُ الضَّحَايَا بِقُوَّةٍ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُجَاهِدُونَ حَقًّا، وَيُحْسِنُونَ صِنْعًا، وَسَيَنْتَصِرُ الْإِسْلَامُ بِجِهَادِهِمْ.

ويتهافت بعض أصحاب الضمائر المريضة، على حمل مشعل الدعوة إلى الله والتصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، لأنهم يرون في حملهم لهذا المشعل ما يطمعون به من منافع دنيوية، مع جاه عريض، وتقدير وتمجيد من عامة المسلمين لهم.

ولدى الامتحان الحقيقي تنكشف سرائرهم، ويفضح أمرهم، وذلك حينما تكون لهم مصالح خاصة لأنفسهم، أو لذويهم من الأقربين، أو لأصحابهم وأنصارهم، أو للحزب الذي ينتمون إليه، أو للجماعة التي هم أعضاء فيها، فهم عندئذ ينصرون الباطل على الحق، والظلم على العدل، والشر على الخير.

وقد تراهم يزفون عقيرتهم بصياح مدوّ انتصاراً للحق، إذا رأوا في هذه المناصرة منفعة لهم من معانيم دنيوية، أو مجد وذكر حسن، وفي موقف آخر مماثل لا ينطقون بكلمة لنصرة الحق، بل ربّما داهنوا أصحاب الباطل وناصروهم، وكانوا شياطين خرساً، أو ناطقين، خوفاً على منافع نفوسهم، أو طمعاً في منافع يصيبونها، أو لا يجدون في مناصرة الحق مغنماً، أو يكون لهم في نصرة الباطل هوى.

فهؤلاء ليسوا بحملة رسالة صادقين، وإنما هم محتالون مخادعون، يضطادون منافعهم الدنيوية تحت قناع حملهم لرسالة الدين.

* * *

الآفة الثانية

الاهتمام العظيم بمراءات الناس، وتعظيم الإعلانات الإعلامية الدعائية، بغية الحصول على أثمان العمل من الذين تَخْدَعُهُمْ هذه الإعلانات الإعلامية، فيبذلون للمرائين بها الأموال والمناصب، ويكيلون لهم المدح والثناء، ويمنحونهم التعظيمات والتبجيلات الوافرات، ويروجون لهم في وسائل الإعلام، وقد يُعْطُونَهُم الجوائز التَّقْدِيرِيَّةَ والماليَّةَ.

فبينما يكون العمل الإسلامي لا يُساوي في مساحته الحقيقية مقدار أُمَّلَةٍ، يكون الإعلان عنه يملأ عَرْضَ الأفق، بُغْيَةَ استثمار المَصَالِحِ الدنيويَّةِ على مِقْدَارِ مَسَاحَةِ الإعلان الدعائي المالىء للأفق، لآ على مقدار مساحه العمل الحقيقي.

ومن وسائل الخِدَاعِ الدَّعَائِيِّ تجميع أنصار الشخص أو الحزب على مُحَاضِرَةٍ يُلقِيها الشخص، أو بَعْضُ قَادَةِ الحزب في حيٍّ من أحياء البلد. ثم تَكَرَّرُ هذه المحاضرة نفسها في حيٍّ آخر، ويَجْتَمِعُ عليه فيه الأنصارُ أَنفُسُهُمْ، ثُمَّ في حيٍّ ثالثٍ ورابعٍ وخامسٍ وهكذا.

وبهذا يَتَوَهَّمُ النَّاسُ أَنَّ المنتفعين بالمحاضرة أُلُوفٌ مؤلَّفةٌ في أحياء البلد، بينما أنصارُ الشخص أو الحزب هم الَّذِينَ يكررون أَنفُسَهُمْ في مُخْتَلَفِ الأحياء، وقد يُشَارِكُهُمْ من الحيِّ الجديد عَدَدٌ قَلِيلٌ.

* * *

الآفة الثالثة

إلهاء الجماهير بالظواهر والشكليات ذات البهرج البراق، والزُخْرَفِ المثير للدهشة، مع غَضُّ النظر عن البناء الجوهرى الحقيقي للأفكار والنفوس والقلوب، بالتريبة الصحيحة التي تَحْتَاجُ دَابًّا وَصَبْرًا وعملاً هادئاً صامتاً في الخفاء.

ومن إلهاء الجماهير عقْدُ المؤتمرات الإعلامية، وتأسيسُ الدوائر الدعايية، والجعجعةُ الكبيرةُ التي لا تنتجُ عنها نتائجُ نافعةٌ باقية، ولا تكونُ لها جدوىٌ حقيقية، بل تكونُ لها أصواتٌ عظيمة تنطلقُ ضائعةً في الهواء، وتُبرِّدُ حرارةَ أصحابِ الغيرة الصادقة على الإسلام والمسلمين.

وقد ينتجُ عن المؤتمرات الإعلامية، والدوائرِ الدعايية، توصياتُ تُسجَلُ على الأوراق، وتوضعُ في المصنّفات، وتوجّه لِمَنْ لا يريدُ العملَ بشيءٍ منها، فيزيمها في سلّة المهملات، ورُبّما تكون هذه المؤتمرات من توجيهه وصنعه لإلهاء الجماهير بها.

وربّما تكونُ المؤتمراتُ بمثابة حَقْلٍ اختبارٍ لكشفِ أصحابِ العملِ النافع، والرأي السديد، والتخطيطِ الرشيد، بُعْيَةَ عزْلهم عن كلِّ عملٍ قياديٍّ، أو إقامة العقبات في طريقهم، لئلا يصلوا إلى مركزِ قياديٍّ تنتجُ عنهم فيه أعمالٌ إسلاميةٌ صحيحة صادقة، ذات ثمراتٍ نافعاتٍ للإسلام والمسلمين.

وينطبقُ على هذه المؤتمرات الإعلامية، والدوائرِ الإعلامية، المثلُّ العربيُّ القائل: تَسْمَعُ جَعَجَعَةً وَلَا تَرَى طِحْنًا.

* * *

الآفة الرابعة

الارتقاء على سُلْمِ تَحْطِيمِ الآخِرِينَ مِنَ الْعَامِلِينَ فِي حَقُولِ الْعَمَلِ الإسلامي، والدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَالتَّضْحِ وَالْإِرْشَادِ، وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ.

ويكونُ تَحْطِيمُ الآخِرِينَ مِنَ الْعَامِلِينَ بِنَشْرِ مَعَايِبِهِمْ وَمَثَلِبِهِمْ، أَوْ بِتَعْظِيمِ صَغَائِرِهِمْ، أَوْ بِالْإِفْتِرَاءِ عَلَيْهِمْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، وَبِتَحْقِيرِ أَعْمَالِهِمُ الْإِسْلَامِيَّةِ الصَّالِحَةِ وَالِاسْتِهْانَةَ بِهَا، وَبِخَسِيسِهِمْ أَشْيَاءَهُمْ، وَيَكُونُ بِالْإِيْقَاعِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ

أَتْبَاعِهِمْ وَسَائِرِ النَّاسِ، لِتَخْذِيلِ الْأَتْبَاعِ عَنْهُمْ، وَتَقْطِيعِ حَبَالِ وَلَائِهِمْ لَهُمْ، وَالْغَرَضُ سَرِقَتَهُمْ وَضَمُّهُمْ إِلَى مُنْظَمَتِهِمْ، بَعْدَ إِفْسَادِهِمْ عَلَى أَوْلِيَائِهِمْ وَشَحْنِهِمْ بِالْكَرَاهِيَةِ وَالْبَغْضِ ضِدَّهُمْ، ثُمَّ مَعَادَاتِهِمْ وَمَحَارَبَتِهِمْ.

وهذا الداء الخبيث عماده الكذب والافتراء والبُهتان، والغيبة والنميمة، وإشاعة مقالة السوء ضد ذوي المكانات الاجتماعية الدينية الذين يستمع الناس لنصائحهم وإرشاداتهم، وبياناتهم الدعوية، وإلصاق التهم بمن لهم في أعين الناس فضل واحترام.

فإذا تدرّبت جماعة عمل إسلامي على هذا الأسلوب القذر، بُغية احتلال المناصب والمراتب، وسرقة الأنصار من أوليائهم، والظفر بثقة الناس بهم، ليمنحوهم التعظيم والإجلال والإكبار، والمنافع والأموال، فإنهم بذلك يركبون مراكب كبائر الإثم، تحت ستار التزام ظواهر شعائر الإسلام.

ويمضي عقد من الزمان أو أكثر فينقلب صغار الجماعة على قادتهم رغبة في احتلال مراكز القيادة، فيستعملون الوسائل السابقة نفسها ضد قادتهم، وعندئذ تقع الفرقة، ويضرب الله قلوب بعضهم ببعض، لأنهم سلكوا ابتداءً مسالك معصية الله عز وجل، تحت أفتنة العمل لنشر الإسلام وإقامة الحكم الإسلامي، ابتغاء الحصول على مطالب دنياهم، ويُداس المخلصون من أفرادهم ضحايا وهم لا يشعرون.

* * *

الآفة الخامسة

الاهتمام بالتجميع الغوغائي للجماهير، باستشارة عواطفهم وانفعالاتهم، دون ترسيخ العقائد، وتأصيل المعارف الإسلامية، ودون تزكية النفوس تزكية حقيقية، ودون تقويم الأعمال والأخلاق وفضائل السلوك الفردي والجماعي.

إنَّ تجميعَ جَمَاهِيرِ الناسِ تجميعاً غوغائياً، باستشارة العواطف والانفعالات، دُونَ الاهتمام بالبناء الحقيقي لكلِّ فردٍ بناءً إسلامياً صحيحاً متكاملًا، يُشبهه تجميع ذرّات بُرَادَةِ الحديدِ عَلَى اللاقطِ المغناطيسيِّ الكهربائيِّ، ففي اللَّحظةِ التي يتوقف فيها المددُ المغناطيسي تتساقط بُرَادَةُ الحديدِ عن اللاقطِ، وَيَكُونُ باستطاعةِ أيِّ لاقطٍ آخرٍ ملائمٍ لَهَا أَنْ يَلْتَقِطَهَا، وَيَنْقُلَهَا إِلَى حَقْلِهِ المعادي للإسلام والمسلمين.

أما التربية الإسلامية الصحيحة فهي تَهْتَمُّ ببناء الفرد بناءً إسلامياً فِكْرِيًّا وَنَفْسِيًّا وَقَلْبِيًّا وَسُلُوكِيًّا، وَضَمَّهُ فِي نظامِ جماعة المسلمين، وَعِنْدَئِذٍ يَرْتَبِطُ بِهِمْ مِنْ كُلِّ أركانِهِ الداخليَّةِ والخارجيةِ، ثُمَّ لَا تَمْلِكُ قُوَّةٌ أُخْرَى شَيْطَانِيَّةً مَهْمًا كَانَتْ حِيلُهَا أَنْ تَنْزِعَهُ مِنْ ذاتِيتهِ، وَلَا مِنْ الجماعةِ المسلمةِ الَّتِي أَصْبَحَ مُتَشَابِكًا بِهَا تَشَابِكًا متداخلاً، غَيْرَ قَابِلٍ لِلشَّقِّ طَوِيلًا وَلَا عَرَضًا.

إنَّ التجميعِ الغوغائيِّ العاطفيِّ والانفعالي لا يَمْلِكُ وشائجِ ارتباطِ متين، فهو غَيْرُ مُؤَهَّلٍ لِلْبَقَاءِ والدوامِ، بَلْ قَدْ يُسْرِعُ إِلَيْهِ الانشقاقُ وَالتَّمزُّقُ بَعْدَ زمنٍ قد لا يكون طويلاً.

* * *

الآفة السادسة

التدربُ عَلَى ألوانِ المَكْرِ السِّيَاسِيِّ الدكتاتوري أو الديمقراطي وَمُجَافَاةِ تعليماتِ الإسلامِ، فَكُلُّ مَنْ هَدَيْنَ المَكْرَيْنِ يَقُومُ عَلَى الكَذِبِ والغشِّ والنفاقِ والخِدَاعِ وَقَلْبِ حقائقِ الأمورِ، وَنَقْضِ العهودِ والمواثيقِ، وَالتَّزْوِيرِ وَالسَّطْوِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَالقَتْلِ ظُلْمًا وعدوانًا، وَاغْتِيَالِ الْأَمْنِينَ غَيْرِ المحاربينِ، لِلإرهابِ، وَاتِّخَاذِ الأنصارِ مِنَ المنتفعينِ والطَّامِعِينَ وَالمُنَافِقِينَ وَطُلَّابِ الدُّنْيَا، وَالتَّعَاوُنِ مَعَ الكُفْرَةِ والشياطينِ، وَلَوْ ضِدَّ المُنَافِسِينَ مِنَ المسلمينِ، وَاتِّبَاعِ مذهبِ

«مكيافلي» الداعي إلى أن الوصول إلى الغاية السياسيّة ظفراً بالحكم أو تبيّناً له، يُبرِّزُ كلَّ وسيلةٍ مهما كانت حقيرة وسيئة، ومنافيةً لفضائل الأخلاق، وساقطةً في رذائلها.

فمذهب «مكيافلي» في السياسة لا يعترف بالفضائل ولا بالأخلاق ولا بالأديان، ولا بالقوانين، وهو المذهب السائد المعمول به في عالم السياسة.

ومن تدرّب عليه ومارسه صارَتِ الرذائلُ جزءاً من كيانه الخلقِيّ والسلوكِيّ النفسيّ والظاهر، واستهوته الشياطين إلى كلِّ شرٍّ وضُرٍّ وفساد، ثم يخلعُ عنه بعد حين رداءه الإسلاميّ، لأنّ الرذائل الخلقية والسلوكية قد تَأَصَّلَتْ فيه، وارتبَطَتْ بها مصالحُه ومنافعُه ولذاتُه وشهوته وأهواؤه الدنيوية، فلا بدُّ أن يجدَ مَبْدَأَ آخرٍ مُلائماً لها غير إسلامي، حتّى يكون مُنْسَجِماً مع نفسه فِكْراً واعتقاداً وسلوكاً.

* * *

الآفة السابعة

تأسيسُ منظماتٍ ودوائرٍ ذواتِ ألقابٍ فخمة، تجمع المتهافتين من غير المؤهلين، وغير المؤمنين بالأهداف الإسلامية العظيمة المعلنّة.

فهي لا تلبثُ حتّى تتحوّل إلى أشباه تكايا تجمع في مكاتبها قابضي رواتب في آخر كلِّ شهر، دون أن تكون لهم أعمالٌ تتصلُّ بالأهداف الإسلامية العظيمة المعلنّة، والتي تتردّد شعاراتها كلّ حين في وسائل الإعلام.

وفي المناسبات العامة والتجمّعات والمؤتمرات يتهافتُ عليها مالئو كرّاسي موائد طعامٍ رفيّه، وشرابٍ لذيذٍ ثمين.

وتتمتليُّ كرّاسي اجتماعاتٍ تبادلِ الرأي قبل موائد الطعام أو بعدها،

بِالغَوَاثِيَيْنِ الَّذِينَ لَا شُغْلَ لَهُمْ إِلَّا الدَّعَايَةُ لِبَعْضِ الْأَفْرَادِ، وَالتَّوَقُّعُ عَلَى مَحَاضِرِ الْجُلُوسَاتِ إِذَا لَزِمَ الْأَمْرُ، وَرَفْعُ الْأَيْدِي عِنْدَ التَّصْوِيتِ الْإِنْتِخَابِيِّ، وَهُمْ يُعْطُونَ أَصْوَاتَهُمْ دَائِمًا لِلْحِزْبِ الَّتِي يَنْتَمُونَ إِلَيْهَا، أَوْ لِمَنْ يَرَجُونَ عِنْدَهُ لَأَنْفُسِهِمْ أَوْ لِذَوِيهِمْ مَنَافِعَ دُنْيَوِيَّةً أَكْثَرَ، وَمَصَالِحَ مَادِيَّةً أَوْفَرَ.

فَكَمَ مِنْ مُنْظَمَاتٍ كَبِيرَةٍ تَعَلَّقَتْ بِهَا آمَالٌ عَظِيمَةٌ لِمَجْدِ الْإِسْلَامِ وَنُصْرَةِ قَضَائِيهَا، وَنُصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ تَحَوَّلَتْ إِلَى تَكَايَا يَتَقَوَّتُ فِيهَا الْعَجْزَةُ، وَيَنْهَبُ ثُرَوَاتِهَا الشَّيَاطِينُ اللَّصُوصُ وَأَعْوَانُهُمْ.

* * *

الآفة الثامنة

تولية الجهلة المتكسبين وظائف الفتوى، والخطبة، والتدريس والإمامة، لتمرير ما يريدُ فساقُ الحكام دونَ اعتراض، أو ليكونوا الأصوات الناطقة بالتمجيد لهم وتثبيت سلطانهم.

وَحِينَ يَتَصَدَّرُ الْجَهْلَةُ الصَّغَارُ وَالْكَبَارُ، وَيَحْتَلُونَ مَرَاكِزَ الْعَمَلِ الْإِسْلَامِيِّ فِي الْمَجْتَمَعِ، دُونَ مَحَاسِبَةٍ وَلَا مُرَاقَبَةٍ لَهُمْ مِنْ أَحَدٍ، يَسْتَنْصِرُونَ بِاتِّبَاعِ جَاهِلِينَ أَمْثَالِهِمْ، وَيَكُونُونَ دَاخِلَ الْمَجْتَمَعِ حِزْبًا لَهُ قُوَّةٌ وَصَوْتُ يُدَوِّي، وَيَغْتَرُّ بِهِمْ عَامَّةُ الْمُسْلِمِينَ، فَيَتَّخِذُونَهُمْ عَنْ اقْتِنَاعِ رُؤَسَاءِ وَأَئِمَّةِ فِي الدِّينِ، وَيُصَابُ هَؤُلَاءِ الرُّؤَسَاءُ الْجَهْلَةُ - اسْتِعْلَاءً بِوِظَائِفِهِمُ السُّلْطَانِيَّةِ، أَوْ مَرَاكِزِهِمُ الْاجْتِمَاعِيَّةِ - بِعُقْدَةِ الْغُرُورِ وَالِاسْتِكْبَارِ عَنِ الْأَخْذِ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُتَمَكِّنِينَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ وَظَائِفٌ دِينِيَّةٌ ذَوَاتُ مُرْتَبَاتٍ مِنَ الدَّوْلَةِ، وَمَعَ عَقْدَةِ الْغُرُورِ الَّتِي يُصَابُونَ بِهَا، وَالْحَرِصِ عَلَى الْمَنَافِعِ الَّتِي يُصَيَّبُونَهَا مِنَ الدَّوْلَةِ، أَوْ مِنَ الْمَجْتَمَعِ الَّذِي وَثَّقَ بِهِمْ غُرُورًا، فَرَفَعَهُمْ إِلَى مَرَاتِبِ الْأَئِمَّةِ الَّذِينَ يَقْتَدِي بِهِمْ، يَتَوَرَّطُونَ، فَيُفْتُونَ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَجَهْلِهِمْ، فَيُضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ، وَهَذَا تَقَعُّ

طامةٌ كبرى يَنْجُمُ عنها تَحْرِيفُ في الدِّينِ بأذْهَانِ العَامَّةِ ومفهوماتهم .

إنَّ الواحد من هؤلاء الأئمة الجُهلة المصنوعين زوراً، قد يَعْتمِدُ على حديثٍ قرأه في بعض كتب الحديث، لم يَفْهَمُ معناه فهماً صحيحاً، ولم يَجْمَعُ بينه وبين ما في القرآن والسنة من نصوص حول الموضوع نَفْسِه ليفهمها فهماً تكاملياً، فيُضدِّرُ برأيه الناقصِ حُكماً يَنْسُبُه إلى الدِّينِ، على خلاف ما عليه أئمةُ فُقهائِ المسلمين المجتهدين وعلمائهم الكبار، مُدَّعِيًا أَنَّهُ يَعْمَلُ بِحَدِيثِ الرَّسُولِ ﷺ، ثُمَّ يَتَطاول على فقهائِ المذاهب الإسلاميَّة، فيَشْتُمُهُمْ، ويتهمهم بالضلال عن الحق، وقد يكفرهم، ويُلْحِقُ بهم في الكُفْر كُلِّ من يُقَلِّدُهُمْ ويقولُ برأيهم، ويضلُّ كُلَّ من يَعْمَلُ باجتهاداتهم .

ولو أَنَّهُ تَبَصَّرَ الأمرَ بفَهْمِ سَلِيمٍ، وَعِلْمِ بِأُصُولِ فهمِ النصوص، وَرَجَعَ إلى مناقشة علماء المسلمين المجتهدين المؤهلين للاجتهاد، حول موضوعه نفسه الَّذِي أَفتَى فيه برأيه الاجتهادي الناقص، لرأى أَنَّهُ قَدِ ارْتَكَبَ خطأً فاحشاً في الفهم، ولرأى أَنَّهُ قَدِ أَفتى بغيرِ عِلْمٍ، فَضَلَّ وَأضَلَّ، وَلَعَلِمَ أَنَّهُ قَدِ تَصَدَّرَ لأمرٍ ليس هو له بأهلٍ .

وَلْيَعْلَمَنَّ أَنَّ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ لا يَعْذَرُهُ فيما اجتهد فيه اجتهاداً خاطئاً، لأنَّهُ لم يكن يَمْلِكُ أهليَّةَ الاجتهاد ابتداءً، فليس من حَقِّهِ أن يجتهد أصلاً، حتَّى تُكوِّنَ لَدَيْهِ أهليَّةُ الاجتهاد بحيازةٍ وسائله .

إنَّ شَأْنَ مَنْ يَتَصَدَّرُ للاجتهاد في الدِّينِ والإفتاء فيه دون أن يكون أهلاً لذلك، كَشَأْنِ الْمُطَبِّبِ الَّذِي لا عِلْمَ له بالطبِّ، فيَصِفُ الأدوية للناس على جهلٍ، ويُدَاوِي المرضي بغيرِ عِلْمٍ ولا بصيرة .

إنَّهُ إذا استعمل دواءً تَسَبَّبَ في قَتْلِ من يُعَالِجُهُ من المرضي، كان بحكم الشرع مُجرماً قاتلاً، غيرَ مَعذُورٍ عند الله ولا عند الناس بِقَتْلِهِ للمريض .

على أَنَّ الحَظَرَ في الفتاوى الدينيَّة بغيرِ عِلْمٍ قد يكون أشدَّ من الفتاوى

الطبيّة، فبعضُ الفتاوى الدينيّة الضالّة قد تُسبّبُ الوقوعَ في الكُفْر والخلودَ في النار والعيادُ بالله، وهذا مِنَ الفتنة التي هي أشدُّ من القتلِ الَّذِي تسببه بعضُ الفتاوى الطبيّة.

* * *

الآفة التاسعة

المداهنة ومتابعة حامل الرسالة لأهواء ذوي السلطان والمال والأقارب والأصحاب والأنصار وللولاءات الحزبيّة، والرغبةُ في إرضائهم بالسكوت أو بإصدار الفتاوى المخالفة لحكم الله عزّ وجلّ.

ويستخدم حامل الرسالة المتَّبِعَ للهوى لِيّ أَعْتاقِ النصوص، وتفسيرها تفسّيرات باطلاتٍ لتزيين وتدعيمِ الفتاوى المخالفة لحكم الله عزّ وجلّ، حين يُصدِرُها.

فمن حملة الرّسالة الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الهَوَى فِي فتاواهم، من يُبيح بعض الأعمال الربويّة المحرّمة بلا شكّ، ويوجدُ لها تخريجات باطلاتٍ، إرضاءً للحكّام الكفرة، أو الفاسقين، حتّى يظفر منهم بِمَنْصِبٍ، أو يظفر بتثبيتِ فيه، أو بتيسيرِ مصالح مادّيّة له أو لذويه.

ومنهم من يتحايلُ على نصوص حجاب المرأة للتهوين من أمره.

ومنهم من يجعلُ الاشتراكيّة مِنَ الإسلام، ومنهم من يجعل الديمقراطية من الإسلام، مُتَحَايِلًا باستخدام النصوص الإسلاميّة التي تأمُرُ بالشورى.

ومنهم من يَنْقُضُ بعض أصول الدين أو بعض فروعها، ويُطلِقُ عباراتٍ تُخرِجُ من الإسلام إرضاءً للحكّام الكفرة، واستجابةً لاستهواءاتهم له، ولَمَّا يَبْدُلُونَهُ لهُ مِنْ مالٍ أو مَنْصِبٍ أو جَاهٍ أو كلامٍ معسولٍ، أو تمجيدٍ وتبجيلٍ وتعظيمٍ.

إلى غير ذلك من تهوُّك^(١) في الضلالة، وعَبَثٍ في أحكام الإسلام وشرائعه.

جاء في كتاب «الدعوة إلى الإصلاح» للإمام الشيخ «محمد الخضر حسين» شيخ الجامع الأزهر بشأن المداهنة قوله:

«فَمِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ يَرَىٰ ذَا جَاهٍ أَوْ رِيَاةٍ يَهْتِكُ سِتْرَ الْأَدَبِ، أَوْ يَعْتُو فِي الْأَرْضِ فِسَادًا، فَيَتَغَابَىٰ عَنِ سَفَهِهِ أَوْ بَغْيِهِ، وَيَطْوِي دُونَهُ التَّذَكْرَةَ وَالْمَوْعِظَةَ، ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، أَوْ حِرْصًا عَلَىٰ مَكَانَةٍ أَوْ غَنِيمَةٍ يِنَالُهَا لَدَيْهِ.

وَمِنْ الْبَلِيَّةِ أَنْ الْمَتْرَفِينَ وَمَنْ يَنْحُو نَحْوَهُمْ فِي الزَّيْغِ وَالغُرُورِ، لَا يَكْتَفُونَ مِمَّنْ يَسُوقُهُمُ الزَّمَنُ إِلَىٰ نَوَادِيهِمْ أَنْ يَسْكُتَ عَنْ جَهْلِهِمْ، وَيَتْرَكُهُمْ وَشَأْنَهُمْ، وَإِنَّمَا يُرْضِيهِمْ مِنْهُ أَنْ يُزَيِّنَ لَهُمْ سُوءَ عَمَلِهِمْ، أَوْ يَرْمُقُهُمْ بَعَيْنٍ مَكْحُولَةٍ بَتَبَسُّمِ الْاسْتِحْسَانِ، وَهُوَ أَقْلٌ شَيْءٍ يَسْتَحِقُّ بِهِ فِي نَظَرِهِمْ لَقَبَ: «كَيْسٍ ظَرِيفٍ».

والمداهنة خُلُقٌ قَدِرٌ، لَا يَنْحَطُّ فِيهِ إِلَّا مَنْ خَفَّ فِي الْعِلْمِ وَزَنَّهُ، أَوْ مَنْ نَشَأَ نَشَأَةً صَغَارٍ وَمَهَانَةٍ.

وهذا تاريخ العلماء الراسخين ناطقٌ بما كان لهم من الإقدام على وَعَظِ الْأَمْرَاءِ، وَالْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ إِذَا أَسَاءُوا وَالتَّصَرُّفِ أَوْ أَهْمَلُوا.

قال عزّ الدين بن عبد السلام للملكِ نجم الدين أيوب، في مجلس حافلٍ برجال الدولة:

(يَا أَيُّوبُ، مَا حُجِّبْتُكَ عِنْدَ اللَّهِ إِذَا قَالَ: أَلَمْ أُبَوِّءْ لَكَ مُلْكًا مِصْرًا ثُمَّ تُبِيحُ الْخُمُورَ؟!!).

فقال: هَلْ جَرَىٰ هَذَا؟

(١) التهوُّك: السقوط في الحفر.

فقال: (نعم، الحائنةُ الفلانيةُ يُباعُ فيها الخمر، وغيرها من المنكرات، وأنتَ تتقلبُ في نعمةِ هذه المملكةِ).

فقال: هذا أنا ما عملتُه، هذا من زمانِ أبي.

فقال: (أنتَ من الذين يقولون: إنا وجدنا آباءنا على أمةٍ!؟).
فرسمَ الملكُ بإبطال تلك الحائنةِ.

* * *

الآفة العاشرة

ابتدأ بدع في الدين ما أنزل الله بها من سلطان، افتراءً على الله وكذباً، أو تحريفاً وتحويراً في العبادات أو في الأحكام أو في العقائد.

فمن البدع طقوسٌ وأشكالٌ من عبادات لم ترد في كتاب الله، ولا في سنة رسول، كبعض أشكال الرقص الذي تتمايل فيه الأجساد، وتتقدم وتتأخر وتقفز، وتنثني إلى اليمين والشمال والأمام والوراء، وكالدوران ضمن ثوب يُشكّل مع الدوران صورة قمع مقلوب. فهذه لم تؤثر عن الرسول ولا أصحابه الكرام رضوان الله عليهم.

ومن البدع بعظيم أضرحة الموتى، وإقامة البنيان عليها، واتخاذها مزارات يُتبرك بزيارتها، وتقديم الصدقات والذبائح لها والطواف حولها، والعودة إلى ما يُشبه الوثنيات الجاهلية مع اعتقاد أن أرواح الموتى تنفعهم بهذه الأعمال، وهذا من الشرك أو مدخل إليه.

ومن البدع تعظيم الشيوخ بالركوع والسجود لهم، ومراقبتهم في حال غيبتهم كمراقبة الله عز وجل، وينجم عن هذه البدع الدخلية ما يشبه العبادة أحياناً، أو يشبه ما كان الأعاجم قبل الإسلام يعاملون به ملوكهم من ركوع

وسجود، وقد جاء الإسلامُ بمنع ذلك، تَحْرِيراً للعباد من عبادة العباد وربطهم بعبادة الله وَحْدَهُ لا شريك له .

* * *

الآفة الحادية عشرة

العناية والاهتمام بالتزام صفائر الظواهر، فعلاً لما ينبغي فعله وتركاً لما ينبغي تركه، مع ارتكاب كبائر الإثم من وراء الظواهر، كأكل أموال الناس بالباطل، وأكل أموال اليتامى، وأخذ الرشاوى، والتعامل سراً بالرِّبَا، والوقوع في الفواحش، والغيبة والنميمة، والإضرار بالناس، والإفساد بين المتأخين في الله، وعدم القيام بواجبات العمل الوظيفي، والجور في الحكم، ومنع الزكاة، ونصرة الأخ في الحزب ولو كان ظالماً ضدَّ صاحب الحق، واختيار غير الكفء للعمل الوظيفي من أعمال الدولة، لقراءة أو حزبية، وإبعاد الكفء ذي الدين المناسب للعمل، بالتلاعب بأوراق امتحان المسابقة، أو بترجيحه في المسابقة الشفهية بغير حق، أو نحو ذلك .

وهذه الكبائر التي تُرتكبُ تقترن من أصحابها غالباً بالمبالغة في التشديد على صفائر الذنوب، والتشنيع على مرتكبيها، مع اختلاف الفقهاء في تحريمها وعدمه، كإطالة الثوب إلى ما دون الكعبين دون كبر، وحلق اللحية أو تقصيرها، وعدم تغطية المرأة دائرة وجهها أمام الرجال الأجانب، وغايتها أنها من صفائر الذنوب .

وقد يتباهى بعضُ المُعْتَنِينَ بالظواهر بطولِ لحيته، ويمُنُّ بها على دين الله متفخراً بالتزامه بالسنة وبورعه، فإذا عاملته بالمال هضمَ حقك وسرقك، وتعلل بفتاوى ضعيفة ساقطة، أو تدرَّع بقانون الدولة، ورُبَّما يكون مع ذلك من مرتكبي كبائر الإثم سراً .

* * *

الآفة الثانية عشرة

اندفاع أصحابِ العواطفِ الإسلاميّة المتحمسين لحمل الرسالة الإسلاميّة، دُونَ قياداتِ إسلاميّة ذاتِ عِلْمٍ وَعَقْلِ وَحِكْمَةٍ وَرَوِيَّةٍ، منطلقين في تَوَرُّطَاتٍ بِأَعْمَالٍ قَوْلِيَّةٍ وَعَمَلِيَّةٍ غَيْرِ رَشِيدَةٍ تُوسِّمُ بِأَنَّهَا أَعْمَالُ إِسْلَامِيَّةٍ جِهَادِيَّةٍ، وَتُطَلِّقُ مَعَهَا شَعَارَاتٌ دَعْوِيَّةٌ أَوْ إِعْلَامِيَّةٌ تُوسِّمُ بِأَنَّهَا إِسْلَامِيَّةٌ جِهَادِيَّةٌ، وَتَثُورُ ثَوْرَتُهُمْ غَيْرُ الْوَاعِيَةِ مَحْفُوفَةٌ بِحِمَاقَاتٍ كَثِيرَاتٍ مَعَانِدَاتٍ لِسُنَنِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ، وَتَعْلِيمَاتِهِ فِي كِتَابِهِ.

وَيَجْرُؤُونَ مَعَهُمْ مَجْمُوعَاتٍ مِنَ الشُّبَّانِ الْمُسْلِمِينَ، إِلَى رَعُونَاتٍ قِتَالِيَّةٍ تَنْتَهِي بِحَصْدِهِمْ، أَوْ زَجَّهَمَ فِي السَّجُونِ، دُونَ تَحْقِيقِ ثَمَرَةٍ مَا فِي خِدْمَةِ الْإِسْلَامِ فِكْرًا أَوْ عَمَلًا، وَدُونَ مَدِّ لِلدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، بَلِ الَّذِي يَحْصُلُ هُوَ تَشْوِيهُ وَإِجْهَاضُ الْعَمَلِ الْإِسْلَامِيِّ، وَأَرْجَاعُ الْإِنْتِشَارِ الْإِسْلَامِيِّ إِلَى الْوَرَاءِ عَشْرَاتِ السَّنِينَ.

وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ كَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الرَعُونَاتِ الَّتِي تَحْمِلُ شَعَارَاتِ إِسْلَامِيَّةٍ مَذْفُوعًا مِنْ قَبْلِ أَيْدٍ خَفِيَّةٍ مِنْ أَيْدِي أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ وَأَعْدَاءِ الْمُسْلِمِينَ الْمَحَلِّيِّينَ أَوْ الدَّوْلِيِّينَ، وَتَغْرِيرِ الْمُنْدَفِعِينَ الْمَخْلَصِينَ، وَهُمْ يَخْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صِنْعًا.

وَكُلٌّ مِنْ تَتَبَعَ الْأَحْدَاثَ الْعَظْمَى، وَبَحَثَ عَنْ أَسْبَابِهَا الْخَفِيَّةِ، عَلِمَ أَنَّ وَرَاءَهَا مَكْرًا دَوْلِيًّا كُبْرًا، يُخَطِّطُ لَهُ دُهَاءُ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، وَتَتَوَلَّاهُ أَيْدِي أَجْرَائِهِمُ الْمُنْدَسِينَ.

* * *

الآفة الثالثة عشرة

الغلوّ في الدين بتحريم ما لا تقوى الأدلة الشرعية على تحريمه، مع التشدّد الزائد في التحريم، كأنه من الأمور المُجمَع على تحريمها، على الرغم من وجود خلاف كبير بين الأئمة المجتهدين، ومنهم من لا يزيد على أن يعتبره مكروهاً أو خلافاً للأولى.

كالتشدّد في تحريم ما كان من حُلِيّ الذَّهَبِ كالحلقة المفرغة على النساء، وكالتشدّد في تحريم النَّفْرِ من مزدلفة قبل أن يُصَلِّي الفجر فيها، وكالتشدّد في تحريم كشف وجه المرأة أمام الرجال الأجانب على الرغم من أمنِ الفِتْنَةِ، وكالتشدّد في تحريم استماع أيّ غناء، ولو كان خالياً من المعازف ولحون أهل المعاصي.

إنّ هذا الغلوّ المتشدّد في بعض أحكام الدين يُنقِرُ جماهير كثيرة عن الدين، إذ يُوقِعُهُم في حَرَج ارتكاب المحرّمات، وهم بحسب العادات السائدات في المجتمع لا يستطيعون اجتناب هذه الأمور، مع حرصهم الشديد على المحافظة على أركان الإسلام وفرائضه المجمع على فرضيتها، وحرصهم الشديد على اجتناب الكبائر والمحرّمات المجمع على تحريمها، ومع تحليهم بفضائل الأخلاق الإسلامية، واجتناب رذائلها، ومشاركتهم في كثير من النشاطات الإسلامية النافعة، كالجمعيات الخيرية التعليمية والتوجيهية والقائمة على مساعَدة ومعونة الفقراء والمساكين وذوي الحاجات، وطول أيديهم في فعل الخيرات والمبرات، وكثرة اجتهداتهم في الأعمال الصالحة.

* * *

الآفة الرابعة عشرة

التهاونُ في الدين، بتَّبَعِ الرَّحْصِ في المذاهب، دون النظر في الأدلة
باجتهادٍ صحيحٍ سليم، مِمَّنْ هُوَ مَوْهَلٌ للاجتهاد، وباعتمادٍ أضعفِ الأقوال
الفقهية الاجتهادية، لاستباحة ما يفتي معظم فقهاء المذاهب بتحريمِ فعلِهِ أو
تركِهِ .

وينشأ من هذا التهاون تتبُّعُ أضعفِ الأقوال المبيحة وأكثرها سقوطاً،
من أيِّ مذهب من المذاهب الاجتهادية، والذريعةُ لهذا التهاون الرغبةُ في
التيسير على الناس ورفع الحرج عنهم، ولكن ليس من حقِّ أحدٍ أَنْ يُغَيِّرَ في
أحكامِ التحليل والتحریم الشرعية بالهوى، أو بذريعة التيسير ورفع الحرج،
فيحلل ما حرّمه الإسلام بغير دليل يقوى على التحليل، كما أنه ليس من حقِّ
أحدٍ أَنْ يعلِّقَ في الدين فيُحرِّمَ ما لا يقوى الدليلُ على تحريمه .

إنَّ أحكام الإسلام الثابتة في القرآن مقرونةٌ باليسر ولا حرج فيها، فهي
لا تحتاج إلى تدخُّلٍ من أحدٍ .

إنَّ الغرضَ من التهاون في الدين التهربُ من التكاليف الإسلامية، مع
اتِّخَاذِ المعاذير والتعلّلات، بالاستناد إلى أيِّ قولٍ ضعيفٍ يجده في أيِّ
مذهب، متى كان له هوى في فعل العمل المحرّم، أو تركِ العمل الواجب .

وتبدؤُ خُطُورَهُ هذه الآفة حينما يُفتي حاملُ الرِّسَالَةِ النَّاسَ بأضعفِ
الأقوال، باعْتِبَارِهِ من حَمَلَةِ رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة النصح
والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيأخذُ المستفتون أقواله
بالتسليم الكامل، والعملِ بها على أنها من الدين حقاً .

* * *

الآفة الخامسة عشرة

اعتبار العمل الإسلامي لتبليغ الدعوة إلى الله، أو لتعليم أحكام الإسلام في البلدان النائية عن عواصم العالم الإسلامي الكبرى، بمثابة رحلاتٍ سياحية، ونُزُهاَتٍ رَفَاهِيَّةٍ وَتَسْلِيَّةٍ، فلا بُدَّ أن تَتَحَقَّقَ فيها وسائل الرفاهية التامة، كالتزولِ في فنادق الدرجة الأولى، والفُسْحِ في الجبال والحدائق والمنتزهات، والاطلاع على معالم المدن وآثارها، وحُضُورِ الموائد السخية التي تُقدَّم فيها الأطعمَةُ الشَّهِيَّةُ، والأشربةُ اللذيذة الفارحة، والتتقُّلُ بسيارات تشبه سيارات الوزراء والأمرء وأغنياء الشعوب.

ثم يكون للعمل الإسلامي من كلِّ الرُّحَلَةِ عددٌ من الخطب أو الدروس في بعض المساجد، التي لا يَجْتَمِعُ عليهم فيها إلا أفرادٌ قَلِيلُونَ، أو أَحَادِيثُ في مجالس مع بعض وُعاظِ أهل البلاد وطلّاب العلم فيها.

وقد تُنْفَقَ في بعض هذه الرُّحلات أجورٌ وتعويضات وبدلات تكفي لأن تكون رواتبَ شَهْرِيَّةٍ لمئاتٍ من حملة الرسالة المجاهدين من أبناء البلاد الذين يَنْشُرُونَ الإسلام، وَيُعَلِّمُونَ شرائعه وأحكامه بِصِدْقٍ وإخلاص، لمدة عامٍ كامل.

لكن الرّغبة في المنافع الشخصية من العمل الإسلامي، مع تحقيق الأهداف الإعلامية الدّعائية، مرضٌ يبَدِّدُ الأموال، ويُمَيِّتُ الجهود، ويُنْفسد النفوس، ثم لا يكون للعمل الإسلامي إلا النزُّ اليَسِير من النتائج المرجوة.

* * *

الآفة السادسة عشرة

عَدَمُ اتِّخَاذِ الْخَطَوَاتِ الْمَتَدَرِّجَةِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الدِّينِ، أَوْ إِصْلَاحِ الْبَعِيدِينَ عَنْهُ، الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ مِنْهُ إِلَّا كَلِمَةً لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، وَقَلِيلًا جَدًّا مِنْ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ، وَقَدْ انْتَشَرَتْ بَيْنَهُمُ الْبِدْعُ وَالْخِرَافَاتُ الَّتِي يَتَوَهَّمُونَ أَنَّهَا جِزْءٌ مِنَ الدِّينِ.

وَيَنْجُمُ عَنْ عَدَمِ اتِّخَاذِ الْخَطَوَاتِ الْمَتَدَرِّجَةِ الْحَكِيمَةِ مُوَاجَهَةَ أَبْنَاءِ الْبِلَادِ بِالشَّدَّةِ وَالْعَنْفِ، وَصَبَّ كُلِّ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعِهِ صَبَّةً وَاحِدَةً عَلَيْهِمْ، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا فِي تَنْفِيرِهِمْ.

وَيَنْجُمُ أَيْضًا مُحَارَبَةُ تَقَالِيدِ أَبْنَاءِ هَذِهِ الْبِلَادِ وَعَادَاتِهِمْ وَبِدْعَتِهِمْ وَخِرَافَاتِهِمْ، بِشِدَّةٍ وَعُنْفٍ وَقَسْوَةٍ فِي الْخَطَابِ، فَيَنْفِرُونَ، وَلَا يَسْتَجِيبُونَ، وَقَدْ يُقَاوِمُونَ وَيُحَارِبُونَ، وَيَنْظُرُونَ إِلَى الدُّعَاةِ الْهَادِيَةِ الْوَافِدِينَ إِلَيْهِمْ نَظَرَاتٍ كِرَاهِيَةٍ وَعَدَاءٍ، وَاتِّهَامٍ بِالْانْحِرَافِ عَنِ الدِّينِ الْحَقِّ الَّذِي وَرِثُوهُ عَنْ آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ، وَتَقَعُ الْخِصُومَاتُ، وَإِذَا كَانَ لِلوَافِدِينَ إِلَيْهِمْ بَعْضُ أَنْصَارٍ مِنْ أَبْنَاءِ الْبِلَادِ انْشَقَّتِ الصَّفُوفُ، وَتَقَاتَلَ الْقَوْمُ، وَنَجَمَ عَنْ سُوءِ التَّصَرُّفِ بِعَدَمِ اتِّخَاذِ الْخَطَوَاتِ الْمَتَدَرِّجَةِ عَوَاقِبُ وَخِيمَةٌ جَدًّا.

لَكِنْ لَوْ اتَّخَذَتِ الْخَطَوَاتُ الْمَتَدَرِّجَةُ الْحَكِيمَةُ الرَّشِيدَةَ، لَتَحَقَّقَ بِالصَّبْرِ الطَّوِيلِ، وَالْحِلْمِ، وَالْإِقْنَاعِ الْهَادِيءِ الَّذِي يَبْدَأُ مِنَ الْجَذُورِ فَالْشُّوقِ فَالْفُرُوعِ، مَعَ تَأْلِيفِ الْقُلُوبِ بِمَا تُحِبُّ الْأَنْفُسُ مِمَّا أَبَاحَ اللَّهُ، إِصْلَاحٌ كَثِيرٌ، وَلَوْ طَالَ الزَّمَنُ، فَالطَّرِيقُ الطَّوِيلُ الْمَوْصِلُ إِلَى الْهَدَفِ هُوَ الطَّرِيقُ الْأَقْصَرُ فِي الْحَقِيقَةِ، أَمَّا الطَّرِيقُ الْقَصِيرُ الْمُنْقَطِعُ الَّذِي لَا يُوصِلُ إِلَى الْهَدَفِ فَهُوَ أَطْوَلُ الطَّرِيقِ وَأَبْعَدُهَا فِي الْحَقِيقَةِ عَنِ تَحْقِيقِ الْمَقْصُودِ.

* * *

الأفة السابعة عشرة

بذُرُ بُرُورِ الْوَلَاءِ لِشَخْصٍ قِيَادِيٍّ، أَوْ لْجَمَاعَةٍ مَنْظَمَةٍ، مَعَ الْإِلْزَامِ بِالطَّاعَةِ الْعَمِيَاءِ لِمَقَرَّرَاتِ الْقِيَادَةِ وَأَوَامِرِهَا وَنَوَاهِيهَا، دُونَ اعْتِرَاضٍ، وَلَوْ خَالَفَتْ مَفْهُومَاتِ الْإِسْلَامِ الصَّحِيحَةَ الثَّابِتَةَ، وَأَوَامِرَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

وَيَلْزَمُ مِنْ هَذَا الْوَلَاءِ الْأَعْمَى، الَّذِي تُتَّخَذُ لَهُ ذِرَائِعُ تَرْبِيَّتِهِ وَتَحْسِنُهُ، أَنْ يَكُونَ الْوَلَاءُ لِلشَّخْصِ الْقِيَادِيٍّ، أَوْ لِلْجَمَاعَةِ الْمَنْظَمَةِ، مُقَدِّمًا فِي مَشَاعِرِ الْأَتْبَاعِ وَأَعْمَالِهِمْ عَلَى الْوَلَاءِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَلِلْإِسْلَامِ الْحَقِّ، وَالْوَلَاءِ الْعَامِّ لِلْجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ.

وَيَنْجُمُ عَنْ هَذَا الْوَلَاءِ الْجَانِحِ عَنِ الْحَقِّ وَالْجَائِرِ عَنِ صِرَاطِ الْهُدَى انْطِمَاسُ الْبَصِيرَةِ، وَبِانْطِمَاسِهَا تَنْعَدِمُ الرُّؤْيِيَّةُ، فَلَا يُفَرِّقُ ذُو الْوَلَاءِ لِشَخْصٍ قِيَادِيٍّ، أَوْ لْجَمَاعَةٍ مَنْظَمَةٍ ذَاتِ قِيَادَةٍ مَنْتَخَبَةٍ انْتِخَابًا دِيمُقْرَاطِيًّا عَلَى خِلَافِ مَنَهْجِ الْإِسْلَامِ، بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالصَّوَابِ وَالْخَطَأِ.

وَيَنْجُمُ عَنْهُ أَيْضًا تَعْطِيلُ مَحَاسَبَةِ الْقِيَادَةِ الْمَخْطِئَةِ، عَلَى أُسَاسٍ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، بِالرُّجُوعِ إِلَى فُقَهَاءِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَعِلْمَائِهَا.

وَيَنْجُمُ عَنْهُ أَيْضًا التَّسْلِيمُ الْأَعْمَى لِكُلِّ مَا تَأْمُرُ بِهِ الْقِيَادَةُ، أَوْ تَنْهَى عَنْهُ، وَلَوْ كَانَ فِيهِ قَتْلُ الْأَبْرِيَاءِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَمُخَالَفَةُ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعِهِ، وَلَوْ كَانَ فِيهِ إِفْسَادٌ فِي الْأَرْضِ وَأَتْهَامٌ لِلْبِرَاءِ الصَّالِحِينَ، وَتَجْرِيحٌ لِلْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ.

وَيَنْجُمُ عَنْهُ أَيْضًا الدَّفَاقُ الْكَامِلُ عَنِ كُلِّ تَصَرُّفٍ يَصْدُرُ عَنِ الْقِيَادَةِ، وَلَوْ كَانَ مَنَافِيًّا لِحُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

وَبِهَذَا الْوَلَاءِ الْجَائِرِ عَنِ صِرَاطِ الْحَقِّ وَالْهُدَى يَتَدَرَّبُ الْأَتْبَاعُ عَلَى أَنْ لَا تَكُونَ لَهُمْ مِشَارَكَةٌ فِي رَأْيٍ، أَوْ اعْتِرَاضٌ عَلَى تَصَرُّفٍ، وَأَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَالْإِمْعَةِ، مَقُودًا لِتَأْيِيدِ قَادَةِ الْجَمَاعَةِ الَّتِي مَنَحَهَا وِلَايَةَ الْكَامِلِ مِنْ مَقُودٍ وَوَلَايَةٍ، وَوَلَّيَتْهَا الْغِشَاوَاتِ عَلَى الْأَبْصَارِ تُقَدِّمُ لِلْسَائِرِينَ وَرَاءَ قَادَتِهِمْ بَعْضُ الْمَطَاعِمِ وَالْمِشَارِبِ وَالْمَنَافِعِ الَّتِي يَتَنَاوَلُونَهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ.

وَيَنْدَفِعُ الْآتِبَاعُ بِقُوَّةٍ، تُحَرِّكُهُمُ الْآمَالُ الَّتِي يَتَرَقَّبُونَ حَصُولَهَا، مَتَى ظَفَرَتِ الْقِيَادَةُ بِتَحْقِيقِ أَهْدَافِهَا، بِنَاءً عَلَى مَا تَلَقَّوْهُ مِنْ وَعُودٍ، وَمَا زَادُوا عَلَيْهَا مِنْ مَطَامِعٍ تَطْمَحُ نَفُوسُهُمْ لِلْحَصُولِ عَلَيْهَا.

يُضَافُ إِلَى كُلِّ مَا سَبَقَ مَا تُصَابُ بِهِ نَفُوسُ جَمَاعَاتِ التَّكْتُلِ النِّفْعِيِّ عَادَةً مِنْ دَاءِ التَّعَصُّبِ الدِّمِيمِ، الَّذِي أَصِيبَتْ بِمِثْلِهِ الشُّعُوبُ الْبِدَائِيَّةُ الْقَوْمِيَّةُ، وَالْقَبَلِيَّةُ وَالْأُسْرِيَّةُ، وَالتَّعَصُّبُ الَّذِي تُصَابُ بِهِ الْأَحْزَابُ السِّيَاسِيَّةُ، الْقَائِمَةُ عَلَى التَّرَابِطِ الْمَصْلِحِيِّ الدُّنْيَوِيِّ، وَالَّتِي تُخَادِعُ بِشَعَارَاتِ الْمَصْلِحَةِ الْعَامَّةِ لِلشَّعْبِ، وَالَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُعَادِي وَتُحَارِبَ التَّكْتُلَاتِ الْأُخْرَى، ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، وَتَفْتَرِي عَلَى أَفْرَادِهَا لِتَحْطِمْهُمْ، وَتُسَوِّهُ أَهْدَافَهَا، لِئَلَّا تَصِلَ إِلَى مَرَاكِزِ الْإِدَارَةِ وَالْحُكْمِ.

إِنَّ التَّنَافُسَ غَيْرَ الشَّرِيفِ هُوَ الْمَحْرُكُ الْأَعْظَمُ لِلْأَحْزَابِ النِّفْعِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ وَغَيْرِهَا، وَهِيَ بِأَبْنِيَّتِهَا الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ أَوْ الدِّيكْتَاتُورِيَّةِ، وَأَعْمَالُهَا غَيْرُ الْأَخْلَاقِيَّةِ، مُخَالَفَةٌ لِلْإِسْلَامِ وَمُبَايَنَةٌ لِأَحْكَامِهِ وَشَرَائِعِهِ وَأَهْدَافِهِ، فَالْجَمَاعَاتُ الَّتِي تَبْنِي نَفْسَهَا عَلَى مَنَاجِزِ الْأَحْزَابِ الَّتِي عَرَفَتْهَا الشُّعُوبُ غَيْرُ الْمُسْلِمَةِ جَمَاعَاتٌ لَا يُرْجَى مِنْهَا أَنْ تُحَقِّقَ أَهْدَافًا إِسْلَامِيَّةً صَحِيحَةً، لِأَنَّهَا قَائِمَةٌ عَلَى أُسُسٍ غَيْرِ إِسْلَامِيَّةٍ.

* * *

الآفة الثامنة عشرة

فساد نفس حامل الرسالة بسبب استهواء المكان العالي لمشاعر حُبِّ العلوِّ في الأرضِ لديِّها، إذ يرى أنه صار ذا مكانة مرموقة بين الناس، يحترِّمونه، ويعظمونه، ويقبلون يديه ورأسه، ويقدمونه في المجالس والموائد، ويمنحونه الهدايا والأموال، فتتعاظم نفسه، وينتفخ صدره، ويتحوَّل عن ابتغاء الآخرة إلى طلب الدنيا، ناسياً قولَ الله عزَّ وجلَّ في سورة

(القصص/ ٢٨/ مصحف/ ٤٩/ نزول):

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ

لِلْمُنْقِبِينَ ﴿٤٧﴾

وبسبب سُقُوطِ حَامِلِ الرِّسَالَةِ فِي هَذَا الْفَسَادِ النَّفْسِيِّ يَجِدُ نَفْسَهُ مُسْتَدْرِجًا إِلَى مَزَالِقٍ خَطِيرَةٍ جِدًّا، يَنْغَمَسُ فِيهَا بِأَوْحَالِ ذَوِي السُّلْطَانِ، أَوْ ذَوِي الْمَالِ وَالجَاهِ، وَيَسْتَمْرِيءُ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ، وَمَا يُصِيبُهُ مِنْ لَذَّةِ الْمَكَانِ الرَّفِيعِ بَيْنِ النَّاسِ، وَمَا يُصَاحِبُهُ مِنْ شَهَوَاتٍ وَلذَاتِ جَسَدِيَّةٍ، فَيَسْكُتُ عَنِ الْحَقِّ، لِثَلَا يُنَاصِبَهُ أَوْلُوا الْقُوَّةِ فِي الْمَجْتَمَعِ الْعِدَاءِ، فَيَعْمَلُوا عَلَى إِنْزَالِهِ عَنِ الْمَكَانَةِ الرَّفِيعَةِ الَّتِي جَذَّبُوهُ إِلَيْهَا، وَحَرَمَانِهِ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَاللذَّاتِ الَّتِي يُصِيبُهَا وَهُوَ فِيهَا.

ثُمَّ لَا يَزَالُ الْأَخْبَاتُ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ يَسْتَدْرِجُونَهُ، حَتَّى يَتَغَاضَى عَنْ كِبَائِرِ الْمَعَاصِي الَّتِي يَرْتَكِبُهَا كِبْرَاءً النَّاسِ، ثُمَّ يَزِيدُونَ فِي اسْتَدْرَاجِهِ حَتَّى يَخَالِطَهُمْ وَيَشَارِكُهُمْ مَعَاصِيَهُمْ فِي مَجَالِ السُّهُمِ الْخَاصَةِ.

ثُمَّ يَسْتَدْرِجُونَهُ إِلَى إِصْدَارِ فِتَاوَى بَاطِلَةٍ، يَفْتَرِيهَا عَلَى الدِّينِ، إِرْضَاءً لَهُمْ، وَهَذَا هُوَ الشَّرُّ الْعَظِيمُ الَّذِي قَدْ يَصِلُ إِلَيْهِ بَعْضُ حَمَلَةِ الرِّسَالَةِ، فَبَعْضُ الْمُسْتَدْرِجِينَ السَّاقِطِينَ فِي هَذِهِ الْأَوْحَالِ، إِذَا لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى أَنْ يَكُونَ مَجْرَدَ شَيْطَانٍ أُخْرَسَ، يَرَى الْبَاطِلَ وَلَا يَشْجُبُهُ، وَيَرَى كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَلَا يُنْكِرُهَا، وَيَرَى حُرْمَاتِ اللَّهِ تَنْتَهَكُ فَيَتَغَاضَى عَنْهَا، فَإِنَّهُ قَدْ يَتَحَوَّلُ إِلَى أَنْ يَكُونَ مِنْ جُنُودِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ يَرْتَدِي رَدَاءَ حَامِلِ رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَالنَّصْحِ وَالْإِرْشَادِ، وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ.

* * *

الآفة التاسعة عشرة

استخدام أسلوب الفظاظة والغلاظة والسباب والشتائم، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتّصحّح والإرشاد.

إنّ هذا الأسلوب من الأساليب المنفّرة المثيرة للغضب والكراهية والحقد والإصرار على الباطل والشرّ، ومن شأنه أن يبيّذ بزور الشقاق والعداء لحامل الرسالة وأتباعه المناصرين له، وهو يستثير المقصّودين وأنصارهم، ليقدّفوا الشتائم والاتّهامات الأشنع، وهم الأقدّر على إطلاق أقبحها وأزْدَلها من حملة الرسالة، ولا يكلفهم ذلك مشقّة علميّة، ولا تأمّلات فكريّة، ورُبّما دفعهم لالتّخاذ وسائل القمع بالقوى المسلّحة، ويجدون مُعظّم الجماهير تعذّرهم في ذلك.

إنّ أسلوب السباب والشتائم لا يسلكه إلاّ الأحمق العاجز عن تقديم البيان السديد المقنع، والحجج الدامغة، وهو من وسائل مقاومي دُعاة الحقّ، المرسلين والأنبياء وتابعيهم بإحسان، وليس من وسائل دُعاة الحقّ والناصحين المرشدين، والأمّرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

وأقرب الأشياء شَبهاً بالشتائم والسباب، عواء الكلاب، فالعاقِل من الناس لا يتخذ الشتائم والسباب من وسائله، ولا سيما لدى حملة رسالة الدّعوة والتّصحّح والإرشاد والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

أمّا الرّفق في الخطاب مكتوباً أو مقولاً، فهو الأرجح تأثيراً وقبولاً، ولا يستثير الغضب، بل قد يصل إلى القارئ أو السامعين، آمنّاً من صولة الباطل والمبطلين، وحمافة الحمقى وغضب الغاضبين.

* * *

الآفة العشرون

ضعف الإرادة، وقلَّة الصبر على المكاره، وتحاشي المواقف التي يُخشَى منها حُصول الأذى، في النفس، أو في المال، أو في الكرامة، أو في الأهل والأقربين، أو في الأنصار والأتباع.

فبعضُ حَمَلَةِ الرسالة يتقاعسون عن تَأْدِيَةِ وظائف رسالتهم الواجبة عليهم، مخافةً مُقَابَلَتِهِمْ بالاستهزاء والسخرية، أو بالإعراض عنهم، أو بالشَّعْبِ عليهم، أو مَخَافَةَ إِيذَائِهِمْ في بعض أموالهم، ورواتبهم التي يتقاضونها من الدَّوْلَةِ، أو مخافةً حِرْمانِهِمْ أو حرمان ذويهم من تسهيل المصالح التي لهم في دوائر الدولة أو وظائفها.

ويَعْقُلُ هؤلاء عن أن رسالتهم عُنُصْرٌ من عناصر الجهاد في سبيل الله، والجهاد لا بُدَّ أن يتعرَّضَ فيه المجاهد إلى أنواع من الأذى، فعليه أن يُوجِّهَ ذَلِكَ بالصَّبْرِ، وسَعَةِ الصَّدْرِ، وتَحَمُّلِ الأذى، واحتِسَابِ ذلك عند الله، وعليه أن يَضَعَ نُصْبَ عَيْنَيْهِ القُدْوَةَ الحسنة المثلَى، وهُمْ رَسُلُ الله عليهم السلام، وفي خاتمتهم إمامُهُمْ رَسُولُ الله محمد ﷺ، فَكَمْ واجَهَ من قومه من أذى في جَسَدِهِ ونَفْسِهِ، فتلقَى ذَلِكَ بالصَّبْرِ الجميل، وكان لا تزيده جهالتُهُمْ عليه إلاَّ حِلْمًا، وكان يأمرُ أصحابَهُ بالصَّبْرِ.

إنَّ الدَّاخِلَ في مَعْرَكَةٍ من معارك الجهاد في سبيل الله، لا يَصِحُّ له أن يَتَصَوَّرَ أَنَّهُ دَاخِلٌ في حديقَةٍ يَقْضِي فيها نُزْهَةً مُمْتَعَةً، وأنَّ سُبُلَهُ فيها مفروشةٌ بالورودِ والرَّيَاحِينِ، وأنه سَيَسْتَمْتِعُ فيها بتغريد الطيور، وتناولِ الثمار الطيبة اليانعة، والمطاعم اللذيذة، والجُلُوسِ على الأرائك الفارهة.

فعلى حامل الرسالة أن يُوطِّنَ نفسه ابتداءً على تحمُّلِ أنواعِ الأذى بالحلم والصَّبْرِ، وسعة الصدر، والعفو والصفح والتَّسَامُحِ.

* * *

آفة الحادية والعشرون

اتباع حامل الرسالة الهوى، بسكوتِه عن الآثام التي هو ساقطٌ فيها، ومرتكبٌ لها في سرِّه أو جَهْرِهِ، وبالتغاضي عن جرائمِ وآثامِ الأقاربِ والأرحامِ والأصحابِ والأحبابِ وجماعةِ الحزبِ .

ومن آتباع الهوى الشفقةُ على أَوْلاده، وأَهْلِهِ، وعلى من يُحِبُّ، ومن آتباع الهوى الخوفُ على المنافعِ والمصالحِ التي قد تُفوتُهُ إذا قال الحقُّ، أو نَصَحَ به .

إنَّ بعضَ حملةِ الرسالةِ تَجْعَلُهُ شَفَقَتَهُ على أبنائه وبناته يتغاضى عن ارتكابهم لكبائرِ الإثمِ، فيُخْرِسُهُ تَغَاظِيهِ هَذَا عَن إنكارِ المنكراتِ المماثلاتِ التي يرتكبُهَا الناسُ .

ويُحِبُّ بَعْضُ حَمَلَةِ الرِّسَالَةِ زَوْجَتَهُ فيتغاضى عن سفورها وتبرُّجها أمامَ الرِّجالِ الأجانِبِ، لأنَّهُ إذا مَنَعَهَا من ذلك، أو أمرها بالحجابِ الإسلاميِّ أَمَرَ إلْزَامَ أَغْضَبَهَا، فتجافَّت عن فراشه، وهو لا يتحمَّلُ أن يَجِدَهَا غاضِبَةً .

ويُحِبُّ بَعْضُ حَمَلَةِ الرِّسَالَةِ صَدِيقاً له، فيتغاضى عن كبائره وقبائحه لثلاثِ نَفْسُدَ علاقته به فيخسر صداقته .

ويكونُ لِبَعْضِ حَمَلَةِ الرِّسَالَةِ شريكٌ في تجارةٍ أو صناعةٍ أو زراعةٍ، فيتغاضى عن كبائره وقبائحه، لأنَّ شراكتَه تحقِّقُ له أرباحاً ومنافعَ دنيويةٍ .

ويكونُ لِبَعْضِ حَمَلَةِ الرِّسَالَةِ رَئِيسٌ في عَمَلٍ عامٍّ أو خاصٍّ، فيتغاضى عن كبائره وآثامه، لثلاثِ يَغْضَبُ مِنْهُ إذا نصحهُ أو أمرهُ بالمعروفِ ونهاه عن المنكرِ، فيؤذِيهِ في عَمَلِهِ، أو يصرِفُه عنه، وينسى أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين .

فعلى حامل الرسالة أن يحذر من هذه الآفة الشنيعة .

* * *

الباب الرابع

مناهج توصيل الرسالة

وسبلها ووسائلها وأدواتها

وفيه سبعة فصول:

الفصل الأول: التوجيه المباشر، والتوجيه غير المباشر.

الفصل الثاني: العقبات الصاداتُ للتوجيه وأساليبُ معالجتها.

الفصل الثالث: المنهاج البياني ومسالكه (الحكمة - والموعظة الحسنة - والجدال بالتي هي أحسن).

الفصل الرابع: وسائل الأداء البياني (الخطبة - الدرس - المحاضرة - الحديث والمحادثة - مجالس السؤال والجواب - الكتاب - المقالة - الشعر - القصة - التمثيل).

الفصل الخامس: أدوات التوصيل الإعلامي، ومسؤولية حملة الرسالة بالنسبة إليها.

الفصل السادس: المنهج الرباني للسياسة الحكيمة الموجهة للرسول ﷺ ولحملة رسالته من أمته.

الفصل السابع: المجتمع الإسلامي والمنكرات حمايةً وتغييراً.

الفصل الأول

التوجيه المباشر والتوجيه غير المباشر

وفيه مقدّماتٌ عامّاتٌ وثمانية مقولاتٍ حول وسائل التوجيه غير المباشر:

المقدّمات العامة: حول التعريف بالتوجيه المباشر والتوجيه غير المباشر وبيان واجب حَمَلَةِ الرسالة بالنسبة إليهما.

المقولة الأولى: البيان الكلاميُّ غير المباشر.

المقولة الثانية: القدوة الحسنة.

المقولة الثالثة: البيئة والرفقة الصالحة.

المقولة الرابعة: القصّة النافعة والمشاهد التمثيلية المفيدة.

المقولة الخامسة: القراءة الحرّة وأثرها.

المقولة السادسة: الترنيم والنشيد بطريقة إسلامية شكلاً ومضموناً.

المقولة السابعة: إدخال البيان الإسلاميّ ضمن العلوم المختلفة عند المناسبات الملائمات.

المقولة الثامنة: البثّ العرضيّ المفيد عند المناسبات الملائمات.

المقدمات العامّات

حول التعريف بالتوجيه المباشر والتوجيه غير المباشر وبيان واجب حَمَلَةِ الرسالة بالنسبة إليهما

التعريف:

يوجد طريقتان رئيسان لتأدية الرسالتين:

- رسالة الهداية بالدعوة إلى الإيمان بالله والإسلام له، والدعوة إلى سلوك سبيله، مع المتابعة بالتذكير والنصح والإرشاد.
- ورسالة الإصلاح والحماية بالنصح والإرشاد والأمر والنهي، مع المتابعة بالتذكير.

والطريقتان الرئيسان هما:

- ١ - طريق التوجيه المباشر.
- ٢ - وطريق التوجيه غير المباشر.

أولاً - أمّا طريق التوجيه المباشر:

فيكون بمواجهة من يُراد دَعْوَتُهُم وتذكيرُهُم، أو إصلاحُهُم وحمايتُهُم، بالمقصود الرئيسيّ مُباشرةً، دون أيّ تَوْرِيَةٍ، أو استخفاء، أو تَسْتُرٍ بأفكارٍ وحيَلٍ كلاميّةٍ تَدُلُّ بما فيها من تشبيه، أو مجازٍ، أو لوازمٍ فكريّةٍ، أو

إشارات، أو معارضٍ، أو أمثالٍ يُقاسُ عليها، أو غير ذلك، على المقصود الرئيسي.

فمن أمثلة التوجيه المباشر ما يلي:

١ - أن يقول الداعي إلى الإيمان بالله لمن يدعو من غير المؤمنين: أدعوك يا أخي في الإنسانية إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له، إذ هو الخالق الواحد، والرّبّ الواحد في الوجود كلّ، وهو الذي بيده الخلق والأمر وهو على كلّ شيء قدير.

وأدعوك إلى عبادته وحده، إذ لا نافع في الوجود غيره، ولا ضارّ في الوجود غيره.

ثم يقيم له الأدلة على ما دعاه إليه.

٢ - أن يقول الداعي إلى سلوك سبيل الله لمن يدعو من غير المسلمين: أدعوك يا أخي في الإنسانية إلى الإسلام لله واتباع ما جاء عنه، وسلوك صراطه المستقيم لتظفر بالنجاة من عذابه، وبالسعادة الخالدة في جنّات النعيم يوم الدين.

يا أخي في الإنسانية: إن الله عزّ وجلّ قد خلقنا في الحياة الدنيا ليمتحننا بالإيمان به وبما أنزل على رُسله، وبالإسلام له معلنين السَّمع والطاعة، وبالتزام سلوك صراطه المستقيم، الذي أنزله على رُسله، وفي خاتمتهم محمّد بن عبد الله ﷺ عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين أجمعين.

فمن آمن وأسلم لله، مُعلِناً السَّمع والطاعة، وأثبت اهتمامه بالتزام صراط الله، نجا وسعد، وظفر بجنّات النعيم يوم الدين.

ومن لم يُسلم ولم يُعلن السَّمع والطاعة عرض نفسه للخلود بالعذاب الأليم، في جهنّم وبئس المصير.

ومن أَسْلَمَ وأَعْلَنَ السَّمْعَ والطَّاعَةَ بِصِدْقٍ، إِلَّا أَنَّهُ أُسْرِفَ عَلَى نَفْسِهِ
بالمعاصي والمخالفات، اسْتَحَقَّ مِنَ الْعَذَابِ عَلَى مَقَادِيرِ مَعَاصِيهِ وَمَخَالَفَاتِهِ
ثم يكون مصيره إلى الخلود في جنّات النعيم.

ثم يقيم له الأدلة على ما دعاه إليه.

٣ - أن يقول حامل رسالة الإصلاح والحماية داخل المجتمع
الإسلامي، لمن يُوجّه له نُصْحَه وإرشاده، أو أمره ونهيه:

يا أخي المسلم: اتق الله، واحذر عقابه، واهجر ما أنت فيه من
المعاصي، أقم الصلاة، وآت الزكاة، وصم رمضان، وحج البيت إن استطعت
إليه سبيلاً، وَلَا تَقْتُلِ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا تَظْلِمِ أَحَدًا، وَلَا
تَأْكُلْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وَلَا تَسْرِقْ، وَلَا تَزْنِ، وَلَا تَفْعَلْ مِنَ الْفَوَاحِشِ
شَيْئًا.

وعلى هذه الطريقة يُوجّه نُصْحَه وإرشاده وأوامره ونواهيته، ويستدل لما
ينصح به، ويُرشد إليه، ويأمر به، وينهى عنه، بنصوص من القرآن والسنة،
ويستشهد ببشواهد ذات عظمة من قصص التاريخ.

هذه الأمثلة ونظائرها هي من قبيل التوجيه المباشر الذي لا توارى فيه،
ولا تستر.

* * *

مواطن وأحوال التوجيه المباشر:

والتوجيه المباشر في الكلام هو الأصل، وله النسبة الكبرى من كل
كلام، وهو أحد طريقي التوجيه الكلامي اللذين جاء في القرآن المجيد
استخدامهما.

وطريقة التوجيه المباشر طريقة نافعة في التعليم، وفي بعض الخطب

الوعظية العامة، وحلقاتِ التدريس والوعظِ العام، وفي نُصْح الأب لابنه، والأستاذِ المرَبِّي لتلميذه المطيع، ونُصْح كبير القوم لمن يَدِينُون له بالطاعة، وَيَسْتَجِيبُون لأوامره ونواهيه، ونحو ذلك.

ومن الأحوال التي يكون فيها الأسلوب المباشر السافر أوقع في النفوس، وأكثر تأثيراً فيها، وأنفع وأجدى، أو أكثر ضَبْطاً، الأحوال التالية:

١ - خطابُ الذين يَصْعُبُ عليهم الفَهْمُ بأسلوبٍ غير مباشر، كالصغار وضعفاء التفكير.

٢ - حينما يكون المخاطبُ في حالة انفعالية أفقدته الهدوء والصفاء الفكري، فالإنسانُ في مثل هذه الحالة لا يَرُوقُ له إلا الكلامُ الذي يَدُلُّ على المقصود بطريقة مباشرة.

٣ - لدى بيان الحقائق الكبرى العقديّة، كالكلام الذي يُحدِّدُ قضايا الإيمان، فهذه يجب فيها التصريح المباشر السافر، مثل: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسولُ اللهِ ﷺ، آمَنُوا بالله، وملائكته، وكتبه، ورُسُلُه، واليوم الآخر، وبالقدر خَيْرِه وشرِّه من الله عزَّ وجلَّ.

٤ - لدى بيان أركان الإسلام وأحكامه وشرائعه، فهذه يجب فيها التصريح المباشر السافر.

٥ - لدى بيان حقائق العلوم المختلفة، فهذه لا يَصِحُّ فيها إلا البيان الصريح.

٦ - لدى بيان المبادئ التي تُعَلِّمُهَا الشعارات، فهذه ينبغي فيها التصريح الذي يَدُلُّ على المعاني دلالة مباشرة سافرة.

٧ - لدى كتابة نصوص التشريع أو التقنين، فهذه يجب فيها التعبير

بالأسلوب المباشر السافر، لئلا يكون في الأفكار احتمالات تسمع بصرف الكلام عن دلالة المقصودة.

٨ - لدى التعبير عن الأحكام القضائية، فهذه يجب فيها أيضاً التعبير بالأسلوب المباشر السافر.

٩ - في معظم مواقف الدعاء لله عز وجل، مثل: رب اغفر لي، وارحمني، واهدني، وسددني، وعافني، وارزقني حلالاً طيباً مباركاً فيه.

ومن هذا قول موسى عليه السلام كما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

١٠ - في معظم صور التعليم لمسائل العلوم.

١١ - في ذرّوات التّعبيرات العاطفية.

ضرر التوجيه المباشر أحياناً:

وقد يكون التوجيه المباشر طريقة ضارّة منقرّة، فيجب حينئذٍ تحاشيها، وعدم استخدامها، بل يجب اللجوء عندئذٍ إلى استخدام إحدى البدائل من وسائل طريق التوجيه غير المباشر.

ومن الأحوال التي يضر فيها التوجيه المباشر إلى ما يلي:

١ - أن تقول لمن تدعوه إلى الإيمان بالله وإلى الدخول في الإسلام: أنت كافرٌ مجرمٌ ضالٌّ مضلٌّ ملعونٌ مطرودٌ من رحمة الله، في الدنيا والآخرة، وستظلّ كذلك، إذا لم تؤمن، ولم تدخل في الإسلام، ولم تهتمّ بالتزام صراط الله المستقيم.

٢ - أن تقول لمن تعلّم عنه أنه من مرتكبي الكبائر في نُضحك له:

أنت زانٍ، أنت لَصٌّ، أنت مُجْرِمٌ، أنت ضالٌّ مُضِلٌّ، فاتقَ اللهَ واهْجُرْ ما أنت فيه، وإلا أنزل الله بك عقاباً أليماً.

إنَّ مثل هذا التوجيه مخالف لمنهج الرسول ﷺ في نُصحه وإرشاده، وأمره ونهيه، فلقد كان من أدبهِ الرَّفِيع إذا ساءَهُ من بعض القوم معاصٍ ارتكبوها أن يقول: ما بالُ أقوامٍ يفعلونُ كذا وكذا، ولا يُواجه من أذنب بإعلانِ ذنبه، لثلاً يُخرِجُه، فينقُرُه، بل يسترُّه، ويتحدَّثُ عن عَصاةٍ ما بشكل عامٍّ، دون أن يفضَّح المذنب أو المذنبين بأعيانهم.

٣ - أن تقول مثلاً لِمَنْ في جسمه عَيْبٌ خَلْقِيٍّ، وأنت تُريد أن تنصحه بأن يسترَّ عيبه، بالكرم، وحسن الخلق، والاستقامة في سلوكه الخاص، وفي تعامله مع الناس: أنت أعمى، أنت أعور. أنت أكتع. أنت أعرج. أنت قبيح المنظر، فاسترَّ عيبك بكرمك، وحسن خلقك، واستقامتك في سلوكك.

٤ - أن تتخذ أسلوب الأمر والنهي دواماً، دون أن تغلفه بمقدمات عاماتٍ، ونصائح غير مباشرة، تُحضِرُ النفوسَ بها لتقبُّلِ الأمرِ والنهيِّ بقبولِ حَسَنٍ.

* * *

ثانياً - وأما طريق التوجيه غير المباشر:

فيكون بهداية من يُرادُ دَعْوَتُهُم وتذكيرهم، أو يُرادُ إِصْلَاحُهُم وحمایتهم بوسائلٍ غيرِ صريحه، إذ لا يبدو في ظاهرها المقصود الرئيسي، وإنما يأتي متوارياً، مستخفياً مستتراً بأفكارٍ وحيلٍ كلامية، أو حكايات أو أعمالٍ، تدلُّ بما فيها من تشبيه، أو لوازم فكرية، أو إشارات، أو معاريض، أو أمثالٍ يُقاسُ عليها، على المقصود الرئيسي، أو يستفادُ منها الدلالةُ على المقصود بالتوجيه له.

كالكنيات، ومعاريض الأقوال (إيَّاكَ أَعْنِي واسمعي يا جارة) ورواية

القصص، أو التوجيه لقراءتها، أو عرض مشاهدتها بالتمثيل إن أمكن دون ارتكاب معصية، والقدوة الحسنة المثيرة للإعجاب، والغَمْس في البيئة الصالحة، والصحة والرفقة، وحديث المتكلم عن نفسه، أو حديثه عن الغائب، والبتّ العرضي، وإدخال الفكرة المقصودة في ثنايا أفكار أخرى تَبْدُو أَنَّهَا هي المقصودة بالذات، لا ما جاء مندسًا فيها، أو متقرناً بها.

وطريقُ التوجيه غير المباشر هو طريقُ التعليم، والنُّصْح والإرشاد، والتربية، والتذكير، والموعظة العملية، التي ملأَ اللهُ الوجود المادّي بها، ونَبَّهَ عليها في كتابه المنزل على رسوله ﷺ.

● فمن التنبيه عليها تكليفُهُ عباده أن يتفكروا في خَلْقِ السماوات والأرض، وفي أنفسهم، لتدلّهم آيَاتُهُ التي لا يستطيعون حصرها، على صفاته الجليلة وأسمائه الحسنى، وأنه واحدٌ في ربوبيته، وفي إلهيته.

● وأرسل الله عزّ وجلّ لقابيل بعد أن قتل أخاه هابيل، واحترار كيف يوارى سواته، غراباً يبحث في الأرض، ليدفن فيها فتعلّم من الغراب دفن أخيه القتيل، قال الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُنَوِّتُ أَنْ يَكَفِّرَهُ كَأَنَّ الْمَاءَ كَانَ حُلًى وَمَا كُنَّا لِنَرَاهُ فِي مَقَامِكُمْ إِذْ دَفَنَتْهُ فَقَالَتْ إِحْيَاهُ فَتَلَبَّتْ بِرِجْلِهَا رِجْلَهُ فَبَدَأَ تَكَلِّمَهُ فَسَبَّهَا وَقَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَاءُ إِنَّكَ مُجُودٌ مُبِينٌ ﴿٢١﴾﴾

● وأبان الله عزّ وجلّ أنه ترك سَفِينَةَ نُوحٍ باقيةً مِنْ بَعْدِهِ، لتكون آيةً لمن يذكّر، فقال تعالى بشأنه في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٢٠﴾﴾

● وأبان الله عزّ وجلّ أن الرياح التي يُرْسِلُهَا تَحْمِلُ للناسِ ذكراً، فيه إعداؤٌ وفيه إنذار، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) بشأن الرياح:

﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١ ۝٢ ۝٣ ۝٤ ۝٥ ۝٦ ۝٧ ۝٨ ۝٩ ۝١٠ ۝١١ ۝١٢ ۝١٣ ۝١٤ ۝١٥ ۝١٦ ۝١٧ ۝١٨ ۝١٩ ۝٢٠ ۝٢١ ۝٢٢ ۝٢٣ ۝٢٤ ۝٢٥ ۝٢٦ ۝٢٧ ۝٢٨ ۝٢٩ ۝٣٠ ۝٣١ ۝٣٢ ۝٣٣ ۝٣٤ ۝٣٥ ۝٣٦ ۝٣٧ ۝٣٨ ۝٣٩ ۝٤٠ ۝٤١ ۝٤٢ ۝٤٣ ۝٤٤ ۝٤٥ ۝٤٦ ۝٤٧ ۝٤٨ ۝٤٩ ۝٥٠ ۝٥١ ۝٥٢ ۝٥٣ ۝٥٤ ۝٥٥ ۝٥٦ ۝٥٧ ۝٥٨ ۝٥٩ ۝٦٠ ۝٦١ ۝٦٢ ۝٦٣ ۝٦٤ ۝٦٥ ۝٦٦ ۝٦٧ ۝٦٨ ۝٦٩ ۝٧٠ ۝٧١ ۝٧٢ ۝٧٣ ۝٧٤ ۝٧٥ ۝٧٦ ۝٧٧ ۝٧٨ ۝٧٩ ۝٨٠ ۝٨١ ۝٨٢ ۝٨٣ ۝٨٤ ۝٨٥ ۝٨٦ ۝٨٧ ۝٨٨ ۝٨٩ ۝٩٠ ۝٩١ ۝٩٢ ۝٩٣ ۝٩٤ ۝٩٥ ۝٩٦ ۝٩٧ ۝٩٨ ۝٩٩ ۝١٠٠ ﴾

وقد جعل الله عز وجل طريق التوجيه غير المباشر متاحاً لجميع خلقه، الصغار منهم والكبار، القراء منهم والمتعلمين وغيرهم، حتى البهائم التي لم تُعْطَ الألسنة الناطقة، ولا العقول المفكرة، بل أعطيت ما تهتدي به إلى سُبُل حياتها ومعاشها، قال الله عز وجل في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ اللَّجَالِ يُونًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِّي مِن كُلِّ الشَّرْبِ فَاَسْلِكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

أي: وألهمها بوسائل التوجيه غير المباشر.

* * *

ميزات طريق التوجيه غير المباشر:

ولطريق التوجيه غير المباشر ميزات كثيرة، منها ما يلي:

١ - أنه كما سبق بيانه طريقٌ تستفيد منه الخلائق ذوات الحياة والإدراك كلها، على مقادير ما لديها من قدرات إدراك وذكاء، ومنها الحيوانات الدنيا في سُلْم الإدراك.

٢ - شعور الإنسان بأن ما يتوصل إليه به إنما اكتسبه بنفسه استخراجاً واستنباطاً، دون أن يُملِيه عليه أحدٌ، أو يُلْزِمه به أحدٌ، أو يستعلي عليه به أحدٌ، إذ هو يفكر وهو يستفيد معلوماته به بحرية، ويعمل بحرية، ولا يشعر بأنه مُكرهٌ، أو مكلفٌ، أو يأخذ ما يستفيدة من مُستعلٍ عليه بفضلٍ علمٍ أو خبرةٍ أو ذكاءٍ وفهمٍ.

٣- أن من شأن من يستخدم طريق التوجيه غير المباشر أن يتحاشى ويتفادى التصادم مع كثير من العقبات النفسية المختلفة .

والسبب في هذا أن العقبات النفسية قد تكون شديدة الصلابة في نفوس بعض الناس، فلا تَسْمَحُ بمرور توجيه آتٍ من شخص آخر .

لكنّ هذه العقبات يمكن تحاشيها، والمرور إلى داخل النفس من طرقاتٍ ومساربٍ أُخْرِي لا تقف فيها هذه العقبات الصّادات، ومن أهمّ هذه الطرقات والمسارب أنفاقٌ تدخلُ من خلالها المضامين الفكرية المقصودة بالتوجيه، دون أن تعرّضها العقبات القائمة في طريق التوجيه المباشر، أو أن تدخل مغلفةً بأغلفة لا تجدُ فيها العقبات ما يتنافى معها حتّى تعرّضها، أو أن تتسلّل إلى داخل النفس تسللاً خفيّاً، يشعر الإنسان معه أنّه هو الذي فكّر بنفسه، وهو الذي اختار بإرادته الحرّة، ولم يتلقّ الأفكار ولا الأوامر والنواهي من أحد، ولم يُلْزَمَ بالعمل من أحد .

إنّه بهذا ينخدعُ أو يخدعُ نفسه بتجاهله ليرضي غروره، إذا كان من أهل الغرور، ثم يسير بكلّ قوّته واندفاعه في الطريق التي دفعه إليها من وجهه بأسلوبه غير المباشر، ويظلُّ مع شدّة اندفاعه يتوهّم في قرارة نفسه أنّه يسير في طريقه بمحض اختياره، دون أن يؤثّر عليه مؤثّرٌ خارج عن كيان ذاته .

وقد استفاد شياطين الإنس والجنّ من طريق التوجيه غير المباشر فأضلّوا به خلائق كثيرين .

* * *

واجب حامل الرسالة :

فعلى حامل الرسالة أن يكون خبيراً بالنفوس الإنسانيّة، وأن يستخدم الطريق المباشر إذا كان هو الطريق الأجدى والأصلح لتحقيق المقصود، وأن يستخدم الطريق غير المباشر على اختلاف سببهِ، مُختاراً منها ما يراه أكثر

نفعاً، وأوصل إلى تحقيق المقصود، دون أن تصدّه عقباتٌ نفسية، رجاء أن يكون أداؤه لرسالته ذا تأثير كبير ونفع عظيم.

* * *

وفي المقولات التالية من هذا الفصل شرح لطائفة نافعة من سُبُل^(١) التوجيه غير المباشر، وهي ما يلي:

١ - البيان الكلامي غير المباشر.

٢ - القدوة الحسنة.

٣ - البيئة والرفقة الصالحة.

٤ - القصة النافعة والمشاهد التمثيلية.

٥ - القراءة الحرّة وأثرها.

٦ - الترنيم والنشيد بطريقة إسلامية شكلاً ومضموناً.

٧ - ادخال البيان الإسلامي ضمن العلوم المختلفة عند المناسبات الملائمات.

٨ - البثّ العرضي المفيد عند المناسبات الملائمات.

* * *

(١) اخترت أن أعتبرها سُبُلًا تفریقاً بينها وبين المناهج لأنّ المنهاج هو الطريق الواضح، أمّا السبيل فهو الطريق سواءً أكان ضيقاً أم واسعاً، ويطلق على الطريق في الأرض والجوّ والبحر والمادّي والمعنويّ، ومنه قول الله تعالى: ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي سُبُلَ رَبِّكَ ذُلُلًا﴾.

المقولة الأولى من سُبُل التوجيه غير المباشر

البيان الكلامي غير المباشر

البيان الكلامي المباشر هو البيان الذي تكون الدلالة فيه على المعنى المراد باللفظ الموضوع له لغةً، أو باللفظ الدال عليه في الاستعمال العام الدارج، أو باللفظ الدال عليه اصطلاحاً، عند أهل علم من العلوم، أو فن من الفنون، أو الدال عليه في الإصطلاح الشرعي.

أمّا البيان الكلامي غير المباشر فهو البيان الذي يُستخدم فيه التشبيه والتمثيل، أو الاستعارة، أو المجاز، أو الكناية، أو الإلماح، أو التعريض، أو فحوى الخطاب، بالمفهوم الموافق، أو المفهوم المخالف، إلى غير ذلك مما يُكتفى فيه بدلالة اللوازم الفكرية، ولا تكون فيه الدلالة على المعنى المراد بمنطوق اللفظ.

فالبيان الكلامي غير المباشر هو الذي يأتي متوارباً، أو مُستخفياً بأقنعة كثيفة، أو بأقنعة متوسطة الكثافة، أو بأقنعة رقيقة، تعطي جمالاً، ولا تحجب الرؤية عن قاصدها ذي النظر العادي.

وبالبحث والمقارنة نلاحظ أنّ مقادير التوارب، ومقادير طبقات الشُّنور، والكشافات في البيان الكلامي غير المباشر، تختلف، ونلاحظ أيضاً

أنَّ ما يكون شديد الخفاء منه عند بعض الناس، لا يكون كذلك عند آخرين ذوي فطنة وذكاء.

ومن الشُّتور الكلامية غير ذات الكثافة الشديدة، والتي يُدرِك متوسطو الذكاء أو من دونهم ما وراءها بسُهولة، سُتورُ التشبيه، والتمثيل، وبعض الاستعارات، والمجازات التي يكثر تداولها بين الناس، والكنائيات التي تَقَلُّ فيها اللوازم الفكرية.

وتزيد طبقات الشُّتور كلما بُعد التشبيه، وبُعِدَت الاستعارة، وبُعِدَ المجاز، وكثُرَت سِلْسَلَةُ اللوازم الفكرية.

والمعنى المدلول عليه بالبيان الكلامي غير المباشر له أربعة مستويات:

المستوى الأول: أن يكون معنى قَرِيبَ التناول، لا يحتاج إلى متابعة لوازم عقلية متعدّدة، مثل قولنا للدلالة على طول إنسان: لا يدخل الأبواب إلا إذا خفض رأسه، أو تقاصر بجسمه.

ويمكن أن نمثل لهذا المستوى بقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿... وَأَخْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٤٥)

أي: ويشبّههم على إحسانهم، ويُدخلهم جنّاتِ النعيم، لأنّ من أحبّه الله أكرمه، وأدخله في رحمته، فهذه من لوازم المحبة.

وبقول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) في بيان واجبات برّ الوالدين:

﴿فَلَا تَقُلْ لَّهُمَا أَيْ وَلَا نَهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (١٢٣)

أي: ولا تقلّ لهما ما هو أشدُّ من كلمة «أف» ولا تفعل فعلاً هو أشدُّ منها، وهذا يُفهم بدهاءة باللّزوم الذهني، لأنّ من نُهي عن القبيح الأُخف فهو

مَنْهِيٌّ عَنِ الْقَبِيحِ الشَّدِيدِ، وَالْقَبِيحِ الْأَشَدِّ، بِمَقْتَضَى اللَّزُومِ الْعَقْلِيِّ.

المستوى الثاني: أن يكون معنى متوسط البُعد، يُدركه الذهنُ دون تأمل عميق، وينتقل مع لوازم منطوق اللفظ إليه بغير مشقة فكرية.

مثل الكناية عن كثرة إطعام الضيفان عند البدو أن يقول قائلهم: «فلانٌ كثيرُ الرَّماد» أي: مضياف جواد، لأن كثرة الرَّماد عندهم من كثرة إيقاد النار، وكثرة إيقاد النار من كثرة الطبخ عليها، وكثرة الطبخ تدلُّ على كثرة الضيوف بحسب العادة.

المستوى الثالث: أن يكون معنى بعيداً، بسبب كثرة لوازمه العقلية، أو بسبب أن هذه اللوازم تحتاجُ إلى تعمُّقٍ في التفكير حتى يُدركها الذهن، وفي الغالب لا يُدركها إلا الأذكياء والعلماء.

ويمكن أن نُمثِّلَ لهذا المستوى بقول إبراهيم عليه السلام حين رفض عبادة الأصنام وكلِّ ما في الأرض، وبدأ يبحث عن ربه في السماء، كما أخبرنا الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ

الْأَفْلِينَ ﴿٦﴾.

أي: إن غياب الكوكب ظاهرة حدوث، وصفة الحدوث لا تكون من صفات الربِّ الخالق جلَّ وعلا، فالكوكب لا يصلح لأن يكون ربًّا، فأنا لا أحبُّ عبادة الأفلين، الذين ليس أحدٌ منهم يصلح لأن يكون ربًّا خالقاً، إنَّما أحبُّ عبادة ربِّي الحقِّ، الذي لا تعرِّضُ له عوارضُ الحدوث.

فجملته ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٦﴾﴾ في معرض الحديث عن الربِّ الخالق

تستدعي لدى أهل الفكر والنظر، وأذكياء التأملِ كُلِّ هذه اللوازم الذهنية العقلية المنطقية.

المستوى الرابع: أن يكون معنى يُلْمَحُ لَمَحًا، أو يُشَمُّ شَمًّا، وَيَتَطَلَّبُ إِذْرَاكَهُ حِسًّا مُرَهَفًا، وَمُمَارَسَةً لِإِذْرَاكِ مَشَاعِرِ النُّفُوسِ مِنْ وَرَاءِ تَعْبِيرَاتِ اللِّسَانِ.

وقد لا تظهر لوازم فكرية تدلُّ عليه، بل قد تكون الإشارة إليه من قرائن الأحوال، أو من التصريح بشيءٍ وعدم التصريح بقرينه أو مقابله، مع وجود الدواعي لهذا التصريح.

ويغملُ الذكاءُ وقُوَّةُ الحدسِ في هذا المجال لاكتشاف ما يختلج في النفوس من معانٍ لم يُفصِحْ عنها اللسان، لسببٍ من الأسباب، كالاستحياء، أو الكبر، أو العفة، أو الخوف، أو غير ذلك.

ونستطيع أن نمثّل لهذا المستوى الرابع بالأمثلة التالية:

١ - قول موسى عليه السلام بعد أن سقى لابنتي الشيخ الصالح عند ماء مَدْيَنَ، ثم تولى إلى الظلِّ، فيما حكاه الله عزّ وجلّ في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

يبدو لي أن موسى عليه السلام يشير في دعائه باستحياء إلى حاجته إلى الزوجة إشارة خفية لا تُعرَفُ إلا من قرينه الحال.

واستعمل الفعل الماضي «أنزلت» ثقةً باستجابة ربه لدعائه، وأن حاجته مقضية.

٢ - قول أيوب عليه السلام بعد أن طال به المرض ثمانية عشر عاماً: يا ربّ إنّي مسني الشيطانُ بنُصْبٍ وعذاب، قال الله عزّ وجلّ مبيناً دعاءه في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾

بُنْصِبٍ وَعَدَابٍ: أي: بتعبٍ وبلاءٍ ومؤلماتٍ جسديّةٍ ونفسيّةٍ، فهو في دعائه هذا يشير باستحياءٍ إشارة خفيّةٍ إلى طلب الشفاء، معللاً ذلك بأثر وساوس الشيطان في نفسه من جرّاء طولِ المرَض، فهذه الوسواس قد زادت متاعب جسده وآامه، وعذبت نفسه.

٣ - قول امرأة عمران حين وضعت جنينها الذي كانت قد نذرتة مُحَرَّراً لبيت المقدس، وكانت تنتظر أن يكون ذكراً، فجاء أنثى، وأسمتها مريم: «رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ» - «وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ».

قال الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ إِذْ قَالَتْ أَمْرَأْتُ إِمْرَانُ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾.

فهي تشير بقولها مع مساعدة قرينة الحال إلى مشاعر التّحسّر التي تشغل قلبها ساعتئذٍ، وتساءل في نفسها هل يقبلُ الله عزّ وجلّ هذه الأنثى في وفاءٍ نذرها بدّل الذّكر الذي كان في تصوّرها دون أن تجعله قيداً في عبارة نذرها، فاستجاب الله دعاءها:

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا . . . ﴿٣٧﴾ ﴾.

٤ - قول ذي النون عليه السلام وهو مُلتَقِمٌ في بطن فَم الحوت في دعائه لرَبّه: «لا إله إلاّ أنتَ سبحانكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْغُرِّ وَكَذَلِكَ نُصْحِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

لقد كان دعاء ذي النون توحيداً، وتسييحاً، واعترافاً بالذنب، إلا أنه يشير باستحياءٍ شديدٍ من طرفٍ خَفِيٍّ إلى طلب النجاة.

* * *

أمثلة عامة:

١ - إن دلالة تشبيه الرجل بالأسد على أنه رجل شجاع دلالة غير مباشرة، لكنّ هذا التعبير يدلُّ على شجاعته إذا انتقلنا من التشبيه إلى الغرض منه، وفهمنا هذا الغرض فهماً ذهنياً.

٢ - وإذا قلنا: إن فلاناً من الناس مكتبةٌ كبيرة، كان هذا القول دليلاً على أنه كثير العلم واسع الاطلاع، ولكن بدلالة غير مباشرة، إذ لا بُدَّ فيه من الانتقال من تشبيهه تشبيهاً بليغاً بمكتبة، إلى الغرض من هذا التشبيه البليغ، وبهذا الانتقال نفهم فهماً ذهنياً أنه كثير العلم واسع الاطلاع.

وحين يكون التعبير بأسلوب الاستعارة تكون كثافة السُّتُور أكثر، وخطوات الانتقال أكثر.

٣ - وإذا قلنا: فلان ذو قصر عظيم، كان هذا القول دالاً دلالة غير مباشرة، على غناه، أو أنه ذو مكانة رفيعة في قومه.

وهذه الدلالة قد توصلنا إليها بعد أن خطونا خطواتٍ ذهنية وراء اللفظ، وأدركنا باللوازم الذهنية أنه لو لم يكن غنياً أو ذا مكانة رفيعة في قومه، لم يستطع أن يتخذ لنفسه قصرًا عظيمًا.

فجاء التعبير كنايةً دالةً على هذا المعنى، دون أن يكون اللفظ دالاً عليه دلالة مباشرة، وهكذا كلُّ الكنايات.

٤ - وقول الله عزَّ وجلَّ بأسلوب الاستعارة المكنية خطاباً للابن في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ﴾ (٢٤)

فيه دلالة على وجوب أن يتذلل الابن لوالديه، إلا أن هذه الدلالة لا تُدرك بصورة مباشرة، وإنما تُدرك بعد التأمل التحليلي في هذه الاستعارة الممكنية، فالتعبير هو من قبيل البيان الكلامي غير المباشر، المُسوق بأسلوب جمالي بديع.

٥ - وقول الله عز وجل بأسلوب المجاز المرسل، يصف صنفاً من أصناف المنافقين، في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿...يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِثْلَ الصُّوْعِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ
بِالْكَافِرِينَ﴾ (١٩)

فيه دلالة على شدة الضغط على منافذ الآذان برؤوس الأنامل، لحجب صوت الصواعق عنها حذر الموت بالصوت العظيم، بالتعبير بوضع الأصابع بدل وضع رؤوس الأنامل في الآذان، المشعر برغبة واضعها في إدخال كل أصابعهم في آذانهم لو استطاعوا ذلك، حتى يحجبوا عنها صوت الصواعق حجباً تاماً.

لكن هذه الدلالة لا تُدرك من اللفظ بصورة مباشرة، وإنما تُدرك بعد التأمل التحليلي في هذا المجاز المرسل، والانتقال من ظاهر اللفظ، إلى الغرض من استخدامه بدل اللفظ الدال على حقيقة العمل، فهو إذن من قبيل البيان الكلامي غير المباشر.

٦ - وقول الله عز وجل في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا... ﴾ (٧)

فيه إسناد السيلان إلى الوادي، مع أن السيلان إنما هو للماء في الوادي، وبالتأمل تُدرك أن الغرض الدلالة على أن الذي يُشاهد تدفق ماء

السَّيْلِ المَالِيءِ للوَادِي يَشْعُرُ بِأَنَّ الوَادِيَّ كُلَّهُ يَجْرِي مَعَ السَّيْلِ .

لكنَّ هذه الدلالة لا تُدْرِكُ من اللَّفْظِ بصورة مباشرة، وإنَّما تُدْرِكُ بعد التأمُّلِ التحليليِّ في هذا المجاز الذي جرى في الإسناد، وبعد الانتقال من ظاهر اللَّفْظِ، إلى الغرض من استخدامه بدل اللَّفْظِ الذي يَدُلُّ على سيلان ماء السيل في الوادي، فهو إذن من قبيل البيان الكلاميِّ غير المباشر .

وعلى هذا النمط يجري تحليلُ كلِّ بيان كلاميِّ غير مباشر، إذا كان جارياً ضمن الأساليب البيانية المحمودة عند البلغاء .

فالبيان الكلاميُّ غير المباشر، هو البيان الذي يكون بالتعبير عن فكرة لتُفْهَمَ معها فكرةٌ أخرى، أو ليُفْهَمَ منها توجيه التعبير لغير من وُجِّه له في الظاهر، عن طريق اللوازم الفكرية القريبة، أو متوسطة القرب، أو البعيدة، أو شديدة البعد .

وهذا المعنى الآخر إنما يريد المتكلم الإشارة إليه من طَرَفٍ غيرِ ظاهر، ولا يريد التعبير عنه بأسلوبٍ مباشر، لغَرَضِ بيانيِّ جماليِّ، أو لغَرَضِ تربويِّ، أو لغرض إخفاء المراد عن غير من يُوجِّه له، إلى غير ذلك من أغراض يَقْصِدُهَا المتكلمون .

* * *

أغراض استخدام البيان الكلاميِّ غير المباشر :

مع ما في البيان الكلامي غير المباشر من دلالة على ذكاء من يستعمله، وقدرته على التصرفِ بفنون التعبير، ومع ما فيه من مجالٍ واسع لتفنن أدبيِّ لا حصر له من قبَلِ نوايغ الأدباء، وعباقرة البلغاء والشعراء، فهو مجالٌ لتحقيق أغراضٍ كثيرة، منها الأغراض التالية :

الغرض الأول: أن يكون المقصود بتوجيه الكلام ذا مكانة رفيعة في قومه، فهو يَكْرَهُ أن يوجِّه له الكلام ذو الدلالة المباشرة، في تعليمه، أو

دعوته إلى الحق والخير، أو نصحه وإرشاده، أو أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر.

فالأرجى لاستجابته أن يستخدم لهديته أو إصلاحه وحمایته البيان الكلامي غير المباشر.

الغرض الثاني: أن يكون المقصود بتوجيه الكلام من ذوي النفوس المصابة بداء الاستكبار والاستنكاف عن تقبُّل التعليم والدعوة المباشرة، والنُّصح والإرشاد والأمر والنهي.

فالأرجى لاستجابته أن يُستخدَم معه البَيَانُ الكلامي غير المباشر، لعله ينتفع بما يستنبطه هو بنفسه من لوازمه، ودلالاته البعيدة.

الغرض الثالث: إظهارُ الاحتفاءِ بذكاء من يُوجِّه له الكلام، أو بارتفاع منزلته الاجتماعية، والإشعار بأنه من الذين تكفيهم إشارات الكلام، وكنائياته، ورموزه البعيدة، وبأنه لا يحتاج إلى كلام ذي دلالة مباشرة.

الغرض الرابع: إرضاء الحسِّ الأدبيِّ لدى من يُوجِّه له الكلام، إذ هو من الذين يستمتعون بالكلام الأدبيِّ الرفيع الذي له دلالات رائعات غير مباشرات، ويحلُّو في نفوسهم ويستعذبون أن يخاطبوا به، ولا يكثرثون للكلام ذي الدلالات المباشرات التي لا تحمل مقاصد ذوات دلالات غير مباشرات.

الغرض الخامس: عدم مواجهة المخاطب بالتَّقدُّرِ الصريح، أو العتاب، أو التلويح.

الغرض السادس: إخفاء المراد عن جمهور المستمعين، وإشعار المخاطب وحده بالمراد عن طريق الرمز، لأغراضٍ سياسيَّة، أو عسكريَّة، أو تربويَّة، أو غيرها.

كما وقع في غزوة الخندق إذ بلغ الرسول ﷺ أن بني قريظة نقضوا عهدهم، فأرسل وفداً من الأنصار فيه، سيّدا الأوس والخزرج إلى كعب بن أسد القرظي، سيّد يهود بني قريظة ليستطلعوا الخبر، وقال لهم: انطلقوا حتّى تنظروا، أحقّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه، ولا تفتّوا في أعضاء القوم^(١).

وكذلك فعلوا لما علّموا أنّ بني قريظة قد نقضوا عهدهم حقاً، إنهم لما عادوا إلى رسول الله ﷺ، سلّموا عليه، ثم قالوا له: عضلٌ والقارة. ففهم الرسول ﷺ المراد، وعلم أنّ القوم قد غدروا كما غدرت عضلٌ والقارة بأصحاب الرجيع.

الغرض السابع: التوصل عن طريق اللّوازم العقلية إلى معانٍ قد لا يكون لها ألفاظٌ تدلُّ عليها دلالةً مباشرة.

الغرض الثامن: تزيين الكلام ليكون أكثر تأثيراً في نفوس المخاطبين.

الغرض التاسع: قد يكون الأسلوبُ غيرُ المباشر مُقرباً للفكرة الغامضة، أو مقدّماً لها مقترنةً بحجّتها المقنعة بها.

الغرض العاشر: إمكان التهرب من إرادة المعنى عند الإحراج، وذلك إذا كانت إرادتهُ تسوءُ المخاطبَ به، أو تسوءُ غيره من أئداده أو حسّاده أو غيرهم.

وفي كثيرٍ من الأحوال يكونُ خطابُ الناس بالبيان الكلامي غير المباشر هو الأجدى أثراً، والأكثر نفعاً، لأنّه أوقع في نفوسهم، وأكثر إرضاءً لغرورهم، أو أوفق لظروف الحال التي يكوّنون عليها.

ولكن لا يصحّ أن يكون كلُّ الكلام جارياً وفق أسلوب البيان الكلامي

(١) أي: تكلموا بالرمز ولا تتكلموا بصريح القول.

غير المباشر، إذ الأضلُّ في الكلام هو الأسلوبُ المباشر، وهو بمثابة الخبز الذي تُؤكل معه ألوان الأطحمة.

إنَّ السبيلَ غَيْرَ المباشر ينبغي أن لا يزيد في الكلام كثيراً، حتَّى لا يفقد الكلام قواعده وأركانَه الأساسيَّة، وينبغي أن يكون في غضون الكلام الجاري على أصله، وبمقدار الأغراض منه، وبمقدار الحليَّات التي تتزيَّن بها الحِسانُ عادةً.

* * *

المقولة الثانية
من سبل التوجيه غير المباشر

القُدْوَةُ الحسنة

- ١ -

فطرة التقليد

ينشأ النَّاشِءُ مفطوراً على اكتساب حركاته وأعماله وتصرفاته في الحياة بالمحاكاة والتقليد.

فالطفل - ذكراً كان أم أنثى - يُقَلِّدُ في بدء حياته أبويه في كل حركاتهما وأعمالهما وتصرفاتهما، فهو يكتسب بتقليدهما ما يلزمه لحياته العادية، وكل ما يُعْجِبُهُ من عِلْمٍ وسُلُوكٍ.

والتقليدُ أسرعُ وأيسرُ وسيلةً للتعلُّمِ العملي.

فإذا بدأ الطفل أو الطفلة بالتمييز أخذ الذكر يُقَلِّدُ أباه، في حركاته ولباسه وتصرفاته، وأخذت الأنثى تُقَلِّدُ أمَّها في حركاتها ولباسها وتصرفاتها.

ثم قد يلاحظ الناشئ الذكر في مجتمع الرجال من هو مثير لإعجابه أو إعجاب غيره في بيئته بحسن تصرفاته أكثر من أبيه، كأستاذه أو مُدِيرِ المدرسة، أو إمام المسجد، أو غير هؤلاء، فيحاول أن يُقَلِّدَهُ رجاءً أن يجتذب إعجاب الناس به.

وقد تُلاحظ الناشئة الأنثى في مجتمع النساء من هي مثيرة للإعجاب في مظهرها وتصرفاتها أكثر من أمّها، كمعلّمتها، أو مديرة المدرسة أو إحدى سيّدات بيّتها، فتحاول أن تقلّدها رجاء أن تنال إعجاب النَّاس بها.

وإذا كانت البيئة من البيئات التي يَرُوجُ فيها تمجيد المغنّين والمغنّيات، والراقصين والراقصات، والممثلين والممثلات، والمنحرفين عن صراط الله السَّويِّ والمنحرفات، وأشباه هذا الصنف من النَّاس، فإنَّ الأجيال الناشئة فيها تحاول أن تتطلع إلى هذا الصنف، ليختار كلُّ واحدٍ منهم من يراه النموذج الأمثل لتقليده، واتباع تصرّفاته واختياراته، مهما كانت فاسدة ضالّة مُضِلّة.

ويستمرُّ الإنسان مُتطلّعاً إلى تقليد المتفوقين النابهين، الذين يجدُّ في نفسه الاستعداد لتقليدهم ومحاكاتهم.

فدو ميّلي لكتابة الشعر، يُعجبه شعر بعض فُحول الشعراء المحمودين على ألسنة الناس، فيحاول أن يكتب شعراً على منهجه وأسلوبه.

وذو ميّلي لكتابة النثر، تُعجبه كتابة بعض كبار الكتاب المحمودين على ألسنة النَّاس، فيحاول أن يمارس الكتابة على منهجه وطريقته.

وذو ميل لأن يكون خطيباً يعجبه بعض مصاقع الخطباء المحمودين على ألسنة الناس، فيحاول أن يمارس الخطابة على منهجه وطريقته.

وذو قدرات جسديّة رياضيّة يعجبه بعض أبطال الرياضة المناسبة لاستعداده، فيُحاول أن يُمارس الرياضة على منهجه وطريقته، ويجتهد في التدرّب المضني عسى أن يكون بطلاً أولاً سبّق ما.

وبعض الناشئين يقلّد عابداً يشار إليه بالبنان، وبعضهم يقلّد زعيماً في لباسه ومشيّته وقصّة شعره وطريقته في شكل شاربيه.

إلى تقليدات غريبات عجيبات، ومن هنا نشأ التقليد في الأرياء بين الشعوب.

أما مَيَادِينُ التنافس والسِّبْق في الكمالات فالتقليد فيها محمود، لأنه أَيْسَرُ وَأَسْرَعُ وَسِيْلَةٌ لِلتَّعْلَمِ الْعَمَلِي.

ويشْتَرِكُ مع دافع التقليد الفطري دافعُ الْغَيْرَةِ من المقلِّد، والرغبة في منافسته وسبقه.

وقد يقلد الإنسان عدداً من الناس في خصائصهم لتكون له مِيزَةٌ جَمَعِيهَا إذا استطاع ذلك.

- ٢ -

أسباب تأثير القدوة

تأثيرُ الْقُدْوَةِ في الناس يرجع إلى عدّة أسباب يظهر منها الأسباب التالية:

السبب الأول:

رغبة الإنسان في تعلّم ما ينفعه في الحياة يُيسِّرُ وسهولة وسُرْعَةَ، فما يتعلّمهُ الإنسان بالمشاهدة والتقليد في يوم واحد، قد لا يستطيع أن يتعلّمه ببيان كلامي طوال شهر كامل أو أكثر.

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «خذوا عَنِّي مناسِككم» وقال بشأن الصَّلَاةِ: «صَلُّوا كما رأيتموني أصَلِّي».

ونلاحظ أنّ الْمِهَنَ جميعاً تُكْتَسَبُ بتقليد ذوي الخبرة فيها، وكذلك اللُّغَاتُ تُكْتَسَبُ بالتقليد منذ الطفولة الأولى، وكذلك مختلف الظواهر

السلوكية والعادات للمجتمع الذي يعيش فيه الإنسان .

وتتأصل الأعمال والعادات والتقاليد وسائر أنواع السلوك التي يكتسبها الإنسان بالتقليد من بيئته، حتى تكون جزءاً من ذاته، فيغدو من الصعب عليه جدّاً أن يتخلّى عنها، ولو كانت عاداتٍ وتقاليدٍ غيرَ صالحة .

ولهذا لما غلبتِ الحجّة العقلية مشركي القرون الأولى بأنّ ما هم فيه من شركٍ أمرٌ باطلٌ لا خيرَ فيه، ويُعرّضهم لعذاب الله الخالد يوم الدين، تذرّعوا لإصرارهم على الاستمرار بما هم فيه من شركٍ وأعمالٍ غيرَ صالحة بقولهم: «إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ» .

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزل) بشأنهم خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿١٣﴾﴾ .

على أمةٍ: أي: على دين، وسنة، وطريقة، وملة، فكلمة «أمة» تستعمل بهذه المعاني .

السبب الثاني:

فطرية حبّ الإنسان تقليد غيره إذا قام بعملٍ هو لا يُحسِنُه، وقد جاء شرح هذا في الفقرة الأولى .

السبب الثالث:

تفرض النماذج البشرية المثيرة للإعجاب تأثيراً قوياً على الجماهير من الناس، وهذا التأثير يُحرّك فيهم دوافع المحاكاة والتقليد، اقتداءً بالنماذج المتفوّقة التي أثارت إعجابهم، ولا سيّما إذا انطلقت السنة كثيرةً بالثناء على هذه النماذج، وتمجيد صفاتها، أو سلوكها، أو طرائق حياتها أو مفاهيمها وأفكارها .

ولهذا نجد الجماهير من الناس يتخذون من ذوي المكانات الحقيقية أو المزورة فيهم قدوة لهم، في أعمالهم وأقوالهم ومفاهيمهم وعقائدهم، ويتصورون الحق والخير ما هم عليه، ولا يقومون مكانتهم على أساس ما هم عليه من حق وخير.

ومن تقليدهم لذوي المكانة فيهم تسميتهم أبناءهم بأسمائهم، شعوراً بمجد الاسم المكتسب من مجد المسمى، وتيمناً بأن يكون أبناؤهم في المستقبل مثلهم في مكانتهم.

ومن هنا كان تأثير الشعوب الغالبة بالشعوب المغلوبة، فالشعوب المغلوبة تنظر إلى الشعوب الغالبة نظرة إعجاب وإكبار، ولو كانت تكرهها وتمقت تسلطها عليها، وبسبب نظرة الإعجاب والإكبار تحاول أن تقتدي بها، شعوراً منها بأنها إذا قلدتها استطاعت أن تساويها في القوة، فتكون لها نداء، ثم تعمل على أن تتفوق عليها، وتسبقها.

السبب الرابع:

التقليد محاكاة فيها معنى المنافسة التي يحبها الإنسان، إذ تُرضي أنانيته، بخلاف التعلم بالبيان الكلامي، والنصح والإرشاد والأمر والنهي.

- ٣ -

استغلال دعاة الشرّ دوافع التقليد في الناس

حين تكون القدوة أسوة سيئة، فإن تأثير التقليد والمحاكاة يكون تأثيراً ضاراً مُفسداً، وطريقاً قريباً سهلاً لوصول المقلّدين المقتدّين إلى دركات النقص التي انحدرت إليها أسوتهم السيئة.

وقد عرف دعاة الشرّ وشياطين الإفساد في الأرض ما للتماذج المحمودة

الممّجّدة بين الناس من تأثير على نفوس الجماهير، وهذا التأثير يدفعهم إلى الاقتداء بهم، واتّخاذهم أسوة لهم.

من أجل هذا أخذوا يصطنعون أمثلة بشرية ذات مفاهيم وعقائد باطلة، وأعمال ضالّة فاسدة ومُفسّدة، وأحاطوا هذه الأمثلة البشرية المصطنعة بالأصباغ والألوان الخادعة، وسلّطوا عليها الأضواء الإعلامية، ونشروا بين الناس حولها عبارات التمجيد والثناء، لإثارة الإعجاب بها في نفوس الجماهير، حتى تكون أسوتهم التي يقتدون بها.

ومن هذه الأمثلة البشرية المصطنعة أعلامٌ علمية ذات مذاهب هدامة، وآراء باطلة مزخرفة، فقد أحاطها المفسدون في الأرض بهالات التمجيد والإكبار، ليتخذها جماهير الناس أسوة لهم، يقتدون بها في آرائها ومذاهبها.

ومن هذه الأمثلة المصطنعة نجوم الفنّ والجمال والأناقة والغناء، من رجالٍ فاسقين، ونساءٍ فاسقاتٍ، ليكونوا أسوةً لجماهير الناس، يقتدون بهم في مظاهرهم وأنواع سلوكهم، حتّى في تفاهاتهم الخاصّة.

إلى غير هؤلاء وهؤلاء من أمثلة تزخر بها وسائل الإعلام المختلفة، حتّى أمست هذه الأمثلة هي الأسوة التي تقلّدها الأجيال الناشئة، مع كلّ ما فيها من سوء وشرّ وفساد وإفساد.

ولا يخفى أنّ الترويج لهذه الأمثلة وعرضها في أجهزة ووسائل الإعلام المختلفة، مقرونة بالثناء السافر أو المقنّع، يضع أمام جماهير الناس مادّة خطيرة لفتنتهم وإثارة إعجابهم.

ومع الإعجاب تتولّد رغبات المحاكاة والتقليد، فتكون هذه الأمثلة هي الأسوة المحبّبة التي يقتدون بها، ويترسّمون خطاها، من رجالٍ ونساءٍ، وفتيانٍ وفتيات.

ومما لا شك فيه أنّ الإنسان قد يسهلُ عليه التقليد، ولو كان فيه معنى الاتّباع، في الوقت الذي يصعبُ عليه تقبُّلُ النُّصح والإرشاد، وتقبُّلُ التكليفِ بالأمر والنهي، لأنّ التقليد محاكاةٌ فيها معنى المنافسة التي يُحبُّها الإنسان، إذ تُرضي أنانيته.

ولا يخفى أنّ النساء أكثرُ قابليّةً للاستهواء من الرجال، فهنَّ أسرعُ استجابةً لدوافع التقليدِ ومتابعة من يوضَعنَ قُدواتِ لهنَّ، ومن هنا تنتشر بسرُعةٍ بينهنَّ أحدثُ الأزياء وأنواع السلوك التي تُقدِّمُ لهنَّ في قُدواتِ مشهوراتِ في الفنِّ والأناقة، أو في أيِّ أمرٍ تتردّدُ الألسنةُ بالإعجاب به.

- ٤ -

واجب المسلمين عموماً وحَمَلَةَ الرسالة خصوصاً

وحين تكون القدوة أسوةً حَسَنَةً فإنَّ تأثير التقليد والمحاكاة يكون تأثيراً نافعاً مفيداً، وطريقاً قريباً سهلاً لوصول المقلّدين المقلّدين إلى مراتب الكمال التي ارتفعت إليها أُسوتُهُم الحسنة، إذ كان لدى المقلّدين استعدادٌ بفطرتهم، وصدّق بإرادتهم لبلوغ هذه المراتب، وإلاّ فيكفيهم أن يجتهدوا ليرتقوا في سلّم الكمال الذي ينشدونه، والله يُعطي كلاً منهم على مقدارِ اجتهاده واستعداده.

وقد بعث الله عزّ وجلّ في كلّ أمةٍ رسولاً، وجعله القدوة الصالحة لها، والأسوة الحسنة المثلى فيها، وجعل في الأمم السابقة بعد الرُّسل أنبياءً ليكونوا قدوة صالحة وأسوة حسنة لها ولمن يأتي بعدها، إذ جعلها نماذج بشرية حية كاملة، تُطبّق ما تدعوا إليه من إيمانٍ وحُلقٍ وعملٍ ظاهرٍ وباطنٍ، فكانت محمودةً في السماوات والأرض، ومُثيرةً في النفوس الإعجاب والإكبار.

واقْتَدَى بِهِمْ وَاهْتَدَى بِهَدْيِهِمْ أَصْحَابُ لَهُمْ وَحَوَارِيُّونَ، وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ
بِإِحْسَانٍ، فَكَانُوا لِلنَّاسِ أَسْوَةَ حَسَنَةٍ صَالِحِينَ وَنَمَازِجَ حَيَّةٍ يُقْتَدَى بِهَا.

ثُمَّ اصْطَفَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلرَّسَالَةِ الْخَاتِمَةَ أَفْضَلَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ،
وَأَكْمَلَهُمْ صِفَاتٍ وَسُلُوكًا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، فَكَانَ النَّمُوزُجَ الْأَمْثَلُ لِلْإِنْسَانِ
الْكَامِلِ، وَكَانَ الْقُدْوَةَ الْحَسَنَةَ الْمَثَلِيَّ لِلْمُقْتَدِينَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ الْمُتَمَقِّينَ
وَالْأَبْرَارَ وَالْمُحْسِنِينَ، مِنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ مِنْ بَعْدِهِ.

ولهذا أبان الله عز وجل للذين آمنوا أن رسوله محمداً أسوة حسنة لهم،
يقتدي به من كان يرجو الله واليوم الآخر، وذكر الله كثيراً، فقال تعالى في
سورة (الأحزاب/ ٣٣/ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ
كَثِيرًا ﴾

واصطفى الله عز وجل الأمة الإسلامية بعمومها لا بكل فردٍ من أفرادها،
فجعلها خير أمة أخرجت للناس، وقد ظهر هذا في الصفوة الممتازة من أهل
قرن الرسول ﷺ، فكانت النخبة المختارة من أصحابه أمثلة حية لمبادئ
الإسلام وأحكامه وأخلاقه وآدابه، وكانت هذه النخبة أسوة حسنة لغيرها
ولمن وراءها.

ولا تزال طائفة قلت أو كثرت من أمة محمد ﷺ على توالي العصور،
تتحلى بالصفات الإسلامية التي تجعلها قدوة حسنة للمتقين، وللناس
أجمعين.

فالأمة الإسلامية بمقتضى الاصطفاء الرباني لها مكلفة أن يكون
مجتمعتها على وجه العموم نموذجاً صالحاً وقُدْوَةً حَسَنَةً لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ،
بالتزامها العمل بشرائع الإسلام وأحكامه، وبتخلُّقها بأخلاق الإسلام، فإذا

تَحَقَّقَتْ بهذا كان حالها أُبَيِّن من كل بيانٍ قَوْلِيَّ يدعو إلى الدخول في الإسلام.

أما حَمَلَةُ رسالة الهداية، أو رسالة الإصطلاح والحماية، فهم مُكَلَّفُونَ أن يكونَ كُلُّ واحدٍ منهم نموذجاً صالحاً وأُسُوَّةَ حسنة لجميع المؤمنين المتقين، وأن يكونوا من الَّذِينَ ارتَقَوْا فوق مرتبة التقوى، وصاروا من أهل مرتبة البرِّ، أو أهل مرتبة الإحسان، في إيمانهم، وأخلاقهم، وأعمالهم ومعاملاتهم للناس، وأن يَتَحَلَّوْا بصفاتِ عباد الرحمن بوصفهم أُمَّةً للمتقين^(١).

ولا ينفع في هذا التظاهرُ ومראהُ الناس، فَنَوْبُ الرِّيَاءِ يَشْفُ عَمَّا تحته، ولا بدَّ أن يفتضح صاحبه يوماً ما، وتنكشف للناس حقيقته، ويظهر أنه كان يخادع الناس بمظهره، لأغراضٍ دنيوية، فمن أَسَرَ سريرةَ أَلْبَسَهُ اللهُ منها رداءً، ومن أخفى عن الناس معصيةَ سترَهُ اللهُ أولاً ليتوب، فإذا لم يَتُبْ واستمرَّ على تكرير معصيته فضَّحَهُ اللهُ.

ومن المؤسف أن يكون واقع حال معظم المسلمين منفراً من الإسلام، ومُبتعداً عنه، لعدم التزامهم بشرائعه وأحكامه وأخلاقه وآدابه وهم يتتمون إليه.

ومن المؤسف أيضاً أن يكون معظم حال الدُّعاة والناصحين المرشدين، حملة رسالة الهداية أو رسالة الإصلاح والحماية، غَيْرَ مُلتزمين بما يَدْعُونَ الناس إليه، أو أن يكون كثيرٌ منهم مرَّائين طلاباً دُنِيًّا يتظاهرون بحُسنِ الحال، وبأزياء الكمال، وهم على خلاف ذلك فيما يُخفون عن أعين جماهير الناس من سلوكهم، فلا يتحَقَّقُونَ بصفات المتقين، فضلاً عن أن يكونوا أبراراً أو محسنين.

(١) انظر ما يجب أن يتحلَّوا به في باب الصفات التي يجب أن يتحلَّى بها حملة الرسالة.

أهمية التربية بالقدوة الحسنة

ونظراً إلى أهمية التربية بالقدوة الحسنة أمر الله عز وجل رسوله محمداً ﷺ بأن يقتدي بهدي الرسل السابقين له، فقال تعالى له في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزل):

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَتْهُمْ أُفْتَدَةٌ قُلْ لَا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٥﴾ .

وقال له في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزل):

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ . . . ﴿٦٥﴾ .

وخطب رسوله والمؤمنين معه، بقوله في سورة (المتحنة/ ٦٠ مصحف/ ٩١ نزل):

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ . . . ﴿٤١﴾ .

وإذ جعل الله عز وجل نساء النبي ﷺ قدوة حسنة لساء المسلمين، شدد عليهن ترتيب العقوبة بمضاعفتها إذا أتت إحداهن بفاحشة مبينة ليحذرن فيحترزن من الاقتراب من المواطن المزلقة إلى الفاحشة، فيطهرهن الله بذلك تطهيراً عظيماً، كما جعل لهن إذا قنتن (أي: أطنن وخضعن وعبدن الله) وعملن صالحاً أجراً مضاعفاً، فقال الله عز وجل في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزل):

﴿ يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٥﴾ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِنَهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣٦﴾ يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَنْتَقِيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٧﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا

تَبَرَّجَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقَمْنَ الصَّلَاةَ وَآتَيْنَ الزَّكَاةَ وَأَطَعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
 إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأَذْكَرَ
 مَا يَسْتَلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ .

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا: أي:
 ما يريد الله بتوجيه هذه التكاليف المشددة، والوعيد المشدد، والإطماع
 بالأجر المضاعف، إلا العناية بكن، لتتقين الله باختياركن، فيذهب عنكن
 بذلك رجس المعاصي والفواحش يا أهل بيت الرسول، وليطهركم بذلك
 تطهيرا زائدا عن غيركن، حتى تكن قذوات لنساء المسلمين، فمن شأن
 المقتدى به أن يكون أعلى درجة من المقتدى.

إِنَّ الْقُدُورَةَ الْحَسَنَةَ وَظِيفَةَ إِمَامَةٍ لِلْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، وَمَنْ اخْتَلَّ
 مَرْتَبَةَ إِمَامٍ فَعَلَيْهِ أَنْ يَلْتَزِمَ بِوَأْجَابِ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ، وَإِذَا اخْتَلَّ بِهَا عَزَلْ عَنْهَا، وَإِذَا
 عَصَى مُعَاصِي تَخِلُّ بِحُقُوقِ مَرْتَبَةِ الْمُتَقِينَ ضُوعِفَ لَهُ الْعَذَابُ، كَمَا جَاءَ فِي
 تَحْذِيرِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ هُمْ أَئِمَّةُ الْمُتَقِينَ، مَنْ أَنْ يَقَعُوا فِي كِبَائِرِ الشَّرْكِ أَوْ
 الْقَتْلِ أَوْ الزَّوَانِي.

وَنَفْهَمُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ يَنْبَغِي لِنِسَاءِ حَمَلَةِ رِسَالَةِ الْهُدَايَةِ، أَوْ رِسَالَةِ
 النَّصْحِ وَالْإِرْشَادِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَنْ يَتَأَسَّيْنَ بِنِسَاءِ
 الرَّسُولِ ﷺ، فِي شِدَّةِ التَّزَامِيهِنَّ، لِيَكُنَّ قُدُورَةً صَالِحَةً لِنِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَنْ
 الْأَفْضَلُ أَنْ يَكُنَّ مِثْلَ أَزْوَاجِهِنَّ فِي حَمْلِ الرِّسَالَةِ بَيْنَ النِّسَاءِ وَمَوْهَلَاتِ
 لَهَا.

خاتمة:

فالقدوة الحسنة المعجبة، تكون في صورة داعٍ ناصحٍ مرشدٍ إمام، وفي
 صورة مجتمعٍ يُقدِّم في ذاته النموذج الأمثل للمجتمع الفاضل.

والقدوة الحسنة المعجبة في كلتا الصورتين تجذب النفوس والقلوب
للتقليد والاتباع، بمحاسن سلوكها الفردي والاجتماعي، وَبِعَيْشِهَا عَيْشاً رَاضِيّاً
هانئاً مستقرّاً آمناً سعيداً، وَتُهَيِّئُ قُدْرَاتِ الْآخَرِينَ التَّفَكُّرِيَّةَ للاقتناع بصحة
وسلامة المبادئ التي تُؤْمِنُ بها هذه القدوة، وأقومية المنهج الذي تسلكه،
فتؤثر بحالها تأثيراً غير مباشر.

* * *

المقولة الثالثة من سبُل التوجيه غير المباشر

البيئة والرفقة الصالحة

- ١ -

مقدمة

تُعَبَّرُ البيئةُ من أخطر وأعظم وسائلِ التوجيه غير المباشر، فمفاهيم البيئة الاجتماعية، وعاداتها، وتقاليدها، ومحابُّها ومكارهها، ومثيراتها، ومثبطاتها، وتطلُّعاتها تسري إلى كلِّ الناشئين فيها، أو المخالطين لها، مُتَغَلِّغَةً إلى أعماقهم، كما يسري الماء في التراب إذا تجاورا، وهم يمتصُّونها ويختزنونها في ذواتهم، بتلقائيةٍ ذاتيةٍ، دون أن يشعروا بأنهم يفعلون ذلك، ولا سيما إذا تلاقى أفرادُ البيئة في علاقات رُفْقَةٍ وصحبةٍ صالحة، متعاونة متآخية متواذة.

باستثناء بعض أفرادِ نادرين، لهم أحوال خاصة نادرة.

- ٢ -

أسباب تأثير البيئة الاجتماعية

ويرجع تأثير البيئة الاجتماعية فيمن ينشأ فيها أو يُخالطها مخالطةً طويلةً

إلى عِدَّة أسباب، نلاحظ منها الأسباب التالية:

السبب الأول «الدافع الفطري في الإنسان إلى الاجتماع بأفراد نوعه».

إن الإنسان مطبوع منذ أعطاه الله خلقه على أنه مخلوق اجتماعي، فهو يبدأ بمركب مزدوج من أمه وأبيه، وهو سلالة انحدرت من مزدوجات، كما قال الله عز وجل في سورة (الحجرات/ ٤٩ مصحف/ ١٠٦ نزول):

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَفْضَلُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ .

وهو وارث للدافع الاجتماعي الموجود في أجداده، منذ أسكن الله عز وجل آدم وزوجه الجنة، وجعل بين الصنفين الذكر والأنثى مشاعر المودة والرحمة.

السبب الثاني: «الدافع المكتسب من النشأة».

إن كل فرد من الناس ينشأ في بيئة أبوين يمنحانه العطف والحنان والحب والعطاء وما يحتاج لحياته في نشأته، ثم يجد نفسه في أسرة أوسع من أبوين، كإخوة وأخوات وغير ذلك، ويجد فيها أنسه وكثيراً مما يحب في حياته من لعب ولهو وزينة وكثير من متع الحياة.

ثم يجد نفسه في مجتمع أوسع، فينمو في نفسه حب الاجتماع البشري، والأنس به، ويظل كذلك يأنس بالاجتماع، ويحبه، ويكره العزلة ويستوحش منها، لأنه يجد في الاجتماع سكن نفسه، ومصالحها، وشعورها بالأمن، ولأنه يُعبر بالاجتماع عن مشاعر المودة والرحمة اللتين فطر عليهما، وتنزعان فيه إلى التعبير عنهما، ولأنه يجد في الاجتماع تحقيق كثير من رغباته، ومنها المشاركة في الأعمال، والتنافس، وحب التقدير.

وقد بين الله عز وجل فطرية رغبة كل من الزوجين في أن يسكن إلى

زوجها، وأن يتبادلا المودة والرحمة، فقال الله عز وجل في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ .

وقال الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا... ﴿١٨٩﴾ ﴾ .

وبين الله عز وجل حب الإنسان للذرية، التي تكتمل بها جماعة الأسرة التي هي الخلية المكتملة من خلايا المجتمع، فقال تعالى في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ ﴿١٦﴾ ﴾ .

السبب الثالث: «رغبة الإنسان في اكتساب العلوم والمعارف والمهارات العملية والصناعية، التي يتوصل إليها الآخرون من الناس، وهذه لا تكون إلا بالاجتماع البشري» .

إن من الأمور الظاهرة أن من فوائد الاجتماع البشري أن يكتسب الناس بعضهم من بعض ما توصلوا إليه من علوم ومعارف، وما اكتسبوه من خبرات ومهارات عملية حياتية، وخبرات ومهارات صناعية، إلى غير ذلك من أنواع سلوك حضاري.

وبما أن الإنسان مفطوراً على حب معرفة ما ينفعه في حياته، وحب اكتساب الخبرات والمهارات التي اكتسبها الآخرون من الناس، فلا بد أن

تَدْفَعُهُ هَذِهِ الْفِطْرَةُ إِلَى الرَّغْبَةِ فِي الْاجْتِمَاعِ بِالَّذِينَ يَسْتَفِيدُ مِنْهُمْ هَذِهِ الْمَكْتَسِبَاتِ، وَأَنْ يَتَبَادَلَ مَعَهُمْ لِقَاءَاتِ الْأَخُوَّةِ وَالصَّدَاقَةِ وَالْمُوَدَّةِ، وَأَنْ يَتَبَادَلَ مَعَهُمْ عَطَاءَاتِ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ وَالخِبْرَاتِ وَالْمَهَارَاتِ.

السبب الرابع: «عَجَزُ الْإِنْسَانِ عَنْ أَنْ يَقُومَ لِنَفْسِهِ بِكُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي حَيَاتِهِ، لِذَلِكَ فَهُوَ حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَنْخَرِطَ فِي مَجْتَمَعٍ بَشَرِيٍّ يَتَبَادَلُ أَفْرَادُهُ مُتَّجَاتٍ تَخْصُّصَاتِهِمْ».

إِنَّ الْإِنْسَانَ بِمُفْرَدِهِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ زَرَّاعًا، وَطَحَّانًا، وَخَبَازًا، وَطَبَّاحًا، وَنَسَاجًا، وَخِيَّاطًا، وَبِنَّاءً، وَطَبِيبًا، وَمُهَنْدِسًا، إِلَى سَائِرِ تَخْصُّصَاتِ الْحَيَاةِ الْمَخْتَلِفَةِ، وَأَعْمَالِهَا، أَمَّا عَمَلُهُ هُوَ وَتَخْصُّصُهُ فَيَكُونُ وَاحِدًا مِنْ أَعْمَالِ وَتَخْصُّصَاتِ كَثِيرَاتٍ يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا الْمَجْتَمَعُ الْبَشَرِيُّ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ، فَيُعْطِي مِنْ تَخْصُّصِهِ ذَوِي الْحَاجَاتِ إِلَيْهِ، وَيَأْخُذُ مِنْ تَخْصُّصَاتِهِمْ مَا يَحْتَاجُ هُوَ إِلَيْهِ، وَيَتِمُّ فِي الْمَجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ التَّبَادُلُ بَيْنَ النَّاسِ بِحَسَبِ حَاجَاتِ كُلِّ مِنْهُمْ.

وهذا ما يجعل الفردَ مدفوعاً إلى أن يكون واحداً من أفراد مجتمَع لا غنى له عنه، فهو يرتبطُ به ارتباطَ مصالحٍ متبادلة، تنشأ عنها علاقاتٌ وروابطٌ اجتماعيةٌ وجدانيةٌ وعاطفيةٌ ومصلحيةٌ.

فالانعزاليةُ شذوذٌ طارئٌ على الإنسان، ربَّما يُصَابُ بِهَا بَعْضُ النَّاسِ لِأَسْبَابٍ نَفْسِيَّةٍ مَرَضِيَّةٍ، وَلَيْسَتْ الْانْعِزَالِيَّةُ ظَاهِرَةً صِحِّيةً.

- ٣ -

تَكْيُفُ الْإِنْسَانِ مَعَ بَيْتِهِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ

للأسباب التي سبق بيانها نلاحظ أنَّ الإنسان - ضمن سلوكه الطبيعي - إذا وُجِدَ فِي بَيْتِهِ اجْتِمَاعِيَّةٍ مَا، أَخَذَ بِصِفَةِ تَلْقَائِيَّةٍ يُحَاوِلُ تَكْيِيفَ نَفْسِهِ، وَتَغْيِيرَ عَادَاتِهِ وَأَنْوَاعِ سُلُوكِهِ، لِيَسْتَطِيعَ الْعَيْشَ بِانْسِجَامٍ وَتَوَاقُؤٍ، مَعَ الْمَجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ

الذي يعيش في وَسَطِهِ، هُرُوباً من مَشَاعِرِ العزلة النفسية التي يَكْرَهُهَا بطَبْعِهِ، لو استمرَّ على حالة عدم الانسجام والتواؤم مع البيئة التي وُجِدَ فيها، ولثلاً يكون مَثَارَ استغرابٍ واستنكارٍ شركائه من البشر في هذه البيئة.

هذا ما لم يكن لديه مُقَدِّماً إرادةً خاصةً، مؤيِّدةً بأفكارٍ وعقائدٍ راسخةٍ سابقةٍ، ضدَّ البيئة التي وُجِدَ فيها، وضدَّ مفاهيمها وأنماط سلوكها، أو ضدَّ أشخاصها، وهذا ما يُعَدِّي قادة اليهود عامتهم به، حتى لا ينصهروا ولا يدوبوا في البيئات التي يُوجَدُونَ فيها، ويُسَاعِدُهُمْ على ذلك اتِّخَاذُ مَجْمَعَاتٍ سكنية خاصة بهم في أيِّ بَلَدٍ يَنْتَقِلُونَ إِلَيْهِ، وفي أية بيئة يُوجَدُونَ فيها، ويضطَّرونَّ لِلْعَيْشِ ضِمْنَهَا.

ويُسَاعِدُ النَّاسَ على سُرْعَةِ التغيُّرِ للتلاؤم ما فطروا عليه من دافع المحاكاة والتقليد للآخرين، عند أيِّ سببٍ يُحَسِّنُ في نفوسهم ذلك، كالاستحسان، والإعجاب، والرغبة أحياناً بهُمَزِ الآخرين ولمزِهِمْ وتغييرِهِمْ بعيوبِ خَلْقِيَّةٍ أو خُلُقِيَّةٍ، عن طريق مُحَاكَاةِهم، ثُمَّ تَلَزَمُهُمُ العادةُ بالترُّكُّ.

وقد تكونُ المحاكاةُ انعكاساً تلقائياً دون شعورٍ ظاهرٍ، كالصُّورِ المنعكسة في المرآة، ونُشَاهِدُ نظير هذا عند بعض الناس الذين تتحرَّكُ أيديهم وعضلاتُ وُجُوهِهِمْ على مثلِ حَرَكَاتِ العاملينَ أمامهم، ببعض الأعمال الصناعية، أو الفنية، كحدَّادٍ، أو نجَّارٍ، أو رسَّامٍ، أو نحو هؤلاء، ورُبَّمَا كان الشعور الباطن يرجع إلى الاستحسان، أو إلى الاستهجان.

وباستطاعتنا أن نقول: إنَّ التقليد والمحاكاة في الأعمال والأقوال من رُدُودِ الأفعال الطبيعية في الناس، تُجَاهَ ما يُشَاهِدُونَهُ ممَّا ليس هو من ممارساتهم العادية.

وقد عرفنا فيما سبق أن فطرة التقليد والمحاكاة من الفطر النافعة في الإنسان، إذا كانت تتحرَّكُ ضمن حدود دوائر الخير والفضيلة والأعمال

الصالحة، أو كانت موجهة لاقتباس ما هو نافع مفيد، لا ضرر منه ولا إثم ولا شر.

إن هذه الفطرة النافعة، إذا كانت موجهة توجيهاً حسناً، سهلت على الإنسان عمليّة تعلّم الفضائل، والأعمال الصناعيّة والفنيّة بسرّعة، وسهّلت عليه الاقتباس السريع للأعمال الراقية، التي لم تصل الأجيال السابقة إلى اكتشافها ومعرفتها إلاّ بعدَ تطوّرٍ كثيرٍ، اعتمدَ على اختباراتٍ وتجرباتٍ وتحسيناتٍ كثيراتٍ، وقد انتهى الناس بعدها إلى اختيار الأفضل والأحسن.

وهذه الفطرة تُيسّرُ على الإنسان القيامَ بالأعمال الصالحة الشاقّة على نفسه، والمخالفةَ لأهوائه وشهوته، إذ يجدُ أمثاله في بيئته التي يعيش فيها يُمارسونها بيسرٍ وسهولة، مع رغبةٍ قلبيةٍ ونفسيةٍ يوجهها الطمّع بما سيظفرون به من ثوابٍ جزيلٍ، ونتائجٍ وثمراتٍ حميدات.

إن المحاكاة داخلَ البيئَةِ الاجتماعيّةِ للعملِ المشاهدِ تُغني المتعلّمَ خلال دقائق معدوداتٍ عن شرحٍ تعليميٍّ كلاميٍّ طويلٍ، قد يحتاج إلى ساعاتٍ وأيامٍ، أو إلى شهورٍ عديدةٍ أحياناً. وشأن هذه الفطرة، كشأن سائرِ الفِطَرِ التي فطرَ الله الناسَ عليها، يمكن الاستفادة منها في الخير، ويمكن أيضاً استغلالها في الشرّ، وذو البصيرة الفكرية، والهداية الدينيّة الربّانية، مع الإرادة الواعية العاقلة المسؤولة عن توجيه السلوك، هي الكفيلة بضبط الفِطَرِ عن الجنوح والانحراف، وتجاوز حدود الحقّ والخير والفضيلة.

- ٤ -

وَجُوبُ تَهْيِئَةِ الْبَيْئَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الصَّالِحَةِ

لما كانت البيئَةُ الاجتماعيّةُ البشريّةُ من أخطر وأعظم وأجدى وسائلِ التوجيه غير المباشر ذاتِ التأثير القويِّ، فيمن يعيش فيها وهو يشعر بأنه فردٌ

من أفرادها، كان من واجب الأمة الإسلامية ولا سيما حملة الرسالة المتخصصون وغير المتخصصين أن يوجهوا اهتماماً بالغاً لتهيئة البيئة الإسلامية الصالحة، أفراداً وأسرّاً وجماعات من صالحين وصالحات، حتى تكون هذه البيئة التي يُعَدُّونها ذاتَ ضواغط اجتماعية مُحِيطَة بمن يعيشُ فيها، وهو مُنتم إليها انتماءً حقيقياً.

فكلّما انجذب مُهتدٍ جديد إلى الإيمان بأسس العقيدة الإسلامية الحق، وانكشف له صراطُ الإسلام المستقيم، واستنارَ بمفاهيم دين الله المشرقة، وهفّت نفسه إلى محاسن السلوك الإسلامي الجميل، أخذ الدعاة الهداة، والتأصحوون المرشدون الحُماة بيده فغمسوه في وسطٍ مُلائم لحالته، ضمنَ البيئة التي أعدها إعداداً إسلامياً واعياً رشيدياً.

وقد اعتمدت التربية الإسلامية المحمدية، في منهجها التربوي على إعداد البيئة الإسلامية الصالحة اعتماداً كبيراً، فاهتمت بتكوين المجتمع المسلم الأول عن طريق الهداية بالدعوة، فالنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعن طريق الأسوة الحسنة، والتربية الحكيمة على الالتزام بأحكام الإسلام وشرائعه وأخلاقه وآدابه.

ثم كان هذا المجتمع المثالي هو النواة والبيئة الصالحة لإدارة كل داخل فيه ضمن دوامته، وصناعته صناعةً إسلامية، وتغييره عما كان عليه قبل الإسلام بسرعة فائقة، ويتدخل في صناعته الجديدة التقليد والمحاكاة ورغبات التكيف والتلاؤم، ووسائل التعليم والتوجيه والإقناع والترغيب والترهيب وسائر صنوف التربية الأخرى.

هكذا كان حال البيئة الإسلامية المحمدية الأولى، إذ كان من يهتدي إلى الإيمان، وينشرح صدره لتطبيقات الإسلام، يجد نفسه يدور مختلطاً ضمن دوامه مجتمع إسلامي يعمل متشابكاً متعاوناً على البر والتقوى في

مراضى الله، وعلى منهاجه عز وجل، وبهذه سنة رسوله ﷺ، ويجد نفسه مقوداً ومسوقاً، وقائداً وسائقاً، مع حركة دوامة هذا المجتمع المنسجم فكراً وعقيدة وسلوكاً ورغبات وتطلعات وآمالاً، إلا من دخل فيه منافقاً، أو مسلماً غير مؤمن، فإنه يجد نفسه متعرضاً لعثرات وعقبات وتصادمات، وتباين بينه وبين المجتمع في الرغبات، إذ هو مجاور غير مخالط منسجم، وغير متلائم مع سائر العناصر، فهو لا يمتزج فيها، ولا يكون معها اتحاداً حقيقياً.

وعلى مثل المجتمع المثالي الأول، واقتداءً بمؤسسه المعصوم صلوات الله عليه، سار علماء المسلمين مع تلاميذهم، وكل الذين يلتفون حولهم، متلقين الدين، أو متخلقين بأخلاق الإسلام، ومتأدبين بإدابه، فقد كانوا يهيئون حولهم بيئة إسلامية لها تميزٌ خاصٌ يميزها في حركة حياتها، وأخلاقها، وسمتها، ومعاملاتها المتسمة بالمحاسن والفضائل، والالتزام بالواجبات والابتعاد عن المحرمات الإسلامية، وبالتعاون فيما بينها، والتواؤم والتحابب والتقارب الاجتماعي، دون أن يؤثر عليها المجتمع الكبير الذي تعيش فيه، إذ تتحرك في محيطه كما تتحرك أصناف الطيور في جماعات متلائمات في الهواء، وأصناف الأسماك في جماعات متلائمات في الماء.

- ٥ -

الغزو الفكري عن طريق البيئة

ولقد عرف شياطين الإفساد في الأرض ما للبيئة من تأثيرات ذوات قوّة في صناعة الإنسان فكرياً ونفسياً وسلوكياً، فوجهوا عناية فائقة لاستثمار البيئات الصغرى والكبرى في تحقيق أهدافهم الرامية إلى صناعة أجيال

الشعوب الإسلامية التي يغزونها صناعة على ما يُريدون، وتَنَوَّعَ هذا الغزو تنوعاً كثيراً، وابتكرت له صُورٌ شتى، ودخلَ في كلِّ موقعٍ صغيرٍ وكبيرٍ يُمكنُ أن تتكوَّن فيه بيئة ما، فلا بُدَّ من أعمالٍ مضادَّةٍ على مثلِ أعمال الغزاة، في مختلف البيئات .

* * *

المقولة الرابعة
من سُبُل التوجيه غير المباشر

القصة النافعة والمشاهد التمثيلية المفيدة

- ١ -

القصة النافعة

القصة: فنٌّ من فنون الأداء البيانيّ ذي التوجيه غير المباشر، عمادُهُ الحكايةُ القوليّةُ لجملةِ أحداثٍ متتابعةٍ مترابطة ذاتِ بدايةٍ ونهايةٍ زمنيّة، مع مرافقاتها، وهذه الأحداثُ تدورُ حولَ محورٍ واحدٍ (شخصٍ، أو أسرة، أو جماعةٍ من الناس، أو أُمَّة، أو قطعةٍ من أحداثِ الكون، صغيرةٌ كانت أو كبيرةً).

● وبما أنّ التوجيه فيها توجيهٌ غيرٌ مباشرٍ، فهي ذاتُ تأثيرٍ قويٍّ بمضامينها في الفكر وفي النفس، وتدفعُ إلى المحاكاة والتقليد في الأقوال والأعمال والأخلاق وسائر أنواع السلوك، إذا حرّكت هذه المحكيّات في القصة إعجاباً بنفس سامعها أو قارئها، ولا مَسَتْ عِظَاتُهَا انفعالاً إيجابياً معها.

والقصةُ في الغالبُ تدخُلُ في أعماقِ النفوس دون استئذان، لأنّها تحكي - ولو توهُّماً - حدثاً تحقّق في الواقع، والنفوسُ مفضورةٌ على حُبِّ مَعْرِفَةِ الأحداث التي وَقَعَتْ، وكيفَ وَقَعَتْ، وما هي النهاياتُ التي انتهتْ

إليها، والنتائج التي كانت السبب في حصولها، لتأخذ منها العبر والعظات، فتعملَ بمثل ما جرَّ نفعاً، وتجتنبَ فِعْلَ كُلِّ ما جرَّ ضرّاً وشرّاً، من أحداث القصة.

● والقصة تقدّم الأفكار والأعمال والأخلاق وسائر أنواع السلوك النفسي والظاهر مُجَسَّدةً في صورٍ تُشعرُ بأنّها أشياء واقعة، وليست مجرد نصائح تُقدّمها رُؤى ونظرات فكرية مُجرّدة عن واقعيّات الحياة الإنسانيّة.

● والقصة مُحَبِّبةٌ للنفوس، لما فيها من انسجام مع حركة الخيال، ومُسايرةٍ له، وهي أيضاً تُمدّه وتُغذيه بما يتلاءم مع رؤاه وطُمُوحاته التخيلية في الغالب إذا كانت من غرائب القصص ونوادرها.

● والقصة في الغالب لا تُصادف عقباتٍ نفسيّة تصدّها، إلّا إذا كانت لدى المقصود بالتوجيه مشاعرٌ نُفُورٍ خاصّ من مُقدّم القصة أو المستشهد بها.

● ومن الملاحظ أنّ الناس جميعاً يُحِبُّون استماع القصة، أو مشاهدة أحداثها في الواقع أو في التمثيل.

ولذلك نرى صغار الأطفال بفطرتهم يتعلّقون تعلقاً شديداً بمن يحكي لهم القصص، ولو كانت خيالية خرافية، ويتعلّقون بمشاهدة قصص أفلام الكرتون تعلقاً شديداً، ويتأثرون بها، مع أنّ معظمها خياليّ خرافيّ.

● ونظراً إلى تأثير القصة في النفوس الإنسانيّة، وحُبّ الناس على اختلاف مستوياتهم وأعمارهم لها، وجدنا أنّ مختلف الشعوب، حتى البدائية منها، تعتمد على استخدام القصة في التعليم والتربية، والتأديب، والتوجيه، ولو لم يكن لهذه الشعوب أدبٌ مكتوب.

● وقد توسّع النَّاسُ في استخدام القصة لما صار لهم أدبٌ مكتوبٌ مُتوارثٌ في الأجيال.

وزاد هذا في الناس حينما عرفوا قيمة تأثير التوجيه غير المباشر، ونما
نُموّاً عظيماً، حين توصل الأدباء والتّقادُ إلى معرفة أدب القصة وفنونها
وأساليبها المؤثرة.

وربّما تصلُ القصةُ المحبوكةُ حبكاً فنياً جيداً في قوّة تأثيرها، إلى جعلِ
القارئين والسامعين لها، ولا سيما الأطفال والمراهقون وأشباههم، يندمجون
اندماجاً عظيماً في حوادثها، وينفعلون مع بعض أشخاصها وأبطالها في
مشاركة وجدانية قويّة جداً، حتّى قد يصلُ الحزنُ فيها إلى مستوى تدرّف منه
الدموع السخية، وقد يصلُ الغضبُ فيها إلى مستوى يُحرّضُ على المناصرة
الوهميّة في حركات غير واعيات.

وربّما تمثّل قارئُ القصةِ أو سامعُها في نفسه بعض أشخاص القصة،
حتّى كأنّ الأحداث تجري معه نفسه، وقد يعقل عن واقعه تماماً، وينسى أنّه
يقرأ قصةً من القصص الغابرة، أو القصص المصنوعة، وربّما كانت قصةً
خرافيّةً تماماً لا تُمثل أيّ واقع، وكثيراً ما يعلمُ منذُ بدءِ قراءته للقصة أو
سماعه لها أنه يقرأ أو يسمعُ قصةً وضعها كاتبها من نسج خياله.

● ونظراً إلى ما للقصة من تأثير تعليمي وتوجيهي تربوي، وجدنا
أساليب الدعوة إلى سبيل الله، والتّضح والإرشاد قد أولت القصة عناية فائقة،
واهتماماً كبيراً، مع إبراز ما فيها من مواطن عبر وعظات.

فالقرآن المجيد بإعجازه البياني، والسنة النبوية المطهرة بروائعها، قد
استخدما القصة في الدعوة إلى سبيل الله، وفي التّضح والإرشاد، والتوجيه
إلى فعل الخير وترك الشرّ بنسبة كبيرة، وبطرائق فنيّة أدبيّة مؤثرة جداً.

ولا يخفى على أيّ تالٍ للقرآن ما يحويه هذا الكتاب المجيد من قصص
رائعة رائدة، تشمل على توجيهات غير مباشرة، إيمانية، وفكرية وأخلاقية،
وعملية، وعظات نافعات، جليلات الخطر، عظيمات الأثر.

وَمُطَالَعُ أَحَادِيثِ الرَّسُولِ ﷺ يَجِدُ فِيهَا قِصَصاً بَدِيعَةً ذَوَاتَ تَوْجِيهِ
لِقَضَايَا الْإِيمَانِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْحُبِّ فِي اللَّهِ وَالْبَغْضِ فِي اللَّهِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ،
ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ، وَجَنَاتِ النَّعِيمِ.

مسؤولية حامل الرسالة:

فعلی حامل رسالة الدعوة إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة،
أو رسالة التُّصْحُحِ والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن يَهْتَمَّ
باستخدام فنّ القِصَّة من فنون الأداء البياني، ذي التوجيه غير المباشر، اقتداءً
بمنهج القرآن الكريم، وسُنَّةِ الرسول العظيم، ولما للقِصَّة من تأثير عميق في
النفوس، إقناعي، وتربوي، وتوجيهي، ولما فيها من عبرٍ وعظاتٍ جليلات.

ولكن يجب عليه أن يختار من القصص ما صحَّ منها، وباستطاعته أن
يستفيد من قصص الأنبياء والمرسلين وأقوامهم، الواردة في القرآن والسنة،
ومن القصص الواردة في أحاديث الرسول ﷺ، ومن سير الصحابة الكرام
والتابعين لهم بإحسان، ومن سير العلماء الصادقين الصالحين، والأبطال
المؤمنين الفاتحين.

* * *

- ٢ -

المشاهد التمثيلية المفيدة

التمثيل: فنٌّ غير مباشر التوجيه قولياً وحركياً من فنون الأداء البياني
القصصي، عمادُهُ عَرْضُ أحداثِ القِصَّة أو مختاراتِ منها، من خلال تقديم
الأمثلة الإنسانية مع المرافقات المشابهات لما كان قد جرى في القِصَّة في
الواقع، بقيام أشخاصٍ يمثلون شخصياتِ القِصَّة، ويلبسونَ مثلَ ألبستها،
ويتصرفون مثل تصرفاتها، فيمثلون الأعمال والحركات والأقوال والمشاعر

وسائر التصرفات التي كانت منهم في القصة، مع تتبع المراحل الزمنية لأحداثها، ضمن ظروف وبيئة وأحداث القصة، والأشياء التي كانت فيها، أو مرافقة لها.

وللتمثيل شروط فنية معروفة لدى المختصين بهذا الفن، وهي تُدرس في معاهد خاصة، منها ما هو مقبول لا نجد في الإسلام ما يدعو إلى تحريمه ومنعه شرعاً، ومنها ما هو مرفوض لا نجد في الإسلام ما يأذن به، ولو على سبيل الأخذ بالرخص.

فإذا تهيأت الشروط الفنية المباحة شرعاً، ووجد الأشخاص القادرون على الأداء التمثيلي الناجح دون فجاجة ولا ركافة، وتوافرت تمثيلات مستكملة شروطها الفنية المؤثرة، كان من المستحسن استخدام التمثيل وسيلة من وسائل أداء رسالة الدعوة إلى سبيل الله، أو رسالة التصح والإرشاد.

لكن لم يظهر حتى الآن تمثيلات إسلامية صالحة لمثل هذا الأداء، وحتى حين وجود الإمكانيات الفنية الصالحة، وإعداد التمثيلات الناجحات الموفقات ذوات التأثير الإيجابي النافع في المشاهدين، يمكن أن نقول حينئذ: يحسن بحملة الرسالة أن يدخلوا التمثيل ضمن سبل أدائهم البياني في التوجيه غير المباشر

* * *

المقولة الخامسة
من سُبُل التوجيه غير المباشر

القراءةُ الحرّةُ وأثرُها

- ١ -

سبب تأثير القراءة الحرّة

حين يجلس الإنسان لنفسه، فيأخذُ كتاباً أو صحيفةً أو مجلةً أو أيّ مطبوع أو مخطوط، فإنه يشعرُ بأنّه يملكُ كاملَ حرّيته في القراءة أو عدمِها، ويملكُ أيضاً كاملَ حرّيته في قبولِ ما يقرأ من ذلك أو رفضه. ولا يشعرُ مع بدءِ القراءة بدافعِ نفسيٍّ للمعارضة والمخالفة بسبب الاستكبار على من يتعلّم منه، أو الرغبة في التفوّقِ عليه، أو الخوف من أن يظهرَ أمامه أو أمامَ جلسائه بجهله، لكنّ هذه الأمور تحدثُ كثيراً لدى المواجهة الشخصية.

ثم إنّ الذي يقرأ بنفسه من كتاب أو نحوه قراءةً حرّةً، إذا لم يقبلَ بعضَ الأفكار التي مرّت به في أوّل القراءة، فإنّ ذلك قد لا يمنعه من متابعة القراءة، ولا سيّما إذا كان ما يقرؤه حسنَ الصياغة، عذبَ الأسلوب، سهلَ المتناول، متسلسلَ الأفكار تسلسلاً منطقيّاً.

والسبب في أنّه قد لا يمتنع عن متابعة القراءة مع معارضته لبعض الأفكار، هو أنّ دوافع المخاصمة إذا ارتفعت درجة حرارتها لم تجذّ أمامها

الخصم الذي تُصارعه وتقارعه، فتبرُدُ بسرعة، ورُبما يقتصر تعبيرها على ضرباتٍ بقبضة اليدِ على الكتاب أو على الأرض، أو على تشطباتٍ بالقلم على الكتاب، أو على بعض الشتائم اللسانية.

ثم يتابع القراءة بدافع الفضول، أو تجذبه أفكار حسنة أثارَت إعجابَه، ويُريدُ استكمال ما يتعلّق بها، أو تتولّد لديه رغبةٌ في أن يستكمل البحث ليُلمَّ بجوانبه، وكثيراً ما تتحلّل لديه الإشكالات التي أثارَت اعتراضه أولاً، إذ يجد جوابَ تساؤلاته لدى شرح الكاتب لجوانب الموضوع، وتقديمه الأدلة على ما قدّمه من أفكارٍ ومعارف.

وبسبب ذلك يتمكن القارئ من الانتفاع بالمعارف والنصائح، وأنواع التوجيه الرشيد، إذا كان الكتابُ يشتمل على هذه الأمور أو بعضها، ويعلّقُ بنفسه ممّا قرأ أمورٌ وأفكارٌ ومفاهيم لم يكنُ ليقبلها لو جاءت توجيهاً مباشراً من لسانٍ داع يدعو إلى الهداية، أو ناصح مرشد، أو أمرٍ بالمعروف ناهٍ عن المنكر، إنّه يقبلها ويتنفعُ بها انتفاعاً عظيماً، إذ لم تقم في نفسه ضدها منذُ البدء عقبه نفسيةٌ صادةٌ.

وبهذه الطريقة نفسها تستطيع ضلالاتٍ فكريةً واعتقاديةً ونفسيةً، ومثيراتُ أهواءٍ وشهواتٍ جانحات عن الحقّ والخير والفضيلة، أن تتسلّل إلى النفوس وتؤثر فيها، ولا سيما إذا كانت مُزيّنةً مزخرفةً بالفنون والآداب، وتلبّسُ بالزور والبهتان والدعاوى الكاذباتِ أثوابَ الحقائق المؤيدة ببراهين العلوم النظرية والتجريبية.

هذه هي طبيعة القراءة الحرة، في حين أنّ الأمر قد يختلِف كثيراً إذا أتى صاحبُ الكتاب نفسه، فقدّم بلسانه ما كتبه بقلمه، إنّه حين يتصدّى للقول يشعرُ بغضٍ من يوجّه لهم الخطابُ أنّه يتصدّرُ عليه، ويحلّ نفسه بين من يخاطبُهُم مكانةَ الأستاذِ المعلم، المتعالّي، الذي يشعرُ بالفوقية، أو مكانةَ

صاحبِ السُّلْطَةِ الَّذِي يَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيُوجِّهُ النَّصَائِحَ وَالْإِرْشَادَاتِ .

فمن شعر من المخاطبين بهذا الشعور وكان ذا نفس متكبرة، تحركت لديه عوامل الكبر، والأنفة من الظهور بمظهر الجَهْل، فقامت في نفسه عقبة صادة، فحجبت مراكز استقبال المعرفة لديه، وجعلته يستنكف عن قبول ما يُوجِّهه حامل رسالة الهداية الداعي إلى سبيل ربه، أو حامل رسالة النصح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد تتولّد عن هذا الاستنكاف رَغَبَاتٌ مُوَجِّهَةٌ لحامل الرسالة، ومقاطعة له، وتشويش عليه، وتسفيه لآرائه، وانتقادات له، وتصيّد للهفوات، وإحراج بالأسئلة، إلى غير ذلك من شغب، ومحاولات إسكات له .

- ٢ -

استغلال المفسدين لوسيلة القراءة الحرّة

عرّف المفسدون في الأرض ما للقراءة الحرّة من تأثير قويّ، في توصيل ما يُريدون بثّه من أفكار وتوجيهات ومذاهب ومفاهيم إلى داخل نفوس القراء، دون أن تعرّضها عقبات صادات في معظم الأحوال .

من أجل هذا وجّهوا عناية فائقة لاستخدام هذه الوسيلة على أوسع نطاق، ولتذليل أدواتها وتحسينها وإيجادها بوفرة، وجعلها في متناول كلّ قارئ، وشحنوا هذه الوسيلة المؤثرة بالآلاف الحيل الزُخرفيّة الفنيّة والأدبيّة والفكريّة التي تجذب النفوس، وتُرْضِي الأهواء والشهوات والأذواق الجماليّة، وتُمنع الحواس، وتُدغغ الغرائز. وتُحرّك المطامع، وتُسْتَغِلُّ المخاوف، وتُجسِّم الأوهام وتُجعل منها حقائق في نفوس القراء كذباً وزوراً .

وقام جنودهم الكثيرون المنتشرون في طول الأرض وعرضها، من كُتّاب القصص، وكُتّاب النثر والشعر، في مختلف فنون الأدب والعلوم

الاجتماعية، ومن الصحفيين على اختلاف تخصصاتهم، وكتّاب الأخبار السياسية والاجتماعية، وواضعي الدعايات المختلفة، وغيرهم، يدفعون بسُيُول إنتاجهم الموجه ضمن مخططاتهم الرامية إلى غزو أفكار الناس وقلوبهم وعواطفهم الموجهة لإراداتهم.

ويأخذ هذا الإنتاج الوفير سبله المختلفة إلى دور النشر في العالم، وتُقدّم المطابع ملايين المطبوعات منها، لتكون في متناول أيدي القراء، في مختلف شعوب الأرض.

وتسير هذه المطبوعات مؤثرة في غزو الأفكار والعقول والقلوب والنفوس، إذ تنهأت عليها الأجيال الراغبة في المعرفة، أو الاستمتاع بالفنون والآداب، وكانت سبب فساد عريض في المجتمع البشري.

- ٣ -

واجب الأمة الإسلامية

وهنا يظهر لكل ذي فكر إسلامي سليم، أن الأمة الإسلامية مكلفة من أجل تبليغ رسالة الرسول ﷺ للناس أجمعين، والقيام بوظائفها داخل المجتمعات الإسلامية، أن يبذلوا ما يستطيعون من جهد في اتخاذ سبيل القراءة الحرة ضمن سائر السبل التي يجب عليهم اتخاذها.

ويكون هذا بأمر كثيرة منها ما يلي:

١ - تربية الأجيال من أبناء المسلمين على حب القراءة إلى درجة الشغف بها، وإنفاق عدة ساعات من كل يوم فيها، دون سأم ولا ملل، فحب القراءة يُكتسب بالتربية والتدريب، ومصاحبة القراء، ومتابعة القارئ فيما قرأوا، وتشجيعهم على عرض ما فهموه مما قرؤوه.

٢ - تشجيع ذَوِي العِلْمِ والفِكرِ والقَلَمِ من المسلمين، ماليًا ونفسيًا واجتماعيًا، على كتابة الرسائل، والبحوث، والمقالات، والنشرات، والمؤلفات، بمختلف وسائل التشجيع، لكي ينبغ في المسلمين المؤهلون الكثيرون الذين يستطيعون توصيل الكلمات النافعات المؤثرات، والمفاهيم الإسلامية الصحيحة، إلى مختلف القراء، بحسب ميولاتهم المختلفة.

٣ - تشجيع الكتب والرسائل والصحف والمجلات والنشرات ذوات المضامين الإسلامية، والنافعات الخاليات من التحريف والتزييف والأغاليط والتعصبات، مع الترويج لها، ونشرها، وتوزيعها في أوسع مجال ممكن، وتيسير وصولها إلى القراء في كلّ موقع من الأرض، ولا سيما البلاد والأماكن التي لا يستطيع سُكَّانُهَا جَلْبَ الكتاب النافع لشدة فقرهم وحاجتهم.

ومن الخير العظيم أن يصل قسم من الرسائل النافعة التي تشرح أصول الدين، وأركان الإسلام، وشرائعه، وأحكامه، وأخلاقه وآدابه، مجاناً إلى مراكز إسلامية مهمّة في جميع بلاد الدنيا.

ولا يفوتني هنا أن أُبين أنّ بَدَلَ المال في هذا السبيل هو من الجهاد في سبيل الله، لأنّ الجهاد بالكلمة الإسلامية النافعة هو في مقدّمة أعمال الجهاد في سبيل الله.

٤ - تأسيس المكتبات العامة، واجتذاب القراء إليها بما تميل نفوسهم إليه من المباحات، وتيسير سبل قراءتهم فيها، مع تزويدها بمرشدين يُحسِنون توجيه زائريها للقراءات النافعات الملائمات لمستوياتهم، واستعداداتهم، مع تيسير إعاره بعض الكتب لمدة مُحدّدة.

٥ - تأسيس المكتبات التجارية في كلّ شارع، وكلّ حيّ وقرية، وجعلها مراكز إشعاع يتوارد إليها طُلاب المعرفة والأدب، مع عناية أصحابها

بتوجيه زائرهم بالأساليب الرفيقة المؤثرة، للكُتُبِ والرسائل والمنشورات ذواتِ المضامين الإسلامية النافعة.

٦ - تزويدُ المؤسَّساتِ والمرافِقِ العامَّةِ والخاصَّةِ التي ترتادُها جماهير مختلفة، ويَطوُلُ المكثُ فيها، كالمعابد، والمدارس وفصولها الدراسية، والنوادي الأدبية والرياضية، والمستشفيات، والفنادق، بمكتباتٍ صُغرى تُناسِبُ أحوالَ زُوَّارِها ومُرتادِها، وهذه المكتبات تشتمل على كُتُبِ إسلامية نافعةٍ سهَّلةِ التناوُلِ، مُيسِّرةِ القراءة والانتفاع بما فيها.

٧ - طباعةُ كُتُبِ ورسائلٍ صُغرىٍ مشتملة على الأفكار المراد بثها والإقناع بها، بكميَّاتٍ وفيرة، وأسعارٍ زهيدة، وأحجامٍ توضع في الجيب، لتنتشر هذه المطبوعات وما فيها من أفكارٍ على أكبر عدد من الناس.

٨ - إجراء مسابقاتِ ذواتِ جوائزٍ ماليةٍ حَوَّلَ معلومات تُوجَدُ في كُتُبٍ معيَّنة، وهذه الكتب تشتمل على أفكارٍ ومفاهيم ومعارف إسلامية مهمَّة، تهدف خطة التوجيه الإسلامي إلى بثها، وإقناع الناس بها.

إلى غير ذلك من أمور نافعة في نشر الفكر الإسلامي، قياماً بواجب الدعوة إلى الله، والنصح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إنَّ باستِطاعة حَمَلَةِ رسالة الهداية، أو رسالة الإصلاح والحماية، أن يستخدموا وسيلة القراءة الحرة لبث المعارف الربانية الحق، ولعرض تعاليم الإسلام ونُظْمه وأخلاقه ومفاهيمه، بمختلف الوسائل والأساليب العلمية السهَّلة القريبة المتناول بالنسبة إلى القاعدة الاجتماعية العريضة، والوسائل والأساليب الأدبية الرشيقة الأخاذة المؤثرة في النفوس والأفكار، التي تقبلها الجماهير، وتناسبُ ألوانها الأدبية، ومستوياتها الفكرية، مع مختلف مستويات الناس.

وفي معركة الصراع الفكريِّ العالمية سوفَ يتنصر الفكر الإسلامي لا

محالة، لأنه حقٌّ لا رَيْبَ فيه، ولأنَّ الله عزَّ وجلَّ وعد المسلمين بإظهار دينه الحقَّ على الدين كُلِّه، ولو كرهَ المشركون وسائر الكافرين، فقال تبارك وتعالى في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾

ولهذا الموضوع تتَمَّتْ في «الفصل الرابع - وسائل الأداء البياني» من هذا الباب تحت عنوان «الوسيلة السادسة: الكتاب» فيحسن الرجوع إليها، لاستكمال ما يتعلَّق بهذا الموضوع.

* * *

المقالة السادسة

من سُبُل التوجيه غير المباشر

الترنيم والنشيد بطريقة إسلامية شكلاً ومضموناً

- ١ -

الميول والتأثيرات الفطرية

فطر الله عز وجل النفوس الإنسانية على حب الترنيم والنشيد، والتغني بالصوت الرخيم، والتأثر السعيد بالتعبير المريح للنفس، عن طريق الكلمة المقترنة بالصوت الجميل، واللحن الحسن، والأداء الموسيقي^(١) المتناسق، الذي لا تنافر فيه، والملائم لحالة النفس ودلالة الكلمة.

وحين لا يملك الإنسان الصوت الحسن الندي، ولا القدرة على اللحن الغنائي الجميل، والأداء الموسيقي المتناسق، فإنه يسعدّه ويسرّه أن يسمع من غيره ما يوّد أن يكون هو المعبر عنه بنفسه، فإذا سمع صوتاً حسناً في غناء جميل، وموسيقى متناسقة ملائمة لكلمات معبرَات عن حالة نفسه، تحرّكت

(١) الموسيقى: علم يكشف أنواع الأصوات ونغماتها وطبقاتها ومسافات إيقاعاتها، وهو كعلم العروض للشعر، وليست الموسيقى هي المعازف، بل المعازف آلات لها، ويمكن تعلم علم الموسيقى بدون استخدام آلاتها المصنوعة المحرّمة.

عواطفه، وانفعلت بذلك نفسه انفعالا كبيرا ملائماً لكوامنها.

وقد يتأثر بالصوت فقط، ولو لم يكن مقترناً بكلماتٍ معبرَاتٍ عن حالة نفسه، والسبب في هذا أنّ لنعَمَاتِ الأصوات تأثيراتٍ مختلفاتٍ في النفس، فبعضها يلائم حالة الحزن، وبعضها يلائم حالة الفرح، وبعضها يستثير البسالة والشجاعة، إلَى غير ذلك من حالات النفوس، والأصوات المثيرات لها، والمؤثرات فيها.

إنّ معظم الناس في السلم والحرب، والأفراح والأحزان، والمسرات والآلام، ولدى ذكر المآثر والمفاخر، ولدى تعبيرات التحسّر والتوجّع، أو بثّ الأشواق والأشجان، أو غير ذلك من مشاعر نفسيّة، يردّدون ما يُناسب الحال التي هم عليها، ممّا حفظوا من الأغاني والأناشيد التي سبق لهم أن استحسّنها ألحانها، وأنسوا إليها، ممّا ذاقوا فيه يوماً ما حلاوة تعبير مناسب بالصوت واللحن والكلمات، عن أحوال نفوسهم الشخصية أو الدينيّة أو القوميّة، أو نحو ذلك من أشواقٍ وأشجان، أو آلامٍ وأحزان، أو أفراحٍ ومسرات، أو أمجادٍ وبطولات، أو شجاعاتٍ وتضحيات، أو فضائلٍ ومكرّاتٍ، أو غير ذلك.

والكلام الذي يحمله إلى السّمع صوتٌ جميل، أو لحنٌ جميل في أداءٍ موسيقيٍّ متناسقٍ، يمرُّ من الآذان مرّاً سعيداً إلى داخل أكثر النفوس دون محاكمةٍ عقليّة، ولا سيّما إذا كانت فيه مفرداتٌ تتصل في دلالاتها بما يشغل نفوسهم من عواطفٍ أو انفعالات، أو رغباتٍ ومطالب، أو مطامعٍ أو مخاوف، أو مفاهيمٍ أو عقائد، أو غير ذلك.

وكم من كلامٍ عاطفيٍّ مبتذلٍ سخيِّ لا وزن له ولا قيمة، حملته إلى نفوس الجماهير أصواتٌ وألحانٌ وموسيقىٌ جميلة، فمرَّ من الآذان إلى داخل نفوسهم دون نقدٍ فكريٍّ، فعلقَ فيها، ثمَّ غداً كلاماً تردّده الألسنة دون

اعتراض، وكأنه من بديع الكلام ومستحسنه.

- ٢ -

استغلال المفسدين للأغاني والموسيقى

عرف المفسدون في الأرض ما للموسيقى والأغاني والأناشيد من تأثيراتٍ على نفوس الجماهير، التي قد تصلُ إلى التلاعب في مداركهم الذهنية، ومفهوماتهم الفكرية.

فأسرعوا إلى السيطرة على المغنّين والمغنّيات، وواضعي الألحان، ومؤلفي كلمات الأغاني والأناشيد العاطفية، والقومية، والوطنية، والنقدية، والمضحكة (الكوميديا) والمثيرة للشهوات والأهواء المطلقة من القيود الدينية والخلقية، والمشجعة على ترك ضوابط الفضيلة، والسقوط في أحوال الرذيلة.

وعملوا على تجنيد من يستطيعون تجنيده بالمغريات المالية وغيرها، لتوجيه ما يُقدّمون من موسيقى وأغانٍ وأناشيد وألحان توجيهاً يخدم أهداف الغزو الفكري والنفسي والسلوكي، الذي يقومون به ضدّ الإسلام، وضدّ الأمة الإسلامية.

فكم من أغنية منتشرة تشجّع على الفسق والفجور، والتحلّل من مكارم الأخلاق، وضوابط العفة، وتستهن بشرائع الدين، وأحكامه، وآدابه.

وكم من أغنية منتشرة تثير نغرات إقليمية وقوميةً ضدّ مبادئ الوحدة الإسلامية ومفهوماتها.

وكم من أغنية ترددها أفواه المراهقين والمراهقات، ثم الراشدين أحياناً، وهي تتضمن تمجيد مبادئ اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية، أو

فلسفات تخالف مبادئ الإسلام وأحكامه وشرائعه وعقائده .

وكم انتشرت أغاني وأناشيد تمجّد زعماء مَصْنُوعين صُنْعاً، وهُم خائنون لأمتهم وأوطانهم، وقد رفعهم إلى مرتبة الزعامة أعداء الإسلام بالأعيبهم وحيلهم السياسية والإعلامية، ثواباً لَهُم على خياناتهم التي باعوا فيها أنفسهم وشعوبهم وبلادهم لهم، وجَدُّوا كُلَّ قواهم في تحقّيق أغراض أعدائهم .

وهذه الأغاني والأناشيد تُرَدِّدُها الأجيال ترديداً بيتاً وبيتاً، وتتصوّر أنّ مضموناتها الفكرية من الأمور المسلّم بها، التي لا تقبلُ الاعتراض ولا النقد . وقد حقّق المفسدون في الأرض كثيراً من أغراضهم بهذه الوسيلة من وسائل التوجيه غير المباشر .

- ٣ -

موقف الإسلام من استخدام هذا السبيل

فيما ظهر لي استنباطاً من إقرارات الرسول ﷺ، ومفهومات الشريعة الإسلامية بشكل عام، أرى أنّه لا مانع إسلامياً من استخدام الأغاني والأناشيد لخدمة الدعوة إلى الإسلام، وتثبيت عقائده ومفهوماته، والنُصْح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحثّ على الالتزام بشرائع الإسلام ونظمه وأحكامه وأخلاقه وآدابه، والافتخار بها، والاعتزاز بأمجاد المسلمين وتاريخهم المشرق، والدعوة إلى الاقتداء بالسلف الصالح .

وكذلك أناشيدُ الدعاء والابتهال إلى الله، والصلاة والسلام على رسوله، وذكر أخلاقه وجهاده وما اختصه الله به من فضائل .

وكذلك أناشيد الحماسة حثّاً على الجهاد في سبيل الله، والتضحية

بالأموال والأنفس لإعلاء كلمة الله، ونُصْرَةِ دينه، وإقامة العَدْل في الأرض، ومقاومة البغي والظُّلم والفساد.

كُلُّ ذلك بشرط عدم الإفراط في الأغاني والأناشيد، حتّى لا يكون الغناء مقصوداً لذاته، فيتحوّل عن الهدف منه، وبشرط سلامة هذه الأغاني والأناشيد من التكسّر والتخثُّث ولُحُونِ أهل المعاصي، وبشرط عدم مصاحبته بالآلات المحرّمة، وسلامة ألفاظها من آية مخالفة دينيّة، وخلوّها من التعبيرات والشطحات المجازيّة التي توهم ما لا يليقُ بكمال الله عزّ وجلّ، أو بجناب الرسول ﷺ، أو بشرائع الإسلام وأحكامه.

ومن أمثلة ما هو ساقط لا يجوز استخدامه الكناية عن السعادة القلبيّة التي تملأ قلبَ العابد الذاكر لربه، بارتشاف الكؤوس الخمرية المسكرة، وكذلك التغزُّل ذو الطابع الشهواني الجسدي، كناية عن الحبّ لله عزّ وجلّ، أو الحبّ للرسول ﷺ.

إلى غير ذلك ممّا تسترّ به قديماً كثيراً من الفسّاق، ثم انخدع به كثيراً من الجهلة، ثمّ صار تقليداً تافهاً سخيلاً مبتدلاً لدى طوائف أدخلت في دين الله ما ليس منه، وابتدعتْ بدعاً ما أنزل الله بها من سلطان، وتعبّست لتقاليدها حتّى كأنّها شرائع ربّانيّة مأذون بها.

نظرة إلى الأدلة:

ويحسُن أن ننظر نظرةً ما إلى الأدلة التي تأذن بالغناء والترنيم، ضمن الشروط التي سبق بيانها.

١ - كان داؤد عليه السلام يتغنى بمزاميره البديعة، وهذه المزامير تشتمل على كلمات مناجاةٍ لله عزّ وجلّ، ودعاءٍ له، وتمجيد لجلاله ولعظيم صفاته، وتسبيح بحمده، وثناءٍ على آلائه، وتذكيرٍ بآياته في كونه.

٢ - من المعروف أنّ العربيّ كان يتغنى بالشّعْرِ في حُدائه، وعند

إنشاده، ويطربُ له، ويَجِدُ في ذلك أثراً محرِّكاً في نفسه.

وكان العرب يُرَدُّون الأهازيج والأراجيز عند العمل، تحريكاً للنفس، وتنشيطاً لِهَمِّهم، وكانوا يفعلون مثل ذلك عند الحزب إثارةً للحماسة، وتشجيعاً على القتال.

وكانوا يفعلون نظير ذلك في الأفراح، وعند استقبال الوافدين ابتهاجاً بهم.

واستمرَّ كُلُّ هذا بعد بعثة الرسول ﷺ، وبعد ظهور الإسلام، وأقرَّ الرسول ﷺ المسلمين عليه، ولم ينكره.

٣ - وعند هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة استقبلَ بالنشيد المعروف المشهور:

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثِيَّاتِ الْوَدَاعِ

واستقبلته جوارٍ من بني النجار بقولهنَّ يَغْنَيْنَ:

نَحْنُ جَوَارٍ مِنْ بَنِي النَّجَارِ يَا حَبَّذَا مُحَمَّدٍ مِنْ جَارِ

ولم ينكر الرسول ﷺ شيئاً من ذلك.

٤ - وعند بناء مسجد الرسول ﷺ في المدينة، صار المسلمون يرتجزون وهم يَتَّبِعُونَ بقولهم:

لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ

فيقول الرسول: لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ، فازجِم المهاجرين

والأنصار.

٥ - وروى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ يَوْمَ

الأحزاب قال:

اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ فَاعْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ

وفي حُنين جعل الرسول ﷺ يردد قوله:

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ أَنْ ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ

وفي غزوة خيبر، نزل الشاعر المسلمُ عامرُ بنُ الأَكْوَعِ يَحْدُو

بالمسلمين، فيقول:

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَاعْفِرْ فِدَاءً لَكَ مَا اقْتَفَيْنَا وَالْقَيْنَ سَكِينَةَ عَلَيْنَا

وَبُئِيَ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا إِنَّا إِذَا صَيَّحَ بِنَا أَبَيْنَا

وَبِالصِّيَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا

وقد قُتِلَ عامرُ بِبُضْرِيَّةِ جَاءَتْ عَلَى رُكْبَتِهِ مِنْ سَيْفِهِ الَّذِي نَبَا فَارْتَدَّ عَلَيْهِ .

٦ - وعند مسلم أيضاً أن النبي ﷺ لما قفل من خيبر، قال سلمةُ بن

الأَكْوَعِ، أخو عامر: يا رسول الله ائذَنْ لي أن أَرْجُزَ لَكَ، فأذن له

رسول الله ﷺ، قال عُمَرُ بنُ الخطاب: أَعْلَمُ ما تقول. قال سلمةُ فقلتُ:

وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فقال رسول الله ﷺ:

وَأَنْزَلْنَا سَكِينَةَ عَلَيْنَا وَبُئِيَ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

وَالْمُشْرِكُونَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا

٧ - وروى مسلم عن البراء قال: كان رسول الله ﷺ يوم الأحزاب يُنْقَلُ

مَعَنَا التُّرَابُ، وَلَقَدْ وَارَى التُّرَابُ بِيَاضَ بَطْنِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةَ عَلَيْنَا إِنَّ الْأُلَى قَدْ أَبَوْا عَلَيْنَا

قال: ورُبَّمَا قال:

إِنَّ الْمَلَاقِدَ أَبَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةَ آبَيْنَا
٨ - وروى مسلم عن جُنْدُبِ بْنِ سُفْيَانَ قال: دَمِيتُ إِضْبَعُ
رسول الله ﷺ في بعض تلك المشاهد، فقال:

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِضْبَعُ دَمِيتِ وفي سبيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ؟
إلى غير ما سبق من الشواهد.

● أما بالنسبة إلى تَحْسِينِ الصَّوْتِ في تلاوة القرآن، فقد ثَبَتَ في
الصحيح أن الرسول ﷺ قد حَثَّ عليه.

٩ - روى الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه والدارمي بإسنادٍ صحيح
عن البراء بن عازب، أن النبي ﷺ قال:
«زَيُّتُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ».

١٠ - وروى البخاري عن أبي هريرة وغيره عن سَعْدِ، وعن أبي
لُبَابَةَ بن عبد المنذر، وعن ابن عباس، وعن عائشة، أن النبي ﷺ قال:
«لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ».

١١ - وروى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ
قال:

«مَا أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيِّ حَسَنِ الصَّوْتِ، يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ، يَجْهَرُ
بِهِ».

أَذِنَ: أي: اسْتَمَعَ وَأَضْغَى.

١٢ - وكان الصحابي أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري - رضي الله
عنه - صاحب صوتٍ حسنٍ، وكان ذا عنايةٍ بترتيل القرآن وتخبيره وتحسين

الصَّوْتِ بِهِ، حَتَّى كَانَ جَمْعٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَجْلِسُونَ إِلَيْهِ وَيَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ مِنْهُ، وَكَانَ إِذَا رَأَاهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَهُ: «شَوْقُنَا إِلَيْ رَبِّنَا يَا أَبَا مُوسَى» فَيَجْلِسُ أَبُو مُوسَى، فَيَتْلُو الْقُرْآنَ، وَيَجْلِسُ عُمَرُ خَاشِعاً إِلَى جَنْبِهِ، وَيَجْلِسُ مَعَهُمَا جَمْعٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

● وَقَامَ أَبُو مُوسَى يَوْمًا يَتَهَجَّدُ فِي الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ وَيَتْلُو الْقُرْآنَ فِي صَلَاتِهِ بِصَوْتِهِ الْجَمِيلِ، فَجَلَسَ الرَّسُولُ ﷺ عَلَى بَابِ حَجْرَتِهِ، وَاسْتَمَعَ إِلَيْهِ وَأَنْصَتَ، ثُمَّ لَمَّا أَصْبَحَ، قَالَ لِأَبِي مُوسَى:

«لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ إِلَيْ قِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ!!، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مِزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ».

وَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ لِأَصْحَابِهِ:

«إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ أُعْطِيَ مِزْمَارًا مِنْ مِزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ».

● وَمَرَّ النَّبِيُّ ﷺ مَرَّةً هُوَ وَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، بِأَبِي مُوسَى وَهُوَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي بَيْتِهِ لَيْلًا، فَوْقَهَا يَسْتَمِعَانِ لِقِرَاءَتِهِ سَاعَةً، ثُمَّ مَضَيَا، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي مُوسَى:

«يَا أَبَا مُوسَى، مَرَزْتُ بِكَ الْبَارِحَةَ وَمَعِيَ عَائِشَةُ، وَأَنْتَ تَقْرَأُ فِي بَيْتِكَ، فَقُمْنَا فَاسْتَمَعْنَا».

فَقَالَ أَبُو مُوسَى: أَمَا إِنِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ عَلِمْتُ لَحَبْرَتُهُ لَكَ تَحْبِيرًا.

لَحَبْرَتُهُ: أَي: لِحَسَنَتُهُ، فَتَحْبِيرُ الْقِرَاءَةِ تَحْسِينُ الصَّوْتِ بِهَا، وَتَحْبِيرُ الشُّعْرِ وَالْكَلَامِ تَحْسِينُهُ.

● وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا أُعْجِبُكَ مِنْ أَبِي مُوسَى؟!، فَقَدْ جَلَسَ فِي بَيْتِ وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ نَاسٌ، فَأَنْشَأَ يَقْرَأُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ.

فقال رسول الله ﷺ:

«أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تُقْعِدَنِي حَيْثُ لَا يَرَانِي أَحَدٌ مِنْهُمْ؟».

قال: نعم، فخرج رسول الله ﷺ فَأَقْعَدَهُ الرَّجُلُ حَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ،
فَسَمِعَ قِرَاءَةَ أَبِي مُوسَى قُفَالَ:

«إِنَّهُ يَقْرَأُ عَلَيَّ مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ».

خاتمة:

ولمّا كان للصّوتِ الحَسَنِ تأثيرُهُ الفَعَالُ في النفوسِ، كان لا بُدَّ من
الاهتمام به، واتّخاذه وسيلةً من وسائلِ التأثيرِ الخَيْرِ النافعِ، ما دام الدّينُ قد
أباح الاستماعَ إليه، وأباح استِخدامَهُ في كلّ وجهٍ لا مَعْصِيَةَ لِلَّهِ فيه، بشرطِ أن
لا يصيرَ غايةً في ذاته، ويخرجَ عن كونه سبيلاً لأمرٍ مبرورٍ، أو فيه طاعةٌ لله
عزّ وجلّ، بل قد يكونُ استخدامُ الصوتِ الحَسَنِ الذي يُباحُ الاستماعُ إليه
عملاً مبروراً يُوجِرُ عليه مُسْتَحْدَمُهُ.

* * *

المقالة السابعة
من سُبُل التوجيه غير المباشر

إدخال البيان الإسلامي
ضِنَن العلوم المختلفة عند المناسبات الملائمات

- ١ -

المطلوب في الفُرص المتاحة

حاملُ الرسالة ينبغي أن يكون همُّه الأعظم في حياته تأدية وظائف رسالته ما استطاع إليها سبيلاً.

فهو مطالبٌ بأن يَنْتَهزَ كلَّ سانحة، وكلَّ فرصة تَمُرُّ به في حياته، يرى أن باستطاعته أن يؤدي فيها شيئاً من رسالته أداءً مَرْجُوعاً منه النَّفْعُ، بطريقة حكيمة مَضْحُوبَةٍ بِالرَّفْقِ، وبأَسْلُوبٍ تَسْلِيٍّ تَلْقَائِيٍّ غَيْرِ مُنْفِرٍ وَلَا نَابٍ وَلَا جَافٍ.

وأَفْضَلُ الطُّرُق ما كان منها بأسلوبٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ، وَغَيْرِ مُخَصَّصٍ بِعِنَاوَانٍ من عنوانات الدَّعوة إلى الله، أو التُّصْحح والإرشاد، أو الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.

- ٢ -

انتهاز المناسبات التي تُتاح في مختلف العلوم

والمناسبات التي تُتاح لحامل الرسالة خلال بُحُوثِ العلوم ذواتِ

التخصّصات المختلفة، حتّى ما كان منها علمياً بَحْتاً، كثيرةً جدّاً، لأنّه ما من علمٍ من العلوم إلّا لَهُ صِلَةٌ ما بالخالقِ جلّ جلاله، إذ لا بُدَّ أن يشتمل على مظهرٍ أو أثرٍ من آثار صفاته، أو أنظمته، أو علمه وقُدْرته وحكمته، أو مفهومٍ أو قضيةٍ ممّا يتصل بمفاهيم الدّين الذي اصطفاه الله لعباده.

وباستطاعة حامل الرسالة أن يستفيد من المناسبات المتاحة في مختلف العلوم، وأن يُقدّم شيئاً من مضمونات رسالته، وهو يشرح مسائل العلم الذي يبيحه، لكنّ هذا يحتاج في بعض العلوم ذات التخصّص البحت مَهارةً فائقة، وذكاءً متوقّداً، وبديهةً حاضرة.

أمثلة:

١ - ففي علم الرياضيات الصّرف مثلاً، يمكن الاستفادة من الأعداد، لبيان أنّ الموجود الأزليّ واحدٌ في ذاته، وفي صفاته، وعنه صدرت المتعدّات في الكون كلّها، وأنّ كلّ جنسٍ ونوعٍ وصنفٍ من الكائنات مؤلّف من زوجين اثنين، وقد جعله الخالق كذلك لينفرد بالوحدانية من دون سائر ما خلّق في كونه.

ويمكن الاستفادة من المطابقة بين الأسس الرّياضيّة، وظواهرِ خلقِ الله في الكون، القائمة على هذه الأسس التي هي جزءٌ من علمه المحيط بكلّ شيء.

ويمكن الاستفادة من بعض المناسبات في الأعداد لبيان أنّ الدّوات المتعدّات يستحيل عقلاً أن تكون ذاتاً واحدة، فالربّ الخالق يجب عقلاً أن يكون واحداً لا شريك له، والإله المعبودُ يجبُ أن يكون إلهاً واحداً لا شريك له.

إلى غير ذلك ممّا يحتاج مهارةً فائقةً، وذكاءً لمّاحاً.

٢ - وفي علمي الكيمياء والفيزياء مناسباتٌ كثيراتٌ تتّاح لحاملِ الرّسالة، ويستطيع أن يَهْتَبِلَها لبيان اتقان الخالقِ لأنظمته في كونه، ولبیان

التشابه بين أنظمة الكون المادي الخاضع للتكوّن الجبري، وأنظمة الدّين المنظمة لأعمال الناس الاختيارية، إذ وُضِعُوا في الحياة الدّنيا موضع الابتلاء.

وباستطاعة حامل الرسالة أن يستخرج وجوه تشابه كثيرة، كالشبه بين السجود الجبري في الكائنات غير المختارة، والسجود الاختياري في العباد الممتحنين المختارين في حياتهم، وكالشّبه بين صراع الماء النازل من السماء، وزبد الأرض الذي يطفو على السّيل ثم يكون جُفَاءً في نهاية الصراع، وبين صراع الحقّ والباطل والمحقّقين والمبطلين، إذ يزهق الباطل في نهاية الصراع.

٣ - وفي علوم الأحياء والتشريح والطب البشري مناسبات كثيرة تُتاح لحامل الرسالة، ويستطيع أن يَهْتَبِلَهَا لِخِدْمَةِ الفكر الإسلامي، في أصوله وفروعه.

٤ - أما العلوم الإنسانيّة فصلّتها بمسائل الفروع الإسلاميّة صلة صميّة جدّاً، لاتّحاد كثير من موضوعاتهما، ولأن أحكام الفقه الإسلاميّ تتناول كثيراً مما تتناوله أحكام هذه العلوم، مُتَعَارِضَةً مَعَهَا، أو متفقّة أحياناً، وباحثها مطالب بأن يتعرّض خلال بحثه لها لأحكام الشريعة الإسلاميّة ومفهوماتها المتعلقة بقضاياها.

٥ - وأما الآداب الشريّة والشّعريّة، وموضوعات الفنون الجماليّة المختلفة، فذوات ميادين فسيحة جدّاً لعرض الفكر الإسلاميّ فيها.

فالموضوعات والأفكار الإسلاميّة يمكن تقديمها بحلّل أدبيّة، والأمثلة والشواهد على الموضوعات الأدبيّة والبلاغيّة والجماليّة، يمكن اقتباسها من النصوص ذوات التوجيه الإسلاميّ، والدعوة إلى الله والتّضح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إلى غير ذلك.

استغلال المفسدين للعلوم والآداب والفنون

كثيراً ما يَدُسُّ المفسدون في الأرض، والمضللون، أفكارهم وآراءهم الاعتقادية، وتفسيراتهم الفلسفية، ومفاهيمهم التي تخدم أهواءهم وشهواتهم ومصالحهم الخاصة، ومذاهبهم الوضعية السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وتضليلاتهم المتصلة بأنواع السلوك الإنساني، في مختلف العلوم والفنون، حتَّى ما كان منها بَحْتاً.

وغرضهم من دسها في ثنایا العلوم والفنون المختلفة أن تتسلَّل إلى الأذهان والنفوس والقلوب بطريقة غير مباشرة، فهي بهذا التسلُّل تستطيع أن تتهرَّب من المراقبة الفكرية الناقدة، التي تهتمَّ بِكَشْفِ الزَيْفِ، والتحرِّي عن الحقائق.

والسببُ في ذلك أن الأفكار والنفوس تكون حينئذٍ واقعةً تحت تأثير مؤثراتٍ صارفات:

(أ) فهي إمَّا أن تكون مشغولةً بمتعةِ الأدب والفنِّ عن كشف زيف المضامين الفكرية، بحيلة أن الأدب أو الفنَّ إنمَّا يُهْمُهُمَا العناية بالجمال الأدبي أو الفني، لا بصحة المضامين الفكرية.

(ب) وإمَّا أن تكون واثقةً من أن البحثَ علميَّ متجردً، يَعْتَمِدُ على البراهين العقلية، أو التجارب والمشاهدات، وتسجيل النتائج بأمانةٍ وصفيةٍ صادقة، تحكي ما هو واقعٌ فعلاً في الطبيعة، استناداً إلى ما قدمته المشاهدة والتجربة.

وبسبب الانشغال بالمتعة، أو الثقة بالبحث العلمي المتجرد، تدخل المندساتُ دخولاً مُزَيِّفاً، بطريقةٍ غير مباشرة، فلا تواجهُ التقدُّمَ الفكريَّ

المطلوب، فتعلّق في الأنفس، دون أن تجد عقبات صادات تفحصها وتكشف زيفها، وقد تُمسي بال تكرار مألوفة، ومع الإلّف يخفّ الاعتراض عليها، ومع طول الزمن وتوالي الأيام تغدو مفهومات تقليدية غير مرفوضة، كسائر التقاليد التي يتناسى الناس الاعتراض عليها، مهما كانت باطلة أو فاسدة، ومهما كانت من قبل إيلافها أموراً مُستنكرة ومُستهجنة.

بهذه الحيلة التسليّة دخلت في الآداب والفنون، والعلوم العقلية، والعلوم الوصفية، معتقدات فاسدات، وتفسيرات فلسفيات باطلات، ومذاهب سياسية واجتماعية واقتصادية مختلفة، بحسب أهواء كتّابها وموجهيها السياسيين أو غيرهم، من دعاة الضلال في الأرض، وشياطين الفتنة والفساد والإفساد.

أمثلة:

١ - ففي العلوم العقلية، والعلوم الطبيعية دخلَ التفسير الماديّ الملحد مُندساً، ودخلت الفلسفات الوجودية الملحدة، مع أنّ هذه التفسيرات غريبة عن طبيعة هذه العلوم، ولا تخضع لوسائلها.

٢ - وفي علم النفس دخلت التفسيرات الإلحاديات، والتعليقات المضلّلات الداعيات إلى الإباحية، والتحلل من ضوابط العقّة، ومن مكارم الأخلاق، مع أنّ هذه الأمور لا علاقة لها بالعلوم الوصفية التي تصفّ الواقع الطبيعي.

٣ - وكذلك حصل في علم الأحياء، وعلم الاجتماع، وفي سائر العلوم الإنسانية، وفي الآداب والفنون، إذ دخلت الأفكار والآراء المُختلفة الداعية إلى الإلحاد والكفر بالله، وإلى كلِّ شرٍّ وفسادٍ في الأرض، وإباحية وتحللٍ من فضائل الأخلاق ومكارم السلوك.

ومن أمثلة هذا قصص «جان بول سارتر» ومسرحياته، وشعر بعض

نصارى لبنان وغيرهم، وقصص «إحسان عبد القدوس» وقصص ومسرحيات القوميين، والاشتراكيين، والشيوعيين، والعلمانيين، وشعر ونثر ملاحدة الحدائين، إلى زيف كثيرٍ أندس في الموسوعات العلمية الغربية، والشرقية المعادية للإسلام.

* * *

المقولة الثامنة
من سُبُل التوجيه غير المباشر

البُتُّ العرضيُّ المفيدُ عند المناسبات الملائمات

- ١ -

التعريف

البُتُّ العرضيُّ: هو البيان الكلامي الذي يأتي عَفْو الخاطر، دُونَ إعدادِ سابقٍ، ولا قَصْدٍ مُدَبَّرٍ، ولا يَشْعُرُ المخاطَبُ به بأنَّ سَوَقَ الكلامِ مَقْصُودٌ لذاته في أَضْلِ الموضوع الذي يجري الحديثُ حوله.

وهو في الكلامِ يُشَبِّه الإلْمَاحَ في الأجسامِ، فالإلْمَاحُ هو ما تفعَلُهُ الحسَناء من إظهارِ بعضِ محاسنها وسَتْرِها بِسُرْعَةٍ، لِيَلْمَحَهَا الناظرُ فَيُعْجَبَ بها، وتَفَعَّلَ هذا بِطَرِيقَةٍ قد يَشْعُرُ الناظرُ إليها بأنَّها حركةٌ غيرُ مقصودة.

ويَنْتَهزُ أَهْلُ الفطانةِ والذكاءِ اللَّمَّاحَ المتوقِّدَ حاضرٍ والبُديهةِ أضعفَ المناسباتِ في الأحاديثِ المتداولةِ في المجالسِ لِيُبَيِّنُوا بعضَ ما يريدونَ بَيِّنَةً من أفكارٍ بَثًّا عَرَضِيًّا، دُونَ أَنْ يَشْعُرُوا من يتحدَّثونَ معهم أَنَّ هذه الأفكارَ قد سِيَقَتْ ضِمْنَ خَطَّةٍ مرسومةٍ مُعدَّةٍ سابقاً، بل جاءتْ عَفْوَ خِوَاطِرِهِمْ فطرحوها،

دون اهتمام ولا عناية بها، ولا إصرارٍ على توجيهها بغية توصيلها إلى الآخرين، أو إقناع بها.

وقد يكون البثُّ العرضي استطراداً مع سائحة عارضة، أو تعليقاً على فكرة عابرة، أو اشتقاقاً من كلمةٍ أو جُملةٍ، أو تفريراً على قضيةٍ كليةٍ، أو نحو ذلك.

ولهذه الوسيلة تأثيرٌ كبيرٌ على أفكار بعض الناس، ولا سيما الذين تلائم الفكرةُ التي جاءت في البثِّ العرضي ما في نفوسهم من أهواء ورغبات، إذ يَشْعُرُونَ بأنَّ قائلها أطلقها عفْواً وَعَلَى البديهة دون قَصْدٍ منه، فهي بمثابة صَيْدٍ ثمينٍ جاء بتلقائيةٍ غير مقصودة، فَمِنَ المفيدِ الإسراعُ باصطيادِها، والاحتفاظُ بها، فمن اصطادها واحتفظ بها صارَ بَعْدَ ذلك من دُعاتها والناشرين لها.

- ٢ -

المطلوب من حَمَلَةِ الرِّسَالَةِ بالنسبة إلى هذا السبيل

كما سبقَ البيان حول الوسيلة السابقة فإنَّ حامل الرسالة مُطَالَبٌ بأنَّ ينتهزَ كُلَّ سَانِحَةٍ، وكلَّ فُرْصَةٍ تَمُرُّ في حياته، يَرَى أنَّ باستطاعته أن يؤدي فيها شيئاً من رسالته أداءً مرجوَّ النَّفْعِ، بطريقةٍ حكيمةٍ مصحوبةٍ بالرَّفْقِ، وبأسلوبٍ تلقائيٍّ غير منقَرٍ ولا نابٍ ولا جافٍ ولا ممجوجٍ.

وما أكثر المناسبات التي تُتَّاحُ في الأحاديثِ التي تدور في مجالس الناس، للبثِّ العرضي الذي قد يؤثر أكثر من تأثير أساليب البيان الأخرى، إذ يتسلَّلُ إلى داخل نفوس بعض الناس دون أن يصادفَ أيَّ عَقَبَةٍ صَادَةٍ.

والأفكار الإسلامية هي أثرى الأفكار التي يُمكنُ أن تُنتهزَ المناسباتُ في الأحاديث، لبثِّها بثاً عَرَضِيًّا.

استغلال المفسدين سبيل البث العرضي

وقد عرف المفسدون في الأرض، ودعاة الشر والضلال، ما للبث العرضي من تأثير في نفوس كثير من الناس، فجعلوه أحد سبُلهم الإفسادية المضلّة الكبرى، ويستغلّ أذكياءهم أضعف المناسبات للبث العرضي دون أن يُشعروا المخاطبين بأنّ لهم أهدافاً حاضرة في تصوّراتهم، وهم يترصّدون لها المناسبات الملائمة لانتهازها.

أمثلة:

● كأن يكون المجلس مندمجاً في توجيه اللوم الشديد لبعض من يُطلق عليهم اسم «رجال دين» في سلوكه الشخصي، أو طريقته المنقرّة، أو مظهره الذي تنقصه الأناقة المحبّبة، أو في استغلال أرباب السياسة أو أصحاب الأموال له.

فيستغلّ بعضُ الجلساء الأخبث هذه الحالة، فيُطلق مثل عبارة: «هكذا رجال الدين» أو عبارة: «طبيعة المفاهيم الدينية تكوين أشخاص من هذا القبيل» أو نحوهما، ثمّ يقفزُ بسرعة عن مناقشة هذه العارضة، مع حرّصه على أن يستمرّ الجلساء في متابعة الكلام حول موضوعهم السابق.

وكمّ يكون لأمثال هذه الكلمات من تأثير في بعض النفوس.

● وكأنّ يستغلّ المدرّسُ العلماني أو الملحد البث العرضي، إذ ينتهز له أثناء الدرس مناسبة تمرّ عارضةً، وربّما اصطنع هو المناسبة اصطناعاً ليبتّهبها، فيلقي عبارةً فيها تمجيد دارون وآرائه وتأييد فكرة التطور الذاتي، أو عبارة فيها تأييد آراء فرويد في الكبت الجنسي وضرورة نشر فكرته الأباحية، أو عبارة فيها آراء دوركايم في علم الاجتماع.

● وكان يتحدث الأستاذ الصليبي بين تلاميذه المسلمين، عن صفات قساوسة الكنيسة، وراهبان الأديرة وراهباتها، ويشنع عليهم بفحشهم وسلبيهم للأموال، ثم يقول: هكذا كلُّ رجال الأديان يتاجرون بالدين لتحقيق مآربهم الخاصة.

ويأخذُ أبناء المسلمين هذه العبارة ونحوها بسذاجة فيعمومونها على علماء المسلمين، ويكرهون الذين وكلَّ الدعاة له، والناصحين المرشدين، والأمينين بالمعروف الناهين عن المنكر.

مع أن هذا الأستاذ الصليبي متعصبٌ لصليبيته، ويحترم ويعظم القساوسة، والراهبان، وكلَّ رجال الكنيسة النصرانية، ولكنه يُغري بعلماء المسلمين بسبيلُ البتِّ العرضيِّ من سبُل التوجيه غير المباشر.

* * *

الفصل الثاني

العقبات الصّادات للتّوجيه وأساليب معالجتها

وفيه مقدمة وخمس عشرة مقولة منقسمة إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول

عقباتٌ تكون أسبابها من حملة الرسالة وفيه ستُّ عقبات

المقولة الأولى: ١ - عقبة المصلحة الشخصية الدنيوية لدى حامل
الرسالة.

المقولة الثانية: ٢ - عقبة كبر حامل الرسالة وعُجبه بنفسه.

المقولة الثالثة: ٣ - عقبة القبائح المنفرة للحواس.

المقولة الرابعة: ٤ - عقبة سوء خلق حامل الرسالة.

المقولة الخامسة: ٥ - عقبة كون حامل الرسالة غير موثوق به ولا
محترم من قِبَل مَنْ يُؤَدِّي بينهم رسالته.

المقولة السادسة: ٦ - عقبة كون حامل الرسالة مكروهاً لشخصه أو لمن
ينتمي إليهم.

القسم الثاني

عقباتٌ تكونُ أسبابها ممّن تُوجّهُ لهم الرسالة، وفيه ست عقبات

المقولة السابعة: ١ - عقبة كِبْرٍ من تُوجّهُ له الرسالة، وعُجْبِهِ بنفسه .

المقولة الثامنة: ٢ - عقبة شعور من تُوجّهُ له الرسالة بالحرمان من حرّية التفكير أو حرّية العمل .

المقولة التاسعة: ٣ - عقبة سوابق الأفكار والمفاهيم والمعتقدات والعادات .

المقولة العاشرة: ٤ - عقبة التقليد الأعمى .

المقولة الحادية عشرة: ٥ - عقبة الحسد .

المقولة الثانية عشرة: ٦ - عقبة الأهواء والشهوات من متاع الحياة الدنيا .

القسم الثالث

عقباتٌ تكونُ أسبابها في الوسط بين مُوجّه الرسالة

وبين من تُوجّه له، وفيه ثلاث عقبات

المقولة الثالثة عشرة: ١ - عقبة الوسواس والتسويات الشيطانية .

المقولة الرابعة عشرة: ٢ - عقبة أعمال المضلّين وجنود الغزو الفكري المفسدين .

المقولة الخامسة عشرة: ٣ - عقبة عدم توافر وسائل الاتصال الإعلامي المؤثر .

نظرة عامة

تَقُومُ دُونَ تَقَبُّلِ مَا يُوجِّهُهُ حَمَلَةُ رِسَالَةِ الْهَدَايَةِ، أَوْ رِسَالَةِ الْحِمَايَةِ وَالْإِصْلَاحِ، عَقِبَاتُ صَادَاتٍ، تَقِفُ دُونَ مَرَاكِزِ الْاسْتِجَابَةِ لِدَى الْمَقْصُودِينَ بِالتَّوْجِيهِ، فَتَكُونُ بِمَثَابَةِ حَوَاجِزَ تَجْعَلُهُمْ يَرْفُضُونَ أَوْ لَا يَسْتَقْبِلُونَ الْمَبَادِيءَ الَّتِي يُطَلَّبُ مِنْهُمْ فَهَمُّهَا وَاعْتِقَادُهَا، وَالْفَضَائِلَ السَّلْوَكِيَّةَ النَّفْسِيَّةَ وَالْجَسَدِيَّةَ الَّتِي يُطَلَّبُ مِنْهُمْ الْقِيَامُ بِهَا فِي حَيَاتِهِمُ الْعَمَلِيَّةَ.

وبالتأمل التحليلي يمكن اكتشاف أن العقبات الصادات تنقسم إلى ثلاثة

أقسام:

القسم الأول: عقبات تكون أسبابها من حمل الرسالة، ويظهر لنا منها

بوضوح ست عقبات:

العقبة الأولى: المصلحة الشخصية الدنيوية لدى حامل الرسالة.

العقبة الثانية: كبر حامل الرسالة وعُجْبُهُ بِنَفْسِهِ.

العقبة الثالثة: ما في حامل الرسالة من قبائح منفرة للحواس.

العقبة الرابعة: سوء خلق حامل الرسالة، كالشح، وسرعة الغضب، والفظاظة، وغلظ القلب، والأنانية المفرطة، والقسوة، والعنف، وحُبُّ التسلط.

العقبة الخامسة: كون حامل الرسالة غير موثوقٍ به، ولا محترمٍ من قِبَلٍ من يؤدي رسالته بينهم.

العقبة السادسة: كون حامل الرسالة مكروهاً من قِبَلٍ من يؤدي رسالته بينهم، لشخصه، أو أسرته، أو قبيلته، أو انتمائه الحزبي، أو غير ذلك.

* * *

القسم الثاني: عقباتٌ تكون أسبابها مَمَّنْ تُوجَّهْ لهم الرسالة، ويظهر لنا منها بوضوحٍ ست عقبات:

العقبة الأولى: عقبة كبيرٍ من توجَّهْ له الرسالة وعجبه بنفسه.

العقبة الثانية: عقبة شعورٍ من توجَّهْ له الرسالة بالحرمان من حرّية التفكير، أو حرّية العمل.

العقبة الثالثة: عقبة سوابق الأفكار والمفهومات والمعتقدات والعادات.

العقبة الرابعة: عقبة التقليد الأعمى.

العقبة الخامسة: عقبة الحسد.

العقبة السادسة: عقبة الأهواء والشهوات من مَتَاعِ الحياة الدنيا.

* * *

القسم الثالث: عقباتٌ تكون أسبابها في الوسط بَيْنَ مَوْجَّهْ الرسالة وَمَنْ تُوجَّهْ له، ويظهر لنا منها بوضوحٍ ثلاث عقبات:

العقبة الأولى: الوسواس والتسويات الشيطانية.

العقبة الثانية: أعمال المصلين وجنود الغزو الفكري المفسدين.

العقبة الثالثة: عدم توافر وسائل الاتصال الإعلامي المؤثر.

وفي المقولات التالية بعض شرح لعقبات هذه الأقسام الثلاثة:

شرح عقبات القسم الأوّل
العقبات التي تكون أسبابها من حملة الرسالة
وهي ست عقبات

المقولة الأولى
من العقبات الصادات

- ١ -

عقبة المصلحة الشخصية الدنيوية لدى حامل الرسالة

من العقبات الصادة للتوجيه الذي يقوم به حامل الرسالة، أن يكون ذا مصلحة شخصية دنيوية يُريدُ تحقيقها لدى من يؤدّي رسالته بينهم، أو يكونون هم وسيلةً لتحقيقها عند غيرهم من الناس.

فاتهام النَّاسِ حاملَ الرسالةِ بالمصلحةِ الشخصيةِ الدنيويةِ، من أدائه رسالته، إذا كان لهذا الاتهام أماراتٌ ودلائلٌ تؤكد صحته، يولد في نفوسهم غالباً عقبةً من رُدود أفعالها، رفضُ الاستجابة لدعوته، والإعراضُ عن قبول نصائحه وإرشاداته، دون أن يَزِنُوا ما يدعوهم إليه أو ينصحهم به، ويرشدهم إليه، بالميزان العقلي المنطقي والعلمي، ودون أن يفكروا في صحّة وسلامة الأعمال التي يدعوهم إلى القيام بها، أو فسادها، ودون أن يبحثوا عمّا تجلبه من خير أو شرّ، ونفع أو ضرر.

وهذه العقبة تزول حينما يثقون بأن حامل الرسالة مُخْلِصٌ في دعوته، ونصحه وإرشاده، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وأنه ليس ذا غرض شخصي دنيوي من أجله يحاول إقناعهم بصحة ما يدعوهم إليه، أو ينصحهم به، ويرشدهم إليه، إلا ابتغاء مرضاة الله عزّ وجلّ، ورجاء ثوابه، والحرص عليهم بدافع الأخوة والرحمة، أو بدافع الغيرة على المصلحة العامة، وسعادة الأمة التي هو منها.

ولا تُوجَد هذه العقبة أصلاً حينما تتسلّل أفكار رسالته تسليلاً يتوهمّ معه مُتلقّيها أنه هو مبتكرها، وأنه هو الذي اتجهت إرادته للقيام بالعمل الذي ينصح به حامل الرسالة، ولم يُملِه عليه أحدٌ.

ولا توجَدُ هذه العقبةُ أيضاً حينما ترتبط الأفكار أو الأعمال بشهوة من شهوات النفس، أو هوى من أهوائها، أو مصلحة عاجلة قريبة واضحة من مصالحها، والسبب في هذا أن حلاوة الاستمتاع بالشهوة، أو حلاوة إرضاء الهوى، أو الطمع بالحصول على المصلحة أو المنفعة العاجلة، من شأنها أن تُخدّر في النفس مراكز الحذر التي توجّه شعيرات الاتهام بإحساس مرهف، منذ تتوجّه نحوها واردة خارجية، ويكون ذلك قبل أن تتحرك أو تتوجّه أجهزة البحث العلمي داخل الإنسان، بغية التحرّي عن الحقيقة، وقياس الأمر الوارد بمقاييس المنطق السليم، ومخترنات المعرفة السابقة.

ولدعاة الضلال والشرّ والفساد والإفساد في الأرض حيلٌ كثيرةٌ جداً، يُخفون بها مصالحهم الشخصية، حتى لا يصطدموا بهذه العقبة، ومن أهمّ هذه الحيل:

استهواء الناس عن طريق غرائزهم، وأهوائهم، وشهواتهم، ورغباتهم، وما يروون فيه مصالحهم العاجلة من زينة الحياة الدنيا.

موقف التربية الإسلامية :

هذه العقبة قد ذللتها ووطأتها جميع الرسالات الربانية للناس، بتجريد الرُّسل من المصالح الشخصية التي ترتبط بالذين يدعونهم إلى الله . وهذا يدلُّ على أنَّ حملة رسالاتهم من بعدهم مكلفون أن يتجرّدوا كذلك من المصالح الشخصية الدنيوية التي ترتبط بالذين يؤدّون رسالاتهم بينهم .

فدعوة الرُّسل دعوة إلى الله لا إلى أنفسهم، وهم لا يسألون النَّاس أجراً على ما يقومون به من أعمال لخير الناس، وما يبذلونه من تضحياتٍ لأممهم، وللَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُمْ مؤمنين بهم، وما يقدمونه لهم من هداية ونُصْحٍ، وأرشادٍ، وتربيةٍ، وحرصٍ على نجاتهم، وغيرِ عليهم .

إنما الباعث لهم ابتغاء رضوان الله عزّ وجلّ، وأرادةُ الخير للناس، بعاطفةِ الرّحمة بهم، والشفقة عليهم، وهم يطلبون ثوابهم من الله الذي أرسلهم .

* * *

المقولة الثانية
من العقبات الصادات

- ٢ -

عقبة كِبْرٍ حَامِلِ الرِّسَالَةِ وَعُجْبِهِ بِنَفْسِهِ

- ١ -

الكبر والعجب بالنفس من أقبح الصفات المنفرة

من أقبح الصفات المنفرة التي تجعلُ الناس يُعرضون عن تقبُّلِ دَعْوَةِ الداعي إلى سبيل ربه، أو تقبُّلِ نُصْحِ الناصح، وإرشاد المرشد، وتعليم المعلم، أو أمره ونهيه، استكباره، وعُجْبِهِ بِنَفْسِهِ، وتعالیه علی من يُؤدِّي بينهم رسالته.

إن استكباره وعُجْبِهِ بِنَفْسِهِ وتعالیه علی الناس يَكْشِفُ عُيُوبَهُمْ لِأَعْيُنِهِمْ الفاحصة المتبَّعة، فيستسخفونه ويستخفونه ويوجهون له نظرات ازدراء واحتقار، عقوبة له على تعالیه واستكباره وعُجْبِهِ بِنَفْسِهِ، ویرَوْنَهُ مَغْرُوراً يتعالى بنفسه وهو وضيع، ويتعاضم وهو حقير.

فيقع في ورطة التناقض بين ما يُريده لنفسه من استعلاء على الناس، وما يَحْمِلُونَهُ لَهُ من احتقار وازدراء، فلا يَأْلِفُهُمْ وَلَا يَأْلِفُونَهُ.

إنَّ الناس بحسب ما فُطِرُوا عليه من صفات نفسيّة، يكرهون المستكبرين المعجبين بأنفسهم، الذين يتعالَوْنَ عليهم، ويحبُّون ويقدِّرون ويُعظِّمون المتواضعين، المُوطَّئي الأكناف، الذين يألِفون ويؤلِّفون.

أمَّا المتواضعُ فَيَسْتُرُ له تواضعه عيوبه، وكلِّما يرى الناس منه إلاَّ محاسنه، لذلك فهُم يُجِلُّونه ويحبُّونه ويألِفونه، وهو يألِفهم إذ يجدُ لديهم تودُّداً له، وتقديراً لخلقه، وثناءً عليه، ورغبةً في مجالسته ومؤانسته والتعامل معه.

- ٢ -

واجب حَمَلَةِ الرسالة

فَعَلَى حَمَلَةِ رسالة الدَّعوة إلى الله، أو رسالة النَّصح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن يتحلَّوْا بخلق التواضع، ولين الجانب، وخفض الجناح لأتباعهم الذين يستمعون لتوجيهاتهم، ونصائحهم وإرشاداتهم، وأن يكونوا بتواضعهم قدوة حسنة للناس.

فإذا فعلوا ذلك كانوا أكثر قدرةً على امتلاك نفوس الناس وقلوبهم، وأكثر جاذبيَّة لحضور مجالسهم والأنس بها، والاستماع إلى دَعْوَتِهِمْ، ونصائحهم وإرشاداتهم، والاستجابة لأوامرهم لهم بالمعروف ونواهيهم لهم عن المنكر.

وليحذروا أشدَّ الحذر من أن تنزعَ فيهم نفوسهم إلى الاستكبار والتعالي على الناس، بفضل علم، أو عقل وفطنة، أو فضل تقوى أو برٍّ أو إحصانٍ وأعمال صالحات، أو التعالي بما يتفاخروا به الناس عادةً من مالٍ أو جاهٍ أو أسرةٍ أو سلطانٍ أو غير ذلك.

فهذا الاستكبار والتعالي هو من نزع الشيطان الذي يُفسدُ نفوسهم وقلوبهم، ويُفسدوا أعمالهم وأنشطتهم، إذ يقيمُ بينهم وبين الناس عقبةً صادةً

كريمة، ويجعل ما يحملون للناس من رسالة هداية وإصلاح وتقويم عديم الأثر.

وعلى الدعاة أن يجعلوا رسول الله ﷺ أسوتهم الحسنة في تواضعه ولين جانبه ورفقه وخفض جناحه للمؤمنين، فقد كان صلوات الله عليه عظيم التواضع، لَيِّنَ الجَانِبَ، خافض الجناح لمن اتبعه من المؤمنين، لا يتعالى على مسكين ولا ضعيف مستضعف بين الناس، ولا يتعاطم في نفسه على عباد الله، مع ما له ﷺ من شخصية مهيبة، فَمَنْ رَأَهُ بِدِيهَةٍ هَابَةٍ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً وَعَاشِرَهُ أَحَبَّهُ، ولهذا كان ذا قُوَّةٍ تَأْثِيرِيَّةٍ فِي النَّاسِ مُدْهِشَةٍ، إِذْ جَمَعَ فِي ذَاتِهِ صِفَاتِ الْعَظِيمِ حَقًّا، عَلَى تَوَاضُعِ جَمٍّ، وَخَفْضِ جِنَاحٍ وَلَيِّنِ وَرِفْقِي، فَرَفَعَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ فِي نَفُوسِ النَّاسِ وَقُلُوبِهِمْ، فَأَحَبَّهُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى كَانَ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، وَأَحَبَّ إِلَى كَثِيرٍ مِنْهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ.

فمما ورد في شمائل الرسول ﷺ ما يلي:

١ - روى الطبراني عن ابن عباس بإسناد صحيح قال:

«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْلِسُ عَلَى الْأَرْضِ، وَيَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ، وَيَعْتَقِلُ الشَّاةَ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الْمَمْلُوكِ عَلَى خُبْزِ الشَّعِيرِ».

كَانَ يَجْلِسُ عَلَى الْأَرْضِ: أَي: كَانَ يَجْلِسُ عَلَى الْأَرْضِ دُونَ حَائِلٍ مِنْ فَرَاشٍ أَوْ بَسَاطٍ أَوْ نَحْوِهِمَا.

وَيَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ: أَي: مِنْ غَيْرِ مَائِدَةٍ وَلَا خِوَانٍ. وَهَذَا مِنْ تَوَاضُعِهِ ﷺ.

وَيَعْتَقِلُ الشَّاةَ: أَي: يَجْعَلُ رَجْلَيْهِ بَيْنَ قَوَائِمِهَا لِيَحْلِبَهَا، وَهَذَا مِنْ تَوَاضُعِهِ ﷺ، وَمِشَارَكَتِهِ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا عَامَّةُ النَّاسِ.

وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الْمَمْلُوكِ عَلَى خُبْزِ الشَّعِيرِ: أَي: فَلَا يَتَعَالَى وَلَا يَسْتَكْبِرُ.

وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ تَوَاضُعِهِ ﷺ.

٢ - وروى الإمام أحمد عن عائشة بإسناد حسن قال:

«كان رسول الله ﷺ يَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَعْمَلُ مَا يَعْمَلُ الرَّجَالُ فِي بُيُوتِهِمْ».

وهذا من تواضعه ﷺ.

٣ - وروى الإمام أحمد عن أنس بإسناد صحيح قال:

«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَذْبُحُ أَضْحِيَّتَهُ بِيَدِهِ».

٤ - وروى الحاكم عن أنس بإسناد صحيح:

«كان رسول الله ﷺ يُرْدِفُ خَلْفَهُ، وَيَضَعُ طَعَامَهُ عَلَى الْأَرْضِ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الْمَمْلُوكِ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ».

٥ - وروى النسائي عن أنس بإسناد حسن قال:

«كان رسول الله ﷺ يَزُورُ الْأَنْصَارَ، وَيُسَلِّمُ عَلَى صِبْيَانِهِمْ، وَيَمْسَحُ رُؤُوسَهُمْ».

٦ - وروى النسائي والحاكم عن ابن أبي أوفى، وروى الحاكم عن

أبي سعيد بإسناد صحيح:

«أن رسول الله ﷺ كان يُكثِرُ الذِّكْرَ، وَيُقِلُّ اللَّغْوَ، وَيُطِيلُ الصَّلَاةَ، وَيَقْصُرُ الْخُطْبَةَ، وَكَانَ لَا يَأْنُفُ وَلَا يَسْتَكْبِرُ أَنْ يَمْشِيَ مَعَ الْأَرْزَمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ وَالْعَبْدِ حَتَّى يَقْضِيَ لَهُ حَاجَتَهُ».

فهذه شواهد من تواضعه صلوات الله عليه.

- ٣ -

الترغيب في التواضع والتحذير من الكبر

لدى الباحثين في التعليمات الإسلامية أدلة وشواهد كثيرة توجب على حملة الرسالة وسائر المسلمين أن يتحلوا بفضيلة التواضع، والتخلي عن

الكِبْرِ والعُجْبِ في النفس، وكلّ مظاهِرهما في السُّلوكِ، ومشاعرهما في النفس، ومنها ما يلي:

١ - روى مسلم والإمام أحمد والترمذي عن أبي هريرة:
«... وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ».

أي: وما تواضع أحد لأجل ابتغاء مرضاة الله إلا رفعه الله.
وعند مسلم وأحمد عن أبي هريرة أيضاً:
«مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ».

٢ - وروى الإمام أحمد، والبخاري في الأدب المفرد، عن عبد الله بن عمر، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

«مَنْ تَعَطَّمَ فِي نَفْسِهِ، وَاخْتَالَ فِي مَشِيئَتِهِ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ».

٣ - وروى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:
«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ».

فقال رجل: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَتَعْلُهُ حَسَنًا.
فقال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ».

بطر الحقّ: تجاوزُ حدودِ الحقّ، والخروجُ عن منهج الاعتدال، ولهُ مظاهر كثيرة في الفكر، والقول، والعمل، ومنه التَّبَخُّرُ والخِيلاءُ، وشدة الفرح والإفراط فيه، والاستكبار عن قبول الحقّ، والاستِهانةُ بالنعمَةِ والطغيان فيها.

وغمطُ الناس: أي: احتقارهم، وازدراؤهم، واستصغارهم، وعدمُ مقابلة الإحسانِ بالشكر.

٤ - وروى البيهقي في شعب الإيمان عن عُمَر رضي الله عنه قال - وهو على المنبر - : يا أيُّها الناس تواضعوا، فَإِنِّي سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يَقُولُ :

«مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ، فَهُوَ فِي نَفْسِهِ صَغِيرٌ، وَفِي أَعْيُنِ النَّاسِ عَظِيمٌ، وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللَّهُ، فَهُوَ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ صَغِيرٌ، وَفِي نَفْسِهِ كَبِيرٌ، حَتَّى لَّهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِمْ مِنْ كَلْبٍ أَوْ خِنْزِيرٍ».

٥ - وروى الترمذيُّ بإسناد حسن عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال :

«إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أْبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرَثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيِّهُونَ».

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمْنَا: الثَّرَثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا الْمُتَفَيِّهُونَ؟ قَالَ: «الْمُتَكَبِّرُونَ».

الْمُتَشَدِّقُونَ: هُمُ الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ بِمِلءِ أَفْوَاهِهِمْ، وَيَتَصَنَّعُونَ الْقَوْلَ تَصْنَعًا، مَعَ التَّعَاطُفِ بِهِ وَالتَّعَالِيِ عَلَى النَّاسِ، فَيَرْجِعُ إِلَى أَنَّهُ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الْكِبَرِ فِي النَّفْسِ.

٥ - وروى مُسْلِمٌ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ :

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعِظْمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ».

٦ - وروى مُسْلِمٌ عن عياضٍ قال: قال رسول الله ﷺ :

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ».

٧ - وروى البخاري ومسلم عن حارثة بن وهب قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتْلٍ جَوَاطِ مُسْتَكْبِرٍ».

العُتْلُ: هو الجافي شديد الخصومة بالباطل.

الجَوَاطِ: الجَمُوعُ المنوعُ، أو هُوَ المُخْتَال المتكبر، أو هو الفاجر.

٨ - وروى الترمذي عن سلمة بن الأكوع، قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يُكْتَبَ فِي الْجَبَّارِينَ، فَيُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ».

أي: لا يزال يذهب بنفسه مستكبراً مُتَنَفِّخاً متعالياً على خلق الله، متعاضماً في نفسه، حتى يصل به استكباره إلى أن يكون من الجبارين في الأرض، فيقصمه الله عز وجل.

٩ - وروى الترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، عن النبي ﷺ قال:

«يُخَشِرُ الْمُتَكَبِّرُونَ أَمْثَالَ الذَّرِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُورِ الرَّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، يُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى (بَوْلَس) تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، يُسَقُونَ مِنْ عَصَاةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الْخَبَالِ».

الأنيار: جمع النار، وناز الأنيار: أشدُّ لهبها.

الخبال: الجنون وفساد العقل.

* * *

المقولة الثالثة
من العقبات الصادات

- ٣ -

عقبة ما في حامل الرسالة من
قبائح منفرة للحواس

من طبيعة الناس أن يشمئزوا ويثفروا من القبائح التي تستنكرها
حواسهم.

● فالمنظر القبيح في الأشياء والأجسام والثياب، والأوساخ
والقذارات، والأدناس والأرجاس، يكره الناس بطبيعتهم النظر إليها، فهم إذا
مرّوا بها أعرضوا عنها، وإذا علموا بوجودها في مكان ما ابتعدوا عنه
مُدبرين، وإذا دعتهم الحاجة لمشاهدتها نظروا إليها بقرابٍ واشمئزازٍ وتقرُّزٍ،
وقصّوا حاجتهم وأسرعوا مبتعدين نافرين كارهين.

● والرائحة الكريهة إذا انتشرت في مكان ما ابتعدوا عنه مُسرّعين،
يسدّون أنوفهم، أو يسترونها بما يخفف من نفاذها من أقمشة ومناديل، حتى
يصلوا إلى مكان لا تصل إليه الرائحة الكريهة المنتشرة.

● والصوت القبيح المنكر إذا انطلق في مكان ما أزعج من هم فيه
يسمعون، فسدّوا آذانهم، وتدمروا وأعلّنوا انزعاجهم، وطالبوا بإسكاته،

وَرَبَّمَا ابْتَعَدُوا عَنِ الْمَكَانِ كُلِّهِمْ كَارِهُونَ مِنْزَعَجُونَ تَتَقَرَّرُ أَسْمَاعُهُمْ، حَتَّى يَأْتُوا عَنِ الْمَجَالِ الَّذِي يَصِلُ إِلَى آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوْتِ الْمُنْكَرِ الْكَرِيهِ شَيْئًا.

● وذو الطعم الكريه والمذاق المرّ تَنْفِرُ أذْوَاقُ النَّاسِ مِنْهُ، وَلَا يَرْغَبُونَ فِي وَضْعِ شَيْءٍ مِنْهُ فِي أَفْوَاهِهِمْ.

● وذو الملمس المؤذي للامسه، يبتعد الناس عن ملامسته، ويكرهون الاقتراب منه، خشية أن يلمسوه بشيء من أجسامهم.

المطلوب من حامل الرسالة:

ولمّا كان المطلوبُ من حامل الرسالة إن يتخذَ من الوسائل المباحة ما يجذبُ به حواسَّ الناس، حتّى يأتسوا بمجالسته، ويستمعوا إلى دعوته، أو نصائحه، ووصاياه وأوامره ونواهيه، وحتّى لا يشتمروا منه، ولا ينفروا من مجالسته ومخاطبته لهم، فإنّ عليه أن يعتني بجمالِ مظهره وحُسنِ سَمْتِهِ دُونَ إِسْرَافٍ وَلَا خِيَلَاءٍ، وَأَنْ يَعْتَنِيَ بِنِظَافَةِ ثِيَابِهِ، وَطِيبِ رَائِحَتِهِ، وَرِقَّةِ صَوْتِهِ، وَلُطْفِ حَدِيثِهِ، وَأَنْ لَا يُحَسَّ مُجَالِسُهُ بِشَيْءٍ فِيهِ تَتَقَرَّرُ مِنْهُ نَفْسُهُ، وَتَكْرَهُهُ حَوَاسُّهُ، مِنْ مَنْظُورٍ، أَوْ مَسْمُوعٍ، أَوْ مَشْمُومٍ، أَوْ مَلْمُوسٍ.

وعليه أن يختار من الأمكنة والمجالس ما ترتاح فيه الأجسام، وتأنس إليه النفوس، وتُحِبُّ طَوْلَ الإِقَامَةِ فِيهِ.

والمطلوبُ في مكان المجلس أن يكون متجدد الهواء النقيّ، ملائمًا في درجة حرارته لما تستريح له طبائع الأجسام، وأن لا تكون فيه رائحةٌ مستنكرة، والأفضلُ أن يكون عَطِرًا بِعِطْرِ يَلِائِمُ مُخْتَلِفِ الطَّبَائِعِ، كَنَسَمَاتِ أَزْهَارِ الرَّبِيعِ، فَبَعْضُ الْعَطُورِ تُصَدِّعُ بِقُوَّتِهَا بَعْضَ النَّاسِ فَيَنْفِرُونَ مِنْهَا.

وقد كان رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة في حُسنِ سَمْتِهِ، ودوامِ نظافته، وكان كثير العناية بالطيب، كثير الوضوء والاعتسال، لطيف المعاشرة، حُلُوّ الحديث، مؤانسًا لمن يجلسُ إليه، وكان ذا جاذبيّةٍ عجيبةٍ للقلوب والنفوس

والحواس، وكان ذا رَاحَتَيْنِ أَلَيِّنَ من الحرير، وكان صَوْتُهُ المَحَبِّبُ يُنْفَذُ سريعاً إلى أعماق القلوب، وكان من أَضْحَكِ النَّاسِ وَأَطْيَبِهِمْ نفساً، إلا أنه كان لا يَضْحَكُ إلا تَبَسُّمًا، وكان لا يَرُدُّ الطَّيِّبَ إِذَا أُهْدِيَ إِلَيْهِ.

بدعة التَّبَدُّلِ^(١) والرِّثَاةِ:

ومن جَهْلٍ بَعْضِ حَمَلَةِ رِسَالَةِ التُّضْحِ والإرشاد أن يَسْتَهَيِّنُوا بِوَأَجِبِ العِنايةِ بلباسِهِمْ ونظافَتِهِمْ وحُسْنِ سَمْتِهِمْ، مع استطاعتهم المَالِيَةَ وغيرها، يَبْدُ أَنْ من الواجب عليهم أن يكونَ مَظْهَرُهُمْ حَسَنًا غير مستنكِرٍ ولا مَمْجُوجٍ ولا مُنْفَرٍ للناس، إنَّهم يَحْسَبُونَ ذلك من الزُّهْدِ في الدُّنْيَا، ويتصوِّرونَ أَنَّ البَدَاذَةَ أمرٌ مَحْمُودٌ على الرُّغْمِ من أَنَّها من المنفَراتِ الَّتِي تُبْعِدُ النَّاسَ عَنْهُمْ، وتَجْعَلُهُمْ يَشْمَتُونَ مِنْهُمْ.

إنَّ التَّقشُّفَ يكونُ في التَّخْفِيفِ من العِنايةِ بِلذَّاتِ المَأْكَلِ والمَشَارِبِ وغيرها، ومن رَغَبَاتِ جَمْعِ الأموالِ وكنزها، ويكون بالبذل في سبيلِ الله وابتِغَاءِ مَرَضَاتِهِ، لا بالبَدَاذَةِ^(٢) ورثَاةِ الثِّيَابِ والتَّبَدُّلِ، وبعدم العِنايةِ بالنظافة والأناقةِ ووسائلِ تَأْلِيفِ قلوبِ النَّاسِ من الجماليات.

* * *

(١) التَّبَدُّلُ: تركُّ التزيين والتجمل، ولُبْسُ الخَلْقِ من الثياب.
(٢) البَدَاذَةُ: سُوءُ الحالِ، ولُبْسُ الثيابِ البَالِيَةِ القبيحة المنظر.

المقولة الرابعة
من العقبات الصادات

٤ - عقبة سوء خُلق حامل الرسالة

إنَّ سوء خُلُقِ الإنسانِ أيِّ إنسانٍ يجعلُهُ مكروهاً، معزولاً عن الناس، لا يألفُ ولا يُؤلفُ.

فسوءُ الخُلُقِ من الصِّفاتِ التي تتنافى تنافياً كلياً مع المطلوب من حَمَلَةِ رسالة الدعوة إلى سبيل الله، أو حملة رسالة النصح والإرشاد والإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فمن لا قدرة له على مخالفةِ النَّاسِ بخُلُقٍ حسنٍ فلا ينبغي له أن يؤدي بينهم رسالته، وهو مخالطٌ لهم، ومُضْطَرٌّ لمعاشرتهم، لأنَّ سوء خُلُقِهِ يُفسِدُ أثرَ دعوته، أو نُصَحِهِ وإرشاده، ويجعله يُعْطِي أثراً مُضاداً لما يدعو إليه أو ينصحُ به أو يرشدُ إليه. وإذا كان لديه قُدْرَةٌ بيانيَّةٌ صالحةٌ مؤثرة، يستطيع أن يؤدي بها بعضَ وظائفِ رسالته أداءً حسناً، فليكن ذلك دون أن يُعَاشِرَ النَّاسَ ويخالطَهُمْ، كأن يخاطب الناس من وراء المذياع في الجهاز الناقل للصوت، أو في الجهاز الناقل للصوت والصورة، أو في جلسةٍ مُحدَّدةٍ يُؤْتَى به إليها، ثُمَّ يُصَرَفُ عَنْهَا إلى عَزَلَتِهِ عن النَّاسِ، ولا يُتْرَكُ بينَ النَّاسِ مُدَّةً طويلةً، حتَّى لا ينكشفَ لهم سوءُ خُلُقِهِ، ولا تبدو لهم تصرُّفاته المنفرات التي تُعْطِي آثاراً معاكسةً لبياناته القولية.

ولا مجال هنا للتعريف بجملة مساوية الأخلاق التي يجب على حامل الرسالة التَّحَلِّي عنها والتَّبَرُّؤ من قبائحها، لأنَّ موضوع الأخلاق قد أفردت له مصنفاتٌ كبيرة، فينبغي الرجوعُ إليها^(١).

وقد سبق في الباب الثاني «الصفات التي يجب أن يتحلَّى بها حملةُ رسالة الهداية أو رسالة الإصلاح» من هذا الكتاب بيانٌ مُفصَّل للفضائل الخلقية التي يجب على حامل الرسالة أن يتحلَّى بها، ومنها تُفهم الأخلاق السيئة المنافية لها، والتي يجب على حامل الرسالة أن يتخلَّى عنها ويتبرَّأ منها.

* * *

(١) يخسُنُ الرجوعُ إلى كتاب: «الأخلاق الإسلامية وأسسها» للمؤلف وهو يقع في مجلِّدين كبيرين.

المقولة الخامسة من العقبات الصادات

٥ - عَقْبَةُ كَوْنِ حَامِلِ الرِّسَالَةِ غَيْرِ مَوْثُوقٍ بِهِ
وغيرِ مُحْتَرَمٍ مِنْ قِبَلِ مَنْ يُؤَدِّي بَيْنَهُمْ رِسَالَتَهُ

- ١ -

شرح العقبة

ومن العقبات الصادات اللواتي تجعلن نفوس الناس ترفض ما يريد حامل الرسالة توجيهه لهم، أن يكون غير مَوْثُوقٍ بِهِ لديهم، أو غير مُحْتَرَمٍ عندهم. وتشتد هذه العقبة، وتعظم كلما ازداد احتقاره وازدراؤه في نفوسهم، وكلما انهارت ثقتهم به، في علمه، أو فكره، أو سلوكه، أو إخلاصه وصدقته في أداء رسالته.

فعلى القادة المخططين والمشرفين على إدارة أعمال الدعوة إلى الله وإلى صراطه المستقيم، أو أعمال النصح والإرشاد والإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن يختاروا المؤهلين لحمل الرسالة، الذين يمكن أن يثق بهم من يكلفون أداء رسالتهم بينهم، وأن يحترمهم.

وعلى من يريد أن يتصدّر لحمل الرسالة، أن يعدّ نفسه إعداداً حسناً، حتى يكتسب احترام وثقة الذين سيؤدّي رسالته بينهم.

الصفات التي تكتسب بها ثقة الناس واحترامهم

ومن أهم الصفات التي تُكْتَسَبُ بها ثقةُ الناس واحترامهم لحامل الرسالة ما يلي:

الصفة الأولى: التمكنُ العِلْمِيّ من القضايا التي يدعو إليها، أو ينصح بها، أو يرشد إليها، أو يأمر بها أو ينهى عنها.

والخبرةُ الكافية القائمة على تجارب طويلة في استخدام الوسائل النافعة المؤثرة في الآخرين، دعوةً ونُصْحاً وإرشاداً وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وتعليماً.

الصفة الثانية: التَّحَلِّي بِخُلُقِ الصِّدْقِ والأمانة والإخلاص في كلِّ تعليم يُعلِّمه أو نُصِّح ينصح به، أو إرشادٍ يُرشد به، أو عَمَلٍ يُوجِّه له، فإذا سُئِلَ عَمَّا ليس لديه علمٌ به أو عَمَّا نسيه، قال: لا أعلم، أو نَسِيتُ حُكْمَ الْمَسْأَلَةِ.

الصفة الثالثة: القدرات الفكريةُ المناسبة التي تَدُلُّ على أهليته للقيام برسالته قياماً حسناً.

الصفة الرابعة: الصَّبْرُ في معالجة من يؤدّي رسالته بينهم، حتّى يَكْتَسِبَ ثِقَتَهُمْ واحترامهم.

إنَّ الثقة والاحترام لا يُكْتَسَبَانِ إِلَّا بَعْدَ امتحانٍ طويل، وتجاربٍ متكرّرة في ظروفٍ مختلفات.

الصفة الخامسة: التزامُ حَامِلِ الرسالة بما يدعو إليه، أو ينصح به، أو يُرشدُ إليه.

حكمةُ الله في اصطفاء رُسُلِهِ:

ومن حكمة الله عزّ وجلّ لتحاشي هذه العقبة، أنّه اصطَفَى رُسُلَهُ من

ذوي الثقة والاحترام في أقوامهم، خُلُقاً، وفِطَانَةً، ونَسَباً.

فقد كان الرُّسُلُ عليهم الصلاة والسلام أكرم أقوامهم نَسَباً، وأحْسَنَهُمْ خُلُقاً، وأكثرهم فِطَانَةً وَعَقْلاً، مع ما يَتَحَلَّوْنَ به من فصاحة وحُسْنِ مَنْطِقٍ، وقُدْرَاتٍ مَحَاجَّةٍ وبيان، ومع ما هم فيه من جاذبيَّةٍ شخصيَّةٍ مؤثِّرة (جمال وجه - حُسْنِ قِوَامٍ - حُلُوْ ابتسامه - نَظَرَاتٌ مُؤثِّرة نافذة إلى القلوب - كَرَمٌ وسماحة وصفح - رَحْمَةٌ ومعونة - عِلْمٌ وحكمة - سدادُ رأيٍ - حِكْمَةٌ إداريَّةٌ مُحِبِّةٌ للجماهير - إلى غير ذلك مكارم أخلاق ومحاسن شيم).

ومما لا شكُّ فيه أن من شأن هذه الصفات أن تَفْرِضَ على الناس الاحترام والإكبارَ والثِّقَةَ، وأن تَفْرِضَ على الأتباع الذين استجابوا الحبَّ الشديد العميق، والاستسلام الكامل.

- ٤ -

المطلوب من حامل الرسالة الذي لم يكتسب بعُدُ الثقة والاحترام

فعلى حامل الرسالة الذي لم يكتسب بعُدُ الثقة والاحترام لدى الذين يؤدِّي بينهم رسالته، أن يتخذ قبل قيامه بأداء رسالته بينهم ما يستطيع من الوسائل الناجحة المختلفة التي يكتسب بها احترامهم له وثقتهم به.

ولكنَّ هذا الأمرُ قد يتطلَّبُ منه صبراً طويلاً، وأعمالاً شاقَّةً، وحَمَلَ نَفْسِهِ على التخلُّق بفضائل الأخلاق ومحاسن الشِّيم، حتَّى ينكشف للناس بالاختبار الطويل، وبالتجارب المتكرِّرة، أنَّه أهلٌ للاحترام، وأهلٌ للثقة به.

فمَتَى ثَبَتَ لهم ذلك وَثِقُوا به، ثُمَّ يَرْتَفِعُ في نفوسهم شيئاً فشيئاً إلى منزلةٍ مَنْ يَحْتَرِمُونَهُمْ، وَيُقَدَّرُونَهم وَيَرَوْنَ لهم مكانةً رفيعةً، في علم، أو رأي، أو نصيحة، أو غيرها من الفضائل.

وعندئذ لا يجدون أيَّ غَضَاضَةٍ في نفوسهم، إذا أمرهم أو نهاهم، أو
كلفهم عملاً من الأعمال ولو كان شاقاً، أن يستجيبوا له، ويؤدّوا ما كلفهم
إياه، مع تقديرٍ وحبٍّ وحرصٍ على الطاعةِ والاتباعِ والامثالِ في تأديَةِ
المطلوبِ على أحسنِ وجهٍ.

* * *

المقولة السادسة من العقبات الصادات

٦ - عقبة كراهية شخص حامل الرسالة

- ١ -

شرح هذه العقبة

ومن العقبات الصادات لما يُوجَّهه حامل الرسالة، أن يكون بالنسبة إلى من يُريدُ توجِّيه عناصرِ رسالته لهم مكروهاً، أو مُبغضاً، لسببٍ من الأسباب الشخصية أو القومية أو القبليّة، أو غير ذلك ممّا يُولدُ العداة بين الناس .

فالشخصُ المكروهُ المُبغضُ لا يقبلُ منه كثير ممّن يكرهونه ويُبغضونه أيّ توجِّيه يُوجَّهه لهم، ولو كان فيه هدايتهم ونفعهم وخيرهم، لأن الكراهية تقوم في نفوسهم بمثابة العقبة الصادة التي لا تسمَحُ بمرور أيّ واردٍ من قبله .

لذلك توجب قواعد التّربية الإسلامية استخدام الوسائل الحكيمة، لتحاشي هذه العقبة أو تخطئها بما يمكن من وسائل مأذون بها شرعاً، حرصاً على إيصال مضمون الرسالة الإسلامية إلى جميع الناس، المحييين والكارهين، ورغبةً في نجاتهم من عذاب الله، وظفرهم بالسعادة الخالدة يوم الدين .

وسائل معالجة عقبة كراهية شخص حامل الرسالة

إذا أمكن اختيار مَنْ يحمل رسالة الدعوة، أو رسالة التعليم والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من الأشخاص المحبوبين أو غير المكروهين مِنْ قِبَلِ الفردِ أو الجماعة الَّذِينَ يُؤَدِّي بينهم مهمات رسالته، فهو الأمر الحكيم الذي تقتضيه السياسة المؤهلة للنجاح.

ولكن حين تدعو الحاجة الماسّة إلى أن يكون حامل الرسالة مكروهاً من قِبَلِ الَّذِينَ يُؤَدِّي بينهم مهمات رسالته، فعليه قبل أن يُباشِر العمل في أداء رسالته أن يمهد له بما يُزِيلُ من قلوبهم كراهيته وَيُغْضِ به عداواتهم، ويكتسبُ به صداقاتهم، ومودّاتهم، شيئاً فشيئاً، بدءاً بِبَعْضِ الأفراد، ثُمَّ توسّعاً في العلاقات الاجتماعية التّودُّدية، حتّى يكون له جمهورٌ فيهم من أهل وُدّه الَّذِينَ يُؤَيِّدونه وَيُنصِّرونه، وعندئذٍ يُؤَدِّي مهمات رسالته بِصِفَةِ عامّة.

ومن وسائل التودّد لهدم عقبة الكراهية ما يلي:

- ١ - أنواع الإكرام والخدمات التي يقدّمها حامل الرسالة.
- ٢ - العلاقات الاجتماعية الحسنة التي من شأنها أن تملك القلوب.
- ٣ - التلطف في المعاشرة، ولين القول، وحسن المعاملة.
- ٤ - تجاهل كراهيتهم له، والتغاضي عمّا يُوجِّه له من إساءات، وإشعارهم بأنّه لا يتذكّر أو لا يَعْرِفُ شيئاً عن العداوات السابقات التي كانت السبب في كراهيتهم له.
- ٥ - الاعتذار عمّا يُوجِّه ضده من تهم أو انتقادات كانت سبباً في عداوتهم أو كراهيتهم له، أو بيان أنّه لم يتسبّب في شيءٍ منها، وأنّه لا يحملُ

جَرِيرَةً غَيْرَهُ، أو الاعترافُ بما هو ثابتٌ منها مع توبته وَنَدَمِهِ، واستعداده
لترضية خصومه.

ومن الخير في كلِّ هذا أن يكون عَرَضاً، ودون تنبيه واضح، ومهما
أمكن التَّجَاهُلُ وَتَوَجُّيهُ الاعتذارات الضمنية فهو أولى.

حتى إذا شعر حامل الرسالة بأن العداوة قد زالت أو بدأت تتلاشى،
وبأنه بدأ يكتسب الثقة به، وأخذت محبته تَعَلَّقُ في بعض قلوب من يريد أن
يُؤَدِّي بينهم رسالته، عندئذٍ يقوم بأداء مهمات رسالته بينهم، بطريقة تدريجية
رفيقة لا عُنْفَ فيها ولا تَسَلُّطَ، ثم يرتقي شيئاً فشيئاً كلما أحسنَ بتمكّنه، من
قلوبهم، ويوسِّعُ دائرة نشاطه توسيعاً تدريجياً.

* * *

شرح عقبات القسم الثاني
العقبات التي تكون أسبابها ممن
توجه لهم الرسالة
وهي ست عقبات

المقولة السابعة
من العقبات الصادات

- ١ -

عقبة كبر من توجه له الرسالة
وعجبه بنفسه

- ١ -

مقدمة

إن عقبة الكبر والعجب بالنفس من العقبات الخبيثات الصادات، التي تجعل من قامت في نفسه يرفض التعلم على أيدي المعلمين، ويرفض التوجيه من الموجهين، والتضح من الناصحين، فضلاً عن رفضه للأوامر والنواهي التي توجه له من ذوي الأمر والنهي، مربيين كانوا أم أصحاب سلطان.

إن موقف حامل الرسالة (المعلم - الموجه - الناصح - المربي - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) قد يوحى بالنسبة إلى من يتلقى منه بأنه موقف

المتفوق الذي له فضل علم، أو خبرة، أو عقل، أو مكانة، أو تقوى، أو بر، أو إحسان، أو نحو هذه الأمور، وهذا أمرٌ يكرهه المستكبر المُعجَبُ بنفسه، ولا يهضمه.

وبسبب ذلك تتكوّن في نفسه عقبةٌ صادةٌ كأداء، ترفضُ كلَّ ما يُوجّهُ له من هذه الأمور، دون تفكير ولا فحوصٍ ولا تبيين، ولو كان فيه نفعٌ له وخيرٌ ومصلحةٌ عاجلةٌ أو آجلةٌ.

إنَّ عقبةَ كِبْرِهِ وعُجْبِهِ بنفسه تحجُبُ عنه من الرؤية بمقدار عِظَمِهَا وضَخَامَتِهَا، وقد تنطمسُ بها بصيرتُه انطاماساً كلياً، لذلك فهو يرفضُ قَبْلَ أَنْ يُفَكِّرَ، ورُبّما لو فكَّرَ لَمَا رَفَضَ، بل تقبَّلَ وشكر.

- ٢ -

وسائل تفادي عقبة الكبر والعُجبِ بالنفس لدى مَنْ تُوجّهُ له الرسالة

ويمكن تفادي عقبة الكبرِ والعجبِ بالنفسِ لدى مَنْ تُوجّهُ له الرسالة، والتحايلُ عليها بالأساليب الحكيمة التالية:

- ١ - مداراة صاحبها بالتكريم.
- ٢ - التوجيه المتواري المقنع.
- ٣ - النصيحة سراً.
- ٤ - توجيه التّضح أو التعليم أو التربية بشكلٍ عامٍّ لا يظْهَرُ فيه أنّ صاحبَ العقبة هو المقصودُ بالذات.
- ٥ - التعليم والتوجيه عن طريق البتّ العرضي الذي ليس فيه استعلاءً مباشر.

٦ - تواضعُ موجهِ النَّصحِ أو التعليمِ أو التَّكْلِيفِ .

٧ - إعطاء صاحب العقبة فُرْصَةً اكتشاف المطلوب منه بنفسه، معرفةً كان أو عملاً .

٨ - فتح باب النقاش والمجادلة مع غيره، وبحضوره، حول الموضوع المراد توجيهه له، ليشارك في الاستماع والتفكير، دون أن يشعر بأنه هو المقصودُ بذلك .

٩ - تذليلُ عقبةِ كبره وعُجْبِهِ بنفسه بإرضاء دافعٍ آخرٍ لديه من دوافع نفسه القويّة، كحبّه للمال، أو للطعام، أو للفخر والثناء .

١٠ - وضعه في بيئةٍ يتأثّرُ بها عن طريق المحاكاة والتقليد والغيرة، ويندمج فيها، ويشعرُ معها بالمشاركة العامة .

ولا يخفى ما للمشاركة العامة من تأثيرٍ قويٍّ في تهديم نوازع الكبرِ الفرديّ، وتخفيف نظرات العُجْبِ بالنفس .

إنَّ أَعْتَى المُسْتَكْبِرِينَ قد يسهلُ عليه أن يشارك الجماعة في تقديم خضوعه وولائه وطاعته لذي قُوَّةٍ أو سلطان، لكنّه لو كان وحده لرفض واستكبر .

١١ - ومن الوسائل تسخير مَنْ يُحَطِّمُ له كِبْرَهُ وإعجابه بنفسه، دون أن يشعرَ بمنْ دَبَّرَ له هذا الأمر، فإذا تكسّرتْ عَقْبَةُ كِبْرِهِ وإعجابه بنفسه هناك، هانَ عليه هُنَا أن يتلقَى التعليم، والتوجيه، والنُّصح والإرشاد، والأوامر والنواهي .

١٢ - وضع كتابٍ بين يديه ليقراه، دون أن يشعرَ بأن العمل مقصود، أو طرْحُ الفكرة أو النَّصح في خطبةٍ أو محاضرةٍ، أو درس عام، أو وسيلة أُخرى توصل ما يُراد توجيهه له، دون أن يشعرَ بأنه هو المقصودُ بالذات فتتفر

نَفْسُهُ، وَتَصْرِفُهُ عَنِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْفَضِيلَةِ اسْتِكْبَارًا وَعُجْبًا.

- ٣ -

التربية على فضائل الأخلاق

مع اتخاذ الوسائل المختلفة لتفادي عقبة الكبر والعجب بالنفس، يَحْسُنُ استخدام وسائل التربية الأخلاقية القائمة على القاعدة الإيمانية، والإقناع، والترغيب والترهيب، وربط الإنسان المؤمن بحُبِّ الله ورسوله، وابتغاء مرضاة الله، وتهوين شأن الدنيا وما فيها، وتحطيم أوهام الكبر والعجب بالنفس، وبيان مضارهما، وتعظيم قيمة التواضع ومجدِّ مكارم الأخلاق، وبيان منافعها العاجلة والآجلة، وكشف جوانب عجز الإنسان وجَهْلِهِ، وَأَنَّ كِبْرَهُ وَعُجْبَهُ بِنَفْسِهِ لَا يَسْتَنْدَانِ إِلَى مَا يُحَسِّنُهُمَا فِي حَقِيقَةِ صِفَاتِهِ، وَفِي ذَاتِ نَفْسِهِ.

فكم من إنسان هو يحتقره وَيَسْتَصْغِرُهُ مع أَنَّهُ أَصْحَحُ مِنْهُ رَأْيًا، وَأَكْثَرُ مِنْهُ عِلْمًا، وله من الصِّفَاتِ وَالْخِصَائِصِ مَا يُؤْهَلُهُ لِأَنَّهُ يَكُونُ مِنْ عُظَمَاءِ الرِّجَالِ.

* * *

المقولة الثامنة
من العقبات الصادات

- ٢ -

عقبة شعور مَنْ تُوَجَّهُ له الرسالة بالحرمان
من حرية التفكير وحرية العمل

- ١ -

حرية الإرادة إحدى عناصر الفطرة الإنسانية

الإنسان مَفْطُورٌ بطبيعِهِ على أَنه يَمْلِكُ إرادةً حُرَّةً، يُريدُ بها ما يختار
لنفسه مِنْ عقيدةٍ يعتقدها، أو عَمَلٍ يَعْمَلُهُ، في سُلُوكه التَّفْسِي، أو في سُلُوكه
الجَسَدِي.

فهو بمقتضى فطرته هذه يَنْفِرُ من الإكراه القَسْرِي، والإلزام الجَبْرِي،
على أَن يَعْتَقِدَ فكرةً ما، وهو لا يُريدُ أن يعتقدها، وعلى أن يَعْمَلَ عملاً ما،
وهو لا يُريدُ أن يَعْمَلَهُ.

وهو بمقتضى فطرته هذه يُحِبُّ أن يُفَكِّرَ بحُرِّيَّة، وأن يَعْمَلَ بحُرِّيَّة، دون
إلزام ولا قَسْرٍ وهو كارَةٌ، فإذا اقْتَنَعَ بِفِكْرَةٍ ما، ورأى أَنَّ إيمانه بها يَنْفَعُهُ
وَيُحَقِّقُ لَهُ ما يَزْغَبُ فيه أو يهواه، من عاجلٍ أمرِهِ أو آجِلِهِ، آمَنَ بها، ولو لم
تَزَقْ هذه الفكرة إلى أن تكون حقيقةً عِلْمِيَّةً، وإذا اقْتَنَعَ بأنَّ عملاً ما يُحَقِّقُ له

ما يَرْغَبُ فِيهِ مِنْ عَاجِلِ أَمْرِهِ أَوْ آجِلِهِ، وَلَمْ تَقُمْ فِي نَفْسِهِ دَوَافِعُ أُخْرَى مُعَارِضَةً تَمْنَعُهُ مِنَ الْقِيَامِ بِالْعَمَلِ تَوَجَّهَتْ إِرَادَتُهُ إِلَى الْقِيَامِ بِهِ، رَغْبَةً فِي تَحْقِيقِ مَا يُحِبُّ أَوْ يَشْتَهِي أَوْ يَهْوَى، فَعَمِلَهُ، أَوْ مَارَسَ مِنَ الْعَمَلِ عَلَى مَقْدَارِ مَا لَدَيْهِ مِنْ قُدْرَاتٍ تَنْفِيزِيَّةٍ، وَقُوَّةٍ دَافِعٍ لِتَحْقِيقِ الْمَرْجُوِّ مِنَ الْعَمَلِ .

لَكِنْ حِينَ يَشْعُرُ الْإِنْسَانُ بِأَنَّ الْأَفْكَارَ أَوْ مَطَالِبَ الْأَعْمَالِ تُمَلِكِي عَلَيْهِ إِمْلَاءً فَسْرِيًّا دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُ اخْتِيَارٌ فِي الْقَبُولِ أَوْ الرَّفْضِ، فَإِنَّهُ قَدْ يَشْعُرُ بِأَنَّ عَقَبَةَ صَادَّةً قَامَتْ فِي نَفْسِهِ، وَهَذِهِ الْعَقَبَةُ قَدْ تَجَعَّلَهُ يُخْجِمُ عَنْ تَقَبُّلِ الْفِكْرَةِ، أَوْ الِاسْتِجَابَةِ لِلأَمْرِ بِعَمَلٍ مَا، وَالنَّهْيِ عَنْ عَمَلٍ مَا، قَبْلَ أَنْ يُفَكِّرَ فِي صِحَّةِ وَسَلَامَةِ وَنَفْعِ مَا أُلْزِمَ بِهِ، أَوْ فُسَادِهِ وَضَرَرِهِ .

وَحِينَ يَشْعُرُ بِأَنَّ التُّضْحِخَ الَّذِي يُوجِّهُ لَهُ مَشُوبٌ بِالْإِلْزَامِ وَالْإِكْرَاهِ وَالْإِجْبَارِ الْقَسْرِيِّ، فَإِنَّهُ قَدْ تَتَوَلَّدَ فِي نَفْسِهِ مِثْلَ هَذِهِ الْعَقَبَةِ الصَّادَّةِ .

لَكِنْ مِثْلَ هَذِهِ الْعَقَبَةِ لَا تُوجَدُ أَصْلًا حِينَمَا تَسَلَّلُ الْفِكْرَةُ تَسَلُّلاً يَتَوَهَّمُ مَعَهُ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ هُوَ صَاحِبُ الْفِكْرَةِ . وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي اتَّجَهَتْ إِرَادَتُهُ لِمَبَاشَرَةِ الْعَمَلِ، وَلَمْ يُلْزِمُهُ بِهِ وَيُكْرَهُهُ عَلَيْهِ أَحَدٌ، أَوْ حِينَ يَشْعُرُ بِأَنَّهُ حُرٌّ فِي قَبُولِ الْفِكْرَةِ أَوْ رَفْضِهَا، وَالِاسْتِجَابَةِ لِلْقِيَامِ بِالْعَمَلِ، أَوْ عَدَمِ الِاسْتِجَابَةِ لَهُ .

إِنَّ الدَّوَافِعَ حِينَمَا تَكُونُ ذَاتِيَّةً نَابِعَةً مِنْ دَاخِلِ الْإِنْسَانِ، فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ تُجَاهَهَا آيَةَ عَقَبَةٍ نَفْسِيَّةٍ، غَيْرَ عَقَبَةِ عَدَمِ ثِقَتِهِ بِنَفْسِهِ، إِذَا كَانَتْ لَدَيْهِ هَذِهِ الْعَقَبَةُ .

وَيُمْكِنُ أَنْ تَزُولَ عَقَبَةُ الشُّعُورِ بِالْحَرَمَانِ مِنْ حَرِيَّةِ التَّفَكِيرِ أَوْ حَرِيَّةِ الْعَمَلِ، بِالثَّقَّةِ التَّامَّةِ بِمُوجَّهِ الْفِكْرَةِ أَوْ الْأَمْرِ أَوْ النَّهْيِ، أَوْ بِحُبِّهِ الَّذِي يَتَوَلَّدُ عَنْهُ حُبٌّ مَا يُرْضِيهِ، أَوْ بِإِكْبَارِهِ وَإِعْظَامِهِ، أَوْ بِالِإِيمَانِ الْعَمِيقِ بِأَنَّ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يَأْمُرَ وَيَنْهَى وَيُمَلِّيَ إِرَادَتَهُ، أَوْ بِشُعُورِ الْإِنْسَانِ بِأَنَّ مَصْلَحَتَهُ تَقْتَضِي الِاسْتِجَابَةَ وَالطَّاعَةَ، مَعَ أَنَّهُ حُرٌّ فِي الْقَبُولِ أَوْ الرَّفْضِ، وَذَلِكَ حِينَ تَرْتَبِطُ مَطَالِبُ نَفْسِهِ وَحَاجَاتُهَا وَرَغَائِبُهَا الْعَاجِلَةِ أَوْ الْآجِلَةِ بِاعْتِنَاقِ الْفِكْرَةِ، أَوْ تَنْفِيزِ التَّكْلِيفِ أَمْرًا أَوْ نَهْيًا .

المنهج الربّاني لتحاشي هذه العقبة

إنّ عقبة الشعور بالحرمان من حُرِّيَّة الاختيار في الاعتقاد والعمل، قد تحاشتها الرسالاتُ الربّانية، والتربيةُ الإسلامية، بإعلان أن المبدأ العام في دين الله للناس هو أنه لا إكراه في الدين، وأنّ الإنسان ذو إرادة حُرَّة، يختار بها في حياته التي وضعه الله فيها موضع الابتلاء ما يشاء من عقيدة أو عبادة، فهو حرٌّ في تفكيره، وحرٌّ في أن يَعتقِد ما يشاء، ويؤمن بما يشاء، وحرٌّ في أن يعبُد ما يشاء، ولكنّ عليه بعد ذلك أن يتحمَّل نتائج سُوء اختياره المشقية له، إذا اعتقد غير الحقّ، أو عبَدَ غيرَ من يَسْتَحِقُّ العبادة، كما أنّ باستطاعته أن يظفر بالنتائج المُسَعِدَة له التي هي نتائج حُسن اختياره، إذا اعتقد الحقّ وآمن به، واعتقد بطلان الباطل وتجاوى عنه، أو عبَدَ من هو المستحقُّ للعبادة وخذَهُ لم يُشرك بعبادته أحداً.

وأعانت التربية الإسلامية فِكرَ الإنسان ليَصِلَ إلى معرفة أركانِ الحقّ، التي يَجِبُ عليه أن يؤمن بها في دين الله للناس، بوسائل الإقناع بالطُرُق العقلية المنطقية، والأدلة العلمية، لتوليد الدافع الذاتي، الذي يُبَصِّرُ إرادته بما يَخْتَارُ من مبادئ يؤمن بها.

ويدخلُ في هذه الوسائل الإقناعية استخدامُ الطُرُق غير المباشرة، والطُرُق المباشرة.

ووضعت التربية الإسلامية فِكرَ الإنسان ونفسه أمامَ بيانات الوعدِ والوعيدِ الربّانية، فمن اختار الإيمان بالحقّ الذي جاء به دين الله للناس، وعبَدَ الله وخذَهُ، نال ثوابه خلوداً في جنّات النعيم يوم الدين، ومن اختار الإيمان بالباطل المضادّ لما جاء به دين الله للناس، أو عبَدَ من دون الله شيئاً، كان من أصحاب النار خالداً فيها يوم الدين، ومن اختار الإيمان بالحقّ

الرباني، ولكن عصي الله في أوامره أو نواهيه، استحقَّ من العقاب بالعدل على مقدار ما اكتسب في حياته من آثام.

فحرية الإرادة هي حرية تمكين من الاختيار، وليست حرية إباحة، إذ هي حرية مُستتبعة بالمسؤولية والحساب والجزاء، بالثواب أو بالعقاب.

وهذه الحرية في مسائل الدين مشابهة لحرية الإنسان في مخالفة قوانين الطبيعة، فالإنسان حرٌّ مُمكنٌ من أن يدخل يده في النار، ولكنَّ عليه أن يتحمَّل نتيجة اختياره، في أن تحترق يده، بفارق أن عقوبة مخالفة قوانين الدين يوجدُ بينها وبين العمل المخالف فاصل زمنيّ، يُمكنُ الإنسان فيه من التداركِ بالتوبة والندم والاستغفار، وبذلك يتفادى العقوبة، أما عقوبة مخالفة قوانين الطبيعة الكونية فهي في الغالب عقوبةٌ مباشرةٌ للفعل المخالف.

- ٣ -

النصوص القرآنية حَوْلَ الحرية المقترنة بالتكليف

والمستتبعة بالمسؤولية والحساب والجزاء

الحقيقة الدينية التي سبقَ شرحُها في الفقرتين السابقتين، قد جاء بيانها في سبعة عشر نصًّا من نصوص القرآن الكريم، ضمنَ منهج حركيٍّ تربويٍّ حكيم، جاء أولُها في ثالث سورةٍ نزلت في المرحلة المكية من الرسالة المحمدية، وجاء آخرها في سورة (الإنسان) وهي سورةٌ من أواسط التنزيل المدني، وترتيبها بحسب النزول (٩٨)، وأستعرضها وفق ترتب نزولها بشيءٍ من التدبُّر.

النصُّ الأول:

قول الله عز وجل في سورة (المزمل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول):

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١﴾﴾.

تَذِكْرَةٌ: أي تذكيرٌ باقٍ، بما اشتملت عليه نصوصها من بيانٍ ودعوةٍ إلى الإسلام وموعظةٍ وإرشادٍ.

وأصلُ التذكرة في اللغة: الوسيلةُ المذكرة، ولما كانت الرسالة الإسلامية مشتملة على نصوصٍ قضى الله ببقائها محفوظة، فإنها تحمِلُ صفةَ البيانِ والهدايةِ والموعظةِ والإرشادِ والتذكيرِ دوماً، ولما كان التذكيرُ هو الحلقة الأخيرة في هذه السلسلة، كانت تسميهُ هذه الرسالة بالتذكرة مُتضمِّنةً بالزومِ الذهني الحلقات السابقة للتذكير.

ففي هذه الآية بيان أن هذه الرسالة رسالة بيانٍ وهدايةٍ وموعظةٍ وإرشادٍ وتذكيرٍ دوماً، أي: فهي ليست رسالة إكراهٍ ولا إلزامٍ، فمن شاء بما آتاه الله من إرادةٍ حُرَّةٍ مُمَكَّنَةٍ بخلقِ الله من أن تَشَاءَ بحُرِّيَّةٍ نَجاةَ نفسه وسَعَادَتِهَا اتَّخَذَ إلى مرضاةِ ربِّه سبيلاً، ومن لم يشأ ذلك استحقَّ العقابَ والعذاب، فهو الذي يتحمَّلُ نتائج رفضه للحق، ورفضه سُلوكَ سبيلِ الهداية.

* * *

النص الثاني:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٤ نزول) بشأن المعرضين المبتعدين عن الاستماع لدعوة الرسول وبيانات القرآن التي هي تَذِكْرَةٌ فكريةً بيانيةً، وليست إكراهاً ولا قسراً بإجبار:

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مَعْرُضِينَ ﴿٤٩﴾ كَذَّبَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يَرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

كلاً: كلمة زجرٍ فيها معنى التنديد والتلويم.

إِنَّهُ تَذَكَّرَةٌ: أي: إن القرآن تَذَكَّرَةٌ باقيةٌ بما اشتملَ عليه من بيانٍ وهدايةٍ

وموعظة وإرشاد وترغيب وترهيب، ولما كان القرآن مذكراً بهذه الأمور دواماً أطلق الله عليه اسم «التذكيرة» وهي في اللغة ما يُستذكرُ به الأمر، كما سبق به البيان.

فما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ: استفهام إنكاريّ تعجيبِيّ من حالهم.

حُمْرٌ: جمع «حمار» والمرادُ بها الحُمْرُ الوَحْشِيَّةُ.

مُسْتَنْفِرَةٌ: أي: نافرَةٌ بِشِدَّةٍ إذا أصابها الدُّعْرُ.

قَسْوَرَةٌ: على صِيغَةِ «فَعْوَلَةٌ» مِنَ الْقَسْرِ، وهو الأخذ بإكراه.

الْقَسُورُ وَالْقَسْوَرَةُ: من أسماء الأسد، والقَسْوَرَةُ أيضاً جَمْعُ «الْقَسُورِ»

وقَدْ سُمِّيَ الأسدُ قَسُوراً لِأَنَّهُ يَفْتَرَسُ صِينَهُ قَسْراً.

ويطلق لفظ «القَسُور» على الصياد الرامي، وجمعه «قَسُورَةٌ» فالرُماة

الصيادون الذين يصيدون الحيوانات البرية بسهامهم، فيقَسِرُونها بوسائلهم، ويكْرِهونها حتى يأسروها يُطلقُ عليهم لفظ «قَسُورَةٌ».

في هذا النص تعجيبٌ من حال المُعْرِضِينَ عن القرآن النافرين من

سَطَوْتِهِ الفكريَّة المؤثِّرة فيهم، بما فيه من بلاغة رفيعة، ودلالات مَنِيعة، وَحَقَائِقَ لَا يَأْتِيهَا الباطل من بين يَدَيْهَا وَلَا مِنْ خَلْفِهَا، وأنوارٍ ساطعة، وهُدَايَةٍ قاسِرةٍ لِمَنْ اسْتَسَلَّمَ إليها، وقد جاء تَمَثِيلُهُمْ في هذا النصِّ بِالْحُمْرِ الوَحْشِيَّةِ الَّتِي هَجَمَ عَلَيْهَا أَسَدٌ أَوْ أُسُودٌ لَتَفْتَرِسَهَا، فأصابها الدُّعْرُ الشَّدِيدُ فَفَرَّتْ وَفَرَّتْ لَا تَلْوِي عَلَى شَيْءٍ.

وظاهرٌ أن الغرض من هذا التمثيل التنفيرُ مِنَ الإعراض عن هداية

القرآن، مع تقييح صورة المُعْرِضِينَ وذَمِّهِمْ، إذ جاء تَمَثِيلُهُمْ بِالْحُمْرِ الوَحْشِيَّةِ، وكان من الممكن تَمَثِيلُهُمْ بِالْبَقَرِ أو بِالظِّبَاءِ، لكنَّ الحُمْرَ هي المعروفة عند الناس بالبلادة والغباء، فالتمثيل بها أكثرُ تقييحاً وذمّاً لحالة

النفور من تذكرة فكرية ليس لها سَطْوَةٌ مَادِيَّةٌ تَقْسِرُ بِإِكْرَاهِ .

إنَّ الفكرةَ الَّتِي سَبَقَ لَهَا التَّشْبِيهُ فِي هَذَا النَّصِّ ، هِيَ أَنَّ بَيَانَ الدَّعْوَةِ إِلَى الإِسْلَامِ ، وَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ ، دَعْوَةٌ تَذَكِّرَةٌ بِحَقَائِقَ عِلْمِيَّةٍ ، هِيَ فِطْرِيَّةٌ فِي فِكْرِ الإِنْسَانِ وَوَجْدَانِهِ ، وَبِحَقَائِقَ عِلْمِيَّةٍ مُنَزَّلَةٍ مِنْ لَدُنْ عَلِيمٍ حَكِيمٍ ، يُطَلَّبُ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَعْلَمُوهَا أَوَّلًا ، ثُمَّ يَتَذَكَّرُوهَا دَوَامًا عِنْدَ الْمُنَاسَبَاتِ الدَّاعِيَاتِ لِتَذَكَّرِهَا ، لِتَكُونَ مُوجَّهَةً لِإِرَادَاتِهِمْ ، وَأَنْوَاعِ سُلُوكِهِمْ .

وَكُلُّ إِنْسَانٍ هُوَ حُرٌّ بَعْدَ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ هَذِهِ التَّذَكِّرَةُ فِي أَنْ يَسْتَجِيبَ لِمُضْمُونِهَا فَيُؤْمِنَ ، أَوْ يَرْفُضَهَا فَيَكْفُرَ ، فَهِيَ إِذَنْ لَيْسَتْ مُطَارَدَةً مُكْرَهٍ مُجْبِرٍ قَاسِرٍ ، يُلَاحِظُ طَرِيدَتَهُ لِيَفْتَرِسَهَا أَوْ يَصِيدَهَا ، كَمَا يَفْعَلُ الأَسُودُ ، أَوْ كَمَا يَفْعَلُ الرُّمَاءُ الصَّيَّادُونَ .

إنَّ الإِنْسَانَ ذَا الفِكْرِ الحَصِيفِ لَا يَقْرَأُ مِنْ عَرْضِ التَّذَكِّرَاتِ الفِكْرِيَّةِ عَلَيْهِ ، بَلْ يَقْبَلُ عَرْضَهَا ، وَيَقْبَلُ مُنَاقَشَتَهَا ، ثُمَّ هُوَ بَعْدَ ذَلِكَ إمَّا أَنْ يَقْبَلَهَا ، وَإِمَّا أَنْ يَرْفُضَهَا .

فَدَلَّ هَذَا النَّصُّ بوضوح تامٍّ عَلَى أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى الإِسْلَامِ عَرْضٌ تَخْيِيرِيٌّ لِمَنْ يُعْرَضُ عَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَيْسَ إِكْرَاهًا وَلَا إِجْبَارًا بِالْقَسْرِ ، فَمَنْ شَاءَ اسْتَجَابَ فَاسْلَمْ ، وَوَضَعَ فِي ذَاكِرَتِهِ أَرْكَانَ الإِيمَانِ وَالإِسْلَامِ وَبَيَانَاتِ الْقُرْآنِ ، لِاتِّبَاعِهَا ، فَقَالَ تَعَالَى فِيهِ : ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴾ .

وَأَبَانَ النَّصُّ عِلَّةَ الْمَعْرُضِينَ النَّفْسِيَّةَ وَهِيَ أَمْرَانِ :

الأولُ : الكِبْرُ عَنْ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ ، لِأَنَّ كُلَّ أَمْرٍ مِنْ هؤُلاءِ يُرِيدُ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ صُحُفٌ مُنَشَّرَةٌ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ أَمْرٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً ﴾ .

الثاني : جحودُهُمْ لِلْبَعْثِ وَالْحِسَابِ وَالْجِزَاءِ يَوْمَ الدِّينِ ، فَهَمَّ لَا يَخَافُونَ

عقَابَ الله في الآخرة، فقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ ﴿١٥٣﴾.

النص الثالث:

قول الله عز وجل في سورة (التكوير/ ٨١ / مصحف/ ٧ نزول) بشأن القرآن المجيد:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾.

فأبانَ هذا النَّصَّ أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ إِلَّا ذِكْرًا مُوجِّهًا لِكُلِّ الْعَالَمِينَ، الموضوعين مَوْضِعَ الْإِبْتِلَاءِ وَالتَّكْلِيفِ، أَمَا مِنْ يَسْتَجِيبُ لِدَعْوَتِهِ وَيَتَدَبَّرُهُ، وَيَتَّخِذُهُ ذِكْرًا، وَيَنْتَفِعُ بِمَا فِيهِ مِنْ هِدَايَةٍ وَدَلَالَةٍ عَلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، فَهُوَ مِنْ شَاءَ مِنَ الْمَخَاطِبِينَ بِهِ بِإِرَادَتِهِ الْحُرَّةِ أَنْ يَسْتَقِيمَ عَلَى صِرَاطِ اللَّهِ، وَلَا يُرِيدُ أَنْ يَغْوَجَ وَيَكُونَ جَائِرًا مُتَّنَكِّبًا عَنْهُ، وَسَالِكًا سُبُلَ الضَّلَالِ الَّتِي تَسْتَدْرِجُهُ إِلَيْهَا الشَّيَاطِينُ وَالْأَهْوَاءُ وَالشَّهَوَاتُ الْجَانِحَاتُ عَنِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْفَضِيلَةِ وَمَا أَدْنَى اللَّهِ بِهِ لِعِبَادِهِ.

* * *

النص الرابع:

قولُ الله عز وجل في سورة (عبس/ ٨٠ / مصحف/ ٢٤ نزول) في معرض تربية الله لرسوله ﷺ بشأن إعراضه عن الأعمى ابن أُمِّ مَكْتُومِ الَّذِي جَاءَ يَسْأَلُهُ عَنْ بَعْضِ مَسَائِلِ الدِّينِ، إِذْ أَعْرَضَ عَنْ إِجَابَتِهِ لِأَنَّهُ كَانَ ﷺ مَشْغُولًا بِدَعْوَةِ كِبْرَاءِ قَوْمِهِ إِلَى الْإِسْلَامِ:

﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ مَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾﴾.

أَي: إِنَّ رِسَالَتَكَ يَا مُحَمَّدُ رِسَالَةٌ بَيَانٍ وَهِدَايَةٍ وَتَذْكَيرٍ، وَلَيْسَتْ رِسَالَةً تَكْلِيفٍ لَكَ أَنْ تُحَوِّلَ النَّاسَ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ، حَتَّى تُوَجِّهَ اهْتِمَامَكَ الْكَبِيرَ لِدَعْوَةِ الْكَافِرِينَ، وَتُعْرِضَ عَنِ طَالِبِ الْمَعْرِفَةِ الدِّينِيَّةِ رَاجِعًا أَنْ يَتَذَكَّرَ أَوْ يَخْشَى، فَوْطِفْتُكَ وَطِفَةَ مُذَكَّرٍ، وَلَيْسَتْ وَطِيفَةً مُكْرَهٍ وَلَا مُغَيَّرٍ، فَالاستجابة

للدعوة ينبغي أن تكون بإرادة المدعو الحرّة، واختياره الإيمان بالحق، وسلوك صراط الهداية، لا بالإكراه والإجبار.

* * *

النص الخامس:

قول الله عزّ وجلّ بشأن شعيب عليه السلام وشأن قومه معه، في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَةٍ أَوْ نَعُودَنَّ فِي مَلِيئًا قَالَ أُولَئِكَ كَافِرِينَ ﴾

فجاء في هذا النص بيان مثل من أمثلة إكراه أهل الكفر لأهل الإيمان، على أن يتركوا دينهم الرّباني، ويعودوا إلى ما كانوا عليه قبل الإيمان، ويكونوا من الدّاخلين في ملّة المُكْرِهين، وهذا ديدن قادة أهل الكفر دوماً، في كلّ عصور التاريخ، إنهم يُكْرِهُون النَّاسَ عَلَى الدُّخُولِ فِي مِلَّتِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ ومذاهبهم وطرائقهم في الحياة، وإلا أنزلوا بهم أنواع الاضطهاد والتعذيب.

على خلاف الرّسالات الرّبّانية للناس، فإنها عرض وإقناع وهداية بتخيير، مقرون بإنذار بالعواقب الوخيمة من الله العزيز القدير، لمن أبى ولم يستجب، وببشارة بسعادة أبدية عند الله الرحيم الغفور، لمن سمع وأطاع واستجاب بإرادته الحرّة، دون إكراه ولا قسر وإجبار.

إنّ قضايا العقائد، واعتناق المذاهب الدينيّة، لا يُعَقَّلُ أَنْ تَكُونَ مع الكراهية والإجبار، وإنما تكون بالرّغبة الذّاتية والاختيار الحرّ.

* * *

النص السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) خطاباً لرسوله

محمد ﷺ:

﴿ طه ﴾ ١ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ٢ إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَنْ يَخْشَى ٣ ﴿

لَمَّا اشْتَدَّ حِرْصُ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى إِيمَانِ قَوْمِهِ، حَتَّى أَهَمَّهُ كُفْرُهُمْ، وَشَقَّ عَلَيْهِ إِعْرَاضُ مَنْ أَعْرَضَ مِنْهُمْ، وَإِدْبَارُ مَنْ أَدْبَرَ، وَتَوَلَّى مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ، وَجَعَلَتْ رَحْمَتُهُ بِهِمْ تَقِضُ مَضْجِعَهُ، وَتَوْجَعُ قَلْبُهُ وَتُشْقِيهِ بِإِقَاعِهِ فِي الشَّدَّةِ وَالْعُسْرِ وَالْأَلَمِ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ هَذَا النَّصْرَ، مَبِيناً لَهُ فِيهِ وَظِيْفَةً رَسَالَتِهِ، بِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، وَحَمَلَهُ مَسْئُولِيَّةَ تَبْلِيغِهِ، لِيُشْقِيَ نَفْسَهُ بِالْآلَامِ مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ.

وَأَبَانَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ بِأَسْلُوبِ الْحَضَرِ، أَنَّهُ مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَنْ يَخْشَى، أَي: فَمَنْ يَخْشَى اللَّهَ وَيَخَافُ عِقَابَهُ فَإِنَّهُ يَجْعَلُ الْقُرْآنَ تَذَكُّرَةً لَهُ، ثُمَّ إِنَّ مَنْ جَعَلَ الْقُرْآنَ تَذَكُّرَةً لَهُ فَلَا بُدَّ أَنْ تَتَّجَهَ نَفْسُهُ لِلطَّمَعِ بِثَوَابِ اللَّهِ الْعَظِيمِ يَوْمَ الدِّينِ، مَعَ مَا يُصِيبُ مِنْ خَيْرَاتِ وَطَمَأْنِينَةِ قَلْبٍ فِي الدُّنْيَا.

فَالْمَعْنَى: مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى بِالْحَزَنِ وَالْأَلَمِ مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَمْ يَسْتَجِيبُوا، مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَنْ يَخْشَى.

أَي: فَلَا تَحْمِلْ يَا مُحَمَّدُ هَمَّ الَّذِينَ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمُ الْكُفْرَ بَعْدَ تَذَكُّرَتِهِمْ، وَبَيَانَ الْحَقِّ لَهُمْ، وَلَا تُشْقِ نَفْسَكَ مِنْ أَجْلِهِمْ.

وَنَلَا حِظَّ فِي هَذَا النَّصْرِ تَوْجِيْهَاً مَبَاشِراً لِلرَّسُولِ، لِتَأْدِيْبِهِ بِرِفْقٍ، حَوْلَ مُهِمَّتِهِ فِي رَسَالَتِهِ، وَتَوْجِيْهَاً لِكُلِّ الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ.

وَنَلَا حِظَّ فِيهِ تَعْرِيفُ غَيْرِ مَبَاشِرٍ لِلْكَافِرِينَ الْمَعْرُضِينَ، وَالْمَدْبُرِينَ الْمُتَوَلِّينَ عَنِ الْاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ.

* * *

النَّصْرُ السَّابِعُ:

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (يُونُسَ/ ١٠/ مَصْحَفٍ/ ٥١ نَزُولٍ):

﴿ وَرِشَاءَ رَبِّكَ لِأَمِّنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا
مُؤْمِنِينَ ﴾ (٩١).

تَدُلُّ هَذِهِ الْآيَةُ بِلَوَازِمِ بَيَانِهَا عَلَى أَنَّ رَحْمَةَ الرَّسُولِ ﷺ بِقَوْمِهِ كَانَتْ شَدِيدَةً جَدًّا، وَأَنَّ حِرْصَهُ عَلَى إِيْمَانِهِمْ لِلنَّجَاةِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَالظَّفَرِ بِالنَّعِيمِ الْخَالِدِ، قَدْ كَانَ حِرْصًا بِالْعَا، وَأَنَّ تَوَجُّعَ قَلْبِهِ مِنْ أَجْلِهِمْ قَدْ كَانَ عَظِيمًا فَلَمْ يَسْتَطِعِ الضَّغْطَ عَلَى عَاطِفَتِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ هَذَا النَّصَّ، مُتَّصِمًا أُسْلُوبًا تَرْبُويًا فِيهِ الْإِقْنَاعُ الْمَشُوبُ بِالْعِتَابِ.

والمعنى: لو شاء ربك يا محمد إكراه الناس على الإيمان، لسلبتهم حُرِّيَّاتِهِمْ، فَجَعَلَهُمْ مَجْبُورِينَ، فَأَكْرَهَهُمْ، فَأَمَّنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا، أَوْ لَاتَّخَذَ مِنَ الْوَسَائِلِ مَا يَجْعَلُهُمْ مُلْجَتِينَ إِلَى الْإِيْمَانِ إِجْبَاءً.

لَكِنَّ هَذَا يَتَنَافَى مَعَ حِكْمَةِ الْامْتِحَانِ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَحِكْمَةِ تَرْكِ النَّاسِ لِاخْتِيَارِهِمُ الْحَرَ.

فَإِذَا كَانَ رَبُّكَ الْقَادِرَ عَلَى جَعْلِهِمْ مَجْبُورِينَ عَلَى الْإِيْمَانِ جَمِيعًا لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ شَاءَ أَنْ يَجْعَلَهُمْ مُخَيَّرِينَ، لِيَبْلُوهُمْ فِيمَا آتَاهُمْ، أَفَأَنْتَ يَا مُحَمَّدٌ وَيَاكُلُّ مَنْ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، مَعَ أَنَّهُ أَمْرٌ لَمْ يَخْتَرَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ، وَهُوَ ذُو الْقُدْرَةِ التَّامَّةِ عَلَيْهِ.

* * *

النص الثامن:

قول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) مُبَيَّنًا مَثَلًا مِنْ أُمَّثَلَةٍ دَعْوَةِ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ لِأَقْوَامِهِمْ، الَّذِي يَنْبَغِي التَّأْسِّيَ بِهِ، وَهُوَ مُقْتَطَعٌ مِنْ دَعْوَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ:

﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنِكُمْ مِنْ رَبِّي وَإِنِّي رَحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِهِ فَعَمِيَّتْ عَلَيْكُمُ
 أَنْزِلُكُمْ كَمَا وَاَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ .

في هذه الآية بيان جانب من حوار نوح لقومه، حول حرية الناس في اختيار الإيمان والكفر، وأن الرسول لا يملك إلزام الناس بالإيمان، بعد أن منحهم الله عز وجل حرية الاختيار ليبلوهم، وحملهم مسؤولية اختيارهم، فعليهم أن يتحملوا عقوبات اختيارهم عند ربهم إذا اختاروا الكفر على الإيمان، والضلالة على الهدى، والظلمات على النور.

* * *

النص التاسع:

قول الله عز وجل في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) خطاباً لرسوله محمد ﷺ، ويُلحَقُ به كلّ داع إلى سبيل ربه من أمته:

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمَسِينُ ﴿١٥﴾ ﴾ .

في هذا النص تعليم من الله لبعض أساليب الحوار الإقناعي للكافرين المشركين، الذين يعبدون آلهة من دون الله عز وجل، وهو حوار حول موضوع هو من أهم موضوعات الدين، وهو موضوع العبادة.

فجاء في التعليم تكليف الرسول أن يقول للمشركين:

● إني أمرت أن أعبد الله مُخْلِصًا له الدين فلا أشرك بعبادته أحداً.

● وأمرت بالتكليف الدينية التي أعبدُ بها ربِّي قبلَ غيري من الناس، من أجل أن أكون أول المسلمين المطيعين لأوامر الله ونواهيهِ.

وجاء في التعليم تكليف الرسول أن يقول للمشركين أيضاً:

● إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي فَلِمَ أَعْبُدُهُ، أو أشركتُ بعبادته معبوداً من دونه عذابَ يَوْمٍ عظيم، هو عذاب يوم الدين.

وأن يقول لهم مُعَلِّناً مَنَهَجَهُ في عبادته الذي اختاره لنفسه، ومبيناً لهم أنهم أحرار في أن يختاروا لأنفسهم ما يشاؤون من معبودات يَعْبُدونها:

● اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي، فلا أشرك بعبادته أحداً.

● فاعْبُدُوا مَا سِئَلْتُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلِهَةٍ، فَلَكُمْ أَنْ تَخْتَارُوا فِي حَيَاتِكُمْ مَا تَشَاءُونَ مِنْ إِيْمَانٍ أَوْ كُفْرٍ، وتوحيدٍ أو شرك، إذ أنتم في الحياة الدنيا في رحلة ابتلاء، مُمَكِّنُونَ مِمَّا تَشَاءُونَ، وعليكم أن تتحملوا نتائج اختياراتكم.

وأن يقول لهم أخيراً محذراً ومنذراً:

إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ.

أي: فمن كفر فعبد غير الله أو أشرك في عبادته إلهاً من دونه، خسر نفسه وأهليه يوم القيامة، إذ يكون من أصحاب النار خالداً فيها أبداً، أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ.

أَلَا: أداة تنبيهٍ بِشَدَّةٍ، فتعريضُ الإنسان نفسه لهذا الخسران المبين يحتاجُ هذا التنبيه، ليَضْحَوْا من غفلته، أو غفوته.

* * *

النصّ العاشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا أَفَنُؤَلِّقُ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آيَاتِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا سِئَلْتُمْ إِنَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾

يُحِدُونَ فِي آيَاتِنَا: أَلْحَدَ: أي: مال عن الحقِّ وَجَارَ وَظَلَمَ، والمعنى: يَحِيدُونَ وَيَمِيلُونَ عَنِ الدِّينِ الْحَقِّ ظُلْمًا وَجَوْرًا، شَاكِينَ فِي آيَاتِنَا الْبَيَانِيَّةِ الْمُنَزَّلَةِ، وَآيَاتِنَا الْكُونِيَّةِ، وَآيَاتِنَا الْإِعْجَازِيَّةِ، وَآيَاتِنَا الْجَزَائِيَّةِ.

ففي هذه الآية يتحدّث الله عزّ وجلّ عن الْمُلْحِدِينَ الْجَائِرِينَ الْمَائِلِينَ عَنِ دِينِهِ الْحَقِّ، الشَّاكِينَ وَالْمَشْكُوكِينَ فِي آيَاتِهِ، بِأَنَّهُمْ غَيْرُ خَافِينَ عَلَيْهِ جَلَّ جلاله، وَيُنذِرُهُمْ بِالْإِلْقَاءِ فِي النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا اسْتَمَرُّوا عَلَى إِلْحَادِهِمْ، وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْأَمْنِ.

وبعد هذا البيان يخاطبُ الملحدين خطاباً مباشراً، فيقول لهم:

﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٠﴾﴾

فيعطيهم في هذا أنّ لهم أن يختاروا ما يشاءون من عمل، ولكنّه ليس تخيير إباحة، إنّما هو تخيير امتحان، وهو ممزوجٌ بِوَعِيدٍ بِالْعِقَابِ إِذَا اخْتَارُوا غَيْرَ الْمَطْلُوبِ مِنْهُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ.

فقد حمّلهم مسؤوليّة مشيئتهم، وأبان لهم أن عاقبة إلحادهم وشركهم عذابٌ أليمٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

* * *

النص الحادي عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الغاشية/ ٨٨ مصحف/ ٦٨ نزول) خطاباً لرسوله محمد ﷺ، وَيُلْحَقُ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ مِنْ أُمَّتِهِ:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾﴾

نزل هذا النصّ بعد رِحْلَةِ طَوِيلَةٍ فِي دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ لِقَوْمِهِ، أَبَانَ لَهُمْ خِلَالَهَا أَصُولَ الدِّينِ الْإِيمَانِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ، وَأَصُولَهُ التَّعْبُدِيَّةِ مَبِينًا لَهُمْ فِيهَا أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَأَقَامَ لَهُمُ الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ الْكَثِيرَةَ،

ولم يَبْقَ عَلَيْهِ بِالنُّسْبَةِ إِلَى مَنْ تَبَلَّغَهَا مِنَ الْكَافِرِينَ غَيْرُ التَّذْكِيرِ بِهَا، وَإِذْ وَصَلَ مَعَهُمْ إِلَى هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ، فَإِنَّ وظيفته الآتية بالنسبة إليهم إنَّما هي التَّذْكِيرُ فَقَطْ، أَمَا أَنْ يَتَصَوَّرَ أَنَّهُ صَارَ مُكَلَّفًا أَنْ يُلْزِمَهُمُ بِالْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ لِزَامِ مُكْرِهِ مُسَيِّطِرٍ، فَهُوَ تَصَوُّرٌ غَيْرٌ صَحِيحٌ، لِأَنَّهُ يَتَنَافَى مَعَ وَضْعِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ، فَامْتِحَانُ الْإِرَادَةِ يَسْتَلْزِمُ تَمْكِينَهَا مِنْ أَنْ تَخْتَارَ مَا تَشَاءُ خِلَالَ مُدَّةِ امْتِحَانِهَا.

فقال الله لرسوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: فوظيفتك بالنسبة إلى هؤلاء هي وظيفه التذكير بما سبق أن بلغتهم إياه.

إنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ: أي: ما أنت بالنسبة إلى هؤلاء الذين سبق أن عالجتهم خلال تنزيل (٦٧) سورة منذ بدء الدَّعوة حتى نزول سورة (الغاشية) إِلَّا مُذَكِّرٌ لَهُمْ، فَقَدْ قَدَّمْتَ لَهُمُ الْبَيَانَ الْكَافِيَ، وَالشَّافِيَ لِمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْمِنَ بِالْحَقِّ وَيَسْتَقِيمَ عَلَى صِرَاطِ رَبِّهِ.

لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ: أي: فَلَسْتَ مُطَالِبًا وَلَا مَأْذُونًا بِأَنْ تَكُونَ مُسَيِّرًا عَلَيْهِمْ سَيِّطْرَةً مُكْرِهِ مُجْبِرٍ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، إِذْ هُمْ مُطَالِبُونَ بِأَنْ يُؤْمِنُوا وَيُسَلِّمُوا بِاخْتِيَارِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ الْحَرَّةَ، بَعْدَ بَيَانِ الْحَقِّ لَهُمْ، بِالآيَاتِ الْجَلِيَّاتِ.

ومن رفض أن يستجيب لدعوة الحق فعليه أن يتحمَّل عند ربِّه نتيجة مَشِيئَتِهِ الَّتِي شَاءَ بِهَا سُبُلَ الْغَيْبِ، مُلْحِدًا عَنِ صِرَاطِ الرُّشْدِ، صِرَاطِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ.

* * *

النص الثاني عشر:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) خطاباً لرسوله فكلِّ داعٍ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ مِنْ أُمَّتِهِ:

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ

بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿١٩﴾ .

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ: أي: وَقُلِ أَيُّهَا الدَّاعِي إِلَى دِينِ اللَّهِ وَصِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ، بِهِدْوِي كَامِلٍ، لَا انْفِعَالَ فِيهِ وَلَا غَضَبَ وَلَا مُؤَكَّدَاتٍ: لِمَنْ تُوجِّهْ لَهُمْ دَعْوَتَكَ: الْحَقُّ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ وَالْعَمَلِ بِمَقْتَضَاهُ، هُوَ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيْسَ مِنْ عِنْدِ نَفْسِي، فَمَا أَنَا إِلَّا مُبَلِّغٌ.

فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ: أي: فَمَنْ شَاءَ بِإِرَادَتِهِ الْحَرَّةَ بَعْدَ أَنْ يَتَبَلَّغَ الْحَقَّ الرَّبَّانِيَّ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ فَلْيُؤْمِنْ بِهِ، لِيُنَالَ أَجْرَهُ الْعَظِيمَ عِنْدَ رَبِّهِ، وَمَنْ شَاءَ بِإِرَادَتِهِ الْحَرَّةَ أَنْ يَكْفُرَ بِهِ فَلْيُكْفُرْ بِهِ، وَلَكِنْ عَلَيْهِ أَنْ يَتَحَمَّلَ الْمَصِيرَ الَّذِي أَعَدَّهُ اللَّهُ لِلظَّالِمِينَ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهَا بِهِنَّ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿١٩﴾ .

سُرَادِقُهَا: السُّرَادِقُ: الْخِيْمَةُ، السُّورُ، الدُّخَانُ، وَهَذَا هُوَ الْمُنَاسِبُ هُنَا.

الْمُهْلُ: الْقَطْرَانِ السَّائِلِ، وَالْمَعْدِنُ الذَّائِبِ، وَالْقَيْحُ، وَصَدِيدُ الْمَوْتَى. شَبَّهَ الْمَاءَ الَّذِي يَشْرَبُ مِنْهُ أَهْلُ جَهَنَّمَ بِالْمُهْلِ، إِذْ هُوَ حَارٌّ فِيهِ كَثَافَةٌ مَاءٍ، يَخْرُجُ مِنْهُ بِخَارٌ يَشْوِي وَجُوهَ الشَّارِبِينَ.

وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا: أي: وَسَاءَتْ النَّارُ مَكَانًا لِلظَّالِمِينَ، مَجْلِسًا يَجْلِسُونَ فِيهِ، وَمُتَّكًا يَتَكِنُونَ عَلَيْهِ بِمُرَافِقِهِمْ.

* * *

النَّصُّ الثَّلَاثُ عَشَرَ:

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (النَّحْلِ/ ١٦ مَصْحَفٍ/ ٧٠ نَزُولٍ):

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ

وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْتِهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٦﴾ .

فَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ مُضِيْفَةً فِي الْمَوْضُوعِ عَلَى أَنَّ الْإِكْرَاهَ كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ وَسِيْلَةً صَحِيْحَةً وَلَا مَقْبُوْلَةً لِلدُّخُوْلِ فِي الدِّيْنِ، فَهُوَ لَا يُخْرِجُ مِنَ الدِّيْنِ مَنْ أَعْلَنَ بِسَبِيْهِ الْكُفْرَ، وَقَلْبُهُ مَطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ .

* * *

النص الرابع عشر:

قول الله عز وجل في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٦٩﴾ إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٧٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٧١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ ﴿٧٢﴾ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٣﴾ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٧٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٧٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٧٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَذَكَّرُونَ لِلْمُنْفِقِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ .

فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ: أَي: لَا فَائِدَةَ مِنْ أَنْ أُقْسِمَ لَكُمْ بِآيَاتِي فِي كَوْنِي الَّتِي تَبْصِرُونَهَا وَالَّتِي لَا تَبْصِرُونَهَا، مَعَ أَنَّهَا تَسْتَحِقُّ أَنْ أُقْسِمَ بِهَا، لِأَنَّكُمْ بَلِغْتُمْ مِنَ الْإِصْرَارِ عَلَى الْمَعَانِدَةِ مَبْلَغًا شَنِيعًا، وَالْمَقْصُودُ بِالْخَطَابِ فِتْنَةَ الْمَعَانِدِينَ مِنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ .

فَمَا سَبَقَ أَنْ نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ كَافٍ لِأَنَّ يَمْحُو كُلَّ أَثَرٍ لِلشَّكِّ فِيهِ، وَلِأَنَّ تَذَكُّرًا بِأَنَّهُ لَيْسَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ، وَلَيْسَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ، لَكِنَّكُمْ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ بِالْحَقِّ الَّذِي يَخَالِفُ أَهْوَاءَكُمْ وَتَقَالِيدَكُمْ الْعَمِيَاءَ، وَقَلِيلًا مَا تَتَعَطَّطُونَ بِالْمَذْكُرَاتِ الَّتِي تَذَكَّرُكُمْ بِسُنَنِ اللَّهِ فِي عَقُوبَاتِ الْجَاهِدِينَ الْمَكَابِرِينَ الَّذِينَ يُصْرُونَ عَلَى الْبَاطِلِ .

نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ: أَي: هَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي يَنْلُوهُ عَلَيْكُمْ مُحَمَّدٌ، هُوَ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ جَمِيعًا، الَّذِي هُوَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ، فَاعْلَمُوا هَذِهِ الْحَقِيقَةَ .

﴿ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿١١﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿١٣﴾ فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَلِيزِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

أي : واعلموا حقيقةً أُخْرِي تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وهي أَنَّهُ لَوْ كَانَ يَكْذِبُ عَلَيْنَا بِبَعْضِ الْأَقَاوِيلِ ، مع تَأْيِيدِنَا لَهُ بِالْمَعْجَزَاتِ ، لما تَرَكْنَاهُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ ، بل لَأَخَذْنَا بِيَمِينِهِ جَزَاءً ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ .

الوتين : عِزْقٌ مُتَعَلِّقٌ بِالْقَلْبِ إِذَا انْقَطَعَ مَا تَصَاحَبَهُ .

إِنَّا لَا نَدْعُ نَبِيًّا مُؤَيَّدًا مَتًّا بِالْآيَاتِ يَكْذِبُ عَلَيْنَا ، بل نُؤَيِّدُهُ فَوْرًا ، فَالْرَبُّ لَا يَكْذِبُ وَلَا يَقْبَلُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ أَنْ يَكْذِبَ عَلَيْهِ نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَائِهِ .

وَإِنَّهُ لَتَذِكْرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ : أي : وَإِنَّ الْقُرْآنَ لَتَذِكْرَةٌ يَنْتَفِعُ بِهَا دَوَامًا الْمُتَّقُونَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ فَأَمَّنُوا بِهِ ، وَأَسْلَمُوا لَهُ .

فَأَبَانَ اللَّهُ أَنَّ الْقُرْآنَ تَذِكْرَةٌ ، وَالتَّذِكْرَةُ تُعْطَى مَنْ يَتَّبِعُهَا حُرِّيَّةَ الْاِخْتِيَارِ .

* * *

النصّ الخامس عشر :

قول الله عز وجل عز وجل في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف / ٨٠ نزول) في مَعْرِضِ الْحَدِيثِ عَنْ يَوْمِ الدِّينِ ، يَوْمِ الْحِسَابِ وَالْجِزَاءِ :

﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا ﴿٣٦﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾ .

فَأَكَّدَ اللَّهُ فِي هَذَا النَّصِّ أَنَّ لِلنَّاسِ مَشِيئَاتٍ ذَوَاتِ حُرِّيَّةٍ فِي اخْتِيَارِ مَا بِ حَسَنِ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّينِ ، يَكُونُونَ فِيهِ سَعْدَاءَ سَالِمِينَ ، فَهُمْ يَسْلُكُونَ لِلْوَصُولِ إِلَيْهِ صِرَاطَ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ .

أي : فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ وَسِيلَةً إِلَى الظَّفَرِ بِمَرْضَاةِ رَبِّهِ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، فَنَالَ بِذَلِكَ مَا بَأَ حَسَنًا عِنْدَهُ .

أي: ومن شاء لم يتخذ ذلك، فاستحق العذاب يوم الدين، وهو عذاب قريب، إذ يتعدم حس الزمن بين الموت والبعث، ويومئذ يتمنى الكافر أن يكون تراباً لم يبعث، أو يقال له كما يقال للبهائم بعد بعثها وإقامة العدل فيما بينها: كوني تراباً.

* * *

النص السادس عشر:

قول الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) وهي أول سورة مدنية:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٦٠﴾﴾

فأبان الله عز وجل في هذه الآية حقيقة كلية عامة شاملة لا تخصيص فيها ولا نسخ ولا تغيير ولا تبديل بالنسبة إلى الذين يوضعون في حياتهم موضع الامتحان، هي أن الدين اختياراً من الممتحن، ولا يمكن أن يكون فيه إكراه مادي، فالقلوب التي هي مراكز الإيمان لا يمكن إكراهها إلا بالجبر الرباني الذي يسلبها معه حرية إرادتها، وهذا مناقض لوضعها موضع الامتحان، والوسائل الإكراهية المادية التي يملكها الناس تصنع منافقين، لا مؤمنين، والمنافقون أسوأ حالاً من الكافرين الصرحاء.

* * *

النص السابع عشر:

قول الله عز وجل في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول):

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٦﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٧﴾ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِي وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٨﴾﴾

في هذا النَّصِّ يُفِئِلُ اللَّهُ مَوْضُوعَ حُرِّيَّةِ مَشِيَّةِ الْإِنْسَانِ فِي الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالسَّيِّئِ، بِمِثْلِ النَّصِّ الَّذِينَ بَدَأَ بِهِ هَذَا الْمَوْضُوعُ فِي سُورَةِ (الْمَزْمَلِ) ثَالِثِ سُورَةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾ .

وَأُنزِلَتْ فِيمَا بَيْنَهُمَا نُصُوصٌ بَلَّغَتْ (١٥) نَصًّا، مَلَأَ كُلُّ مِنْهَا فِرَاقَ حَبِيَّةٍ فِي عِقْدِ الْمَوْضُوعِ، عَلَى صُورَةٍ تَكَامِلِيَّةٍ فِي الْمَعَانِي، مَعَ مِرَاعَاةِ الْمُنَاسَبَاتِ الدَّاعِيَاتِ لِإِيرَادِ كُلِّ مِنْهَا فِي السُّورَةِ الَّتِي هُوَ مِنْهَا .

وَأُطْبِقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى هَذَا الْقُفْلِ قَوْلَهُ:

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢١﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ .

أَي: وَلَا يَكُونُ لَكُمْ مَشِيئَةٌ إِلَّا إِذَا مَنَحَكُمْ اللَّهُ جِهَازَ الْإِيرَادَةِ الْحَرَّةِ، الَّتِي بِهَا تَشَاءُونَ طَرِيقَ نَجَاتِكُمْ وَسَعَادَتِكُمْ، أَوْ طَرِيقَ هَلَاكِكُمْ وَشَقَاؤِكُمْ، وَإِلَّا إِذَا مَكَّنْكُمْ مِنْ اسْتِعْمَالِهِ عِنْدَ كُلِّ مَشِيئَةٍ جَزَائِيَّةً .

لَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَا وَضَعَكُمْ مَوْضِعَ الْإِمْتِحَانِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ مَنَحَكُمْ هَذَا الْجِهَازَ، وَسَائِرَ شُرُوطِ التَّكْلِيفِ، فَأَنْتُمْ مَسْئُولُونَ مَسْئُولِيَّةً تَامَّةً عَنِ مَشِيئَاتِكُمْ وَعَنْ أَعْمَالِكُمْ، لِذَلِكَ يُدْخِلُ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ، وَهُوَ جَنَّتُهُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَشِيئَتَهُ تَعَالَى لَا تَفَارِقُ حِكْمَتَهُ، وَأَمَّا الظَّالِمُونَ فَقَدْ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ بِعَدْلِهِ عَذَابًا أَلِيمًا فِي دَارِ الْعَذَابِ عِنْدَهُ .

وَبِهَذَا تَكَامَلَ عِقْدُ الْمَوْضُوعِ وَأَدَّتِ النُّصُوصُ أَدْوَارَهَا التَّرْبُويَّةَ بِحَسَبِ مَرَاحِلِهَا الزَّمَنِيَّةِ، وَبِحَسَبِ الْحَاجَةِ إِلَى حَرَكِيَّةِ الدَّعْوَةِ، وَمُقْتَضِيَّاتِهَا التَّرْبُويَّةِ .

* * *

المقالة التاسعة
من العقبات الصادات

- ٣ -

عقبة سوابق الأفكار والمفاهيم والمعتقدات والعادات

- ١ -

البيان التحليلي

ومن العقبات النفسية الصادة عن تقبل دعوة الداعي وتعليمه وتربيته، وعن تقبل نصح الناصح، وإرشاد المرشد، عقبة الانتصار لسوابق الأفكار والمفاهيم والمعتقدات والعادات، لدى من توجه له رسالة الدعوة، أو رسالة النصح والإرشاد، والهداية إلى التي هي أصح أو أقوم.

السبب النفسي لهذه العقبة:

إن سوابق أفكار الإنسان ومفهوماته ومعتقداته وعاداته الثابتات تُعتبر في مشاعره الباطنة، حتى عمق وجدانه أحياناً، بمثابة أجزاء من ذاته، وكيانه الذي يفتخر به، ويحرص عليه، ويدافع عنه وينصره من أي مخالفة خارج عنه، ومضاد له، فهو تلقائياً يرفض التنازل عن شيء من سوابق أفكاره ومفهوماته ومعتقداته وعاداته الثابتات المتأصلت في كيانه، كما لا يتنازل عن جزء من أساسيات جسده إلا عند الضرورة، كالخوف على باقي أجزاء جسده من الهلاك.

وهذا الشعورُ الباطنيُّ في الإنسان لا يَسْتَنِدُ بوجه عامٍّ إلى برهانٍ عقليٍّ،
أو دليلٍ علميٍّ، إنما يستند إلى تعميمٍ خاطيءٍ، وتَعْصِبٍ بدون بصيرةٍ.

فكم من سوابق أفكار ومفاهيم ومعتقدات في فكر الإنسان أو في
وجدانه هي قضايا باطلة .

وكم من سوابق عادات ثابتات متأصلاتٍ في سلوكه هي عاداتٌ سيئات
يجب إلغاؤها، أو إصلاحها، أو التعديل فيها .

لكن هذا هو حال كثيرٍ جداً من الناس، حتَّى العلماء والمثقفين منهم،
ومنابعُهُ في النفس الأنانيَّة من وراء الشعور، مع استكبار الإنسان عن أن يتقبَّل
الآتهامَ بأنَّه كان ذا مفهوماتٍ خاطئاتٍ، وكان مقتنعاً بها، وعامِلاً بمقتضاها
حِقْبَةً من عُمره، وإبائه عن أن يَشْعُرَ بأنَّه كان فاسدَ الاعتقادِ، أو فاسد
السُّلوكِ، إذ يَرَى هذا إهانةً لكرامته، وشتيمةً لجزءٍ من ذاته، وهو الجزء الذي
كان عليه طوال حِقْبَةٍ من عُمره .

وهذا أحدُ الأسباب التي يَتَوَلَّد عنها مرض التعصُّبِ للذات، في حدود
الأنانيَّة الفردية، أو الأنانيَّة الجماعية .

ومن الأنانيَّة الجماعية يظهر ما يلي :

١- التعصُّب المذهبي .

٢- التعصُّب الحزبي .

٣- التعصُّب القومي والعِرقي .

وأشباهاها .

ولذا كان من العسير جداً اقتلاع سوابق الأفكار والمفاهيم
والمعتقدات والعادات الثابتات لدى كثير من الناس، ولو كانت باطلاً أو

فاسدات، أو قبيحات، لتحرير أَرْضِيَّة نفوسهم منها، و غرس بدائل من الحق، أو الخير، أو الفضيلة، أو الجمال.

فعلى حامل رسالة الدعوة، أو رسالة التُّصْح والإرشاد، أن يوطِّن نفسه لمواجهة هذه العقبة، فيمن يُوجِّه له رسالته، وأن يَصْبِر صبراً طويلاً لاجتيازها، وتحرير أَرْضِيَّة نفسه من السوابق الباطلة أو الفاسدة أو القبيحة، وتهيئتها لتقبُّلِ غرس البدائل الصحيحة أو الصالحة النافعة، أو الجميلة الحسنة.

ولا بُدَّ لاجتياز هذه العقبة من اتِّخاذ الأساليب الحكيمة الناجحة، والتحلِّي بالصَّبْر الطويل، والتدرِّج الكثير البطيء.

- ٢ -

طائفة من أساليب اجتياز هذه العقبة

وأوجِّه النَّظَرَ إلى طائفةٍ من أهمِّ الأساليب الحكيمة الناجحة لاجتياز عقبة سوابق الأفكار والمفاهيم والمعتقدات والعادات، فعلى حامل الرسالة أن يختار منها ما يلائم حالة من يُوجِّه له رسالته :

١ - الصَّبْر الطويل في اتِّخاذ الوسائل التي يَكْتَسِبُ بها ثقةً من يوجِّه له رسالته، بأخلاقه، وعِلْمه، وقوة عقله، وإدراكه لبواطن الأمور، وقوة محاكمته، وقُوَّة حُجَّتِه.

٢ - اتِّخاذُ الطُّرُق غير المباشرة أو المباشرة اللطيفة، لهدم ما لديه من سوابق الأفكار والمفاهيم والمعتقدات والعادات، بصورة تدريجية، ومن الخير البَدْءُ بالجذور الفكرية، ثم التدرِّج إلى نواحيها الأصليَّة، فإلى فروعها، ثم إلى لوازمها في العادات وأنواع السلوك.

٣ - اتّخاذ أسلوب الإقناع العلمي والمنطقي، لكشف بطلان ما يريد اقتلعه أو التغيير والتعديل فيه .

ويَحْسُنُ التماس بعض الأعذار ممّا يمكن أن يكون السبب في الوقوع في الأخطاء والانحرافات، مع بيان أنّه يجب على العاقل الحَصِيف المُنْصِف تَصْحِيحُهَا والرجوع إلى الحقّ، فالحقّ أَحَقُّ بأن يُتَّبَعَ .

وتَسْتَمِرُّ حِطَّةُ اقْتِلاع السوابق الباطلة أو الفاسدة أو القبيحة، حتّى تتحرَّرَ مِنْهَا أَرْضِيَّةُ النفس تَحَرُّراً كَلِيّاً أو جزئياً .

٤ - التَّلَطُّفُ في غرس البدائل التي يُرادُ غرسها، بدءاً بالجدور الأساسية، ثم الأقرب إليها فالأقرب .

٥ - الاهتمام بالتَّرْكِيزِ على مَنطِقِ الحقّ، والحجّة والبرهان، والتجربات العلمية، وقياس نتائج الأعمال، ووضع الأفكار كُلِّهَا مَوْضِعَ النُّقْدِ، وَفَقَّ الطريقة القرآنية، المبيّنة في قول الله عزّ وجلّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿... وَإِنَّا أَوْ يَتَاكُم لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٤﴾﴾

٦ - الإقناعُ بضرورة التَّحَرُّرِ من المؤثراتِ العاطفيّةِ التي لا صلة لها بإثبات المعارف أو نفيها، ولا صلة لها بتحديد الحقّ والباطل والتمييز بينهما، ككَوْنِ الفِكرَةِ هي ما عليه المذهب، أو ما التزَمَ به الحزب، أو نصرتُهُ الجماعة المعينة، وككَوْنِ الفِكرَةِ ممّا كان يقول به الآباء والأجداد .

ومن أقبِح الولاءات للأشخاص غير المعصومين بعصمة من الله عزّ وجلّ، مقالة جاهلية تدعو إلى أنّ الانتصار العرقي أو القبليّ أو القوميّ أو الحزبيّ أو المذهبيّ يُلْزَمُ بالأخذ بالفكرة الفلانية ولو كانت أمراً باطلاً، لأنّ الولاء للجماعة لا يكون صحيحاً ما لم يلتزم المنتمي إليها بكل أفكارها

ومفاهيمها وعقائدها وأوامر ونواهي قادتها وزعمائها، إنها القبيحة الجاهلية التي جعلت الشاعر الجاهلي يقول:

وَمَا أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وَإِنْ تَرَشَّدَ غَزِيَّةٌ أَرَشِدُ

٧ - الابتعاد عن إثارة الثعرات الأنانية (الشخصية - الأسرية - العرقية - القبليّة - القوميّة - العنصريّة - ونحو ذلك).

٨ - قد يحسُن عند العناد الشديد، والإصرار على الباطل، الهُجُومُ الصَّاعِقُ، لكشف بطلان الأفكار والمفاهيم والعقائد والعادات التي يُلْتَزَمُ بها مَنْ توجّه له الرسالة، ولبيان سفاهاة من يستمسك بها، ليُصَابَ بالهزيمة الفكرية في ميدان الجدال المنطقي بالحجّة والبرهان، والأدلة العلميّة.

ولكن ينبغي في الأحوال العادية التزام المعالجة برفق وحكمة، والابتعاد عمّا يولد الإصرار والعناد، أو يُثير الانفعالات الغضبيّة، ولا يحسُن اتخاذ الخطة الأخيرة إلّا في أحوال قليلة، وحينما يصير من الحكمة مواجهة المعاند بالتسفيه، ودمغه بالتحجّر واتباع الهوى، والعمى على الحقّ، واستحباب الظلمات على النور، والضلال على الهدى.

* * *

المقولة العاشرة
من العقبات الصادات

٤ - عَقَبَةُ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى

- ١ -

مرض التعصّب الذمّيم يتولّد منه مرضُ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى

١ - نشأت الجماعات البشرية القديمة، بعائلاتها، وقبائلها، وأقوامها، وشُعبها، ترى أنّ مصالحها لا تتحقّق إلاّ بالتعاون المشترك، وكان من مصالحها غَزْوُ بعضها لِبَعْضٍ بالظلم والعدوان، وقاتلُ بعضها لِبَعْضٍ للظفر بالحكم والسلطان.

لذلك كانت ترى أنّ حمايتها من عدوان خصومها، ومنافسيها، والطامعين بها، لا تتحقّق ما لم يتناصر أفرادها فيما بينهم ضِدًّا أعدائهم أو خصومهم، أو ضِدًّا مَنْ يَطْمَعُونَ هُمْ بِظُلْمِهِم والعدوان عليهم، لسلبهم أموالهم، أو لفرض سلطانهم عليهم.

٢ - ونشأت الصراعات الآثامات الظالمات بين القبائل والشعوب، ومُخْتَلَفِ التَكْتَلَاتِ والجماعات القديمة، وكانت أكثر الدوافع لقيامها الظلم والبغى والغزو العدواني.

٣ - ومن هذا ظهرت الولاءات والانتماءات القبلية، والقومية

والعرقية، التي لا تعتمد على مبادئ الحق والخير والفضيلة، وإنما تعتمد على مجرد التكتل الجماعي، والتناصر ولو بالظلم والعدوان، وظهرت العصبية التي تبدأ بالعصبية للأباء والأجداد، وتتسع حتى تكون عصبية قومية، ثم عصبية عرقية، فلعنوة وإقليمية.

٤ - وبالعصبية ينصر الأفراد زعيم الجماعة، أو قائدها ورئيسها، وينصرون أفكاره ومبادئه ومفاهيمه، ولو كانت باطلة أو ظالمة آثمة، ولو كانت تجلب شراً وضراً للمجتمع البشري.

٥ - وبالعصبية تتقاتل الجماعات ذوات الولاءات المختلفة بالظلم والعدوان، وتنفك الدماء، وتهلك الحرث والنسل وتفسد في الأرض.

٦ - ثم ظهرت في المجتمعات البشرية ولاءات حزبية، ولاءات مذهبية، وظهرت فيها عصبية لمبادئ الأحزاب، وأفكار المذاهب، ولو كانت باطلة، نظير العصبية القديمة القبلية، والعرقية، والقومية.

٧ - وتوجد في الناس أيضاً ولاءات فكرية لأشخاص وثق الناس بعلمهم، أو بقدراتهم الفكرية، أو بحكمتهم في التصرف، أو نحو ذلك، فهم يقلدونهم تقليداً أعمى، ولو كان ما عليه قادتهم من فكر أو عمل، باطلاً أو فاسداً أو شراً، وجالباً ضراً.

إن تعظيم الأشخاص قد يوقع عند كثير من الناس في وهم عصمتهم عن الخطأ وهذا باطل.

العصبية كلها أمراض خبيثة:

وبالتحليل يظهر لأهل الفكر والإنصاف أن العصبية كلها أمراض خبيثة من الأمراض الاجتماعية، إذ لا يعتمد الولاء فيها على قواعد الحق والخير والفضيلة، بل يعتمد على مبدأ المناصرة ولو بالباطل والظلم والعدوان.

ومرضُ العصبية قد يستشري في نفوس الناس ويستحكم، حتّى نجد بعضَ فضلاء أهل العلم يتعصبون للباطل المذهبي، ونجد بعضَ فضلاء المُتقنين الداعين إلى الحق يتعصبون للباطل الحزبي، تعصباً مقيتاً، يجعلهم يرفضون الإصغاء لأيّ بيانٍ يعرضُ الحقَّ المخالفَ لما تعصبوا له، مهما اقتَرَنا بما يُثبتُه من حجج وبراهين قاطعة، وسبب رفضهم كونه مخالفاً لما عليه المذهب، أو لما عليه قيادة الحزب.

وكلُّ الذرائع التي يقدمها الحزبيون والمذهبيون المتعصبون لجعل التعصبِ الحزبي أو المذهبي مقبولاً، أو أمراً غير مُنكر، ذرائعُ مرفوضةٌ في الموازين الإسلامية الصحيحة، والله عزّ وجلّ لا يقبلُ منها شيئاً، ولا يعذرُ من يلتزمُ الباطل تذرّعاً بها، فكلُّ المِللِ والمذاهبِ الباطلة التي جعل الله الآخذين بها من أصحاب النار الخالدين فيها، ذرائعهم للأخذِ بها واتباعها هي من ثمرات شجرة التعصب الخبيثة.

التقليد الأعمى ثمرة التعصب:

إنّ مرض التقليد الأعمى يتولّد تلقائياً من مرضِ التعصب، أو نقول: إنّ التقليد الأعمى يَنبُتُ في أرض العصبية والولاءات الفردية والجماعية الناتجة عن المصالح المتبادلة بين الناس، أو الناتجة عن الثقة التامة ببعض القادة أو الزعماء أو العلماء أو المفكرين، فهذه الثقة يتولّد منها التسليمُ المطلق بدون تأمل ولا بحثٍ ولا تفكير.

فمن مظاهر التعصب القبيح التقليدُ الأعمى، بالتزام الأفكار والمفاهيم والعقائد والعادات وأنواع السلوك التي تلتزم بها الجماعة التي ينتمي إليها المتعصب لها، أو التي يلتزم بها من يثق به من الناس.

والمتعصب يُناصر الأشياء التي يقلد فيها تقليداً أعمى بكل ما أوتي من قوّة، ويُدافع عنها، ويَحْتالُ لتأييدها بحجج واهية، وأقاويل زخرفيّة، ولو كانت باطلّة تشهد الأدلة القاطعة والحجج البرهانيّة بطلانها، وبأنّ الحقّ فيما يخالفها أو يضادّها.

وهذه الصفة من أقبح الصفات التي يتصف بها كثيرٌ من الناس، وتزداد قبحاً حينما تكون من صفات أهل العلم المفروض فيهم أن يكونوا مُتَجَرِّدين باحثين عن الحقّ، يتقبّلونه أيّناً وجدّوه، وينصرونه حيث ظفروا به، ولو كان على نقيض ما عليه جماعة الحزب أو المذهب أو القوم الذين يتمون إليهم.

وأخطر أنواع التقليد الأعمى بدافع التعصب الذميمة التقليد في أشياء مناقضة للحقّ الذي أمر الله به في الدين الحقّ عقيدة أو عملاً.

ولذا جاء في القرآن المجيد التوبيخ والتلويح الشديدين، للذين يقلّدون تقليداً أعمى آباءهم وأجدادهم فيما كانوا عليه، من عقائد وعبادات وأنواع سلوك مخالف للحقّ والخير والفضيلة، التي أمر بها الله ونهى عن أضدادها.

وَحَكَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْمُقَلِّدِينَ فِي الْكُفْرِ أَوْ الْفُسْقِ وَالْفُجُورِ بِأَنَّهُمْ كَافِرُونَ أَوْ فَاسِقُونَ فَاجِرُونَ، كقادتهم الذين اتّبَعُوهم مقلّدين لهم في عقائدهم ومفهوماتهم وعاداتهم وأعمالهم.

وأبان الله عزّ وجلّ أنّ المقلّدين تقليداً أعمى لا عُذْرَ لهم في أن يُقلّدوا على غير بصيرة، وأنّ عليهم أن يتحمّلوا نتائج التعصب بغير حقّ، والتقليد في الباطلِ والغيِّ والإثمِ والعدوان، عذاباً أليماً مع قادتهم يَوْمَ الدِّينِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

بيانات قرآنية حول التقليد الأعمى

النص الأول:

قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

إنهم يتذرعون لما يرتكبون من فواحش بذريعتين:

الأولى: أنهم وجدوا عليها آباءهم، فهم يقلدونها فيها تقليداً أعمى، واثقين من أن آباءهم لا يفعلون القبائح والشرور والمنكرات.

الثانية: أن الله أمرهم بها، وهذه الذريعة ذريعة افترائية كاذبة على الله، فالله لا يأمر بالفحشاء، وإذا كان الوضاعون المفترون الذين افتروا على الله أحكام دينهم، قد زعموا لهم أن الله هو الذي أمر بالفحشاء، فعليهم أن يدركوا بعقولهم أن الله لا يأمر بالفحشاء، لأن الأمر بالفحشاء ينافي الحكمة، والله عز وجل حكيم لا يأمر بشيء ينافي حكمته.

وهذا الادعاء منهم قول على الله بغير علم، وهم محاسبون عليه عند ربهم، كما هم محاسبون على ما يفعلون من فحشاء.

* * *

النص الثاني:

قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول) بشأن عاد قوم الرسول هود عليه السلام، وتمسكهم بالشرك الذي كان عليه آباؤهم، وما خاطبوا به رسولهم من إصرار على شركهم، وتحذيرهم لرسولهم بأن يأتيهم بما يعدهم به من إهلاك عام:

﴿ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحَدُّهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا يَمَا تَعْبُدُنَا
 إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٦﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ
 أَنْجِدُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَاَنْظِرُوا
 إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ .

ولم تنفعهم ذريعتهم باتباعهم لما كان عليه آباؤهم من عبادة الأوثان،
 فقد أرسل الله عليهم ريحاً صرصراً عاتيةً فأهلكتهم، وأنجى الله هوداً عليه
 السلام والذين آمنوا معه برحمةٍ منه، وحقَّت كلمةُ العذاب على الذين لا
 يؤمنون بالحقِّ الذي تشهد له الأدلة البيّنة، والحجج البرهانية .

* * *

النص الثالث :

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦/ مصحف/ ٤٧/ نزول) بشأن
 قوم إبراهيم عليه السلام، ومناظرته لهم حول أصنامهم التي يعبدونها من
 دون الله :

﴿ وَأَتَىٰ عَلَيْهِمْ بَنَاءُ إِبرَاهِيمَ ﴿١٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا
 فَنَظَلُّ لَهَا عِزًّا ۗ نَحْنُ نَحْمَدُهَا وَكُنَّا نَحْمَدُ آبَاءَنَا وَإِنَّا لَمُتَّبِعُونَ ﴿٢١﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمۢ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٢٢﴾ قَالُوا بَلْ
 وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٢٤﴾ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ
 الْأَقْدَمُونَ ﴿٢٥﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِيَ الْآرَبِ الْعَلَمِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

فحاجَّهم سيّدنا إبراهيم عليه السلام بالحجج البرهانية، فأصرُّوا على
 اتباع ما كان عليه آباؤهم بالتقليد الأعمى، فلا تنفعهم معاذيرهم التعصّبية
 التقليديَّة عند ربهم .

* * *

النص الرابع:

قول الله عز وجل في سورة (يونس/ ١٠/ مصحف/ ٥١/ نزول) بشأن فرعون وملئه، ورفضهم ما جاءهم به موسى وهارون عليه السلام من الحق:

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَيْسَ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِنَا عَمَّاءَ وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ .

فأعلنوا رفضهم عن أن يتحولوا عمًا كان عليه آباؤهم من شرك، وأصرّوا على باطلهم بتعصّبٍ وتقليدٍ أعمى، فأهلكهم الله بالإغراق في اليم، ولهم يوم الدين عذاب الحريق في جهنم وبئس المصير.

* * *

النص الخامس:

قول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١/ مصحف/ ٥٢/ نزول) بشأن ثمود قوم الرسول صالح عليه السلام:

﴿ وَإِن تَمُودُ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَعِفَرُوهُ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ وَإِن رَّبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿١١﴾ قَالُوا يَنْصَلِحُ قَد كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿١٢﴾ ﴾ .

فرفضوا دعوة رسولهم، وأصرّوا على ما كان عليه آباؤهم من الشرك، بتعصّبٍ وتقليدٍ أعمى، فأهلكهم الله بالصيحة، ولم يقبل ذرائعهم الباطلة القائمة على التعصّب والتقليد الأعمى.

* * *

النص السادس:

قول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١/ مصحف/ ٥٢/ نزول) بشأن مدين

قوم الرسول شعيب عليه السلام، وما ردّوا به على دعوته إياهم إلى عبادة الله وحده، وترك ما هم فيه من شرك وظلم وعدوان على الناس:

﴿ قَالُوا يَنْشُعِيبُ أَصْلَوْتَك تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِيهِ آمْرًا مِمَّا نَشْتَرِي بِإِنِّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (٤٧).

وكان حالهم ومصيرهم مثل حال الذين أهلّكوا من قبلهم ومثل مصيرهم، فلم تنفعهم عند الله ذرائعهم الباطلة، القائمة على التعصّب والتقليد الأعمى.

* * *

النص السابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الصفات/ ٣٧/ مصحف/ ٥٦/ نزول) في وصف عذاب الظالمين في الجحيم، دار العذاب يوم الدين، مبيناً أنّ التقليد الأعمى قد كان هو السبب في ضلالهم، الذي أوصلهم إلى الخلود في العذاب الأليم:

﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آيَةَ هُرْضَالَيْنَ ﴿١٦﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

ألفوا: وجدوا. يهرعون: يسرعون.

وفي هذا البيان تهديد للمشركين وسائر الكافرين بعد بعثة محمد ﷺ، بأنّ ضلالهم بسبب التقليد الأعمى سيجعلهم بعدل الله من المعدّين في الجحيم أبداً.

* * *

النص الثامن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (لقمان/ ٣١/ مصحف/ ٥٧/ نزول):

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

هذا أول نص يتعرض - بدون مواجهة صريحة - للمشركين الذين دعاهم الرسول محمد ﷺ إلى التوحيد، فرفضوا وقالوا: لا نتبعك بل نتبع ما وجدنا عليه آبائنا، وكان ما سبقه من النصوص توطئة وتمهيداً.

وجاء الإقناع بأسلوب الاستفهام التعجيبى الاستنكاري، المتضمن التعجيب من أن يلتزموا اتباع ما وجدوا عليه آبائهم من شرك تعصباً وتقليداً أعمى، ولو كان الشيطان يدعوهم بهذه الذريعة الباطلة إلى عذاب السعير في جهنم.

* * *

النص التاسع:

قول الله عز وجل في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) بشأن المشركين الذين دعاهم الرسول ﷺ:

﴿ وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَصِرُوا قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرٍ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

فتعرض هذا النص لمقولات قادة المشركين التي كانوا يقولونها للذين يتأثرون بهم من أتباعهم، فاستثاروا تعصبهم وتقليدهم الأعمى بمقولتهم لهم: ﴿ مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ ﴾ .

وعلم الله رسوله وكل داع إلى سبيل ربه من أمته، بعد ذلك في الآية (٤٦) من السورة أسلوباً من أساليب معالجتهم بالإقناع الهادىء.

النص العاشر:

قول الله عز وجل في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٣٦ نزول) بشأنِ مُشْرِكِي هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي وُجِّهَتْ لَهَا دَعْوَةُ الرِّسَالَةِ الْخَاتَمَةِ:

﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثِرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثِرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أُولَٰئِكَ حِجَابُ اللَّهِ فَأَهْدِي مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانظُرْنَا مِنهُمْ فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴿٢٥﴾ .

عَلَىٰ أُمَّةٍ: أي: على طريقة، وهي الملة والديانة بالنسبة إليهم.

فعرض هذا النص مقالة الكفرة المشركين الذين قَابَلُوا دَعْوَةَ الرِّسَالَةِ الْخَاتَمَةِ، بِالْإِبَاءِ وَالرَّفْضِ، مُتَذَرِّعِينَ بِذَرِيعَةِ التَّعَصُّبِ لِلْآبَاءِ وَاتَّبَاعِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ شِرْكِهِ، وَمُدَّعِينَ أَنَّ آبَاءَهُمْ كَانُوا أَهْلَ عَقْلِ وَرُشْدٍ وَهُدًى، فَهَمَّ بِالتَّزَامِ اتِّبَاعِ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ، غَيْرُ ضَالِّينَ، وَاقْتِدَاؤُهُمْ بِهِمْ وَتَقْلِيدُهُمْ لَهُمْ هِدَايَةً وَرُشْدًا.

وَاتَّبَعَ مَقَالَةَ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ الْكُفْرَةَ بِعَرَضِ مَقَالَةِ مُشْرِكِي الْأُمَّةِ السَّابِقَةِ، الَّذِينَ قَابَلُوا دَعْوَةَ رُسُلِ رَبِّهِمْ، بِمِثْلِ مَا قَابَلَ بِهِ الْمَشْرِكُونَ الْمَعَاصِرُونَ دَعْوَةَ الرَّسُولِ الْخَاتَمِ، مُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَالَ قَادَتُهُمُ الْمَتْرَفُونَ لِرُسُلِ رَبِّهِمْ: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثِرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ وَاتَّبَعَهُمْ فِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ اتِّبَاعُهُمُ الْمُقْلِدُونَ لَهُمْ، وَالْمُتَعَصِّبُونَ فِي وِلَايَتِهِمْ لِقَوْمِهِمْ، مِنَ الْعَامَّةِ .

عِبَارَةٌ: ﴿ مُهْتَدُونَ ﴾ فِي الْآيَةِ (٢٢) تَدُلُّ بِاللُّزُومِ الذَّهْنِي عَلَىٰ أَنَّ الْمَشْرِكِينَ السَّعَاصِرِينَ قَالُوا: وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ مُهْتَدُونَ، فَالْإِهْتِدَاءُ يَسْتَلْزِمُ الْإِقْتِدَاءَ .

وَعِبَارَةٌ: ﴿ مُّقْتَدُونَ ﴾ فِي الْآيَةِ (٢٣) تَدُلُّ بِمَقْتَضَى التَّقَابُلِ مَعَ الْآيَةِ (٢٢) عَلَىٰ أَنَّ الْمَشْرِكِينَ السَّابِقِينَ قَالُوا أَيْضًا: وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ مُهْتَدُونَ.

وأبان النصّ أنّ كلّ رسول قوم كان يرُدُّ على مقالة المشركين منهم بقوله :

﴿ قُلْ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهِدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَهُمْ ﴾ تُصِرُّونَ عَلَيَّ تَعْصِبِكُمْ وتقليدكم لهم؟!..

فيرُدُّ المشركون بتعصّبٍ وتقليدٍ أعمى وإصرارٍ على الباطلِ واتِّباعٍ للهوى : ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ .

وجاء في خاتمة النصّ بيان أنّ الله انتقم من المشركين الأولين، ولم يقبل منهم ذرائعهم، وفي هذا تهديدٌ للمعاصرين بمثل ما حصل للأولين .

* * *

النص الحادي عشر :

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ / مصحف/ ٧٣ نزول) يعرض لقطعة من قصة إبراهيم عليه السلام وقومه حول آلهتهم التي يعبدونها من دون الله :

﴿ وَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥٦﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ حَمَلَها عَنْكُمُورًا ﴿٥٧﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا هَا عَابِدِينَ ﴿٥٨﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَشْرَكَاءَ آبَاءِكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ .

ويستمرّ عرض القصة حتى الآية (٧٠) من السورة .

وجاء هذا العرض بمثابة مناظرة جدليّة للمشركين المعاصرين لتنزيل القرآن ثم من يأتي بعدهم، وفيه تعليمٌ للرسول وللدعاة إلى سبيل ربّهم من أمته كيف يُحاجّون المشركين بشأن آلهتهم من الأوثان، وكيف ينصرون الحقّ ويثبتون عليه .

وفيه بيان أنّ الهزيمة الفكرية لاحقةٌ بالمتعصّبين المقلّدين بالباطل،

وبأن النصر في آخر الأمر سيكون للحق وللمستمسكين به .

* * *

النص الثاني عشر:

قول الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) وهي أول سورة نزلت في المدينة بعد الهجرة، بشأن الذين يتخذون من دون الله أنداداً شركاء لله:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَئِكَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١٧)

فعرض هذا النص ردّ المشركين المتعصّبين المقلدين لآبائهم تقليداً أعمى، على دعوة الحق، إذ يدعوهم الداعي فيقول لهم: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله، فيقولون، لا نتبع ما تدعوننا إليه، لأننا لا نؤمن به، بل نتبع ما ألفينا (أي: وجدنا) عليه آباءنا من عبادة الأوثان، والإيمان بها، وما وجدنا عليه آباءنا من عادات وتقاليد.

وفي هذا النص يرتقي البيان في التلويح والتشريب والتوبيخ، فيقول الله بشأنهم معرضاً عن مخاطبتهم:

﴿ أُولَئِكَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ أي: أيبصرون على اتباع ما وجدوا عليه آباءهم ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً من المعرفة الصحيحة، ولا يعقلون بإرادتهم أنفسهم عن اتباع أهوائهم الجانحة، وشهواتهم الجامحة، وعن سلوك سبل الضلال والغي. ولا يهتدون إلى صراط نجاة وفلاح في حياتهم.

والمعنى: إن من يبصر مثل هذا الإصرار بتعصّب وتقليد أعمى، لا عقل له يعقل به، ولا بصيرة له يبصر بها الحق، ويهتدي بها إلى نجاته وسعادته، فهو بذلك يعرض نفسه ليكون من أصحاب النار خالداً فيها أبداً.

النص الثالث عشر:

قول الله عز وجل في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) وهي من
أواخر التنزيل المدني:

﴿... وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١١٥﴾﴾.

فكان هذا النص آخر ما نزل في المراحل البيانية حول هذا الموضوع،
وهو شبيه بالنص الذي نزل في أوائل المرحلة المدنية.

إلا أن هذا النص من سورة (المائدة) قد جاء فيه:

● ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾.

فجاء فيه إضافة فكرة الدعوة إلى اتباع الرسول، مع اتباع ما أنزل الله.

وجاء فيه عبارة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ بَدَلُ ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ فتكامل النصان في أداء
المعاني المراد بيانها.

واكتفى هذا النص الأخير بتكرير عبارة التلويح والتثريب والتوبيخ، على
الإصرار على التقليد الأعمى بتعصب ذميم، لا عقل فيه ولا رشد.

- ٣ -

وسائل علاج التقليد الأعمى

على حامل الرسالة أن يعالج التقليد الأعمى فيمن يوجه لهم رسالته،
بمختلف الوسائل الممكنة، بدءاً بأخفها وأهونها وأبعدها عن المواجهة
المباشرة، ثم يرتقي شيئاً فشيئاً من الأخف إلى الخفيف، فالشديد فالأشد من
أساليب التوجيه غير المباشر.

فإذا لم تُجدِ الوسائل غيرُ المباشرة انتقل إلى الوسائل المباشرة، متدرجاً فيها من الأخف فما فوقه، ويترقّى صاعداً شيئاً فشيئاً، ومتى استجاب من يوجّه له رسالته للحقّ توقّف عند الدرجة التي استجاب عندها، ولا يزيد عليها.

ومن الواجب دواماً أن يلتزم التلطّف والرفقَ إلا عند الضرورة القصوى، وأن يلتزم التدرّج الارتقائي، وأن يتحلّى بالحلم والصبر وسعة الصدر والتغاضي عمّا يوجّه له من إساءات مع العفو والصفح والتكريم.

هذا ما دلّت عليه منهجيةُ النُصوص القرآنية التي سبق استعراضها في الفقرة السابقة، وقد لاحظنا فيها التدرّج الارتقائي الذي دلّت عليه مراحل نجوم التنزيل، ابتداءً من أوائل التنزيل المكيّ، وحتى أواخر التنزيل المدنيّ، من تاريخ دعوة الرسول ﷺ في قومه.

ومن الوسائل النافعة لعلاج داء التقليد الأعمى ما يلي:

الوسيلة الأولى:

الإقناع بأن الإسلام قائم على الحقّ، وهو يدعو إلى الحق حيث كان، فلا يَنحازُ إلى أيّ عرقٍ أو لونٍ أو قومٍ أو شَعْبٍ أو جماعةٍ خاصة، دون سائر الناس، إذ هو في أسسه ومبادئه وتعليماته لا يُفرّق بين الشعوب والقبائل والأقوام الأعراق.

والإقناع بأنّ التعصّب بغير حقّ داءٌ اجتماعيٌّ يتنافى مع فضائل الأخلاق، التي يدعو الإسلام إلى التحلّي بها، والالتزام بها.

والإقناع بأنّ الإسلام يُقرّر أن كلّ إنسانٍ ذي فكر مسؤول عند الله عن أن يُحقّق الحقّ، ويُبطل الباطل، ويُنصر المظلوم، ويأخذ على يد الظالم، ويقيم العدل ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

الوسيلة الثانية:

اتخاذ الوسائل لتكوين رأي عام يتفق على ذم داء التّعصّب بغير حقّ، وضرورة تخلّص المجتمعات الإنسانية منه، وذمّ ما كانت عليه الأمم البدائية الهمجية، التي كانت مُصَابَةً بداءِ التّعصّب بغير حقّ، لقبائلها وشعوبها وأقوامها، فأبعدها هذا الداء عن الحقّ وعن سلوك سبيل الهدى والرشاد.

الوسيلة الثالثة:

الإقناع بأنّ التقليد الأعمى أحدُ المفزعاتِ التّينّةِ لداء التّعصّب الذميمة، القائم على التناصر ولو بالباطل والظلم والعدوان، والإثم والبغي والطغيان.

الوسيلة الرابعة:

عرض قضايا الحقّ التي جاء بها الإسلام مقترنةً بأدلتها وحججها البرهانية.

الوسيلة الخامسة:

التطلّف بالمقلّدين تقليداً أعمى، ببيان أنّ مواريث الشعوب تتأصل في النفوس بطريقة غير شعورية، إذ لا تمرُّ على محاكمة عقلية، فلا بُدّ من مجاهدتها جهاداً طويلاً للتخلّص منها، ومن يجاهد نفسه حتى يتخلّص ممّا تأصل فيها من مواريث باطلة ينال عند ربّه أجراً عظيماً وثواباً جزيلاً، مع المجد الذي يظفر به بين الناس إذا استطاع أن يهجر الباطل، ويرتقي إلى مراتب الحقّ الرفيعة بإرادة قوية حازمة.

الوسيلة السادسة:

التزام السياسة الحكيمة التي علّمنا الله عزّ وجلّ أن نقول فيها للمخالفين الذين هم في ضلالٍ مبين، كما جاء في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿... وَإِنَّا أَوْ لِيَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾

وبهذا الإعلان يضع حامل الرسالة الإسلامية مفهومات الإسلام، ومفهومات المخالفين المناقضة لها على مائدة البحث، وضعاً متساوياً، مشروطاً بأن يتجرد كل فريق من سوابق أفكاره، وبأن ينظر في موضوع البحث نظراً مُتَجَرِّداً من أية عوامل خارجة عن ابتغاء الوصول إلى الحق، فما دلّت الأدلة الصحيحة أو البراهين القاطعة على أنه هو الحق، كان على كلا الفريقين أن يعترف به ويلتزمه، دون ملاحظة أنه قد انتصر أو انهزم في مجال البحث، بل الطرفان قد تعاونا في البحث للوصول إلى الحق، بغية الاستمسك به، فالمستمسك بالحق هو المنتصر على الباطل والتزعات النفسية، والتزعات الشيطانية الداعية إليه.

وبالتزام الفريقين بالحق الذي يوصل إليه البحث المُتَجَرِّدُ التزيه، يكونان معاً منتصرين على ثالث هو الشيطان الذي يعمل دوماً على الإغراء بالباطل، والإغواء والإضلال عن الحق والخير والرشد والهدى.

الوسيلة السابعة:

حين لا تجدي الوسائل الرفيعة السابقة، قد يكون من المفيد استخدام الوسائل الإعلامية، للتشجيع على المتعصبين بالباطل، المقلّدين تقليداً أعمى، والتشهير بسفاهتهم ونقصان عقولهم واتباعهم لأهواء النفوس، وبيان فساد مبادئهم، ومفهوماتهم، وآرائهم، ومعتقداتهم، وتصرفاتهم، وفساد أدلتهم، ودمغها بالحجج البرهانية، والأدلة العلمية.

* * *

المقالة الحادية عشرة
من العقبات الصادات

- ٥ -

عقبة حسدٍ من توجّه له الرسالة

- ١ -

تأثير داء الحسد في النفس والسلوك

● كان داء الحسد هو الداء الذي صرف اليهود عن اتباع الرسول محمد ﷺ، مع علمهم بأنه هو الرسول الخاتم المبشر به في كتبهم، فقد عرفوه بصفاته المتميزة المذكورة عندهم كما يعرفون أبناءهم.

قال الله عز وجل بشأنهم في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) وهو من التنزيل المدني المضموم إلى سورة مكية:

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٠)

وقال الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٤٦)

وقال الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً في معرض الكلام على بني إسرائيل:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَمَعَنُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِسْمَا أَسْرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ .

بُعِيًّا: أي: حسداً تجاوزوا به الحد، إلى الكفر الذي يجعلهم خالدين في عذاب الله .

● وكان داء الحسد مع داء الكبر هما الداءَيْنِ اللَّذَيْنِ جعلاً إبليس لعنة الله يعصي بإصرار أمر ربه له بالسجود لآدم عليه السلام، فقد عاند وكابر على الرُّغْم من وضعه موضع المحاسبة والمقاضاة ثلاث مرات، دلت عليها فوارق النصوص القرآنية الثلاثة التي عرضت قِصَّةَ مُسَاءَلَةِ اللَّهِ له عن سبب رفضه طاعة أمر ربه، ووجد حَقَّ إلهية الله، ولم يعترف بذنبه، بل اتهم ربه بأنه لا حق له في أن يأمره بالسجود لآدم، زاعماً أنه خَيْرٌ من آدم، إذ خلقه الله من نارٍ وخلق آدم من طين .

● فالحسد داءٌ خطيرٌ يصرفُ المصابَ به عن قبول الحق والاستجابة لدعوة حامل رسالته، ويجعله يُصِرُّ على الباطل ويُعَانِدُ وَيُكَابِرُ، وَيُعَرِّضُ نَفْسَهُ للعذاب الأبدي في نار جهنم .

والحسد من عقبات النفوس الكأداء التي تُوجَد عند بعض الناس، إنَّها عقبةٌ خبيثةٌ صادة، تجعل الحاسد يرفض كلَّ ما يوجَّه له المحسود أو بعضه، ولو كان حقاً وخيراً، وفيه نفعٌ عظيمٌ وخيرٌ جسيمٌ للحاسد، وقد أحسن بعض الأدباء الشعراء، إذ وصف داء الحسد في نفس المصاب به بالنار التي تعذبه وتأكله من داخله .

إن عقبة الحسد تشبه عقبة الكبر والعجب بالنفس، إنَّهَا تُغَشِّي مِنْ بصيرة المصاب بِدَائِهَا بِمَقْدَارِ كِبَرِهَا وَضَخَامَتِهَا وَعَظَمَتِهَا، فَهُوَ بِسَبَبِهَا لَا يُحَاوِلُ التَّفَكِيرَ فِيمَا يُوَجِّهُهُ لَهُ المَحْسُودُ مِنْ دَعْوَةٍ وَدَلَالَةٍ عَلَى الحَقِّ وَالخَيْرِ، أَوْ بَيَانِ وَتَعْلِيمِ، أَوْ نُصْحِ وَإِرْشَادِ وَتَرْبِيَةِ، أَوْ أَمْرِ بِالمَعْرُوفِ أَوْ نَهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، أَوْ نَحْوِ هَذِهِ الأُمُورِ. إِنَّهُ يَرْفُضُهُ تَلْقَائِيًّا دُونَ أَنْ يَسْمَحَ لَهُ بِأَنْ يَدْخُلَ إِلَى سَاحَةِ تَفْكِيرِهِ.

- ٢ -

وسائل تخطي أو تحاشي عقبة داء الحسد

يستطيع حامل الرسالة الإسلامية الحكيم أن يتخطى أو يتحاشى عقبة الحسد التي يُلاحِظُهَا لَدَى مَنْ يُوَجِّهُ لَهُ رِسَالَتَهُ، بِأَسَالِيبِ وَوَسَائِلِ حَكِيمَةٍ مُتَعَدِّدَةٍ، مِنْهَا الوَسَائِلُ التَّالِيَةُ:

الوسيلة الأولى: تَرْضِيَةُ نَفْسِ الحَاسِدِ بِمَحَابَّتِهَا وَمَا تَرْغَبُ فِيهِ مِمَّا أَدْنَى اللهُ بِهِ، فَمِنْ شَأْنِ هَذِهِ التَرْضِيَةِ أَنْ تُحُتَّ عَقْبَةُ الحَسَدِ فِي نَفْسِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى تُتَهَدَّمَا.

الوسيلة الثانية: استخدام أساليب التوجيه غير المباشر.

الوسيلة الثالثة: تكوين رأي عامٍّ حول ما يُرَادُ تَوْجِيهِهُ لِلحَاسِدِ، فَمَعَ الرَأْيِ العَامِّ السَّائِرِ فِي اتِّجَاهِهِ مَا تُتَهَدَّمُ عَقْبَاتُ الحَسَدِ المَوْجَّهِ ضِدَّ شَخْصٍ حَامِلِ الرِّسَالَةِ، أَوْ ضِدَّ أُسْرَتِهِ أَوْ قَبِيلَتِهِ أَوْ جَمَاعَتِهِ الخَاصَّةِ الَّتِي يَنْتَمِي إِلَيْهَا.

الوسيلة الرابعة: مداراة الحاسد بالتكريم والتؤدُّدِ وَتِجَاهُلِ حَسَدِهِ، وَالإِغْضَاءِ عَنِ إِسَاءَاتِهِ.

الوسيلة الخامسة: إعطاء الحاسد فُرْصَةً اكْتِشَافِ المَطْلُوبِ مِنْهُ بِنَفْسِهِ، مَعْرِفَةً كَانَ أَوْ عَمَلًا.

الوسيلة السادسة: فَتَحُ باب النقاش والمجادلة مع غيره بحضوره، حول الموضوع المراد إقناعه به أو توجيهه له، ليشترك في الاستماع والتفكير، دون أن يَشْعُر بأنه هو المقصود بتوصيل الرسالة إليه .

الوسيلة السابعة: وَضَعَهُ في بيئةٍ يتأثرُ بها عن طريق المحاكاة والتقليد والغيرة، ويندمج فيها، وَيَشْعُرُ معها بالمشاركة العامة، دون أن تشتعل في داخله نار الحسد .

الوسيلة الثامنة: تكليف شخصٍ غير محسودٍ أن يبلغه الرسالة التي يُرادُ إيصالها إليه .

إلى غير هذه الوسائل مما يمكن أن تُتَخَطَّى بها أو تُتَحَاشَى عقبة الحسد .

وَلَا يَعْذَمُ حاملُ الرِّسَالَةِ الحكيمُ أن يجد وسيلةً مفيدة ذات جدوى، يُوصِلُ بها رسالتهُ إلى من يراه حاسداً له، دون أن يصطدم بعقبة الحسد التي تُصَدِّدُ بياناته وبلاغاته ونصائحه عن أن تَصِلَ إلى فِكْرِهِ وَنَفْسِهِ .

ومن لم تُجِدِ فيه وسيلةً من الوسائل الحكيمة الرفيقة ثم العنيفة في آخر مراحل معالجته، فينبغي الإعراض عنه، وعدم إضاعة الوقت والجهد فيه .

* * *

المقالة الثانية عشرة
من العقبات الصادات

- ٦ -

عقبة الأهواء والشهوات من متاع الحياة الدنيا
لدى من تُوجَّه له الرسالة

- ١ -

شرح هذه العقبة

ومن العقبات الصادات لما يُوجَّهه حاملُ الرسالة، أنَّ ما يُوجَّهه له
مُخالفٌ لأهواءٍ وشهواتٍ مَنْ يُريد توجيةً عناصر رسالته لهم.

ومن المعلوم في طبائع النفوس أنَّها تقع تحت تأثير أهوائها وشهواتها
من متاع الحياة الدنيا، وأنَّ كثيراً من أهواء النفوس وشهواتها تدخلُ في قائمة
المحرّمات في الدين، لما تجلبه من شرور ومضارّ فردية واجتماعية، ولما في
الاستجابة لمطالبها من معصية الله عزّ وجلّ، وجلبٍ لسخطه وغضبه
واستحقاق عقوبته.

ومن المعلوم أن التحرُّر من سلطان أهواء النفوس وشهواتها شديدٌ
الصُّعوبة على الواقعين تحت تأثيرها.

ولهذا ينبغي لحامل الرسالة أن يتخذ من الوسائل المأذون بها شرعاً، ما

يَرَاهُ مَفِيداً لِتَخْطِي هَذِهِ الْعَقْبَةَ، أَوْ تَحَاشِيهَا، أَوْ تَصْغِيرَهَا وَجَعَلَهَا قَاصِرَةً عَلَى
غَيْرِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ مِنْ مَشْتَهِيَاتِ النَّفُوسِ وَمَطَالِبِ أَهْوَائِهَا، فِي الَّذِينَ يُؤَدِّي بَيْنَهُمْ
رِسَالَتَهُ.

وَفِي الْفَقْرَةِ التَّالِيَةِ عَرْضُ لَطَائِفٍ مِنْ هَذِهِ الْوَسَائِلِ .

- ٢ -

وسائل معالجة عقبة الأهواء والشهوات

ومن وسائل معالجة هذه العقبة ما يلي :

١ - اتِّخَاذُ الْوَسَائِلِ الْإِقْنَاعِيَّةِ، الَّتِي تَجْعَلُ مِنْ تَوَجُّهِ لِهَ الرِّسَالَةِ يَوْمٍ بِأَنَّ
مَا يُقَدِّمُ لَهُ مِنْ دَعْوَةٍ أَوْ تَعْلِيمٍ أَوْ نُصْحٍ وَإِرْشَادٍ أَصْلَحَ لَهُ، وَأَكْثَرُ سَعَادَةً، وَأَمْتَعُ
لِنَفْسِهِ عَاجِلاً أَوْ آجِلاً، مِمَّا هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِهِ مِمَّا يُرْضِي أَهْوَاءَهُ وَشَهَوَاتِهِ، وَمِمَّا
ثَبَتَ وَاسْتَقَرَّ فِي سُلُوكِهِ مِنْ عَادَاتٍ مَحَبَّبَةٍ إِلَى نَفْسِهِ .

٢ - اتِّخَاذُ الْوَسَائِلِ غَيْرِ الْمُبَاشِرَةِ، كَتَقْدِيمِ نَمَازِجِ الْقُدُوةِ الْحَسَنَةِ،
وَالْغَمْسِ فِي بَيْئَةٍ مَلْتَزِمَةٍ فِي طَرِيقَةِ حَيَاتِهَا بِالسُّلُوكِ الْإِسْلَامِيِّ، وَالْعَرْضِ الْعَامِّ
غَيْرِ الْمَوْجَّهِ تَوْجِيهاً خَاصًّا، إِلَى غَيْرِ هَذِهِ الْأُمُورِ مِنْ وَسَائِلِ التَّوْجِيهِ غَيْرِ
الْمُبَاشِرِ .

٣ - اسْتِرْضَاءُ نَفْسٍ مِنْ تَوَجُّهِ لَهَ الرِّسَالَةِ بِمَا يَحِبُّ وَيَهْوَى مِمَّا أَبَاحَ اللَّهُ
مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لِتَكُونَ بَدَائِلَ لِمَا هُوَ مَنْغَمَسٌ فِيهِ مِنْ شُرُورٍ .

٤ - تَعْلِيْقُ مَطَامِعِ نَفْسِهِ بِالنَّعِيمِ الْخَالِدِ الَّذِي أَعَدَّهُ اللَّهُ لِلْمُتَّقِينَ، فِي
جَنَّاتِ النَّعِيمِ .

٥ - نَقْلُهُ مِنْ بَيْئَتِهِ الَّتِي تَجْذِبُهُ إِلَى مَا كَانَ فِيهِ مِنْ انْغِمَاسٍ فِي مَطَالِبِ

أهوائه وشهواته، إلى مَوْطِنٍ آخِرٍ صَالِحٍ، وبيئةٍ تساعد على نفسه.

٦ - تدريبه على طاعة الله حتى يذوق حلاوتها فيتعلق بها.

إلى غيرها من وسائل يكتشف حامل الرسالة أَنَّها ذاتُ جدوى في معالجة هذه العقبة.

* * *

شرح عقبات القسم الثالث
عقبات تكون أسبابها في الوسط بين
حامل الرسالة ومن توجّه له
وهي ثلاث عقبات

المقولة الثالثة عشرة
من العقبات الصادات

- ١ -

عقبة الوسوس والتسويلات الشيطانية

- ١ -

شرح هذه العقبة

وسوسة الشيطان: حديثه الخفي الذي يُبَاشِرُ مَرَكَزَ الإدراك في النفس،
ولا يشترط أن يأتي عن طريق أداة السَّمْع، لأنَّ الشيطان يجري من ابنِ آدم
مجرى الدَّم.

روى البخاريّ ومسلم وغيرهما عن أنس وصفية أن الرسول ﷺ قال:

«إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ».

وأصلُّ الوسوسة الصوت الخفي.

والشيطان يُوسِسُ في صَدْرِ الْإِنْسَانِ لِيُغْرِيَهُ وَيَخْدَعَهُ فَيُغْوِيَهُ، ويستخدم في إغرائه وخذعه إثارة الشبهات، وتهيج الأهواء والشهوات.

تسويل الشيطان: إطماعه بالباطل، وتزيينه وتحسينه بالوسوسة ما يدعو الإنسان إليه، وتحبيبه إليه، وإغراؤه به، وتسهيله له.

● إن إبليس بعد أن طرده الله وحكم عليه بالغواية حكماً مُبرماً، حقد على آدم وزوجه وذريتهما، فسأل ربه أن يُنظره في الحياة إلى يوم الدين، فأعطاه الله الوعد بأن يُنظره إلى وقت إهلاك الأحياء، لا إلى وقت البعث، فلما أخذ الوعد بهذا أعلن قراره في أن يعمل في إغواء ذريتهما، وأن يحمل أعباء هذا الإغواء.

فمن استجاب له منهم، واتبع خطواته قاده أوساقه إلى المعصية والإثم على قدر نسبة الاستجابة التي قد توصل إلى الخلود في عذاب السعير. ومن لم يستجب له حمأه الله من تحقيق مراداته فيه، الرامية إلى غمسه في أحوال الشرور، وحمأة الموبقات، والعذاب الأليم.

● واتخذ إبليس لنفسه خطة عمل للإضلال والإغواء، بالوسوسة والتسويل والإغراء، فقال لربه مبيناً خطته كما أخبرنا الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩/ نزول):

﴿ قَالَ فِيمَا أَعْيَبْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرَجْنَا مِنْهَا مَذْجُورًا لَمَّا تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

مذءوماً: أي مذموماً، معيياً، مخزياً، مطروداً.

مذخوراً: الذخر: الطرد والإبعاد المقترن بدفع عنيف فيه إهانة وإذلال.

فِيمَا أَغْوَيْتَنِي: أي: فيما حَكَمْتَ عَلَيَّ بِالْغَوَايَةِ، وَفَصَلْتَ الْقَضَاءَ بِشَأْنِي
مِنذُ الْآنَ، وَجَعَلْتَنِي مِنْ أَهْلِ النَّارِ.

لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ: أي: لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ رَاصِدًا صِرَاطَكَ
المستقيم، وهو كلُّ ما اشتمل عليه الدِّينُ من بَيِّنَاتٍ تَتَعَلَّقُ بِحَقَائِقِ عِلْمِيَّةٍ
يجب الإيمان بها، وأعمالٍ قلبيةٍ ونفسيةٍ وتُروكٍ، وأعمالٍ جسديَّةٍ ظاهرةٍ
وتُروكٍ تَجِبُ طَاعَةُ اللَّهِ فِيهَا.

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ
شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ .

أَبَانَ إِبْلِيسَ بِهَذَا خُطَّةَ حُرُوكَتِهِ لِلْإِغْوَاءِ، بِأَنَّهُ سَيَعْمَلُ عَلَى صَرْفِ بَيْنِي
أَدَمَ عَنِ الْبَدْيِ بِالسَّيْرِ عَلَى صِرَاطِ اللَّهِ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ صِدًّا عَنْهُ وَدَفْعًا، وَمِنْ
خَلْفِهِمْ شِدًّا وَجَذْبًا حَتَّى لَا يَدْخُلُوهُ، فَإِذَا سَارَ مِنْهُمْ عَلَى صِرَاطِ اللَّهِ سَاطِرُونَ
فَإِنَّهُ سَيَعْمَلُ عَلَى إِخْرَاجِهِمْ عَنْهُ، مِنْ ذَاتِ الْيَمِينِ، انْحِرَافًا إِلَى السُّبُلِ
الْمُتَفَرِّقَةِ فَالْمَتَاهَاتِ، وَمِنْ ذَاتِ الشَّمَالِ، انْحِرَافًا أَيْضًا إِلَى السُّبُلِ الْمُتَفَرِّقَةِ
فَالْمَتَاهَاتِ.

وَالشَّيْطَانُ فِي مَنَعِ النَّاسِ عَنِ سُلُوكِ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، أَوْ إِخْرَاجِهِمْ
مِنْهُ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَعْمَلَ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَلَا إِلَى أَنْ يَعْمَلَ مِنْ تَحْتِهِمْ، إِنَّمَا
يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَدْفَعَهُمْ عَنِ سُلُوكِهِ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ، وَإِلَى أَنْ يَجْذِبَهُمْ مِنْ
خَلْفِهِمْ حَتَّى لَا يَسْلُكُوهُ، فَإِذَا سَلَكَهُ فَخَطَّتْهُ تَنَحُّصْرُ بِمَنْعِهِمْ عَنِ مُتَابَعَةِ السَّيْرِ،
وَالْوَسِيلَةَ إِلَى ذَلِكَ إِخْرَاجُهُمْ عَنْهُ مِنْ ذَاتِ الْيَمِينِ وَمِنْ ذَاتِ الشَّمَالِ.

وَلَا تُوجَدُ سُبُلٌ انْحِرَافِيَّةٌ إِلَى الْأَعْلَى، وَلَا إِلَى الْأَسْفَلِ، فَالْعُلُوُّ عَلَى
سَمْتِ الصِّرَاطِ هُوَ مِنَ الصِّرَاطِ، وَإِنْ وُجِدَ لِلصِّرَاطِ مَسَالِكٌ مِنْ تَحْتِهِ مُسَامِتَةٌ لَهُ
فَهِيَ أَيْضًا مِنَ الصِّرَاطِ.

وبهذا نستغني عن آراء اجتهادية ذكرها بعض أهل التأويل بالنسبة إلى جهة الفوق، إذ لم يقل إبليس: ومن فوقهم.

وباستطاعة المتفكر أن يستفيد هذا التحليل الذي سبق بيانه من حديث صحيح جاء فيه وصف لصراط الله المستقيم.

فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَنْ جَنبَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفْتَحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعِنْدَ رَأْسِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: اسْتَقِيمُوا عَلَى الصِّرَاطِ، وَلَا تَعْوَجُوا، وَفَوْقَ ذَلِكَ دَاعٍ يَدْعُو، كُلَّمَا هَمَّ عَبْدٌ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ. قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلْجَهُ».

ثُمَّ فَسَّرَهُ فَأَخْبَرَ.

«أَنَّ الصِّرَاطَ هُوَ الْإِسْلَامُ، وَأَنَّ الْأَبْوَابَ مَحَارِمُ اللَّهِ، وَأَنَّ السُّتُورَ الْمُرْخَاةَ حُدُودَ اللَّهِ، وَأَنَّ الدَّاعِيَ عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ هُوَ الْقُرْآنُ، وَأَنَّ الدَّاعِيَ مِنْ فَوْقِهِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ»^(١).

رواه الإمام أحمد وروزين بسند صحيح.

وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ: أي: ولا تجد بعد تنفيذ برنامج عملي في الإغواء أكثر بني آدم شاكرين شكراً هو من أدنى درجات الشكر بالإيمان وإعلان الطاعة، بل ستجد أكثرهم كافرين.

واستثنى إبليس عبادة الله المخلصين بكسر اللام، والمخلصين بفتح

(١) انظر شرح هذا الحديث في كتاب «روائع من أقوال الرسول ﷺ» للمؤلف الحديث الحادي والمشرور.

اللام، كما جاء في سورة (ص/ ٣٨/ مصحف/ ٣٨ نزول) فقد جاء فيها حكاية لقول إبليس:

﴿ قَالَ فِعْرَنِكَ لَأَعُوْبَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٧﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

المُخْلِصِينَ: بكسر اللام قرأه ابن كثير، وأبي عمرو، ويعقوب، وابن عامر، والمراد من أخلصوا لله في إيمانهم وإسلامهم .

المُخْلِصِينَ: بفتح اللام قراءة باقي القراء العشرة، والمراد الذين يصطفيهم الله من عباده فيعصمهم من الشياطين كالأنبياء عليهم السلام .

● ووضع إبليس في خطته التي رسمها للوسوسة والتسويل والإغراء، بُعْية الإضلال والإغواء، أن يتخذ الخطوات المتنازلات في الدركات خطوة خطوة، لا أسلوب القذف من الضد إلى الضد المقابل، كالقذف من أعلى الجبل إلى قاع الوادي، وهذا الأسلوب يُمكن التعبير عنه أيضاً بالتدلية^(١) شيئاً فشيئاً، فهو يُدلي من يتخدع بوساوسه ودساتسه وتسويلاته في آبار المعاصي والآثام، حتى أعماق الفجور، فقاع أشد الكفر والتناق.

والتعبير بالتدلية جاء بياناً لما فعل إبليس بأبويننا آدم وحواء، فقال الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿١٧﴾ فَذَلَّلَهُمَا يَهْوَاهُمَا فَأَقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفَقَا يَخْصَفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

ولئلا يقع الناس فريسة للشيطان، بسياسة الخطوات المتنازلات الماكرات، حذرهم الله عز وجل من اتباع خطواته، في عدة نصوص قرآنية تناولت موضوعات مختلفة .

(١) دلى الدلو في البئر، إذا أنزله شيئاً فشيئاً .

١ - ففي مَرَحَلَةِ التَّنْزِيلِ المَكِّيِّ، وفي مَعْرِضِ بَيَانِ افْتِرَاءِ المَشْرِكِينَ عَلَى اللَّهِ بِتَحْرِيمِ مَا لَمْ يَحْرَمَهُ اللَّهُ مِنَ الْأَنْعَامِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ/٦ مِصْحَفٍ/٥٥ نَزُولٍ):

﴿... كَلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٦﴾﴾

أي: لا تتبعوا خطوات الشيطان بالافتراء على الله في أحكام تشريعية هي من خصائص ربوبيته وإلهيته.

٢ - وفي أوائل مرحلة التنزيل المدني خاطب الله الناس جميعاً بقوله عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (البقرة/٢ مِصْحَفٍ/٨٧ نَزُولٍ):

﴿يَتَّبِعُهَا النَّاسُ لَكُلٌّ فِي الْأَرْضِ حَتَّىٰ لَطَمُوا الْأَرْضَ لَمَطًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

فأبان هذا النص أن من اتبع خطوات الشيطان ما يلي:

(أ) طاعته فيما يأمر به من فعل السوء، والسوء يبدأ من صفات الذنوب والمعاصي والمخالفات والآثام، وينحدر إلى أشدها وكبائرها.

(ب) طاعته فيما يأمر به من الفحشاء، والفحشاء كبائر الذنوب، التي تمتد بقعة انتشارها وتغظم قباحتها، وآثارها الفاسدة، والمفسدة.

(ج) طاعته فيما يأمر به من تقوّل على الله في دينه، وتحريف في أحكام شريعته لعباده، سواء أكان ذلك في الحقائق العلمية الاعتقادية، أو في الأحكام السلوكية الداخلية أو الخارجية.

فالشيطان بخطواته المتنازلات يبدأ بأهون الذنوب وأصغرها، ويتنقل بمن يغويهم ويخدعهم شيئاً فشيئاً إلى المعاصي الأشدّ فالأشدّ حتى يوصلهم إلى الشرك، فما هو أقبح وأخس من الشرك. كالإلحاد بإنكار وجود الخالق وكالنفاق.

٣ - وخاطب الله عز وجل المؤمنين في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً بقوله تعالى في معرض بيان ما قد يقع بين المؤمنين من مقتضيات للقتال، يكون لفريق منهم اجتهادات تستحُّه على أن يُقاتل مُضْحِيّاً بنفسه ابتغاء مرضاة الله لإصلاح الفساد الذي انتشر في المجتمع الإسلامي، بسبب متسلطين ظلّمة طغاة مفسدين:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْخُلُوا فِي السِّلْعِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٤٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٩﴾﴾ .

فدلّ هذا النصُّ على وجوب لجوء جميع الفرقاء من المسلمين المؤمنين إلى السلم فيما بينهم، والعمل على إصلاح الفساد بالطرق السليمة، والدواعي القائمة ربّما تجعل القتال لإصلاح الفساد مآذوناً به في أول الأمر، إلا أن الشيطان يستغله، ويستهوِي بخطواته الماكرات إلى أن يتحوّل القتال بين المسلمين إلى ما هو أشدُّ شراً وضراً وفساداً من الفساد الذي قام المصلحون لمحاربة ناشريه الطغاة المفسدين.

وقد يقع الذين كانوا في أول الأمر يبتغون الإصلاح، في الزلل انتصاراً للنفس والهوى، وهؤلاء يهدّدهم الله بعزته الغالبة، التي ينصر فيها بحكمته من يشاء، وهذا ما يدلُّ عليه قوله تعالى في النص:

﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٩﴾﴾ .

٤ - وفي معرض بيان حادثة الإفك وما يتصل بها من عظام وتوصيات وأحكام، خاطب الله عز وجل الذين آمنوا في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) بقوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

إن إشاعة الاتهام بالزنا مجالاً واسعاً يستهوي فيه الشيطان بخطواته الماكرات إلى فسادٍ عريضٍ في المجتمع الإسلامي، فاقترضت الحكمة أن يحذّر الله عزّ وجلّ الذين آمنوا من اتباع خطواته في أثناء الآيات التي نزلت بمناسبة حديث الإفك على أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، والتي نزل القرآن ببراءتها، وبيان طهارتها وعفتها.

● وعرف إبليس عليه لعنة الله مواطن الضعف لدى بني آدم، ورأى أن باب الشبهات قد يفتح إلى مسالك كثيرة تستهوي إلى أودية الشرك بالله، فما هو أشدّ من الشرك من أنواع الكفر، ورأى أن باب الأهواء والشهوات يفتح إلى مسالك كثيرة جداً، تستهوي إلى أودية المعاصي والآثام فالجرائم الكبائر، فالظلم والعدوان، والبغي والطغيان، فالشرك فما هو أشد منه من أنواع الكفر.

ونظر بجانب ذلك إلى خطته التي رسمها للإضلال والإغواء، فوثق من نجاح خطته، واطمأن إلى أنه سيتمّطي ظهور أكثر بني آدم، وسيضع اللجم في أفواههم، ويشدّهم بها من أحناكهم كالذباب، ويسوقهم بعصاه إلى دركات العذاب الأليم في جهنم، فقال إبليس لربه كما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزل):

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ مَا أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦٦﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٧﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مَتَّهِمًا فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ جَزَأَهُ مَوْفُورًا ﴿٦٨﴾ وَأَسْتَفْزِرُّ مِنْ أَسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَبْلِكَ وَرَجِلَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ

وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٦﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ
وَكُفِّرْ بَرِيكَ وَكَيْلًا ﴿١٧﴾ .

لَأُحْنِتَنَّ ذُرِّيَّتَهُ: أي: لأستميلنهم ولأستولين عليهم، ولأسوقنهم من
أحناكهم كما تساق الدواب، أو لأقودنهم من أحناكهم.

يقال لغة: احتنك الدابة، إذا وضع في حنكها الأسفل حبلاً يقودها به.

واستفرز: أي: واستخف بالمفرعات والمخيفات، واستخرج، يقال
لغة: استفزه، إذا استخفه بالمخيفات والمفرعات واستخرجه، وإذا ختلته حتى
ألقاه في مهلكة.

وأجلب عليهم: أي: وتوعدهم بالشرّ جامعاً جموعك عليهم، يقال
لغة: أجلب الرجل الرجل إذا توعده بشر، وجمع الجمع عليه، وأجلبت عليه،
إذا جمع الجمع ضده.

بِخَيْلِكَ: أي: بجندك الفرسان ركاب الخيل.

ورجلك: أي: وبجندك من المشاة، رجل: اسم جمع للمشاة، أو هو
جمع لرجال، وهو الماشي خلف الراكب على ظهره.

فأعطى الله عز وجل التمكين لإبليس بأن يعمل ما استطاع في إغواء
الناس، بأن يستخف منهم من يستجيب له بما يلي:

(أ) بالصوت، أي: بالكلام والوساوس، واستخدام الوسائل الصوتية
الإعلامية.

(ب) وبالتخويف، باستخدام التوعّد بالشرّ وبالمظاهر المثيرة للخوف.

(ج) وبالمشاركة في الأموال والأولاد إذا لم يتحصنوا باسم الله
والاستعاذة به، فالشيطان يُشارك الإنسان في طعامه إذا لم يُسم الله عليه،
ويتلاعب بالأولاد من الناس لتنشئتهم تنشئة فاسدة متفلتة، إذا لم يُحصنهم

أولياؤهم بالاستعاذة بالله من الشياطين، ولم يُحْسِنُوا الإِشْرَافَ عَلَى تَرْبِيَتِهِمْ تَرْبِيَةَ إِسْلَامِيَّةٍ سَلِيمَةٍ.

(د) بِالْوَعْدِ بِمَا يَحِبُّ النَّاسُ، لَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَاذِبٌ فِي كُلِّ مَوَاعِيدِهِ، لِلنَّاسِ، ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (١١).

وبعد أن أعطى الله إبليس التمكين من الإغواء ضمن هذه الحدود التي أبانها له، أعلمه بأن عبادة المؤمنين ليس له عليهم سلطان، لأنهم يستعيذون بربهم، ويتوكلون عليه، فيقيهم الله ويحميهم من أن تؤثر فيهم إغراءاته، ووساوسه، وتسويلاته، وإيعاداته، ومواعيده، فقال له:

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ (١٩).

أي: إن عبادي الذين يؤمنون بي ويستعيذون بي ويتوكلون عليّ، لا يكون لك عليهم سلطان، لأنني أكفيهم بحفظي وعزتي، وكفى بي وكيلاً يحفظ ويحمي.

● وَوَجَّهَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ تَحْذِيرَهُ لِلنَّاسِ جَمِيعًا، مِنْذَ عَهْدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمُتَابَعَةً فِي كُلِّ رِسَالَاتِهِ، حَتَّى خَاتَمَتَهَا رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ، مِنْ إِبْلِيسِ وَذَرِيَّتِهِ وَكُلِّ جُنُودِهِ، وَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُ لَهُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ.

فمن هذه التحذيرات ما يلي:

١ - قول الله عز وجل الذي أبان فيه وصيته لبني آدم الأولين، كما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿يَبْنَیْءَ آدَمَ لَا يَفْقِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرِنُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرْوُونَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٧).

٢ - وقول الله عز وجل في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَسْتَحِدُّونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾

- ٢ -

وسائل معالجة مكايد الشيطان للإضلال والإغواء

بتتبع القرآن والسنة لاستخراج وسائل معالجة مكايد الشيطان للإضلال والإغواء، تظهر للباحث المتتبع الوسائل التالية:

١ - استخدام وسيلة الإقناع بأسس الإيمان بالله وبالיום الآخر، وبأن رحلة الحياة الدنيا رحلة امتحان، وبأن الدار الآخرة هي دار الحساب وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء الأمثل، وبأن الجزاء يكون بالعدل في نار جهنم لمن أساء، وبالفضل في جنات النعيم لمن أحسن.

٢ - استخدام وسيلة الإقناع بعبادة الشيطان وذريته لبني آدم، وبأن شيطان كل إنسان يجري منه مجرى الدم، فهو يوسوس له في داخل نفسه، على صورة خواطر وأفكار، ونزغات أهواء وشهوات ورجبات محرّمات.

مع تكرير التذكير بقصة إخراجه أبويننا آدم وحواء من الجنة، باستهوائهما حتى عصيا أمر الله لهما، إذ وسوس لهما وسول وأطمعهما بالباطل، والقي في قلوبهما فاعلية الأسباب بذاتها من خلال ادعائه أن الشجرة المحرّمة فيها المادة التي تكسب الحي الخلود، وهذا فرع من فروع الشرك، فقبلا مقالته التضليلية، فأكلا من الشجرة عاصيين لربهما، فأخرجهما مما كانا فيه إلى الدنيا، إذ عاقبهما الله عز وجل بهذا الإخراج.

٣ - التوجيه للاستعاذة بالله السميع العليم، من وساوس الشيطان وتسويلاته، كلما نزغ في داخل النفس نزغاً، أو غمزاً أو استفز شهوة أو هوى.

٤ - التحذير المتتابع من اتباع خطواته المتسفلات، التي تُدَلِّي بغرور، في آبار المخالفة والإثم والعصيان، إلى قاع الفجور، والكفر.

٥ - متابعة عرض البيانات التحذيرية في نصوص القرآن والسنة بشأن الشيطان وفتنته.

٦ - الاهتمام ببيان مسالك الشيطان وحبائله، ومدخله إلى النفوس، ومكايده التي يكيدها كُلُّ طبقات الناس، وكلِّ مستوياتهم، وكلِّ شرائحهم الاجتماعية، وكلِّ تخصصاتهم، حتَّى العُلَمَاء بالدين، والفقهاء، والصُلَحَاء، والعُبَاد والزُّهَاد.

فللشيطان إلى نفس كلِّ إنسانٍ غير معصوم بعصمة اللّهِ عزَّ وجلَّ مدخلٌ أو مداخلٌ متعدّدةٌ إلى نفسه، يكيدُه الشيطان منها. وبعض النَّاسِ لهم نفوسٌ مفتوحة الحدود، لا تُحيطُ بها أسوارٌ ولا سُدُود، فالشياطينُ تتلَاعَبُ داخل نفوسهم كما تشاء، فتغريهم وتستهوئهم وتجتالهم من كلِّ مكان.

ويحسُنُ بحامل الرسالة أن يَسْتَفِيدَ لدى استخدام هذه الوسيلة من كتاب «إغاثة اللّهْفَانِ من مصائد الشيطان» لابن قيم الجوزية، ومن أمثاله من الكتب.

٧ - الإقناع بأنَّ كَيْدَ الشيطان كَيْدٌ ضعيفٌ ما لم يقترن بمساعدٍ قويٍّ من طُغْيَانِ أهواء النفس، وشهواتها، ورغباتها من الدُّنيا، وعوامل انحرافها عن صراط الله المستقيم، كالكبرِ والحَسَدِ والعواطف العَمِيَاء.

والإقناع بأنَّ سلطانَ الشيطان قاصرٌ على الذين يَتَوَلَّوْنَهُ، وعلى الَّذِينَ هُمْ به مُشْرِكُونَ، مُسْتَدِلًّا بالنصوص القرآنية الدالّة على هذا الأمر.

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) خطاباً لِكُلِّ مؤمنٍ بأسلوبِ الخطاب الإفراديِّ:

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (١٨) إِنَّهُمْ لَكَ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُم وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿٢٠﴾ .

فدلَّ هذا النصُّ على انحصار سلطان الشيطان بفريقيين من الناس :

الفريق الأول: الذين يتولَّونه، أي: يستنصرون به، ويتآخون معه، ويلتمسون لديه العون، كالسَّحرة، والكهنة.

الفريق الثاني: الذين هم بالشيطان مشركون، كالذين يعبدون الشياطين، وفريقٌ منهم يزعمونهم ملائكة.

وقال الله عزَّ وجلَّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزل) حكايةً

لحوار بينه وبين إبليس:

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٢١) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٥﴾ .

المُخْلِصِينَ: بِكسْرِ اللَّامِ قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وابنِ عامرٍ، ويعقوب.

المُخْلِصِينَ: بفتح اللَّامِ قراءة باقي القراء العشرة.

وبين القراءتين تكاملٌ في المعنى، كما سبق بيانه في نصِّ من سورة (ص).

فأضاف إبليس في هذا الحوار إلى تفصيلات خطته وسيلة التزيين في الأرض، وهو تزيينُ المعاصي والانحرافات والضلالات الفكرية والسلوكية.

بِمَا أَغْوَيْتَنِي: أي: بما حكمت عليَّ بالغوَاية نتيجة محاسبتي والقضاء بشأني.

هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ: يقول الله عز وجل لإبليس هذا صراط ديني الذي اصطفيتُه لعبادي، عليّ بيانه لهم، وتبليغهم إيّاه بوساطة رُسُلِي، وهو صراطٌ مستقيم، لا عِوَجَ فيه .

إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ: مَتَّبِعُوا الشَّيْطَانَ مِنَ الْغَاوِينَ هم الفريقان اللذان جاء بيانهما في النص السابق الذي هو من سورة (النحل): «الذين يتولّونه والذين هم به مشركون» .

٨ - بيان أن الشيطان يتبرأ يوم القيامة من الذين أضلَّهُم في الدنيا، مبيّناً أنه لم يكن له عليهم سلطان، وأنه لم يكن منه إلا أن دعاهم إلى سلوك سُبُل الضلالة والغي فاستجابوا لدعوته، واتَّبَعُوهُ .

قال الله عز وجل في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَمْوَ أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ .

مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ: أي: ما أنا بمغيثكم لتخليصكم من عذاب الله، وما أنتم بمغيثي لتخليصي من عذاب الله .

يقال لغة: أَصْرَخَهُ، إذا أغاثه مُسْتَجِيباً لَصْرَاحِهِ .

٩ - عَرَضُ قِصَصِ الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ أَغْرَاهُمُ الشَّيْطَانُ فَأَعْوَاهُمْ،

فأنزل الله بهم عِقَابَهُ المَعْجَلِ في الدنيا، للاتعاظ بها، مثل:

قول الله عز وجل في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْرَاهِيمُ إِذْ قَالَ يَا قَوْمِ أُوذِيَ النَّفْسُ الْفَارِيسُ فَإِذَا فِيهَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦١﴾ وَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّي بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ .

وقول الله عز وجل في سورة (الأنفال/ ٨ / مصحف/ ٨٨ / نزول) بشأن مشركي مكة في غزوة بدر الكبرى:

﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ: أي: رَجَعَ القهقري على قفاه هارباً.

روى الطبراني بسنده عن ابن عباس قال: جاء إبليس يوم بدر، في جُندٍ من الشياطين معه، رايته في صورة رجلٍ من بني مُذَلِجٍ، في صُورَةِ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ.

فقال الشيطان للمشركين: لا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ، وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ.

فَلَمَّا اضْطَفَّتِ النَّاسُ، أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبْضَةً مِنَ الثَّرَابِ، فَرَمَى بِهَا فِي وُجُوهِ الْمُشْرِكِينَ، فَوَلَّوْا مُذْبِرِينَ.

وَأَقْبَلَ جَبْرِيلُ إِلَى إِبْلِيسَ، فَلَمَّا رَأَاهُ، وَكَانَتْ يَدُهُ فِي يَدِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، انْتَزَعَ إِبْلِيسُ يَدَهُ، فَوَلَّى مُذْبِرًا هُوَ وَشِيعَتُهُ.

فقال الرَّجُلُ: يَا سُرَاقَةَ، تَزْعُمُ أَنَّكَ لَنَا جَارٌ؟

قال: ﴿ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ . وَذَلِكَ حِينَ رَأَى الْمَلَائِكَةَ.

وأنزل الله قوله: ﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ... ﴾ الآية.

المقولة الرابعة عشرة
من العقبات الصّادات

- ٢ -

عقبة أعمالِ المضلّين و جنود
الغزو الفكري المفسدين

- ١ -

شرح هذه العقبة

تداعّت الأمم الكافرة كلّها على شعوب الأمة الإسلاميّة لإضلالها وإغوائها وإخراجها عن دينها، وهدم كلّ أبنيتها الفكرية، وتفريق جمعها، وتشتيت شملها، وتوزيق أوصالها، وإقامة الصراعات المادّية والمعنوية فيما بينها، وتفتيتها إلى أجزاءٍ صُغرى تفتيتاً ذريّاً، بغية تبديدها تبديداً لا يبقى لها تجمّعاً متماسكاً قوياً، ومخوها من الأمم، أو السيطرة عليها سيطرةً كاملةً باستعبادٍ وإذلالٍ وتسخيرٍ .

وهذا ما أطلقنا عليه في الثلث الأخير من القرن الرابع عشر الهجري عنوان «الغزو الفكري» .

وجنّد أعداء الإسلام والمسلمين لتحقيق هذه الغاية جنوداً كثيرين، انتشروا في طول الأرض وعرضها، في كلّ بلدان القارّات الخمس، ولا سيما

ضمن بلدان المسلمين، وأقاموا لهم مؤسسات ذات تنظيم دقيق، وقوى عظيمة، وأموال طائلة، واستخدموا الأجراء الكثيرين، والمنافقين الكثيرين، المندسين في داخل شعوب الأمة الإسلامية، وتغلغلوا في مراكز قوى المسلمين الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها مسيطرين وموجهين.

وأقاموا من أنفسهم، ومن أبنيتهم الفكرية التي شادوها في مجالات التعليم والإعلام المُخْتَلِفة، ومن أنظمتهم التي استطاعوا أن ينشروها ويفرضوها فرضاً على معظم بلدان العالم الإسلامي، عقبات عظمى، تصدُّ توجيه حملة رسالة الدعوة إلى الله، ورسالة الحماية والإصلاح والتربية، بالتعليم والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وانتشر داخل شعوب الأمة الإسلامية الدعاة الجهنميون، الفاسدون المفسدون، الواقفون على أبواب جهنم، يعرضون على الناس سلع الأهواء والشهوات، مقرونةً بوسائل الإغراء والخداع الفكري، وزُيُوفِ المذاهب الفكرية الوافدة من الأمم الكافرة، ويدعون الصغار والكبار من ذرِّيَاتِ الأمة الإسلامية العظيمة إليهم، فمن أجابهم إليها استهواءً بما تشتهي النفوس أوصلوه إلى مواطن ضلاله وشقائه، فكانوا السبب في قذفه في جهنم.

وقد تحقَّق كثيرٌ ممَّا أخبر به الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه حذيفة بن اليمان، من أخبار مستقبلية بشأن هذه الأمة الإسلامية.

روى البخاري ومسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: (كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنتُ أسأله عن الشرِّ مخافة أن يُدركني).

فقلت: يا رسول الله، إنا كُنَّا في جاهليَّةٍ وشرِّ، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعدَ هذا الخير من شرٍّ؟

قال: «نَعَمْ».

قُلْتُ: وهل بعد ذلك الشر من خير؟

قال: «نَعَمْ، وفيه دَخْنٌ»^(١).

قُلْتُ: وما دَخْنُهُ؟

قال: «قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ».

قُلْتُ: فهل بعد ذلك الخير من شر؟

قال: «نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا».

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا».

قال: هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا^(٢)، وَيَتَكَلَّمُونَ بِالسِّتِنَا».

قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُونِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟

قال: تَلْزِمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ».

قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟

قال: فَاعْتَرِزْ تِلْكَ الْفِرْقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعْصَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ

الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ».

أقول: لم يصل المسلمون إلى ما تُشيرُ إليه الفقرة الأخيرة من هذا

الحديث، فما زال للمسلمين جماعاتٌ فيها خيرٌ مَدْخُولٌ بِدَخْنٍ مِنْ حُبِّ

الدنيا، والعمل للحصول عليها.

هذه لمحة عامة عن عقبة أعمال المصلين وجنود الغزو الفكري

(١) الدَخْنُ: فسادٌ في داخل النفوس والقلوب مخالف للظاهر.

(٢) جِلْدَةُ الشَّيْءِ ظاهره، أي: هم في الظاهر مسلمون، وفي الباطن مخالفون.

المفسدين، الظاهرين، والمُقنَّعين، أما شرح هذه العقبة بتفصيل يتناول مخططات الغزاة، وأنشطتهم، ومجالاتهم، وحيلهم، وأفئعتهم، وأعمالهم، وما غزوا به الأمة الإسلامية، في المجالات الفكرية والنفسية والسلوكية، هدماً للعقائد والأخلاق والعبادات والنظم وكل صور المعرفة والسلوك الإسلامي، فهو أمرٌ لا يتسع له هذا الكتاب.

ولكن باستطاعة حامل الرسالة أن يجد شرحها مفصلاً تفصيلاً واسعاً دون استقصاء، في سلسلة كتب «أعداء الإسلام» التي فتح الله بها عليّ، وهي حتى هذا التاريخ سبعة مؤلفات:

- ١ - مكايد يهودية عبر التاريخ.
- ٢ - صراع مع الملاحدة حتى العظم.
- ٣ - أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها. «دراسة للتبشير والاستشراق والاستعمار».
- ٤ - غزو في الصميم. «دراسة للغزو الفكري في مجال التعليم المنهجي والتثقيف العام».
- ٥ - الكيد الأحمر. «دراسة للشيوعية ودولتها العظمى وشروها».
- ٦ - كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة.
- ٧ - ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ.

- ٢ -

وسائل معالجة هذه العقبة

هذه العقبة الخطيرة ذات الانتشار الواسع، ليس في أيدي حَمَلَة رسالة الدّعوة إلى الله، أو رسالة الحماية والإصلاح بالتعليم والتّضح والإرشاد

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من الوسائل لمعالجتها، إلا الوسائل التي أتبعها الرسول ﷺ في المرحلة المكية بإرشاد من الله وتوجيه حكيم، من تاريخ رسالته، مع الحاجة إلى التطوير في الأساليب والأدوات، متابعة لما تطوّرت إليه البشرية في أساليبها وأدواتها، ومع الحاجة إلى الكشف المستمر لمكاييد أعداء الإسلام، وفضح مخططاتهم، وتعرية أهدافهم، وإزاحة الأقنعة عن وجوههم الحقيقية، وكشف زيوف أفكارهم، ومفهوماتهم، ومذاهبهم، ودعواتهم، ومع استخدام كل أساليب البيان، وكل وسائل الإعلام المتاحة، التي يستطيع حملة الرسالة الانتفاع بها.

وحملة الرسالة مطالبون دوماً بالتحري الفطن عمّا وراء الظواهر، وحسن التفري في الأمور، والحكمة والصبر، وسعة الصدر، وتحمل الأذى، والمجاهدة بالقرآن والسنة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، والمجاهدة أيضاً بالحجج البرهانية، والأدلة العلمية الثابتة.

ومطالبون أيضاً بطول الأمل، وحسن الرجاء، وأن لا يدب اليأس إلى قلوبهم، مهما كانت ثمرات أعمالهم ضئيلة.

وليعلموا أنهم ليسوا مسؤولين عن التحويل والتغيير في الواقع، بل هم مسؤولون عند الله عن القيام بواجبات التبليغ والتعليم والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولو لم يجدوا لمجاهداتهم آثاراً ظاهرة في المجتمع الذي يجاهدون فيه.

وعليهم أن يتأسوا في مجاهداتهم برسول الله في أممهم، فمن الرسل من لم يستجب له من قومه إلا أفراداً معدودون.

* * *

المقولة الخامسة عشرة
من العقبات الصادات

- ٣ -

عقبة عدم توافر وسائل الاتصال الإعلامي المؤثر

غدت وسائل الاتصال الإعلامي المقروءة والمسموعة والمرئية في العالم مؤهلة لتوصيل كل كلمة، وكل صَوْتٍ، وكل صورة، إلى كُلِّ راغب في القراءة أو الاستماع، أو المشاهدة.

إلا أن النسبة العظمى من وسائل الاتصال الإعلامي في العالم تقع تحت سيطرة أهل الدنيا ومروجي مصالحهم منها، وتحت سيطرة المضلّين في الأرض، والمهتمين بالغزو الفكري ضدّ الإسلام وضدّ الأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها.

أما حملة الرسالة الإسلامية من الدّعاة والمصلحين فلا يملكون من وسائل الاتصال العالمية إلا نسبةً قليلةً جدًّا، بجانب ما يملكه منها المضلّون المفسدون في الأرض.

ومع وجود هذه العقبة أمام حملة الرسالة الإسلامية فإنّ عليهم أن يعملوا دواماً بقاعدة: لَا يَسْقُطُ الْمِسُورُ بِالْمِعْسُورِ.

● فيجب على كل واحدٍ منهم أن يستخدم ما يستطيع استخدامه من

وسائل الاتصال الإعلامي المختلفة، باذلاً قصارى جهاده، مخلصاً في عمله، والله يُبارك له جهاده، ويُضاعف ثمرات أعماله المباشرة، وآثارها البعيدة.

● ويجب على القادرين من الأمة الإسلامية أن يعملوا متعاونين متآزرين، حتى يُهَيِّتُوا لحملة الرسالة ما يستطيعون تهيئته لهم من وسائل الاتصال الإعلامي المقروءة والمسموعة والمرئية، من أجل تبليغ كلمة الله، وتوصيل شرائع الإسلام وأحكامه وتعاليمه وأخلاقه وآدابه وسائر محاسنه، للناس أجمعين، والله يثيبهم على ذلك ثواباً جزيلاً، ويجعلهم بنياتهم الصالحات وأعمالهم المبرورة من جيش المجاهدين في سبيل الله لتوصيل دينه للناس.

وباستطاعة حامل الرسالة الحكيم العاقل المخلص الصادق في حَمَلِهِ الرسالة والذي يبتغي رضوان الله والجنة، لا مصالح الدنيا ورغبات العُلُوِّ في الأرض، أن يكون رقيقاً هَيِّئاً لِيَتَنَا حَسَنَ التَّوَجِيهِ، حَسَنَ التُّصْحِ والإرشاد، حَسَنَ الأَمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يواجه بالعُنْفِ ولا يَصْطَدِمُ مع من يَرَاهُم غَيْرَ ملتزمين بأحكام الإسلام وشرائعه، لأنه عاقلٌ رشيدٌ حكيم، شديد الشفقة على الناس، شديد الحرص على هدايتهم.

وباستطاعته أن يُهاجر في سبيل الله داعياً ناصحاً مرشداً، عملاً بقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافِعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (١).

وباستطاعته أن يتخذَ منهجاً تعليمياً لا يتخوَّفُ منه أحدٌ، على سلامة الأمن أو مصالح الناس في أيِّ موقعٍ من الأرض، لأنَّ رسالته رسالة الأنبياء والمرسلين الذين كانوا حكماء عقلاء في حَمَلِ رسالاتهم وتبليغها للناس.

(١) مُرَافِعًا: أي: مُهَاجِرًا يُهاجر إليه، ويستطيع فيه أن يكون آمناً طليقاً.

والله عزّ وجلّ يبارك للمخلصين، ويضاعف ثمرات أعمالهم المباشرة،
وأثارها البعيدة.

وبقدر الاستطاعة مع الحكمة يؤدّي واجب رسالته الرّبانية.

وقد سبقَ في تاريخ حملة الرسالة الإسلامية أن تعرّض فريق منهم
للسجن من قبل طُغاة السّلاطين، فلم يتوقّفوا عن متابعة تأدية رسالتهم.

● فيوسفُ عليه السلام أدّى دعوته الرّبانية وهو في السّجن.

● وجاء في ترجمة شمس الأئمة محمد بن أحمد بن سهل السرخسي،
المتوفّي سنة (٤٨٣هـ) من أهل سرخس في خراسان، وهو من كبار فقهاء
الأحناف، أنه، أملى على طلابه كتابه «المبسوط» الذي يقع في ثلاثين جزءاً،
وهو سجين بالجُب، في أوزجند (بفرغانة) وكان سبب سجنه كلمة نصّح بها
الخاقان.

● وجاء في ترجمة الشيخ سعيد النورسي، مؤسس جماعة النور في
تُرْكيا، أنه قد سُجِنَ أكثر من مرّة في عهد «مصطفى كمال أتاتورك» لمقاومته
الكفر والعلمانية، فكان يكتُبُ إلى تلاميذه رسائله من تأملاته وذاكرته،
فينشرونها مخطوطةً بطُرُقٍ سرّية، ويتعلّمون منها ما يُريد بيانه لهم من أمور
الإسلام.

* * *

الفصل الثالث

المنهاج البياني ومسالكه
«الحكمة - والموعظة الحسنة -
والجدال بالتي هي أحسن»

وفيه خمس فقرات:

- الفقرة الأولى: نظرة إجمالية إلى مسالك منهاج الدعوة البيانية.
- الفقرة الثانية: شرح مسلك الحكمة في الدعوة وبيان لعناصرها.
- الفقرة الثالثة: شرح مسلك الموعظة الحسنة وبيان لعناصرها.
- الفقرة الرابعة: شرح مسلك الجدال بالتي هي أحسن وقواعده العامة.
- الفقرة الخامسة: نماذج من تعليمات جدلية قرآنية.



الفقرة الأولى

نظرة إجمالية إلى مسالك منهاج الدعوة البيانية

- ١ -

تعريف عام بالمسالك

رسم الله عزّ وجلّ للدّعاة - ويُلحَقُ بهم الناصحون المرشدون والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر - منهاجاً للدّعوة البيانية إلى سبيله له ثلاثة مسالك كبرى، ذوات وسائل متعدّدة:

المسلك الأوّل: الدعوة البيانية بالحكمة.

المسلك الثاني: الدعوة البيانية بالموعظة الحسنة.

المسلك الثالث: الدعوة البيانية بالجدال والتي هي أحسن.

فقال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ (١٦)

فعلينا أن نكتشف حُدودَ وَعَنَاصِرَ هذه المسالك الثلاثة، وكيفية السّير فيها.

أما سبيل الله عزّ وجلّ فهو دينه الذي ارتضاهُ لعباده عقيدةً وخُلُقاً

وسلوکاً نفسياً باطناً، وسلوکاً جسدياً ظاهراً، وسبيل الله لعباده حكيم، لا عوج فيه ولا معائر، بل هو سبيلٌ مستقيم سوي واضح مُنير، يوصل إلى غايات حميدة فيها سعادة الناس .

والباء في ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ تشير إلى المسالك الدعوية والوسائل التي تُستَخدمُ فيها .

وللتفريق بين المسالك الثلاثة، وبيان حدود كل منها نبدأ بتمييز ما هو جليّ وواضح منها وهو الجدل، إذ هو وسيلة ظاهرة التميّز عن وسيلتي الدعوة بالحكمة والدعوة بالموعظة الحسنة، فالجدال حوار بين فريقين، يشتمل على ادعاء من فريق، واعتراض من فريقٍ آخر، واستدلال للإقناع، وطعن في الدليل، ودفع للطعن، إلى غير ذلك من أصول المناظرات الجدلية، وقد تُستَخدمُ في مراحل الجدل والتي هي أحسن وسيلتا الحكمة والموعظة الحسنة، وهذا شيء لا يؤثر على مفهوم الجدل المتميّز بحدوده .

بقي علينا بيان حدود كل من مسلكي الحكمة والموعظة الحسنة، وهنا يظهر لنا أن اجتلاء حدود الموعظة الحسنة أيسرُ لأنّها تدور حول الترغيب والترهيب، فمتى عرفنا عناصر الموعظة الحسنة استطعنا أن نفهم أن المساحة الباقية هي المساحة التي تُطلبُ فيها الحكمة .

وبالرجوع إلى شرح أهل اللغة والمفسرين للموعظة نجد في بيانهم أن الموعظة هي التّضحُّ بالفعل أو بالترك المقرون بما يثير الرغبة أو الرهبة في النفس، للانتفاع بالنصح، واتباع ما هدَى إليه فعلاً أو تركاً. قال ابن سيده من أئمة اللغة:

«الوعظ: تذكيرك للإنسان بما يُليّن قلبه من ثواب أو عقاب». ولكن قيّد الله عزّ وجلّ هذه الموعظة بأن تكون حسنة، أي: حسنة في أسلوب عرضها، والحسن في أسلوب العرض يتنافى مع الفظاظة والغلظة والمخاشنة في القول والسباب والشتائم، إلى غير ذلك مما تنفر منه الطباع

ولا تتحمّل استماعه ولا تتقبّلُهُ .

فإذا فرزنا الموعدة الحسنة، وعرفنا أنّها التريغيبُ بالعاقبة الحسنة والسعادة الخالدة لمن اتّبع سبيل ربّه، والترهيب من العاقبة السيّئة الوخيمة، والشقاوة والتعاسة لمن أبى أن يتّبع سبيل ربّه، بشرط عرضها بأسلوب حسنٍ جميلٍ مقبولٍ لا تنفر منه الطباع، أمكننا أن ننظر إلى المساحة الدعوية الباقية بتأمّلٍ وأناةٍ، وأن نكتشف أنّ الحكمة في الدعوة إلى سبيل الله هي المعالجة الدعوية الرشيدة المؤثرة بغير أسلوب التريغيب والترهيب، وبغير أسلوب المجادلة .

وهنا لا بدّ أن ننظر إلى المنهج الربّاني للسياسة الحكيمة التي أوصى الله بها رسوله محمّداً ﷺ وكلّ داعٍ إلى سبيل ربّه من أمته، وأوصى بها بعضُ رُسُلِهِ السابقين، والسياسة الدعوية الحكيمة التي اتّبعها الرّسولُ محمّدٌ ﷺ في دعوته، واتّبعها الرّسُلُ السابقون فيما نهضوا به من دعوة إلى دين الله واتّباع صراطه المستقيم في أقوامهم .

ولدى النظر الفاحص في التعريف العامّ للحكمة عند أهل اللّغة، وفي جُملةِ أقوالِ الشّارحين للحكمة، نصّلُ إلى التعريف التالي :

الحكمة: وضعُ كلِّ شيءٍ في موضعه الذي يوجِبُهُ العقل، أو تكشّفُهُ التجربة، وتتحقّق به الغاية المقصودة من الأمر، بأقلّ كلفةٍ وأقصر زمنٍ مُمكنين .

فإذا تأمّلنا في المنهج الربّاني للسياسة الدعوية الحكيمة، وفي التعريف العامّ للحكمة، أمكننا أن نستبعد عن الحكمة ونُخرج من حدِّ دائرتها كلّ ما يُنافيها ولا يأتلف مع صفاتها ومنها ما يلي :

منافيات الحكمة في الدعوة إلى سبيل الله

- ١ - السُّبَابُ والشَتَائِمُ فهي بالبديهة العقلية من منافيات الحكمة، لأنها منفرات تهدم جُسُورَ التواصل بين حامل الرسالة والموجهة له.
- ٢ - الفَظَاظَةُ والغِلَاظَةُ في الأقوال والحركات والأعمال فإنها منفرات.
- ٣ - توجيه الأوامر والنواهي الصارمة التي هي بمثابة قراراتٍ عسكرية تُوجَّهُ للتَّنْفِيزِ دون اعتراض، وإلا حَلَّتِ العقوبة السلطوية.
- ٤ - كلُّ قولٍ خَسِنٍ وكلامٍ قَبِيحٍ مُنْفَرٍ.
- ٥ - مذُحُّ حَامِلِ الرِّسَالَةِ ذَاتَهُ، وإِطْرَاؤُهُ أفعَالَهُ وأقْوَالَهُ وصفَاتِهِ، لأنه يُشْعِرُ بنزعة الكِبَرِ في نفسه، واستِخْدَامِهِ رسالَتَهُ التي يُوَدِّعُهَا للحصول على زَعَامَةٍ بين الناس.
- ٦ - اِهْتِمَامُ حَامِلِ الرِّسَالَةِ بالانتصار لنفسه، وبإظهار قُدْرَتِهِ على التأثير والإقناع، والتغلب على المخالفين، لأنه يُشْعِرُ بأنه مَغْرُورٌ بنفسه، وصاحبُ مصلحةٍ شخصيةٍ دنيوية.
- ٧ - الإكثارُ من حَشْرِ المعلومات في مجلسٍ دَعَوِيٍّ واحدٍ، لأنَّ من تُوَجَّهَ له الرسالة متى كَثُرَتْ المعلوماتُ المتواردة عليه انصرف ذهنه عن متابعتها، وعَجَزَ عن الإمساك بها لاستذكارها.
- ٨ - التَّشْهِيرُ بأَسْمَاءِ العِصَاةِ، وَذِكْرُ قَبَائِحِهِمْ ومفردات معاصيهم، فهو مخالفٌ لسياسة الرسول ﷺ، ولا يَخْدُمُ الرسالة التي يحملها.
- ٩ - التُّصْحُ العَلْنِيُّ لأشخاصٍ بأعيانهم، إذ هو من قَبِيلِ الفضيحة لا النصيحة.

١٠ - الاستعلاء على من تُوجَّه له الرسالة بِالْعِلْمِ أو بالذكاء أو بالمكانة الاجتماعية، وإشعاره بجهله أو بقلَّة ذكائه أو بانحطاط مكانته الاجتماعية، لما في كلِّ ذلك من إهانةٍ منقّرة.

١١ - استخدام أسلوب الاستهزاء والسخرية بمن تُوجَّه له الرسالة، فمن شأن هذا الأسلوب أن يستعديه ويُبْعِدهُ، لا أن يُليِّنَه وَيَسْتَدْرِجَه للاستجابة.

١٢ - الاستدلال بالأقوال الكاذبة، والروايات الموضوعية المصنوعة، والقضايا الباطلة، فنُصْرَةُ الحقِّ لا يصحَّ أن تكون إلاّ بالحقِّ، ومن تُوجَّه له الرسالة متى اكتشف بطلان الدليل أعرض عن أصل القضية، ولم يكلف نفسه البحث عن صحتها بدليل صحيح.

١٣ - الاستدلال بأشياء خارجة عن موضوع البحث لا تصلح للاستدلال بها فيه، وإن كانت صحيحة في ذاتها، لأنها تدلُّ على عدم سلامة فكرٍ مُقدِّمها.

١٤ - مخاطبة من تُوجَّه له الرسالة بما هو فوق إدراكه من أسلوبٍ كلاميٍّ أو مضمونٍ فكريٍّ، لأنَّه لا يفهمه فهو لا يتتبع به ولا يستجيب له.

١٥ - مخاطبة من تُوجَّه له الرسالة بما هو دون مُستواه الفكري، أو بأسلوب هو دون منزلته الاجتماعية، لأنَّ مثل هذه المخاطبة قد يشمُّ منها رائحة الاحتقار والأزدراء له والاستخفاف به، فيغضب ويغتر ويغرض عن الاستجابة لما يُدعى له وإن كان حقًا.

١٦ - التناقض في أقوال حامل الرسالة في مجلس واحدٍ أو في مجالس متعدّدة، لأنَّه يُشكِّك في صدقه، أو في علمه.

١٧ - مقابلة السيئة بأسوأ منها أو بمثلها، فهي مخالفة لسياسة الرسلِ

عليهم السلام مع أقوامهم، ومخالفة للوصايا الربّانية .

١٨ - الحكايات والقصص الخرافية، والأساطير التي لم تثبت صحتها، لأنها تُشعر بأن القضية التي يُنصحُ بها ليس لها شاهد صحيح يُؤيدها، ولو كانت حقاً لما احتاجتُ تأييداً بالخرافات والأساطير .

١٩ - كلُّ كلامٍ ركيكٍ مُعقّدٍ غيرِ مفهومٍ، إذ هو منافٍ للحكمة بداهة .

٢٠ - التركيز على عرض موضوعاتٍ غير ذاتِ قيمةٍ وغير ذاتِ أهميةٍ في أسس الإسلام، أو في أحكام الشريعة، ولا سيما حينما يؤدي رسالته بين الجماهير بوجه عام .

٢١ - خُلُوّ البيانِ ممّا يجذبُ النفوسَ إلى استماعه والإصغاء إليه، كالكلام الجافّ الذي ليس فيه تطريبات أدبية، ولا زيناتٌ جمالية، ولا محرّكاتٌ فكرية أو عاطفية .

٢٢ - توجيه الاهتمام كلّهُ لفريقٍ أو أكثر من الذين تُوجّه لهم الدعوة، وإهمال الآخرين الحاضرين .

- ٣ -

البيان القرآني بالنسبة إلى هذه المسالك الثلاثة

هذه المسالك الثلاثة: (الدعوة البيانية بالحكمة - الدعوة البيانية بالموعظة الحسنة - الدعوة البيانية بالجدال بالتي هي أحسن) هي المسالك التي سار عليها البيان القرآني الدّعوي، يُدركُ هذا كلّ من يتابع آيات القرآن وسُوْرَه بتدبّر سليم، ويدلُّ عليه أيضاً قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ

لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرًا ﴿١٦﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ .

- فَمَسَلِكُ الْحِكْمَةِ دَلٌّ عَلَيْهِ مِنْ هَذَا النَّصِّ : ﴿ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ .
 - وَمَسَلِكُ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ (= التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ) دَلٌّ عَلَيْهِ سَائِرُ النَّصِّ .
 - أَمَّا مَسَلِكُ الْجِدَالِ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ فَنَجِدُهُ فِي التَّعْلِيمَاتِ الْجِدَالِيَّةِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ .
- وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ (النحل/ ١٦) مِصْحَفٍ/ ٧٠ نَزُولٍ):

﴿ . . . وَحَدِّ لَهُمْ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ﴿١٦٣﴾ .

- ٤ -

الأركان الداخلية للنفس الإنسانية والمؤثرات فيها

لدى تحليل النفس الإنسانية وملاحظة المؤثرات فيها، نُذْرِكُ أَنَّهَا تَتَأَثَّرُ بِمُؤَثَّرَاتٍ تَنْفِذُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَرْكَانٍ فِيهَا، إِذَا تَأَثَّرَ وَاحِدٌ مِنْهَا التَّأَثَّرَ الْمَرَادُ مِنْهُ، حَصَلَ لَدَيْهَا الْاِقْتِنَاعُ بِالْقَضِيَّةِ الْمَقْصُودِ اِقْتِنَاعُ الْإِنْسَانِ بِهَا .

الأول - الركن العقلي :

لقد وهب الله عز وجل للإنسان قدراتٍ فكريَّةً عقليَّةً يُذْرِكُ بِهَا حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ، إِذَا أَدْرَكَهَا وَلَمْ يَكُنْ فِي نَفْسِهِ مُعَارِضٌ مِنْ أَهْوَايِهِ وَشَهْوَاتِهِ لَمَّا أَدْرَكَ اِقْتِنَعَ بِهَا، فَعَمِلَ بِمَقْتَضَاهَا .

ومن إدراك حقائق الأشياء التفريق بين الحق والباطل، والخير والشرِّ والصالح والفاقد، والفاضل والمفضول، والأحسن من الاحتمالات الممكنة المهيأة للاختيار منها، وما دونه تنازلاً في درجة الحُسنِ حتَّى أدنى الدرجات .

والدخول إلى داخل نفس الإنسان للتأثير فيها عن طريق هذا الركن من

أركانها، يكون بالوسائل العقلية والعلمية المختلفة، وهي تُرْجَعُ إلى ثلاثة أصول:

الأصل الأول: الاستدلالُ العقلي الملائمُ لما فُطِرَتْ عليه مدارك الأفكار والعقول، من حقائق وموازن، ويُساعد على معرفتها عِلْمُ المنطق^(١).

ومن الاستدلال العقلي إدراك الأسبابِ ذهنًا، عند مشاهدة المسببات، أو إدراكها عقلاً، وإدراكُ اللّوازمِ الفكريةِ العقلية من خلال إدراك ملزوماتها.

الأصل الثاني: الإدراكُ الحسيّ المباشر، والتجربة المؤدّية إليه، سواء أكان الإدراك بالحواس الظاهرة، أم بالحواس الباطنة، كمشاعر الحب والكراهية، واللذة والألم، والرضا والسخط.

الأصل الثالث: الخبر الصادق، وهو الخبر الذي تُدركُ العقولُ وجوب التسليم بأنّه خبرٌ صادق.

ومن الخبرِ الصادقِ خبرُ الوحيّ الذي يُبلّغُه رسولٌ مؤيّدٌ بالمعجزة الخارقة المقرونة بالتحدي^(٢).

الثاني - الركن العاطفي :

وقد وهب الله الإنسان في داخل نفسه مركزاً عاطفياً قد يتغلغل إلى عمق قلبه، وهذا المركزُ إذا تأثرَ بما يجذبُه اندفعَ الإنسان إليه، وانعطفَ نحوه بمشاعر سعيدة قوية، قد لا يستطيع تحليلها فكرياً، وإذا تأثرَ بما يُنفرُه، ابتعد الإنسان عنه، وكرهه مع مشاعر اشتمزازٍ قويّة، قد لا يستطيع تحليلها فكرياً.

(١) انظر كتاب «ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة» للمؤلف.

(٢) ارجع في هذا إلى مقدمات كتاب «العقيدة الإسلامية وأسسها» للمؤلف، وإلى ما جاء في بحث «المعجزات» منه.

والدخول إلى داخل نفس الإنسان للتأثير في هذا الركن من أركانها، يكون بالوسائل المثيرة للعواطف، كالعاطفة نحو الأهل والقربان، والعاطفة نحو القوم، والعواطف نحو الأرض والوطن، والعواطف نحو التقاليد والعادات المستحبات المتأصلات في النفوس، ومنها العواطف الدينية الإيمانية، ولو كانت لدين تقليدي باطل.

الثالث - الركن الذي فيه محور الطمع بِمَحَابِّ النفوس والخوف من مكارها:

وفي تكوين نفس الإنسان داخليًا جهازٌ يشتمل على مُحَوَّرَيْنِ:

● محور الطمع بما يُحِبُّ الإنسان لِدَاتِ نفسه، أو لِمَنْ أَوْ لِمَا يُحِبُّ، في العاجل أو الآجل.

وتدور حول هذا المحور دوائر الأهواء والشهوات واللذات.

● ومحور الخوف ممَّا يكره الإنسان لِدَاتِ نفسه، أو لِمَنْ أَوْ لِمَا يُحِبُّ، في العاجل أو الآجل.

وتدور حول هذا المحور دوائر الآلام والمكاره ومخالفات الأهواء والشهوات واللذات.

والدخول إلى داخل نفس الإنسان للتأثير في هذا الركن من أركانها، يكون بترغيب الإنسان فيما تُحِبُّ نَفْسُهُ وتَشْتَهِي من لِدَاتِ وزِينَاتِ وَمَجْدٍ، من مُعْجَلٍ في الحياة الدنيا، أو مُؤَجَّلٍ إلى يَوْمِ الدين. ويكون بترهيب الإنسان وتخويفه ممَّا تكره نفسه وتنفر منه من آلام، وأنواع عذاب، وحرمانٍ من مَحَابِّها، من مُعْجَلٍ في الحياة الدُّنْيَا، أو مُؤَجَّلٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

قمة التأثير:

وتكون قمة التأثير في الإنسان بمحاصرته عن طريق أركان نفسه الثلاثة،

وهذه المحاصرة قد اشتملت عليها آيات القرآن المجيد، فوصف الله عز وجل القرآن بأنه يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، وبوسائل هذه الهداية تكون محاصرة الركن الأول من أركان نفس الإنسان.

ووصف الله عز وجل القرآن بأنه مُبَشِّرٌ وَمُنذِرٌ، وبالمبشرات والمنذرات تكون محاصرة الركن الثالث من أركان نفسه، لأنها تعتمد على التأثير في مَخَوْرِي الطَّمَعِ وَالْخَوْفِ.

قال الله عز وجل في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾.

وجاء في القرآن استثارة العاطفة القومية عند العرب تجاه لغتهم، فقال الله عز وجل لرسوله بشأن القرآن في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿فَاسْتَمِيعَ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنَّا كَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ... ﴿٤٤﴾﴾.

أي: وإنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي أُنزِلَ عَلَيْكَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ لَشَرَفٌ عَظِيمٌ لَكَ بِاعْتِبَارِكَ إِنْسَانًا عَرَبِيًّا، وَلَشَرَفٌ عَظِيمٌ لِقَوْمِكَ الْعَرَبِ، إِذْ أُنزِلَ بِلُغَتِهِمُ الَّتِي لَهُمْ عَاطِفَةٌ قَوِيَّةٌ نَحْوَهَا، فَهُمْ يَفْخَرُونَ بِهِ كِتَابًا عَظِيمًا مَعْجَزًا.

وعلم الله رسوله أن يستعطف نحوه عواطف القرابة التي بينه وبين الذين ناصبوه العداة الشديد في مكة، إذ لم يكن بيت من بيوت مكة العريقة إلا وله فيه قرابة قريبة أو بعيدة، فأنزل عليه قوله في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿... قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ... ﴿٤٢﴾﴾.

أي: لا أسألكم على هذا الذي جئتمكم به أي أجر حتى تنفروا مني وتعادوني، وتحاربوني، لكن أسألكم أن تعاملوني بمقتضى عاطفة القرابة التي بيني وبينكم، فتكفوا عني أذاكم وحربكم، وتحولي عني عداكم، وهذا ليس من الأجر في شيء، بل هو مدخل إلى استثارة الركن الثاني من أركان نفوسهم، واستعطافه لكف أذاهم وحربهم له.

فحرف الاستثناء في هذا النص هو حرف استدراك بمعنى «لكن».

والسورة مكية التنزيل، إلا أن هذا النص منها مدني، والغرض من استعطاف مشركي مكة تحويلهم عن معاداة الرسول وتدبير المكائد له، ومحاربتهم.

وهذا المعنى في تفسير قول الله: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ هو المعنى الذي صح عن ابن عباس فيما رواه البخاري وغيره^(١)، وهو المعنى الملائم لما جاء قبله وبعده في السورة.

فقد سئل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ فقال «سعيد بن جبير»: قرئ آل محمد.

فقال ابن عباس: عجلت، إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة.

- ٥ -

حكمة حامل الرسالة في هذا المجال

من الأكمل والأرجى للتأثير في عمق الإنسان محاصرته من أركان نفسه الداخلية كلها، العقلية، والعاطفية، ومخوري مطامعه ومخاوفه.

(١) انظر تفسير ابن كثير.

والأفضل دواماً إعطاؤه من جرعات التأثير فيه بمقدار ما لديه من استعدادات في أركان نفسه الداخلية للتأثر.

والرُكنُ الذي يكونُ هو الأعظم في داخل نفسه يكون هو الأخرى بتوجيه أعظم العناية له، وعلى مقدار قابليته للاستجابة.

● فمن الناس عقلانيون فكريون، وهؤلاء يناسبهم تكثيف الجهود للتأثير على أفكارهم وعقولهم بالأدلة التي يؤمنون بها، دون إهمال سائر أركان نفوسهم، بحسب ما تحتاج إليه من مثيرات ومؤثرات تدعيمية.

● ومن الناس عاطفيون، وهؤلاء يناسبهم تكثيف الجهود للتأثير على عواطفهم بما يؤثر فيها، دون إهمال سائر أركان نفوسهم بحسب ما تحتاج إليه من مثيرات ومؤثرات أساسية أو تدعيمية.

● ومن الناس أسراء مطامعهم ومخاوفهم، وهؤلاء يناسبهم تكثيف الجهود للتأثير على محوري الطمع والخوف داخل نفوسهم، دون إهمال سائر أركان نفوسهم، بحسب ما تحتاج إليه من مثيرات ومؤثرات أساسية أو تدعيمية.

على أنه يجب دواماً العناية بتراكمات المفاهيم الفكرية العقلية، لأنها هي الأساس الراسخ الثابت لتأسيس العقائد التي لا تتزلزل، ولهذا أولها القرآن المجيد العناية العظمى لتأسيس الإيمان، فالهداية للتي هي أقوم هي أولى وظائف القرآن، وإقامة الأدلة الفكرية على حقائق الإيمان هي في مقدمة ما اهتم القرآن ببيانه والتوجيه له.

وفي الفقرات التالية مزيد من الشرح والتفصيل.

* * *

الفقرة الثانية

شرح مسلك الحكمة في الدعوة وبيان لبعض عناصرها

مما سبق نُدرِك أنّ الحكمة في الدعوة إلى سبيل الله، أو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تُوجب حُسن التصرف في سياسة مَنْ تُوجّه له الرسالة لإقناعه بأجمل وسيلة وأيسرها، ولجعله يقبل ما يدعى إليه، أو يُصحّ به، ويستجيب له طائعاً مُختاراً، لا مُكرهاً نافرأً من قلبه كارهاً.

عندئذٍ يستطيع حامل الرسالة أن يقبض على مقود نفسه، ويوجّهه بيسر وسهولة ليأخذ ما دعاه إليه أو نصحه به ويلتزمه إيماناً به، ثم يتبع تعليماته وتكاليفه العملية في حركة حياته، سواءً منها ما يتعلّق بالأعمال النفسية الباطنة، أم الأعمال الجسدية الظاهرة، مما يُطلبُ فعله، أو يُطلبُ تركه.

وحُسنُ التصرف في سياسة مَنْ تُوجّه له الرسالة لا بُدَّ للوصول إليه من ملاحظة صفاته الفكرية والنفسية والخلقية والاجتماعية، وملاحظة حالته التي هو عليها عند توجيه الرسالة له، ثم اختيار أحكم الوسائل وأرجاها لبلوغ المقصود من التأثير المفيد النافع على فكره ونفسه.

وبفرز مسلك الدعوة أو النصح بالحكمة عن مسلك الموعظة الحسنة التي تدور في فلك الترغيب والترهيب، وعن مسلك الجدل بالتي هي أحسن، نلاحظ أنّ الحكمة تصرفُ بيانِيّ دعوِيّ ونُصحيّ يدورُ في فلك هدْفُهُ إقناع مَنْ تُوجّه له الرسالة إقناعاً فكرياً بصحة مضمون الرسالة التي تُوجّه له.

والإقناع الفكري في الدعوة إلى سبيل الله يكون بعرض حقائق مبادئ الإسلام عرضاً جلياً واضحاً مُيسراً للتصوُّر والفهم، بدءاً بجذورها، وارتقاءً شيئاً فشيئاً إلى فروعها، مقروناً بالأدلة البرهانية السديدة، التي تشهد لها بأنها حقٌّ لا ريب فيه، ومُزَيَّناً بالأساليب البيانية الجمالية، التي تُسرُّ نفسَ من يُوجِّه له الإقناع، فتفتح للنظر التفكري، والتأمل في المضامين الفكرية، وهي منسجمةٌ مستمتعةٌ بجمال الأسلوب الدافع للنظر في صحَّة المضمون الفكري.

إنه متى انشِرت النفس، وانفتحت أبواب النظر التفكري للاستقبال والفهم، ولم يكن في داخل النفس هوى معارضٌ للقضية المعروضة للتفكير والاستبصار السليم والفهم الصحيح، تمكَّن مُوجِّه الرسالة من الدخول برسالته إلى عمق النفس، حتَّى مركز القلب فالقواد.

* * *

طائفة من عناصر الحكمة في البيان الدعوي:

١ - القول اللين:

من أوليات شروط البيان الذي تُوجِّه به الرسالة، أن يكون بالقول اللين الرفيق المهذب، الذي تستمتع به الأسماع، وتنجذب إليه النفوس والقلوب.

فالقول اللين على سَمْع ونَفْس وفِكْر مَنْ تُوجِّه له الرسالة، هو ما أمر الله عز وجل به موسى وأخاه هارون عليهما السلام، إذ كلفهما أن يذهبا إلى فرعون الذي طغى، فيدعوانه إلى سبيل ربه، فقال الله عز وجل في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزل) في حكاية خطابه لهما:

﴿ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٥﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّنَا عَلَّمْنَا بِدَعْوِكَ وَرِئَاسَتِنَا ﴿٤٦﴾ ﴾

٢ - مراعاة المنزلة الاجتماعية لمن تُوجِّه له الرسالة:

ومن شروط هذا البيان الحكيم مراعاة المنزلة الاجتماعية التي يحتلها

من توجّه له الرسالة، فإذا كان ذا رياسة في قومِه، ومن المعتاد في مخاطبته إطالة مقدمات العرض التكريمية، قَبْلَ ذِكْرِ المقصود بالذاتِ، فَمِنَ الحِكْمَةِ مُرَاعَاةَ هَذَا الأسلوب قَبْلَ دَعْوَتِهِ أو نُصْحِهِ، وهذا ما أوصى اللهُ عزَّ وجلَّ به موسى عليه السلام، فيما علّمه أن يقوله لفرعون الذي طغى، قال اللهُ تعالى في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول) في حكاية ما خاطب به موسى إذ ناداه بالوادي المقدس طوى:

﴿ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبَ ﴿١١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَانْحَسِبْ ﴿١١٩﴾ ۝

نلاحظ في عبارة التعليم أنها اشتملت على عدّة كلمات هي من التلطف التكريمي قبل عرض المقصود بالذات:

● ﴿ هَلْ ﴾ كلمة استفهامية فيها معنى العرض التخييري، لا التكليف الإلزامي.

● ﴿ لَكَ ﴾ كلمتان: الأولى حرف جرّ، والثانية كاف خطاب، وقد كان من الممكن الاستغناء عنهما، لكنّ التلطف بتطويل مقدمات العرض التكريمي استدعاهما.

● ﴿ إِلَهَ أَنْ ﴾ كلمتان: الأولى حرف جرّ، والثانية حرف ناصب للفعل المضارع، ويؤوّل مع الفعل المضارع بمصدر، وقد كان من الممكن الاستغناء عنهما، لكنّ التلطف بتطويل مقدمات العرض التكريمي استدعاهما.

● ﴿ تَرْكَبَ ﴾ هنا بدأ عرض المقصود بالذات، ومع ذلك قد حصل فيه اختصار وتقليل في اللفظ، إذ أصل الفعل «تَرَكَبَ» فحذفت إحدى التاءين اختصاراً.

في حين أن مقدمات العرض قد حصلت الإطالة فيها لتكريم المخاطب

مراعاةً لمنزلته في قومه، وما يَعْتَادُهُ لدى مُخَاطَبَتِهِ، وقد كان من الممكن توجيهُ الأمرِ المباشرِ له، فيقولُ له موسى عليه السلام: «تَرَكْ» أو «هَلْ تَتَزَكَّى» لِكِنْ في مثل هذا الخطابِ إغضابٌ له وتنفير، إذ هو على غير ما يعتاد من مخاطباتٍ له، فهو منافٍ للحكمة.

وكان من الممكن أن يقول له: «هَلْ لَكَ أَنْ تَتَزَكَّى» لكنَّ الأحكامَ بالنسبة إلى فرعون وأمثاله تطويلٌ مقدّماتِ العرض، حتّى تكون مناظرة لما يعتاده من مقدّماتٍ في مخاطباتِ النَّاسِ له، وأطولُ مُقَدِّمَاتٍ حكيمة تلائم دعوته إلى أن يتزكّى، هو ما جاء في التعليم الربّاني لموسى: ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾.

٣ - البيان المقرون بالبرهان أو بالحجّة الصّحيحة المقبولة:

إذا كانت القضية المعروضة في البيان الدّعويّ من قضايا الحقّ، التي يُراد الإقناعُ بها، فمن الحكمة أن يكون هذا البيان مقروناً بالبرهان أو بالحجّة الصحيحة المقبولة التي تُقنَعُ من توجّهه له الرسالة بصحة وسلامة القضية المعروضة فيه.

ونجد في القرآن الحكيم الالتزام بهذا العنصر من عناصر الدعوة بالحكمة، إذ يَعْرِضُ قَضِيَّةً أو عدّة قضايا من حقائق الإيمان، ثُمَّ يُتْبِعُهَا في ثنايا السورة بالحجج والبراهين الدالّات على ثبوتها، وأنها من قضايا الحقّ، وهذا ملاحظٌ في كثيرٍ من سُورِ القرآن (انظر: سورة الفرقان، وسورة الرعد، وغيرها).

وإذا كانت القضية المعروضة في البيان من قضايا الباطل، التي يُراد الإقناعُ ببطانها وفسادها، فمن الحكمة أن يكون هذا البيان مقروناً بالبرهان أو بالحجّة الصحيحة المقبولة، التي تُقنَعُ من توجّهه له الرسالة ببطان القضية التي هو آخذٌ بها ومفتونٌ بصحتها، وبأنّه لا يَلِيْقُ بذي عقل أن يعتقدّها وَيَسْتَمْسِكَ بِهَا.

ونجد في القرآن الحكيم الالتزام بهذا العنصر من عناصر الدعوة بالحكمة، إذ يَعْرضُ عقائد المشركين وسائر الكافرين، ويبين بالبراهين والحجج العقلية وغيرها بطلانها وفسادها، وأنه لا يليق بذِي عَقْلٍ سليم أن يعتقدها ويستمسك بها.

٤ - البيان المقرون بالدليل على أفضلية ما جاء في الدين على غيره من الاحتمالات الممكنة:

إذا قُدِّمَتِ اقتراحات مخالفة لما اصطفاه الله واختاره لعباده من أحكام الدين، أو طريقة تبليغه للناس، أو غير ذلك من تصاريفه جلّ وعلا، فمن الحكمة في البيان الدّعويّ شَرْحُ وتَفْسِيرُ وجهِ الحكمة من الاختيار الرّبّاني، للإقناع بأن الاختيار الرّبّاني هو الأحكم من كلّ الاحتمالات الممكنة التي تتصوّرُها العقول.

وقد علّمنا القرآن هذا العنصر من عناصر الدعوة إلى سبيل الله، ومن أمثلة هذا أن المشركين لَمَّا اعترضوا على نزول القرآن منجّماً، وقالوا كما جاء في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً...﴾ (٢١)

أي: هَلَّا نُزِّلَ على محمد القرآن جُمْلَةً واحدة ولم يُنَزَّلْ مُفْرَقاً.

فأتبع الله عزّ وجلّ اعتراضهم على هذا الاختيار الرّبّاني ببيان وجوه الحكمة منه، وأنها تتلخّص بثلاثة وجوه:

الأول: تثبيت فؤاد الرسول.

الثاني: تعليمه المسلمين تعليماً مُرْتَبِلاً على مراحل لحفظه وحُسن تدبّره.

الثالث: الردّ على الأسئلة والاعتراضات التي تُوجّه بشأن الاختيار

الرّبّاني.

فقال الله عز وجل:

﴿... كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٢٣﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ قَسِيْرًا ﴿٢٤﴾﴾ .

٥ - البَدْءُ بجذور القضايا والانتقال منها إلى الفروع شيئاً فشيئاً:

من الحكمة للإقناع بقضية دَعْوِيَّة البَدْءُ بأصولها وجذورها الفكرية، وعدم الاشتغال بالإقناع بالفروع قبل الإقناع بالأصول، أو عِلْمِ مُوجِّهِ الرِسَالَةِ بأنَّ من يُعَالِجُ إقناعه مُفْتَنِعٌ فِعْلاً ومُسَلِّمٌ بالأصول والجُذور.

وبعد الاطمئنان إلى تَسْلِيمِ المدعُوِّ بالأصل يَنْتَقِلُ به إلى ما هو متفرِّع عنه مباشرةً، ثم إلى ما بَعْدَهُ من فروع، وهكذا حتَّى الفروع البعيدة بأسلوب ارتقائي على سُلْمِ القضية المقدمَّة للإقناع بها.

فلكلِّ قضية فكرية من فروع المعرفة الصحيحة جَذْرٌ ترجعُ إليه، وترتبطُ به ارتباطاً ساقِ الشجرة وفروعها بجذورها، إذ هي مشتقةٌ منه ومُتفرِّعةٌ عنه.

ومن السَّهل الإقناع بالجذور الفكرية، لأنها في الغالب أولياتٌ مُسَلِّمٌ بها لبدايتها، أو قَرِيبَةٌ جَدًّا من الأوليات البَدْهِيَّةِ المُسَلِّمِ بها، فالاستدلال عليها بأدلةٍ هي من البدهيات المُسَلِّمِ بها لا يَسْتَدْعِي أكثر من خُطوةٍ فكرية، أو خُطوتين، أو عدَّة خطوات.

أما الفروع البعيدة فيكثرُ الجدَلُ حولها، وقد يَشْتَبِه الحَقُّ فيها بالباطل، ويكونُ فيها مجالٌ واسعٌ للتهرُّب من الإلزام بالحقِّ.

وحين تكون الجذور وبعضُ الأصول سليمةً لدى من تُوجِّه له الرِسالة، ويظَهَرُ الانحرافُ عن الحقِّ في فرعٍ من الفروع، فالحكمة في الإقناع تقتضي الرجوعَ إلى مواطنِ العِلَلِ التي نجمَ عنها هذا الانحراف، ولا تُجدي مُعالِجَةُ مكانِ الانحراف عن الحقِّ والصواب، دون الرجوع إلى مكانِ العلة التي نجم عنها هذا الانحراف، تنازلاً بالتَّبَعِ الفاحص إلى جهة الأصول والجذور، فالعِلَلُ يجب أن تُعَالَجَ من المواطن التي بدأت منها.

وهنا نلاحظ أن الله عز وجل عالَج المنافقين الشاكين في صدق الرسول محمد ﷺ، إذ قام في ذهنهم أن القرآن الذي يقول لهم بشأنه: إنه تنزل من عند الله العزيز الحكيم، هو من وضع محمد، بإحالتهم على القرآن نفسه ليتدبروه، فإذا تدبروه يامعان تدبراً باستبصارٍ ووعيٍ وتدقيقٍ فلا بد أن يتوصلوا إلى أنه لا يمكن أن يكون من عند غير الله، فقال الله عز وجل في سياق الحديث عن طائفة من المنافقين في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾

فَحَصَّهِمْ بِأَسْلُوبِ الْحَدِيثِ عَنِ الْغَائِبِ عَلَى أَنْ يَتَدَبَّرُوا الْقُرْآنَ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ، وَتَنْزِيلٌ مِنْ لَدُنْهُ حَقًّا وَصِدْقًا، مَعَ التَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، أَيْ: اخْتِلَافًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوَاقِعِ وَالْحَقِّ، وَاخْتِلَافًا بَيْنَ بَعْضِ نُصُوصِهِ وَبَعْضِهَا الْآخَرَ.

وفي هذا الحَضِّ عَوْدٌ بِهِمْ إِلَى مَكَانِ الْعَلَّةِ مِنَ الْقَاعِدَةِ الْإِيمَانِيَّةِ الَّتِي لَمْ تَكْتَمَلْ فِي قُلُوبِهِمْ، فَهَمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامٌ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، حَتَّى يُؤْمِنُوا بِأَنَّ مُبَلِّغَهُ عَنِ اللَّهِ هُوَ رَسُولٌ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ حَقًّا وَصِدْقًا.

فَقَدَّمَ لَهُمْ دَلِيلًا بَرْهَانِيًّا عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا مُنَزَّلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا وَضَحَتْ لَدَيْهِمْ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ سَهْلٌ لَدَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا وَصِدْقًا.

لَكِنَّ إِذْرَاكَهُمْ لِهَذَا الدَّلِيلِ الْبَرْهَانِيِّ يَتَطَلَّبُ مِنْهُمْ أَنْ يَجْتَهِدُوا فِي تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَتَفْهَمِ دَلَالَاتِهِ، فَإِنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَذْرَكُوا أَنَّ الْقُرْآنَ مُطَابِقٌ لِلْحَقِّ وَالْوَاقِعِ فِي كُلِّ قَضَايَاهُ، وَأَذْرَكُوا أَنَّ نَزْوَلَهُ مِنْجَمًا مُفْرَقًا لَمْ يُؤَثِّرْ عَلَى وَحْدَتِهِ وَتَكَامُلِ الْحَقَائِقِ فِيهِ، وَأَذْرَكُوا أَنَّهُ لَوْ كَانَ مِنْ أَوْضَاعِ الْبَشَرِ، وَمِنْ تَأْلِيفِ النَّاسِ وَصِنَاعَتِهِمْ، لَوَجَدُوا فِيهِ تَنَاقُضَاتٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَقِّ وَالْوَاقِعِ، وَلَوَجَدُوا فِيهِ تَنَاقُضَاتٍ بَيْنَ بَعْضِ نُصُوصِهِ الْمَتَقَدِّمَةِ نَزُولًا، وَبَعْضِ نُصُوصِهِ الْمَتَأَخَّرَةِ

نزولاً، ولا سيما التي بينها أزمانٌ تُقدَّرُ بسنين .

إنهم لو تدبَّروه بإنصافٍ وتجرُّدٍ عن سوابق الرِّفص لوصلوا إلى الاقتناع بأنَّه كتابٌ من عند الله، وحينَ يَصِلُونَ إلى هذه الحقيقة، ينتقلون تَلَقَّائِيًا إلى الاقتناع بأنَّ محمداً رسولُ الله حقًّا وصدقًا .

ثمَّ إذا كانت لديهم إرادة الاعتراف بالحقِّ آمنوا، وصدقوا في إسلامهم، وتخلَّصوا من رجسِ النِّفاق، أو من رجسِ الرِّيبِ والشكِّ .

بهذا الأسلوب الإقناعي الرِّباني يُعلِّمنا الله عزَّ وجلَّ أنَّ العلاج ينبغي أن يكون بالرجوع إلى مواطن العلة في الأصول أو الجذور أو غيرها، وأنَّه لا يُجدي العلاجُ من الفروع مع فساد ما قبلها تنازلاً إلى الأصول والجذور .

ومن أمثلة الرجوع إلى مواطن العلة إزجاجُ من يشرك بالله في عبادته، إلى إقناعه بأنَّ الله لا شريك له في ربوبيته، ومن لا شريك له في ربوبيته لا يَصِحُّ عقلاً أن يكون له شريك في إلهيته، لأنَّ العِبَادَةَ في الوُجودِ حقُّ الرَّبِّ وَحْدَهُ، فلا يُعبَدُ غَيْرُهُ إلاَّ بأَمْرِ مِنْهُ، أو بإذْنِ مِنْهُ، لكنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يَأْذَنْ بعبادَةِ غَيْرِهِ لأَحَدٍ، فَمَنْ عَبَدَ مع الله أَحَدًا فَقَدْ جَعَلَ اللهُ شَرِيكًا في إلهيته الواحدة، وهذا من الكفر بالله .

والإقناع بأنَّ وضع القوانين والأحكام التشريعية المخالفة لأحكام الله، دون شعورٍ بمعصية الله في ذلك، هو من مشاركة الله عزَّ وجلَّ في خصائص إلهيته، أي: في كونه إلهًا معبوداً لا شريك له، لا بُدَّ فيه من الرجوع إلى معنى الربوبية وتوحيدها، ثمَّ إلى معنى الإلهية وتوحيدها، وأنَّ من خصائصها طاعة الله فيما أنزل لعباده من أحكامٍ تشريعية، وأنَّ وضع القوانين والأحكام التشريعية المخالفة لأحكام الله وشرائعه، إمَّا أن يكون مشاركةً لله عزَّ وجلَّ في خصائص إلهيته وكفراً به سبحانه، ولا سيما إذ اقترن ذلك باعتقاد أنَّ الأحكام الوضعية أفضل وأعدل من أحكام الله، وإمَّا

أن يكون من أكبر كبائر المعاصي، إذا اقترن وضعها أو قبولها بالشعور بالإثم والعصيان، اتباعاً للهوى، أو استجابة لشهوات النفس ورغباتها الخاصة، مع الاعتراف بالذنب وارتكاب معصية هي من أكبر المعاصي بعد الشرك بالله عز وجل.

٦ - مراعاة المستوى الفكري لدى من توجه له الرسالة:

من المعلوم أن الناس ليسوا على مستوى فكري واحد، بل هم على مستويات متفاوتات، ودرجات من قدرات الفهم متفاوتات، فمنهم الذكي نادر الذكاء، ومنهم دون ذلك تنازلاً حتى درجة الأغبياء ضعفاء العقل والتفكير.

ومن المعلوم أن ما يصلح من أفكار وأساليب بيانية للأذكيا ويكون مؤثراً فيهم، ومرجواً معه استجابتهم، قد لا يصلح لمتوسطي الذكاء، وهو لا يصلح حتماً للأغبياء وضعفاء العقول.

وما يصلح للكبار الناضجين المجربين الذين ضرستهم الحياة، لا يصلح للفتيان الناشئين الذين ما زالوا يخبون في تجارب الحياة.

فعلى حامل الرسالة أن يكون لماًحاً يدرك مستوى ذكاء من يخاطبه، فيقدم من قضايا رسالته ما يلائمه، وبحسب مستواه من الذكاء وقدرات الفهم ومقدار التجربة.

وأما الجماهير التي تجمع مستويات مختلفات متفاوتات، فينبغي أن يكون خطابها أو حديثها لهم متنوعاً، في مستويات مختلفات متفاوتات، حتى يأخذ كل قسم منهم من كلامه ما يفيدُه ويتأثر به ويقتنعه.

٧ - مراعاة المستوى العلمي لدى من توجه له الرسالة:

القضايا الفكرية والأساليب البيانية التي يخاطب بها العلماء، تختلف عن القضايا الفكرية والأساليب البيانية التي يخاطب بها العامة، فلكل صنف

ما يُلائمه ويؤثر فيه ويُقنعه من قضايا فكرية وأساليب بيانية .

فعلى حامل رسالة الدعوة إلى الله أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يُحسن مخاطبة كلِّ ذي مستوى علمي بما يُلائمه، وبما يُلائم اختصاصه إن أمكنه، حتَّى يُكونَ لكلامه تأثيرٌ نافع مفيدٌ في فكره ونفسه .

٨ - مراعاة الجوانب العاطفية التي تقتضيها الصِّلاتُ والعلاقات الاجتماعية :

علاقات حامل الرسالة بمنَّ يُوجِّه لهم رسالته تختلف اختلافاً كثيراً، وينبغي له أن يستفيد من المؤثرات العاطفية بينه وبين من يُوجِّه له رسالته .

● ففي دعوته لأبيه يستفيد من أسلوب دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه، إذ كان يخاطبه بتدليل الابن لأبيه : يا أَبَتِ . .

ومثلُ الأبِ الجدِّ، والأخِ الكبير، والعمُّ والخالُّ ونحوهم .

● وفي دعوته لابنه يستفيد من نُصح لقمان لابنه، إذ كان يخاطبه بشفقة الأبِ ورحمته وحنانه : يا بُنَيَّ .

ومثلُ الابنِ الأصغر، وابنِ الأخ، وابنِ الأخت، ونحوهم .

● وفي دعوته لصاحبه ورفيقه يستفيد من دعوة يوسف عليه السلام لصاحبيه في السجن، في قوله لهما : ﴿ يَصْخِرِي السِّجْنِ أَزْجَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [يوسف] .

ويستفيد من قصة الرجلين الصاحبين الذين ضرب الله بهما مثلاً في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) :

أما أحدهما فقد افتخر على صاحبه بأنه أكثر منه مالا وأعزُّ نَفراً وأعلَنَ كُفْرَهُ بالساعة، وكان له جنتانِ وهو كثير الإعجاب والفتنة بهما والشعور بدوامهما الطويل .

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ

رَجُلًا ﴿٧﴾ لَنِكَأَ هُوَ اللهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنكُمَا وَلَا وِلْدَانًا فَعَسَى رَبِّي أَن يُوَيِّبَ مِن خَيْرٍ مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٩﴾ أَوْ يُصْبِحُ مَأْوُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُمُ طَلَبًا ﴿١٠﴾ .

● وفي دعوة الأهل والعشيرة يستفيد من سياسة الرسول ﷺ مع أهله وعشيرته الأقربين .

● وفي دعوته قومه يستفيد من دعوات الرسل لأقوامهم، إذ كانوا يقولون لهم: يا قومنا .

٩ - مراعاة الحالة النفسية لدى من توجه له الرسالة :

كُلُّ إنسان له أحوالٌ يختلفُ بعضها عن بعضٍ، ولكلِّ حالةٍ نفسيةٍ من أحوالِ الإنسان بيانٌ حكيمٌ يلائمها .

- فحالة الإنسان النفسية في المرض غيرُ حالته وهو صحيح سليم .
- وحالته النفسية وهو غني غير حالته النفسية وهو فقير تلح عليه الحاجة .
- وحالته النفسية وهو في المأتم، غير حالته النفسية وهو في فرح .
- وحالته النفسية وهو ذو رياسة وعز، غير حالته وهو في ضعف وذلة ومهانة .

● وحالته وهو غضبان، غير حالته وهو راضٍ منشرح الصدر .

● وحالته وهو جاد، غير حالته وهو هازلٌ يضحك ويلعب .

إلى غير ذلك من أحوالٍ نفسية، ولكلِّ حالةٍ نفسيةٍ لدى الإنسان، مع صفاته الأخرى، أسلوبٌ فكريٌّ وبيانيٌّ يلائمه، وحاملُ الرسالة الحكيمُ يختارُ من الأساليب الفكرية والبيانية ما يلائم حالاً من توجه له رسالته، وبذلك تكون بلاغته وحكمته .

١٠ - التدرُّج في الدعوة من الأصول إلى الفروع:

فالبَدْءُ بفروع القضايا، وبفروع الأحكام الشرعية المتعلقة بالسلوك، في دعوة غير المسلمين قبل تأسيس الأصولِ منافٍ لحكمة التدرِّج التي كانت من سُنَّةِ الله في تنزيل نجوم القرآن المجيد، ومنافيةٌ لما أوصى الرسول ﷺ به معاذ بن جبل حين بعثه داعياً إلى اليمن.

١١ - اختيار الموضوعات التي تلائم الأوضاع الاجتماعية والأحداث المحلية والعالمية، لأنَّ النَّفوسَ تكون مستعدةً لمتابعتها، والمشاركة الفكرية فيها، ثم الاستفادة منها في التوجيه للمقصود المُهم الذي يُريد الإقناع به من قضايا الإيمان، أو أسس الإسلام، أو فروعه الكبرى، أو غير ذلك.

* * *

الفقرة الثالثة

شرح مسلكِ الموعظةِ الحسنةِ وبيانِ لعناصرها

سبق أن عرفنا أن الموعظةَ بوجهٍ عامٍّ هي التُّصْحُحُ بالفعل أو بالتركِ لِعَمَلٍ نفسيٍّ أو عمليٍّ جسديٍّ، إذا كان مقروناً بما يُثير الرغبة أو الرهبة في النفس، للانتفاع بالتُّصْحُحِ واتباع ما هَدَى إِلَيْهِ فِعْلاً أو تَرْكَاً.

فالموعظةُ تدورُ في فَلَكَ التَّرْغِيبِ حَوْلَ مَحْوَرِ الطَّمَعِ في النفسِ، وتَدُورُ في فَلَكَ التَّرْهِيْبِ حَوْلَ مَحْوَرِ الخَوْفِ في النفسِ.

أما الموعظةُ الحسنةُ فَحُسْنُهَا يَكُونُ في مضمونها القائم على الحقِّ والخير والتُّصْحُحِ المفيدِ، وبيانِ العواقبِ بِصِدْقٍ، وفي أسلوبِ عَرَضِهَا الَّذِي لا تنفر منه النفوسُ، وَالْحُسْنُ في أسلوبِ العَرَضِ يتنافى مع الفطَاطِظَةِ وَالْعِلَاطِظَةِ وَالْمُخَاشَنَةِ في القولِ، ويتنافى مع السَّبَابِ وَالسَّتَائِمِ وَالْأَقْوَالِ الجارحةِ الْمُهِينَةِ، إلى كثيرٍ ممَّا سبقَ بيانهُ في مُنَافِيَاتِ الحِكْمَةِ في الدعوةِ إلى سبيلِ الله، فَكُلُّ ما تَنْفِرُ مِنْهُ الطَّبَاعُ، وَلا تَتَحَمَّلُ اسْتِمَاعَهُ، وَلا تَتَقَبَّلُهُ من الموعاظِ خارجُ عن دائرةِ الموعظةِ الحسنةِ.

ومن الحُسْنِ في أُسْلُوبِ العَرَضِ الاهتمامُ بِالْجَمَالِيَّاتِ الأدبيَّةِ، الَّتِي نَبَّهَتْ عَلَيْهَا علومُ البِلاغةِ، وَأَشَادَتْ بِهَا كُتُبُ الأَدبِ.

أما التَّرْغِيبُ من ركني الموعظةِ الحسنةِ فيكونُ ببيانِ العاقبةِ الحميدةِ الَّتِي تَرْغَبُ فِيهَا النَفُوسُ، لَمَنْ اسْتَجَابَ لِمَا دَعَتْ إِلَيْهِ الموعظةُ الحسنةِ.

والعاقبة الحميدة لاتباع سبيل الله هي الظفر بسعادة النفس في الحياة الدنيا، ونجاتها من كثير من الشرور والآلام المشقية المعذبة لها، والظفر بسعادة الآخرة في الخلود بجنات النعيم، على ما وصف الله عز وجل في كتابه، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وأما الترهيب من ركني الموعظة الحسنة فيكون بيان العاقبة الوخيمة التي تكرهها النفوس وتنفّر منها، لمن لم يستجب لما دعت إليه الموعظة الحسنة.

والعاقبة الوخيمة لعدم اتباع سبيل الله، أو للانحراف عنه، هي تلقّي العقوبات الربّانية المعجّلة أو المؤجلة الأليمة بحسب البيانات التي جاء بها الوعيد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأشدّها الخلود في نار جهنم بعداب اليم على الكفر بالشرك فما هو أشدّ منه كُفراً، وعلى الجرائم التي يرتكبها الطغاة البُغاة المجرمون.

بيان تحليلي لمحاوّر النفس:

من المناسب أن أقدم بياناً تحليلياً دلّت عليه وسائل التربية القرآنية للنفس الإنسانية.

الإنسان بمقتضى الفطرة التي فطره الله عليها له موجّهات داخلية ذاتية ثلاثة، هي العاملة المؤثرة في توجيه إرادته لاختيار سلوكٍ مُعيّن مع حركة اختياراته في مسيرته في حياته، وهي ما يلي:

الموجّه الأول: فِكْر الإنسان الواعي، القادر على إدراك حقائق الأمور التي تُهمّه في الحياة، وعلى استبصارها بالتأمل والنظر والتفكير.

وهذا الفكر هو الأداة القادرة على التعلّم واكتساب المعرفة، وهو الأداة

العظيمة التي امتاز بها نوع الإنسان على الأنواع الحيوانية الأخرى.

والمسلك الدعوي الأول، وهو مسلك الحكمة، هو المسؤول عن توصيل الحقيقة التي يُرادُ الإقناعُ بها إلى هذا الموجه، وهو الفكر الواعي.

فالدعوة بالحكمة من شأنها أن تدور في فلكٍ حول محور الفكر الواعي، لاختيار الوسيلة التي تُؤثر فيه تأثيراً إيجابياً نافعاً، وتُقنِّعه، ليقومَ بعد ذلك بوظيفته الداخلية في توجيه الإرادة لاختيار السلوك الذي يحقق ما اقتنع بحُسنه وخيره، وفائدته العاجلة والآجلة للإنسان.

الموجه الثاني: الطَّمَعُ بما ترغَّب فيه النَّفسُ، من مُسَعِداتٍ وسَارَاتٍ ومُفْرِحَاتٍ ولذاتٍ من منافع ومكاسب وأرباح عاجلاتٍ أو آجلاتٍ.

وسياسة التَّربُّع الذي هو أحدُ رُكني الموعظة الحسنة، تدور في محورٍ حَوْلَ هَذَا الموجه الداخلي الذاتي، وهو (الطَّمَع). وهي المسؤولة عن اختيار الوسيلة التي تُؤثر فيه تأثيراً إيجابياً نافعاً، لإثارته وتَهْيِيجِهِ حتَّى يَقُومَ بتوجيه الإرادة لاختيار السلوك المناسب الذي يُوصِلُ إلى الجهة التي يكون فيها تحقيقُ ما تعلقَتْ به النفس، رغبةً في نَيْلِهِ أو الظفر به.

الموجه الثالث: الخوفُ ممَّا تكرهه النَّفسُ، من مشقياتٍ ومُكَدَّرَاتٍ ومَحْزَنَاتٍ وآلامٍ وأضرارٍ وخساراتٍ عاجلاتٍ أو آجلاتٍ.

وسياسة التَّرْهِيب الذي هو أحدُ رُكني الموعظة الحسنة، تدور في محورٍ حول هذا الموجه الداخلي الذاتي، وهو (الخوف). وهي المسؤولة عن اختيار الوسيلة التي تُؤثر فيه تأثيراً إيجابياً نافعاً، لإثارته وتَهْيِيجِهِ حتَّى يقوم بتوجيه الإرادة لاختيار السلوك الذي يَضْبِطُ النَّفسَ، ويكفُّها وَيُبْعِدُهَا عن التوجُّه أو الاقتراب من الموقع الذي يُخْشَى أن يكون فيه تحقيقُ ما نَفَرَتْ منه

النفس مما تكررُه، راغبةً في السَّلامَةِ من سُروره وآلامه .

وسائل التَّربُّغ والتَّرهيب البيانية :

كلُّ من التَّربُّغ والتَّرهيب في الدَّعوة إلى سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يكون بالوسائل البيانية التي جاءت في القرآن المجيد، ثمَّ في السُّنَّة الثَّابتة الصحيحة، على أن تُقدِّم هذه النصوص البيانية المشتملة على التَّربُّغ والتَّرهيب مقرونةً بشرحٍ يُناسِبُ حالَ من تُوجَّه لهم الرسالة، وهي تتلخَّص بالوسائل البيانية التالية :

الوسيلةُ الأولى : الوعدُ بمُعجَلِ الثواب الجزيل ومُؤجَلِه إلى يوم الدين، والوعيدُ المؤكَّد بمُعجَلِ العقاب الأليم ومُؤجَلِه إلى يوم الدين، ونصوصُ الوعدِ والوعيدِ في القرآن والسنة كثيرةٌ جدًّا، وعلى حاملِ الرسالة أن يتلوها . ويُحسِنَ تدبُّرها وشرحها شرحاً مؤثراً .

الوسيلة الثانية : عرض الأمثلة والشواهد التاريخية التي جرت فيها سنةُ الله في الثواب والعقاب، من قصص الأمم السابقة وما جرى لهم أو عليهم، كَقَصَصِ الرُّسُلِ السابقين وأقوامهم، وما جرى للذين آمنوا بهم من نُصْرَةِ الله لهم، وما جرى على الذين كفروا وكذبوا رُسُلَ رَبِّهم وأجرموا وأفسدوا في الأرض . من عذابٍ مُهلكٍ لهم، ومن تدميرٍ لمساكنهم وبُلدانهم وممتلكاتهم .

وكتابُ الله عزَّوجلَّ وسنَّةُ الرَّسولِ ﷺ، فيهما الجَمُّ الوفيرُ من قصص الأمم السالفة، وعلى حاملِ الرسالة أن يَسْتَفِيدَ منها . ويُحسِنَ عَرْضَها وتَدبُّرَ النصوصِ المشتملة عليها، وأن يَسْتَخْرِجَ ما فيها من دقائق وعظائمٍ وعبرٍ .

الوسيلة الثالثة : عرضُ مشاهدِ القيامةِ، وما في يوم الدين من نعيمٍ للمؤمنين الذين علموا الصالحات في جنات النعيم، وما فيه من عذابٍ للكافرين في جهنم، لمرتكبي الجرائم والظلم والبغي والعدوان والفسقِ والفجور .

وكتاب الله عز وجل وسنة الرسول ﷺ، فيهما الجَم الوفير من هذه المشاهد، وعلى حامل الرسالة أن يستفيد منها، وأن يُحسن عَرْضَهَا، وتدبّر التُّصُوصِ المشتملة عليها، وأن يَسْتَخْرِجَ ما فيها من دقائق ومفهوماتٍ تأسِرُ النفوسَ وتمتلكُ مشاعرها.

فطرة النفس الإنسانية تجاه المطامع والمخاوف:

من الملاحظ أن الله عز وجل فطر النفوس الإنسانية على الحرص الشديد على السَّعي لما تُصِيبُ منه لذةٌ أو منفعةٌ أو ربحاً أو شيئاً ممَّا تُحِبُّهُ وتَهْوَاهُ كالجاهِ والمُلْكِ العظيمِ والنَّعيمِ الباذخِ، إلى غير ذلك مما يُرضي دوافع النفس وأهواءها وشهواتها، وعلى الحرص الشديد على الابتعاد عما ينالها منه ألمٌ أو مضرّةٌ أو خسارةٌ أو شيءٌ ممَّا تَكْرَهُهُ وتَنْفِرُ منه، كالعذابِ والدُّلِّ والمهانةِ والخزيِ إلى غير ذلك ممَّا يُناقِضُ أهواءها وشهواتها. والمطلوبُ إيصالُ المدعوِّ إلى الوُثُوقِ بِصِدْقٍ ما يُقَدِّمُ له من وَعْدٍ مؤجَّلٍ بثوابٍ عظيمٍ جداً على سَعْيٍ يتحمَّلُ به مَشَقَّةٌ حَالِيَّةٌ أو مخالفةٌ شهوةٍ أو هوى، من رغائبها العاجلة ذاتِ القيمة القليلة بالنسبة إلى الموعود به، والوُثُوقِ بِصِدْقٍ ما يُنذِرُ به من وعيدٍ على المعصيةِ ومخالفةِ الأوامر والنواهي.

فإذا وثق بِصِدْقِ الوَعْدِ والوعيدِ، ولم يكن فاقداً الاعتدالِ النفسيِّ بسببِ ثَوْرَةِ انفعاليةِ غَشَّتْ على بصيرته وأخلَّتْ بتوازِنه، فإنَّ من طبيعة دوافعه الفطرية أن يتحرَّكَ فيه محورُ الطَّمَعِ، مُوجَّهاً إرادته مع دَفْعِ قوِيٍّ للسَّعيِ الحثيثِ في السَّبِيلِ الَّذِي يُحَقِّقُ له المَطْمَوعَ به، من الخير العظيم الذي تضمَّنَه الوعدُ، وأن يتحرَّكَ فيه محورُ الخوفِ، مُوجَّهاً إرادته بدَفْعِ قوِيٍّ للابتعادِ بِشِدَّةٍ عن السُّبُلِ التي تجلبُ له ما يكرهه من عذابٍ أليمٍ أو خسارةٍ أو مضرّةٍ مخوفٍ منها، مِنْ كُلِّ شَرٍّ تضمَّنَه الوعيدُ على المخالفةِ والعصيانِ وسلوكِ سُبُلِ الضلالةِ.

الفقرة الرابعة

شرح مسلك الجدل بالتي هي أحسن

- ١ -

بيان عام:

قد تدعو الحاجة إلى الإقناع بالحق الذي يُبلِّغه الداعي إلى سبيل ربّه، أن يتخذ وسيلة المجادلة.

وللمجادلة المأذون بها أو المأمور بها في القرآن شروط وقواعد وأصولٌ ينبغي اتباعها، صيانة لها من أن تتحوّل إلى مُماراةٍ بَعِيدَةٍ عن نُشْدَانِ الحقيقة، أو إلى مشاحنات أنانيّة، ومُشاتماتٍ ومُغالطاتٍ، ونحو ذلك ممّا يُفسدُ القلوبَ ويُهيجُ التُّفوسَ، ويورثُ التَّعصُّبَ، ولا يُوصِلُ إلى الحقِّ.

الجدال: هو حوارٌ كلاميٌّ يَتَفَهَّمُ فيه كلُّ طرفٍ من الفريقين المتحاورين وجهة نظر الطرف الآخر، وَيَعْرِضُ فيه كلُّ طرفٍ منهما أدلته التي رَجَّحَتْ لَدَيْهِ اسْتِمْسَاكُهُ بِوَجْهَةِ نظره، ثُمَّ يأخذُ بِتَبَصُّرِ الحقيقة من خلال الانتقادات والاعتراضات التي يُوجِّهها الطرفُ الآخرُ على أدلته، أو من خلال الأدلّة التي يُنيرُ لهُ بها بعضَ النِّقاط التي كانت غامضة عليه.

وهدف الجدل هو في الأصلُ تَعَاوُنُ الفريقين المتحاورين على معرفة الحقيقة والتوصُّل إليها، بِتَبْصِيرِ كُلِّ منهما صاحِبَهُ بالأماكن المظلمة عليه، والتي خَفِيَتْ عنه حينما أخذ يُنظرُ باحثاً عن الحقيقة، وذلك حينما لا يكون أَحَدُهُما واقفاً على الحقيقة البيّنة وقوفاً قطعياً غيرَ قابلٍ للتَّقْضِ، أمّا في هذه الحالة فإن هدفَ الجدل إنما هو تبصير الواقف على الحقيقة الطَّرَفِ الآخر

المجادل له بها، والأخذُ بيده في طرق الاستدلال الصحيح، لإبلاغه برفقٍ حتى يرى وجه الحقّ المشرق، وذلك باستخدام الحوار البريء من التعصّب، الخالي من العنْفِ والانعغال، والمتمشّي على مقتضى الأصول العامة للحوار، الذي يهدف فيه كلٌّ من الفريقين المتحاورين أن يصل إلى الحقيقة، كأنه جاهل بها، خالي الذهنِ والنفس من أيّ استمساك سابقٍ بوجهة نظرٍ معيّنة، من وجهات النظر المختلفة، وذلك للابتعاد عن كلِّ أجواء التعصّب والأنانية، التي تصرفُ النفوسَ والأفكارَ عن تفهّمِ الحقّ، والتسليم به، ولو انكشفَ لها واضحاً جليّاً.

- ٢ -

الجدال بالتي هي أحسن هو من وسائل الدعوة إلى سبيل الله

● ولما كان الجدال في الواقع الإنساني من الوسائل التي تُستخدَم لنشر الأفكار والإقناع بها، وكان الإنسان أكثر شيءٍ جدلاً، وكان الجدال سلاحه للدفاع عن أفكاره، فقد أمر الله عزّ وجلّ به، للدفاع عن دينه، ولنشره في الناس، والإقناع به، ولكن جعله مُقيّداً بأن يكون بالتي هي أحسن، كما أمر بالقتال لصدِّ عُذوان الكافرين، وتأمين إبلاغ حقائق أصول دينه للناس أجمعين، فقال الله عزّ وجلّ لنبيه فلكلّ داعٍ إلى سبيل ربه من أمته في سورة (النحل/١٦ مصحف/٧٠ نزول):

﴿... وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ (١٦)

● وخاطب الله عزّ وجلّ المؤمنين في سورة (العنكبوت/٢٩ مصحف/٨٥ نزول) بقوله:

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ...﴾ (١١)

أي: فإن سَلَكَ مجادلوكُم مسالك غير مهذّبة القول، فتقيّدوا أنتم بكلّ قولٍ مُهذّبٍ، واسلكوا كلّ طريقةٍ هي أحسنُ وأفضل.

عبارة ﴿بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ تَشْمَلُ بعمومها الأساليب الفكرية والقولية، وبهذا يتبيّن لنا أنّ المطلوب من الداعي المسلم أن يكون في مجادلته على حالة أرقى وأحسنَ باستمرار من الحالة التي يكون عليها من يجادله، أدباً وتهذيباً، وقولاً وفكراً.

● لكن استثنى الله حالة الذين ظلموا من أهل الكتاب في مجادلتهم، كأن شتموا بصراحة الذين يُجادلونهم من المؤمنين ظلماً وعدواناً، فأجاز للمؤمنين بأن يُقابلوهم بالعدل، ويُفهّم هذا من التّصوُّص التي تأذن بمقابلة السيئة بمثلها، إلا أن الله عزّ وجلّ يُرغّب في العفو عن السوء لأنّه أجدى لِتحقيق غاية الداعي وخدمة مبادئ الإسلام، ومنها قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾^(١١٨) إِن بُدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُكْفَرُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوفًا قَدِيرًا﴾^(١١٩).

● وقد أتى الله عزّ وجلّ إبراهيم عليه السلام قوّة حُجّة، وقُدرة على الجدل بالتي هي أحسنُ لِلإلزام بالحق، وهذا ما تكشّفه لنا جدليّاته التي قصّ الله علينا في كتابه طرفاً منها، وأثنى على قوّة حُجّته بقوله تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾^(١٢٠).

● وآتى الله عزّ وجلّ نوحاً عليه السلام نفساً طويلاً في جدال الكافرين، لإقناعهم بالحق الذي جاء به من عند الله، حتّى ضاقوا ذرعاً بقوّة

حجته وطول نفسه في الجدل، فقالوا له: يا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا، وهذا ما قصه الله علينا بقوله تعالى في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ قَالُوا يَنْتُوْحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأُنْبِتْنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِيْنَ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

● فالجدال للوقوف على الحق أو للإقناع به عملٌ محمود، وقد يكون واجباً لنصرة دين الله وإزهاق الباطل كالقتال في سبيل الله عز وجل.

● أما الجدل انتصاراً للنفس، ورغبة في الاستعلاء والغلبة، فهو عملٌ مذموم، وقد يكون حراماً إذا كان فيه طمسٌ للحق، أو تضليلٌ للطرف الآخر المجادل.

- ٣ -

قواعد عامة للجدال بالتي هي أحسن

يَحْسُنُ بنا بَعْدَ أن عرفنا معنى الجدل بالتي هي أحسن، وعرفنا هدفه في المنهج الإسلامي، أن ننظر في قواعده العامة التي هدى إليها الإسلام في توجيهاته.

وقد أمكن بالتأمل في النصوص الإسلامية، والتطبيقات الجدلية القرآنية، والأصول المنطقية البديهية، استنباط القواعد التالية:

القاعدة الأولى:

على كل من فريق المحاور الجدلية حول موضوع معين أن يتخلى عن التعصب لوجهة نظره السابقة، وأن يعلن استعداده العام للبحث عن الحق، والأخذ به عند ظهوره، سواء أكان وجهة نظره السابقة، أم وجهة نظر من يحاوره في الجدل، أم وجهة نظر أخرى غيرهما.

وقد أرشدنا الله عزّ وجلّ في كتابه إلى الأخذ بهذه القاعدة، إذ علّم الرسول ﷺ، وكلّ داعٍ إلى سبيل ربّه من أمته، في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) أن يقولوا لمجادليهم من المشركين وسائر المخالفين:

﴿... وَإِنَّا أَوْلَىٰ لَكُمْ لَعَلَّٰهُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٤﴾﴾ .

وفي هذا غاية التخلّي عن التّعصّب لأمرٍ سابق، وكَمَالُ إعلان الرغبة في نُشْدَانِ الحقّ أنّي كان.

ولمّا كان موضوعُ التعليم الجدليّ الذي وَرَدَتْ هذه العبارة في صَدَدِهِ، تَوْحِيدَ الله في ربوبيّته وإلهيّته، أو الإشراك به، وهما أمران على طرفي نقيض، لا لقاء بينهما بحالٍ من الأحوال، وهما يدوران حَوْلَ أصلٍ عظيم من أصول العقيدة الإسلامية، كان من الأمور البَدَهِيَّةِ أَنْ الْهُدَىٰ فِي أَحَدِهِمَا إِذْ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّ الضَّلَالَ المبين في الآخر إذ هو الباطل، ومن أجل هذا كانت عبارة إعلان التخلّي عن التّعصّب لأمرٍ سابقٍ تتضمّن الاعتراف بهذه الحقيقة.

القاعدة الثانية:

على كلّ من فريقَي المحاورَة الجدليّة أن يتقيّد بالقول المهذّب، البعيد عن كلّ طَعْنٍ أو تجريح، أو هُزءٍ أو سُخْرِيَّةٍ، أو احتقارٍ لوجهة النظر التي يدّعيها أو يدافع عنها من يجادلُه.

وقد أرشدنا الله عزّ وجلّ إلى التقيّد بهذه القاعدة في عدّة نصوص من القرآنِ المجيد، منها ما يلي:

١ - قول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿... وَحَدِّ لَّهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ... ﴿١٢٥﴾﴾ .

٢ - وقولُ الله عزّ وجلّ خطاباً للمؤمنين في سورة (العنكبوت/ ٢٩

مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ... ﴾ (٤١)

وظاهر أن التوجيه إلى الطريقة التي هي أحسن يشمل كل ما يتعلق بالجدال ويرتبط به ويرافقه ويصاحبه، من قول وفكر وعمل.

فالمؤمن المسلم مطالب بأن يلتزم في مجادلته، لإثبات الحق الذي يؤمن به، وإقناع الناس به، الطريقة التي هي أحسن من كل طريقة يتخذها الناس في مجاداتهم.

لذلك كان من أخلاق المسلم وآدابه مع خصوم دينه ومخالفى عقيدته، فضلاً عن إخوانه المؤمنين، أنه لا يسلك مسالك السب والشتم، والطعن واللعن، والهمز واللمز، والهزء والسخرية، والفحش والبذاءة.

٣- وقول الله عز وجل خطاباً للذين آمنوا في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول):

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ... ﴾ (١١٨)

أي: ولا تسبوا آلهة المشركين فيسبوا الله عدواً بغير علم مقابلة لكم على ما فعلتم، والنهي هنا نهى تحريم، وتؤخذ من هذا النهي في هذه القضية قاعدة سدّ الذرائع، فما هو سبب لارتكاب محرم هو حرام أيضاً، وإن كان في ذاته مباحاً، فسبب أصنام المشركين بين المؤمنين دون أن يعلم بذلك المشركون غير حرام، لكنه حرام إذا كان أحد المشركين حاضراً، لأنه قد يدفع المشرك إلى أن يسب الله عز وجل.

٤- وقول الله عز وجل في سورة (الهمزة / ١٠٤ مصحف / ٣٢ نزول):

﴿ وَيَلْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لَمَزَةٌ ﴾ (١١٩)

الهُمَزَةُ اللَّمَزَةُ: الطَّعَانُ الَّذِي يَعِيبُ النَّاسَ وَيَشْتُمُّهُمْ بِأَقْوَالٍ أَوْ أَعْمَالٍ
إِيمَانِيَّةٍ إشاريةٍ فيها تَوَارٍ واستخفاء، وهي تُدْرِكُ بِالذِّكَاةِ اللَّمَّاحِ.

والويل: هو العذابُ الشديد، ووادٍ في جهنم.

٥ - وروى الترمذي والبيهقي في «شُعبِ الإيمان» عن ابن مسعودٍ قال:
قال رسول الله ﷺ:

«لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَبِاللَّعَّانِ، وَلَا الْفَاحِشِ وَلَا الْبَذِيءِ».

القاعدة الثالثة:

الالتزام في الحوار الجدلي بالطرق المنطقية السليمة، وعدم المراوغة
والأخذ بالمغالطات واعتماد الأكاذيب والروايات الساقطات، والخرافات
والأساطير التي لم تثبت صحتها.

هذه القاعدة المهمة جداً يدُّ عليها عمومُ الأمر الرباني بأن يكون
الجدال جدالاً بالتي هي أحسن.

ومن التزام الطرق المنطقية السليمة ما يلي:

أولاً: تقديم الأدلة المثبتة أو المرجحة للقضايا المدعاة.

ثانياً: إثبات صحة الثقل للأمور المنقولة المرؤية.

ومن هذا أخذ علماء فن «آداب البحث والمناظرة» قاعدتهم المشهورة
التي يقولون فيها: «إِنْ كُنْتَ نَاقِلًا فَالصَّحَّةُ، أَوْ مُدَّعِيًا فَالدَّلِيلُ».

وقد علمتنا الجدليات القرآنية اعتماد الطرق والأصول المنطقية لدى
مجادلاتنا في الدعوة إلى سبيل الله، ونصرة الحق الذي جاءنا عن الله
عز وجل، وفي النصوص التاليات دلالات جليات على هذا التعليم:

١ - قول الله عز وجل في سورة (النمل/ ٢٧/ مصحف/ ٤٨/ نزول):

﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَوَلَيْكُمْ مَعَ اللَّهِ قُلُوبٌ هَاكِنًا
بُرْهَانِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١١)

فبدأ الطريق المنطقي في هذا التعليم الجدلي، بطرح السؤال على المشركين حول أهم القضايا التي تتعلق بتوحيد الربوبية لله عز وجل، وهي بدء الخلق وإعادته، ورزق الناس من السماء والأرض.

وهذا السؤال من شأنه أن يستخرج اعتراف المسؤولين ولو بعد مراحل من الحوار الجدلي بأن الله عز وجل هو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده، وهو الذي يرزق الناس من السماء والأرض.

فإذا ثبتت هذه الحقيقة واعترف المسؤولون بتوحيد الربوبية لله عز وجل، كان من لازمها الفكري حتماً وجوب توحيد الإلهية لله وحده، فلا يجوز أن يُعبَد مع الله أحدٌ من دونه، لأنَّ العبادة حقُّ الربِّ الخالق الرازق وحده.

فبيني المجادل على اعتراف المسؤولين بتوحيد الربوبية لله عز وجل، نقلهم بالدليل العقلي إلى القضية الثانية، وهي توحيد الإلهية لله تعالى، ويقتنعهم بأن العبادة لا يصحُّ عقلاً أن تكون إلا لمن هو ربُّ خالق رازقٍ يحيي ويميت، وهنا يقول لهم: ﴿أَوَلَيْكُمْ مَعَ اللَّهِ﴾ بأسلوب الاستفهام التعجبي من ترك هذه الحقيقة الجليلة الواضحة البرهان.

فإذا قالوا: نعبُدُ آلِهتنا بأمرٍ من الله أو بإذنٍ منه، فعبادتنا لها تُقربنا إلى الله زُلْفَى لأنها عنصراً من عناصر ما يُقربنا إليه من عملٍ صالح.

كان على المجادل المؤمن الموحِّد أن يطالبهم بالبرهان على ما ادَّعوا، وفقَّ الأصول المنطقية في الجدل والتي هي أحسن، وهنا يأتي موقعُ فقرة: ﴿قُلْ هَاكِنًا بُرْهَانِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ التي جاءت في التعليم المختزل.

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ: أي: صادقين في ادّعاء أن الله أمركم أو أذن لكم بعبادة آلِهتكم من دونه.

وَيَسْمَلُ الْبُرْهَانَ فِي مِثْلِ هَذَا الْادِّعَاءِ الْبُرْهَانَ الْعَقْلِيَّ، والبرهان النَّقْلِيَّ الثَّابِتَ عَنْ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ.

لكنهم لا يملكون أي دليل يُبيح لهم أن يتخذوا من دون الله إلهًا يعبدونه، فتلزمهم الحجّة وعليهم وفق أصول الجدال أن يعترفوا بالحق.

٢ - وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْذَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢١﴾ .

فجاء في هذا النصّ التعليمي مطالبةً المشركين بالبرهان على اتّخاذهم آلهةً من دون الله، وهو يشمل البرهان العقليّ والنقليّ، لكنّ البرهان العقليّ قد سبق بيانه في آية النمل، ولم يستطيعوا أن يأتوا ببرهان نقليّ خلال مدّة طويلةٍ مُنذُ نزولِ سورة (النمل) حتّى نزول سورة (الأنبياء).

ولمّا لم يستطيعوا أن يأتوا بالبرهانِ النقليّ كان من المناسب أن يقول الرسول لهم: إنّ البرهان النَّقْلِيَّ الذي جَآءني من عند الله في القرآن يُثَبِّتُ أَنَّ كُلَّ رُسُلِ اللَّهِ السَّابِقِينَ قَدْ قَالُوا لِأَقْوَامِهِمْ: اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ.

٣ - وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٧﴾ .

في هذه الآية يأمر الله رسوله فكلّ داعٍ إلى سبيل ربه من أمته بأن يطالبوا الذين يدعون أنه لن يدخل الجنة إلا من كان من اليهود أو من النصارى بتقديم برهانهم النقليّ على ما يدعون.

٤ - وقول الله عز وجل في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ كُلِّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَأَتَلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

وذلك أن اليهود أخذوا يعترضون على رسول الله ﷺ في أكله لحوم الإبل وشربه لبنها، مع إعلانه أنه على دين إبراهيم عليه السلام، مدعين بأنها كانت محرمة في ملة إبراهيم.

فقال لهم الرسول ﷺ: كان ذلك حلالاً لإبراهيم فَخَنُّ نُحِلُّهُ، فقال اليهود: إنها لم تنزل محرمة في ملة إبراهيم ونوح عليهما السلام، فنزل قول الله يأمرُ رسوله بأن يُطالِبَهُمْ بتقديم الدليل على ما يدَّعون من نقل صحيح، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلْ : فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَأَتَلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

القاعدة الرابعة:

ألا يكون المجادل ملتزماً في أمرٍ من أموره الفكرية بضدِّ الدَّعْوَى التي يُحاوِلُ أَنْ يُثَبِّتَهَا، فإذا كان ملتزماً بشيءٍ من ذلك، كان بمثابة من يحكُمُ على نفسه بأن دعواه مرفوضة من وجهة نظره.

ومن الأمثلة على سقوط دعوى المجادل بسبب التزامه بضدِّ دعواه، وقبوله له: استدلال بعض من أنكر رسالة محمد صلوات الله عليه بسبب أنه بشرٌ، وزعمهم أن الاصطفاء بالرسالة لا يكون للبشر، وإنما يكون للملائكة، أو مشروط بأن يكون مع الرسول من البشر ملكٌ يُرى، وفي اعتراضهم على بشريته قالوا كما جاء في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿ . . . مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْسِي فِي الْأَسْوَاقِ . . . ﴾ .

مع أنهم يعتقدون برسالة كثيرٍ من الرُّسُلِ السابقين كإبراهيم وموسى

وعيسى عليهم السلام، وهؤلاء في نظرهم بشرٌ وليسوا بملائكة، ولذلك أسقط الله عز وجل دعواهم بقوله تعالى في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ ﴿٢٥﴾ .

القاعدة الخامسة:

الآ يكون في الدَّعْوَى أو في الدليل الذي يُقدِّمه المجادل تعارض، أي: ألا يكون بعضُ كلامه ينقضُ بعضه الآخر، فإذا كان كذلك كان كلامه ساقطاً بداهةً.

ومن أمثلة ذلك قولُ الكافرين حينما كانوا يَرَوْنَ الآياتِ الباهراتِ تنزل على رسول الله ﷺ: «سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ» إذا كَانَ المرادُ الاستمرارَ الزمني، لَأَنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدٌ.

ففي ادعاء أَنَّهُ سِحْرٌ وَأَنَّهُ مُسْتَمِرٌّ اسْتِمْرَاراً زَمَنِيًّا تعارضٌ وتهافتٌ ظاهراً لا يَسْتَحِقُّ رَدًّا، وذلك لَأَنَّ من شأن السِّحْرِ كما يعلمون أن لا يكون دائماً، ومن شأن الأمور الدائمة أَنَّ لا تكون سِحْرًا، أمَّا أن يكون الشيءُ الواحدُ سِحْرًا ومستمرًا معاً فَهُوَ جمعٌ عَجِيبٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ لا يجتمعان.

ونظير ذلك قول فرعون عن موسى عليه السلام حينما جاءه بسُلطان مُبِينٍ من الحجج الدامغة والآيات الباهرات: «سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ».

قال الله عز وجل في سورة (الدَّارِيَّاتِ/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٦٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْبِهِ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ ﴿٦٩﴾ .

إن هذينِ الأمرين يكادان يكونان مُتَضَادَّيْنِ، فمن غير المعقول منطقيًا

أن يكون الشخص الواحد ذو الصفات الواحدة، متردداً بين كونه ساحراً وكونه مجنوناً، وذلك لأن من شأن الساحر أن يكون كثيرَ الفطنة والدكاء والدهاء، وهذا أمرٌ يتناقضُ مع الجنون تنافياً كلياً، فكيف صحَّ في فكر فرعون هذا التردد بين كَوْنِ مُوسَى ساحراً وكَوْنِهِ مجنوناً؟.

إن في كلامه هذا لتهافتاً ظاهراً يُسْقِطُه من الاعتبار لدى المحاورَة الجدليّة، فهو لا يستحقّ عليه جواباً، وهو يُشعر بأن فرعون يتَهَرَّبُ من منطق الحق، ويُطلِقُ عبارةً يُغشِّي بها على الملام من حوله، حتّى لا يفتضح أمامهم بانتصار موسى عليه في الحجّة، أو هو ينتقل إلى موضوع جُرأة موسى في القصر الفرعوني، فيعلّلها بأنّها صادرة عن ساحرٍ يعتمد على قوّته في السحر، أو صادرة عن مجنون لا يُقدِّرُ عواقب الأمور، وهذا أيضاً تهَرَّبٌ من منطق الحجج التي قدّمها موسى عليه السلام إلى موضوع آخر هو موضوع جُرأته.

القاعدة السادسة:

ألا يكون الدليل الذي يُقدّمه المجادلُ ترديداً لأصلِ الدعوى، فإذا كان كذلك لم يكن دليلاً، وإنّما هو إعادةٌ للدّعوى بصيغة ثانية، وسقوط هذا في الجدل أمرٌ بدهيّ.

ولكن قد يخفى على الفريق الآخر هذا الأمر إذا استخدم المجادل براعته في تغيير الألفاظ وزخرفتها، وتقديم مقدمات لها، وبناء فروع عليها يدّعيها، بيد أن الأمر لا يعدو أن يكون حيلةً باطلة لا يُلجأ إليها طُلابُ الحق.

القاعدة السابعة:

عدم الطعن بأدلة المجادل إلا ضمن الأصول المنطقيّة، أو القواعد المُسلّم بها لدى الفريقين المتحاورين.

القاعدة الثامنة:

إعلان التسليم بالقضايا والأمور التي هي من المسلّمات الأولى، أو من

الأمر المتفق بين الفريقين المتحاورين على التسليم بها.

أما الإصرار على إنكار المسلمات فهو مكابرةً قبيحة، وممارسةً منحرفة عن أصول المحاورّة والمجادلة السليمة، وليست من شأن طالبي الحق.

القاعدة التاسعة:

قبول النتائج التي تُوصَلُ إليها الأدلة القاطعة أو الأدلة الراجعة، إذا كان الموضوع مما يكفي فيه الدليل الراجع.

وإلا كانت المجادلة من العبث الذي لا يليق بالعقلاء أن يمارسوه.

* * *

الفقرة الخامسة

نماذج من تعليمات جدلية قرآنية

النموذج الأول:

قال الله عز وجل في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا اللَّهَ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ .

في هذه الآية تعلیم جدلي حول قضية من قضايا عقائد اليهود والنصارى الباطلة، وترتيب خطوات هذا الحوار الجدلي كما يلي:

المدعي: (من اليهود أو النصارى) يقول: نحن أبناء الله وأحببناؤه، أي: فلا يدخلنا يوم القيامة في جهنم مهما ارتكبنا من ذنوب وخطايا وجرائم في الحياة الدنيا.

المخالف: (من المؤمنين المسلمين) يطرح سؤالاً يتضمن إبطال ادعاء المدعي، فيقول: فلِمَ يُعَذِّبُكُمْ اللَّهُ بِذُنُوبِكُمْ في الحياة الدنيا كما هو مُشَاهِدٌ من تعرّضكم لبعض العقوبات الدنيوية، فلو كنتم أبناء الله وأحببناه لما تعرّضتم لهذه العقوبات في الحياة الدنيا.

المدعي: لا يجد جواباً صحيحاً يدفع به هذا الاعتراض الذي يُثبت نقيض مدعاه، وإذا جاء بشيء أمكن نقضه.

المخالف: بل أنتم بشرٌ ممَّن خَلَقَ اللهُ مِنْ خَلْقٍ، والله عزَّ وجلَّ يغفر لمن يشاء إذا اقتضت حكمته أن يغفر له وهو لا يغفر لمن مات على كفره، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يُعَذِّبَهُ .

وليس مخلوقٌ في الوجود كُلهُ ابنِ اللهِ، بل كلُّ ما سوى الله ملكٌ له ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ .

أما الحياة الدنيا للناس جميعاً فهي رحلة امتحانٍ، وبعد الامتحان فيها يكون الحساب والجزاء يوم الدين الذي يُبْعَثُ فيه الناس ويصيرون فيه إلى ربهم ليُجْزِيَهُمْ على ما قَدَمُوا في رحلة امتحانهم ﴿وَأِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ .

* * *

النموذج الثاني:

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (المائدة) أيضاً:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

في هذه الآية تعلیمٌ جدليٌّ حول قضيةٍ من قضايا عقائد النصارى في عيسى عليه السلام، وترتيبه كما يلي:

المدعي: يقول: إن الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما هو عيسى بن مريم، تجسّد في شخص عيسى، ثم تجرّد عن الشخص.

المخالف: (المؤمن المسلم) يطرح سؤالاً يتضمّن إبطال الادعاء فيقول: ألم يكن عيسى عليه السلام يأكلُ ويشربُ وتجري عليه الأحوال التي تجري على سائر البشر، ومنها الهلاك بالموت المعتاد أو غيره.

المدّعي: بلى، فقد كان يأكل ويشرب وتجرى عليه الأحوال التي تجري على البشر، ومنها الهلاك بالموت المعتاد أو غيره.

المخالف: يطرح سؤالاً يتضمّن تأكيد إنطال الادّعاء فيقول: هل يوجد أحد يملك دفع مُراد الله إن أراد الله أن يهلك المسيح ابن مريم بالموت المعتاد أو غيره، وأن يهلك أمّه وجميع الناس؟ أي: فكيف يكون هو الله وهو عرضة للهلاك كسائر من في الأرض؟.

فإذا قال المدّعي: لا أحد يملك ذلك، فقد لزمه أن يثبت أن الله ليس هو المسيح عيسى بن مريم، وتنتهي المجادلة.

وإن راعى ولم يعترف فباستطاعة المخالف أن يلزمه ويحصره حتّى ينقطع، فالنصارى يدعون أنّ عيسى صلب ومات، ثمّ قام من بين الأموات ثم عاد.

* * *

النموذج الثالث:

قال الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبراهيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبراهيمُ رَبِّي الَّذِي يُعْبَدُ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبراهيمُ فَإِنَّكَ اللهُ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

في هذه الآية حكاية حوار جدلي جرى بين رسول الله إبراهيم عليه السلام، والنمرود ملك العراق القديم في عصره، وفي حكاية هذا الحوار تعليم جدلي للمسلمين ولا سيّما الدعاة إلى الله منهم.

وقد جرى هذا الحوار الجدلي وفق الترتيب التالي:

المدّعي: (إبراهيم عليه السلام) دعا النمرود إلى الإيمان بالله وعبادته

وحده، وذَكَرَ له أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ رَبِّهِ رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ .

المخالف : (النمرود) : أَلَسْتُ وَأَنَا مَلِكُ الْبِلَادِ رَبِّكَ؟

إبراهيم عليه السلام : أَنْتَ لَسْتَ رَبِّي ، إِنَّمَا أَنْتَ مَلِكُ الْبِلَادِ وَحَاكِمُهَا .

النمرود : فَمَنْ رَبُّكَ إِذَنْ؟

إبراهيم : رَبِّي هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ .

النمرود : أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ، وَاسْتَدَلَّ عَلَى ادِّعَائِهِ هَذَا بِأَنَّهُ أَخْضَرَ رَجُلَيْنِ
مِنَ السَّجَنِ ففَتَلَ أَحَدَهُمَا وَعَفَا عَنِ الْآخَرِ ، وَأَوْهَمَ بِهِذَا أَنَّهُ يَمْلِكُ هَذِهِ
الرَّبُوبِيَّةَ مَا دَامَ يَتَصَفُّ بِالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ .

إبراهيم : لَمْ يَشَأْ أَنْ يَدْخُلَ فِي جِدَالٍ يَكْشِفُ فِيهِ الْمَغَالِطَةَ الَّتِي صَنَعَهَا
النمرود ، إِذْ جَعَلَ الْقَتْلَ إِمَاتَةً ، وَالْعَفْوَ لِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْمَوْتَ إِحْيَاءً ، وَهَذَا غَيْرُ
مُرَادَيْنِ فِي أَصْلِ دَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، إِذْ هُوَ يُرِيدُ خَلْقَ الْحَيَاةِ فِي الْمَادَّةِ
غَيْرِ الْحَيَّةِ ، وَسَلَبَ هَذِهِ الْحَيَاةَ سَلْبًا حَقِيقِيًّا ، لَا سَلْبًا عَنْ طَرِيقِ اتِّخَاذِ
الْأَسْبَابِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ أَسْبَابًا لِحُدُوثِ الْمَوْتِ الَّذِي يَتِمُّ بِخَلْقِ اللَّهِ وَبِقُدْرَتِهِ ،
وهو أَمْرٌ مَتَّاحٌ لِلنَّمْرُودِ وَلِغَيْرِهِ .

لكن إبراهيم عليه السلام اختار أن ينتقل إلى عَمَلٍ آخَرَ مِنْ أَعْمَالِ
الرَّبُوبِيَّةِ لَا يَسْتَطِيعُ النَّمْرُودُ أَنْ يُعَالِطَ فِيهِ ، فَقَالَ لَهُ : فَإِنَّ اللَّهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ
هُوَ الَّذِي يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ ، فَأَتَتْ بِهَا إِنْ كُنْتَ رَبًّا خَالِقًا مِنَ
الْمَغْرِبِ .

أي : إِنَّ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ الْخَالِقِ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ أَنَّهُ جَعَلَ مِنْ نِظَامِ الْكَوْنِ
أَنْ يَكُونَ إِتْيَانُ الشَّمْسِ مِنْ جِهَةِ الْمَشْرِقِ ، لَا مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ ، وَمِنْ لَهُ صِفَةُ
الرَّبُوبِيَّةِ فِي الْكَوْنِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَجْعَلَهَا تَأْتِي مِنَ الْمَغْرِبِ ،
فَإِنْ كُنْتَ رَبًّا كَمَا تَدَّعِي فَأَتِ بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَغْرِبِ .

النمرود: بُهتَ، إذ عَجَزَ عن تقديم شاهدٍ عمليٍّ يُثبِتُ قُدْرَتَهُ على أن يأتي بالشمس من المغرب .

بُهتَ: أي: دُهشَ وسَكَتَ متحيراً.

وبهذا انتهت المجادلة القائمة على الحوار بالفكر، والاستدلال بالأدلة المنطقية السليمة .

لكن النمرود لجأ بعد ذلك إلى أعمال العنف المادية لإيقاف إبراهيم عليه السلام عن دَعْوَتِهِ، فأمر بتحريقه بالنار أمام جماهير قومه، فأخزاه الله وأنجى نبيّه ورسوله إبراهيم عليه السلام .

* * *

النموذج الرابع:

قال الله عز وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ لِيَجْمَعُوا لَهُم مَّا يُخْتَلَفُ فِيهِ لَأُبَيِّنَنَّ لَهُمْ فَمَا عَصَانُوا أَمْرًا أَنزَلَ اللَّهُ بِهِ لَآءِ آبَائِهِمْ قُلْ لَوْلَا رِزْقُ اللَّهِ لَكُنَّا فِي الْخُسُوفِ ﴿١١﴾ ﴾ .

في هذه الآية يُعلِّمُ اللّهُ عزّ وجلّ رسوله محمداً ﷺ فكلّ داع إلى الله من أمته، كيف يجادل طائفة من اليهود ادّعى أنّ الله لم ينزل على بشرٍ من شيءٍ، ليتوصّلوا بهذا الادّعاء إلى أنّ القرآن ليس مُنزّلاً من عند الله، وترتيب هذا الحوار الجدلي يجري كما يلي:

المدّعي: (اليهودي) قال لرفض رسالة محمد ﷺ ولرفض الإيمان بالقرآن الذي أنزل عليه من الله عز وجل:

﴿ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ .

ادعاءً يلزم من صحته إثبات أن القرآن ليس منزلاً من عند الله، وأن محمداً ليس رسولاً.

المخالف: (المؤمن المسلم الداعي إلى سبيل ربه) يطرح سؤالاً تتضمنُ الإجابةُ عليه إبطال الادعاء، فيقول:

مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ، وَهُوَ التَّوْرَةُ، وَهُوَ مَوْجُودٌ لَدَيْكُمْ إِذْ تَكْتُبُونَهُ فِي قَرَاتِيصٍ مُّتَنَوِّعَةٍ وَمُقَسَّمَةٍ إِلَىٰ أَقْسَامٍ، فَتُبْدُونَ بَعْضَهَا، وَتُخْفُونَ مِنْهَا كَثِيرًا لِغَايَاتٍ فِي أَنْفُسِكُمْ، وَعُلِمْتُمْ بِهَذَا الْكِتَابِ مِنْ عُلُومِ الدِّينِ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ قَبْلَ أَنْزَالِهِ أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ.

المدعي: إِمَّا أَنْ يَعْتَرِفَ بِأَنَّ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَبِهَذَا تَسْقُطُ دَعْوَاهُ، وَإِمَّا أَنْ يُرَاوِغَ بِالْبَاطِلِ وَعِنْدَيْهِ يَسْتَطِيعُ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ أَنْ يَخْصِرَهُ حَتَّىٰ يَنْقَطِعَ وَيَخْرُجَ مِنْهَزَمًا مِنْ حَلْبَةِ الْمَجَادَلَةِ مَكَابِرًا سَاقِطًا فِي نَظَرِ الْمَشَاهِدِينَ.

وهنا يُعْلِنُ الْمُؤْمِنُ الدَّاعِي إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ قَائِلًا كَمَا أَمَرَ اللَّهُ فِي التَّعْلِيمِ: اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ، وَأَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ثُمَّ يَتْرُكُ كُفْرَةَ الْيَهُودِ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ.

* * *

النموذج الخامس:

قال الله عز وجل في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) مُعَلِّمًا رسوله فكلّ داعٍ إلى سبيل ربه من أمته:

﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٢﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٣﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِقُ ﴿٨٤﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَنزَلْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾
 مَا آتَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى
 بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا
 يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ .

في هذا النصّ تعليم جدليّ يُعَلِّمُهُ اللَّهُ رَسُوْلَهُ فَكُلَّ دَاعٍ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ مِنْ
 أُمَّتِهِ، وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَى عِدَّةِ جَوَلَاتٍ مِنْ جَوَلَاتِ الْمَجَادَلَةِ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ
 اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ، يَعْْبُدُونَهُمْ رَجَاءً أَنْ تَجْلِبَ لَهُمُ الْمَنَافِعُ وَتَدْفَعُ عَنْهُمْ
 الْمَضَارَّ فِي شُؤْنِ دُنْيَاهُمْ .

وكلُّ جولةٍ مِنْ هَذِهِ الْجَوَلَاتِ تَعْتَمِدُ عَلَى طَرَحِ الْأَسْئَلَةِ وَاسْتِقْبَالِ
 الْأَجْوِبَةِ عَلَيْهَا، ثُمَّ تَكُونُ الْمَتَابَعَةُ بِحَسَبِ الْجَوَابِ الَّذِي يُقَدِّمُهُ الْمَسْئُولُونَ
 الْمُشْرِكُونَ .

الجولة الأولى

المدعون: (المشركون) الذين يدعون أنّ الله شركاء في إلهيته .

المخالف: (الداعي إلى سبيل الله) يطرح سؤالاً يتعلق بلازم كون الله عزّ
 وجل هو الرّبّ الذي لا شريك له في ربوبيته في الأرض ومن فيها فيقول:

﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٨٣﴾ .

إنّ لازم ربوبية الله للأرض ولِمَنْ فِيهَا أَنْ تَكُونَ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا مِلْكاً
 لَهُ جَلَّ جَلَالُهُ .

أي: لِمَنْ يَرْجِعُ مِلْكُ الْأَرْضِ وَمَنْ فِيهَا، فَهُوَ يُدَبِّرُ مَلِكُهُ وَيُجْرِي
 تَصَاريفَهُ فِيهِ عَلَى وَفْقِ حِكْمَتِهِ، وَمِنْهَا الْعَطَاءُ وَالْمَنْعُ، وَالضَّرُّ وَالنَّفْعُ، وَالْحَيَاةُ
 وَالْمَوْتُ؟

المدَّعون: (المشركون): هي للآلهة التي نُقِّدُم لها القرايينَ وندعوها ونعوذُ ونلوذُ بها.

المخالف: (الداعي إلى سبيل ربِّه): كيف تكونُ الأرضُ ومنَ فيها للآلهة التي اتخذتموها من دون الله، مع أنكم تُؤمِنُونَ بأنَّ الله هو الذي خَلَقَهَا، وهو الذي خلقكم، وقد جاء هذا في اعترافاتكم السابقات التي سمعناها منكم في مجالس كثيرة؟!

المدَّعون المشركون: إنَّ الله الخالقَ فَوْضَ هذه الآلهة في أمورِ الأرض ومن فيها، فهي لها بالتفويض.

المخالف: هل عندكم بُرْهانٌ عقليُّ، أو برهانٌ نقلِيٌّ خَبْرِيٌّ عن الله، أو بُرْهانٌ تَجْرِيبيُّ يُثَبِّتُ مَا تَدَّعُونَ؟

إن كان لديكم شيءٌ من ذلكم فهاتوا بُرْهانكم.

هنا يتوقَّفُ المدَّعون المشركون، لأنَّهم لا يملكون برهاناً عقلياً، ولا برهاناً نقلياً خبرياً عن الله عزَّ وجلَّ، ولا بُرْهاناً تَجْرِيبياً يُمكنُ أَنْ يُثَبِّتَهُ بيقين.

لكن قَدْ يتدَّرعون بأقاويل عن تجاربَ جرَّتْ لبعضهم، هي من قبيل الحكايات التي ليس لها أقدامٌ تقف عليها في مواجهة النقد العلمي.

ولا يعجز المخالف الداعي إلى سبيل ربِّه عن إسقاط ذرائعهم بالنقْد والنقض، وتقديم ما يُظهر عَدَمَ صلاحيتها لأن تكون حُجْجاً يعتمدُ عليها أهل الفكر.

ثُمَّ يَسْتَطِيعُ الداعي إلى سبيل ربِّه في نهاية الجولة التي تَطُولُ أو تَقْصُرُ إلزام المشركين، أو انتزاع اعترافهم بأنَّ الأرضَ ومن فيها لله وحده، لا شريك له، وهو وحده الذي يُدَبِّرُ مُلكه، ويتصرَّفُ فيه بمقتضى حكيمته المشمولة بعلمه ورحمته التي وَسِعَتْ كُلَّ شيء.

وفي حالة اعترافهم بالحق يقولون: لله .

لكنّ هذا الاعتراف لا يكون تلقائياً عقب السؤال، وإنما يأتي بعد حصارٍ فكريّ في مُجادلةٍ عقليةٍ علميةٍ تعتمد على أدلّة برهانية، لهذا قال الله عزّ وجلّ:

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ .

أي: سيقولون مستقبلاً بعد المجادلة بالتي هي أحسن والحصارِ الفكريّ والإقناع: لله الأرضُ ومنّ فيها، وليس لأحدٍ سواه ملكٌ في شيءٍ من ذلك، ولا تصرفٌ فيه .

ومتى وصلوا إلى هذا الاعتراف وأعلّنوه، وجّه الداعي إلى سبيل ربّه لهم موعظته، فحضّهم على أن يذكّروا .

أي: أن يضعوا في ذكراتهم دواماً أن الأرض ومن فيها ملكاً وتصرفاً وتديراً شاملاً، وهيمنة تامّة لله وحده، فإذا وضعوا هذا في ذكراتهم دواماً وجدوا أنفسهم يعبدون الله وحده، مُسقطين من أنفسهم آلهتهم التي لا تملك من الأمر شيئاً، فجاء في التعليم قول الله تعالى:

﴿ قُلْ: أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟ ﴾ وفي قراءة جمهور القراء ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟ ﴾ .

والاستفهام هنا هو بمعنى الحضّ والحثّ على تذكّر هذه الحقيقة التي وصلوا إلى إدراكها، واغترفوا بها، وهذا التذكير من حينٍ إلى آخر من شأنه أن يدفع إلى نَبذِ الشُّركِ دواماً، وعبادةِ اللّهِ وحده لا شريك له .

الجولة الثانية

المخالف: (الداعي إلى سبيل ربّه) يطرح سؤالاً عن ربّ السماوات السبع وربّ العرش العظيم، فيقول للمشركين كما جاء في التعليم الجدليّ القرآنيّ:

﴿مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ؟﴾

أي: مَنْ الَّذِي لَهُ أَمْرٌ مُتَابَعَةٌ عَمَلِيَّاتِ التَّدْبِيرِ وَالتَّصْرِيفِ لِلْمَتَغَيَّرَاتِ الْمُسْتَمِرَّةِ فِي السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَفِي الْعَرْشِ الْعَظِيمِ؟

هذا مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ «رَبِّ» لِأَنَّ الرَّبَّ فِي الْأَصْلِ مَصْدَرٌ كَالْتَرْبِيَةِ، وَالتَّرْبِيَةُ هِيَ إِنْشَاءُ الشَّيْءِ حَالًا فَحَالًا حَتَّىٰ إِبْلَاغِهِ حَدَّ التَّمَامِ، ثُمَّ اسْتَعِيرَتْ كَلِمَةُ «رَبِّ» مِنَ الْمَصْدَرِيَّةِ إِلَى اسْمِ الْفَاعِلِ، أَي: «الْمَرْبِي» وَلَمَّا كَانَتِ التَّرْبِيَةُ الْحَقِيقِيَّةُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ الْأَشْيَاءَ وَيُنْشِئُهَا طَوْرًا فَطَوْرًا كَانَ الْأَحَقُّ بِأَنْ يُطْلَقَ عَلَيْهِ أَنَّهُ (الرَّبُّ لِكُلِّ شَيْءٍ) أَي: الْخَالِقُ الْمُنْشِئُ الَّذِي يُمِدُّ مِنَ يُرَبِّيهِ وَمَا يُرَبِّيهِ بِعَطَاءَاتِ التَّرْبِيَةِ دَوَامًا، وَهُوَ الْمَشْرَفُ عَلَيْهَا كُلِّهَا دَوَامًا، وَالْمُحِيطُ بِهَا عِلْمًا وَسُلْطَانًا وَهَيْمَنَةً.

فَالرَّبُّ لَيْسَ مُجَرَّدَ خَالِقٍ خَلَقَ مَخْلُوقَاتِهِ، ثُمَّ تَرَكَ تَدْبِيرَ أُمُورِهَا بَعْدَ الْخَلْقِ لِآلِهَةٍ غَيْرِهِ، إِنَّمَا الرَّبُّ هُوَ الْمُمِدُّ بِالتَّرْبِيَةِ عَلَى الدَّوَامِ، وَهُوَ الْمَهِيْمُنُ عَلَى شُؤْنِ مَخْلُوقَاتِهِ عَلَى الدَّوَامِ، وَلَهُ كُلُّ أُمُورِهَا دُونَ اسْتِثْنَاءٍ.

أَمَّا الْمُشْرِكُونَ فَإِنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِحَسَبِ اعْتِرَافِهِمْ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ، لَكِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّبُّ الْمُدَبِّرُ الْمَهِيْمُنُ الْمُصَرِّفُ لِأُمُورِ مَا خَلَقَ دَوَامًا، وَبِيَدِهِ الْأَمْرُ كُلُّهُ.

الْمُدْعُونَ: (الْمُشْرِكُونَ): يَتَوَقَّفُونَ فَلَا يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، عَلَى وَفْقِ الْمَعْنَى الَّذِي سَبَقَ بَيَانَهُ.

فَقَدْ يَقُولُونَ: إِنَّ قِضِيَّةَ تَدْبِيرِ أُمُورِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَأُمُورِ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ هِيَ لِآلِهَةٍ مُتَعَدِّدِينَ فِي السَّمَاءِ، فَوَضَعَهُمُ اللَّهُ بِتَدْبِيرِ أُمُورِهَا، أَوْ هُمْ شُرَكَاءُ اللَّهِ فِي التَّدْبِيرِ وَالسُّلْطَانِ، فَهَمُ الَّذِينَ يَتَصَرَّفُونَ بِشُؤْنِ الْأَشْيَاءِ وَالْأَحْيَاءِ فِيهَا، وَبِأَمْرِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ تَجْرِي الْأَحْدَاثُ.

وعلى مثل ما جاء في الجولة الأولى يُتَّبع الداعي إلى الله مجادلته حتى ينتزع من المشركين اعترافهم، بأنَّ تدبيرِ أُمُورِ السماواتِ السَّبعِ وأُمُورِ العرشِ العظيمِ، إنما يكون بأعمالِ مُرَبِّ مُتَابِعٍ لكلِّ صغيرٍ وكبيرٍ، هو الله وحده لا شريك له في ربوبيَّته.

وهذا لا يَصِلُ إليه إلا بَعْدَ حِصَارِ فِكْرِيٍّ، ومُجَاهَدَةِ طَوِيلَةٍ، في مجادلةٍ عقليةٍ علميةٍ، لذا قال الله عزَّ وجلَّ في التعليم:

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾.

فَأَبَانَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ قَوْلَهُمْ هَذَا لَا يَكُونُ تِلْقَائِيًّا عَنْ عَقِيدَةٍ جَاهِزَةٍ لَدَيْهِمْ، وَإِنَّمَا يَقُولُونَهُ بَعْدَ زَمَنِ عَبَّرَتْ عَنْهُ السَّيْنُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ الْقَرِيبِ.

ولا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ السُّؤَالِ وَالْاعْتِرَافِ الْمُسْتَقْبَلِيِّ مَجَادَلَةٌ عَقْلِيَّةٌ عِلْمِيَّةٌ يَثِيرُهَا الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ، وَيُقَدِّمُ فِيهَا الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ، حَتَّى يَصِلَ إِلَى الْإِقْنَاعِ الْمَرْجُوعِ، وَيَنْتَزِعَ اعْتِرَافَ الْمَشْرِكِينَ بِأَنَّ كُلَّ عُنَاصِرِ الرُّبُوبِيَّةِ هِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَحِينَ يَنْتَزِعَ مِنْهُمْ هَذَا الْاعْتِرَافَ يَحْسُنُ أَنْ يُوجِّهَ لَهُمْ بِأَسْلُوبِ الْاسْتِفْهَامِ التَّحْضِيضِي الْمَشُوبِ بِالتَّأْنِيبِ قَوْلَهُ لَهُمْ: ﴿ أَفَلَا نُنْقِوْنَ؟ ﴾ كَمَا جَاءَ فِي التَّعْلِيمِ.

أَي: أَفَلَا يَكُونُ لَدَيْكُمْ عَقْلٌ تَنْبِذُونَ بِهِ شُرَكَاءَكُمْ، وَتُوَحِّدُونَ اللَّهَ حَقًّا، بِكُلِّ عُنَاصِرِ رُبُوبِيَّتِهِ، وَكُلِّ عُنَاصِرِ إِلَهِيَّتِهِ، فَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَلَا تَعْبُدُوا غَيْرَهُ، حَتَّى تَتَّقُوا عَذَابَهُ.

وَالْاسْتِفْهَامُ فِي عِبَارَةِ ﴿ أَفَلَا نُنْقِوْنَ؟ ﴾ فِيهِ مَعْنَى التَّلْوِيمِ وَمَعْنَى الْحَضَّصِ عَلَى التَّعَقُّلِ بِفَهْمِ سَلِيمٍ، وَالتَّعَقُّلُ بِضَبْطِ النَّفْسِ عَنْ اتِّبَاعِ الْهَوَى، وَالتَّقَالِيدِ الْعَمِيَاءِ، بِإِرَادَةِ وَاغِيَةٍ حَازِمَةٍ، حَتَّى يَقُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَعَدَّهُ الرَّبُّ لِلْمَشْرِكِينَ.

الجولة الثالثة

المخالف: (الداعي إلى سبيل ربّه) يطرح سؤالاً حول مَنْ بيده التصرف الكامل بكلّ شيء في الوجود وله الأمر والنهي، فيقول للمشركين كما جاء في التعليم الجدليّ القرآني:

﴿مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟﴾.

أي: لِمَنْ تَسْبُونَ التَّصَرُّفَ بِمُلْكٍ شَامِلٍ لِكُلِّ شَيْءٍ فِي الْكَوْنِ، فَهِيَ الْعِزَّةُ وَالسُّلْطَانُ، وَالْعِزَّةُ وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ دُونَ مُنَازَعٍ وَلَا نَدٍّ وَلَا مُنَافِسٍ وَلَا مُشَارِكٍ؟ ﴿مَلَكُوتُ﴾ صيغة مبالغة من المُلْك الذي هو السلطان والعزة والقدرة على التصرف الكامل الشامل، ولصاحبه الأمر والنهي، نظير: رَهْبُوت من الرَّهْبَة، وَرَحْمُوت من الرحمة (وهذه صيغٌ خاصّة فيها معنى المبالغة لإفادة كمال ما تدلُّ عليه من المعاني).

﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: من استجار به فأجاره كفأه، ودفع عنه وحمأه، أمّا مَنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ سُوءاً فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ بَعْدَ اللَّهِ أَحَدًا يُجِيرُهُ فَيَكْفِيهِ أَوْ يَحْمِيهِ أَوْ يَدْفَعُ عَنْهُ.

المشركون: يتوقفون، فَلَا يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ آلِهَتَهُمُ الَّتِي اتَّخَذُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ تَمْلِكُ التَّصَرُّفَ فِي أَحْدَاثِ الْكَوْنِ وَتَذِيرَاتِهِ، أَوْ تَمْلِكُ التَّصَرُّفَ فِي بَعْضِهَا، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا ذَاتُ حُكْمٍ وَسُلْطَانٍ وَأَمْرٍ وَنَهْيٍ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ يَعْبُدُونَهَا، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهَا بِالْقَرَابِينِ.

وهنا يجد المخالف الداعي إلى الله في أقوال المشركين ما يُمسِكُ به، لِيُطَالِبَهُمُ بِالذَّلِيلِ عَلَى مَا يَدْعُونَ.

ولا يَجِدُ الْمُشْرِكُونَ أَي دَلِيلٍ صَحِيحٍ تَقْبَلُهُ الْعُقُولُ لِإِبْطَاتِ مَا يَدَّعُونَ .
وباستطاعة «الداعي إلى الله» أن يُسْقِطَ بِسُهُولَةٍ كُلِّ ذَرَائِعِهِمْ، وَأَنْ
يُحَاصِرَهُمْ بِالْأَدَلَّةِ الْبِرْهَانِيَّةِ .

فمن استطاع من المشركين أن يتخلص من خرافاته، فَإِنَّهُ بَعْدَ مُحَاصِرَتِهِ
العقلية العلمية، وبعد الوصول به إلى الاقتناع الكافي بالتوحيد الحق، فَإِنَّهُ
يقول كما جاء في التعليم: ﴿لِلَّهِ﴾ أَي: لِلَّهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الَّذِي يُجِيرُ
وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ .

وقد جاء في النص التعبير عن هذا الاعتراف في نهاية المطاف بعبارة:
﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ .

فأبان الله عز وجل أن اعترافهم هذا لا يكون تَلَقُّائِيًّا عن عقيدة جاهزة
لديهم، وإنما يقولونه بعد زَمَنِ عَبَّرَتْ عَنْهُ «السِّين» الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ
القريب .

وبين السؤال الذي طرحه «الداعي إلى الله» والاعتراف الذي يأتي
مستقبلاً مجادلةً بالتي هي أَحْسَنُ قَائِمَةٌ عَلَى أُسُسٍ عَقْلِيَّةٍ عِلْمِيَّةٍ يُثِيرُهَا «الداعي
إلى الله» العامل على إبطال عقيدة المشركين .

وحين يَصِلُ الْمُشْرِكُونَ إِلَى هَذَا الْاعْتِرَافِ يَحْسُنُ بِالْدَاعِي إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ
أَنْ يُوجِّهَ لَهُمْ بِأَسْلُوبِ الْاسْتِفْهَامِ التَّعْجِيبِيِّ فَيَقُولَ لَهُمْ كَمَا جَاءَ فِي التَّعْلِيمِ:
﴿فَأَنِّي تُسْحَرُونَ﴾ .

أَي: فَكَيْفَ تَخْضَعُونَ لِتَأْتِيرِ سِحْرِ الشَّيَاطِينِ لَكُمْ بِالْأَوْهَامِ وَالْوَسَاوِسِ
وَحِيلِ الْأَفْكَارِ الْبَاطِلَةِ، فَتَتَّبِعُونَهُمْ، فَتَعْبُدُونَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَتُؤْمِنُونَ بِأَنَّهَا
شُرَكَاءُ لِلَّهِ فِي بَعْضِ خِصَائِصِ رُبُوبِيَّتِهِ، وَحُكْمِهِ وَسُلْطَانِهِ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ
وَحْدَهُ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ الَّذِي يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ؟! .

وبعد أن استكملت هذه المحاوره الجدلية عناصرها في جولاتها الثلاث، وكان قد سبقها في مراحل التنزيل القرآني عدّة محاورات جدلية، اشتملت عليها نجوم تنزيل القرآن المجيد التي نزلت قبل هذا النص من سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) قال الله عز وجل في أواخر التعليم:

﴿ بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

أي: إن الأمر ليس كما يدعي المشركون، بل أتيناهم فيما بعثنا به الرسول محمداً بالحق، وإنهم في شركياتهم وفي ادعاءاتهم ضد الرسول وضد القرآن لكاذبون.

لكن الحق هو:

﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ ﴿١١﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٢﴾ .

أي:

١ - ﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ كما يزعم الذين كفروا.

٢ - ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ معبود بحق ولا يكون أبداً كما يزعمون، ولو كان معه إله ما، له حق الإلهية (أي: أن يُعبد من دون الله) لكان له مشاركة لله في ربوبيته، وسلطانه، وعزته في الكون، بمقتضى التلازم العقلي بين الإلهية والربوبية.

فلو كان لآلهتهم التي يعبدونها من دون الله إلهية حقيقية، لكانت مشاركة لله في ربوبيته، ولو كانت مشاركة لله في ربوبيته: ﴿ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ .

لأن هذا هو الذي سيحدث حتماً لو تعددت الآلهة الأزباب، بما لهم

من هَيْمَنَةٍ وَسُلْطَانٍ وَعِزَّةٍ فِي الْكَوْنِ، وَقُدْرَةٍ عَلَى تَنْفِيذِ مَا يُرِيدُونَ.
لَكِنَّ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَحْدُثْ، بَلِ الْكَوْنُ كُلُّهُ خَاضِعٌ لِنِظَامٍ وَاحِدٍ
وَسُلْطَانٍ وَاحِدٍ.

إِذَنْ: فَلَا رَبَّ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا سُلْطَانَ إِلَّا لِلَّهِ.

إِذَنْ: فَلَا إِلَهَ بِحَقِّ إِلَّا اللَّهُ.

وَإِنْ اتَّخَذَ آلِهَةٌ تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ يُلْزَمُ مِنْهُ اعْتِقَادُ أَنَّ هَذِهِ الْآلِهَةَ
شُرَكَاءُ لِلَّهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَقَدْ نَزَّهَ اللَّهُ عَنِ ذَلِكَ وَتَعَالَى عُلُوءًا كَبِيرًا فَقَالَ اللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ فِي آخِرِ النَّصِّ:

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١١﴾ عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿١٢﴾﴾.

أَي: تَنْزِيهَاً لِلَّهِ كَتَنْزِيهِهِ لِنَفْسِهِ عَمَّا يَصِفُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ شُرَكَاءِ اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ، هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، فَتَعَالَى وَتَرَفَّعَ وَتَسَامَى عَمَّا يُشْرِكُ بِهِ
الْمُشْرِكُونَ جَمِيعًا.

* * *

خاتمة:

تفيد التعليمات الجدلية القرآنية أنَّ على الداعي إلى سبيل ربه، أن يبدأ
بمعرفة المواقع الفكرية التي يكون عليها المدعوون، وأن يُبَيِّنَ مَا يَجِدُهُ حَقًّا،
ثُمَّ يَنْتَقِلَ إِلَى غَيْرِهِ بِالتَدْرُجِ.

وكلما ظفرَ بنقل المدعو إلى موقع جديد ثبته فيه، واعتبره موقعاً جديداً
لينتقل منه إلى غيره.

وهكذا حتَّى يَصِلَ إلى الإقناع بكلِّ عناصر الإيمان، فالإسلام.

وكذلك ينبغي أن يكون حال الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر، إذ عليه أن يبدأ بالأهمّ فالمهمّ فما دونهُ خُطوةٌ بخطوةً بالتدرّج، وهذا ما توجّبهُ السياسة الحكيمة في الدعوة إلى الله، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة
بين يدي الكتاب	٥

الباب الأول مقدمات عامات

■ الفصل الأول: الأمة الإسلامية حملة رسالة هداية وإصلاح	١٣
● بالدعوة إلى الإيمان بالله	١٣
● وبالنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... وفيه ثماني مقولات:	١٣
المقولة الأولى: تعريفات عامات «للدعوة - والتبليغ - والتذكير - والنصح - والإرشاد - والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»	١٥
المقولة الثانية: الدعوة والتبليغ	٢٢
المقولة الثالثة: الشهادة يوم الدين على الذين تلقوا البلاغ ...	٣٣
المقولة الرابعة: حكم تبليغ دين الله للناس	٤٧
المقولة الخامسة: التذكير والنصح والإرشاد	٥٠
المقولة السادسة: وظيفتا:	

الموضوع	الصفحة
● الهداية بالدعوة والتذكير والنصح والإرشاد	٦٣
● والإصلاح والحماية بالنصح والإرشاد والأمر بالمعروف	
والنهي عن المنكر	٦٣
المقولة السابعة: منزلة الدعوة إلى دين الله في سلّم الأولويات	
الجهادية	٧٧
المقولة الثامنة: أقسام الدعاة إلى الله والآخرين بالمعروف	
الناهين عن المنكر	٧٩
■ الفصل الثاني: أثر النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي	
عن المنكر في إصلاح المجتمع الإسلامي وحمايته وصيافته	٨٣
وفيه مقولتان:	
المقولة الأولى: نظرات تحليلية	٨٥
١ - ظاهرة تعاونية	٨٥
٢ - الجسدية الواحدة للمجتمع الإسلامي ومقتضياتها من	
الحماية والإصلاح	٨٨
٣ - من شروط بقاء التمكين للمؤمنين في الأرض	٨٩
٤ - حماية سفينة المجتمع الإسلامي من الغرق	٩١
٥ - ما يجب على حامل الرسالة عند أدائها	٩٤
وما يجب على من توجه له الرسالة	٩٨
المقولة الثانية: استعراض طائفة من النصوص	١٠٠
■ الفصل الثالث: نظرة عامة إلى أصناف الناس الذين توجه لهم	
وظائف الرسالة	١٠٥
١ - صنف جاهل خالي الذهن من المعرفة منفتح النفس لها،	
غير رافض عرضها عليه	١٠٧

- ٢ - صنف جاهل خالي الذهن من المعرفة إلا أنه مُغلق النفس
دونها لانصرافه للدنيا ١٠٩
- ٣ - صنف جاهل خالي الذهن من المعرفة إلا أنه مغلق النفس
دون الإسلام لأن لها عقائد سابقة مخالفة له ١١٢
- ٤ - صنف عالم بالعقائد الإسلامية مستيقن متابع إلا أنه ناقص
المعرفة وتغلبه أهواؤه وشهواته ١١٥
- ٥ - صنف عالم بأسس الإسلام وعقائده إلا أن علمه لم يقترن
باعتماد وإيمان جازم، فهو متسبب ولما يدخل الإيمان إلى قلبه ... ١١٦
- ٦ - صنف عالم مستيقن إلا أنه غافل عن مقتضيات إيمانه
مستغرق بدنيته ١١٧
- ٧ - صنف عالم مستيقن بقلبه إلا أنه جاحد في نفسه غير داع إلى
الضلال ١١٨
- ٨ - صنف عالم مستيقن بقلبه إلا أنه جاحد وشيطان مضلّ فتان
فاسد مفسد ١١٩

الباب الثاني

الصفات التي يجب أن يتحلّى بها حَمَلَةُ الرسالة

- ١٢١ وفيه ستة فصول
- الفصل الأول: وجوب تحلّي حامل الرسالة بصفة الصبر وعدم
التضجر واليأس مهما اشتدّ عليه الأذى وضعفت آثار أعماله الرشيدة .
- ١٢٣ وفيه أربع مقولات
- ١٢٥ المقولة الأولى: قيمة خلق الصبر ووجوب تحلّي حامل الرسالة به .
- المقولة الثانية: نصوص قرآنية يلاحظ فيها توجيه الأمر بالصبر
لحاملي الرسالة من أمة محمد ﷺ ١٢٨

- المقولة الثالثة: نصوص قرآنية يلاحظ فيها توجيه الأمر بالصبر
 للرسول ويلحق به حاملو رسالته من أمته ﷺ ١٤٢
- المقولة الرابعة: نماذج من سيرة الرسول ﷺ في الصبر ١٦١
- الفصل الثاني: وجوب تحلي حامل الرسالة بصفة التجرد من
 المصالح الشخصية لدى من يؤجّه لهم رسالته ١٦٣
 وفيه ثلاث مقولات:
- المقولة الأولى: نظرة تحليلية ١٦٥
- المقولة الثانية: البيانات القرآنية حول تجريد الرسل من
 المصالح الشخصية الدنيوية لدى أقوامهم ويلحق بالرسول سائر حملة
 رسالاتهم ١٦٩
- المقولة الثالثة: معاش حملة الرسالة المتفرغين لها ١٨٢
- الفصل الثالث: وجوب تحلي حامل الرسالة بمكارم الأخلاق
 ومحاسن الشيم، وبتطبيقه لما يدعو إليه ١٨٧
 وفيه مقولتان:
- المقولة الأولى: تحليل وتفصيل ١٨٩
- ١ - بيان تحليّي عام ١٨٩
- ٢ - بيان تفصيلي ١٩٢
- أولاً: أهمية البراءة من التطلع إلى ما وهب الله الناس ١٩٢
- ثانياً: أهمية البراءة من الفظاظة وغلظ القلب ١٩٦
- المقولة الثانية: أمثلة من أخلاق الرسول وسيرته العظيمة ﷺ ٢٠٤

الموضوع	الصفحة
■ الفصل الرابع: وجوب تحلي حامل الرسالة بالصفات التي ذكر الله عزّ وجلّ أنّها صفات عباد الرحمن ليكون أسوة حسنة	٢٠٩
وفيه مقولتان:	
المقولة الأولى: مقدمة تحليلية عامة مع بيان الشروط التي هي بمنزلة الأسس الأولى لكل داع وناصح	٢١١
١ - مقدمة تحليلية	٢١١
٢ - الشروط الأساسية الأولى لكلّ داع لأمر، أو ناصح به	
مرشد إليه	٢١٢
المقولة الثانية:	
١ - نظرة إجمالية إلى صفات المرشح لأن يكون إماماً للمتقين	٢١٩
٢ - نظرة تفصيلية إلى صفات المرشح لأن يكون إماماً للمتقين	٢٢١
■ الفصل الخامس: وجوب تحليّ حامل الرسالة بالأهليّة البيانية .	٢٣١
وفيه ثلاث فقرات:	
١ - وظيفة البيان في حياة الإنسان	٢٣٣
٢ - الكلام ذو وجوه كثيرة مختلفة وأساليب شتى	٢٣٦
٣ - البيان المطلوب من حامل الرسالة والصفات التي ينبغي أن يتحلّى بها	٢٤٠
■ الفصل السادس: وجوب تحلي حامل الرسالة بالأهلية العلمية .	٢٤٧
وفيه مقدمة وفقرتان:	
مقدمة	٢٤٩
١ - بيان وجوب تحقّق الأهلية العلميّة	٢٤٩
٢ - عناصر الأهلية العلميّة المطلوبة للمستوى التخصصي ..	٢٥١

الباب الثالث

قواعد ووصايا كليّة عامة

وبيان لطائفة من آفات حملة الرسالة

٢٧٥ وفيه مقدمة وفصلان
٢٧٧ مقدمة
٢٨١ ■ الفصل الأول: قواعد كليّة بوصايا لحامل الرسالة
 وفيه إحدى وخمسون قاعدة:
٢٨١ بيان القواعد دون شرح
٢٩١ شرح القواعد
٢٩١ ١ - شرح القاعدة الأولى
٢٩٢ ٢ - شرح القاعدة الثانية
٢٩٣ ٣ - شرح القاعدة الثالثة
٢٩٤ ٤ - شرح القاعدة الرابعة
٢٩٦ ٥ - شرح القاعدة الخامسة
٢٩٧ ٦ - شرح القاعدة السادسة
٣٠٢ ٧ - شرح القاعدة السابعة
٣٠٥ ٨ - شرح القاعدة الثامنة
٣١٠ ٩ - شرح القاعدة التاسعة
٣١١ ١٠ - شرح القاعدة العاشرة
٣١٣ ١١ - شرح القاعدة الحادية عشرة
٣١٥ ١٢ - شرح القاعدة الثانية عشرة
٣١٧ ١٣ - شرح القاعدة الثالثة عشرة
٣٢٠ ١٤ - شرح القاعدة الرابعة عشرة

الموضوع	الصفحة
١٥ - شرح القاعدة الخامسة عشرة	٣٢٣
١٦ - شرح القاعدة السادسة عشرة	٣٢٥
١٧ - شرح القاعدة السابعة عشرة	٣٢٦
١٨ - شرح القاعدة الثامنة عشرة	٣٢٧
١٩ - شرح القاعدة التاسعة عشرة	٣٢٨
٢٠ - شرح القاعدة العشرين	٣٤١
٢١ - شرح القاعدة الحادية والعشرين	٣٤٢
٢٢ - شرح القاعدة الثانية والعشرين	٣٤٤
٢٣ - شرح القاعدة الثالثة والعشرين	٣٤٥
٢٤ - شرح القاعدة الرابعة والعشرين	٣٤٧
٢٥ - شرح القاعدة الخامسة والعشرين	٣٤٨
٢٦ - شرح القاعدة السادسة والعشرين	٣٥٢
٢٧ - شرح القاعدة السابعة والعشرين	٣٥٤
٢٨ - شرح القاعدة الثامنة والعشرين	٣٥٥
٢٩ - شرح القاعدة التاسعة والعشرين	٣٥٨
٣٠ - شرح القاعدة الثلاثين	٣٥٩
٣١ - شرح القاعدة الحادية والثلاثين	٣٦٠
٣٢ - شرح القاعدة الثانية والثلاثين	٣٦٢
٣٣ - شرح القاعدة الثالثة والثلاثين	٣٦٤
٣٤ - شرح القاعدة الرابعة والثلاثين	٣٦٧
٣٥ - شرح القاعدة الخامسة والثلاثين	٣٧٠
٣٦ - شرح القاعدة السادسة والثلاثين	٣٧١
٣٧ - شرح القاعدة السابعة والثلاثين	٣٧٢

الصفحة	الموضوع
٣٧٤	٣٨ - شرح القاعدة الثامنة والثلاثين
٣٧٥	٣٩ - شرح القاعدة التاسعة والثلاثين
٣٧٨	٤٠ - شرح القاعدة الأربعين
٣٧٩	٤١ - شرح القاعدة الحادية والأربعين
٣٨٢	٤٢ - شرح القاعدة الثانية والأربعين
٣٨٤	٤٣ - شرح القاعدة الثالثة والأربعين
٣٨٥	٤٤ - شرح القاعدة الرابعة والأربعين
٣٨٦	٤٥ - شرح القاعدة الخامسة والأربعين
٣٨٩	٤٦ - شرح القاعدة السادسة والأربعين
٣٩١	٤٧ - شرح القاعدة السابعة والأربعين
٣٩٢	٤٨ - شرح القاعدة الثامنة والأربعين
٣٩٣	٤٩ - شرح القاعدة التاسعة والأربعين
٣٩٥	٥٠ - شرح القاعدة الخمسين
٣٩٦	٥١ - شرح القاعدة الحادية والخمسين
٣٩٧	■ الفصل الثاني: آفات حملة الرسالة
	وفيه مقدمة وبيان إحدى وعشرين آفة خطيرة:
٣٩٩	مقدمة
٤٠١	شرح الآفات الخطيرات
٤٠١	١ - شرح الآفة الأولى
٤٠٣	٢ - شرح الآفة الثانية
٤٠٣	٣ - شرح الآفة الثالثة
٤٠٤	٤ - شرح الآفة الرابعة
٤٠٥	٥ - شرح الآفة الخامسة
٤٠٦	٦ - شرح الآفة السادسة

الموضوع	الصفحة
٧ - شرح الآفة السابعة	٤٠٧
٨ - شرح الآفة الثامنة	٤٠٨
٩ - شرح الآفة التاسعة	٤١٠
١٠ - شرح الآفة العاشرة	٤١٢
١١ - شرح الآفة الحادية عشرة	٤١٣
١٢ - شرح الآفة الثانية عشرة	٤١٤
١٣ - شرح الآفة الثالثة عشرة	٤١٥
١٤ - شرح الآفة الرابعة عشرة	٤١٦
١٥ - شرح الآفة الخامسة عشرة	٤١٧
١٦ - شرح الآفة السادسة عشرة	٤١٨
١٧ - شرح الآفة السابعة عشرة	٤١٩
١٨ - شرح الآفة الثامنة عشرة	٤٢٠
١٩ - شرح الآفة التاسعة عشرة	٤٢٢
٢٠ - شرح الآفة العشرين	٤٢٣
٢١ - شرح الآفة الحادية والعشرين	٤٢٤

الباب الرابع

مناهج توصيل الرسالة وسبيلها ووسائلها وأدواتها

وفيه سبعة فصول	٤٢٥
■ الفصل الأول: التوجيه المباشر والتوجيه غير المباشر	٤٢٧
وفيه مقدمات عامات وثمانية مقولات حول وسائل التوجيه غير المباشر:	
المقدمات العامات	٤٢٩

- التعريف بالتوجيه المباشر وغير المباشر ٤٢٩
- طريق التوجيه المباشر ٤٢٩
- مواطن وأحوال التوجيه المباشر ٤٣١
- ضرر التوجيه المباشر أحياناً ٤٣٣
- طريق التوجيه غير المباشر ٤٣٤
- ميزات طريق التوجيه غير المباشر ٤٣٦
- واجب حامل الرسالة ٤٣٧

المقولة الأولى من سبل التوجيه غير المباشر:

- البيان الكلامي غير المباشر ٤٣٩
- أغراض البيان الكلامي غير المباشر ٤٤٦
- المقولة الثانية من سبل التوجيه غير المباشر: القدوة الحسنة .. ٤٥٠
- ١ - فطرة التقليد ٤٥٠
- ٢ - أسباب تأثير القدوة ٤٥٢
- ٣ - استغلال دعاة الشر ودوافع التقليد في الناس ٤٥٤
- ٤ - واجب المسلمين عموماً وحملة الرسالة خصوصاً ٤٥٦
- ٥ - أهمية التربية بالقدوة الحسنة ٤٥٩

المقولة الثالثة من سبل التوجيه غير المباشر: البيئة والرفقة

- الصالحة ٤٦٢
- ١ - مقدمة ٤٦٢
- ٢ - أسباب تأثير البيئة الاجتماعية ٤٦٢
- ٣ - تكيف الإنسان مع بيئته الاجتماعية ٤٦٥
- ٤ - واجب تهيئة البيئة الإسلامية الصالحة ٤٦٧
- ٥ - الغزو الفكري عن طريق البيئة ٤٦٩

	المقولة الرابعة من سبُل التوجيه غير المباشر: القصة النافعة
٤٧١	والمشاهد التمثيلية المفيدة
٤٧١	١ - القصة النافعة
٤٧٤	● مسؤولية حملة الرسالة بشأن القصة النافعة
٤٧٤	٢ - المشاهد التمثيلية المفيدة
	المقولة الخامسة من سبُل التوجيه غير المباشر: القراءة الحرّة
٤٧٦	وأثرها
٤٧٦	١ - سبب تأثير القراءة الحرّة
٤٧٨	٢ - استغلال المفسدين لوسيلة القراءة الحرّة
٤٧٩	٣ - واجب الأمة الإسلامية تجاه القراءة
	المقولة السادسة من سبُل التوجيه غير المباشر: الترقيم والنشيد
٤٨٣	بطريقة إسلامية شكلاً ومضموناً
٤٨٣	١ - الميول والتأثيرات الفطرية
٤٨٥	٢ - استغلال المفسدين للأغاني والموسيقى
٤٨٦	٣ - موقف الإسلام من استخدام هذا السبيل
	المقولة السابعة من سبُل التوجيه غير المباشر: إدخال البيان
٤٩٣	الإسلامي ضمن العلوم المختلفة عند المناسبات الملائمات
٤٩٣	١ - المطلوب في الفرص المتاحة
٤٩٣	٢ - انتهاز المناسبات التي تُتاح في مختلف العلوم
٤٩٦	٣ - استغلال المفسدين للعلوم والآداب والفنون
	المقولة الثامنة من سبُل التوجيه غير المباشر: البثُّ العرضيُّ
٤٩٩	المفيدُ عند المناسبات الملائمات
٤٩٩	١ - التعريف

الصفحة	الموضوع
٥٠٠	٢ - المطلوب من حملة الرسالة تجاه هذا السبيل
٥٠١	٣ - استغلال المفسدين سبيل البث العرضي
٥٠٣	■ الفصل الثاني: العقبات الصّادّات للتوجيه وأساليب معالجتها ..
٥٠٣	وفيه مقدمة وخمس عشرة مقولة منقسمة إلى ثلاثة أقسام:
	القسم الأول: عقبات تكون أسبابها من حملة الرسالة، وفيه
٥٠٣	ستُّ عقبات
	القسم الثاني: عقبات تكون أسبابها ممّن توجّه لهم الرسالة،
٥٠٤	وفيه ست عقبات
	القسم الثالث: عقبات تكون أسبابها في الوسط بين موجّه
٥٠٤	الرسالة وبين من توجّه له، وفيه ثلاث عقبات
٥٠٥	مقدمة: نظرة عامة
	شرح عقبات القسم الأول: وهي العقبات التي تكون أسبابها من
	حملة الرسالة وهي ست عقبات.
٥٠٧	المقولة الأولى من العقبات الصّادّات:
٥٠٧	(١) عقبة المصلحة الشخصية الدنيوية لدى حامل الرسالة ...
٥٠٩	موقف التربية الإسلامية
	المقولة الثانية من العقبات الصّادّات:
٥١٠	(٢) عقبة كِبُر حامل الرسالة وعُجْبِهِ بنفسه
٥١٠	١ - الكبر والعجب بالنفس من أقبح الصفات المنفرة ...
٥١١	٢ - واجب حملة الرسالة
٥١٣	٣ - الترغيب في التواضع والتحذير من الكبر
	المقولة الثالثة من العقبات الصّادّات:
٥١٧	٣ - عقبة ما في حامل الرسالة من قبائح منفرّة للحواس
٥١٨	● المطلوب من حامل الرسالة

الصفحة	الموضوع
٥١٩	● بدعة التبذّل والرّثاءة المقولة الرابعة من العقبات الصادّات :
٥٢٠	(٤) عقبة سوء خلق حامل الرسالة المقولة الخامسة من العقبات الصادّات :
	(٥) عقبة كَوْن حامل الرسالة غيرَ موثوقٍ به وغير محترم
٥٢٢	من قِبَلٍ من يُؤدّي بينهم رسالته
٥٢٢	١ - شرح العقبة
٥٢٣	٢ - الصفات التي تكتسب بها ثقة الناس واحترامهم
٥٢٣	٣ - حكمة الله في اصطفاء رُسُلِهِ
	٤ - المطلوب من حامل الرسالة الذي لم يكتسب بَعْدُ الثقة
٥٢٤	والاحترام..... المقولة السادسة من العقبات الصادّات :
٥٢٦	(٦) عقبة كراهية شخص حامل الرسالة
٥٢٦	١ - شرح هذه العقبة
٥٢٧	٢ - وسائل معالجة عقبة كراهية شخص حامل الرسالة ...
	شرح عقبات القسم الثاني: وهي العقبات التي تكون أسبابها من حملة الرسالة وهي ست عقبات :
	المقولة السابعة من العقبات الصادّات :
٥٢٩	(١) عقبة كبر من توجّه له الرسالة وعجبه بنفسه
٥٢٩	١ - مقدمة
	٢ - وسائل تفادي عقبة الكبر والعجب بالنفس لدى من
٥٣٠	تُوجّه له الرسالة
٥٣٢	٣ - التربية على فضائل الأخلاق

المقولة الثامنة من العقبات الصادات:

(٢) عقبة شعور من توجه له الرسالة بالحرمان من حرية

التفكير أو حرية العمل ٥٣٣

١ - حرية الإرادة إحدى عناصر الفطرة الإنسانية ٥٣٣

٢ - المنهج الرباني لتحاشي هذه العقبة ٥٣٥

٣ - النصوص القرآنية حول الحرية المقترنة بالتكليف

والمستتعبة بالمسؤولية والحساب والجزاء ٥٣٦

المقولة التاسعة من العقبات الصادات:

(٣) عقبة سوابق الأفكار والمفاهيم والمعتقدات والعادات

١ - البيان التحليلي ٥٥٣

السبب النفسي لهذه العقبة ٥٥٣

٢ - طائفة من أساليب اجتياز هذه العقبة ٥٥٥

المقولة العاشرة من العقبات الصادات:

(٤) عقبة التقليد الأعمى ٥٥٨

١ - مرض التعصب الذميمة يتولد منه مرض التقليد الأعمى

٢ - بيانات قرآنية حول التقليد الأعمى ٥٦٢

٣ - وسائل علاج التقليد الأعمى ٥٧٠

المقولة الحادية عشرة من العقبات الصادات:

(٥) عقبة الحسد ٥٧٤

١ - تأثير داء الحسد في النفس والسلوك ٥٧٤

٢ - وسائل تحطّي أو تحاشي عقبة داء الحسد ٥٧٦

المقولة الثانية عشرة من العقبات الصادات:

(٦) عقبة الأهواء والشهوات من متاع الحياة الدنيا ٥٧٨

الصفحة	الموضوع
٥٧٨	١ - شرح هذه العقبة
٥٧٩	٢ - وسائل معالجة عقبة الأهواء والشهوات
٥٨١	شرح عقبات القسم الثالث: وهي العقبات التي تكون أسبابها في الوسط بين حامل الرسالة ومن توجه له وهي ثلاث عقبات
	المقولة الثالثة عشرة من العقبات الصادات:
٥٨١	(١) عقبة الوسائوس والتسويولات الشيطانية
٥٨١	١ - شرح هذه العقبة
٥٨١	٢ - وسائل معالجة مكاييد الشيطان للإضلال والإغواء
	المقولة الرابعة عشرة من العقبات الصادات:
٥٩٦	(٢) عقبة أعمال المضلين وجنود الغزو الفكري المفسدين ..
٥٩٦	١ - شرح هذه العقبة
٥٩٩	٢ - وسائل معالجة هذه العقبة
	المقولة الخامسة عشرة من العقبات الصادات:
٦٠١	(٣) عقبة عدم توافر وسائل الاتصال الإعلامي المؤثر
	■ الفصل الثالث: المنهاج البياني ومسالكه «الحكمة - والموعظة الحسنه - والجدال بالتي هي أحسن»
٦٠٥	وفيه خمس فقرات:
٦٠٧	الفقرة الأولى: نظرة إجمالية إلى مسالك منهاج الدعوة البيانية .
٦٠٧	١ - تعريف عامّ بالمسالك
٦١٠	٢ - منافع الحكمة في الدعوة إلى سبيل الله
٦١٢	٣ - البيان القرآني بالنسبة إلى المسالك الثلاثة
٦١٣	٤ - الأركان الداخلية للنفس الإنسانية والمؤثرات فيها
٦١٧	٥ - حكمة حامل الرسالة في هذا المجال

الصفحة	الموضوع
٦١٩	الفقرة الثانية: شرح مسلك الحكمة وبيان لبعض عناصرها . . .
٦٢٠	● طائفة من عناصر الحكمة في البيان الدعوي
٦٢٠	١ - القول اللين
٦٢٠	٢ - مراعاة المنزلة الاجتماعية لمن تُوجّه له الرسالة
٦٢٢	٣ - البيان المقرون بالبرهان أو بالحجة الصحيحة المقبولة .
	٤ - البيان المقرون بالدليل على أفضلية ما جاء في الدين
٦٢٣	على غيره من الاحتمالات الممكنة
٦٢٤	٥ - البدء بجذور القضايا والانتقال منها إلى الفروع شيئاً فشيئاً .
٦٢٧	٦ - مراعاة المستوى الفكري لدى من تُوجّه له الرسالة . . .
٦٢٧	٧ - مراعاة المستوى العلمي لدى من تُوجّه له الرسالة . . .
	٨ - مراعاة الجوانب العاطفية التي تقتضيها الصّلات
٦٢٨	والعلاقات الاجتماعية
٦٢٩	٩ - مراعاة الحالة النفسية لدى من تُوجّه له الرسالة
٦٣١	الفقرة الثالثة: شرح مسلك الموعظة الحسنة وبيان لعناصرها . .
٦٣٢	● بيان تحليلي لمحاوّر النفس
٦٣٤	● وسائل الترغيب والترهيب البيانية
٦٣٥	● فطرة النفس تجاه المطامع والمخاوف
٦٣٦	الفقرة الرابعة: شرح مسلك الجدل بالتي هي أحسن
٦٣٦	١ - بيان عام
٦٣٧	٢ - الجدل بالتي هي أحسن هو من وسائل الدعوة إلى سبيل الله
٦٣٩	٣ - قواعد عامة للجدل بالتي هي أحسن
٦٤٩	الفقرة الخامسة: نماذج من تعليمات جدلية قرآنية
٦٦٣	خاتمة حول ما تفيدته التعليمات الجدلية القرآنية